

تفسير القرآن الكريم

لعموم المسلمين

تأليف

أبي عبد الله مصطفى بن عبد الوهي

سورة البقرة
والآيات

مكتبة مكة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

حقوق الطبع محفوظة

الطبعة الأولى

١٤٤١هـ - ٢٠٢٠م

رقم الإيداع: ٢٧٨٥١/٢٠١٩

مكتبة مكة

طنطا: ١٠ ش طه الحكيم - أمام استوديو فينوس

ت: ٠٤٠٣٣٥٦٦٩٦

محمول: ٠١٢٢٣٤٨٩٨٥٣

تَفْسِيرُ الرَّبَّانِيِّينَ

لِجَمُوعِ الْمُسْلِمِينَ

تَأَلَّفَ

أَبِي عَبْدِ اللَّهِ مُصْطَفَى بْنُ أَبِي إِدْرِيسَ

سُورَةُ الْبَقَرَةِ

مَكْتَبَةُ مَكَّةَ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

المقتطف

الحمد لله الذي أنزل على عبده الكتاب ولم يجعل له عوجاً، وتبارك الذي نزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيراً، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير، خلق السموات والأرض بالحق وجعل الظلمات والنور، ولم يخلق خلقه عبثاً ولا باطلاً ولن يتركهم سُدىً، بل أرسل إليهم رسلاً، وأنزل على الرسل كتباً ليخرج بها العباد من الظلمات إلى النور. وكما قال تعالى: ﴿قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ ۝ يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ۝﴾ [المائدة: ١٥-١٦].

وأشهد أن محمداً عبد الله ورسوله صلوات الله وسلامه عليه وعلى آله، أرسله الله عز وجل بالهدى ودين الحق بين يدي الساعة بشيراً ونذيراً فأدى الأمانة حق الأداء وبلغ الرسالة حق البلاغ، فجزاه الله عنا خير ما جازى نبياً عن أمته ورسولاً عن دعوته ورسالته.

وبعد:

فقد أخبر الله عز وجل الأبوين الكريمين (آدم وحواء) عليهما السلام لما أهبطا من الجنة إلى الأرض بأنه سينزل عليهما وعلى بعض ذريتهما ما يهتدون به ولا يضلون، ويسعدون به ولا يشقون، فقال تعالى: ﴿فَأَمَّا يَا أَيُّهَا النَّاسُ فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى ۝ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكاً ۝﴾ [طه: ١٢٣-١٢٤]، ثم، وإن الله عز وجل أرسل رسلاً وأنزل عليهم كتباً كما وعد، كالصحف التي أنزلت على إبراهيم وموسى عليهما السلام، وكما قال تعالى: ﴿قُلْ ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَالنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ﴾ [آل عمران: ٨٤]، فأنزل التوراة على موسى وكذا الألواح أيضاً، وأنزل الزبور على داود عليه السلام، وأنزل الإنجيل على

عيسى عليه السلام، ثم أنزل خير كتاب وهو القرآن الكريم نزل به خير ملك وهو جبريل عليه السلام على خير رسول وهو رسول الله ﷺ، في خير أمة أخرجت للناس، وفي أفضل البقاع وخير القرون.

وجعل الله هذا القرآن الكريم مهيمناً على الكتب التي قبله وجعل المرد إليه عند أي نزاع وفي أي اختلاف وكيف لا؟! وهو كلام الله الخلاق العليم الخبير قال تعالى: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ (١٤) ﴿[الملك: ١٤].

وقد وصف الله عز وجل هذا القرآن الكريم بأحسن الأوصاف وأجمل الأوصاف.

وصفه الله بأنه كتاب كريم، وقرآن كريم، وقرآن حكيم ووصفه بأنه مجيد، وعزيز، وأنه أحسن الحديث، وبين ربنا أنه كلام الله إذ قال: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلِمَ اللَّهِ﴾ [التوبة: ٦]، ومما وصف به هذا القرآن أنه مبارك قال تعالى: ﴿وَهَذَا ذِكْرٌ مُبَارَكٌ أَنْزَلْنَاهُ﴾ [الأنبياء: ٥٠]، وقال تعالى: ﴿كَتَبْنَا أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ﴾ [ص: ٢٩]، وقال تعالى: ﴿وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ فَاتَّبِعُوهُ وَاتَّقُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ (١٥٥) ﴿[الأنعام: ١٥٥].

ومن معاني المبارك كثير المنافع وعظيم النفع.

فكلما اقتربت من هذا القرآن وآمنت به انتفعت غاية النفع في الدنيا والآخرة. إذا آمنت به وعملت به سعدت في الدنيا والآخرة، أمنت من عذاب الله وسلمت من عقابه وناره وفزت بجنته، واهتديت ولم تضل وحييت به في دنياك حياة طيبة. إذا تلوته تثاب وتؤجر، وإذا استمعت له وأنصت تثاب وترحم، وإذا تدبرته وتفهمته ترتفع درجاتك، وإذا درسته أو درسته وتعلمته كنت من الربانيين قال تعالى: ﴿وَلَكِنْ كُونُوا رَبَّانِيِّينَ بِمَا كُنْتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنْتُمْ تَدْرُسُونَ﴾ (٧٩) ﴿.

[آل عمران: ٧٩]

وقال ﷺ: «خيركم من تعلم القرآن وعلمه»، إذا عملت به تسلم وتغنم، وإذا دعوت إليه تؤجر وتسعد وتحفظ، إنه شفيح لأصحابه، إنه نور وبرهان، فأنت في خير دائماً وبركة ونفع ما دمت مع هذا القرآن.

هذا ولأمر الله عز وجل لنا بتدبر هذا الكتاب العزيز إذ قال: ﴿كَتَبْنَا أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ﴾ [ص: ٢٩]، وقال: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾ [محمد: ٢٤]، وكذا لقول رسول الله ﷺ: «الدين النصيحة» قالوا: لمن يا رسول الله؟ قال: «لله ولكتابه ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم».

وقبل ذلك رجاء ثواب الله عز وجل وامتنالاً لأمره والتماساً لشفاعة هذا الكتاب العزيز يوم لقاء الله، ثم لمعرفة ما أمرني الله به وما نهاني عنه وما أخبرنا به وما دعانا إليه ورغبنا فيه وما حذرنا منه.

ورغبة في نفع المسلمين والمسلمات لحبي الخير لي ولهم ورغبة في اللحاق بالربانيين والالتحاق بهم ونيل درجاتهم وكذا في الخيرية التي ذكرها النبي ﷺ إذ قال: «خيركم من تعلم القرآن وعلمه».

فلهذا الذي ذكر ولغيره كتبت هذا التفسير ووسمته بـ **(تفسير الربانيين)** بعد توفيق من الله عز وجل لدراسة التفسير زمناً طويلاً والحمد لله على توفيقه وإحسانه وفضله وامتنانه، فقد وفقني الله عز وجل - وله النعمة وله الفضل - لدراسة التفسير وتدارسه وتدرسه زمناً طويلاً، ووفقني الله عز وجل للكتابة في ذلك وكان من ثمرات هذا الجهد من فضل الله أن خرج منه ما يلي من التفاسير وما يتعلق بها:

١- التسهيل لتأويل التنزيل، وموضوعه تفسير القرآن في سؤال وجواب وعدد مجلداته (٣١) واحد وثلاثون مجلداً وقد طبع في دار مكة للنشر والتوزيع بطنطا.

٢- تحقيق تفسير ابن كثير رحمه الله، وقد طبعته دار ابن رجب ودار الفوائد للنشر والتوزيع.

٣- صحيح تفسير ابن كثير، ومختصر صحيح تفسير ابن كثير.

٤- تحقيق تفسير المعوذتين لابن القيم رحمه الله.

٥- مراجعة عددٍ من أمهات التفاسير لفريق من المحققين.

أسأل الله أن ييسر طبعها عن قريب.

ومن ذلك تفسير القرطبي وهو (الجامع لأحكام القرآن الكريم).

وتفسير فتح القدير للشوكاني.

- ٦- ما زال العمل جارياً في تحقيق تفسير الطبري رحمه الله.
- ٧- صدر لي، والله الحمد - كتاب أصول التفسير وقواعده طبعته دار مكة للنشر والتوزيع.
- ٨- صدر كذلك لي كتاب الناسخ والمنسوخ من القرآن الكريم.
- ٩- تم كذلك طبع كتاب قصص الأنبياء من تألّفي والله الحمد - في ستة مجلدات.

١٠- رسائل في آيات متفرقة كرسالة في قوله تعالى: ﴿أَلَا يَذْكُرُ اللَّهُ تَطْمِئِنُّ الْقُلُوبُ﴾ [الرعد: ٢٨] وفي قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ يُضَعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ وتأملات في آيات الصيام وغير ذلك مراجعة عدد كبير من تفاسير إخواني طلبة العلم وتحقيقاتهم.

وثمّ كتب آخر كثيرة أخرجتها في هذا الصدد، والله الحمد. وشاهدي من ذلك أن أقول إن هذا الكتاب الذي بين أيدينا الآن، وهو «تفسير الربانيين لعموم المسلمين» جاء بعد جهدٍ كبير في التفسير من ناحية الكتابة وكذا جهدٍ كبير، والله الحمد في تفسير القرآن الكريم كاملاً في محاضرات ودروس دورية، وقد انتهيت منه مراراً والله الحمد، وهو موجود كاملاً صوتاً وصورة على مواقع التواصل، والفضل لله وحده في كل ذلك فله النعمة، وله الفضل وله الثناء الحسن، وما ذكرت الذي ذكرت إلا تذكيراً بفضل الله واعتراًفاً بذلك ثم رجاء انتفاع إخواني المسلمين والأخوات المسلمات بهذه الكتب.

أما عن كتابي الذي بين يدي، وهو تفسير الربانيين فقد صنعته - بتوفيق من الله - للفتة المقتصدة المتوسطة في طلب العلم، وقد اقتبست كثيراً منه من كتابي التسهيل لتأويل التنزيل الذي أشرت إليه آنفاً.

وقد راعيت في الكتاب صحة المادة الحديثية وسلامتها مع تخريج مقتصد للأحاديث والآثار مع الحكم عليها.

وراعيت السير في هذا التفسير على نهج أهل السنة والجماعة المتمثل في تفسير

القرآن بالقرآن وبسنة رسول الله ﷺ، ثم بأقوال السلف الصالح وما تقتضيه لغة العرب مع الاقتباس من تفاسير أئمتنا أهل السنة والجماعة كتفسير الطبري رحمه الله وتفسير الحافظ ابن كثير رحمة الله تعالى عليه وغيرهما.

وقد توسطت في هذا التفسير فلم أتجه إلى الإطالة المملة ولا إلى الاختصار المُخل وذلك مراعاةً للطبقة المقتصدة التي أقصدها بهذا التفسير.

هذا، وقد ذكرت في هذا التفسير المبارك فوائد يسر الله ذكرها، عرضت لي تلك الفوائد من تدارس العلوم الشرعية الأخرى كالحديث والفقه، فترى فوائد فقهية وحديثية في مواطنها من هذا التفسير بما يخدم موضوع الآيات المباركات.

أيضاً أوردت مباحث عقدية عند الآيات التي تحتاج إلى إظهار منهج أهل السنة والجماعة في النواحي العقدية.

وقد قمت في هذا التفسير بما قد يحتاج إلى تنفيذ لبعض أقوال أهل البدع المخالفين لأهل السنة والجماعة وذلك بإيراد بعض الشبه التي تعلقوا بها ومن ثمّ تنفيذها.

هذا، وقد ذكرت المراجع التي استفدت منها لكتابي التسهيل لتأويل التنزيل، ومن ثمّ فهي أيضاً التي استفدت منها لكتابي هذا **(تفسير الربانيين لعموم المسلمين)**، ذكرت هذه المراجع. في نهاية تفسيري لسورة البقرة من كتاب التسهيل لتأويل التنزيل، ومنها تفسير الطبري وتفسير عبد الرزاق الصنعاني، وتفسير سفيان الثوري، وتفسير ابن أبي حاتم وتفسير سعيد بن منصور، ومعاني القرآن للفراء، وكذا للزجاج، وأحكام القرآن لابن العربي، وتفسير القرطبي وابن كثير، وزاد المسير لابن الجوزي... وغير ذلك كثير وكثير من المراجع وقد ذكرت ذلك بتفصيل في آخر سورة البقرة من كتاب التسهيل.

هذا، وقد دفعت بأجزاء من كتابي هذا تفسير الربانيين - إلى أخي إبراهيم بن محمد جاد حفظه الله صاحب دار مكة للنشر والتوزيع بطنطا فطبع منه مجلداً كبيراً يحوي تفسير الأجزاء الثلاثة **(عم وبارك وقد سمع)** ودفعت إليه أجزاء أخرى والتي منها ما في هذا المجلد **(تفسير البقرة وآل عمران)**.

أسأل الله أن يُيسر خروجه على الوجه الذي يرضى به عنا.

وأن ينفعني به والإسلام والمسلمين.

هذا، وأشكر الله وأحمده وأثنى عليه فله النعمة وله الفضل وله الثناء الحسن على نعمه التي لا يحصيها إلا هو سبحانه وصدق الله إذ قال: ﴿ وَمَا يَكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ ﴾ [النحل: ٥٣].

فالحمد لله حمداً كثيراً طيباً مباركاً فيه ملء السموات وملء الأرض وملء ما بينهما وملء ما شاء من شيء بعد.

ثم أشكر أخي الشيخ إبراهيم جاد صاحب مكتبة مكة لسعيه لطبع هذا الكتاب واجتهاده في نشره، وأسأل الله أن يعينه.

وأن يبارك فيه فقد علمته حريصاً على نشر الكتب النافعة مدققاً فيما ينشره زاده الله إيماناً وتوفيقاً.

هذا، وفي هذا المقام لا يفوتني - بعد شكري لله عز وجل - أن أصلى على نبيي محمد ﷺ امتثالاً لأمر الله عز وجل وإقرار بفضل هذا الرسول الأمين والنبي الكريم فصلوات ربي وسلامه عليه أفضل صلاة وأتم تسليم وآل بيته وأصحابه، وسلام على المرسلين والحمد لله رب العالمين.

وفي الختام أسأل الله أن يتقبل منا هذا العمل بقبول حسن وأن يجعله حجة لنا يوم نلقاه، وأن يتجاوز عن الهفوات والزلات، فما كان في هذا الكتاب من توفيق وإصابة وسداد فمن الله وحده، فله النعمة وله الفضل وله الثناء الحسن، وما كان فيه من زلل أو شطط فمن نفسي ومن الشيطان وأستغفر الله، وأعوذ بالله من أن أقترف على نفسي سوءاً أو أجره إلى مسلم، وأعوذ بعفو الله من عقوبته، وأعوذ برضاه من سخطه، وأعوذ بك يا ربي منك فأنت أرحم الراحمين.

هذا، وصلّ اللهم على نبينا محمد وآله وسلم، والحمد لله رب العالمين.

كتبه

أبو عبد الله / مصطفى بن العدوي

مصر - الدقهلية - منية سمونود

سُورَةُ الْفَاتِحَةِ

تُسَمَّى أَيْضًا أُمُّ الْكِتَابِ، وَأُمُّ الْقُرْآنِ، وَالْحَمْدُ وَلَهَا أَسْمَاءُ أُخَرُ.

فَضْلُهَا

هِيَ أَعْظَمُ سُورَةٍ فِي الْقُرْآنِ، فَقَدْ قَالَ النَّبِيُّ ﷺ لِأَبِي سَعِيدِ بْنِ الْمَعْلَى: «لَأُعَلِّمَنَّكَ أَعْظَمَ سُورَةٍ فِي الْقُرْآنِ» وَأَخْبَرَهُ بِأَنَّهَا الْفَاتِحَةُ، وَقَالَ أَيْضًا: «هِيَ السَّبْعُ الْمَثَانِي، وَالْقُرْآنُ الْعَظِيمُ الَّذِي أُوتِيَتْهُ»^(١).

نَزَلَ بِهَا مَلَكٌ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ لَهُ: «أَبَشِّرْ بُنُورَيْنِ أُوتِيَتْهُمَا لَمْ يُؤْتِيَتْهُمَا نَبِيٌّ قَبْلَكَ: فَاتِحَةُ الْكِتَابِ، وَخَوَاتِيمُ سُورَةِ الْبَقَرَةِ، لَنْ تَقْرَأَ بِحَرْفٍ مِنْهُمَا إِلَّا أُوتِيَتْهُ»^(٢).
رُقِّيَ بِهَا اللَّدِيغُ فَشَفَاهُ اللَّهُ^(٣).

وَقَالَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: « لَا صَلَاةَ لِمَنْ لَمْ يَقْرَأْ بِفَاتِحَةِ الْكِتَابِ »^(٤).

وَفِي الْحَدِيثِ الْقُدْسِيِّ^(٥)، قَالَ تَعَالَى: «قَسَمْتُ الصَّلَاةَ بَيْنِي وَبَيْنَ عَبْدِي نِصْفَيْنِ، وَلِعَبْدِي مَا سَأَلَ، فَإِذَا قَالَ الْعَبْدُ: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: حَمْدُنِي عَبْدِي، وَإِذَا قَالَ: ﴿الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: أَثْنَى عَلَيَّ عَبْدِي، وَإِذَا قَالَ: ﴿مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾، قَالَ: مَجَّدَنِي عَبْدِي - وَقَالَ مَرَّةً: فَوَضَّ إِلَيَّ عَبْدِي - فَإِذَا قَالَ: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ قَالَ: هَذَا بَيْنِي وَبَيْنَ عَبْدِي، وَلِعَبْدِي مَا سَأَلَ، فَإِذَا قَالَ: ﴿أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾^(٦) صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ قَالَ: هَذَا لِعَبْدِي وَلِعَبْدِي مَا سَأَلَ».

(١) رواه البخاري (٤٦٤٧).

(٢) رواه مسلم (٩١ / ٦) مع النووي.

(٣) رواه البخاري (٥٠٠٧)، ومسلم (١٨٧ / ١٤).

(٤) البخاري (٧٥٦)، ومسلم (١٠٠ / ٤).

(٥) رواه مسلم (مع النووي ١٠١ / ٤ - ١٠٢).

تفسيرها وإيضاح معانيها

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴿١﴾

﴿٢﴾ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٣﴾ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ

﴿٤﴾ مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ ﴿٥﴾ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ

﴿٦﴾ أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ﴿٧﴾ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ

عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ ﴿٨﴾

﴿بِسْمِ اللَّهِ﴾ أفتح قراءتي مبتدأ باسم الله مُستعيناً بالله متبركاً.

﴿اللَّهُ﴾ هذا اسم ربنا لم يتسم به غيره، ثُمَّ إنه يُوصف بجميع الصفات فنقول: ﴿هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلِيمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ ﴿٢٣﴾ هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ...﴾، ونقول: ﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى...﴾.

﴿الرَّحْمَنُ﴾ اسم من أسماء الله لا يتسمى به غيره، وهو رحمن، يرحم جميع خلقه، ومن المشركين من كان ينكر هذا الاسم، ويقول: ﴿وَمَا الرَّحْمَنُ أَنْسَجِدُ لِمَا تَأْمُرُنَا﴾، ومنهم من كان يشبهه ويقول: ﴿وَمَا أَنْزَلَ الرَّحْمَنُ مِنْ شَيْءٍ﴾.

﴿الرَّحِيمِ﴾ أي بالمؤمنين، كما قال: ﴿وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا﴾.

و﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ تسمى (البسملة) وللعلماء قولان هل هي آية من الفاتحة أم لا؛ وكذا لهم قولان: هل يُجهر بها في الصلاة أم لا، وبأى القولين أخذت فلا جناح عليك.

والتسمية ﴿بِسْمِ اللَّهِ﴾ تُشرع عند بدايات الأعمال فتُشرع عند الطعام والشراب

وعند الذبح وعند الرمي بالقوس والسهم وفي الصباح والمساء وعند دخول البيت، وإغلاق الأبواب، وعند الرقية، وعلى الوضوء وعند الجماع وعند الركوب وعند وضع الميت في القبر وفي صدور الرسائل، وعند أوائل السور وغير ذلك.

﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ هذا ثناء على الله وشكر له في السراء والضراء، فهو المحمود على كل حال، والحمد والشكر يتفقان في أنهما ثناء على الله ﷻ، لكن الشكر يكون على إحسان سبق ويكون بالقلب واللسان والأركان، والحمد يكون على كل حال ويكون بالقول.

والحمد لله يثني بها ربنا على نفسه، ونثني نحن بها عليه، ولنا بكلمة ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ صدقة.

أما ﴿رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ فالرب بمعنى السيد، ومنه ﴿أَذْكُرْنِي عِنْدَ رَبِّكَ﴾، والرب، المالك، ومنه رب البيت، والرب يطلق على المصلح والمربي، ومنه: ﴿وَرَبِّبْكُمْ أَلَّتِي فِي حُجُورِكُمْ﴾، ويُطلق على المعبود، ولها معان أخر فالله سبحانه وتعالى سيد الخلق ومالكهم ومصلحهم ومربيهم وهم له عبيد.

و﴿الْعَالَمِينَ﴾ جمع عالم، والمراد كل موجود سوى الله ﷻ، وأحياناً تطلق على السموات والأرض وما بينهما ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ ٢٣ قَالَ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِن كُنْتُمْ مُوقِنِينَ ﴿ وتطلق أحياناً على الجن والإنس، ومنه: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا﴾. وتطلق أحياناً على البشر ﴿أَتَأْتُونَ الذُّكْرَانَ مِنَ الْعَالَمِينَ﴾.

أما ﴿الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ تكرر ذكرها كما قال بعض العلماء؛ لأنها تحمل ترغيباً بعد ترهيب، فالحمد لله رب العالمين فيها شيء من الترهيب.

﴿مَلِكٍ يَوْمَ الدِّينِ﴾ فيها قراءتان ﴿ملك﴾، و﴿مالك﴾، ويوم الدين أي يوم الجزاء والحساب والثواب والعقاب، والمراد يوم القيامة.

والله مالك الدنيا والآخرة، ولكن لما كان في الدنيا من يُنازع ويقول عن نفسه ملك، إلا أن الآخرة انتفى فيها هذا فلا يدعى أحداً يومها أنه ملك، وقيل: ملك يوم

الدين لتحويله ولتعظيمه وتشريفه.

﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ أي: لا نعبد إلا إياك، أي لا نعبد أحدا سواك، ولا نستعين إلا بك، ولا نطلب العون إلا منك، فلا قوة لنا على شيء إلا بك.

وبعد هذا الثناء على الله وتمجيده وإفراده بالعبادة والاستعانة به وحده نسأله ما نريد، وأعظم مراد لنا أن يهدينا ربنا، فنقول: ﴿أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ أي دُلنا على الطريق المستقيم الذي لا اعوجاج فيه، ووفقنا لسلوكه والثبات عليه، وفقنا يا ربنا لسلوك ﴿صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ الذين تفضلت عليهم وأكرمتهم بطاعتك وعموم نعمك ﴿مَنْ النَّبِيِّنَ وَالصَّادِقِينَ وَالشُّهَدَاءَ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا﴾.

﴿غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ﴾، أي ولا ترشدنا إلى طريق المغضوب عليهم ولا إلى طريق الضالين، والمغضوب عليهم: هم اليهود، والضالون: هم النصارى كذا فسرهما النبي ﷺ^(١).

ووصف اليهود بأنهم (مغضوب عليهم) لكونهم عرفوا الحق وجحدوه وأنكروه، ووصف النصارى بالضالين لكونهم يعبدون بجهل ويسلكون ما يُباعدهم عن طريق الله سبحانه وتعالى، وإن كان الكل ضلال ومغضوب عليهم.

(آمين) اللهم استجب، فبعد هذا الدعاء سألنا الله الإجابة، وقد كان النبي ﷺ يمد صوته بآمين^(٢)، وفي الحديث: «مَا حَسَدْتُكُمْ الْيَهُودَ عَلَى شَيْءٍ، مَا حَسَدْتُكُمْ عَلَى التَّائِمِينَ وَالسَّلَامِ»^(٣)، وقال عليه الصلاة والسلام: «وَإِذَا قَالَ: ﴿غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ﴾ فَقُولُوا: آمِينَ، فَمَنْ وَافَقَ قَوْلُهُ قَوْلَ الْمَلَائِكَةِ غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ»^(٤)، فيُستحب إذن - في الجماعة - الجهر بآمين.



(١) صحيح بشواهد: أحمد (٣٧٨/٤)، والترمذي (٢٩٥٣).

(٢) الترمذي (٢٤٨) بإسناد صحيح.

(٣) ابن ماجه (٨٥٦) بإسناد حسن.

(٤) البخاري (١٥٩/٨).

سُورَةُ الْبَقَرَةِ

شيء من فضل هذه السورة المباركة

* ورد في فضلها قول رسول الله ﷺ: «لَا تَجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ مَقَابِرَ إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنْفِرُ مِنَ الْبَيْتِ الَّذِي تُقْرَأُ فِيهِ سُورَةُ الْبَقَرَةِ»^(١).

* وورد في فضلها أيضًا قول النبي ﷺ: «اقْرَأُوا الْقُرْآنَ فَإِنَّهُ يَأْتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ شَفِيعًا لِأَصْحَابِهِ اقْرَأُوا الزَّهْرَ أَوْ زَيْنَ الْبَقَرَةِ وَسُورَةَ آلِ عِمْرَانَ فَإِنَّهُمَا تَأْتِيَانِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَأَنَّهُمَا غَمَامَتَانِ أَوْ كَأَنَّهُمَا غَيَاتَانِ أَوْ كَأَنَّهُمَا فِرْقَانِ مِنْ طَيْرٍ صَوَافٍ تُحَاجَّانِ عَنْ أَصْحَابِهِمَا اقْرَأُوا سُورَةَ الْبَقَرَةِ فَإِنَّ أَخْذَهَا بَرَكَةٌ وَتَرْكُهَا حَسْرَةٌ وَلَا تَسْتَطِيعُهَا الْبَطْلَةُ»^(٢).



(١) صحيح، أخرجه مسلم في صحيحه (حديث ٧٨٠).

(٢) صحيح، أخرجه مسلم في صحيحه (حديث ٨٠٤).

(٣) البطلة هم السحرة.

مطلع السورة المباركة

وفيه ذكر المتقين وبيان بعض صفاتهم وأعمالهم

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿الْم ١﴾ ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٢﴾ الَّذِينَ
يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ ﴿٣﴾ وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا
أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴿٤﴾ أُولَٰئِكَ عَلَىٰ هُدًى
مِّن رَّبِّهِمْ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٥﴾

قوله تعالى: ﴿الْم﴾.

ألف لام ميم حروف مقطعة بدئت بها بعض سور الكتاب العزيز ولم يرد في تفسيرها فيما اطلعت عليه شيءٌ صحيح عن رسول الله ﷺ فمن ثمَّ من العلماء من قال: نتركها بلا تأويل ونكل العلم بها إلى الله سبحانه وتعالى، ومن العلماء من قال: نلتمس لها تفسيراً لكونها قرآن، وقد أمرنا بتدبر القرآن، ثم إن من هؤلاء من قال: أنها سبقت للتحدي، فكان المراد: ألف لام ميم أحرف تعرفونها، تقرأونها وتكتبونها، ولكن لا تستطيعوا أن تأتوا منها بقرآن^(١) والله أعلم.

وقد ورد عن رسول الله ﷺ أنه قال: «مَنْ قَرَأَ حَرْفًا مِّنْ كِتَابِ اللَّهِ فَلَهُ بِهِ حَسَنَةٌ

(١) وهنالك أقوال أخر أوردتها في كتابي التسهيل.

(٢) أخرجه الترمذي في جامعه (مع تحفة الأحوذى ٢٢٦ / ٨) وقد أعلَّ هذا الحديث بالوقف، إلا أنه قد يأخذ حكم المرفوع إلى رسول الله ﷺ والله أعلم.

وَالْحَسَنَةُ بِعَشْرِ أَمْثَالِهَا لَا أَقُولُ ﴿الْم﴾ حَرْفٌ وَلَكِنْ أَلِفٌ حَرْفٌ وَلَا مٌ حَرْفٌ وَمِيمٌ حَرْفٌ».

﴿ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ أي هذا القرآن لا شك في أنه من عند الله عز وجل فلا ترتابوا في ذلك فليس هو بقول كاهن ولا بقول شاعر، وليس بأساطير الأولين كما زعم أهل الكفر.

﴿هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ أي وقد جعلنا هذا القرآن هدى للمتقين، والهداية نوعان: هداية دلالة كما قال تعالى: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ﴾ وهداية توفيق كما قال تعالى ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ﴾ فهذا القرآن يدل المتقين ويوفقهم الله به ولما كان المتقون هم المنتفعون به.

قال تعالى: ﴿هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ وهم الذين يتقون عذاب الله فيجعلون بينهم وبين العذاب وقاية بالإيمان الصحيح والعمل الصالح واتباع المحارم ثم يبين الله صفات هؤلاء المتقين فيقول تعالى: ﴿الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ﴾ أي يصدقون بكل ما أخبر الله به من الأمور حتى غابت عنهم فلم يروها بأعينهم كالجنة والنار والملائكة والرسول المتقدمين ولقاء الله عز وجل ويدخل في ذلك أيضاً إيماننا بالله مع أننا لم نره وكذا الإيمان بالنبي محمد ﷺ والإيمان بالقدر.

﴿وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ﴾ أي ويدأومون عليها ويحافظون على أدائها في أوقاتها بأركانها، وكذا ملازمة الجماعة والإكثار من النوافل.

والقائم على الشيء هو المداوم على فعله، ومنه قوله تعالى: ﴿لَا مَادُمْتَ عَلَيْهِ قَائِمًا﴾ وفي الحديث: «مَثَلُ الْقَائِمِ عَلَى حُدُودِ اللَّهِ»^(١) أي العامل بأوامر الله المنتهي عما نهى عنه الله.

﴿وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾ أي يخرجون زكوات الفرض التي افترضناها عليهم وكذلك يخرجون صدقة التطوع وقد علموا أن الذي بأيديهم رزق رزقهم الله إياه.

(١) البخاري (٢٨٨٦).

وقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ﴾ فيدخل فيه أهل الكتاب الذين آمنوا بنبيهم وأدركوا رسول الله محمد ﷺ فأمنوا به فلهم أجران كما في الحديث ^(١) «ثَلَاثَةٌ يُؤْتَوْنَ أَجْرُهُمْ مَرَّتَيْنِ: رَجُلٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ آمَنَ بِنَبِيِّهِ وَأَدْرَكَ النَّبِيَّ ﷺ فَأَمَّنَ بِهِ...».

ويدخل فيهم أيضًا عموم من آمن من العرب وغيرهم فقد قال تعالى: ﴿ءَامَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَمَلَكِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ﴾.

أما الذي أنزل على الرسول فهو القرآن، والذي أنزل من قبله فعموم الكتب التي أنزلها الله، ومنها التوراة والزبور والإنجيل وكذا صحف إبراهيم وموسى وغير ذلك.

وقوله تعالى: ﴿وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾ أي: أنهم يعلمون علمًا يقينًا أن يوم القيامة آت لا ريب فيه يثقون في ذلك تمام الثقة، ويصدقون بذلك تمام التصديق. ﴿أُولَئِكَ﴾ أي المؤمنون بالصفات المتقدمة ﴿عَلَىٰ هُدًى﴾ على نور وتوفيق واستقامة.

﴿مِنْ رَبِّهِمْ﴾ فهو الذي سددهم ووفقهم لهذا ورزقهم إياه. ﴿وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ الفائزون بالمطلوب، والناجون من المرهوب وأعظم مطلوب لهم رضا الله عنهم والفوز بجنته، وأعظم مرهوب هو سخط الله ودخول النار.



(١) البخاري (١٩٧)، مسلم (١٥٤).

آيتان في ذكر أهل الكفر وبيان بعض صفاتهم

قول الله تبارك وتعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ٦﴾ خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَرِهِمْ غَشَوَةٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ٧﴾

قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ والمراد بهم هنا الذين سبق في علم الله أنهم يموتون على الكفر ﴿سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ﴾ أي يستوي عندهم ويستوي في شأنهم ﴿ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ﴾ قمت بإنذارهم أم لم تقم ﴿لَا يُؤْمِنُونَ﴾ لا يصدقون ولا يوحّدون الله ولا يقرون برسالتك.

وإذا سألت لماذا لا يؤمنون فجواب ذلك ﴿خَتَمَ اللَّهُ﴾ أي غطى الله عز وجل ﴿عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ﴾ أي جعل الله غطاءً على القلوب والأسماع فلم تعد القلوب تفقه الحق ولم تعد الأذان تسمع الخير.

﴿وَعَلَى أَبْصَرِهِمْ غَشَوَةٌ﴾ أي وجعل الله عز وجل على العين أيضاً ﴿غَشَوَةٌ﴾ غطاءً يمنعها من الرؤية أي يمنعها من رؤية الحق وتفهمه وتعقله واستماعه. وقوله: ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ أي على كفرهم والعذاب له صورٌ منها: الحرق بالنار والضرب بالسياط والقطع بالحديد (ينشر بالحديد) والطرق على الرؤوس بالمطارق، والحبس وغير ذلك.

ويطرح هنا سؤال: إذا كانوا لم يؤمنوا فلماذا تنذرهم؟
وجواب ذلك:

* أننا ننذرهم امتثالاً لأمر الله عز وجل، فقد أمرنا سبحانه بإنذارهم.

* وأيضاً ننذرهم لإقامة الحجة عليهم.

* وكذا ننذرهم رغبةً في الأجر والثواب، والله أعلم.

ثلاثة عشرة آية في ذكر أهل النفاق وبعض صفاتهم

وما أعد لهم، وضرب مثلين لهم

قال الله عز وجل: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَيَا لَيْتَ لَنَا الْآخِرَ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ﴾ (٨) يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّا أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ (٩) فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ (١٠) وَإِذَا قِيلَ لَهُم لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ (١١) أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِن لَّا يَشْعُرُونَ (١٢) وَإِذَا قِيلَ لَهُم ءَامِنُوا كَمَا ءَامَنَ النَّاسُ قَالُوا أَنُؤْمِنُ كَمَا ءَامَنَ السُّفَهَاءُ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ وَلَكِن لَّا يَعْلَمُونَ (١٣) وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ ءَامَنُوا قَالُوا ءَامَنُوا وَإِذَا خَلَوْا إِلَىٰ شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ (١٤) اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ (١٥) أُولَٰئِكَ الَّذِينَ اشْتَرُوا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَىٰ فَمَا رَبِحَت تِّجَارَتُهُمْ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ (١٦) مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لَا يُبْصِرُونَ (١٧) صُمُّ بُكْمٌ عُمْىٰ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ (١٨) أَوْ كَصَيْبٍ مِّنَ السَّمَاءِ فِيهِ ظُلُمَاتٌ وَرَعْدٌ

وَبَرُّ يُجْعَلُونَ أَصْدِعَهُمْ فِيءِ إِذَانِهِمْ مِنَ الصَّوْعِ حَذَرَ الْمَوْتِ وَاللَّهُ مُحِيطٌ
 بِالْكَافِرِينَ ﴿١٩﴾ يَكَادُ الْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَرَهُمْ كُلَّمَا أَضَاءَ لَهُمْ مَشَوْا فِيهِ
 وَإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَرِهِمْ إِنَّا
 اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٠﴾

قوله تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَيَأْتِيهِمُ الْآخِرُ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ﴾ .
 أي: ومن الناس صنف من أهل الكذب والنفاق يقول بلسانه ما ليس في قلبه
 ويظهر خلاف ما يبطن، فلما قويت شوكة المسلمين في المدينة خشي أناس على
 أنفسهم إذا لم يؤمنوا فأظهروا بالستهم أنهم من أهل الإيمان، مع أن قلوبهم تُبطن
 الكفر، فقالوا بالستهم صدقنا بالله وأنه لا إله إلا الله وصدقنا باليوم الآخر، وأن فيه
 الثواب والعقاب والجنة والنار، قالوا ذلك وهم لا يقرون به، ولا يرغبون في موالاته
 أهله، بل قالوه مداراةً واتقاءً فقط يظنون بذلك أنهم ﴿يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا﴾
 يخفون حالهم على الله سبحانه وتعالى فمن قلة علمهم بالله وقلة معرفتهم به يظنون
 أنه لا يطلع على أمرهم ولا يرى أعمالهم وكذا يخادعون الذين آمنوا وأصل
 الخداع الإخفاء ومنه قول النبي ﷺ: «صَلَاةُ الْمَرْأَةِ فِي مَخْدَعٍ خَيْرٌ مِنْ صَلَاتِهَا فِي
 بَيْتِهَا» ^(١) فالخداع المكان الخاص بالمرأة وفي حقيقة الأمر فإن هؤلاء المنافقين
 ﴿وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ وذلك لأن الله يخدعهم كما قال: ﴿إِنَّ
 الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ﴾ يخدعهم ربنا بتركهم أحياناً في الدنيا يتنعمون
 ثم يواجهون يوم القيامة بالليم العذاب وشديد العقاب ويُخدعون أيضاً يوم يُقال لهم
 ﴿ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُورًا﴾ أي يوم تقسم الأنوار يوم القيامة للمرور على الصراط
 وغيره، ويعطى هؤلاء المنافقون شيئاً من النور لقولهم لا إله إلا الله في الدنيا ثم
 فجأة ينطفئ نورهم لأنهم لم يقولوها من قلوبهم فيقولون لأهل الإيمان ﴿انظُرُونَا
 نَقْنِيسَ مِنْ نُورِكُمْ﴾ فيقال لهم: ﴿ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُورًا﴾ فيرجعون لالتماس النور فلا

(١) صحيح لشواهده: د (٥٧٠).

يَجِدُونَ نُورًا فَيَأْتُونَ مَرَّةً ثَانِيَةً كِي يَدْرِكُوا أَهْلَ الْإِيمَانِ يَسْتَضِيئُونَ بِنُورِهِمْ ﴿فَضْرِبَ بَيْنَهُمْ بِسُورٍ لَهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِنْ قِبَلِهِ الْعَذَابُ﴾ (١٣) يُنَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ قَالُوا بَلَى وَلَكِنَّكُمْ فَتَنْتُمْ أَنْفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَارْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ الْأَمَانِيُّ حَتَّى جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ وَغَرَّكُمُ اللَّهُ الْغُرُورُ ﴿١٤﴾ هَكَذَا يُخَذُّهُمْ اللَّهُ وَهَكَذَا يُخَدَّعُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ.

ثم يصف الله هؤلاء المنافقين بقوله: ﴿فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ﴾ أي شك وارتياب ﴿فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا﴾ دعاء عليهم بأن يزيدهم الله مما هم فيه وكذا فهو وصف لما حل بهم كما قال تعالى: ﴿فَزَادَهُمْ رَجَسًا إِلَى رَجْسِهِمْ﴾.

﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ مؤلم موجه ﴿بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ﴾ بسبب كذبهم ونفاقهم هذا، والنفاق ينقسم إلى قسمين نفاق اعتقاد، ونفاق عمل .

✽ أما نفاق الاعتقاد فهو الذي يُخَلَّد صاحبه في النار وهو أن يُبطن صاحبه الكفر ويُظهر الإسلام، وأهله قال الله فيهم: ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرَكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا﴾ [النساء: ١٤٥].

✽ **نفاق العمل:** وهو من الكبائر، ومنه قول النبي ﷺ: «آية المنافق ثلاث: إذا حدث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا ائتمن خان»^(١).

وقال فيه أيضًا عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «أربع من كن فيه كان منافقًا خالصًا ومن كانت فيه خصلة منهن كانت فيه خصلة من النفاق حتى يدعها: إذا ائتمن خان، وإذا حدث كذب، وإذا عاهد غدر، وإذا خاصم فجر»^(٢). ثم يبين الله سبحانه وتعالى أهوال هؤلاء المنافقين فمع إفسادهم يظنون أنهم على خير أو أنهم يدعون ذلك كذبًا وزورًا فيقول تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ﴾ بأعمالكم السيئة وكفركم بالله وصد الناس عن الإيمان وموالات الكافرين وغير ذلك من أعمال الشر والفساد ﴿قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ﴾ وهذا شأن أهل الإجرام يفسدون ويزعمون أنهم مصلحون، كما قال فرعون لقومه ﴿مَا أَرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَى وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ﴾

(١) أخرجه البخاري (حديث ٣٣)، ومسلم (حديث ٥٩) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعًا.

(٢) أخرجه البخاري (حديث رقم ٣٤)، ومسلم (حديث ٥٨) من حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنه مرفوعًا.

فالفساد من وجهة نظرهم إصلاح فيقولون إننا بموالاة الكفار نصلح ولا نُفسد لأننا نقرب وجهات النظر بينهم وبين المؤمنين ولكن يؤكد لنا ربنا أنهم أهل إفساد فيقول تعالى: ﴿أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ﴾ أي حق الإفساد ﴿وَلَكِنْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ بخطر ما هم فيه ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُؤْمِنُوا كَمَا آمَنَ النَّاسُ﴾ كما آمن غيركم من أهل الصلاح والفضل ﴿قَالُوا أَتُؤْمِنُ كَمَا آمَنَ السُّفَهَاءُ﴾ أي ضعاف العقول فيصفون من آمن بأنه ضعيف العقل ﴿أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ وَلَكِنْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أي: أنهم في حقيقة الأمر هم السفهاء كما قال تعالى ﴿وَمَنْ يَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُ﴾ والسفيه يطلق على خفيف العقل الذي لا يحسن التصرف، وأي تصرف أسوأ من الشرك بالله، وأي خفة عقل أشد من خفة تحمل على ترك الإيمان ثم إن هؤلاء المنافقين لهم وجهان وجه يقابلون به المشركين ووجه يقابلون به أهل الإيمان ﴿وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ ءَامَنُوا قَالُوا ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَىٰ شَيَاطِينِهِمْ﴾ إلى آلهتهم من الكفرة واليهود ﴿قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ﴾ نواليكم وننصرركم ونعاونكم ﴿إِنَّمَا نَحْنُ﴾ بإظهار الإيمان للمؤمنين ﴿مُسْتَهْزِئُونَ﴾ بالمؤمنين، ولكن هيهات هيهات فالجزاء من جنس العمل ف ﴿اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ أي: يطيل لهم العمر ويتركهم في كفرهم وضلالهم وظلمهم يتخبطون ويتحIRON ويؤخرهم وينعم عليهم مع ما هم فيه من شر وفساد حتى يرتكبوا شرواً كثيرة فيحل بهم أليم العقاب.

وقوله: ﴿يَعْمَهُونَ﴾ من معانيها يعمون وقيل: إن العمى في العين، والعمه في القلوب أما الطغيان فمجازاة الحد في الظلم.

ثم يقول تعالى: ﴿أُولَٰئِكَ﴾ المنافقون ﴿الَّذِينَ اشْتَرُوا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَىٰ﴾ أي أخذوا الضلالة وتركوا الهداية، واشتروا الكفر بالإيمان.

﴿فَمَا رِيحَتْ بِحَنَرِهِمْ﴾ أي فما ربحوا في تجارتهم حيث اشتروا الضلالة وباعوا الهداية ﴿وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ﴾ في صنعهم بل كانوا على ضلال وفي خطأ.



(مثلان مضروبان لأهل النفاق مثل ناري ومثل مائي)

ثم ضرب الله عز وجل للمنافقين مثلين، مثلاً نارياً، ومثلاً مائياً كما ضرب مثل هذين المثلين في سورة الرعد فقال تعالى: ﴿ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَهُ يَقَدِّرُهَا ﴾ وكما في سورة النور ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أََعْمَلُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ ﴾ .

أما المثل الأول وهو المثل الناري في سورة البقرة فيقول تعالى: ﴿ مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لَا يُبْصِرُونَ ﴾ فحاصله أن المنافق كمستوقد النار .

ووجه الشبه في ذلك أن المنافق لما قال في أول أمره لا إله إلا الله وعرف الحلال والحرام كمستوقد النار لما أوقدها أضاءت له ما حوله فأبصر ما ينفعه مما يضره، فلما أن ذهب نورها عنه بقي متحيراً لا يدري أين يذهب ولا كيف يتحرك، فقد رأى بعض أماكن الأمن وبعض مواطن الخطر فيخشى إن سار في الطريق الذي ظن أنه آمن كان خطراً فبقي متحيراً متردداً لا يدري كيف يصنع .

فكذلك المنافق لما نقض لا إله إلا الله ضل الطريق عن الحلال والحرام والتبست عليه أموره وبقي متحيراً متردداً شاكاً كما قال الله تعالى: ﴿ فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ ﴾ [التوبة: ٤٥] والله تعالى أعلم .

وقد نحا بعض المفسرين منحى آخر فقالوا: هذا مثلٌ ضربه الله ﷻ للمنافقين أنهم كانوا يعتزون بالإسلام فيناكحهم المسلمون ويوارثونهم ويقاسمونهم الفيء فلما ماتوا سلبهم الله ذلك العز كما سلب صاحب النار ضوؤه، والله أعلم .

وهنا فائدة ذكرها ابن القيم رحمه الله تعالى في قوله تعالى: ﴿ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ ﴾ ولم يقل (ذهب نورهم) حاصلها أن المعية المذكورة في قوله تعالى ﴿ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا ﴾ و﴿ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴾ ونحوها انتفت عن المنافقين فليس لهم نصيب من قوله: ﴿ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا ﴾ وقوله: ﴿ إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ ﴾ هذا، وقوله تعالى: ﴿ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ ﴾ المراد ظلمات الكفر، وقوله: ﴿ صُمُّ ﴾ أي لا يسمعون

و﴿بِكُمْ﴾ الأَبْكُمْ هو الأخرس، وقيل الذي لا يتكلم ولا يفهم ﴿عُمَى﴾ لا يرون الحق ولا يبصرونه.

وقوله تعالى: ﴿فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾ أي عن ضلالتهم ونفاقهم ولا يرجعون إلى الحق والإسلام والهدى والإيمان وكذلك إلى التوبة والاستغفار والله أعلم.

وقوله تعالى: ﴿أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ السَّمَاءِ فِيهِ ظُلُمٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ﴾ فهذا هو المثل الثاني للمنافقين، وهو المثل المائي أشرنا إليه قريباً فقله تعالى: ﴿أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ السَّمَاءِ فِيهِ ظُلُمٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ﴾ أي ومن المنافقين من مثله كمثل قوم رأوا الصَّيْبَ، والصَّيْبَ المطر الذي نزل من السماء فيه ظلمات ورعد وبرق.

فالصَّيْب هو مثل القرآن.

الظلمات هي مثل الآيات المشبهة.

الرعد هو مثل آيات الإنذار والتهديد.

البرق هو مثل الهداية والنور والحجج الباهرة في كتاب الله ﷻ.

فحظ أهل النفاق من القرآن هو الآيات المشبهة التي يتحIRON فيها ويترددون،

كما قال تعالى: ﴿فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ﴾ [التوبة: ٤٥].

✽ وحظهم أيضاً آيات التهديد والإنذار فهم يحسبون كل صيحة عليهم.

✽ وحظهم من الهداية والنور البرق الذي يخشون منه أن يخطف أبصارهم من

شدة ضوئه فكذلك هناك قاصروا النظر لا ينظرون إلى ما في الصَّيْب من نفع عام

على البلاد والعباد ولكن حظهم من الصَّيْب الظلمات والرعد والبرق فكما قدمنا

أن الصَّيْب هو القرآن، دل على ذلك قول النبي ﷺ:

«مثل ما بعثني الله به من الهدى والعلم كمثل الغيث الكثير أصاب

أرضاً...»^(١).

(١) البخاري (٧٩)، ومسلم (٢٢٨٢).

فالصيب به تدب الحياة إلى البلاد والعباد بإذن الله، ويفرح به عقلاء الناس؛ لما فيه من خير وصلاح للبلاد والعباد والشجر والدواب، وهؤلاء العقلاء الذين حمدوا الله ﷻ على ما منَّ به من هذا الصيب هم أهل الإيمان الذين قبلوا هدى الله الذي جاء به نبي الله محمد ﷺ.

أما أهل النفاق فعقولهم ضعيفة لا تدرك ما وراء هذا الصيب من نفع، وغاية ما تدركه من الصيب أنه يلوث الأرض ويجلب إليها الوحل والطين ويُعطل المسافر عن سفره.. ونحو ذلك، هذا غاية ما تدركه أبصار أهل النفاق هؤلاء.

✽ **وتنزيل هذا على كتاب الله ﷻ**: أن المؤمن يعلم تمام العلم ويؤمن غاية اليقين أن ما جاءه من الله ﷻ على لسان نبيه ﷺ كله خير فإذا أمر بأمرٍ سمع وأطاع لله ﷻ، وإذا نهى عن أمرٍ انتهى وانكف وإذا اشتبهت عليه آية قال: ﴿أَمَّا بِهِ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا﴾ [آل عمران: ٧].

✽ فإذا أمره بالحج والعمرة مثلاً علم ماذا أعد الله للحجيج من مغفرة الذنوب وأن الحج يهدم ما كان قبله كما أخبر النبي ﷺ^(١)، وأن الحجيج يرجعون من حجهم كيوم ولدتهم أمهاتهم، وأن المتابعة بين الحج والعمرة تنفي الذنوب كما ينفي الكير خبث الحديد، وأن الحج المبرور ليس له جزاء إلا الجنة، فيقدم على الحج بلا تردد ولا توان.

أما المنافق فحظه من ذلك أن يقول: لماذا أذهب وأطوف بأحجارٍ وأرمي أحجاراً وأهرق دماءً وأفارق الزوجة والولد وأضيع أموالي وأفارق أوطاني، وأزاحم الناس ويزاحمونني....

هذا هو حظ المنافق الغبي من هذا الباب.

✽ وإذا أتينا إلى الجهاد مثلاً، علم المؤمن ماذا أعد الله للمجاهدين من

(١) أخرجه مسلم (حديث ١٢١) من حديث عمرو بن العاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مرفوعاً.

الفضل وتكفير الذنوب والخطايا، وتذكر فضائل الجهاد، وأدرك ما فيه من عزة لأهل الإيمان، وردع لأهل الكفر والظلم، كما قال تعالى: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَفُتَّتْ صُلُوحُكُمْ وَبُيِعَ صَلَواتُكُمْ وَمَسْجِدُكُمْ فِيهَا أَسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ [الحج: ٤٠]، فيقدم حينئذ على الجهاد وتهون عليه نفسه **سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى** وطلباً لمرضاته ونيل جناته.

أما المنافق فحظه قوله كيف أشرد وأخرج وأخرج من بيتي فأقتل وقد تقطع يدي وتفقأ عيني وتذهب رجلي وترمل زوجتي ويستم أولادي فيدع الجهاد غافلاً عما وراءه من ثواب.

❁ ولو أتينا إلى الصوم مثلاً، علم المؤمن ما فيه من فضل وأيقن بالثواب الوارد فيه، وأن صاحبه ينادي من باب الريان، وأن الصوم يورث التقوى، وأن الله **عَزَّ وَجَلَّ** يرضى عن الصائم، ولخلاف فم الصائم عند الله أطيب من ريح المسك... أما المنافق فيقول: لماذا أجوع نفسي وأمنعها شهواتها وأحرمها من لذيذ الطعام والشراب وحسان النساء، ولا يدرك ببصره القاصر ما في الصوم من علو الدرجات وحط الخطيئات وإقالة العثرات و....

❁ وإذا عمدنا إلى الصلاة مثلاً: علم المؤمن ما أعد الله **عَزَّ وَجَلَّ** للمصلين من أجر، وعلم كيف تتساقط خطاياهم واحدة تلو الأخرى وسائر ما في الصلاة من فضل. أما المنافق فيقول: لماذا أصلي وأرهق نفسي بالقيام والقعود والركوع والسجود وأصب الماء البارد على جسمي يؤذيني، وأضيع وقتي، ولا يدري الجاهل أن البركة من الله **عَزَّ وَجَلَّ**، ولا يدرك الحائر أنه رب دعوة دعا بها مُصلٌّ في صلاته دفع الله بها عنه البلاء ورفع الله عنه بها العناء وجعله الله بها من السعداء. وهكذا سائر العبادات.

فحظ المنافق من كتاب الله ظلمات تُظلم عليه وتُخيم على عقله، حظه من كتاب الله الآيات المتشابهات (وهي الظلمات)، فإذا سمع قوله تعالى عن شجرة

الزقوم: ﴿إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ﴾ [الصافات: ٦٤] قال بجهله: هذا يدل على الكذب إذ كيف تخرج شجرة في أصل الجحيم والنار تأكل الخشب؟! ولا يدري الجاهل أن الله على كل شيء قدير، وأن النار إنما تحرق ما تحرقه بإذن الله، وقد قال الله ﷻ لها: ﴿يَنَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَىٰ إِِبْرَاهِيمَ﴾ [الأنبياء: ٦٩] فكانت كذلك بردًا وسلامًا عليه ﷺ ولا يدري الجاهل أن الله ﷻ جعل هذه الشجرة فتنة للظالمين كما قال سبحانه: ﴿إِنَّا جَعَلْنَاهَا فِتْنَةً لِلظَّالِمِينَ﴾ [الصافات: ٦٣].

وإذا مرَّ هذا المنافق الجاهل على آية كقوله تعالى - في بيان عدد خزنة جهنم -: ﴿عَلَيْهَا إِسْعَةٌ عَشْرٌ﴾ [المدثر: ٣٠] يقول هذا الجاهل المنافق الكافر: تسعة عشر؟! إذن نحن قادرون على سحقهم واحتلال الجنة بالقوة، ويخفى على هذا الجاهل أن هذا العدد جعله الله فتنة لأهل الكفر كما قال سبحانه: ﴿وَمَا جَعَلْنَا أَصْحَابَ النَّارِ إِلَّا مَلَائِكَةً وَمَا جَعَلْنَا عَدَتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا لِيَسْتَيَقِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَرَدَادَ الَّذِينَ ءَامَنُوا إِلَيْنَا وَلَا يَرْتَابَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْمُؤْمِنُونَ وَلِيَقُولَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَالْكَافِرُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلًا كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ وَمَا هِيَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْبَشَرِ﴾ [المدثر: ٣١].

أما المؤمن فيعلم أن ملكًا واحدًا يقدر - بإذن الله - أن يدمر الأرض ومن عليها بل ويفعل أعظم من ذلك بإذن الله.

✽ يعمد الكافر المنافق الجاهل إلى الآية كقوله تعالى لما أسري بنبيه ﷺ: ﴿وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلَّا فِتْنَةً لِلنَّاسِ﴾ [الإسراء: ٦٠] فيقول المنافق: كيف يسرى برجل من مكة إلى بيت المقدس ويرجع في نفس الليلة ولا يملك دابة تحمله لهذا المكان، وكيف يعرج به إلى السماء السابعة ويصبح بين أظهرنا، هذا وجهه هذا الكافر المنافق لا يعلم أن الله على كل شيء قدير، يقول للأمر إذا أَرَادَهُ: كن فيكون.

يعمد المنافق إلى آية تحويل القبلة، فيقول: لماذا هذا التردد؟ ويخفى عليه قوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنْتَ عَلَيْهَا إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّن يَنْقَلِبُ عَلَىٰ

عَقِبِيَّ وَإِنْ كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ ﴿[البقرة: ١٤٣]﴾ هذا حظ هذا المنافق من كتاب الله ﷻ، حظه الآيات المتشابهة التي تزيد شكا وحيرة وترددا لقله علمه بالله سبحانه و يقينه به.

✽ حظه من كتاب الله ﷻ هذا الرعد، فإذا سمع آية وعيد ظن أنها ستحل به فوراً، إذا سمع قوله تعالى: ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنْذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ﴾ [فصلت: ١٣] ظن أن هذه الصاعقة ستزل عليه.

إذا سمع آية تتحدث عن النفاق ظن أنها تفضحه، وأن الناس كلهم يعلمون حاله كما قال تعالى: ﴿يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ﴾ [المنافقون: ٤] يظن أن الآيات الكريمات كلها تفضحه وتظهر أمره للناس وتفضي سره، كما أنزل الله أمرهم في سورة براءة وقال فيها: (وَمِنْهُمْ ... وَمِنْهُمْ وَمِنْهُمْ).

حظه من الهداية والنور الوارد في كتاب الله هذا البرق، فكتاب الله نور، وآياته كلها نور يُستضاء به ويُبصر به المؤمن.

أما هذا المنافق فيخشى إن نظر في هذا النور الشديد الذي هو من شدته كالبرق أن يذهب بصره ويصاب بالعمى، ويذهب هذا النور ببصره^(١)، فهو يكره النور ويحب الظلمات كالخفاش ضعيف البصيرة إذ قال الشاعر فيه:

خفافيش أعماها النهار بضوئه ووافقها قطع من الليل مظلم

(١) قال الشنقيطي رحمه الله: لأن البصر كلما كان أضعف كان النور أشد إذهاباً له كما قال الشاعر: مثل النهار يزيد أبصار الورى نورا ويعمي أعين الخفاش وقال الآخر:

خفافيش أعماها النهار بضوئه ووافقها قطع من الليل مظلم

وبصائر الكفار والمنافقين في غاية الضعف فشدة ضوء النهار تزيدها عمى، وقد صرح الله تعالى بهذا العمى في قوله: ﴿أَفَمَنْ يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنَ رَبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَى﴾ [الرعد: ١٩] وقوله: ﴿وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ﴾ [فاطر: ١٩].

أما قوله تعالى: ﴿يَجْعَلُونَ أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ مِنَ الصَّوَاعِقِ حَذَرَ الْمَوْتِ﴾ فمعناه، والله أعلم أنهم كلما تليت عليهم آيات الكتاب العزيز جعلوا أصابعهم في آذانهم لئلا يسمعوا القرآن فيؤمنوا به وبمحمد ﷺ وذلك عندهم كفر، والكفر موت، وهذا كما فعل قوم نوح إذ حكى نوح ﷺ فعلهم معه فقال: ﴿وَإِنِّي كَلِمًا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ وَاسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ وَأَصْرُوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا﴾ [نوح: ٧].

وقوله: ﴿وَاللَّهُ مُحِيطٌ بِالْكَافِرِينَ﴾ أي مهلكهم، وقيل عالم بهم.

وقوله: ﴿يَكَادُ الْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَارَهُمْ﴾ يوشك البرق أن يقترب منهم ويصيبهم بالعمى أما المستفاد من قوله تعالى: ﴿كُلَّمَا أَضَاءَ لَهُمْ مَشَوْا فِيهِ وَإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا﴾ فحاصله أن أهل النفاق إذا وجدوا من القرآن ما يوافقهم اتبعوه كزواجهم من المسلمين وإرثهم منهم، وأخذهم من الغنائم أما إذا وجدوا شيئاً غير موافق لهواهم. كبذل الأنفس والأموال في الجهاد في سبيل الله المأمور به فيه وقفوا وتأخروا. وقد أشار تعالى إلى هذا بقوله: ﴿وَإِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ مُّعْرِضُونَ﴾ (٤٨) وَإِنْ يَكُنْ لَهُمُ الْحَقُّ يَأْتُوا إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ﴾ [النور: ٤٨، ٤٩].

وقال بعض العلماء: ﴿كُلَّمَا أَضَاءَ لَهُمْ مَشَوْا فِيهِ﴾ أي: إذا أنعم الله عليهم بالمال والعافية قالوا: هذا الدين حق ما أصابنا منذ تمسكنا به إلا الخير ﴿وَإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا﴾ أي: وإن أصابهم فقر أو مرض أو ولدت لهم البنات دون الذكور. قالوا: ما أصابنا هذا إلا من شؤم هذا الدين وارتدوا عنه.

وهذا الوجه يدل له قوله تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَى حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انْقَلَبَ عَلَى وَجْهِهِ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ﴾ [الحج: ١١].

وقال بعض العلماء: إضاءته لهم معرفتهم بعض الحق منه وإظلامه عليهم ما يعرض لهم من الشك فيه.

وقوله تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَرِهِمْ﴾ ففيه قولان:
فمن قال: إنه يرجع إلى أصحاب المطر فالمعنى عنده، ولو شاء الله لأذهب
سمعهم بالرعد وأبصارهم بالبرق.
وإن رجع إلى المنافقين فالمعنى: ولو شاء الله لأوقع بهم العذاب والفضيحة،
والله أعلم.
وقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ قادرٌ ربي على كل شيء وقادر على أن
يذهب بسمعهم وأبصارهم.



**الأمر بعبادة الله وحده لا شريك له
وذكر بعض فضله على عباده وتحذير أهل الكفر
وتبشير أهل الإيمان والبيان عن أن النار والجنة مخلوقتان**

قال الله عز وجل: ﴿يَأَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ۝ (٢١) الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ۝ (٢٢) وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِمَّنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ۝ (٢٣) إِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ ۝ (٢٤) وَبَشِّرِ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِنْ ثَمَرَةٍ رِزْقًا قَالُوا هَذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِنْ قَبْلُ وَأُتُوا بِهِ مُتَشَبِهًا وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَهُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ۝ (٢٥)﴾

* هذا، وبعد ذكر آيات تتعلق بالمتقين، وآيات تتعلق بالكافرين، وآيات متعلقة بأهل النفاق وبعض أوصافهم يتوجه الأمر للناس كلهم بعبادة الله عز وجل وحده لا شريك له فيقول تعالى: ﴿يَأَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ﴾ أطيعوا الله عز وجل في كل ما يأمركم به، وانتهوا عما ينهاكم عنه ووحده وأخلصوا له والتزموا شرائع دينه فهو

﴿الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ﴾ فذكرهم الله بصفة هم يقرون بها، ألا وهي صفة الخلق فلم يكن أهل الشرك ينازعون في أن خالقهم هو الله سبحانه وتعالى، قال تعالى: ﴿وَلَيْن سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾ فالذي خلقهم وخلق الذين من قبلهم جديرٌ بأن يُعبد، وقوله تعالى: ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ أي لعلكم بعبادتكم ربكم عز وجل أن تجعلوا بينكم وبين النار وقاية وتجعلوا بينكم وبين غضب الله عز وجل وقاية ثم يبين الله بعض مننه وفضله على خلقه تلك النعم التي تستلزم عبادته وحده لا شريك له فيقول تعالى: ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ﴾ الذي صير لكم ﴿الْأَرْضَ فَرَشًا﴾ أي مستقرة ممهدة كالفراش ﴿وَالسَّمَاءَ بَنَاءً﴾ أي سقفا محفوظا ﴿وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً﴾ وهو ماء المطر ﴿فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ﴾ أي فأخرج بسببه من الأرض من أنواع الثمرات رزقا لكم ﴿فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ أي أمثالا ونظراء وأكفاء تعبدونه كعبادتهم وتحبونهم كمحبته وتدعونهم كما تدعونه وترجونهم كما ترجونه وتطيعونهم كطاعته وتخشونهم كخشيتيه.

ولا اتخاذ الأنداد صوراً آخر كقول القائل (ما شاء الله وشاء فلان) وقد صح عن النبي ﷺ أنه قال: «لَا تَقُولُوا مَا شَاءَ اللَّهُ وَشَاءَ فُلَانٌ وَلَكِنْ قُولُوا مَا شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ مَا شَاءَ فُلَانٌ»^(١).

ومنها «مُطَرْنَا بنوء كذا ونوء كذا»^(٢)، ومنها «الحلف بغير الله»^(٣) ومنها السجود لغير الله وقوله تعالى: ﴿وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ أن الله خالقكم ورازقكم وأنه واحد لا شريك له ولا ند له ثم يقول الله تعالى لأهل الشرك ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ﴾ في شك ﴿مِمَّا نَزَّلْنَا﴾ من القرآن ﴿عَلَى عَبْدِنَا﴾ أي على رسولنا محمد ﷺ ﴿فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ﴾ أي من مثل هذا القرآن، فتحدهم الله أن يأتوا بسورة، وتحدهم أن يأتوا بحديث مثله، فقال: ﴿فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِثْلِهِ إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ﴾ تحدهم أن يأتوا بقرآن

(١) صحيح: د (٢٥٩/٥)، ابن ماجه (٢١١٨).

(٢) خ (٥٢٢/٢)، وم (٥٩/٢).

(٣) ففي الحديث «من حلف بغير الله فقد كفر أو أشرك» ت (١٣٥/٥)، د (٣٢٥٧).

مثله، فقال ﴿قُلْ لِّينِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ﴾ أي أعوانكم وأنصاركم وألهمتكم التي عبدتموها ﴿مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ سوى الله، وغير الله سبحانه وتعالى ألهمتكم غير الله فالقوم كانوا يجعلون لله شركاء يعبدونه ويعبدون معه غيره، فادعوا ألهمتكم غير الله ادعوها لنصرتكم إن استطعتم واستطاعوا ادعوها تشهد لكم أن ما جئتم به يعادل القرآن.

﴿فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا﴾ أي إن لم تستطيعوا الإتيان بالشهداء الذين زعمتم ﴿وَلَنْ تَفْعَلُوا﴾ ولن تستطيعوا الإتيان بمثل هذا القرآن لن تستطيعوا ذلك فآمنوا بالله ورسله وأطيعوا الله ورسوله ﴿فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ﴾ واتخذوا ذلك وقاية تتقون بها عذاب الله عز وجل المتمثل في النار التي وقودها الناس والحجارة أما الناس فهم أهل الكفر، كما قال تعالى ﴿وَأَمَّا الْقَاسِطُونَ فَكَانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَبًا﴾ أما الحجارة فمن العلماء من قال هي الأصنام التي كانت تعبد من دون الله كما قال تعالى: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنْتُمْ لَهَا وَرَدُّونَ﴾ وقد قيل إن الحجارة حجارة الكبريت والله أعلم.

أما قوله تعالى: ﴿أَعَدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾ ففيه دليل على أن النار مخلوقة الآن فقد قال تعالى: ﴿إِنَّا أَعْتَدْنَا^(١) لِلْكَافِرِينَ سَلَاسِلًا وَأَغْلَالًا وَسَعِيرًا﴾. وقال تعالى: ﴿إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا﴾. وكما أن النار مخلوقة، فالجنة مخلوقة كذلك.

قال تعالى: ﴿وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾.

وقال ﷻ: «قَالَ اللَّهُ تَعَالَى أَعَدَدْتُ لِعِبَادِي الصَّالِحِينَ مَا لَا عَيْنَ رَأَتْ، وَلَا أُذُنَ سَمِعَتْ، وَلَا خَطَرَ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ»^(٢).

(١) أعتدنا: معناها أعددنا.

(٢) خ (٣٢٤٤)، ومسلم (٣٨٢٤)، من حديث أبي هريرة.

وفي الحديث: «إِذَا دَخَلَ رَمَضَانُ فَتَحَتْ أَبْوَابُ الْجَنَّةِ، وَغُلِّقَتْ أَبْوَابُ جَهَنَّمَ، وَسُلِّسَتْ الشَّيَاطِينُ»^(١).

ثم يقول تعالى: ﴿وَبَشِّرِ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ أي أخبرهم بما يسعدهم ويظهر أثره على بشرتهم ووجوههم أخبر هؤلاء الذين صدقوا بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وبالقدر خيره وشره، أخبر هؤلاء الذين أتبعوا ذلك بالأعمال الصالحة فجمعوا بين الإيمان والعمل.

أخبرهم ﴿أَنَّهُمْ جَنَّاتٍ﴾ حدائق وبساتين ﴿تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ ﴿وَأَنْهَارٌ مِنْ مَاءٍ غَيْرِ آسِنٍ﴾ غير متغير، ﴿وَأَنْهَارٌ مِنْ لَبَنٍ لَمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ، وَأَنْهَارٌ مِنْ حَمْرٍ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِنْ عَسَلٍ مُصَفًّى﴾.

﴿كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِنْ ثَمَرَةٍ رِزْقًا﴾ كلما أتيهم ثمرة من الرزق الذي رزقهم الله إياه رأوها تشبه ثمارًا قد رزقوها من قبل إما في الجنة^(٢)، وإما في الدنيا ﴿قَالُوا هَذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِنْ قَبْلُ وَأُتُوا بِهِ مُتَشَبِهًا﴾ ولكنهم يجدون طعامًا غير الطعام ولذة غير اللذة.

وإضافة إلى هذا النعيم ﴿وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ﴾ من الحيض والبول والبزاق والنفاس والمخاط، مطهرة من الغل والحقد والضغائن والحسد.

وقد قال رسول الله ﷺ: «أول زمرة تدخل الجنة على صورة القمر ليلة البدر والذين على إثرهم كأشد كوكب إضاءة، قلوبهم على قلب رجل واحد لا اختلاف بينهم ولا تباغض لكل امرئ منهم زوجتان كل واحدة منهما يرى مخ ساقها من وراء لحمها من الحسن يسبحون الله بكرة وعشيًا لا يسقمون ولا

(١) خ (٣٢٧٧)، وم (١٠٧٩).

(٢) يبدو لي أن ذلك في الجنة لأن الحديث القدسي فيه «أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت...» أي ما لا عين رآته في الدنيا والله أعلم.

يمتخطون ولا يبصقون، آتيتهم الذهب والفضة وأمشاطهم الذهب، ووقود مجامرهم الأُلُوءة^(١).

❁ قال أبو اليمان^(٢): يعني: العود، ورشحهم المسك.

وقوله تعالى: ﴿وَهُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ الخلود والبقاء، أي وهم فيها باقون لا يخرجون ولا يموتون، ولا ييغون عنها حوًلاً.



(١) خ (٣٢٤٦)، وم (ص ٢١٨٠).

(٢) هو أحد رجال إسناد الحديث.

الأمثال التي يضربها الله عز وجل ويقين أهل الإيمان بها
وموقف أهل الكفر والفسوق منها وبيان أحوالهم والتعجب من كفرهم
وكذا البيان أن الله عز وجل في السماء قد استوى على العرش

قال الله عز وجل: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلًا مَا
بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ
رَبِّهِمْ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَيَقُولُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلًا
يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا وَيَهْدِي بِهِ كَثِيرًا وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا
الْفَاسِقِينَ ﴿٢٦﴾ الَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ
مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولَٰئِكَ هُمُ
الْخَاسِرُونَ ﴿٢٧﴾ كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنْتُمْ أَمْوَاتًا
فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٨﴾ هُوَ
الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ أَسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ
فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٢٩﴾﴾

قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلًا مَا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا﴾
حاصل معناه أن الله سبحانه وتعالى يذكر أنه لا يستحي من ضرب الأمثال بأي شيء

كان ﴿بَعُوضَةً﴾ (بقعة أو ناموسة) ﴿فَمَا فَوْقَهَا﴾ أي فما هو أكبر منها^(١) وكذلك ﴿فَمَا فَوْقَهَا﴾ قال البعض أي فما دونها من الحقارة وقد ضرب الله الأمثلة بالذباب والبعوض والعنكبوت والشجرة الطيبة والشجرة الخبيثة والعبد المملوك والرجل الأبقم والريح التي فيها صرٌّ والعبد الذي يملكه شركاء متشاكسون إلى غير ذلك. وقوله تعالى: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ﴾ أي إذا ضرب الله سبحانه وتعالى المثل آمن به المؤمنون فتدبروه وتعقلوه واستفادوا منه وعلموا أنه الحق من ربهم أما أهل الكفر فليس لهم من المثل نصيبٌ إلا السخرية من المثل ومن الشيء الذي مثل به وممن جاء بهذا المثل.

ونأخذ من هذا أنه ينبغي أن تبلغ عن الله أمره، وكذلك ينبغي أن نتعلم أمر الله ولا يصدنا في ذلك ولا عن ذلك الحياء وإن كان الحياء محموداً في أصله وقد جاءت أمُّ سُلَيْمٍ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَقَالَتْ يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي مِنَ الْحَقِّ، فَهَلْ عَلَى الْمَرْأَةِ مِنْ غُسْلِ إِذَا احْتَلَمَتْ قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «نَعَمْ إِذَا رَأَتْ الْمَاءَ . فَغَطَّتْ أُمُّ سَلَمَةَ - تَعْنِي وَجْهَهَا - وَقَالَتْ يَا رَسُولَ اللَّهِ وَتَحْتَلِمُ الْمَرْأَةُ قَالَ: «نَعَمْ تَرَبَّتْ يَمِينُكَ فَبِمِ يَشْبِهُهَا وَلَدَهَا».

أما البعوضة فمن العلماء من قال هي البقعة (جمعها بق) وهي الحشرة الكريهة المعروفة التي تكون بالجدران والفرش ومنهم من قال البعوضة هي الناموسة المعروفة أيضاً التي تلسع وقد قال بعض العلماء: هذا مثل ضربه الله للعالم أن البعوضة تحيا ما جاعت فإذا سميت ماتت، وكذلك مثل هؤلاء القوم الذين ضرب الله لهم هذا المثل في القرآن إذا امتلأوا من الدنيا رياءً أخذهم الله عند ذلك، قال: ثم تلا ﴿فَلَمَّا سُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ﴾ [الأنعام: ٤٤].

(١) ومنه الحديث «ما من مسلم يصيبه أذى شوكة فما فوقها...» خ (٥٦٤٨)، وم (٢٥٧٢)

وقوله تعالى: ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَيَقُولُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلًا﴾ أي أن أهل الكفر ليس لهم من المثل المضروب إلا التكذيب والسخرية والجهل بالمثل والمستفاد منه أما قوله تعالى: ﴿يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا وَيَهْدِي بِهِ كَثِيرًا﴾ فلا هل العلم فيه قولان:

أحدهما: أن قائله هو الله **سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى**، والمعنى لما قال الكفار ﴿مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلًا﴾، فالإجابة عليهم قل: إن الله **يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا وَيَهْدِي بِهِ كَثِيرًا**، أي: يهدي بهذه الأمثال أناسًا كثيرين ويضل بها أناسًا كثيرين. ومما يؤيد هذا القول قوله تعالى في سورة المدثر: ﴿وَمَا جَعَلْنَا أَصْحَابَ النَّارِ إِلَّا مَلَائِكَةً وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا لِيَسْتَيَقِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَزَادَ الَّذِينَ آمَنُوا إِيمَانًا وَلَا يَرْتَابَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْمُؤْمِنُونَ وَلِيَقُولَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْكَافِرُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلًا كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ﴾ [المدثر: ٣١]، فقوله تعالى: ﴿كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ﴾ من قول الله **سُبْحَانَهُ** وهو كقوله سبحانه في سورة البقرة: ﴿يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا وَيَهْدِي بِهِ كَثِيرًا﴾.

والقول الثاني: أنه من قول الكافرين، كأنهم قالوا: ما مراد الله **سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى** بهذا المثل الذي يفرق به الناس إلى ضلالٍ ومهتدين. والله تعالى أعلم. أما وجه الهداية والضلال بالمثل، فالمثل إذا جاء في كتاب الله عز وجل ازداد به المؤمن هداية وتوفيقًا بإذن الله فإذا ضرب المثل صدق به المؤمن علم أنه من عند الله فيزيد الله المهتدي هدى ويؤتاه تقواه، أما الكافر أو المنافق والفاسق فإذا ضرب الله **سُبْحَانَهُ** المثل ارتاب فيه وتحير وتردد في أمره فينصرف عن القرآن فيصرف الله قلبه كما قال تعالى: ﴿ثُمَّ أَنْصَرَفُوا سَرَفًا كَذَلِكَ تُدَفُّ أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ [التوبة: ١٢٧]. أما ﴿الْفَاسِقُونَ﴾ فهم الخارجون عن طاعة الله عز وجل، وكما هو معلوم فالفسق درجات فأحيانًا يطلق الفسق على الكفر كما في قوله تعالى: ﴿فَأَسْتَحَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ﴾ وكما في قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ فَسَقُوا

فَمَا وَهُمْ نَارُ كَمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا أُعِيدُوا فِيهَا وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُوا عَذَابِ النَّارِ الَّتِي كُنْتُمْ بِهِ تَكْذِبُونَ ﴿٤٠﴾

وقد يكون دون ذلك كما في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَاجْلَدُوهُمْ ثَمَنِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ .

وكما في الحديث: « سَبَابُ الْمُسْلِمِ فُسُوقٌ ، وَقِتَالُهُ كُفْرٌ » ^(١) .

أما قوله تعالى: ﴿وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ﴾ أي وما يضل الله بهذا المثل وما ينصرف به عن الإيمان إلى الكفر إلا أهل الفسق الذين سبق في علم الله أنهم سيموتون على الكفر والفسقون هم الخارجون عن طاعة الله عز وجل وعن الإيمان به .

﴿الَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ﴾ لا يوفون بالعهود التي عاهدوا الله عليها وأخذت عليهم على السنة الرسل بل يغدرون ويخونون .

﴿مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ﴾ أي من بعد أن أعطوا عهدًا وحلفوا على الوفاء بها فالميثاق العهد المؤكد باليمين .

﴿وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ﴾ كالأرحام فإنهم يقطعونها ولا يصلونها وكالإيمان بالرسل فقد آمنوا ببعض وكفروا ببعض، وكالأخوة الإيمانية وغير ذلك .

﴿وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ﴾ بالشرك والبدع والكبائر والمعاصي .

﴿أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ الذين بخسوا أنفسهم حقوقها وأوردوا أنفسهم النار بما اختاروه من الكفر .

﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ﴾ استفهام للتوبيخ أي يجحدون وجوده أو تعبدون

معه غيره .

﴿وَكُنْتُمْ أَمْوَاتًا﴾ قبل خروجكم إلى الدنيا ﴿فَأَحْيَاكُمْ﴾ فأخرجكم من بطون أمهاتكم أحياء على الأرض ﴿ثُمَّ يُمِيتُكُمْ﴾ عندما تنتهي آجالكم من الدنيا

(١) خ (٧٠٧٦)، م (٦٤) .

﴿ثُمَّ يُحْيِيكُمْ﴾ يوم القيامة ﴿ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ للبعث للحساب والشواب والعقاب ويبين الله بعض نعمه على خلقه تلك النعم التي تستدعي شكره وتوحيده وإفراده بالعبادة فيقول ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ خلقه لكم لانتماعكم، خلقه لكم للاعتبار والاتعاظ والإدكار خلقه لكم لتتقوا به على طاعته ولتنزجروا عن معصيته فكل شيء خلق لصالحكم - إن عقلتم ذلك - يا بني آدم.

(هل الأرض خلقت أولاً أم السماء؟)

هذا وقد يثار سؤال، هل الأرض خلقت أولاً أم السماء؟، وجواب كثير من العلماء على ذلك أن الأرض خلقت أولاً وقدّر الله فيها أقواتها في أربعة أيام ثم خلقت السماء ثم دُحيت الأرض بعد ذلك^(١).

(ذكر الدليل على أن الله عزَّ وجلَّ في السماء.)

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ﴾ معناها علا وارتفع والله أعلم. وقوله تعالى: ﴿فَسَوَّيْنَهُنَّ﴾ أي سوى سطوحهن فلا اعوجاج ولا صدوع ولا فطور.

وقوله تعالى: ﴿سَبْعَ سَمَوَاتٍ﴾ يفيد أن السموات سبع وكذا الأرضين ففي الحديث: «مَنْ ظَلَمَ مِنَ الْأَرْضِ شَيْئًا طَوَّقَهُ مِنْ سَبْعِ أَرْضِينَ»^(٢). ﴿وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ أي عالم بكل شيء من تمام العلم هذا وإن سأل سائل أين الله فالله سبحانه وتعالى في السماء مستوي على العرش والأدلة على ذلك كثيرة جداً من الكتاب والسنة.

قال تعالى: ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَىٰ﴾.

وقال تعالى: ﴿ءَأَمِنْتُمْ مِّنْ فِي السَّمَاءِ أَنْ يَخِفَّ بِكُمْ الْأَرْضُ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ﴾.

وقال تعالى: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ﴾.

(١) ولنا تفصيل في ذلك واسع جداً في التسهيل.

(٢) خ (٢٤٥٢)، م (١٦١٠).

وقال تعالى: ﴿يَعِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَرَفَعْنَاهُ إِلَى سِدْرٍ مَبِينٍ﴾^(١).
 وفي الحديث: « أَلَا تَأْمَنُونِي وَأَنَا أَمِينٌ مَنْ فِي السَّمَاءِ »^(٢).
 وقال ابن عباس لعائشة رضي الله عنها: «وأنزل الله براءتك من فوق سبع سموات جاء به الروح الأمين»^(٣).
 وفي حديث النبي صلى الله عليه وسلم للجارية: « أَتَيْنَ اللَّهَ ». قَالَتْ فِي السَّمَاءِ. قَالَ: « مَنْ أَنَا ». قَالَتْ أَنْتَ رَسُولُ اللَّهِ. قَالَ « أَعْتَقَهَا فَإِنَّهَا مُؤْمِنَةٌ »^(٤).
 وكانت زينب تقول: «زوجكن أهاليكن وزوجني الله من فوق سبع سموات»^(٥).



(١) خ (٤٣٥١)، م (٧٤٢).

(٢) بهذا اللفظ عند أحمد (٢٧٦/١).

(٣) م (٥٣٧).

(٤) خ (٧٤٢٠).

**التذكير بخلق آدم عليه السلام
وما كان من الملائكة عليهم السلام لما أخبرهم الله عز وجل بذلك
وبيان فضل آدم عليه السلام على الملائكة بالعلم الذي علمه الله إياه
وأقرار الملائكة لربهم وخالقهم بأنه العليم الحكيم**

قال الله عز وجل: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾ وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٣١﴾ قَالُوا سُبْحَنَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴿٣٢﴾ قَالَ يَتَّخِذُ أَسْمَاءَهُمْ فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٣٣﴾﴾

بعد أن ذكر الله عز وجل بعض مننه على خلقه واستواءه على عرشه وعلمه بكل شيء يُذكرنا ربنا سبحانه وتعالى ببداية خلق آدم عليه السلام وما كان من قوله مع الملائكة بشأن ذلك فقال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَكَةِ﴾ أي واذكر قول ربك للملائكة ﴿إِنِّي جَاعِلٌ﴾ إني خالق ﴿فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ وهو آدم عليه السلام يقيم أوامر الله ويُمضي أحكامه ﴿قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا﴾ بفعل المعاصي وارتكاب المحرمات وظلم العباد ﴿وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ﴾ أي ويكثر من القتل بغير حق ﴿وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ﴾ أي ونحن ننزهك عن كل ما لا يليق بك ننزهك عن

الشريك والصاحبة والولد وتنزيها لك إنما هو فضلٌ منك تفضّلت به علينا إذ وفقتنا له فنحمدك على ذلك وكذا فنحن نقول سبحانك اللهم وبحمدك ﴿وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾ نعظمك ونمجدك ونظهر ذكرك عما لا يليق بك مما نسبك إليه الملحدون وقيل نظهر أنفسنا لك ابتغاء مرضاتك أي تجعل في الأرض من يفسد فيها ويسفك الدماء وها نحن لك مطيعون مسبحون مقدسون لك ﴿قَالَ﴾ أي قال الله سبحانه وتعالى للملائكة لما قالوا ذلك ﴿إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ أعلم أحوال الخليفة ولماذا خلقته أعلم أيكون عابداً أم مطيعاً وأعلم أن معكم إبليس الذي سيظهر أمره بعد وسيتمرد على أمري ويستكبر على خلقي وأعلم أن من ذرية الخليفة أيضاً من سيكون صالحاً عابداً تقيّاً ورعاً.

وقوله تعالى: ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا﴾ حاصل معناه أن الله سبحانه وتعالى علّم آدم عليه السلام وهو أبو البشر وكان طوله في السماء ستون ذراعاً كما قال النبي ﷺ (١) أسماء الأشياء كلها بما فيها أسماء الملائكة وأسماء النبيين وأسماء ذرية آدم وأسماء البحار والأشجار والأحجار والقدور وسائر الأسماء وفي الحديث «خَلَقَكَ اللَّهُ بِيَدِهِ وَأَسَجَدَ لَكَ مَلَائِكَتُهُ، وَعَلَّمَكَ أَسْمَاءَ كُلِّ شَيْءٍ».

وقوله: ﴿ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ﴾ ثم عرض ربنا سبحانه وتعالى هذه الأشياء على الملائكة وسأل الملائكة عن أسمائها ﴿فَقَالَ أَنبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ أخبروني بأسماء هذه الأشياء إن كنتم صادقين في دعوتكم أن الخليفة سيفسد فيها ويسفك الدماء، فحينئذ ازداد تواضع الملائكة لله عز وجل كما هو دأبها وشأنها التواضع والخضوع لله عز وجل ف ﴿قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا﴾ أي تنزهت عن أن يشابهك أحدٌ في علمك وتنزهت أن يتعلم أحدٌ علماً إلا منك ﴿إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ﴾ بكل شيء ﴿الْحَكِيمُ﴾ في كل ما تصنع، فأنت وحدك تعلم ما كان وما هو كائن وما سيكون وأنت الحكيم في كل شيء تصنعه ومن ذلك

(١) خ (٣٣٢٦)، م (٢٨٤١).

حكمتك فيما خلقت.

ومن هنا نستفيد أدباً ألا وهو أن الشخص إذا سئل عما لا يعلم فعليه أن يكل العلم إلى الله تبارك وتعالى ولا يتكلف فقد قال تعالى: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا﴾ .

وقد عتب الله على موسى عليه السلام لما سئل عن أعلم أهل الأرض فقال (أنا) فقال الله عز وجل «بلى ، لى عَبْدٌ بِمَجْمَعِ الْبَحْرَيْنِ هُوَ أَعْلَمُ مِنْكَ»^(١).

ونستفيد أدباً آخر، ألا وهو أن المعلم من علمه الله تبارك وتعالى فهو الذي علم آدم عليه السلام، ومن ثم فينبغي أن يزداد الشخص تواضعاً ما دام قد أيقن أن الذي علمه هو الله سبحانه.

﴿إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾ هكذا أقرت الملائكة لربها بالعلم الكامل والحكمة التامة وهو أهل لذلك عز وجل.

ثم أظهر الله سبحانه وتعالى فضيلة آدم على الملائكة بالعلم الذي أعطاه إياه وتفضل عليه به ف ﴿قَالَ يَادُمْ أَنْبِئْهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ﴾ أي بأسماء هذه المسميات ﴿فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ﴾ فلما أخبرهم بأسمائهم ﴿قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ﴾ يا ملائكتي ﴿إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أي أعلم كل شيء غاب في السموات والأرض، وكذا أعلم كل شيء مضى وسيأتي في السموات والأرض ﴿وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْنُيُونَ﴾ أي وكذا أعلم ما أظهرتموه بالستكم وما أخفيتموه في صدوركم كما قال تعالى: ﴿وَإِنْ يَجْهَر بِالْقَوْلِ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى﴾ وكما قال ﴿وَأَسِرُّوا قَوْلَكُمْ أَوِ اجْهَرُوا بِهِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ .



(١) خ (٣٤٠١)، م (٢٣٨٠).

(شيء من فضل العلم والعلماء)

هذا من تفضيل آدم عليه السلام على الملائكة بالعلم يظهر فضل العلم وقد قال تعالى: ﴿يَرْفَعُ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ﴾. وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾. وقال: ﴿وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾. وقال سبحانه: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾. وقال سبحانه: ﴿وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا﴾. وقال ﷺ: «خَيْرُكُمْ مَنْ تَعَلَّمَ الْقُرْآنَ وَعَلَّمَهُ»^(١). وقال: «مَنْ يُرِدِ اللَّهُ بِهِ خَيْرًا يُفَقِّهْهُ فِي الدِّينِ»^(٢). وقال: «نَضَّرَ اللَّهُ أَمْرًا سَمِعَ مِنَّا حَدِيثًا فَحَفِظَهُ حَتَّى يُبْلَغَهُ غَيْرُهُ»^(٣). فلعل طالبًا للعلم وبعد هذه النصوص وغيرها أن يجتهد قربة إلى الله عز وجل وطلبًا للترقي في أعلى الجنان. ولعل آخر إذا سئل عن مسألة لا يعلمها أن يقول الله أعلم. ولعلنا جميعًا نمثل ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا﴾.



(١) خ (مع الفتح ٩ / ٧٤).

(٢) أخرجه البخاري ومسلم.

(٣) صحيح متواتر.

(ذكر إبليس اللعين وما كان من امتناعه من السجود لآدم عليه السلام ، واستكباره وكفره وهكذا التكاليف الشرعية تظهر المؤمن من الكافر والمطيع من الفاسق وكذا ذكر إغواء إبليس لآدم وحواء عليهما السلام وتسببه في إخراجهما من الجنة وتوبة الله عز وجل على آدم وحواء عليهما السلام)

قال الله عز وجل: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَكِ اسْجُدُوا لِلْآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ ۝٣٤ وَقُلْنَا يَتَّخِذْ أَسْكُنَ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ ۝٣٥ فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتْنَعٌ إِلَىٰ حِينٍ ۝٣٦ فَتَلَقَّىٰ آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ۝٣٧ قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنْ تَبَعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ۝٣٨ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ۝٣٩﴾

يُذَكِّرُنَا اللهُ سبحانه وتعالى بما كان من إبليس وكبره وامتناعه عن السجود لآدم ثم كيده لآدم عليه السلام فيقول تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَكِ اسْجُدُوا لِلْآدَمَ فَسَجَدُوا﴾ وهذا سجود تحية وتكريم بأمر الله عز وجل وكان سائغاً في الأمم من قبلنا قال تعالى: ﴿وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا﴾ ولكنه منسوخ في شريعتنا فقد قال

النبي ﷺ: «لَوْ كُنْتُ أَمْرًا أَحَدًا أَنْ يَسْجُدَ لِأَحَدٍ لَأَمَرْتُ الْمَرْأَةَ أَنْ تَسْجُدَ لِزَوْجِهَا مِنْ عِظَمِ حَقِّهِ عَلَيْهَا»^(١).
الحاصل أن الله أمر الملائكة بالسجود لآدم فسجدوا ﴿إِلَّا إِبْلِيسَ﴾.

(إبليس هل هو من الجن أم من الملائكة؟)

وهل كان من الملائكة كما هو قول الجمهور استدلالاً بالآية المذكورة ﴿فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ﴾ أم أنه كان من الجن، ولكن وجه إليه الأمر مع الملائكة؟
الظاهر هو هذا الأخير ومن الأدلة عليه ما يلي:
قوله تعالى: ﴿إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ﴾ [الكهف: ٥٠].
﴿أَفَنَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِي﴾ [الكهف: ٥٠] وليس للملائكة ذرية^(٢).

قول النبي ﷺ: «خلقت الملائكة من نور، وخلق الجان من مارج من نار، وخلق آدم مما وصف لكم»^(٣)، وقال تعالى: ﴿وَخَلَقَ الْجَانَّ مِنْ مَّارِجٍ مِنْ نَارٍ﴾ [الرحمن: ١٥] بضميمة هذا مع قول إبليس عن نفسه: ﴿خَلَقَنِي مِنْ نَارٍ﴾ [ص: ٧٦] يظهر أن إبليس من الجن.

وأجاب هذا الفريق من أهل العلم على دليل الجمهور: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ﴾ [البقرة: ٣٤] بأن قالوا: إن هذا الاستثناء ﴿إِلَّا

(١) صحيح بمجموع طرقه وأخرجه ت (١١٥٩).

(٢) ذكر عن الشعبي أنه سئل هل لإبليس زوجة؟ قال: ذلك عرس لم أشهده. قال: ثم قرأت هذه الآية يعني: ﴿أَفَنَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ﴾ [الكهف: ٥٠] فعلمت أنه لا يكون له ذرية إلا من زوجة فقلت: نعم.

قلت: ومما يؤيد أن له زوجة قوله ﷺ: «إذا دخل الخلاء: اللهم إني أعوذ بك من الخبث والخبائث»، والخبث: ذكران الشياطين، والخبائث: إناثهم، والله أعلم.

(٣) م (حديث ٢٩٩٦).

إِبْلِيسَ ﴿ اسْتِثْنَاءٌ مَنْقُطَعٌ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا أَنْبَاءَ الظَّنِّ ﴾ [النساء: ١٥٧]، فَاتِّبَاعُ الظَّنِّ لَيْسَ بِعِلْمٍ فِي الْحَقِيقَةِ. وَكَقَوْلِ الشَّاعِرِ:

ليس عليك عطش ولا جوع إلا الرقاد والرقاد ممنوع

فالرقاد ليس من العطش والجوع.

الْحَاصِلُ أَنَّ ﴿إِبْلِيسَ أَبَى﴾ أَيِ امْتَنَعَ ﴿وَأَسْتَكْبَرَ﴾ وَاسْتَعْظَمَ وَتَرَفَعَ عَلَى أَمْرِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ ﴿وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾ قِيلَ الْمُرَادُ وَصَارَ بِامْتِنَاعِهِ هَذَا عَنِ السُّجُودِ مِنَ الْكَافِرِينَ كَقَوْلِهِ ﴿فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ﴾.

وَمِنَ الْعُلَمَاءِ مَنْ قَالَ ﴿وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾ أَيِ كَانَ فِي عِلْمِ اللَّهِ السَّابِقِ أَنَّ إِبْلِيسَ مِنَ الْكَافِرِينَ وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

هَذَا وَلَمْ يَكُنْ كُفْرُ إِبْلِيسَ كُفْرَ جُحُودِ اللَّهِ وَإِنْكَارِ اللَّهِ بَلْ كَانَ يَقَرُّ بِأَنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ خَالِقُهُ وَيَقَرُّ بِأَنَّ اللَّهَ أَغْوَاهُ فَقَدْ قَالَ ﴿خَلَقَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ﴾ وَقَالَ ﴿فِيمَا أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ وَقَالَ: ﴿فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ (٨٢) إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمْ الْمُخْلَصِينَ ﴿.

وَقَدْ كَانَ كُفْرُ إِبْلِيسَ بِاعْتِرَاضِهِ عَلَى أَمْرِ اللَّهِ وَرَدِّهِ عَلَيْهِ وَتَعَالِيهِ.

أَمَّا لِمَاذَا امْتَنَعَ إِبْلِيسَ مِنَ السُّجُودِ لِآدَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ؟ فَذَلِكَ حَسَدًا مِنْهُ لِآدَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَاحْتِقَارًا لَهُ إِذْ خُلِقَ مِنْ طِينٍ وَكَذَا امْتَنَعَ تَعَالَى فِي نَفْسِهِ؛ لِأَنَّهُ خُلِقَ مِنْ نَارٍ، قَالَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى فِي شَأْنِ إِبْلِيسَ: ﴿قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ﴾ [الأعراف: ١٢]، وَقَالَ سُبْحَانَهُ: ﴿قَالَ لَمْ أَكُنْ لَأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُ مِنْ صَلْصَلٍ مِنْ حَمَلٍ مَسْنُونٍ﴾ [الحجر: ٣٣]، وَاللَّهُ تَعَالَى أَعْلَمُ.

ثُمَّ يُذَكِّرُنَا رَبُّنَا سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بِقِصَّةِ أَبِيْنَا آدَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَمَا كَانَ مِنْ أَمْرِهِ مَعَ إِبْلِيسَ لَعْنَهُ اللَّهُ بَعْدَ أَنْ امْتَنَعَ مِنَ السُّجُودِ لِآدَمَ وَاسْتَكْبَرَ عَنْ طَاعَةِ رَبِّهِ، وَبَدَأَ فِي الْكِيدِ لِآدَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، فَيَقُولُ تَعَالَى: ﴿وَقُلْنَا يَتَّادِمُ أَسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ﴾ أَمَّا زَوْجَتُهُ فَهِيَ حَوَاءُ عَلَيْهَا السَّلَامُ وَقَدْ وَرَدَ ذِكْرُهَا فِي الْحَدِيثِ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فِيهِ «لَوْلَا

حَوَاءُ لَمْ تَخُنْ أَنتِ زَوْجَهَا الدَّهْرَ^(١) ويلاحظ هنا أن الألفصح استعمال كلمة (زوج) وكذا في قوله تعالى: ﴿وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾ فأنعم الله على آدم عليه السلام وعلى زوجته بقوله لهما ﴿أَسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ﴾ وهي جنة الخلد عند أهل السنة والجماعة وأباح الله لهما الأكل من كل شيء في الجنة إلا شجرة واحدة، وذلك بقوله تعالى: ﴿وَكُلَا مِنْهَا﴾ أي من الجنة ﴿رَغَدًا﴾ أي واسعاً هنيئاً لا عناء ولا تعب فيه ﴿حَيْثُ شِئْتُمَا﴾ أي كيف شِئْتُمَا ومتى شِئْتُمَا ﴿وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ﴾ أي لا تقترب من هذه الشجرة والشجرة لم يذكر اسمها في كتاب الله ولا في سنة رسول الله ﷺ ولا معنى للتكلف في تحديد اسمها.

وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبَا﴾ أبلغ من قوله (ولا تأكلا) فالنهي عن الاقتراب يقتضي النهي عن الأكل بطريق الأولى، كما قال تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا الرِّقَّ﴾ وهذا الذي يسميه العلماء سد الذرائع، وعليه أدلة كثيرة جداً منها:

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَسْبُوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَسْبُوا اللَّهَ عَدَاوًا بَغِيرَ عِلْمٍ﴾.
وقول النبي ﷺ: «لَا يَسُبُّ الرَّجُلُ أَبَا الرَّجُلِ، فَيَسُبُّ أَبَاهُ، وَيَسُبُّ أُمَّهُ»^(٢).
وقوله ﷺ: «يَا عَائِشَةُ لَوْلَا أَنَّ قَوْمَكَ حَدِيثُ عَهْدٍ بِجَاهِلِيَّةٍ لَنَقَضْتُ الْكَعْبَةَ وَبَنَيْتُهَا عَلَى قَوَاعِدِ إِبْرَاهِيمَ»^(٣).

نرجع فنقول أن الله عز وجل نهاهما عن الاقتراب من هذه الشجرة والأكل منها وحذرهما بقوله: ﴿وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ بين لهما أنهما إذا أكلا منها كانا من الظالمين كانا من المتعدين إلى غير ما أذن الله لهم كان على منهما من تعدى الحدود والأوامر ولكن ماذا بعد ذلك؟! لقد بدأ الشيطان في وسوسته وبدأ في كيدته لأبويننا آدم وحواء عليهما السلام! لقد بدأ يُزين لهما الأكل من الشجرة لقد بدأ في بث سمومه وكذبه وزوره وخداعه! لقد قال لهما ﴿مَا نَهَكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَنْ

(١) خ (٣٣٣٠)، م (١٤٨٠).

(٢) مسلم (حديث ٩٠).

(٣) صحيح: وتقدم.

تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ ﴿٢٠﴾ وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ ﴿٢١﴾ فَدَلَّهُمَا بِغُرُورٍ ﴿٢٢﴾
لقد قال لآدم عليه السلام: ﴿هَلْ أَذُوكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَى﴾.

لقد أقسم لهما بالله على صدق مقالته، ولم يكن أبونا آدم عليه السلام يظن ويتوقع أن أحداً يقسم بالله كاذباً، ولكنه قد حدث وكذب إبليس اللعين ﴿فَازَّاهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا﴾ أي أوقعهما في الزلل وهو الخطأ بسببها، أي بسبب أكلهما منها ف«عنها» هنا معناها بسببها كما في قوله تعالى: ﴿يُؤْفِكُ عَنْهُ مِنَ الْوَيْفِكِ﴾ أي يُصْرِفُ بسببه من هو مأفوك وهنا وجه آخر حاصله أن ﴿فَازَّاهُمَا﴾ معناها فنحاهما، وأزالهما ويكون المعنى نحاهما الشيطان عن الجنة وقوله ﴿فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ﴾ حاصل معناه أن آدم وحواء عليهما السلام أكلتا من الشجرة بعد أن أقسم إبليس لهما!! فماذا كان؟! ماذا كان لما خالفا أمر الله عز وجل لقد أخرجنا مما كنا فيه من الجنة ونعيمها لقد تعرياً بعد أن كنا مستورين كما قال تعالى: ﴿يَبْنِيْءَ آدَمَ لَا يَفْنَىٰ تَكُمُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ الْجَنَّةِ يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْءَٰهُمَا﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَقُلْنَا اهْبِطُوا﴾ يا آدم ويا حواء ويا إبليس ^(١).

وقوله تعالى: ﴿بَعْضُكُم لِبَعْضٍ عَدُوٌّ﴾ أي آدم وحواء وذريتهما وإبليس وذريته، وقد قال تعالى: ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا﴾ وقال ﴿أَلَمْ أَعْهَدَ إِلَيْكُمُ يَبْنِيْءَ آدَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾.

ثم قال تعالى: ﴿وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ﴾ موضع تستقرون فيه ﴿وَمَتَعٌ﴾ تتمتعون به من المأكل والمشرب والمسكن والمنكح والملبس وغير ذلك ﴿إِلَّا حِينَ﴾ أي إلى يوم القيامة أو إلى الموت أما إبليس فإلى يوم القيامة لأنه قد قال ﴿أَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ فأجيب إلى طلبه هذا وقال تعالى: ﴿فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ﴾ ^(٢٧) إلى يومِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ ولكن رحمة الله بنا وبأبينا آدم عليه السلام وأمنا حواء أن الله عز وجل علّم

(١) وأورد بعض العلماء (الحيات أيضاً زاعماً أنها ساعدت إبليس في الإغواء ودخول الجنة، وكانت دابة من أحسن الدواب لكنها مسخت بسبب ذلك، وليس على هذا القول دليل - فيما علمت - من كتاب الله ولا من سنة رسول الله ﷺ وقد قال النبي ﷺ فيما أخرجه مسلم في صحيحه، في شأن الحيات ما سالمناهن منذ حاربهن، ولكن لا تعلق لهذا ببياننا هنا.

آدم كلمات يستغفر بها ويتوب إلى الله عز وجل بها وأفهمه إياها فغفر له بسببها كما قال تعالى ﴿فَلَقَىٰ آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ﴾ من هذه الكلمات ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ قد قالها آدم عليه السلام معترفاً بذنبه وقالتها حواء عليها السلام لذلك فتاب الله عليهما بسبب ذلك وذلك من فضل الله علينا وعليهما، وهذا من رحمة الله بنا ﴿إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ﴾ الذي يرجع على عباده بالرحمة والمغفرة والفضل والإحسان ﴿الرَّحِيمُ﴾ بعباده المؤمنين كما قال: ﴿وَكَانَ يَالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا﴾.

ومن رحمته أن فتح باب التوبة لنا ولم يغلقه في وجوهنا ثم تكرر الأمر بالإهباط، وتأكد ومعه بيان عظيم فقال تعالى ﴿قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ﴾ أي فإن يأتكم وأيضاً إذا جاءكم ﴿مِنِّي هُدًى﴾ أي من تهتدون به وتتقربون به إليّ وإلى جنتي من رسل وأنبياء وكتب، وكذا توفيق للهداية، فلا ترفضوا هدايتي بل اسلكوا السبل التي دلتكم عليها كتيبي وأرشدكم إليها رُسلي.

﴿فَمَنْ يَبْعَ هُدًى﴾ فمن سلك السبيل التي أرشد إليها رُسلي وبينتها كتيبي ﴿فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾ مما هو آت من كربات في الدنيا أو في القبر أو في الآخرة ﴿وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ على ما قد فات وما قد تركوا وخلفوا من بعدهم.

فالبيان العظيم لآدم وذريته ﴿فَأِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنْ يَبْعَ هُدًى فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ أما الذين لم يقبلوا هداي ولم يصدقوا رُسلي، وجحدوا آياتي وأشركوا معي غيري فذكر الله عز وجل مصيرهم بقوله: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ يعني هم أهلها الجديرون بها المخلدون فيها الذين لا يموتون فيها ولا يحيون ولا يخرجون منها ولا يخفف عنهم العذاب، كما في الحديث «أَمَّا أَهْلُ النَّارِ الَّذِينَ هُمْ أَهْلُهَا فَإِنَّهُمْ لَا يَمُوتُونَ فِيهَا وَلَا يَحْيَوْنَ وَلَكِنْ نَاسٌ أَصَابَتْهُمْ النَّارُ بِذُنُوبِهِمْ - أَوْ قَالَ بِخَطَايَاهُمْ - فَأَمَاتَهُمْ إِمَاتَةً حَتَّى إِذَا كَانُوا فَحْمًا أُذِنَ بِالشَّفَاعَةِ» ^(١).

(١) مسلم (حديث ١٨٥).

تذكير بني إسرائيل بنعم الله عز وجل عليهم
وحثهم على الإيمان والوفاء بالعهد الذي عاهدوا
الله عليه وتحذيرهم من عقاب الله عز وجل

قال الله عز وجل: ﴿يَبْنِي إِسْرَءِيلَ أَذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أَوْفٍ بِعَهْدِكُمْ وَإِنِّي فَأَرْهَبُكُمْ ۖ﴾ (٤٠) ﴿وَأَمِنُوا بِمَا أَنْزَلْتُ مُصَدِّقًا لِمَا مَعَكُمْ وَلَا تَكُونُوا أُولَٰ كَافِرٍ بِهِ ۖ وَلَا تَشْتَرُوا بِعَاقِبَتِي ثَمَنًا قَلِيلًا وَإِنِّي فَاتَّقُونِ﴾ (٤١) ﴿وَلَا تَلْسُؤُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكُنُوا الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ (٤٢) ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ﴾ (٤٣) ﴿أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ نَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ (٤٤) ﴿وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ﴾ (٤٥) ﴿الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلَاقُوا رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾ (٤٦) ﴿يَبْنِي إِسْرَءِيلَ أَذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ وَاتَّقُوا يَوْمًا لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَعَةٌ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾ (٤٨) ﴿

يتوجه الخطاب إلى بني إسرائيل ومنهم اليهود الذين كانوا يسكنون مدينة رسول الله ﷺ وما حولها فيقول تعالى: ﴿يَبْنِي إِسْرَءِيلَ﴾ أما إسرائيل فهو نبي الله يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم عليهم السلام وهو المذكور في قول تعالى: ﴿وَمَنْ

ذُرِّيَّةَ إِسْرَءِيلَ ﴿١﴾ وفي قوله تعالى: ﴿كُلُّ الطَّعَامِ كَانَ حَلَالًا لِّبَنِي إِسْرَءِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَءِيلُ عَلَى نَفْسِهِ﴾ [آل عمران: ٩٣].

أما عن المعنى اللغوي لكلمة إسرائيل فمن العلماء من قال هي مركبة من كلمتين (إسر) بمعنى عبد، (إيل) بمعنى الله قالوا فذلك كقوله جبرائيل وميكائيل ونحوها فالله أعلم.

يقول الله تعالى: ﴿يَنْبَغِي إِسْرَءِيلَ﴾ يا ذرية النبي الكريم إسرائيل ^(١) ﴿أَذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ﴾ اذكروها ولا تنسوها ولا تنسوا شكرها، اذكروها أيضًا بلسانكم، حدثوا بها الناس ولا تكتموها، وذلك كقوله تعالى ﴿وَأَمَّا نِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾ اذكروها أيضًا واعملوا بمقتضاها من هذه النعم أن الله فضلهم على العالمين ونجاهم من آل فرعون الذين كانوا يسومونهم سوء العذاب يذبحون الأبناء ويستحيون النساء ويسخرون الرجال لقد أنجاهم الله من عدوهم وأغرق عدوهم أمام أعينهم، ولقد عفا عنهم لما عبدوا العجل لما قدموا توبة لذلك، ولقد آتاهم الله الكتاب والفرقان، ولقد ظلل عليهم الغمام وأنزل عليهم المن والسلوى إلى غير ذلك من النعم التي تأتي في محلها إن شاء الله.

ثم يأمرهم الله بالوفاء بالعهد الذي عاهدوه عليه فيقول تعالى: ﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ﴾ أما العهد الذي لله عليهم فهذا يشمل كل العهود التي أخذها الله عليهم على لسان أنبيائهم.

فمن هذه العهود ما أخذه الله عليهم من الإيمان بالنبي محمد ﷺ، إذا بُعث، كما قال تعالى:

﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا

(١) وفي هذا من الفوائد مشروعية تذكير الأبناء بصلاح الآباء لعلهم ينتفعون بذلك، وفيه أدب من آداب الخطاب باستجاشة الخير الذي في الناس، كما نقول يا ابن المحسنين تصدق ويا ابن الشجعان بارز الأبطال ويا ابن العلماء تعلم.

أَفَرَأَيْتُمْ مَا ذَكَرَهُ اللَّهُ فِي كِتَابِهِ: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ، فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ وَأَشْرَوْا بِهِ مُمْنًا قَلِيلًا فَيَتَسَّ مَا يَشْتَرُونَ﴾. [آل عمران: ٨١].

[آل عمران: ١٨٧]

﴿وَمَا ذَكَرَهُ سُبْحَانَهُ فِي كِتَابِهِ: ﴿وَلَقَدْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَءِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ اثْنَيْ عَشَرَ نَقِيبًا وَقَالَ اللَّهُ إِنِّي مَعَكُمْ لَئِنْ أَقَمْتُمُ الصَّلَاةَ وَآتَيْتُمُ الزَّكَاةَ وَآمَنْتُمْ بِرُسُلِي وَعَزَّرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا لَأُكَفِّرَنَّ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَلَأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ فَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ﴾ [المائدة: ١٢].

﴿وَكَمَا قَالَ سُبْحَانَهُ: ﴿وَرَحِمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ﴾ (١٥٦) الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْنُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ ۖ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [الأعراف: ١٥٦، ١٥٧]، فعلى ذلك فعهد الله هو عام في كل ما أخذه عليهم وعهدهم هو ما ذكره الله سبحانه حيث قال: ﴿لَأُكَفِّرَنَّ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَلَأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ [المائدة: ١٢] فهو تكفير السيئات وإدخال الجنات، والله أعلم.

وقوله تعالى: ﴿وَإِنِّي فَأَرْهَبُونِ﴾ أي لا ترهبوا إلا إياي أي لا تخافوا إلا مني ثم يأمرهم الله عز وجل بالإيمان بالقرآن الذي أنزله على نبيه محمد ﷺ فيقول تعالى: ﴿وَأَمِنُوا بِمَا أُنْزِلَتْ مُصَدِّقًا لِمَا مَعَكُمْ﴾ مصدقًا للتوراة التي بأيديهم ووجه تصديق القرآن للتوراة تتمثل في الآتي:

١ - أنهم أخبروا به في كتبهم ثم ظهر كما أخبروا به، فصدق هذا القرآن ما كان موجودًا في كتبهم.

٢ - أن النبي ﷺ أخبر (بما في كتاب الله) أنهم أنبياء وأنزلت عليهم الكتب فهو مصدق لهم أي: شاهد بصدقهم.

٣ - أنه وافقهم فيما في كتبهم من التوحيد وذكر الدار الآخرة وغير ذلك من عقائد الشرع، فهو مصدق لهم لاتفاقهم في الإيمان بذلك، والله تعالى أعلم.
أما قوله تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُوا أَوَّلَ كَافِرٍ بِهِ﴾ أي لا تكونوا أول فريق كافر بهذا القرآن من أهل الكتاب فإن من بعدهم تابع لهم أي لا تبادروا بالكفر به، ولا تسنوا الكفر لمن بعدكم، فإن فعلتم فعليكم إثمكم وإثم من صنع صنيعكم إلى يوم القيامة.

أما قوله تعالى: ﴿وَلَا تَشْتَرُوا بِإِيمَانِكُمْ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ فقد قيل: إن الآيات هنا هي الآمرة بالإيمان بمحمد ﷺ، والثمن القليل هو ما ينتفعون به في الدنيا من بقاء رئاستهم ونحو ذلك فكتموا الآيات التي فيها صفة محمد ﷺ مقابل الحرص على جاههم ورئاستهم.

﴿وقيل أعم من ذلك بمعنى﴾: أن كل ما فيه مال أو جاه يقدمونه وإن كان خلاف الآيات فيخفون الآيات، مقابل المتاع الفاني.

﴿وقيل﴾: كانوا يحرفون الكلم عن مواضعه لشرف الشريف ونحو ذلك، كما بينه رسول الله ﷺ بقوله: «إنما أهلك من كان قبلكم أنهم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد». وكل هذا وارد ومحتمل، والعلم عند الله تبارك وتعالى.

أما قوله تعالى: ﴿وَإِنِّي فَأَتَّقُونَ﴾ أي اجعلوا بينكم وبين غضبي وقاية، وذلك بطاعتكم وتصديقكم لرسولي وبعدهم عن معصيتي، وأيضاً ﴿وَإِنِّي فَأَتَّقُونَ﴾ أي فاحذروا واحذروا غضبي وعقابي.

وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَلْسُؤُوا﴾ أي لا تخلطوا ﴿الْحَقَّ﴾ المنزل من عند الله ﴿بِالْبَاطِلِ﴾ الذي افترتموه واختلقتموه من عند أنفسكم ﴿وَتَكُنُّوا الْحَقَّ﴾ وتخفوه ولا تظهروه ﴿وَأَنْتُمْ تَعْمُونَ﴾ أنكم كتمتم الحق وخلطتموه بالباطل فصنيعكم ليس عن جهل

ولكن عن علم وعمد، وهذا أشد قبحًا وأعظم جرمًا بلا شك وأيضًا فقلوه: ﴿وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ تعلمون عقوبة من لبس الحق بالباطل وما جاء في ذلك من الوعيد الشديد.

ثم يأمر الله عز وجل بإقامة الصلاة إذ يقول سبحانه: ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾ داوموا على فعلها في أوقاتها ﴿وَأَتُوا الزَّكَاةَ﴾ والمراد تأديتها غير منقوصة ولا مبخوسة، أدوها لمستحقيها ﴿وَأَزْكُوا مَعَ الزَّكَاةِ﴾ صلوا مع المصلين، صلوا مع المصلين في جماعة، ادخلوا في جماعة المصلين ثم يوجه العتاب لكل من أمر الناس بالبر ونسي نفسه من اليهود الذين يتلون التوراة التي بأيديهم، وكذا عموم كل من أمر بالبر ونسي نفسه من النصارى وأهل النفاق ومن قال ما لم يعمل وهو قادر على العمل، وإن كان من المسلمين فيقول تعالى: ﴿أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ نَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ إنه استفهام للتوبيخ والتفريع.

أما المراد بالبر فعموم الطاعات فكل طاعة لله تسمى برًّا فكان الأخبار يحضون أتباعهم على طاعة الله عز وجل وتقواه ويواقعون هم المعاصي ويقترفونها فالمعنى تأمرون الناس بطاعة الله وتتركون أنفسكم تعصيه ولأهل العلم أيضًا أقوال منها ما يلي:

- ١ - أن المراد بالبر هنا التمسك بالتوراة، فكان بنو إسرائيل يأمرون الناس بالتمسك بها ولا يتمسكون بها هم أنفسهم.
- ٢ - أن المراد بالبر اتباع محمد ﷺ، فكان الرجل من اليهود يوصي أقاربه سرًّا باتباع محمد ﷺ ويقول لهم: إنه هو الرسول الحق - ولا يتمسك هو بذلك^(١).
- ٣ - أن المراد بالبر هنا الصدقة، فقد كان علماء اليهود يأمرون بها ولا يتصدقون.

- ٤ - أن المراد بالبر الحث على اتباع النبي ﷺ، فقد كان جماعة من اليهود

(١) وقد أخرج البخاري (حديث ١٣٥٦) من حديث أنس رضي الله عنه قال: كان غلام يهودي يخدم النبي ﷺ فمرض فأتاه النبي ﷺ يعوده فقعد عند رأسه فقال له: «أسلم»، فنظر إلى أبيه وهو عنده فقال له أطمع أبا القاسم ﷺ، فأسلم فخرج النبي ﷺ وهو يقول: «الحمد لله الذي أنقذه من النار».

يخبرون الناس بخروج النبي ﷺ ويحثونهم على اتباعه قبل أن يبعث فلما بُعث رسول الله ﷺ كفروا به وجحدوا نبوته وأعرضوا عن دينه.

❦ هذا والآية الكريمة: ﴿أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ﴾ وإن كان سياقها في اليهود إلا أن معناها عام فيدخل فيها كل من أمر بالبر وترك نفسه، والله أعلم.

أما قوله تعالى: ﴿وَتَنسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ﴾ فمعناه وتتركونها لا تأمرونها بالخير ولا تعملون به فالنسيان هنا بمعنى الترك قال تعالى: ﴿نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ﴾.

﴿وَأَنْتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ﴾ وهو التوراة.

وقوله تعالى: ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ معناه والله أعلم -: أفلا تمنعون أنفسكم من الوقوع في هذه الحالة المخزية وهي أمر الناس بالبر ونسيان النفس فالعقل: المنع، ومنه عقلال البعير.

نصوص آخر في (التحذير من مخالفة القول للعمل)

هذا، وقد وردت جملة نصوص تحذر من يأمر الناس بالبر وينسى نفسه، فمن ذلك ما يلي:

قوله تعالى: ﴿أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ نَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ !!؟ [البقرة: ٤٤].

وقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾ (٢) كِبْرُ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ [الصف: ٢، ٣].

وقول شعيب عليه السلام لقومه: ﴿وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَى مَا أَنْهَيْكُمْ عَنْهُ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ﴾ [هود: ٨٨].

وقريب من ذلك قوله تعالى: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ حُمِلُوا الثَّورَةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا﴾ [الجمعة: ٥].

أما أحاديث رسول الله ﷺ فمنها: ما أخرجه البخاري^(١) من حديث أسامة بن زيد رضي الله عنه قال قال رسول الله ﷺ: «يُجاء بالرجل يوم القيامة فيلقى في النار فتندلق أقتابه في النار فيدور كما يدور الحمار برحاه فيجتمع أهل النار عليه فيقولون: أي فلان ما شأنك؟ أليس كنت تأمرنا بالمعروف وتنهانا عن المنكر؟ قال: كنت آمركم بالمعروف ولا آتية وأنهاكم عن المنكر وآتية».

✽ أما من الأشعار فنورد هنا ما ذكره القرطبي رحمه الله، نقلاً عن غيره.

قال رحمه الله: وقال منصور الفقيه فأحسن:

إِنْ قَوْمٌ يَأْمُرُونَ بِالْإِثْمِ لَا يَفْعَلُونَ
لَمَجْرَانِينَ وَإِنْ هُمْ لَمْ يَكُونُوا يُضَرَّعُونَ

وقال أبو العتاهية:

وَصَفَتِ التُّقَى حَتَّى كَأَنَّكَ ذُو تُقَى
وَرِيحُ الْخَطَايَا مِنْ ثِيَابِكَ تَسْطَعُ

وقال أبو الأسود الدؤلي:

لَا تَنْهَ عَنْ خُلُقٍ وَتَأْتِي مِثْلَهُ
وَأَبْدًا بِنَفْسِكَ فَانْهَ عَنْ غِيَّهَا
عَارٌ عَلَيْكَ إِذَا فَعَلْتَ عَظِيمٌ
فَإِنْ انْتَهَتْ عَنْهُ فَأَنْتَ حَكِيمٌ
فَهَنَّاكَ يُقْبَلُ إِنْ وَعَظْتَ وَيُقْتَدَى
بِالْقَوْلِ مِنْكَ وَيَنْفَعُ التَّعْلِيمُ

وقال أبو عمرو بن مطر: حضرت مجلس أبي عثمان الحيري الزاهد فخرج وقعد

على موضعه الذي كان يقعد عليه للتذكير، فسكت حتى طال سكوته؛ فناداه رجل كان

يعرف بأبي العباس: ترى أن تقول في سكوتك شيئاً؟ فأنشأ يقول:

وَعَبْرُ تَقِيٍّ يَأْمُرُ النَّاسَ بِالتَّقَى
طَبِيبٌ يُدَاوِي وَالطَّبِيبُ مَرِيضٌ

قال: فارتفعت الأصوات بالبكاء والضجيج.

(١) أخرجه البخاري (٣٢٦٧).

(الحث على الاستعانة بالصبر والصلاة)

ثم يأمر الله عز وجل بني إسرائيل وعموم المؤمنين بالاستعانة بالصبر والصلاة فيقول تعالى: ﴿وَأَسْتَعِينُوا﴾ أي اطلبوا العون على كل ما يشق عليكم، واطلبوا العون على طاعة الله ﴿بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ﴾ واطلبوا العون على فعل ما يرضي الله ويُجنب مساخطه واطلبوا العون لتحمل المصائب والصبر على أقدار الله عز وجل ولدفع البلاء وكذا الخطاب لبني إسرائيل، أمروا أن يستعينوا بالصبر والصلاة كي تذهب عنهم شهوة الرئاسة والوجاهة، فقد كانوا ذوي جاه ورئاسة فليلهم ﴿وَأَسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ﴾ لتذهب عنكم شهوة الرئاسة والجاه.

ويطيب لي أن أذكر نفسي وإخواني ببعض الوارد في هذا الباب، باب الاستعانة بالصبر والصلاة فأقول وبالله التوفيق:

إن الاستعانة بالصبر والصلاة مطلوب لتحمل المصائب والصبر على أقدار الله عز وجل.

وكذلك فعل الخليل إبراهيم عليه السلام لما دخلت سارة على الجبار قام إبراهيم عليه السلام يصلي^(١).

فكذلك ابن عباس رضي الله عنهما نُعي إليه أخوه قُثم وهو في سفر فاسترجع ثم تنحى عن الطريق فأناخ فصلى ركعتين أطل فيهما الجلوس ثم قام يمشي إلى راحلته وهو يقول: ﴿وَأَسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ﴾^(٢) [البقرة: ٤٥]. وكذلك خبيب قام يصلي بين يدي القتل^(٣).

(١) أخرجه مسلم (٢٣٧١) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال.... الحديث وفيه أن إبراهيم عليه السلام قام إلى الصلاة لما أدخلت سارة على الجبار، وأخرجه البخاري مختصراً (٥٠٨٤) مرفوعاً ومطولاً موقوفاً (٢٣٥٨) وسيأتي بطوله في آل عمران عند سؤال تسليط قوم على قوم.

(٢) أخرجه الطبري (رقم ٨٥٢) بإسناد صحيح.

(٣) أخرجه البخاري (حديث ٣٩٨٩) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه وفيه.. فلما خرجوا به من الحرم

❖ والاستعانة مطلوبة لدفع البلاء كذلك فعند كسوف الشمس تشرع الصلاة حتى تنجلي، ومن المعلوم أن كسوف الشمس أو القمر آيتان يخوف الله ﷻ بهما عباده، وقد قال النبي ﷺ: «إذا رأيتم شيئاً من ذلك فافزعوا إلى ذكر الله ودعائه واستغفاره»^(١) الحديث.

❖ وقد قال الله تعالى في شأن نبيه يونس عليه السلام: ﴿فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ [الصافات: ١٤٣، ١٤٤].

وقوله: ﴿مِنَ الْمُسَبِّحِينَ﴾ فسرّها بعض العلماء بـ (المصلين)، والله أعلم.

❖ والاستعانة بالصلاة مطلوبة للحفاظ ودفع الشرور، قال الله تعالى: ﴿أَتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ﴾ [العنكبوت: ٤٥].

❖ وكذلك الاستعانة مطلوبة للتوفيق إلى أعمال الخير كما في صلاة الاستخارة، فإننا نركع ركعتين ثم ندعو الله ﷻ بالدعاء المذكور^(٢).

❖ وكذلك الاستعانة مطلوبة لجلب الرزق، قال الله تبارك وتعالى: ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا لَا نَسْأَلُكَ رِزْقًا نَحْنُ نَرْزُقُكَ وَالْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَى﴾ [طه: ١٣٢].

أما الصبر فالمراد به الحبس، صبرت نفسي على الشيء إذا حبستها عليه وهو هنا عام يدخل فيه كل أنواع الصبر، فمنه صبر على طاعة الله ﷻ (أي: حبس النفس

^(١) ليقتلوه في الحل قال لهم خبيب: دعوني أصلي ركعتين فتركوه فركع ركعتين فقال: والله لولا أن تحسبوا أن ما بي جزع لزدت.

^(٢) أخرجه البخاري (مع الفتح ٥٤٥/٢)، ومسلم (٢١٤/٦) من حديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه مرفوعاً.

^(٢) حديث الاستخارة أخرجه البخاري (مع الفتح ١٨٣/١١) من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنه قال: كان النبي ﷺ يعلمنا الاستخارة في الأمور كلها كالسورة من القرآن: «إذا هم أحدكم بالأمر فليركع ركعتين من غير الفريضة ثم يقول: اللهم إني أستخيرك بعلمك وأستقدرك بقدرتك وأسألك من فضلك العظيم، فإنك تقدر ولا أقدر، وتعلم ولا أعلم، وأنت علام الغيوب، اللهم إن كنت تعلم أن هذا الأمر خير لي في ديني ومعاشي وعاقبة أمري - أو قال: في عاجل أمري وآجله - فاقدره لي، وإن كنت تعلم أن هذا الأمر شرّ لي في ديني ومعاشي وعاقبة أمري - أو قال: عاجل أمري وآجله - فاصرفه عني واصرفني عنه واقدر لي الخير حيث كان ثم رضني به، ويسمي حاجته».

وإلزامها طاعة ربها ﷻ).

❁ ومنه الصبر عن محارم الله ﷻ (أي: منع النفس عن المحارم).
❁ وصبر على أقدار الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: (من السراء والضراء).
❁ ومن الصبر الصوم كذلك، وقد قال بعض العلماء في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يُوفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [الزمر: ١٠]: إنهم الصائمون^(١).
هذا، ووجه الاستعانة بالصلاة يتمثل في أن الصلاة يتلى فيها ما يرغب في الآخرة ويزهد في الدنيا، وفي إقبال العبد عليها اعتراف من العبد بأنه سيلقى ربه ﷻ فتهون عليه المصائب وتسهل عليه الطاعات، والله أعلم.
وقوله تعالى: ﴿وَلِئَلَّا لَكِبِيرَةٌ﴾ أي وإن الاستعانة بالصبر والصلاة لثقيلة وقيل أيضًا: إن الصلاة لثقيلة إلا على الخاشعين، وعلى هذا القول الأخير فقد اقتصر على الصلاة بقوله ﴿وَلِئَلَّا لَكِبِيرَةٌ﴾ لأهميتها كما اقتصر على ذكر التجارة في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْجَةً أَوَّلَوْا بِأَنْفُسِهِمْ إِلَىٰ آلِهِمْ﴾ ولم يقل إليهما لأن الحامل الأصلي على الانفضاض هو التجارة.

ومن العلماء من قال: إن الصبر داخل في الصلاة والله أعلم.
أما قوله تعالى: ﴿إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ﴾ فالاستعانة عليهم سهلة ويسيرة بتيسير الله عز وجل أما الخاشعون فهم المتواضعون الخاضعون لطاعة الله الخائفون من سطوته المصدقون بوعده ووعيده والخاشع هو الذي يرى عليه أثر الدل والانكسار خشعت أي: سكنت ثم بين الله سبحانه وتعالى بعض صفات الخاشعين فمنها ﴿الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلَاقُوا رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾ والمراد بالظن هنا اليقين، فالمعنى الذين يوقنون أنهم ملاقوا ربهم، وليس المراد بالظن هنا الشك فالشك في الآخرة كفر والعياذ بالله قال تعالى: ﴿بَلْ أَدْرَكَ عَلَيْهِمْ فِي الْآخِرَةِ بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِنْهَا بَلْ هُمْ عَنْهَا عَمُونَ﴾ وقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلَاقُوا رَبِّهِمْ﴾ له ارتباط بما قبله فالذين يظنون أنهم ملاقوا ربهم يحملهم يقينهم بلقاء الله على الصبر على العبادات واحتساب الأجر في ذلك وكذا

(١) ومستندهم: «والحسنة بعشر أمثالها، وكل عمل ابن آدم له إلا الصوم فإنه لي وأنا أجزي به».

يسهل عليهم الطاعات ويصبرهم على المصائب والله تعالى أعلم.
والآية تفيد أن أهل الإيمان سيلقون ربهم كما قال تعالى: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ مُلْقَوُهُ﴾.

ثم يتوجه الخطاب ثانية إلى بني إسرائيل لتأكيد الأمر الأول وتعداد النعم التي أنعم الله بها عليهم فيقول تعالى: ﴿يَبْنِي إِسْرَءِيلَ﴾ والخطاب هنا لبني إسرائيل الذين كانوا يسكنون مدينة رسول الله ﷺ وما حولها بالدرجة الأولى.

وقوله تعالى: ﴿اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ﴾ تقدم قريبا وقوله ﴿وَإِنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ بيان لبعض أنواع النعم التي أنعم الله بها على بني إسرائيل ألا وهي أنه فضلهم على عالمي زمانهم وإن تساءل متسائل فقال كيف فضل الإسرائيلون المعاصرون للنبي ﷺ على غيرهم؟، فالجواب: أن المراد بالفضل هنا تفضيل أجدادهم تفضيل الآباء يعد تفضيلاً للأبناء إن ساروا على نفس الدرب والطريق ونحو ذلك.

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَنْجَيْنَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ﴾ والمراد أجدادهم أيضاً فإن سكان المدينة ما عاصروا فرعون ولكن نجاة الآباء نجاة للأبناء، هذا، وقد أشرنا قريبا إلى أنهم إنما فضلوا على عالمي زمانهم وإلا فقد قال تعالى في شأن أمة محمد ﷺ ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ وفي الحديث في شأن أمة محمد ﷺ ﴿إِنَّكُمْ تُتِمُّونَ سَبْعِينَ أُمَّةً أَنْتُمْ خَيْرُهَا وَأَكْرَمُهَا عَلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ﴾^(١) هذا والآية المذكورة ﴿وَإِنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ كقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ اخْتَرْنَاهُمْ عَلَى عِلْمٍ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ أي على عالمي زمانهم.

ثم يحذرهم الله من العقاب يوم القيامة إن هم استمروا على الخلاف والعناد فيقول تعالى: ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا﴾ واحذروا عذاب يوم واخشوا يوماً أي يوماً شديداً عصيباً كما قال تعالى: ﴿فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِنْ كَفَرْتُمْ يَوْمًا يَجْعَلُ الْوِلْدَانَ شِيبًا﴾^(١٧) السَّمَاءُ مُنْفِطِرٌ بِهِ كَانَ وَعْدُهُ مَفْعُولًا﴾ وكما قال تعالى: ﴿يَكَايُهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ وَأَخْشَوْا يَوْمًا لَا يَجْزِي

(١) إسناده حسن.

وَالِدٌ عَنْ وَلَدِهِ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَنِ وَلَدِهِ شَيْئًا ﴿١﴾ وكما قال تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا النَّاسُ آتِقُوهَا رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ ﴿١﴾ يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمَلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَرَىٰ وَمَا هُمْ بِسُكَرَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ ﴿٢﴾﴾

أن المراد باليوم فيوم القيامة ففي هذا اليوم ﴿لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا﴾ لا تغني عنها شيئاً ولا تقضي عنها شيئاً بل كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ يَقْرَأُ الْمُرءُ مِنْ أَخِيهِ ﴿٣٤﴾ وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ ﴿٣٥﴾ وَصَحْبِهِ وَبَيْنِهِ ﴿٣٦﴾ لِكُلِّ أَمْرٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ﴾ وكما قال تعالى: ﴿لَا تَجْزِي وَالِدٌ عَنْ وَلَدِهِ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَنِ وَلَدِهِ شَيْئًا﴾ وكما قال تعالى: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ وَإِنْ تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ حِمْلِهَا لَا يَحْمِلُ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ﴾ أما قوله تعالى: ﴿وَلَا يَقْبَلُ مِنْهَا شَفَعَةً﴾ أي لا يقبل من نفس شفاعته في غيرها إلا بإذن الله ولا يقبل من نفس شفاعته في كافر ولا يقبل من نفس شفاعته إلا لمن ارتضاه الله وبهذا يجمع بين الآيات التي نفت الشفاعه والآيات التي أثبتتها فالآيات التي نفتها نفتها في الكفار ^(١) كقوله

(١) ويستثنى من هذا أبو طالب عم رسول الله ﷺ فقد أخرج البخاري (٣٨٨٥) ومسلم (٢١٠) من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أنه سمع النبي ﷺ وذكر عنده عمه أبو طالب - فقال: «لعله تنفعه شفاعتي يوم القيامة فيُجعل في ضحضاح من النار يبلغ كعبه يغلي منه دماغه»، وقد جاء هذا مجزوماً به في حديث العباس بن عبد المطلب رضي الله عنه قال للنبي ﷺ: «ما أغنيت عن عمك، فإنه كان يحوطك ويغضب لك»، قال: «هو في ضحضاح من نار، ولولا أنا لكان في الدرك الأسفل من النار»، أخرجه البخاري (٣٨٨٣)، ومسلم (٢٠٩)، فأبو طالب مستثنى، ثم إن الشفاعه لم تخرجه من النار، وقد يقال: إن الكافر الداعي إلى كفره ليس كالكافر الذي لا يدعو إلى الكفر وهذا صحيح، وقد قال الله تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا اتَّبِعُوا سَبِيلَنَا وَلْنَحْمِلْ خَطَايَكُمْ وَمَا هُمْ بِحَامِلِينَ مِنْ خَطَايَهُمْ مِنْ شَيْءٍ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿١١﴾ وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَنْفَالًا مَعَ أَثْقَالِهِمْ وَلَيُسْأَلُنَّ يَوْمَ الْقِيَمَةِ عَمَّا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴿١٢﴾﴾ [المكوت: ١٢-١٣].

وقال تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ مَاذَا أُنْزِلَ رَبُّكُمْ قَالَُوا أَسْطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴿١٤﴾ لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ أَلَا سَاءَ مَا يَزُرُونَ ﴿١٥﴾﴾ [النحل: ٢٤، ٢٥].
فأبو طالب كان كفراً لكنه لم يكن داعياً إلى الكفر بل كان منافحاً عن رسول الله ﷺ فمن ثم خفف عنه.

لكن صراحة حديث رسول الله ﷺ حيث قال: «ولولا أنا...» أقوى من المفهوم، والله تعالى أعلم.

تعالى: ﴿فَمَا نَنْفَعُهُمْ شَفَعَةُ الشَّافِعِينَ﴾، ونفتها إلا أن يأذن الله للشافع والمشفع فيه وكذلك فالأصنام والشمس والقمر وسائر المعبودات لا تشفع لعبديها والآيات التي أثبتتها أثبتتها عقيدة بإذن الله وفيمن ارتضاه الله كما قال تعالى ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾ وكما قال ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَى﴾.

أما عن معنى الشفاعة لغة فالشفع ضد الوتر فالذي يشفع لشخص كأنه ينضم إليه لقضاء حاجته فيصيره شفعا بعد أن كان وترًا.

ويراد بالشفاعة التوسط للتجاوز عن الذنوب والجرائم ويراد بها أيضًا التوسط لجلب خير أو لدفع ضرر عن شخص من الأشخاص.

أما قوله تعالى: ﴿وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ﴾ فالعدل المراد به الفدية كما قال تعالى: ﴿وَإِنْ تَعَدَّلَ كُلُّ عَدْلٍ لَا يُؤْخَذُ مِنْهَا﴾ وكما قال تعالى: ﴿فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِمْ مِلْءُ الْأَرْضِ ذَهَبًا وَلَوْ افْتَدَى بِهِ﴾ أي أن أي نفس تريد أن تفتدي نفسها فمهما بذلت من مال وغيره فلن يقبل منها ولو افتدت بملء الأرض ذهبًا وقوله تعالى: ﴿وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾ أي ولا هم يُمنعون من عذاب الله وكذلك لا ينصرهم أحد، وهي كقوله تعالى: ﴿فَالَهُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَلَا نَاصِرٌ﴾.

(بحث في الشفاعات)

ثم هذا بحث سريع وعاجل في الشفاعة، فتفسير كتاب الله لا ينبغي أن يخلو من ذلك، وخاصة أنه قد وردت في كتاب الله عز وجل جملة آيات تتعلق بالشفاعة، فأقول وبالله التوفيق:

إن الشفاعات على وجه الإجمال تنقسم إلى ثلاثة أقسام ألا وهي :

✽ شفاعات في الآخرة.

✽ شفاعات يشفعها أقوام أحياء لقوم قد ماتوا.

✽ شفاعات بين أهل الدنيا في دنياهم.

أما على وجه التفصيل **فبالنسبة لشفاعات الآخرة** فنذكر منها الآتي:

١ - الشفاعة العظمى (والشافع فيها هو رسول الله ﷺ بإذن ربه عز وجل وهي التي ذكرها النبي ﷺ في حديث «أُعْطِيَتْ خَمْسًا لَمْ يُعْطَهُنَّ أَحَدٌ قَبْلِي نُصِرْتُ بِالرُّعْبِ مَسِيرَةَ شَهْرٍ، ...» الحديث وفيه: «وَأُعْطِيَتْ الشَّفَاعَةُ»^(١). وهي أيضًا المذكورة في قول النبي ﷺ: «لِكُلِّ نَبِيٍّ دَعْوَةٌ فَأُرِيدُ إِنْ شَاءَ اللَّهُ أَنْ أَخْتَبِيَ دَعْوَتِي شَفَاعَةً لَأُمْتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ»^(٢).

وهي المذكورة أيضًا في قول النبي ﷺ «يَا أَبُي أُرْسِلْ إِلَيَّ أَنْ أَقْرَأَ الْقُرْآنَ عَلَى حَرْفٍ فَرَدَدْتُ إِلَيْهِ أَنْ هَوْنٌ عَلَى أُمَّتِي. فَرَدَدْتُ إِلَيَّ الثَّانِيَةَ أَقْرَأُهُ عَلَى حَرْفَيْنِ فَرَدَدْتُ إِلَيْهِ أَنْ هَوْنٌ عَلَى أُمَّتِي. فَرَدَدْتُ إِلَيَّ الثَّالِثَةَ أَقْرَأُهُ عَلَى سَبْعَةِ أَحْرَفٍ فَلَمْ يَكُنْ رَدِّهِ رَدَدْتُكَهَا مَسْأَلَةً تَسْأَلُنِيهَا. فَقُلْتُ اللَّهُمَّ اغْفِرْ لَأُمَّتِي. اللَّهُمَّ اغْفِرْ لَأُمَّتِي. وَأَخْرَجْتُ الثَّالِثَةَ لِيَوْمٍ يَرْغَبُ إِلَيَّ الْخَلْقُ كُلُّهُمْ حَتَّى إِبْرَاهِيمَ - ﷺ -»^(٣).

وهذه الشفاعة تكون لأمر ثلاثة:

(أ) للتفريج عن الناس مما هم فيه من الغم والكربات التي لا يطيقونها ولا يحتملونها لما يجمعهم الله ﷻ في صعيدٍ واحد فيسمعهم الداعي وينفذهم البصر وتدنو الشمس من رءوسهم.

(ب) لإدخال أقوام الجنة.

(ج) لإخراج أقوام من النار.

وها هي بعض الأحاديث الواردة في بيان الشفاعة العظمى:

(١) أخرجه البخاري (٣٣٥)، ومسلم (٥٢١).

(٢) خ (٧٤٧٤)، م (١٩٨).

(٣) م (٨٢٠).

✽ حديث أبي هريرة رضي الله تعالى عنه في الصحيحين^(١) وفيه أن أبا هريرة رضي الله عنه قال: «أتى رسول الله ﷺ يوماً بلحمٍ. فرفع إليه الذراع وكانت تعجبه. فنهس منها نهسة فقال: «أنا سيد الناس يوم القيامة. وهل تدرون بم ذاك؟ يجمع الله يوم القيامة الأولين والآخرين في صعيدٍ واحد فيسمعهم الداعي وينفذهم البصر وتدنو الشمس فيبلغ الناس من الغم والكرب ما لا يطيّقون. وما لا يحتملون. فيقول بعض الناس لبعض: ألا ترون ما أنتم فيه؟ ألا ترون ما قد بلغكم؟ ألا تنظرون من يشفع لكم إلى ربكم؟ فيقول بعض الناس لبعض: اتنوا آدم. فيأتون آدم. فيقولون: يا آدم! أنت أبو البشر. خلقك الله بيده ونفخ فيك من روحه وأمر الملائكة فسجدوا لك. اشفع لنا إلى ربك. ألا ترى إلى ما نحن فيه؟ ألا ترى إلى ما قد بلغنا؟ فيقول آدم: إن ربي غضب اليوم غضباً لم يغضب قبله مثله. ولن يغضب بعده مثله. إنه نهاني عن الشجرة فعصيته. نفسي. نفسي اذهبوا إلى غيري. اذهبوا إلى نوح. فيأتون نوحاً فيقولون: يا نوح! أنت أول الرسل إلى الأرض. وسماك الله عبداً شكوراً. اشفع لنا إلى ربك ألا ترى إلى ما نحن فيه؟ ألا ترى إلى ما قد بلغنا؟ فيقول لهم: إن ربي قد غضب اليوم غضباً لم يغضب قبله مثله، ولن يغضب بعده مثله. وإنه قد كانت لي دعوة دعوت بها على قومي نفسي نفسي اذهبوا إلى إبراهيم ﷺ. فيأتون إبراهيم فيقولون: أنت نبي الله وخليله من أهل الأرض. اشفع لنا إلى ربك ألا ترى إلى ما نحن فيه؟ ألا ترى إلى ما قد بلغنا؟ فيقول لهم إبراهيم: إن ربي قد غضب اليوم غضباً لم يغضب قبله مثله ولن يغضب بعده مثله وذكر كذباته. نفسي. نفسي اذهبوا إلى غيري، اذهبوا إلى موسى. فيأتون موسى ﷺ فيقولون: يا موسى! أنت رسول الله. فضلك الله برسالاته وبتكليمه على الناس. اشفع لنا إلى ربك. ألا ترى إلى ما نحن فيه؟ ألا ترى إلى ما قد بلغنا؟ فيقول

(١) خ (٤٧١٢)، م (١٩٤).

لهم موسى عليه السلام: إن ربي قد غضب اليوم غضباً لم يغضب قبله مثله ولن يغضب بعده مثله. وإنني قتلت نفساً لم أؤمر بقتلها. نفسي. نفسي اذهبوا إلى عيسى عليه السلام. فيأتون عيسى فيقولون: يا عيسى! أنت رسول الله، وكلمت الناس في المهد، وكلمة منه ألقاها إلى مريم، وروح منه. فاشفع لنا إلى ربك. ألا ترى ما نحن فيه؟ ألا ترى ما قد بلغنا؟ فيقول لهم عيسى عليه السلام: إن ربي قد غضب اليوم غضباً لم يغضب قبله مثله ولن يغضب بعده مثله. ولم يذكر له ذنباً. نفسي. نفسي اذهبوا إلى غيري اذهبوا إلى محمد عليه السلام. فيأتوني فيقولون: يا محمد! أنت رسول الله وخاتم الأنبياء. وغفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر. اشفع لنا إلى ربك. ألا ترى ما نحن فيه؟ ألا ترى ما قد بلغنا؟ فأطلق فآتي تحت العرش فأقع ساجداً لربي. ثم يفتح الله علي ويلهمني من محامده وحسن الثناء عليه شيئاً لم يفتحه لأحد قبلي. ثم يقال: يا محمد! ارفع رأسك. سل تعطه. اشفع تشفع. فأرفع رأسي فأقول: يا رب! أمتي أمتي.

فيقال: يا محمد! أدخل الجنة من أمتك، من لا حساب عليه، من الباب الأيمن من أبواب الجنة. وهم شركاء الناس فيما سوى ذلك من الأبواب، والذي نفس محمد بيده إن ما بين المصراعين من مصاريع الجنة لكما بين مكة وهجر أو كما بين مكة وبصرى».

وفي الصحيحين^(١) نحوه من حديث أنس رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «يجمع الله المؤمنين يوم القيامة...» فذكر الحديث وفيه «فَأَنْطَلِقُ فَأَسْتَأْذِنُ عَلَى رَبِّي فَيُؤْذَنُ لِي عَلَيْهِ، فَإِذَا رَأَيْتُ رَبِّي وَقَعْتُ لَهُ سَاجِدًا فَيَدْعُنِي مَا شَاءَ اللَّهُ أَنْ يَدْعَنِي ثُمَّ يَقَالَ لِي ارْفَعْ مُحَمَّدٌ، وَقُلْ يُسْمَعُ، وَسَلِّ تُعْطُهُ، وَاشْفَعْ تُشَفِّعُ. فَأَحْمَدُ رَبِّي بِمَحَامِدَ عَلَّمَنِيهَا، ثُمَّ أَشْفَعُ فَيَحُدُّ لِي حَدًّا فَأَدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ، ثُمَّ أَرْجِعُ فَإِذَا رَأَيْتُ رَبِّي

(١) خ (٧٤١٠)، م (١٩٣).

وَقَعْتُ سَاجِدًا ، فَيَدْعُنِي مَا شَاءَ اللَّهُ أَنْ يَدْعُنِي ثُمَّ يُقَالُ ارْفَعْ مُحَمَّدٌ ، وَقُلْ يُسْمَعُ ،
وَسَلْ تُعْطَى ، وَاشْفَعْ تُشَفَّعْ ، فَأَحْمَدُ رَبِّي بِمَحَامِدِ عَلَمِنِهَا رَبِّي ثُمَّ أَشْفَعُ فَيُحْدُ لِي
حَدًّا فَأَدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ ، ثُمَّ أَرْجِعُ فَإِذَا رَأَيْتُ رَبِّي وَقَعْتُ سَاجِدًا ، فَيَدْعُنِي مَا شَاءَ اللَّهُ
أَنْ يَدْعُنِي ثُمَّ يُقَالُ ارْفَعْ مُحَمَّدٌ ، قُلْ يُسْمَعُ ، وَسَلْ تُعْطَى ، وَاشْفَعْ تُشَفَّعُ ، فَأَحْمَدُ
رَبِّي بِمَحَامِدِ عَلَمِنِهَا ، ثُمَّ أَشْفَعُ فَيُحْدُ لِي حَدًّا فَأَدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ ، ثُمَّ أَرْجِعُ فَأَقُولُ
يَا رَبِّ مَا بَقِيَ فِي النَّارِ إِلَّا مَنْ حَبَسَهُ الْقُرْآنُ وَوَجَبَ عَلَيْهِ الْخُلُودُ» .

ومن الأدلة على الشفاعة لدخول الجنة حديث أنس رضي الله عنه ^(١) قال: «أنا أول
النَّاسِ يَشْفَعُ فِي الْجَنَّةِ وَأَنَا أَكْثَرُ الْأَنْبِيَاءِ تَبَعًا» وفي رواية عن أنس أيضًا قال: قال
رسول الله ﷺ: « أَتَى بَابَ الْجَنَّةِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأَسْتَفْتَحُ فَيَقُولُ الْحَازِنُ مَنْ أَنْتَ
فَأَقُولُ مُحَمَّدٌ. فَيَقُولُ بِكَ أَمَرْتُ لَا أَفْتَحُ لِأَحَدٍ قَبْلَكَ » ^(٢) .

وهذا حديث أيضًا في الشفاعة لدخول الجنة، ألا وهو حديث عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ
وَأَبِي مَالِكٍ عَنْ رَبِيعٍ عَنْ حُذَيْفَةَ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: « يَجْمَعُ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى
النَّاسَ فَيَقُومُ الْمُؤْمِنُونَ حَتَّى تُزْلَفَ لَهُمُ الْجَنَّةُ فَيَأْتُونَ آدَمَ فَيَقُولُونَ يَا أَبَانَا اسْتَفْتَحْ
لَنَا الْجَنَّةَ. فَيَقُولُ وَهَلْ أَخْرَجَكُمُ مِنَ الْجَنَّةِ إِلَّا خَطِيئَةُ أَبِيكُمْ آدَمَ لَسْتُ بِصَاحِبِ
ذَلِكَ أَذْهَبُوا إِلَى ابْنِي إِبْرَاهِيمَ خَلِيلِ اللَّهِ - قَالَ - فَيَقُولُ إِبْرَاهِيمُ لَسْتُ بِصَاحِبِ
ذَلِكَ إِنَّمَا كُنْتُ خَلِيلًا مِنْ وَرَاءَ وَرَاءَ اعْمِدُوا إِلَى مُوسَى ﷺ الَّذِي كَلَّمَهُ اللَّهُ
تَكْلِيمًا. فَيَأْتُونَ مُوسَى ﷺ فَيَقُولُ لَسْتُ بِصَاحِبِ ذَلِكَ أَذْهَبُوا إِلَى عِيسَى كَلِمَةِ اللَّهِ
وَرُوحِهِ. فَيَقُولُ عِيسَى ﷺ لَسْتُ بِصَاحِبِ ذَلِكَ. فَيَأْتُونَ مُحَمَّدًا ﷺ فَيَقُومُ فَيُؤْذَنُ
لَهُ وَتُرْسَلُ الْأَمَانَةُ وَالرَّحِمُ فَيَقُومَانِ جَنَّتِي الصِّرَاطِ يَمِينًا وَشِمَالًا فَيَمُرُّ أَوْلَاكُمْ
كَالْبَرْقِ ». قَالَ قُلْتُ يَا أَبِى أَنْتَ وَأُمِّى أَيْ شَيْءٍ كَمَرَّ الْبَرْقِ قَالَ: « أَلَمْ تَرَوْا إِلَى الْبَرْقِ

(١) م (حديث ١٩٦).

(٢) م (حديث ١٩٧).

كَيْفَ يَمُرُّ وَيَرْجِعُ فِي طَرْفَةِ عَيْنٍ ثُمَّ كَمَرَّ الرِّيحَ ثُمَّ كَمَرَّ الطَّيْرَ وَشَدَّ الرَّجَالَ تَجْرِي بِهِمْ أَعْمَالُهُمْ وَنَبِيُّكُمْ قَائِمٌ عَلَى الصِّرَاطِ يَقُولُ رَبِّ سَلِّمْ سَلِّمْ حَتَّى تَعْجِزَ أَعْمَالُ الْعِبَادِ حَتَّى يَجِيءَ الرَّجُلُ فَلَا يَسْتَطِيعُ السَّيْرَ إِلَّا زَحْفًا - قَالَ - وَفِي حَافَتِي الصِّرَاطِ كَلَالِيبُ مُعَلَّقَةٌ مَأْمُورَةٌ بِأَخْذِ مَنْ أَمَرْتُ بِهِ فَمَخْدُوشُ نَاجٍ وَمَكْدُوشٌ فِي النَّارِ». وَالَّذِي نَفْسُ أَبِي هُرَيْرَةَ بِيَدِهِ إِنَّ قَعَرَ جَهَنَّمَ لَسَبْعُونَ خَرِيفًا^(١).

أما الشفاعة لإدخال قوم الجنة بغير حساب فقد تقدم حديث أبي هريرة رضي الله عنه وفيه أن النبي صلى الله عليه وسلم: «فَارْفَعْ رَأْسِي، فَأَقُولُ أُمِّتِي يَا رَبِّ، أُمِّتِي يَا رَبِّ فَيُقَالُ يَا مُحَمَّدُ ادْخُلْ مِنْ أُمَّتِكَ مَنْ لَا حِسَابَ عَلَيْهِمْ مِنَ الْبَابِ الْإِيْمَنِ مِنْ أَبْوَابِ الْجَنَّةِ وَهُمْ شُرَكَاءُ النَّاسِ فِيمَا سِوَى ذَلِكَ مِنَ الْأَبْوَابِ».

أما النوع الثاني من أنواع الشفاعات الأخروية فهو الشفاعة لأهل الكبائر وقد ورد فيها حديث خاص وعمومات كذلك.

أما الحديث الخاص بشأنها فقول النبي صلى الله عليه وسلم: «شفاعتي لأهل الكبائر من أمتي»^(٢).

أما الأحاديث العامة في ذلك فمنها «أَسْعِدِ النَّاسَ بِشَفَاعَتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَنْ قَالَ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، خَالِصًا مِنْ قَلْبِهِ أَوْ نَفْسِهِ»^(٣).

وقول النبي صلى الله عليه وسلم^(٤) «مَنْ قَالَ حِينَ يَسْمَعُ النِّدَاءَ اللَّهُمَّ رَبِّ هَذِهِ الدَّعْوَةُ التَّامَّةُ وَالصَّلَاةُ الْقَائِمَةُ آتِ مُحَمَّدًا الْوَسِيلَةَ وَالْفَضِيلَةَ وَابْعَثْهُ مَقَامًا مَحْمُودًا الَّذِي وَعَدْتُهُ، حَلَّتْ لَهُ شَفَاعَتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ». فيدخل في هذا أهل الكبائر أيضًا.

(١) مسلم (حديث ١٩٥)، وهذا حديث عظيم جدًا في التحذير من خيانة الأمانة وقطع الرحم، فالأمانة والرحم صورتا وشخصتا على الصورة والصفة التي يريد الله عز وجل وقامتا على جنبتي الصراط تسقطان وتخطفان من فرط فيهما في الدنيا، كذا فهمت سلمنا الله والمسلمين والله أعلم.

(٢) صحيح بمجموع طرقه انظر حم (٢١٣/٣)، د (٤٧٣٩)، فله طرق كثيرة.

(٣) خ (٩٩، ٦٩٧٠).

(٤) خ (مع الفتح ٨/٣٩٩).

وهذه شفاعات أيضًا، أخرج البخاري ^(١) من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال قلنا يا رسول الله هل نرى ربنا يوم القيامة فذكر الحديث وفيه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «فَيُشْفَعُ النَّبِيُّ وَالْمَلَائِكَةُ وَالْمُؤْمِنُونَ فَيَقُولُ الْجَبَّارُ بَقِيَتْ شَفَاعَتِي . فَيَقْبِضُ قَبْضَةً مِنَ النَّارِ فَيُخْرِجُ أَقْوَامًا قَدْ امْتَحَشُوا ، فَيُلْقَوْنَ فِي نَهْرٍ بِأَفْوَاهِ الْجَنَّةِ يُقَالُ لَهُ مَاءُ الْحَيَاةِ ، فَيَنْبُتُونَ فِي حَافَتَيْهِ كَمَا تَنْبُتُ الْحَبَّةُ فِي حَمِيلِ السَّيْلِ ، قَدْ رَأَيْتُمُوهَا إِلَى جَانِبِ الصَّخْرَةِ إِلَى جَانِبِ الشَّجَرَةِ ، فَمَا كَانَ إِلَى الشَّمْسِ مِنْهَا كَانَ أَخْضَرَ ، وَمَا كَانَ مِنْهَا إِلَى الظِّلِّ كَانَ أَبْيَضَ ، فَيَخْرُجُونَ كَأَنَّهُمُ اللَّوْلُؤُ ، فَيُجْعَلُ فِي رِقَابِهِمُ الْخَوَاتِيمُ فَيَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ فَيَقُولُ أَهْلُ الْجَنَّةِ هَؤُلَاءِ عِتَقَاءُ الرَّحْمَنِ أَدْخَلَهُمُ الْجَنَّةَ بِغَيْرِ عَمَلٍ عَمِلُوهُ وَلَا خَيْرٍ قَدَّمُوهُ . فَيُقَالُ لَهُمْ لَكُمْ مَا رَأَيْتُمْ وَمِثْلُهُ مَعَهُ» ومن الدليل أيضًا على شفاعَةِ الملائكة قوله تعالى: ﴿ وَكَمْ مِنْ مَلَكٍ فِي السَّمَوَاتِ لَا تُعْنِي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا إِلَّا مِنْ بَعْدِ أَنْ يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَرْضَى ﴾ .

والقرآن يشفع، وخاصة البقرة وآل عمران:

أخرج مسلم رحمه الله تعالى في صحيحه ^(٢) من حديث أبي أمامة الباهلي قال سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم يَقُولُ « اقرءوا القرآن فَإِنَّهُ يَأْتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ شَفِيعًا لِأَصْحَابِهِ اقرءوا الزَّهْرَاوَيْنِ الْبَقْرَةَ وَسُورَةَ آلِ عِمْرَانَ فَإِنَّهُمَا تَأْتِيَانِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَأَنَّهُمَا غَمَامَتَانِ ^(٣) أَوْ كَأَنَّهُمَا غَيَاتَانِ أَوْ كَأَنَّهُمَا فِرْقَانِ ^(٤) مِنْ طَيْرٍ صَوَافٍ تُحَاجَّانِ عَنْ أَصْحَابِهِمَا اقرءوا سُورَةَ الْبَقْرَةِ فَإِنَّ أَخْذَهَا بَرَكَةٌ وَتَرْكُهَا حَسْرَةٌ وَلَا تَسْتَطِيعُهَا الْبَطْلَةُ ^(٥) .

(١) خ (٧٤٣٩).

(٢) مسلم (حديث ٨٠٤).

(٣) المراد: سحابتان.

(٤) الفرق هو الجماعة أو القطعة.

(٥) البطلة هم السحرة.

وشفاعة الآباء للأبناء مستندها:

قال الله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَا أَلَتْنَاهُمْ مِنْ عَمَلِهِمْ مِنْ شَيْءٍ﴾ [الطور: ٢١].

وشفاعة الأبناء للآباء مستندها:

ما أخرجه مسلم^(١) من طريق أبي حسان قال: قلت لأبي هريرة إنه قد مات لنا ابنان فما أنت محدثي عن رسول الله ﷺ بحديث تطيب به أنفسنا عن موتانا؟ قال: نعم: «صغارهم دعاميص الجنة يتلقى أحدهم أباه - أو قال: أبويه - فيأخذ بثوبه - أو قال بيده - كما أخذ أنا بصنفة ثوبك هذا، فلا يتناهى أو قال: فلا ينتهي حتى يدخله الله وأباه الجنة».

✽ وأخرج الإمام أحمد^(٢) رحمه الله بإسناد حسن من حديث بعض أصحاب النبي ﷺ: «يقال للولدان يوم القيامة ادخلوا الجنة قال: فيقولون: يا رب حتى يدخل آباؤنا وأمهاتنا قال: فيأتون قال: فيقول الله ﷻ: ما لي أراهم محبطين ادخلوا الجنة قال: فيقولون يا رب آباؤنا وأمهاتنا، قال فيقول: ادخلوا الجنة أنتم وآباؤكم».

وشفاعة الشهداء مستندها:

حديث المقدم بن معديكرب رحمه الله قال: قال رسول الله ﷺ: «للشهيد عند الله ست خصال: يغفر له في أول دفعة ويرى مقعده من الجنة، ويجار من عذاب القبر ويأمن من الفزع الأكبر، ويوضع على رأسه تاج الوقار الياقوتة منها خير من الدنيا وما فيها ويزوج اثنتين وسبعين زوجة من الحور العين ويشفع في سبعين من أقاربه».

(١) مسلم (٢٦٣٥).

(٢) المسند (١٠٥ / ٤).

وها هم أحياء يشفعون في الأموات:

أخرج مسلم^(١) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما أنه مات ابن له بقديد أو بعسفان فقال: يا كريب انظر ما اجتمع له من الناس، قال: فخرجت فإذا ناس قد اجتمعوا له فأخبرته فقال: تقول هم أربعون؟ قال: نعم، قال: أخرجوه، فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ما من رجل مسلم يموت فيقوم على جنازته أربعون رجلاً لا يشركون بالله شيئاً إلا شفّعهم الله فيه».

❁ وأخرج مسلم^(٢) من حديث عائشة رضي الله عنها عن النبي ﷺ قال: «ما من ميت يصلي عليه أمة من المسلمين يبلغون مائة كلهم يشفعون له إلا شفعوا فيه».

شفاعة الأبناء لأبائهم:

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله ﻋَﻠَﻴْكَ ليرفع الدرجة للعبد الصالح في الجنة فيقول يا رب أنى لي هذه؟ فيقول باستغفار ولدك لك»^(٣).

وهذه أسباب تجلب الشفاعة منها حفظ كتاب الله عز وجل وخاصة سورتي البقرة وآل عمران وقد تقدم الحديث بذلك، وها هو حديث آخر:

أخرج مسلم^(٤) في صحيحه: من حديث النواس بن سمعان رضي الله عنه قال: سمعت النبي ﷺ يقول: «يؤتى بالقرآن يوم القيامة وأهله الذين كانوا يعملون به تقدمه سورة البقرة وآل عمران». وضرب لهما رسول الله ﷺ ثلاثة أمثال ما نسيتهن بعد - قال: «كأنهما غمامتان أو ظلتان سوداوان بينهما شرق»^(٥) أو كأنهما حزقان^(٦) من

(١) أخرجه مسلم (٢/ ٦٥٥) حديث رقم (٩٤٨).

(٢) أخرجه مسلم (٢/ ٦٥٤) حديث رقم (٩٤٧) وفيه بعض الانتقاد ويشهد له ما قبله والمسلمون في الحديث الثاني لا يشركون بالله شيئاً.

(٣) أخرجه أحمد (٢/ ٥٠٩) بإسناد حسن.

(٤) مسلم (٨٠٥).

(٥) شرق أي: ضياء ونور.

(٦) حزقان أي: قطعتان - جماعتان.

طير صواف تحاجان^(١) عن صاحبهما.

ومنها:

سكنى مدينة رسول الله والصبر على لأوائها فقد أخرج مسلم في صحيحه^(٢) من طريق أبي سعيد مولى المهري أنه جاء أبا سعيد الخدري ليالي الحرّة فاستشاره في الجلاء من المدينة وشكا إليه أسعارها وكثرة عياله وأخبره أن لا صبر له على جهد المدينة ولأوائها فقال ويحك لا أمرك بذلك إني سمعت رسول الله يقول: «لا يصبر أحد على لأوائها فيموت إلا كنت له شفيعاً أو شهيداً يوم القيامة إذا كان مسلماً».

ومنها:

والصلاة على النبي ﷺ وطلب الوسيلة له بعد تكرير ما يقوله المؤذن فقد أخرج مسلم^(٣) من حديث عبدالله بن عمرو بن العاص رضي الله عنه أنه سمع النبي ﷺ يقول: «إذا سمعتم المؤذن فقولوا مثل ما يقول ثم صلّوا عليّ فإنه من صلى علي صلاة صلى الله عليه بها عشرًا ثم سلوا الله لي الوسيلة فإنها منزلة في الجنة لا تنبغي إلا لعبد من عباد الله وأرجو أن أكون أنا هو فمن سأل لي الوسيلة حلت له الشفاعة».

ومنها:

كثرة السجود، فقد أخرج أحمد في مسنده^(٤) من حديث خادم النبي ﷺ رجل أو امرأة، قال: كان النبي ﷺ مما يقول للخادم: «ألك حاجة» قال: حتى كان ذات

(١) تحاجان: تدافعان.

(٢) أخرجه مسلم (ص: ١٠٠٢).

(٣) أخرجه مسلم (٣٨٤).

(٤) أخرجه أحمد (٥٠٠/٣) من طريق عفان ثنا خالد يعني الواسطي (قال مصطفي وهو خالد الطحان الطحان) قال: ثنا عمرو بن يحيى الأنصاري عن زياد بن أبي زياد مولى بني مخزوم عن خادم النبي ﷺ... وهذا إسناد صحيح، وقد أخرج مسلم (حديث ٤٨٩) من حديث ربيعة بن كعب الأسلمي قال: كنت أبيت مع رسول الله ﷺ فأتيته بوضوئه وحاجته فقال لي: «سل» فقلت: أسألك مرافقتك في الجنة قال: «أو غير ذلك» قلت: هو ذاك قال: «فأعني على نفسك بكثرة السجود».

يوم فقال: يا رسول الله حاجتي، قال: «وما حاجتك؟» قال: أن تشفع لي يوم القيامة. قال: «ومن ذلك على هذا؟» قال: ربي. قال: «أما لا فأعني بكثرة السجود».

واحذر اللعن فإنه يحرمك الشفاعة يوم القيامة:

فقد أخرج مسلم رحمته الله من حديث أبي الدرداء رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن اللعانين لا يكونون شهداء ولا شفعاء يوم القيامة»^(١).

أما الشفاعات الدنيوية فمنها ما هو مشروع ومنها ما ليس بمشروع بل محرم قال الله تبارك وتعالى: ﴿مَنْ يَشْفَعْ شَفْعَةً حَسَنَةً يَكُنْ لَهُ نَصِيبٌ مِنْهَا وَمَنْ يَشْفَعْ شَفْعَةً سَيِّئَةً يَكُنْ لَهُ كِفْلٌ مِنْهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُقِينًا﴾ [النساء: ٨٥].

وقد حث رسول الله ﷺ على الشفاعات ما دامت مشروعة حلال ولن تذهب بحقوق قوم فقد صح عن رسول الله ﷺ أنه^(٢) كان إذا جاءه السائل أو طلبت إليه حاجة قال: «اشفعوا تؤجروا» ويقضي الله على لسان نبيه ﷺ ما شاء، أخرجه البخاري ومسلم من حديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه مرفوعاً.

✽ وأخرج البخاري من حديث ابن عباس رضي الله عنهما أن زوج بريرة كان عبداً يقال له: مغيث كأني أنظر إليه يطوف خلفها يبكي ودموعه تسيل على لحيته، فقال النبي ﷺ لعباس: «يا عباس ألا تعجب من حب مغيث بريرة، ومن بغض بريرة مغيثاً؟» فقال النبي ﷺ: «لو راجعته» قالت: يا رسول الله تأمرني؟ قال: «إنما أنا أشفع» قالت: لا حاجة لي فيه. أخرجه البخاري^(٣).

أما الشفاعة الدنيوية المحرمة فلها صور كثيرة جداً فمن ذلك الشفاعة عند السلطان لإسقاط حدٍّ من حدود الله قد وجب على شخص.

(١) أخرجه مسلم (حديث ٢٠٠٦).

(٢) خ (١٤٣٢)، م (٢٦٢٧).

(٣) خ (٥٢٨٣).

أخرج البخاري^(١) ومسلم من حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أن قريشاً أهتمتهم المرأة المخزومية التي سرقت فقالوا: من يكلم فيها رسول الله ﷺ، ومن يجترئ عليه إلا أسامة حب رسول الله ﷺ؟ فكلم رسول الله ﷺ فقال: «أتشفع في حد من حدود الله؟» ثم قام فخطب فقال: «يا أيها الناس إنما ضلَّ^(٢) من كان قبلكم أنهم كانوا إذا سرق الشريف تركوه، وإذا سرق الضعيف فيهم أقاموا عليه الحد، وإيم الله لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها».

ويدخل في الشفاعات المحرمة الوسطة التي تذهب بحقوق أناس إلى آخرين لا حقَّ لهم.

ومن ذلك التوسط لدى الأساتذة والمدرسين لرفع درجات الطلاب على حساب الآخرين، فهذا محرم.

والوسطة لإعطاء ناس من المال العام ما ليس لهم والتوسط لتقليد شخص وظيفة ليس لها بأهل إلى غير ذلك من صور الوساطات المحرمة.



(١) خ (حديث ٦٧٨٨)، م (١٦٨٨).

(٢) في روايه: «إنما هلك».

مواصلة تذكير بني إسرائيل بنعم الله عز وجل عليهم وبيان عنادهم ومخالفتهم أمر رسولهم ﷺ

قال الله عز وجل: ﴿وَإِذْ نَجَّيْنَاكُمْ مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَلِكُمْ بَلَاءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ٤٩﴾ وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمْ الْبَحْرَ فَأَنجَيْنَاكُمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَأَنْتُمْ نَنْظُرُونَ ٥٠﴾ وَإِذْ وَعَدْنَا مُوسَىٰ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِن بَعْدِهِ وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ ٥١﴾ ثُمَّ عَفَوْنَا عَنْكُمْ مِّن بَعْدِ ذَلِكَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ٥٢﴾ وَإِذْ آتَيْنَا مُوسَىٰ الْكِتَابَ وَالْفُرْقَانَ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ٥٣﴾ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ يَتَقَوَّمُ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنْفُسَكُمْ بِاتِّخَاذِكُمُ الْعِجْلَ فَتُوبُوا إِلَىٰ بَارِيكُمْ فَاقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ عِنْدَ بَارِيكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ٥٤﴾ وَإِذْ قُلْتُمْ يَمُوسَىٰ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَىٰ اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ ٥٥﴾ ثُمَّ بَعَثْنَاكُمْ مِن بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ٥٦﴾ وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْغَمَامَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّاءَ وَالسَّلْوَىٰ كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَكِن كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ٥٧﴾ وَإِذْ قُلْنَا ادْخُلُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ فَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا حِطَّةٌ نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطِيئَتَكُمْ وَسَنَزِيدُ

الْمُحْسِنِينَ ﴿٥٨﴾ فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ
فَأَنزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا رِجْزًا مِّنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴿٥٩﴾

يتواصل تذكير بني إسرائيل بنعم الله عليهم فيقول تعالى: ﴿وَإِذْ نَجَّيْنَاكُم﴾ أي واذكروا إنجائنا لأنبائكم فنجاة آبائكم نجاة لكم فقد كانت سبباً في ميلادكم ومعنى نجيناكم أنقذناكم وخلصناكم ﴿مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ﴾ من أتباع فرعون وشيعته وجنده وأهل دينه المنفذين لأوامره فقد كانوا ﴿يَسُومُونَكُم سُوءَ الْعَذَابِ﴾ أي يذيقونكم أشد العذاب وأسوأ العذاب ويدأومون ذلك ويستمرون فيه ومن صور ذلك أنهم كانوا ﴿يُذَيِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ﴾ الصغار عند ولادتهم وبعد ولادتهم ﴿وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ﴾ يتركون البنات ^(١) والنساء أحياء بلا قتل للاستمتاع بهن واستخدامهن، وفي هذا بلا شك مزيد إهانة وإذلال، مزيد إهانة إذا رأى الرجل بنته يفعل بها الفاحشة وتُسبى، وتخدم الرجال وتُسخر لا يستطيع أن يدفع عنها شيئاً فحقاً إنه بلاءٌ عظيم كما قال تعالى: ﴿وَفِي ذَلِكُمْ بَلَاءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾ أي وفي ذلكم الذي كان يُصنع بكم من العذاب اختبار من ربكم لكم، إنه اختبار عظيم وكذلك من المعنى: وفي ذلكم الذي حلَّ بكم عذاب ﴿مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾ وقيل إن قوله: ﴿مِّن رَّبِّكُمْ﴾ أي وفي إنجاء الله لكم ﴿بَلَاءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾ قيل المراد به فضل من الله عليكم إذ أنجاكم أي وفي نجاتكم فضل من الله عليكم وحجة أصحاب هذا القول أن البلاء قد يطلق على الخير كما يطلق على الشر، قال تعالى: ﴿وَتَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾ وقال تعالى: ﴿وَلِيُسَبِّلَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَاءٌ حَسَنًا﴾.

(١) وأطلق على البنات نساء في قوله تعالى: ﴿وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ﴾ باعتبار ما سيؤول إليه أمرهن كما قال تعالى: ﴿وَأَنفُوا إِلَيْنَا أَمْوَالَهُمْ﴾ وهم بعد البلوغ ليسوا ببنات، ولكن باعتبار ما كانوا فيه وكذا قوله ﴿إِنِّي أَنزَلْتُ أَخْصِرُ خَمْرًا﴾ الخمر لا يُعصر، إنما المراد أعصر عبناً فيصير خمرًا، فأطلق على العنب خمر باعتبار ما سيصير إليه.

وعلى كل حال فالذي حدث لبني إسرائيل كله اختبار وابتلاء شديدان فقتل الأبناء واستحياء النساء ابتلاء هل يقدمون له خيراً أم لا؟ وكذا نجاتهم ابتلاء هل يقدمون لها شكراً أم لا؟!!

أما لماذا كان فرعون يصنع بهم ما صنع من ألوان العذاب، فابتداءً هذا حال أهل الكفر مع أهل الإيمان قال تعالى: ﴿وَلَا يَزَالُونَ يَقْتُلُونَكُمْ حَتَّى يَرُدُّوكُمْ عَنْ دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَعُوا﴾، وقال تعالى: ﴿وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَنْ تَمِيلُوا مَيْلًا عَظِيمًا﴾، ثم سبب آخر ألا وهو ما أخرجه الطبري في تفسيره^(١) بإسناد صحيح إلى عبد الله ابن عباس - رضي الله عنه - قال: تذاكر فرعون وجلساؤه ما كان الله وعد إبراهيم خليله - أن يجعل في ذريته أنبياء وملوكاً واثمروا وأجمعوا أمرهم على أن يبعث رجالاً معهم الشُّفار يطوفون في بني إسرائيل فلا يجدون مولوداً ذكراً إلا ذبحوه ففعلوا فلما رأوا أن الكبار من بني إسرائيل يموتون بآجالهم وأن الصغار يذبحون قال توشكون أن تفنوا بني إسرائيل فتصيروا إلى أن تباشروا من الأعمال والخدمة ما كانوا يكفونكم فاقتلوا عاماً كل مولود ذكر فتقل أبناءهم، ودعوا عاماً فحملت أم موسى بهارون في العام الذي لا يذبح فيه الغلمان، فولدته علانية آمنة حتى إذا كان القابل حملت بموسى.

ويتواصل تذكير بني إسرائيل بنعم الله عليهم التي منها شق البحر لهم قال تعالى: ﴿وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمْ الْبَحْرَ فَأَنْجَيْنَاكُمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَأَنْتُمْ نَظَرُونَ﴾ فقد خرج بهم نبي الله موسى عليه السلام وتبعهم فرعون بجنوده لقتلهم وذبحهم فأوحى الله تبارك وتعالى إلى موسى عليه السلام ﴿أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي فَأَضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِي الْبَحْرِ يَبَسًا﴾

(١) أخرجه الطبري (أثر رقم ٩٨)، وهو صحيح إلى عبد الله بن عباس رضي الله عنه موقوفاً عليه لكن صحة المتن علمها عند الله سبحانه وتعالى، وليس للأثر حكم الرفع فقد يكون متلقى من أهل الكتاب، والله تعالى أعلم.

فَضْرَبَ مُوسَى الْبَحْرَ بِعَصَاهُ ﴿فَانْفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ﴾ أَيَّ أَنْ الْبَحْرَ
انْفَصَلَ وَشَقَّ بِهِ طَرِيقًا مَرَّتْ عَلَيْهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ مَعَ نَبِيِّ اللَّهِ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ فَأَنْجَى
اللَّهُ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ وَمَنْ مَعَهُ وَأَغْرَقَ آلَ فِرْعَوْنَ أَمَامَ أَعْيُنِ الْإِسْرَائِيلِيِّينَ، وَهُمْ
يَشَاهِدُونَهُمْ بِأَعْيُنِهِمْ وَيَنْظُرُونَ إِلَيْهِمْ وَإِلَى مَا حَلَّ بِهِمْ.

هَذَا وَقَدْ أَنْجَى اللَّهُ سَبْحَانَهُ وَتَعَالَى بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنْ آلَ فِرْعَوْنَ وَأَغْرَقَ عَدُوَّهُمْ
يَوْمَ عَاشُورَاءَ.

فَفِي الصَّحِيحِينَ^(١) مِنْ حَدِيثِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: (قَدِمَ النَّبِيُّ ﷺ الْمَدِينَةَ
فَرَأَى الْيَهُودَ تَصُومُ يَوْمَ عَاشُورَاءَ فَقَالَ: «مَا هَذَا؟» قَالُوا: هَذَا يَوْمٌ صَالِحٌ، هَذَا يَوْمٌ
نَجَّى اللَّهُ بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنْ عَدُوِّهِمْ فَصَامَهُ مُوسَى. قَالَ: «فَأَنَا أَحَقُّ بِمُوسَى مِنْكُمْ». فَصَامَهُ
وَأَمَرَ بِصِيَامِهِ).

هَذَا وَفِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ^(٢) مِنْ حَدِيثِ أَبِي قَتَادَةَ الْأَنْصَارِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَجُلًا أَتَى
النَّبِيَّ ﷺ فَقَالَ كَيْفَ تَصُومُ.. الْحَدِيثُ وَفِيهِ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «وَصِيَامُ يَوْمِ
عَاشُورَاءَ أَحْتَسِبُ عَلَى اللَّهِ أَنْ يُكَفِّرَ السَّنَةَ الَّتِي قَبْلَهُ»^(٣).

وَهَذَا تَذْكِيرٌ آخِرٌ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ يَنْعَمُ عَلَيْهِمْ رَبُّنَا سَبْحَانَهُ وَهُمْ يَعْبُدُونَ غَيْرَهُ
وَيَرْهَبُونَ سِوَاهُ قَالَ تَعَالَى: ﴿وَإِذْ وَعَدْنَا مُوسَى أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ثُمَّ أَخَذْتُمُ الْعِجَلَ مِنْ بَعْدِهِ
وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ﴾ لَقَدْ وَعَدَ اللَّهُ نَبِيَّهُ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ كَيْ يَكَلِّمَهُ وَكَيْ يُنْزَلَ عَلَيْهِ
التَّوْرَةُ أَوْ يُعْطِيَهُ الْأَلْوَحَ وَذَلِكَ بَعْدَ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً قَالَ جُمْهُورُ الْمُفَسِّرِينَ وَهَذِهِ الْمَوَاعِدَةُ
كَانَتْ بَعْدَ إِغْرَاقِهِ فِرْعَوْنَ وَآلَهُ فِي الْيَمِّ وَإِنْجَاءِ مُوسَى وَمَنْ مَعَهُ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ، فَبَعْدَ

(١) خ (٢٠٠٤)، م (١١٣٠).

(٢) م (حديث ١١٦٢)، وفي رواية «وسئل عن صوم يوم عاشوراء فقال يكفر السنة الماضية».

(٣) أخرجه مسلم (حديث ١١٦٢) وفي رواية عند مسلم: وسئل عن صوم يوم عاشوراء فقال: «يكفر
السنة الماضية».

أن أنجاهم الله ﷻ ذكر بعض المفسرين أن بني إسرائيل سألوا موسى (أو أن موسى وعد بني إسرائيل) كتابًا فجاءت المواعدة بذلك والله أعلم.

أما معنى ﴿وَإِذْ وَعَدْنَا مُوسَىٰ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً﴾ [البقرة: ٥١] واعدناه انقضاء أربعين ليلة. وانظر السؤال التالي.

وهذه المواعدة المذكورة كانت على مرحلتين ذكرتا في قوله تعالى ﴿وَوَعَدْنَا مُوسَىٰ ثَلَاثِينَ لَيْلَةً وَأَتَمَمْنَاهَا بِعَشْرِ فَتَمَّ مِيقَاتُ رَبِّهِ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً﴾ وهذه الليالي لم يرد دليل بتحديداتها وإن كان جمهور المفسرين قد ذهبوا إلى أنها شهر ذي القعدة، والعشر الأول من ذي الحجة، والله أعلم.

ثم إن موسى عليه السلام قد ذهب ممثلاً أمر ربه وتعجل في الذهاب كما قال تعالى: ﴿وَمَا أَعْجَلَكَ عَنْ قَوْمِكَ يَمُوسَىٰ﴾ (٨٢) قَالَ هُمْ أَوْلَاءُ عَلَيَّ أَثَرِي وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَىٰ.

وقد قال تعالى: ﴿وَلَمَّا جَاءَ مُوسَىٰ لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ﴾.

فلما ذهب موسى عليه السلام وترك قومه إذ بهم يعبدون عجلاً صنعه السامري لهم، فقوله تعالى: ﴿ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ﴾ أي اتخذتموه إلهاً تعبدونه ﴿وَأَنْتُمْ﴾ بهذا الصنع الذي صنعتوه، باتخاذكم العجل إلهاً ﴿ظَالِمُونَ﴾ لأنفسكم قد بخستموها حقها من السلامة والأمانة قد أحللتهم بها عقاباً وعذاباً فأنتم تستحقون بظلمكم هذا شديد العذاب وأليم العقاب، وخاصة وأنكم تعرفون أن موسى ذهب يكلم ربه ويأتيكم منه بهدى تهتدون به وبسنة تستنون بها، فأنتم في واد وموسى هنالك يكلم ربه سبحانه وتعالى.

ثم إن من فضل الله عليكم بعد هذا الذي ارتكبتموه من عبادة العجل أن عفا عنكم كما قال: ﴿ثُمَّ عَفَوْنَا عَنْكُمْ مِّنْ بَعْدِ ذَلِكَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ والعفو يوجب الشكر عند أهل اللب والعقل فكان ينبغي أن تتوجهوا إليه بالشكر على عفوهم عنكم،

أما العفو فمعناه محو الذنب والفرق بين العفو والغفران أن الغفران لا يكون معه عقوبة، بينما العفو قد يكون بعد العقوبة أو قبلها ومما يدل على أن العفو قد يكون معه بعض المؤاخذه قوله تعالى: ﴿فَمَنْ عَفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَأَبْنِاْ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدَاءُ إِلَيْهِ بِإِحْسَنٍ﴾ [البقرة: ١٧٨]، مع أن القاتل عُفي عنه ولم يقتل لكنه مع ذلك لزمته الدية والله تعالى أعلم.

ومن نعم الله تبارك وتعالى على بني إسرائيل أيضًا أن أنزل على نبيهم موسى عليه السلام كتابًا يهتدون به ويستنبرون به ويستضيئون به ألا وهو التوراة قال تعالى: ﴿وَإِذْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَالْفُرْقَانَ﴾ أما الكتاب فهو التوراة بالإجماع وأما ﴿وَالْفُرْقَانَ﴾ فمن العلماء من قال إنه التوراة وأعيد ذكرها تأكيدًا.

ومن العلماء من قال: إن الفرقان هو النصر الذي نصر الله عز وجل به موسى عليه السلام وبني إسرائيل كما قال تعالى في يوم بدر ﴿يَوْمَ الْفُرْقَانِ﴾ فالفرقان هو الفصل بين الحق والباطل.

ومن العلماء من قال: إن الفصل بين الحق والباطل كان يوم أن ألقى السحرة حبالهم وعصيهم وألقى موسى عصاه فإذا هي تلقف ما يأفكون.

ومن العلماء من قال: الفرقان هو انفلاق البحر والله أعلم.

أما قوله تعالى: ﴿لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ أي لعلكم يا بني إسرائيل تسلكون السبيل الذي هديتكم إليه التوراة وبيته لكم فتوفقوا وتغنموا وتسلموا وتسلكوا سبيل الجنة وكذلك لعلكم يا بني إسرائيل تذكرون نعمة الله عليكم وتذكرون الفرقان فتحمدوا الله وتشكروه وتعبدوه حق عبادته فتوفقوا للطريق الصحيح الجنة .

ثم يُذكرنا الله تبارك وتعالى بنصح نبي الله موسى عليه السلام لقومه وتذكيره لهم وحضهم على التوبة والإنابة والاستغفار فيقول تعالى ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ﴾ أي واذكروا قول موسى لقومه ﴿يَقَوْمُ﴾ وهم قبيلته وهم بنو

إسرائيل أي أنهم وهو من ذرية نبي الله إسرائيل الذي هو يعقوب عليه السلام ﴿إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنْفُسَكُمْ﴾ أي بخستم أنفسكم حقها وحرمتموها من الخير وحرمتموها الأمن والسلامة وحرمتموها فسيح الجنان ﴿بِاتِّخَاذِكُمُ الْعَجَلِ﴾ إلهًا تعبدونه ﴿فَتَوَبُّوا إِلَى بَارِيكُمْ﴾ فارجعوا عن غيكم وضلالكم وعبادتكم العجل، ارجعوا إلى خالقكم فوحدوه واعبدوه ولا تشرکوا به شيئًا وارجعوا إلى طاعته وامثال أمره.

﴿فَأَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ﴾ ككفارة للذنوب الذي ارتكبتموه فليقتل بعضكم بعضًا، فالنفس عُبر عنها بالبعض، كما قال تعالى ﴿وَلَا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ﴾ أي ولا تلمزوا إخوانكم، وكما قال تعالى ﴿لَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنْفُسِهِمْ خَيْرًا﴾ أي بإخوانهم.

قال القرطبي رحمه الله: وأجمعوا على أنه لم يؤمر كل واحدٍ من عبدة العجل بأن يقتل نفسه بيده.

✽ أخرج ابن أبي حاتم في التفسير^(١) بإسناد صحيح عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: ... فقال الله عز وجل إن توبتهم أن يقتل كل رجل منهم كل من لقي من والدٍ أو ولدٍ فيقتله بالسيف ولا يبالي من قتل في ذلك الموطن فتأب أولئك الذين كان قد خفي على موسى وهارون ما اطلع الله من ذنوبهم فاعترفوا بها وفعلوا ما أمروا به فغفر الله للقاتل والمقتول.

وقوله تعالى: ﴿ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ عِنْدَ بَارِيكُمْ﴾ أي امثالكم أمر الله بقتل بعضكم بعضًا خيرٌ لكم عند خالقكم.

﴿فَنَابَ عَلَيْكُمْ﴾ أي ففعلتم ما أمرتم به ورجعتم عن غيكم وضلالكم (فتأب الله عليكم) أي فعاد عليكم ربكم بعفوه ورحمته وأقبل عليكم ﴿إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾

(١) هو جزء من حديث الفتون الطويل.

أما التواب فكثير التوبة على العباد يغفر لهم ويقبل عليهم والرحيم بالمؤمنين التائبين ويستمر تذكير بني إسرائيل بما كان من آبائهم مع موسى عليه السلام فيقول تعالى ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ﴾ أي إذ قال آباؤكم ﴿يَمُوسَى﴾ كذا ينادون نبيهم وكان من الأدب أن يقولوا له يا نبي الله يا رسول الله ﴿لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ﴾ لن نصدقك لن نتبعك ولن نتابعك ﴿حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً﴾ أي عياناً يكشف الستر الذي بيننا وبينه فنراه بأعيننا ﴿فَأَخَذَتْكُمْ الصَّاعِقَةُ﴾ فأخذتكم نارٌ فقد قيل إن الصاعقة نارٌ وقيل المراد بالصاعقة الرجفة لقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا أَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلِ وَإِنِّي﴾ فمع الأخير فقوله: ﴿فَأَخَذَتْكُمْ الصَّاعِقَةُ وَأَنْتُمْ نَظُرُونَ﴾ أي أهلكتكم الرجفة وبعضكم ينظر إلى بعض ويبدوا أنهم ماتوا من هذه الرجفة لقوله تعالى: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَاكُم مِّن بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ هذا، إن قال قائل كيف أخذتهم الصاعقة وهم ينظرون فلمفترض أن الذي صُعق لا يرى ولا يعلم فجواب ذلك كما قال عدد من العلماء صُعق بعضهم والبعض الآخر ينظر، ثم بُعث الذين صعقوا، وصعق الآخرون ثم بعثوا فقال الله: ﴿فَأَخَذَتْكُمْ الصَّاعِقَةُ وَأَنْتُمْ نَظُرُونَ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [البقرة: ٥٥، ٥٦].

❦ **وقال بعضهم:** ﴿وَأَنْتُمْ نَظُرُونَ﴾ وأنتم تنظرون إلى الصاعقة التي أصابتكم، يقول أخذتكم الصاعقة عياناً جهاراً وأنتم تنظرون إليها.

هذا ومن سياق الآيات يفهم أنه لا يجوز لأحد أن يسأل رؤية الله في الدنيا وذلك لأن الذين سألوا ذلك من بني إسرائيل أخذتهم الصاعقة يدل على ما ذكرناه أيضاً قوله تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا الْمَلَكُوتُ أَوْ نَرَى رَبَّنَا لَقَدْ اسْتَكْبَرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ وَعَتَوْا عُتُوًّا كَبِيرًا﴾.

وقوله تعالى: ﴿يَسْأَلُ أَهْلُ الْكِتَابِ أَنْ تُنِزَلَ عَلَيْهِمْ كِتَابًا مِّنَ السَّمَاءِ فَقَدْ سَأَلُوا مُوسَى أَكْبَرًا مِنْ ذَلِكَ فَقَالُوا أَرَنَا اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ﴾.

أما إن سأل سائل ما وجه الشكر في البعث بعد الموت إذ الله تعالى قال ﴿ثُمَّ بَعَثْنَاكُمْ مِنْ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ فجواب ذلك أنهم قد تركت لهم فسحة وتُرك لهم زمن للاستدراك والاستغفار وقدر أو قدره الله عز وجل عليهم وكل هذا يستلزم شكرًا والله أعلم.

ثم يذكر الله سبحانه وتعالى بني إسرائيل بنعمه فبعد أن نكلوا عن قتال عدوهم وقالوا للنبي الله موسى عليه السلام: ﴿فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَتِلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ﴾ فضرب الله عليهم التيه في الأرض أربعين سنة يتيهون في الأرض فتاهوا في الأرض أربعين سنة ولكن رحمة من الله بهم وهم في هذا التيه ظلل عليهم الغمام وأنزل عليهم المن والسلوى^(١) كما قال ﴿وَوَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْغَمَامَ وَأَنْزَلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّاءَ وَالسَّلْوَى﴾ أما الغمام فهو السحاب وقوله: ﴿وَوَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْغَمَامَ﴾ أي جعلناه فوقكم كالظلة تقيكم حرَّ الشمس يسمى السحاب وسمي السحاب غمامًا لأنه يغم السماء أي يغطيها ويوارئها ويسترها، ومنه قولهم غُمَّ الهلال إذا غطاه الغيم، فالغمام كل ما غُمَّ السماء فغطاها من سحاب وقيام وكل مغط فهو غمام، والله تعالى أعلم.

ومن فضله عليهم أيضًا أنه أنزل عليهم في هذا التيه المنَّ والسلوى.

أما السلوى: فأكثر العلماء على أنها طائر السُّماني، وهو طائر طيب اللحم، أما المن ففيه أقوال:

❁ **منها:** أنه طُلُّ ينزل من السماء على شجر أو حجر ويحلو وينعقد عسلًا ويجفف جفاف الصمغ وقيل: هو الترنجبين.

❁ **ومنها:** أنه العسل.

❁ **ومنها:** أنه شراب حلو مثل العسل.

(١) صح عن ابن عباس عند ابن أبي حاتم بسند صحيح أنه قال: «ثم ظلل عليهم الغمام في التيه».

❖ ومنها: أنه خبز الرقاق.

❖ وقيل: إنه مصدر يعم جميع ما منَّ الله به على عباده من غير تعب ولا زرع ولا عمل ولا كد طعامًا كان أو شرابًا، والله أعلم.

وقد ورد في الحديث عن رسول الله ﷺ أنه قال: «الْكَمَاءُ مِنَ الْمَنِّ، وَمَاؤُهَا شِفَاءٌ لِلْعَيْنِ»^(١)، وفي بعض روايات مسلم: «الْكَمَاءُ مِنَ الْمَنِّ الَّذِي أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى مُوسَى وَمَاؤُهَا شِفَاءٌ لِلْعَيْنِ»، وفي رواية أخرى: «الْكَمَاءُ مِنَ الْمَنِّ الَّذِي أَنْزَلَ اللَّهُ ﷻ عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ وَمَاؤُهَا شِفَاءٌ لِلْعَيْنِ».

قلت: وقوله من المن فيه أقوال:

أحدها: من المن الذي أنزل الله على بني إسرائيل.

الثاني: هو مما امتن الله به على عباده من غير مجهود منهم ولا مشقة ولا تعب ثم يطيب الله لهم هذا المطعم يُحِلُّهُ لَهُمْ فيقول ﴿كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ﴾ أي كلوا من هذا الحلال الطيب الذي رزقناكم إياه من غير تعب منكم ولا جهد ولا مشقة ولكن ماذا كان؟ هل شكروا نعمتنا عليهم؟ كلا بل جحدوها وكفروا بها وما قدموا لها شكر بل عصونا وخالفوا أمرنا ﴿وَمَا ظَلَمُونَا﴾ بمعصيتهم لنا، ولا بجحودهم نعمنا ﴿وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ وإنما ظلموا أنفسهم بمقابلتهم النعم بالمعاصي، فطاعتهم لنا لا تنفعنا، ومعصيتهم لنا لا تضرنا إنما كل ذلك إما لهم وإما عليهم كما قال الله سبحانه: ﴿لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ﴾ [البقرة:

(١) البخاري (٤٤٧٨)، م (٢٠٤٩) من حديث سعيد بن زيد رضي الله عنه مرفوعاً قال الحافظ ابن حجر رحمه الله تعالى: والكماء: نبات لا ورق لها ولا ساق توجد في الأرض من غير أن تزرع قيل سميت بذلك لاستتارها يقال كمأ الشهادة إذا كتمها ومادة الكماء من جوهر أرضي بخاري يحتقن نحو سطح الأرض ببرد الشتاء وينمي مطر الربيع فيتولد ويندفع متجسداً ولذلك كان بعض العرب يسميها جدري الأرض تشبيهاً لها بالجدري مادة وصورة لأن مادته رطوبة دموية تندفع غالباً عند الترعير وفي ابتداء استيلاء الحرارة ونماء القوة ومشابقتها له في الصورة ظاهر.

٢٨٦]، وكما قال سبحانه: ﴿يَأَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا بَغَيْكُمْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ﴾ [يونس: ٢٣]، وكما قال سبحانه في الحديث القدسي ^(١) «... يا عبادي إنكم لن تبلغوا ضري فتضروني ولن تبلغوا نفعي فتنفعوني....» الحديث، وفيه أيضًا: «... يا عبادي لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أفجر قلب رجل واحد ما نقص ذلك من ملكي شيئًا».

وقوله تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا ادْخُلُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ﴾ أي واذكر قولنا لبني إسرائيل ووحينا لموسى عليه السلام أن يقول لهم ذلك، يقول لهم ادخلوا هذه القرية، وهي بيت المقدس عند الأكثرين ﴿فَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا﴾ أي واسعًا هنيئًا رغيدًا ﴿وَادْخُلُوا أَبْوَابَ سُجَّدَا﴾ أي وادخلوا باب القرية عند دخولكم سجدًا أي وأنتم سُجَّدًا ومتواضعين وخاضعين وذليلين لله عزَّ وجل شاكرين لنعمه عليكم فالنعم تستلزم الشكر ﴿وَقُولُوا﴾ عند دخولكم الباب سجدًا ﴿حِطَّةً﴾ أي مغفرة منك يا رب، وقيل حط عنا خطايانا ﴿تَغْفِرَ لَكُمْ خَطِيئَتَكُمْ﴾ إن دخلتم الباب سجدًا وقلتم حطة ﴿وَسَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ﴾ من فضلنا إذا هم شكرونا وتابوا إلينا واستغفروا من ذنوبهم ﴿فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ وهم المترددون من بني إسرائيل ﴿قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ﴾ قالوا قولًا آخر غير الذي أمرناهم به، فبدلًا من أن يدخلوا الباب سجدًا دخلوا يزحفون على استاهم وبدلًا من أن يقولوا حطة قالوا حبة في شعرة.

وقد أخرج البخاري ومسلم في صحيحيهما من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «قِيلَ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ ﴿وَادْخُلُوا أَبْوَابَ سُجَّدَا وَقُولُوا حِطَّةً تَغْفِرَ لَكُمْ خَطِيئَتَكُمْ﴾ فَدَخَلُوا يَزْحَفُونَ عَلَى أَسْتَاهِهِمْ، فَبَدَّلُوا وَقَالُوا حِطَّةً، حَبَّةً فِي شَعْرَةٍ» ^(٢) فماذا كان بعد أن بدل الإسرائيليون !!؟

(١) مسلم (حديث ٢٥٧٧).

(٢) أخرجه البخاري (٤٦٤١)، ومسلم (٣٠١٥).

لقد قال تعالى: ﴿فَأَنزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا رِجْزًا مِّنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾.

أما الرجز: فقليل إنه العذاب، وقيل المراد به هنا الطاعون، وحجة القائلين بذلك ما أخرجه البخاري ومسلم في صحيحيهما من حديث أسامة بن زيد رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «الطَّاعُونُ رِجْسٌ أُرْسِلَ عَلَى طَائِفَةٍ مِّنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَوْ عَلَى مَنْ كَانَ قَبْلَهُمْ»^(١).

وقوله تعالى: ﴿بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾ أي بسبب فسقهم فالمعاصي سبب لزوال النعم.

هذا وتأکید للظلم الذي ارتكبه الإسرائيليون كرر لفظ ﴿الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ مرتين ومثل هذا التأكيد يأتي كثيراً في كتاب الله كقوله تعالى: ﴿فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ يَكْنُبُونَ الْكِتَابَ بَأْيْدِهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلاً فَوَيْلٌ لَهُمْ مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَهُمْ مِّمَّا يَكْسِبُونَ﴾.

فالتكرار هنا من وجهين أحدهما يكتبون الكتاب بأيديهم فالكتابة لا تكون إلا باليد ولكن ذكرت إليه تأكيداً.

وكذا كرر ذكر الويل في قوله تعالى: ﴿وَوَيْلٌ لَهُمْ﴾.

ومن أمثلة هذا التكرير قوله تعالى: ﴿الْحَاقَّةُ ١ مَا الْحَاقَّةُ﴾ تعظيماً لشأنها.

وقوله تعالى: ﴿فَأَصْحَبُ الْمِئْمَنَةِ مَا أَصْحَبُ الْمِئْمَنَةِ﴾ تعظيماً للشواب الذي

سينالوه والله أعلم.



(١) البخاري (٣٤٧٣)، ومسلم (٢٢١٨)، وفي رواية (رجز) بدلاً من (رجس) والمعنى واحد.

(استسقاء موسى عليه السلام لقومه)

قال الله عز وجل: ﴿وَإِذِ اسْتَسْقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ فَقُلْنَا اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانْفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ كُلُوا وَاشْرَبُوا مِنْ رِزْقِ اللَّهِ وَلَا تَعَثُّوا فِي الْأَرْضِ مَفْسِدِينَ﴾ ﴿٦٠﴾

يذكر الله سبحانه وتعالى بنعمه على بني إسرائيل ومنه عليهم فيقول: ﴿وَإِذِ اسْتَسْقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ﴾ أي واذكر استسقاء موسى لقومه أما استسقى فمعناه طلب السقيا وهي الماء لقوله من ربه عز وجل كقوله: «استطعموني» أي اطلبوا مني الطعام.

وكان هذا الاستسقاء عند جمهور المفسرين وهم في البرية أثناء فترة (التيه) التي ضربها الله ﷻ عليهم، وكانوا قد شكوا إلى موسى ﷺ الظمأ.

وقد أخرج ابن جرير الطبري ^(١) رحمه الله بإسناد صحيح إلى ابن عباس رضي الله عنهما قال: ذلك في التيه ظلل عليهم الغمام وأنزل عليهم المن والسلوى وجعل لهم ثياباً لا تبلى ولا تتسخ وجعل بين ظهرائهم حَجَر مَرَبِع، وأمر موسى فضرب بعصاه الحجر فانفجرت منه اثنتا عشرة عينا في كل ناحية منه ثلاث عيون لكل سبط عين، ولا يرحلون منقلة ^(٢) إلا وجدوا ذلك الحجر معهم بالمكان الذي كان به معهم في المنزل الأول.

هذا ومن العلماء من قال هذا كلام مفرد بذاته وليس هناك دليل مرفوع يبين أن

(١) هو عند الطبري (١٠٤٤).

(٢) المنقلة هي المرحلة من مراحل السفر والجمع مناقل.

هذا الاستسقاء كان وهم في التيه والله أعلم.

وعلى كل فلما استسقى موسى لقومه أمره الله عز وجل أن يضرب الحجر بعصاه ﴿فَقُلْنَا أَضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ﴾ وقد قال بعض العلماء إنه حجر طوري أي حجر من جبل الطور لكن لم أقف على دليل لهذا الحاصل أن موسى عليه السلام أمر أن يضرب الحجر بعصاه وفي هذا حث على الأخذ بالأسباب فالله قادر على أن يخرج الماء بلا ضرب بالعصا، ولكن سنة الأخذ بالأسباب ثابتة، كما قال تعالى لآيوب عليه السلام ﴿أَرْكُضْ بِرِجْلِكَ هَذَا مُغْتَسَلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ﴾ وكما قال لمريم عليها السلام ﴿وَهْزِي إِلَيْكَ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُسْقِطُ عَلَيْكَ رَطْبًا جَنِينًا﴾.

فلما ضرب نبي الله موسى عليه السلام الحجر بعصاه ﴿فَانفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا﴾^(١) والله على كل شيء قدير.

وفي هذا معجزة أخرى من المعجزات التي ساقها الله عن طريق العصا، فقد تحولت مرة إلى حية تسعى، وأخرى ضرب بها الحجر فانفلق فكان كل فرق كالطود العظيم وثالثة ضرب بها موسى الحجر الذي وضع عليه الثياب لما طار الحجر بثوبه والرابعة لما ضرب بها الحجر فانفجرت منه اثنتا عشرة عينا.

هذا، وقد ذكر بعض أهل العلم أن الحكمة من تفجر العيون بهذا العدد ﴿اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا﴾ لأن أبناء يعقوب عليه السلام الذي هو إسرائيل وبنوه هم بنو إسرائيل كانوا اثني عشر كما ذكر الله ﷻ في كتابه: ﴿إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ﴾ [يوسف: ٤]، فالأحد عشر هم إخوة يوسف وهو ثاني عشر لهم، وقد قال الله ﷻ في شأن بني إسرائيل: ﴿وَقَطَّعْنَاهُمْ اثْنَتَيْ عَشْرَةَ أَسْبَاطًا أُمَمًا﴾ [الأعراف: ١٦٠].

(١) قال بعض العلماء «ما من معجزة أوتاهها نبي إلا وقد أوتي رسول الله ﷺ معجزة من جنسها» وقد نبع الماء من بين أصابع النبي ﷺ.

ولهذا قال: ﴿قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَشْرَبَهُمْ﴾ والمراد:

كل سبط من أولاد يعقوب عليه السلام، والأسباط في بني إسرائيل كالقبائل في العرب وهم ذرية الاثنى عشر أولاد يعقوب عليه السلام.

هذا، وقد وردت في الآية الكريمة هنا لفظة ﴿فَأَنْفَجَرَتْ﴾ وفي آية أخرى ﴿فَأَنْبَجَسَتْ﴾ فمن أهل العلم من قال إنهما يؤديان نفس المعنى لأن القصة واحدة ومن العلماء من قال: إن الانبجاس هو أول خروج الماء، والانفجار اتساعه وكثرته وثم أقوال أخر.

وقوله تعالى: ﴿قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَشْرَبَهُمْ﴾ أي الموضع الذي يشربون منه، وقيل إن المراد بالمشرب المشروب وعلى هذا فيكون المعنى قد علم كل سبط (أي كل قبيلة) العين الخاصة بها التي تشرب منها، أو المشروب الذي يشربون حتى لا يتشاحوا ولا يتنازعا على الماء.

ثم يُطِيبُ الله لهم هذا الطعام بقوله تعالى: ﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا مِنْ رِزْقِ اللَّهِ وَلَا تَعْتُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ أما قوله تعالى: ﴿وَلَا تَعْتُوا﴾ والعتو أشد الفساد، ولا تعثوا أي لا يشتد إفسادكم هذا وقد شرعت لنا أمة محمد عليه السلام صلاة الاستسقاء طلباً للسقيا من الله عز وجل وقد أخرج البخاري ومسلم ^(١) في «صحيحهما» من حديث عباد بن تميم عن عمه (وهو عبدالله بن زيد رضي الله عنه) قال: رأيت النبي ﷺ لما خرج ^(٢) يستسقي قال فحوّل إلى الناس ظهره واستقبل القبلة يدعو ثم حوّل رداءه ثم صلى لنا ركعتين جهر فيهما بالقراءة. ففي هذا الحديث أن النبي ﷺ خرج إلى المصلى يستسقي، ولكن الخروج إلى المصلى ليس بشرط فقد استسقى النبي ﷺ في المسجد كذلك.

(١) خ (١٠٢٥)، ومسلم (٨٩٤).

(٢) في طرق هذا الحديث في الصحيحين أيضاً (خرج رسول الله ﷺ إلى المصلى يستسقي...) الحديث.

أخرج البخاري^(١) ومسلم من حديث أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ذكر أن رجلاً دخل يوم الجمعة من باب كان وجاه المنبر ورسول الله ﷺ قائم يخطب فاستقبل رسول الله ﷺ قائماً فقال: يا رسول الله هلكت المواشي، وانقطعت السبل، فادع الله يغيثنا. قال فرفع رسول الله ﷺ يديه فقال: «اللهم اسقنا، اللهم اسقنا، اللهم اسقنا». قال أنس: ولا والله ما نرى في السماء من سحاب ولا قزعة ولا شيئاً، وما بيننا وبين سلع من بيت ولا دار.

قال: فطلعت من ورائه سحابة مثل الترس، فلما توسطت السماء انتشرت، ثم أمطرت. قال: والله ما رأينا الشمس سبتاً.

ثم دخل رجل من ذلك الباب في الجمعة المقبلة - ورسول الله ﷺ قائم يخطب - فاستقبله قائماً فقال: يا رسول الله، هلكت الأموال، وانقطعت السبل، فادع الله يمسكها. قال فرفع رسول الله ﷺ يديه ثم قال: «اللهم حوالينا ولا علينا، اللهم على الآكام والظراب، والأودية ومنابت الشجر». قال: فانقطعت، وخرجنا نمشي في الشمس.

وقال الحافظ ابن حجر رحمه الله^(٢): وقد اتفق فقهاء الأمصار على مشروعية صلاة الاستسقاء وأنها ركعتان إلا ما روي عن أبي حنيفة أنه قال: يبرزون للدعاء والتضرع وإن خطب لهم فحسن، ولم يعرف الصلاة هذا هو المشهور عنه.



(١) أخرجه البخاري (١٠١٣)، ومسلم (٨٩٧).

(٢) فتح الباري (٢ / ٥٧١).

(بنو إسرائيل يستبدلون الذي هو أدنى
بالذي هو خير وبيان بعض ما حلَّ بهم من العقوبات)

قول الله عزَّ وجل: ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَمُوسَىٰ لَنْ نَصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَاحِدٍ فَادْعُ
لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنْتِ الْأَرْضُ مِنْ بَقْلِهَا وَقِثَّائِهَا وَفُومِهَا
وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَىٰ بِالَّذِي هُوَ
خَيْرٌ أَهْبَطُوا مَصْرًا فَإِنَّ لَكُمْ مَّا سَأَلْتُمْ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذَّلَّةُ
وَالْمَسْكَنَةُ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ
بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيَّاتِ بِغَيْرِ الْحَقِّ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا
يَعْتَدُونَ ﴿٦١﴾﴾

يُذَكِّرُ الله عزَّ وجل بتعنت بني إسرائيل وبعض الجهالات الصادرة منهم فيقول
تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ﴾ الخطاب لبني إسرائيل والمراد أجدادهم أي وإذ قال أجدادكم
﴿يَمُوسَى﴾ وهذا من سوء أدبهم مع نبيهم عليه الصلاة والسلام فالرسل عليهم
الصلاة والسلام يوقروا ويُجلُّوا فكان من اللائق بهم أن يقولوا يا نبي الله .
أما قولهم: ﴿لَنْ نَصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَاحِدٍ﴾ أي لن نحبس أنفسنا على طعام واحد
ومرادهم أن الطعام يتكرر فلا يتغير ولا يتبدل ومن ثمَّ أطلقوا عليه طعام واحد،
ومرادهم أن المن والسلوى طعام واحد.
وقولهم: ﴿فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ﴾ فيه أيضًا مخالفة منهم للأدب مع الأنبياء بل مع الله عزَّ
وجل وكأنه في ظاهر خطابهم ربه وليس برهيم.

وقولهم: ﴿يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ﴾ أي أنهم لا يريدون المن الذي من الله به عليهم من السماء من غير تعب ولا كد ولا مشقة، ولا يريدون السلوى وهي طائر السمان الذيد الشهي ولكنهم يريدون ما تنبته الأرض ﴿مِنْ بَقْلِهَا﴾ والبقل كل ما أنبته الله عز وجل من الخضر، وقيل هو البقول كالكراث والفجل ونحو ذلك ﴿وَقَشَائِهَا﴾ أما القشاء فهي (القتة) شبيهة الخيار وشبيهة الكوسة لكن حجمها أكبر وهي معروفة لدى المصريين وغيرهم.

﴿وَقُومُهَا﴾ أما القوم فمن العلماء من قال هو الحنطة (البر) ومنهم من قال هي الثوم وقيل هي الحبوب التي تطحن وتُخبز بصفة عامة، وقد قيل إن المراد به الخبز وقوله ﴿وَعَدَسُهَا وَبَصَلُهَا﴾ أما العدس والبصل فمعروفان.

هكذا سأل قوم موسى نبيهم عليه السلام وسألوه البقوليات والقشاء والقوم والعدس والبصل بدلاً من المن والسلوى!!!

هكذا طلبوا ﴿الَّذِي هُوَ أَذْفَ﴾ الذي هو أحسن وأردأ بدلاً من الذي هو خير ولهذا أنكر عليهم نبي الله موسى عليه السلام بقوله: ﴿أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَذْفُ بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ﴾.

وهؤلاء في صنيعهم هذا لما استبدلوا الذي هو أدنى بالذي هو خير شأنهم شأن سبأ سواء بسواء، فقد أنعم الله عليهم بنعم كثيرة جداً وكان منها أن الله جعل لهم أثناء سفرهم استراحات وقرى يستريحون فيها من وعناء السفر الطويل، فأبوا إلا أن يباعدهم الله بين أسفارهم ويحملوا الزاد والمتاع قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْقُرَى الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا قُرَى ظَهْرَهُ وَقَدَرْنَا فِيهَا السَّيْرَ سِيرُوا فِيهَا لَيَالِيَ وَأَيَّامًا آمِنِينَ﴾ (١٨)

ولنرجع إلى قصة موسى عليه السلام مع بني إسرائيل لقد قال لهم لما سألوهم ما

سألوه ﴿أَهْطُوا مِصْرًا فَإِنَّ لَكُمْ مَآسًا تُمْ﴾ أي انزلوا أي بلد من البلدان^(١) فستجدون مطلبكم متوفرًا في أي بلد من البلدان وقد قيل إن مصرًا المراد بها مصر المعروفة الآن^(٢) فالحاصل أن مصر المعروفة الآن أو أي بلد من البلاد التي تدخلونها موجود بها ما سألتموه، ولا يساوي مع دناءته وكثرته أن أسأل الله فيه، فلما كان سؤالهم من باب الأشر والبطر ولا ضرورة فيه لم يجابوا إليه بل ﴿وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ﴾ أي كتبت عليهم وألزموها وجعلت محيطة بهم ﴿الذَّلَّةُ﴾ أي الإذلال وقيل الذلة الجزية وكذا ﴿وَالْمَسْكَنَةُ﴾ ضربت عليهم أي الفقر والمهانة أي أنهم أصبحوا أذلاء فقراء مهانين ﴿وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ﴾ ورجعوا على أنفسهم بغضب من الله وانصرفوا يحملون غضب الله عليهم ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ﴾ أي يجحدون آيات الله ولا يشكرون فضله ولا نعماءه وقد قيل إن آياته هي الآيات التسع التي أمد الله بها موسى عليه السلام، وقد قيل إنها آيات التوراة وذلك أيضًا أعني سبب الإذلال والمهانة التي حلت بهم سببها أنهم كانوا ﴿وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ وهذا على سبيل التشنيع لأفعالهم والتقبيح لصنيعهم فإن الأنبياء لم تفعل إلا كل خير ولم تفعل أبدًا ما يوجب قتلها، ولم يأذن الله في قتلهم بحال من الأحوال هذا، وقد ورد فيمن قتل نبيًا قول رسول الله ﷺ: «أَشَدُّ النَّاسِ عَذَابًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ رَجُلٌ قَتَلَ نَبِيًّا، أَوْ قَتَلَ نَبِيًّا، وَإِمَامًا ضَالًّا، وَمُمَثِّلًا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ»^(٣) ثم قال تعالى: ﴿ذَلِكَ﴾ أي الذي حل بهم من العقاب والنكال ﴿بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ﴾ أي بسبب عصيانهم لأمر الله واعتدائهم على أنبياء الله وخلق الله وشرعة الله هذا، وقد يتساءل متسائل فيقول، لقد قال تعالى: ﴿كَتَبَ اللَّهُ لَأَعْلَبَنَ أَنَا

(١) وهذا قول جمهور العلماء.

(٢) وهذا قول مالك، فقد قال ابن عطية: وقال أشهب: قال لي مالك: هي عندي مصر قريتك مسكن فرعون.

(٣) أحمد في المسند (١/٤٠٧) بإسناد حسن.

وَرُسُلِي ﴿ فَكَيْفَ تَسْلُطُ هَؤُلَاءِ الْيَهُودَ عَلَى الْأَنْبِيَاءِ وَتَمَكِّنُوا مِنْ قَتْلِهِمْ ؟

والجواب على ذلك من وجوه:

ومنها: أن الله ﷻ ما أمر نبيًا بالحرب إلا نصره فلم يُقتل، وإنما خَلَّى بين الكفار وبين من لم يؤمر بقتالٍ من الأنبياء، هذا الوجه نقل عن الحسن رحمه الله.

❁ **ومنها:** أن النصر بالحجة والبيان والبرهان، وكذلك الغلبة.

❁ **ومنها:** أن المراد الأخذ بثأر الأنبياء ﷺ ممن بغى عليهم وغدر بهم ونالهم بشيء من السوء والأذى، والله أعلم.

أما لماذا خَلَّى الله ﷻ بين الكفار وبين أنبيائهم حتى يتمكن الكفار من قتل أنبيائهم ﷺ، فذلك - والله أعلم - لينالوا من أعالي الدرجات ورفع المنازل ما لا ينالونه إلا بالقتل، وليس ذلك بخذلان للأنبياء عليهم الصلاة والسلام، بل الأمر كما ذكره الله جل ذكره في عدة مواطن من كتابه الكريم: ﴿ ذَلِكُمْ وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَأُنْصَرَ مِنْهُمْ وَلَكِنْ لَبِلُوا بَعْضَكُمْ بِبَعْضٍ وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَنْ يُضِلَّ أَعْمَالُهُمْ ۝٤ سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ ۝٥ وَيُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ عَرَفَهَا هُمْ ۝٦ ﴾ [محمد: ٤ - ٦]، وكما قال سبحانه: ﴿ وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ ۝١٤٠ وَلِيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ ۝١٤١ ﴾ [آل عمران: ١٤٠، ١٤١]، والله تعالى أعلم.



(جزاء أهل الإيمان والعمل الصالح)

قال الله عز وجل: ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَى
وَالصَّبِيَّةَ مَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ
عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ (٦٢)

ويبين الله سبحانه وتعالى: على وجه الإجمال مصير أهل الإيمان بالله واليوم الآخر
الذين أتبعوا الإيمان بالعمل الصالح، فيقول تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ ولأهل العلم
في المراد بهم هنا أقوال:

الأول منها: أنهم المؤمنون بالله ورسوله محمد ﷺ، وعلى هذا يجاب على
السؤال الثاني بأن يقال إن قوله: ﴿مَنْ ءَامَنَ﴾ معناه ثباته على الإيمان وتركه تبديله
والحرص على الموت عليه وأيضا ازدياده من الإيمان كما قال الله ﷻ: ﴿يَتَأْتِيهَا
الَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي نَزَّلَ عَلَى رَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي
أَنْزَلَ مِنْ قَبْلُ﴾ [النساء: ١٣٦].

الثاني: أنهم المؤمنون قبل بعثة رسول الله ﷺ الموحدون ربهم ﷻ كزيد بن
عمرو بن نفيل وأمثاله، وعلى هذا يجاب على السؤال الثاني بأن من آمن بالله وكان
موحداً حنيفاً وجاءه رسول الله ﷻ فأمن به أيضاً وعمل صالحاً فله أجره عند ربه
ولا خوف عليه ولا هو يحزن.

الثالث: أن المراد بالذين آمنوا في قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا...﴾ هم من
آمن بلسانه ولم يؤمن بقلبه وهؤلاء أهل النفاق فمن تاب عن نفاقه منهم وصدق
بالله وباليوم الآخر وآمن برسول الله ﷻ من قلبه فله أجره عند ربه ولا خوف عليه
ولا هو يحزن، والله تعالى أعلم.

أما قوله: ﴿وَالَّذِينَ هَادُوا﴾ فالمراد بهم هنا اليهود، وقد قيل إن سبب إطلاق

اليهود عليهم قولهم ﴿إِنَّا هُدْنَا إِلَيْكَ﴾ وقيل لأنهم ينسبون إلى أحد أولاد يعقوب وهو (يهوذا) ﴿وَالنَّصَارَى﴾ وهم الذين يزعمون أنهم أتباع عيسى عليه السلام، وقد قيل إن سبب تسميتهم النصارى قولهم ﴿نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ﴾ وقيل لنزولهم قرية كان يُقال لها ناصرة كان عيسى عليه السلام ينزلها، وقيل غير ذلك.

وقوله تعالى: ﴿وَالصَّابِغِينَ﴾ الصابغ من ترك دينه ودخل ديناً آخر وقيل إنهم قوم لا دين لهم وقيل إنهم قوم كانوا يعبدون الملائكة.

وقوله تعالى: ﴿مَنْ آمَنَ﴾ أي من هؤلاء المذكورين ﴿بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ وإيمان اليهودي هنا تصديقه ما في التوراة ومن ثم تصديقه برسول الله ﷺ وما جاء به رسول الله ﷺ إذ صفة رسول الله ﷺ قد جاءت بها التوراة.

وكذلك إيمان النصراني تصديقه بالإنجيل ومن ثم تصديقه برسول الله ﷺ إذ قد جاء الإنجيل بصفة رسول الله ﷺ وصفة ما جاء به رسول الله ﷺ.

أما إيمان الصابغ فيكون بأن يدخل الصابغ في دين الإسلام ويتبع سبيل المؤمنين، والله تعالى أعلم.

أما إيمان الذين آمنوا فقد تقدم بيانه قريباً .

وقوله تعالى: ﴿وَعَمِلْ صَالِحًا﴾ أفاد أن الأجر المذكور يترتب على أمر آخر بعد الإيمان ألا وهو العمل الصالح وهذا الذي يصفه بعض العلماء بقولهم في العمل المتقبل (أن يكون خالصاً وصواباً) وكونه خالصاً أي خالصاً من شوائب الشرك والرياء ويكون صواباً بموافقة سنة رسول الله ﷺ وهو نحو الوارد في قوله تعالى: ﴿فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾ [الكهف: ١١٠]، والله أعلم.

أما قوله تعالى: ﴿فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ أي فلهم جزاؤهم المُدخر لهم عند ربهم ﴿وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾ مما هو آت ﴿وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ على ما تركوه خلفهم من ذرية وأموال وأزواج وأهلين ونحو ذلك ^(١) والله أعلم.

(١) وقيل أيضاً لا يحزنون يوم القيامة، والله تعالى أعلم.

(بنوا إسرائيل ينقضون العهد والميثاق
ويعتدوا في السبت وبيان ما حلَّ بهم بسبب ذلك)

قال الله عزَّ وجل: ﴿وَإِذَا أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَاءَ آتَيْنَكُمْ بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَكُنْتُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٦٤﴾ وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدَوْا مِنْكُمْ فِي السَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ ﴿٦٥﴾ فَعَلَّانَهَا نَكَالًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٦٦﴾﴾

يُذَكِّرُ الله عزَّ وجل بني إسرائيل بالميثاق المأخوذ على آبائهم، وما حدث لأبائهم لما رفضوا امتثال التوراة، إلى غير ذلك مما كان من أمر بني إسرائيل فيقول تعالى: ﴿وَإِذَا أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ﴾ أي واذكروا إذا أخذنا الميثاق على أجدادكم، وهذا الميثاق لأهل العلم فيه أقوال:

❁ منها: أنه الميثاق المذكور في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَءِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْكُمْ وَأَنْتُمْ مُّعْرِضُونَ﴾ [البقرة: ٨٣].

❁ ومنها: أن هذا الميثاق هو العمل بالتوراة والإيمان بما جاء فيها.

❁ ومنها: أن هذا الميثاق هو المذكور في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ

الَّتِي نَزَّلْنَا لَمَّا أَتَيْتُكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِيدَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ، وَلَتَنْصُرُنَّهُ، قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ ﴿٨١﴾ فَمَنْ تَوَلَّىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿٨٢﴾ [آل عمران: ٨١، ٨٢]، والعلم عند الله تعالى.

وقوله تعالى: ﴿وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ﴾ أما الطور فمن العلماء من قال إنه جبلٌ مخصوص، من الجبال التي يكون عليها نبات وقال آخرون إنه أي جبل من الجبال وقال فريق ثالث إنه جبل الطور الذي ناجى الله **سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى** موسى **عَلَيْهِ السَّلَام** عليه، ويشهد لهذا الأخير قوله تعالى: ﴿وَنَدَيْنَاهُ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ الْأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَاهُ نَجِيًّا﴾ [مريم: ٥٢] وقوله تعالى: ﴿وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا﴾ [القصص: ٤٦] وقوله تعالى: ﴿...ءَأَنسَىٰ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ نَارًا...﴾ [القصص: ٢٩] إلا أن يقال إن الذي ناجى الله **عَلَيْهِ السَّلَام** عليه موسى هو الطور لا شك لكن لا ينفي ما سواه فلهذا القول وجه، والله تعالى أعلم.

أما قوله تعالى: ﴿وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ﴾ فالمراد والله أعلم - ظاهره، فالله **سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى** رفع الجبل فوق بني إسرائيل كما أخبر **عَلَيْهِ السَّلَام** بقوله: ﴿وَإِذْ نَنفَخْنَا الْجِبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ وَظَنُّوا أَنَّهُ وَاقِعٌ بِهِمْ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [الأعراف: ١٧١] فالجبل اقتلع من أصله ورفع عليهم كأنه ظلة.

هذا، وجمهور أهل العلم على أن الطور رُفِعَ فوقهم لإبائهم وامتناعهم عن قبول التوراة والعمل بما فيها.

وقال بعض العلماء: إن المعنى ورفعنا فوقكم الطور ومكنا لكم ﴿خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ﴾ أي ما أمرناكم به في التوراة ﴿بِقُوَّةٍ﴾ أي بجد واجتهاد وإلا قذفناه عليكم. أما قوله تعالى: ﴿وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ﴾ فمعناه اذكروا ما فيه من الوعد والوعيد،

وتدبروه واعملوا بمقتضاه، ولا تنسوه ولا تغفلوا عنه، والله تعالى أعلم.

وقوله تعالى: ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ أي لعلكم تتعظون وتعتبرون ولكن ماذا كان هل انتفع الإسرائيليون بذلك وهل أجدى ذلك مع هؤلاء اليهود كلا بل ازدادوا إعراضاً وتوليّاً وانصرافاً عن التوراة وعن تعاليمها قال تعالى: ﴿ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ﴾ أي ثم أعرضتم يا بني إسرائيل ﴿مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ﴾ أي من بعد أخذ الميثاق عليكم ومن بعد إقراركم به، ومن بعد البرهان الذي أقمناه عليكم برفع الطور فوقكم وتهديدكم بإسقاطه عليكم فمن بعد هذا التهيب أعرضتم أيضاً عن الإيمان إعراضاً يستوجب عذابكم ﴿فَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾ بإمهاله لكم وعدم معاجلتكم بالعقوبة، وفتح باب التوبة لكم وتوفيقكم للإجابة وكذا ﴿وَرَحْمَتُهُ﴾ بكم ﴿لَكُنْتُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ أي لكنتم في عداد الخاسرين.

ثم يُذكر الله سبحانه وتعالى بني إسرائيل الذين كانوا يسكنون مدينة رسول الله ﷺ وما حولها وكذا غيرهم من بني إسرائيل، بما صنعه أسلافهم وأجدادهم من نقض العهود والمواثيق، وماذا حلَّ بهم لما نقضوا العهود والمواثيق وماذا ينظر هؤلاء أيضاً إذا نقضوا العهود والمواثيق هم الآخرون فيقول تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمْ﴾ يا بني إسرائيل يا من تسكنون المدينة وما حولها ويا عموم بني إسرائيل ﴿الَّذِينَ أَعْتَدُوا مِنْكُمْ فِي السَّبْتِ﴾ أي الذين تجاوزوا الحدود وانتهكوا أوامر الله باعتدائهم يوم السبت بالعمل فيه وقد حرم عليهم العمل في السبت ﴿فَقُلْنَا لَهُمْ﴾ أي هؤلاء المعتدين في السبت ﴿كُونُوا﴾ صيروا ﴿قَرَدَةً خَاسِئِينَ﴾ مطرودين مبعدين من رحمة الله عز وجل فصيرهم الله قردة، وأبعدهم الله عن رحمته ووجه هذا التذكير في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمْ الَّذِينَ أَعْتَدُوا مِنْكُمْ فِي السَّبْتِ﴾ أن الله سبحانه وتعالى ذكر بني إسرائيل بما صنعه أسلافهم وأجدادهم من نقض العهود والمواثيق، فلما اعتدى أسلافهم في يوم السبت الذي كان الصيد فيه محرماً عليهم فاصطادوا وخالفوا أمر الله تعالى وقد كانت العهود أخذت عليهم ألا يعتدوا في السبت كما قال ربنا **سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى**: ﴿وَقُلْنَا

لَهُمْ لَا تَعْدُوا فِي السَّبِّ وَأَخَذْنَا مِنْهُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا ﴿[النساء: ١٥٤]﴾ فلما خالفوا أمر الله ﷻ مسخهم الله ﷻ قرده كما ذكر الله سبحانه في كتابه: ﴿... فَلَمَّا عَتَوْا عَنْ مَا نُهُوا عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ﴾ [الأعراف: ١٦٦] فأنتم يا معشر يهود يا من بعث محمد ﷺ بين أظهركم وأنتم تجدونه مكتوبًا عندكم في التوراة، وقد أخذت عليكم العهود والمواثيق أن تؤمنوا به، وها هي صفاته مطابقة لما بين أيديكم من التوراة، فإن لم تؤمنوا به فقد نقضتم العهد المأخوذ عليكم، فعليكم حينئذ أن تنتظروا العقوبة التي تحل بكم كما حلت العقوبة بأسلافكم الذين نقضوا العهود والمواثيق كما قال الله جل ذكره: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ ءَامِنُوا بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقًا لِمَا مَعَكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَطْمِسَ وُجُوهًا فَنَرُدَّهَا عَلَىٰ أَدْبَارِهَا أَوْ نَلْعَنَهُمْ كَمَا لَعَنَّا أَصْحَابَ السَّبِّ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا﴾ [النساء: ٤٧].

وقصة ذلك ستأتي مبسوطَةً إن شاء الله في سورة الأعراف أما قوله تعالى: ﴿فَجَعَلْنَاهَا نَكَالًا﴾ فمن العلماء من يقول إن الضمير في قوله ﴿فَجَعَلْنَاهَا﴾ عائذٌ على العقوبة، أي فجعلنا العقوبة التي عاقبناهم بها نكالًا. **ومن العلماء من قال:** ﴿فَجَعَلْنَاهَا نَكَالًا﴾ أي فجعلنا القرية نكالًا (والمراد بالقرية أهلها).

أما النكال فالمراد به: عبرة تنكل المعتبر بها، عبرٌ مانعة من ارتكاب مثل ما عملوا وقيل: النكال الزاجر بالعقاب، والنكل والنكال قيود الحديد، فالنكال عقاب ينكل بسببه غير المعاقب عن أن يفعل مثل ذلك الفعل.

أما قوله تعالى: ﴿لَمَّا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا﴾ فلاهل العلم فيه أقوال: **❀** منها أن ما بين يديها الأمم التي ستأتي من بعدهم. وما خلفها الذين كانوا قد بقوا منهم.

❀ ومنها أن ما بين يديها الأمم التي ستأتي من بعدهم كما سبق وما خلفها القرى المحيطة بها.

❁ ومنها أن ما بين يديها الذنوب التي أصابوها بالاعتداء على الحيتان وما خلفها الذنوب التي أصابوها قبل الاعتداء على الحيتان فالمعنى أنهم أخذوا بالأول والآخر.

والمؤدى واحد وهو أن العاصي المعتدي مسخ فأصبح قرداً وفي هذه عبرة لكل معتبر، والله تعالى أعلم.

أما قوله تعالى: ﴿وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ﴾ فخُصَّت الموعظة بأنها للمتقين لأن المتقون هم الذين ينتفعون بالوعظ.

❁ أما المراد بالمتقين فقليل: هم الذين يتقون عقوبة الله ﷻ ويحذرونها وقيل: إن المتقين هنا هم أمة محمد ﷺ.

❁ وقيل: إن المتقين هنا هم الذين يتقون الشرك ويعملون بطاعة الله. والقول الذي ينتظمها جميعاً هو أن المتقين تشمل كل من تقدموا، والله تعالى أعلم.



(قصة بقرة بني إسرائيل)

قال الله عز وجل: ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً قَالُوا أَنْتَخِذْنَا هُزُؤًا قَالِ أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ ﴾ (٦٧) قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَا فَارِضٌ وَلَا يَكْرُ عَوَانُ بَيْنَكَ ذَلِكَ فَأَفْعَلُوا مَا تَأْمُرُونَ ﴾ (٦٨) قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا لَوْنُهَا قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَاءُ فَاقِعٌ لَوْنُهَا تَسُرُّ النَّاظِرِينَ ﴾ (٦٩) قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ إِنَّ الْبَقَرَ تَشَبَهَ عَلَيْنَا وَإِنَّا إِن شَاءَ اللَّهُ لَمُهْتَدُونَ ﴾ (٧٠) قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَا ذَلُولٌ تُثِيرُ الْأَرْضَ وَلَا تَسْقِي الْحَرْثَ مُسَلَّمَةٌ لَا شِيَةَ فِيهَا قَالُوا الْآنَ جِئْتَ بِالْحَقِّ فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ ﴾ (٧١) وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَادَرَأْتُمُوهَا فِيهَا وَاللَّهُ مُخْرِجٌ مَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ ﴾ (٧٢) فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا كَذَلِكَ يُحْيِي اللَّهُ الْمَوْتَى وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ (٧٣) ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهَارُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَمَا اللَّهُ بِغَفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ (٧٤) ﴿

يُذَكِّرُنَا رَبَّنَا سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بِقِصَّةِ الْبَقَرَةِ الَّتِي تَسْمَتْ بِهَا هَذِهِ السُّورَةُ الْمُبَارَكَةُ، وَمَا كَانَ مِنْ شَأْنِ بَنِي إِسْرَائِيلَ حَيْثُ أَمَرُوا بِذَبْحِ هَذِهِ الْبَقَرَةِ، وَحَاصِلُ الْأَمْرِ فِي ذَلِكَ عَلَى مَا ذَكَرَهُ جَمْهُورُ الْمُفَسِّرِينَ أَنَّ قَتِيلًا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ قُتِلَ وَلَمْ يَعْلَمُوا مَنْ قَتَلَهُ، فَاحْتَكَمُوا إِلَى مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ فِي ذَلِكَ فَأَمَرَهُمْ بِذَبْحِ بَقَرَةٍ، وَأَنْ يَضْرِبُوا الْقَتِيلَ بِبَعْضِهَا فَضَرَبُوهُ بِبَعْضِهَا فَأَحْيَاهُ اللَّهُ وَأَخْبَرَ بِمَنْ قَتَلَهُ وَعَلَى هَذَا تَصَافَرَتْ أَقْوَالُ السَّلَفِ الصَّالِحِ رَحِمَهُمُ اللَّهُ.

أَخْرَجَ الطَّبْرِيُّ ^(١) فِي تَفْسِيرِهِ وَابْنُ أَبِي حَاتِمٍ بِإِسْنَادٍ صَحِيحٍ إِلَى عُبَيْدَةَ السَّلْمَانِيِّ رَحِمَهُ اللَّهُ قَالَ: كَانَ فِي بَنِي إِسْرَائِيلَ رَجُلٌ عَقِيمٌ - أَوْ عَاقِرٌ - قَالَ: فَقَتَلْتُهُ وَلِيهِ، ثُمَّ احْتَمَلَهُ فَأَلْقَاهُ فِي سَبْطٍ غَيْرِ سَبْطِهِ. قَالَ: فَوَقَعَ بَيْنَهُمْ فِيهِ الشَّرْحُ حَتَّى أَخَذُوا السَّلَاحَ. قَالَ: فَقَالَ أُولُو النَّهْيِ: أَنْتُمْ تَقْتُلُونَ وَفِيكُمْ رَسُولُ اللَّهِ؟! قَالَ: فَأَتَوْا نَبِيَّ اللَّهِ. فَقَالَ: اذْبَحُوا بَقَرَةً. فَقَالُوا: أَتَتَّخِذُنَا هَزْوَاً، قَالَ: ﴿أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ ^(٦٧) قَالُوا أَدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ ﴿فَذَبِّحُوهَا وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ﴾ ^[البقرة: ٦٧-٧١] قَالَ: فَضْرَبَ، فَأَخْبَرَهُمْ بِقَاتِلِهِ.

قال: ولم تؤخذ البقرة إلا بوزنها ذهباً، قال: ولو أنهم أخذوا أدنى بقرة لأجزأت عنهم فلم يورث قاتل بعد ذلك.

أما عن الآيات وتأويلها:

فَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً﴾. فِهَذَا مِنَ الْمُوْخَرِ فِي الْمَعْنَى الْمُقَدِّمِ فِي السِّيَاقِ، وَذَلِكَ لِأَنَّ هَذَا بَعْدَ أَنْ قَتَلُوا نَفْسًا فَادَارَعُوا فِيهَا فَاخْتَلَفُوا إِلَى مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ فَلَمَّا ذَهَبُوا إِلَيْهِ أَمَرَهُمْ أَنْ يَذْبَحُوا بَقَرَةً. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى﴾ أَيِ وَادْكُرُوا إِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ وَقَوْمَهُ هُمْ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَمُوسَى هُوَ نَبِيُّ اللَّهِ وَكَلِيمُهُ مُوسَى بْنُ عِمْرَانَ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَقَوْلُهُ: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً﴾ أَيِ لِلْوَصُولِ إِلَى مَعْرِفَةِ الْقَاتِلِ.

(١) الطَّبْرِيُّ (١١٧٢)، وَابْنُ أَبِي حَاتِمٍ (٦٩٥).

فماذا كان من بني إسرائيل لما قال لهم موسى عليه السلام ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً﴾؟! لقد ظنوه يستهزئ بهم ﴿قَالُوا أَنْتُمْ نَحْنُ الْهَزُؤُا﴾؟! أتَهْزَأُ بنا وتسخر منا؟ ولم يكن نبي الله موسى عليه السلام ليسخر منهم وهو ينقل عن الله عز وجل أوامره إلى خلقه فالسخرية أثناء تبليغ دعوة الله جهل وسفه ولم يكن من اللائق ببني إسرائيل أبداً أن يظنوا ذلك بنبيهم عليه الصلاة والسلام، ولكن ليست هذه بأول بلايا بني إسرائيل مع نبيهم، لذا لكون السخرية والاستهزاء أثناء تبليغ الدعوة جهل وسفه، تعوذ موسى عليه السلام بالله عز وجل كي يحفظه من اللحاق بالجاهلين، ومن الدخول في عدادهم، فقال ﴿أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ أُلْجَأُ إِلَى اللَّهِ وَأُسْتَجِيرُ بِهِ كي يعصمني كي لا أكون من الجاهلين فلما تيقن الإسرائيليون أن نبيهم لا يسخر منهم ولا يستهزئ بهم تهادوا في تعنتهم أيضاً، فلو أخذوا بأية بقرة أجزأت عنهم ولكنهم ﴿قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ﴾ فسأل موسى ربه ذلك ثم بين لهم لونها ﴿قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَا فَارِضٌ وَلَا بُكْرٌ﴾ أي وليست صغيرة لم يفتح لها الفحل ولكنها ﴿عَوَانٌ بَيْنَ ذَلِكَ﴾ أي وسط بين الفارض والبكر أي وسط بين الكبيرة والصغيرة ﴿فَأَفْعَلُوا مَا تَأْمُرُونَ﴾ أي وامتثلوا الأمر ولا تعنتوا ولا تشددوا ولكنهم أبوا إلا التعنت والتشدد ف﴿قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا لَوْنُهَا﴾ فسألوا أيضاً عن اللون، وكان يمكنهم الاجتزاء بأي لون لكن شددوا فشد عليهم، ف﴿قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَاءٌ فَاقِعٌ لَوْنُهَا تَسُرُّ النَّاظِرِينَ﴾ أي أنها شديدة الصفرة إذا نظر إليها الناظر أسرتُهُ.

ولكن على عادة الإسرائيليين أيضاً لم يجتزؤوا بما ذكر ف﴿قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ إِنَّ الْبَقَرَ تَشَبَهَ عَلَيْنَا وَإِنَّا إِن شَاءَ اللَّهُ لَمُهْتَدُونَ﴾ لقد اختلط عليهم البقر واختلطت عليهم الألوان ولم يهتدوا ولكن لما قدموا المشيئة وفقوا ﴿قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَذُلُوتٌ تُثِيرُ الْأَرْضَ وَلَا تَسْقِي الْحَرْثَ﴾ أي لم يذلها العمل ولم تمتهن بإثارة الأرض وتقليبها وكذلك لم تمتهن ولم تذل بسقيا الحرث فقد كانت الأبقار والأنعام تستغل في نقل الماء

للأرض كي تُسقى بها الأرض كاستعمالها في السواقي واستخراج الماء من الآبار ونحو ذلك.

ثم بيّن لهم موسى عليه السلام مزيداً من أوصافها فقال ﴿مُسَلَّمَةٌ﴾ أي صحيحة سليمة من العيوب ﴿لَا شَيْءَ﴾ أي ليس فيها بياض ولا سواد ولا حمرة، أي إنها صفراء لم يخاطلها لون آخر والشئ مأخوذ من وشى الثوب وهو تحسينه بالألوان فحينئذ ولما قدم الإسرائيليون المشيئة وفقوا ﴿قَالُوا لَكِنَّ جِئْتَ بِالْحَقِّ فَذَبْحُوهَا وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ﴾ أي ومع هذا البيان كله كادوا ألا يفعلون كادوا أن لا يذبحوها، من شدة تعنتهم قال بعض أهل العلم، إذ لم يكن غرضهم إلا التعنت.

وقال آخرون كادوا أن لا يذبحوها لغلاء ثمنها، وقد ذكر البعض أن صاحبها رفع ثمنها جداً عليهم .

وقال فريق من أهل العلم كادوا أن لا يذبحوها خوفاً من الفضيحة التي ستحل بالقاتل وقومه.

فكل هذه أسباب كاد الإسرائيليون بسببها أن يمتنعوا عن ذبح البقرة.

ثم قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَادَرَأْتُمْ فِيهَا﴾ يبين الله سبحانه وتعالى سبب أمرهم بذبح البقرة، وهو كونهم قتلوا نفساً فاختلفوا وتنازعوا فيمن قتلها، وكل قد ألقى بالتهمة على الآخر وهذا السبب جاء بيانه متأخراً عن الأمر بذبح البقرة تشويقاً إلى معرفة سبب الأمر بذبح البقرة وبياناً واستهجاناً لموقف بنى إسرائيل المتعنت المتشدد حتى مع أنبيائهم عليهم الصلاة والسلام.

ولنرجع إلى التأويل فنقول وبالله التوفيق، لقد أمروا بذبح البقرة لاكتشاف الجاني الذي ارتكب جناية القتل بعد أن اتهم بعضهم بعضاً واستتر القتل ولكن ﴿وَاللَّهُ مُخْرِجٌ مَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ﴾ أي والله سيظهر ما كنتم تسرونه من أمر القاتل والمقتول. فحينئذ ولما ذبحوا البقرة، أمرهم الله تبارك وتعالى أن يضربوا المقتول ببعضها ﴿فَقُلْنَا أَصْرَبُوهُ بَعْضُهَا﴾ ولا يضربنا جهلنا بهذا البعض الذي أمروا أن يضربوا به

القتيل، فالمعجزة حاصلة بحمد الله.

الحاصل أن الله سبحانه وتعالى أحيا القتيل، وأخبر بمن قتله وذلك تصديقاً لقوله تعالى ﴿وَاللَّهُ يُخْرِجُ مَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ﴾ وتصديقاً لقوله تعالى: ﴿كَذَلِكَ يُحْيِي اللَّهُ الْمَوْتَى وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ﴾ أي معجزاته الدالة على قدرته وعلى البعث بعد الموت ﴿لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ أي لعلكم تعقلون عن الله حججه وآياته وتفهمون الحكمة مما ترونه من الآيات والمعجزات.

ولكن هل انتفع الإسرائيليون بذلك؟

هل انتفعوا بعد رؤيتهم الميت وقد أحياه الله، وأخبر بالذي قتله؟ كلا بل ازدادوا عناداً وازدادت قلوبهم قسوةً.

قال تعالى: ﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسَوَةً﴾ أي بل هي أشد قسوة من الحجارة ثم أخبر الله عز وجل أن من الحجارة حجارة تنفجر منها الأنهار فينتفع بذلك الناس والدواب والأنعام، ومنها حجارة أيضاً تتشقق فيخرج منها الماء، ومنها حجارة تهبط من خشية الله فقال تعالى: ﴿وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهَارُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ﴾ ولكن بنوا إسرائيل ليسوا كذلك بل قلوبهم أقسى من كل ذلك ولكن ﴿وَمَا اللَّهُ بِغَفِيلٍ﴾ يا بني إسرائيل ﴿عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ من الجرائم والآثام.



(أحوال اليهود مع أهل الإيمان وبيان مكرهم وكذبهم)

قال الله عز وجل: ﴿أَفَنظَمُونَ أَنْ يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلِمَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ (٧٥) وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ ءَامَنُوا قَالُوا ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَا بِعَضُفِهِمْ إِلَى بَعْضٍ قَالُوا أَتُحَدِّثُونَهُمْ بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَاجُّوكُمْ بِهِ عِنْدَ رَبِّكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ (٧٦) أَوَلَا يَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ (٧٧) وَمِنْهُمْ أُمِّيُونَ لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلَّا أَمَانِي وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾ (٧٨) فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُمُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا يَكْسِبُونَ﴾ (٧٩) وَقَالُوا لَنْ تَمْسَنَا التَّكَارُ إِلَّا آتِيَا مَا مَعْدُودَةٌ قُلْ أَتُخَذُكُمْ عِنْدَ اللَّهِ عَهْدًا فَلَنْ يُخْلَفَ اللَّهُ عَهْدَهُ أَمْ نَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ (٨٠) بَلَى مَنْ كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ التَّكَارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ (٨١) وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ (٨٢)

يتوجه الخطاب لأهل الإيمان، فيقول الله سبحانه وتعالى لهم ﴿أَفَنظَمُونَ﴾ يا أهل الإيمان ﴿أَنْ يُؤْمِنُوا لَكُمْ﴾ أن يصدقوكم ويتابعوكم (أي اليهود) على ما جاءكم به

نبيكم محمد ﷺ من عند ربكم عز وجل .

﴿وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلِمَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِن بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ أي كيف تعلمون يا أصحاب محمد في إيمان هؤلاء وقد كان فريق من علمائهم يسمعون كلام الله قيل هو التوراة فقد كانوا يسمعونها ويفهمونها ويتقنون فهمها ثم يحرفونها عن عمد وعن علم بعقوبة التحريف وعن علم موجه للصواب ومن صور هذا التحريف ما أخرجه البخاري ومسلم في «صحيحيهما» من حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنهما أن اليهود جاءوا إلى رسول الله ﷺ فذكروا له أن رجلاً منهم وامرأة زنيا فقال لهم رسول الله ﷺ: «ما تجدون في التوراة في شأن الرجم؟» فقالوا: نَفَضَحُهم ويجلدون، قال عبد الله بن سلام رضي الله عنه: كذبت إن فيها الرجم فأتوا بالتوراة فنشروها فوضع أحدهم يده على آية الرجم فقرأ ما قبلها وما بعدها فقال له عبد الله بن سلام رضي الله عنه: ارفع يدك فرفع يده فإذا فيها آية الرجم، فقالوا: صدق يا محمد فيها آية الرجم فأمر بهما رسول الله ﷺ فرُجما فرأيت الرجل يحني على المرأة يقيها الحجارة ^(١) .

ومن صور التحريف كذلك ما ذكره عبد الرحمن بن زيد بن أسلم ^(٢) إذ قال: التوراة التي أنزلها عليهم يُحرفونها يجعلون الحلال فيها حراماً، والحرام فيها حلالاً، والحق فيها باطلاً، والباطل فيها حقاً إذا جاءهم المحقق برشوة أخرجوا له كتاب الله، وإذا جاءهم المبطل برشوة أخرجوا له ذلك الكتاب فهو فيه محقق، وإن جاء أحدٌ يسألهم شيئاً ليس فيه حق ولا رشوة ولا شيء أمروه بالحق فقال لهم: ﴿أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ نَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: ٤٤] .

والآية الكريمة فيها تبصيرٌ وتصبيرٌ لأصحاب محمد ﷺ تبصيرٌ لهم بعدوهم الذي يطمعون في إيمانه، وتصبيرٌ لهم على تكذيب عدوهم لهم، فعدوهم مشهور

(١) البخاري (٦٨٤١)، ومسلم (١٦٩٩) .

(٢) الطبري (١٣٣١)، وهو صحيح إلى عبد الرحمن بن زيد، وإن كان في عبد الرحمن نفسه كلام .

بذلك ومشهور بالعناد من قبل ومشهور بالخيانة والتحريف فلا تطمعوا في إيمانهم فأخلاقهم لا تقتضي الطمع فيهم ولا في إيمانهم فإذا كانوا يحرفون الكتاب الذي أنزل على نبيهم وفيه شرفهم، وهو التوراة، فلأن يحرفوا غيره من باب أولى، وهم على ذلك أجراء.

ثم يبين الله سبحانه وتعالى حال طائفة من اليهود، الذين جمعوا بين التهود والنفاق فيقول تعالى: ﴿وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ ءَامَنُوا قَالُوا ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَا بِعَضُوبُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ قَالُوا أَتُحَدِّثُونَهُم بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَاجُّوكُمْ بِهِ ۚ عِنْدَ رَبِّكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ۚ﴾.

فهذا مزيد بيان لأحوال اليهود حتى يحذرهم المسلمون وحتى لا يطمعون في إيمانهم فهذا حالهم أنهم إذا لقوا أهل الإيـمان قالوا آمنا وهم في حقيقة الأمر كذبة خونة أما عن معنى الآية إجمالاً والله أعلم:

أن بعض اليهود كانوا إذا التقوا بالمؤمنين قالوا لهم آمنا بما معكم وصدقنا أن هذا نبي لأن صفته في كتابنا وقد أخذ علينا الميثاق أن نؤمن به، ثم إن هذا النبي يُخبرنا بالذي حكم الله علينا به من التصديق بنبيه إذا بعث، ويخبرنا هذا النبي أيضاً بما عاقب الله به أسلافنا من المسخ وجعل المعتدين منهم قردة وخنـازير، ويخبرنا بالذي كان من أسلافنا من أمر عبادتهم للعجل وإلى غير ذلك ثم إذا انصرف هذا الفريق من اليهود إلى إخوانهم اليهود عاتبهم إخوانهم بقولهم: ﴿أَتُحَدِّثُونَهُم بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَاجُّوكُمْ بِهِ ۚ عِنْدَ رَبِّكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ۚ﴾ [البقرة: ٧٦]، أي: كيف تحدثون هؤلاء المسلمين بما قضى الله به عليكم - أي: على أجدادكم - من العقوبات وما ألزمكم الله به من الإيـمان بنبيهم إذا بعث، فإنكم بحديثكم هذا لهم تجعلونهم يحتجون عليكم به عند ربكم وتجعلونهم أكثر ثباتاً على الإيـمان، والله أعلم.

وقولهم: ﴿لِيُحَاجُّوكُمْ بِهِ ۚ عِنْدَ رَبِّكُمْ ۚ﴾ أي يحتجون به عليكم يوم القيامة أي أن المسلمين يحتجون يوم القيامة على اليهود قائلين يا رب لقد أخبرونا أنك أحللت

بآبائهم وأجدادهم وأسلافهم صوراً من العقوبات لما خالفوك وعصوا رسلك ومع ذلك فهؤلاء الذين أخبرونا بذلك قد خالفوا أمرك وعصوا رسلك ولم يتعظوا ولم يعتبروا بم أحللت بأسلافهم.

ثم يوجه العتب واللوم والتبكيت لهؤلاء اليهود الذين يخفون حقيقة أمرهم على المسلمين فيقول تعالى: ﴿أَوَلَا يَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ وهذا للتوبيخ والإنكار أي كيف تخفون أمركم على أهل الإيثار والله يعلم ما تكتُمون وما تُظهرون.

أما قوله تعالى: ﴿وَمِنْهُمْ أُمِّيُونَ﴾ أي ومن اليهود قسمٌ ثالث ألا وهم الأميون الذين لا يقرأون ولا يكتبون، فقد سبق أن منهم من هم على علم ويجرفون الكلم عن مواضعه عن علم وعمد، ومنهم أهل نفاق وهم الذين ذكرهم الله بقوله: ﴿وَإِذَا لَفَؤُا الَّذِينَ ءَامَنُوا قَالُوا ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَا بِعَضُّهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ قَالُوا اتَّخَذُوا لَهُمْ سَمًّا وَلَئِن لَّمْ يَكُن لَّهُمْ بَرَاءَةٌ مِنَ اللَّهِ فَسَمٌّ عَنِكَ﴾ وكذا فالفريق الثالث هم الأميون ﴿لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ﴾ أي لا يعلمون عن الكتاب وعن ما فيه من أحكام وفرائض وحدود وحلال وحرام ومع ذلك يدعون أنهم مقرون بالكتاب وهم لا يدرون عما فيه، والله تعالى أعلم.

أما قوله تعالى: ﴿إِلَّا أَمَانِي﴾ أي لكنها أمانى يمينون بها أنفسهم وهي أمنية، وهي أمانى كاذبة يتمنونها ويغرون بها أنفسهم ويوهمونها بها كقولهم: ﴿لَن يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا﴾ وقولهم: ﴿لَن تَمَسَّنَا النَّكَارُ إِلَّا أَيَّامًا مَّعْدُودَةً﴾ [البقرة: ٨٠]. وقولهم: ﴿نَحْنُ أَبْنَاؤُا لِلَّهِ وَأَحِبُّوهُ﴾ [البائدة: ١٨].

فعلى ذلك فالأمانى هنا هي الأوهام والأكاذيب التي يوهمون بها أنفسهم. وقد قيل إن الأمانى هي الظنون والتخرصات الباطلة التي يفتقدونها وقيل أيضًا إن الأمانى هي القراءات ومنه قوله تعالى: ﴿أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ﴾ أي في قراءته، لكن الوجه الأول أصح، وذلك لأنهم أميون، والأمانى لا يقرأ ولا يكتب فمع هذا فالاستثناء في قوله تعالى: ﴿إِلَّا أَمَانِي﴾ استثناء منقطع وهو أن يكون المستثنى من غير

جنس المستثنى منه ومنه قوله تعالى: ﴿مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا اتِّبَاعَ الظَّنِّ﴾ فاتباع الظن ليس من جنس العلم ومنه قول القائل حضر القوم إلا الباخرة، أي لكن الباخرة لم تحضر والله تعالى أعلم.

أما قوله تعالى: ﴿وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾:

ف﴿وَإِنْ﴾ هنا بمعنى (ما النافية) والمراد: وما هم إلا يظنون.

وهذا كقوله تعالى: ﴿قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِنْ نَحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ﴾ [إبراهيم: ١١]

أي: ما نحن إلا بشر مثلكم.

❖ وكقوله تعالى: ﴿إِنَّ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي غُرُورٍ﴾ [الملك: ٢٠]، أي: ما الكافرون إلا

في غرور.

أما قوله تعالى: ﴿فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ فهذا تهديدٌ شديدٌ ووعدٌ أكيدٌ لمن يصنعون هذا، فقوله تعالى: ﴿فَوَيْلٌ﴾ الويل له معنيان في كتاب الله عز وجل:

أحدهما: واد في جهنم، وقد ورد بذلك أحاديث، وإن كانت أسانيدُها لا تخلو من مقال إلا أن من العلماء من يصححها بمجموع طرقها.

والثاني: أن الويل عذاب شديد، أي تهديد بالعذاب الشديد إنه تهديد هنا للذين يغيرون في التوراة ويحرفونه ويبدلون ويكتبون بأيديهم كُتُبًا وينسبونها إلى الله ويزعمون أنها من عند الله ولقد ورد عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال محذراً: يا معشر المسلمين كيف تسألون أهل الكتاب عن شيء، وكتاب الله الذي أنزله على نبيه أحدث أخبار الله تقرءونه غضاً لم يشب وقد حدثكم الله تعالى أن أهل الكتاب قد بدلوا كتاب الله وغيروه وكتبوا بأيديهم الكتاب وقالوا: هو من عند الله ليشتروا به ثمناً قليلاً أفلا ينهاكم ما جاءكم من العلم عن مساءلتهم، ولا والله ما رأينا منهم أحداً قط سألكم عن الذي أنزل إليكم.

أما قوله تعالى: ﴿لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ فيبان لسبب تحريفهم الكتاب وافترائهم على الله، ألا وهو رغبته في الحياة الدنيا الزائلة، فكانوا يحرفون الكتاب استرضاءً للأغنياء والكبراء، وتمشيًا مع ما يهوونه ويريدونه طمعًا في دنيا أو في وجاهة أو رياسة أو دفعًا لشر ونحو ذلك.

وقد وصف الله سبحانه وتعالى هذا الثمن الذي يتقاضونه وإن كان كثيرًا في أعينهم بأنه قليل فقال ﴿لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ فمهما أوتوا من متاع فالدنيا كلها قليلة فانية زائلة وقد قال تعالى: ﴿فَمَا مَتَّعَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ﴾.

ثم تكرر الوعيد والتهديد فكرر الويل إذ قال تعالى: ﴿فَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ﴾ وهذا التكرير للتوبيخ والتقريع وتقبيح الجريمة جريمة التحريف والافتراء.

وهنا لفتة إلى قوله تعالى: ﴿أَيْدِيهِمْ﴾ فمعلوم أن الكتابة تكون باليد فلماذا إذا قيل بأيديهم، والجواب على ذلك أنهم باشروا بأنفسهم الكتابة وزوروا بأيديهم، فقوله بأيديهم لتأكيد تحريفهم وليبان عظيم جرمهم والله أعلم.

أما قوله تعالى: ﴿وَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا يَكْسِبُونَ﴾ أي وعذاب شديد لهم وهلاك من هذا الكسب الحرام الذي اكتسبوه، ومن الأثام التي ارتكبوها بسبب هذا التحريف والله أعلم.

ثم يتواصل التذكير ببيان مخازي بني إسرائيل وافترائهم فيقول تعالى: ﴿وَقَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَعْدُودَةً﴾ هكذا زعمت يهود أنهم لن يُعذبوا في النار إلا أيامًا معدودة أي أيامًا قليلة يعدّها العاد ويحصيها وقد قيل إنهم يقصدون بذلك عدد الأيام التي عبدوا فيها العجل وقد قيل إنها سبعة أيام وقيل أربعون يومًا، وقيل غير ذلك هكذا زعموا، فكذبهم الله بقوله: ﴿قُلْ﴾ لهؤلاء الذين زعموا ذلك

﴿أَتَخَذْتُمْ عِنْدَ اللَّهِ عَهْدًا﴾ أي هل أعطاكم الله عهدًا بأنه لن يعذبكم إلا أيامًا معدودة، فإذا كنتم اتخذتم عند الله عهدًا ﴿فَلَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ عَهْدَهُ﴾ ولكن ما أعطاكم الله عهدًا ولا وعدكم الله وعدًا.

و﴿أَمْ﴾ هنا بمعنى بل أي بل ﴿تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ أي لكنكم تفترون على الله ما لا علم لكم به وقد قيل إن (أم) هنا استفهامية فيكون المعنى يا من زعمتم أن النار لن تمسكم إلا أيامًا معدودة هل تقولون ذلك بعلم عن الله أعلمكموه الله أم أنكم تقولون على الله ما لا علم لكم به ويكون الأخير تقريرًا وتوبيخًا لهم.

هذا وجديرٌ بالذكر في هذا المقام حديث أبي هريرة رضي الله عنه الذي أخرجه البخاري وفيه أن أبا هريرة قال: لما فتحت خيبر أهديت للنبي صلى الله عليه وسلم شاة فيها سمٌ فقال النبي صلى الله عليه وسلم: «اجمعوا إلي من كان ها هنا من يهود فجمعوا له، فقال: إني سائلكم عن شيء فهل أنتم صادقي عنه» فقالوا: نعم، قال لهم النبي صلى الله عليه وسلم: «من أبوكم؟» قالوا: فلان، فقال: «كذبتكم بل أبوكم فلان»، قالوا: صدقت، قال: «فهل أنتم صادقي عن شيء إن سألت عنه؟» فقالوا: نعم يا أبا القاسم، وإن كذبنا عرفت كذبنا كما عرفته في أبينا فقال لهم: «من أهل النار؟» قالوا: نكون فيها يسيرًا ثم تخلفونا فيها. فقال النبي صلى الله عليه وسلم: «احسبوا فيها، والله لا نخلفكم فيها أبدًا» ثم قال: «هل أنتم صادقي عن شيء إن سألتكم عنه؟» قالوا: نعم يا أبا القاسم، قال: «هل جعلتم في هذه الشاة سمًّا؟» قالوا: نعم. قال: «ما حملكم على ذلك؟» قالوا: إن كنت كاذبًا نستريح، وإن كنت نبيًّا لم يضررك ^(١).

ثم يقول تعالى مُكَذِّبًا هؤلاء الذين قالوا لن تمسنا النار إلا أيامًا معدودة: ﴿بَلَىٰ مَنْ كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِ خَاطِئَتُهُ فَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ أي من أشرك بالله فالسيئة في هذا الموطن المراد بها الشرك وقوله: ﴿وَأَحَاطَتْ بِهِ خَاطِئَتُهُ﴾ أي مات على الكفر فسيخلد في النار فهو صاحبها الذي لا يفارقها وقد

(١) البخاري (حديث ٣١٦٩).

قيل في معنى ﴿وَأَحْطَطَ بِهِ خَطِيئَتُهُ﴾ قول آخر أي وهو اجتمعت عليه سيئات حتى أهلكته والمعنى الأول هنا أليق والله أعلم.

هذا وننبه هنا على أمر مهم ألا وهو أن الكلمة الواحدة من كتاب الله عز وجل كثيرًا ما تتعدد معانيها، ويُفهم المعنى المراد من السياق الذي وردت فيه الكلمة فحينئذ تلبس الكلمة المعنى اللائق بها ومن الكلمات التي تتعدد معانيها كلمة السيئة: ﴿فَتَأْتِي أحيانًا بمعنى الشرك كما في هذه الآية الكريمة: ﴿بِكُلِّ مَنْ كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحْطَطَ بِهِ خَطِيئَتُهُ فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [البقرة: ٨١]، وذلك لأنه لا يخلد في النار إلا المشرك ومن على شاكلته من الملاحدة ومنافقي نفاق الاعتقاد.

ومن هذا أيضًا قوله تعالى: ﴿وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَكُبَّتْ وَجُوهُهُمْ فِي النَّارِ﴾

[النمل: ٩٠]

﴿وتأتي السيئة أحيانًا بمعنى الكبيرة كما قال تعالى في شأن قوم لوط: ﴿...وَمَنْ قَبْلُ كَانُوا يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ﴾ [هود: ٧٨].

وتأتي أحيانًا بمعنى الصغيرة كما في قوله تعالى: ﴿إِنْ تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ﴾ [النساء: ٣١]. والله تعالى أعلم.

أما قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ أي أتبعوا الإيمان بالعمل الصالح لم يقتصروا على النطق بلسانهم ولا على الاعتقاد بقلوبهم فقط، بل عملوا أيضًا الأعمال الصالحة ممثلين أوامر الله عز وجل وأوامر رسوله ﷺ بجوارحهم أيضًا ﴿أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ﴾ الذين هم أهلها وخلقوا لها ﴿هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ لا يموتون ولا يتسرب إليهم المشيب ولا يخرجون منها ولا يتحولون عنها.



(بيان بعض المواثيق المأخوذة على بني إسرائيل
وكيف وأنهم نقضوها)

قال الله عز وجل: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَءِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا
اللَّهَ وَيَآلُو لَدَيْنَ إِحْسَانًا وَذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَقُولُوا
لِلنَّاسِ حُسْنًا وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا
قَلِيلًا مِّنْكُمْ وَأَنْتُمْ مُّعْرِضُونَ ﴿٨٣﴾ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ لَا
تَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ وَلَا تَخْرِجُونَ أَنْفُسَكُمْ مِّن دِيَارِكُمْ ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ
وَأَنْتُمْ تَشْهَدُونَ ﴿٨٤﴾ ثُمَّ أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ تَقُولُونَ أَنْفُسَكُمْ
وَتَخْرِجُونَ فَرِيقًا مِّنْكُمْ مِّن دِيَارِهِمْ تَظَاهَرُونَ عَلَيْهِم بِآلَائِهِمْ
وَالْعُدْوَانِ وَإِن يَأْتُوكُمْ أُسْرَىٰ تَفْدُوهُمْ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ
إِخْرَاجُهُمْ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكُذِّبِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ فَمَا
جَزَاءُ مَن يَفْعَلُ ذَلِكَ مِنْكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ
الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰ أَشَدِّ الْعَذَابِ وَمَا اللَّهُ بِغَفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٨٥﴾
أُولَٰئِكَ الَّذِينَ اشْتَرُوا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ الْعَذَابُ
وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٨٦﴾﴾

يُذَكِّرُ الله سبحانه وتعالى بالميثاق الذي أخذه على بني إسرائيل فقد أخذ عليهم

ميثاقاً ألا يعبدوا إلا الله وأن يحسنوا إلى الوالدين إحساناً فقال: ﴿وَإِذَا أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَءِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ وكذا أخذ عليهم الميثاق بالإحسان إلى ذي القربى واليتامى والمساكين إذ الله تعالى قال: ﴿وَذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ﴾ وكذا أخذ عليهم الميثاق أن يقولوا للناس حسناً وأن يقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة ولكن جُلُّهم أعرض عن هذا الميثاق وتولى أما عن الآية وما ورد فيها فقوله تعالى: ﴿وَإِذَا أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَءِيلَ﴾ أي واذكر إذ أخذنا الميثاق على بني إسرائيل، أما الميثاق فهو ما تحدث به الثقة والمراد هنا بالميثاق العهد المؤكد باليمين، وهذا الميثاق أخذ على أجدادهم على السنة أنبيائهم عليهم الصلاة والسلام وكان أول شيء أخذ عليه الميثاق ﴿لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ﴾ ثم الإحسان إلى الوالدين وهذا المعنى أفادته عدة آيات من كتاب الله منها:

قول الله تبارك وتعالى: ﴿وَإِذَا أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَءِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ [البقرة: ٨٣].

وقال تعالى: ﴿وَأَعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾.

[النساء: ٣٦]

وقال تعالى: ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبِّيَ عَلَيْكُمْ عَلَىٰ شَيْءٍ وَالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ [الأنعام: ١٥١].

وقال تعالى: ﴿وَقَضَىٰ رَبِّيَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾.

[الإسراء: ٢٣]

وتم آيات أخر في هذا الصدد أيضاً.

أما الإحسان إلى الوالدين فقد وردت فيه إضافة إلى ما ذكر جملة من الأحاديث عن رسول الله ﷺ فمن ذلك:

✽ ما أخرجه البخاري ومسلم في «صحيحيهما» من حديث ابن مسعود رضي الله عنه

قال: سألت النبي ﷺ: أيُّ العمل أحب إلى الله تعالى؟ قال: «الصلاة على وقتها»، قلت: ثم أي؟ قال: «بِرُّ الوالدين»، قلت: ثم أي؟ قال: «الجهاد في سبيل الله»^(١).

✽ وأخرج البخاري ومسلم من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما قال: أقبل رجل إلى نبي الله ﷺ، فقال: أبايعك على الهجرة والجهاد أبتغي الأجر من الله تعالى، فقال: «هل لك من والديك أحد حيٌّ؟» قال: نعم بل كلاهما، قال: «فتبتغي الأجر من الله تعالى؟» قال: نعم، قال: «فارجع إلى والديك فأحسن صحبتهما»، واللفظ لمسلم.

وفي رواية للبخاري ومسلم من حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما أيضًا قال: جاء رجل فاستأذنه في الجهاد قال: «أحيي والدك؟» قال: نعم، قال: «ففيهما فجاهد»^(٢). وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «رَغِمَ أَنْفٌ ثَم رَغِمَ أَنْفٌ ثَم رَغِمَ أَنْفٌ» قيل: من يا رسول الله؟ قال: «من أدرك أبويه عند الكبر أحدهما أو كليهما فلم يدخل الجنة»^(٣).

✽ وسئل النبي ﷺ من أحق الناس بحسن صحابتي يا رسول الله، قال: «أمك» قال: ثم من؟ قال: «ثم أمك» قال: ثم من؟ قال: «ثم أمك» قال: ثم من؟ قال: «ثم أبوك»^(٤).

✽ وفي الباب حديث الثلاثة أصحاب الغار الذين انطبقت عليهم صخرة وأغلقت عليهم الغار، فتوسل أحدهم ببره لوالديه ففرج الله ﷻ عنهم^(٥).

(١) أخرجه البخاري (مع الفتح ١٠/٤٠٠)، ومسلم (٨٥)، والنسائي (٢٩٢/١)، والترمذي (١٧٣) وقال: حديث حسن صحيح.

(٢) أخرجه البخاري (مع الفتح ٦/١٤٠)، ومسلم (٥/٤١١)، وأبو داود (٢٥٢٩)، والنسائي (٦/١٠)، والترمذي (١٦٧١) وقال: هذا حديث حسن صحيح.

(٣) أخرجه مسلم (مع النووي ٥/٤١٦) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعًا.

(٤) أخرجه البخاري (مع الفتح ١٠/٤٠١)، ومسلم (مع النووي ٥/٤١٠) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعًا.

(٥) أخرجه البخاري (مع الفتح ١٠/٤٠٤)، ومسلم (حديث ٢٧٤٣) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما مرفوعًا.

❁ وفي الباب كذلك حديث أويس القرني الذي عدّه رسول الله ﷺ خير التابعين لبره بأمه^(١).

❁ وفي الباب أيضًا استجابة دعوة أم جريج على ولدها لما قالت: اللهم لا تمته حتى تريه وجوه المياميس لما أقبل على صلاته ولم يلتفت لأمه.

أما ذوو القربى فهم الأرحام:

ومن صور الإحسان لذي القربى معرفة حقهم وقرابتهم ووصل الرحم لهم كما قال النبي ﷺ فيما أخرجه البخاري ومسلم من حديث عمرو بن العاص قال: سمعت النبي ﷺ جهرًا غير سرٍّ يقول: «إن آل أبي (يعني فلائًا) ليسوا لي بأولياء إنما وليّ الله وصالح المؤمنين»^(٢). زاد عنبسة بن عبد الواحد (كما عند البخاري) عن بيان عن قيس عن عمرو بن العاص قال: سمعت النبي ﷺ: «ولكن لهم رحم أبلها ببلالها» يعني: أصلها بصلتها.

أما اليتيم فهو من مات أبوه، وكان دون البلوغ، ولليتيم حدٌ وهو البلوغ (أي: الاحتلام) عند كثير من العلماء ومنهم من حدّه بالإنبات (إنبات شعرٍ حول العانة) لما حدث يوم بني قريظة من أن الصحابة كانوا ينظرون فمن نبت له شعر حول العانة قُتل وإلا تُرك^(٣).

(١) حديث أويس أخرجه مسلم (مع النووي ٥/٤٠٣).

(٢) أخرجه البخاري (حديث ٥٩٩٠)، ومسلم (حديث ٢١٥) والزيادة عند البخاري، وهي معلقة كما ترى وقد ذكر الحافظ ابن حجر في «الفتح» (٤٢٢/١٠) من وصلها.

(٣) صحيح فقد أخرج أحمد في «المسند» (٤/٣١٠، ٣٨٣)، وأبو داود في «سننه» (حديث ٤٤٠٤)، والترمذي (١٥٨٤) وقال: هذا حديث حسن صحيح، والنسائي (١٥٥/٦)، (٩٢/٨)، وابن ماجه (حديث ٢٥٤١)، والحاكم (١٢٣/٢) وغيرهم من طريق عبد الملك بن عمير عن عطية القرظي قال: عرضنا على النبي ﷺ يوم قريظة فكان من أنبت قُتل ومن لم ينبت خلى سبيله فكنت فيمن لم ينبت فخُلي سبيلي.

❁ وقد توبع عبد الملك بن عمير عن عطية القرظي كما عند الحاكم (١٢٣/٢)، والحميدي (٨٨٩)، والنسائي في الكبرى (٨٦١٩) تابعه مجاهد بن جبر عن عطية القرظي.

❁ وتابعه أيضًا كثير بن السائب قال: حدثني ابنا قريظة أنهم عرضوا على رسول الله ﷺ يوم قريظة فمن كان محتلمًا أو نبت له عانته قتل ومن لم يكن محتلمًا أو لم تنبت عانته تُرك.

❖ ومنهم من حدّده بخمس عشرة سنة لما روي عن ابن عمر رضي الله عنهما أنه عرض على رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم أحد (وهو ابن أربع عشرة سنة) فردّه النبي صلى الله عليه وسلم ثم عرض عليه يوم الخندق (وهو ابن خمس عشرة سنة) فأجازّه النبي صلى الله عليه وسلم ^(١) والأول أصح، والله تعالى أعلم.

وقد ورد في فضل كافل اليتيم والمحسن إليه كم هائل من النصوص نجتزئ منها في هذا المقام بما أخرجه البخاري ومسلم: في «صحيحهما» من حديث سهل بن سعد رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «أنا وكافل اليتيم في الجنة هكذا»، وأشار بالسبابة والوسطى وفرّج بينهما شيئاً ^(٢).

❖ أما الحديث الوارد في فضل الساعي على الأرملة والمسكين ففي «الصحيحين» أيضاً من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال النبي صلى الله عليه وسلم: «الساعي على الأرملة والمسكين كالمجاهد في سبيل الله، أو القائم الليل الصائم النهار» ^(٣). أما المسكين: فهو المتذل المتخشع من الفاقة والحاجة - الذي أسكنه الفقر وأسكنته الحاجة، وهو - أيضاً - العاجز عن الكسب، أو: الذي يكتسب ولكن يكتسب ما لا يكفي.

والمراد بقوله تعالى: ﴿وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا﴾ أي قولوا للناس قولاً معروفاً لنا حسناً طيباً جميلاً، ومن القول الحسن: بذل السلام للناس، وتعليم جاهلهم، وإرشاد ضالهم، والبشاشة في وجوههم، والابتعاد عن الفحش من القول والبذاءة والشتم والسباب.

هذا والقول الحسن مطلوبٌ مع عموم الناس:

^١ وبالجملة فالحديث يثبت بهذه الطرق، والله أعلم.

(١) صحيح أخرجه البخاري (حديث ٤٠٩٧)، ومسلم حديث (١٨٦٨).

(٢) أخرجه البخاري (٥٣٠٤)، ومسلم (٢٩٨٣).

(٣) البخاري (٥٣٥٣)، ومسلم (٢٩٨٢).

أما الأدلة على أن القول الحسن عام فمنها ما يلي:

- ✽ عموم قوله تعالى: ﴿وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا﴾ [البقرة: ٨٣].
 - ✽ قول الله ﷻ لموسى وهارون لما أرسلهما إلى فرعون: ﴿فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لِّنَا لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى﴾ [طه: ٤٤].
 - ✽ قول الله ﷻ: ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَحَدِّ لَّهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ [النحل: ١٢٥].
 - ✽ قول الله ﷻ: ﴿وَلَا تَجِدُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ﴾ [العنكبوت: ٤٦].
 - ✽ قوله تعالى: ﴿وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾ [الأعراف: ١٩٩].
 - ✽ قوله تعالى في وصف المؤمنين: ﴿وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا﴾ [الفرقان: ٧٢].
 - ✽ وقال تعالى: ﴿لَا يَنْهَكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ [الممتحنة: ٨].
 - ✽ وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَسْتَوِ الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾ [فصلت: ٣٤].
 - ✽ وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدَوًّا بَغِيًّا عَلِيمٌ﴾ [الأنعام: ١٠٨].
- وأخذ عليهم الميثاق أيضًا بإقامة الصلاة بقوله: ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾ فهي عمود الدين وتقدم أن النبي ﷺ سئل أي العمل أحب إلى الله تعالى؟ قال «الصلاة على وقتها»^(١).
- ثم إن الصلاة هي الركن الثاني من أركان الإسلام (بعد الشهادتين) وسيأتي مزيد في فضلها إن شاء الله في الموطن اللائق بذلك.
- وأخذ الميثاق أيضًا على بني إسرائيل أن يؤتوا الزكاة قال تعالى: ﴿وَأَتُوا الزَّكَاةَ﴾ وهي عندنا نحن المسلمين الركن الثالث من أركان الإسلام.

(١) البخاري مع الفتح (١٠/٤٠٠)، ومسلم (٨٥).

وفي هذا المذكور من أخذ الميثاق على بني إسرائيل بإيتاء الزكاة دليل على أن الزكاة كانت مفروضة على الأمم من قبلنا.

لكن هل وفي الإسرائيليون بهذه العهود والمواثيق وهل قاموا بها؟ كلا ما قاموا بها ولا قاموا بها بل تولى أكثرهم وأعرض كما قال تعالى: ﴿ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْكُمْ وَأَنْتُمْ مُّعْرِضُونَ﴾ وهذا دليل على أن الكثرة منهم فاسقة كما قال تعالى: ﴿مِنْهُمْ الْمُؤْمِنُونَ أَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ﴾.

ثم يتوجه الخطاب إلى بني إسرائيل الذين كانوا يسكنون مدينة رسول الله ﷺ وحولها فيقول تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ﴾ وهو الميثاق المأخوذ على آبائكم فأنتم أيضاً ملتزمون أخذنا عليكم فيما أخذنا ﴿لَا تَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ﴾ أي لا يقتل بعضكم بعضاً ﴿وَلَا تُخْرِجُونَ أَنْفُسَكُمْ مِّنْ دِيَارِكُمْ﴾ أي لا تخرجون إخوانكم من ديارهم فإن أهل الملة الواحدة كالنفس الواحدة^(١) ثم أقررتم أنتم يا معشر اليهود من ساكني مدينة رسول الله ﷺ والمحيطين بها أن هذا الميثاق قد أخذ فعلاً على آبائكم وأسلافكم والتزمتوه أنتم كذلك ولم تنكروه، والله تعالى أعلم.

وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنْتُمْ تَشْهَدُونَ﴾ تشهدون بقلوبكم على هذا، وقيل: تشهدون على أننا أخذنا الميثاق على أوائلكم، وقيل: إن قوله تشهدون تأكيد للإقرار، وقيل: تشهدون أي: تحضرون سفك الدماء والإخراج من البيوت، والله تعالى أعلم.

ولكن هل وفي الإسرائيليون بذلك كلا بل قال تعالى: ﴿ثُمَّ أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ تَقُولُونَ أَنْفُسَكُمْ﴾ أي ثم أنتم يا هؤلاء المعاصرون لنبينا محمد ﷺ من بني إسرائيل تقتلون إخوانكم.. فهؤلاء - على هذا - منادى حذف أداة ندائه كما في قوله

(١) وذلك كما قال تعالى: ﴿وَلَا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ﴾ أي ولا تلمزوا إخوانكم وكقوله تعالى ﴿لَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنْفُسِهِمْ خَيْرًا﴾ أي بإخوانهم وكقوله: ﴿فَسَلِمُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ﴾ أي على إخوانكم وفي الحديث: «مَثَلُ الْمُؤْمِنِينَ فِي تَوَادُّهِمْ وَتَرَاحُمِهِمْ وَنِعَاطِهِمْ مَثَلُ الْجَسَدِ إِذَا اشْتَكَى مِنْهُ عُضْوٌ تَدَاعَى لَهُ سَائِرُ الْجَسَدِ بِالسَّهَرِ وَالْحُمَّى».

تعالى: ﴿يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا...﴾ [يوسف: ٩٢] أي: يا يوسف أعرض عن هذا.
وقال بعض العلماء: إن المعنى... ثم أنتم قوم تقتلون أنفسكم، واعترض
 بين (ثم) و(أنتم) بكلمة هؤلاء كما يقال: أنا ذا أقوم، وأنا ذا أجلس، والله أعلم.
 أما قوله: ﴿تَقْتُلُونَ أَنْفُسَكُمْ﴾ أي يقتل بعضكم بعضاً ﴿وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِنْكُمْ
 مِّن دِيَارِهِمْ﴾ فخالف اليهود الموثيق المأخوذة عليهم فقد أخذت عليهم الموثيق
 ألا يخرجوا بعضهم من ديارهم لكنهم تعاونوا مع الكفار، وطردوا إخوانهم اليهود
 من الديار كما قال تعالى: ﴿تَظَاهَرُونَ عَلَيْهِم بِآلَائِهِمْ وَالْعُدْوَانِ﴾ أي تتعاونون مع
 أعدائكم على إخوانكم اليهود وأنتم في ذلك أئمة عصاة معتدون متجاوزون لحدود
 الله التي حدها الله عز وجل لكم فتخرجوا إخوانكم من الديار وقد حرم عليكم
 إخراجهم أي أنكم تخالفون أمر الله فتخرجون فريقاً منكم من ديارهم وهذا كفر
 ببعض المنزل عليكم في التوراة ومخالفة له وفي ذات الوقت إذا أسر إخوانكم هؤلاء
 الذين أخرجتموهم من الديار سارعتهم إلى فدائهم قال تعالى: ﴿وَإِنْ يَأْتُوكُمْ أُسْرَىٰ
 فَتَدَّوهُمْ﴾ فامتثلتم الأمر في فداء الأسرى وخالفتم النهي عن إخراج القوم من
 بيوتهم ويشهد لذلك قوله تعالى: ﴿وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ﴾ لذا قال تعالى:
 ﴿أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ﴾.

وبصورة أوضح أقول وبالله التوفيق:

قد أمروا بفداء الأسرى منهم، فإذا أسر أحدهم وجب عليهم أن يفادوه فآمنوا
 ببعض (وهو فداء الأسارى) وكفروا ببعض الآخر فكانوا يقتلون إخوانهم
 ويخرجونهم من ديارهم ويتعاونون مع عدوهم عليهم.

فكان اليهود ثلاث طوائف: بنو قينقاع وبنو النضير وبنو قريظة، فكان بنو قينقاع
 حلفاء الخزرج، وكان بنو النضير وبنو قريظة حلفاء الأوس، فكانوا إذا كانت بين
 الأوس والخزرج حروب اقتتلوا كل طائفة من اليهود تقاتل في صف حليفها فيقتل
 القينقاعي أخاه القرظي والنضيري، والعكس بالعكس فإذا وضعت الحرب أوزارها
 سعى النضيري في فداء أخيه الأسير القينقاعي والعكس بالعكس، ويقولون: حرام علينا

أن نتركهم أسارى بدون فداء، فوبخهم الله ﷻ على سوء صنيعهم، فكما أنه حرام عليكم أن تركوهم بدون فداء فحرام عليكم كذلك أن تقتلوهم وتخرجوهم من ديارهم بل إن قتالهم وإخراجهم من ديارهم أشد حرمة من تركهم بدون فداء فمن ثم قال تعالى: ﴿أَفْتَوْمُنُونِ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ﴾ [البقرة: ٨٥] وعلى هذا جمهور المفسرين، وقد جاء فيه أثر عن ابن عباس رضي الله عنهما وفيه كلام إلا أن سياق الآية الكريمة يقتضي تصحيح ما ذكر، وإن كان قوله تعالى: ﴿أَفْتَوْمُنُونِ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ﴾ [البقرة: ٨٥]، يتنزل على أشياء فعلها الإسرائيليون أكثر مما ذكر كإيمانهم ببعض التوراة وكفرهم بصفة محمد ﷺ التي فيها، والله تعالى أعلم.

أما قوله تعالى: ﴿فَمَا جَزَاءُ مَنْ يَفْعَلُ ذَلِكَ مِنْكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ أي فما جزاء من يؤمن ببعض الكتاب ويكفر ببعض إلا ذلة وصغار في الحياة الدنيا ومن صور هذا الخزي فرض الجزية عليهم كما قال تعالى: ﴿حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ﴾ [التوبة: ٢٩] ويتمثل في: قتل مقاتلتهم كما فعل بنو قريظة، وكذلك: سبي نسائهم، وكذلك في: إخراج بني النضير من ديارهم لأول الحشر، كما ذكر الله عز وجل في كتابه الكريم، ويطلق الخزي -أيضا- على: الفضيحة والعار، والله أعلم.

قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَى أَشَدِّ الْعَذَابِ﴾:

أما عن مصيرهم يوم القيامة فيوم القيامة يرجعون إلى أشد العذاب فيكونون مع المعذبين أشد العذاب.

﴿وَمَا اللَّهُ بِغَفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ أي والله سبحانه وتعالى ليس بغافل عن إيمانهم بالبعض وكفرهم بالبعض الآخر، وسيجازي كلًا بما يستحق والله تعالى أعلم.

أما قوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرُوا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ﴾ فمعناه أولئك اليهود الذين نقضوا العهود والمواثيق، وخالفوا أمر ربهم وعصوا رسله أولئك الذين باعوا آخرهم مقابل دنيا دنيئة ﴿فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ الْعَذَابُ﴾ في العذاب الدائم المستمر الذي لا يخفف عنهم ﴿وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾ ولا هناك من ينصرهم من العذاب ولا من يدفعه عنهم.

(مواقف بني إسرائيل من رسل الله الكرام
ومن الكتب المنزلة من عند الله عز وجل)

﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَفَقَّيْنَا مِنْ بَعْدِهِ بِالرُّسُلِ ۖ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ ۖ أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَى أَنْفُسُكُمْ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ ﴿٨٧﴾ وَقَالُوا قُلُوبُنَا غُلْفٌ ۚ بَلْ لَعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلًا مَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٨٨﴾ وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا ۖ فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ ۖ فَلَعْنَهُ اللَّهُ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴿٨٩﴾ بِسْمَا أَسْتَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ أَنْ يَكْفُرُوا بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ بَغْيًا أَنْ يَنْزِلَ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ ۚ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ ۖ فَبَاءُوا بِغَضَبٍ عَلَى غَضَبٍ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُهِينٌ ﴿٩٠﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا نُوْمِنُ بِمَا أَنْزَلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَاءَهُ ۚ وَهُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِمَا مَعَهُمْ ۚ قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنْبِيَاءَ اللَّهِ مِنْ قَبْلُ ۚ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿٩١﴾ ﴾

يُذَكِّرُ اللهُ سبحانه وتعالى بني إسرائيل بجرائئهم مع أنبياء الله ورسله عليهم صلوات الله وسلامه فيقول تعالى: ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ ﴾ أما موسى فهو كليم الله موسى بن عمران عليه السلام، وهو من أولي العزم من الرسل، وهو أكثر

الأنبياء ذكرًا في كتاب الله عزَّ وجل وكذا فسيرته أشبه السير بسيرة نبينا محمد ﷺ أما الكتاب الذي آتاه الله إياه فهو التوراة وآتاه الله أيضًا الصحف المذكورة في قوله تعالى: ﴿أَمْ لَمْ يُنَبِّأْ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَى﴾ وقد قيل إنها والتوراة شيء واحد وأنزل الله عليه الألواح كذلك.

أما قوله تعالى: ﴿وَقَفَّيْنَا﴾ أي أردفنا وأتبعنا ﴿مِنْ بَعْدِهِ بِالرُّسُلِ﴾ هم الأنبياء الذين جاءوا إلى بني إسرائيل بعد موسى ﷺ على منهاجه وشريعته يحثون الناس على التوراة والعمل بما فيها إلى أن جاء عيسى ﷺ، فعلى ذلك هم الذين أرسلوا في الفترة ما بين موسى إلى عيسى ﷺ، ويؤيده قوله تعالى: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِنْ كِتَابِ اللَّهِ وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءً﴾ [المائدة: ٤٤]، والله أعلم.

وقوله تعالى: ﴿وَأَتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ﴾ وهو روح الله وعبده ورسوله عيسى عليه السلام وُلد من غير أب أمه مريم بنت عمران عليهما السلام.

أما ﴿الْبَيِّنَاتِ﴾ التي آتاه الله إياها فتتمثل في الآيات التي أيد الله ﷻ بها عيسى ابن مريم ﷺ وأجراها على يديه، ومنها إحياء الموتى بإذن الله وإبراء الأكمه والأبرص بإذن الله، وإخباره قومه بما يأكلون وما يدخرون في بيوتهم بما علمه الله، والمائدة التي أنزلها الله ﷻ عليه، وخلقه من الطين كهيئة الطير بإذن الله والنفخ فيه فيكون طيرًا بإذن الله، والإنجيل الذي آتاه الله ﷻ.

وقوله تعالى: ﴿وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ﴾ أي وقويناه وأعناؤه وعزَّزناه بجبريل عليه السلام فروح القدس هنا هو جبريل عليه السلام وقد قال تعالى ﴿قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ﴾، وقال تعالى: ﴿نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ﴾ فدلَّ ذلك كله على أن روح القدس هو جبريل عليه السلام ومما يدل على ذلك أيضًا قول النبي ﷺ لحسان ابن ثابت رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وهو يهجو المشركين «اهجهم وجبريل معك»^(١) وفي رواية «اللهم

(١) البخاري (٤١٢٣)، ومسلم (٢٤٨٦) من حديث البراء مرفوعًا.

أيده بروح القدس»^(١) هذا ومن العلماء من قال إن معي روح القدس أي الروح المقدسة أي المطهرة والله أعلم.

ثم مع هذا الإنعام من الله عز وجل على بني إسرائيل بإرسال الرسل، وإنزال الكتب هل قَدَّم الإسرائيليون شكرًا، كلا بل كلما جاءهم رسول بما لا تحب نفوسهم ولا تهواه استكبروا على الحق واستكبروا على رسوله وكذبوه أو قتلوه كما قال تعالى: ﴿أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَىٰ أَنفُسُكُمْ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ﴾.

ثم يبين الله سبحانه وتعالى كبر بني إسرائيل وعنادهم، وذلك أنهم إذا دُعوا إلى الإيمان والإسلام والقرآن ﴿وَقَالُوا قُلُوبُنَا غُلْفٌ﴾ أي قلوبنا مغلقة عليها أغلفة ولكونها مغلقة وجهان:

أحدهما: أنها مغلقة فقد مُلئت علمًا فلا تحتاج إلى ما جئت به من القرآن.

والثاني: أنها مُغلقة لا يستطيع الخير الوصول إليها ولا تستطيع أن تفهم الذي تدعوها إليه ولا الذي تريده منها.

فيرد الله عز وجل عليهم بقوله: ﴿بَلْ لَّعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ﴾ أي إن هذه القلوب لم تملأ علمًا وورعًا وتقى ولكن الذي حدث أن الله عز وجل عاقبهم بسبب كفرهم الذي تمادوا فيه وعنادهم الذي أصروا عليه وتكذيبهم الذي هم عليه مقيمون فبسبب ذلك عاقبهم فطردهم من رحمته فلم تعد قلوبهم تقبل خيرًا هذا هو سبب عدم إيمانهم.

أما قوله تعالى: ﴿فَقَلِيلًا مَّا يُؤْمِنُونَ﴾ ففيه أيضًا الوجهان:

أحدهما: أنه لم يؤمن منهم إلا القليل وهم الذين سلمهم الله وعافاهم ولم يقولوا قلوبنا غلف بل استقبلوا الحق ووعوه وفهموه وصدقوا به، وهؤلاء نفر قليل من اليهود الذين آمنوا.

الوجه الثاني: أن القدر الذي آمنوا به قليل فقد كان اليهود يصدقون بوحداية الله

(١) البخاري (٣٢١٢)، ومسلم (٢٤٨٥)، من حديث أبي هريرة مرفوعًا.

عَزَّ وَجَلَّ يصدقون بالبعث وبالثواب والعقاب ولكنهم كانوا يكفرون بمحمد ﷺ وبنبوته وكل ذلك كان فرضاً عليهم الإيمان به، لأنه في كتبهم ومما جاءهم به موسى، فصدقوا ببعض - وذلك هو القليل من إيمانهم - وكذبوا ببعض فذلك هو الكثير الذي أخبر الله عنهم أنهم يكفرون به.

وقد قال بعضهم: إنهم كانوا غير مؤمنين بشيء، وإنما قيل: ﴿فَقَلِيلًا مَّا يُؤْمِنُونَ﴾ [البقرة: ٨٨] وهم بالجميع كافرون، كما تقول العرب: (قلما رأيت مثل هذا قط) وقد روي عنها سماعاً منها (مررت ببلاد قلما تنبت إلا الكراث والبصل) يعني: ما تنبت غير الكراث والبصل، وما أشبه ذلك من الكلام الذي يُنطق به بوصف الشيء بـ (القلة) والمعنى فيه نفي جميعه، والله أعلم.

ثم يبين الله سبحانه وتعالى حال اليهود مع القرآن فيقول تعالى: ﴿وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ﴾ أما قوله: ﴿مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ﴾ ففيه لأهل العلم وجهان:

أحدهما: أنه موافق لما في التوراة التي بين أيديهم، فالذي أخبرت به التوراة أخبر به القرآن فكان القرآن مصدقاً لها بهذا الاعتبار.

الثاني: أن التوراة التي مع اليهود فيها تبشير بالنبي ﷺ ووصف له والإشارة إلى زمن خروجه وإلى ما معه من الهدى القويم الكريم فمن ثم لما جاء النبي ﷺ بهذا القرآن كان هذا المجيء تصديقاً للتوراة التي أخبرت به هذا ومما يؤكد ما ذكر أن اليهود قُبيل مبعث النبي محمد ﷺ كانوا إذا ظلموا من مُشركي المدينة وكفارها من الأوس والخزرج وغيرهم يطلبون من الله الفتح والنصر ببعثة النبي الذي أخبرت به التوراة إليهم حتى يتبعوه فينصروا به على أعدائهم أهل الكفر فهذا قوله: ﴿وَكَاْنُوا مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ .

وبنحو ذلك قال قتادة رحمه الله تعالى فقد روى عنه الطبري ^(١) بإسنادٍ حسن أنه

(١) الطبري (١٥٢٥).

قال : قوله: ﴿وَكَا نُؤَامِنُ قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ [البقرة: ٨٩] كانت اليهود تستفتح بمحمد ﷺ على كفار العرب من قبل، وقالوا: اللهم ابعث هذا النبي الذي نجده في التوراة يُعذبهم ويقتلهم! فلما بعث الله محمداً ﷺ فرأوا أنه بُعث من غيرهم كفروا به حسداً للعرب وهم يعلمون أنه رسول الله ﷺ يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة ﴿فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ﴾ [البقرة: ٨٩].

قلت: ففي هذا دليل على أنهم كانوا يتوقعون مبعث النبي ﷺ ويتظرونه ومما يدل على ذلك قول الله تبارك وتعالى: ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ وَإِنَّ فَرِيقًا مِنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾.

ثم وبعد هذا التقديم الذي حاصله أن القرآن مصدقٌ للتوراة وأن اليهود كانوا يعرفون ذلك ويدركونه تماماً ويستفتحون على الكفار به، ماذا كان من اليهود لما جاءهم ما عرفوا؟ قال تعالى: ﴿فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ﴾ ثم ما جزاؤهم لقد قال تعالى: ﴿فَلَعَنَهُ اللَّهُ عَلَى الْكُفْرَيْنِ﴾ أي خزي الله وإبعاده وطرده من رحمته كل ذلك لاحق بالجاحدين المنكرين للحق وكل ذلك واقع بهم، وحالٌ عليهم. هذا وجواب قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ﴾ هو قوله ﴿كَفَرُوا بِهِ﴾ والله أعلم.

هذا ومن العلماء من يقول إن جوابه محذوف ولكنه مفهوم لدلالة السياق عليه قالوا وهذا وارد في كتاب الله ﷻ، كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانًا سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ أَوْ قُطِعَتْ بِهِ الْأَرْضُ أَوْ كَلِمَةٌ بِهِ أَلْمُوتُ...﴾ [الرعد: ٣١] أي: لسيرت بهذا القرآن وحذف الجواب لدلالة السياق عليه.

﴿ومن أهل العلم من يقول: إن جواب قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ﴾ [البقرة: ٨٩]، هو قوله تعالى: ﴿كَفَرُوا بِهِ﴾ [البقرة: ٨٩]، والله تعالى أعلم.

هذا ويرد عند قوله تعالى: ﴿وَكَا نُؤَامِنُ قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ﴾ مشروعية الاستفتاح

وهو الاستنصار وطلب الفتح والنصر على العدو بالصالحين وهذا مما أقرته شريعتنا أيضًا فيكون الاستفتاح ^(١) بدعاء الصالحين، وكذلك بالضعفاء، أما الضعفاء فلقول النبي ﷺ لسعد: «هل تنصرون وترزقون إلا بضعفائكم».

أما الصالحون فلما أخرجه البخاري ^(٢) من حديث أبي سعيد الخدري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «يأتي على الناس زمان فيغزو فئام من الناس فيقولون: فيكم من صاحب رسول الله ﷺ؟ فيقولون لهم: نعم فيفتح لهم، ثم يأتي على الناس زمان فيغزو فئام من الناس فيقال فيكم من صاحب أصحاب رسول الله ﷺ؟ فيقولون: نعم فيفتح لهم ثم يأتي على الناس زمان فيغزو فئام من الناس فيقال: هل فيكم من صاحب من صاحب أصحاب رسول الله ﷺ؟ فيقولون: نعم فيفتح لهم»، والله تعالى أعلم.

أما قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ﴾ أي فلما جاءهم النبي ﷺ وبنفس الأوصاف المذكورة عندهم في كتبهم جحدوا نبوته وأنكروا رسالته فتوعدهم الله بقوله: ﴿فَلَعَنَهُ اللَّهُ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ أي فطرد الله وإبعاده حال بالكافرين فهم مطرودون من رحمته مبعدون عن جنته حال بهم بأسه وعقابه.

ثم يبين الله سبحانه وتعالى خسران هؤلاء اليهود وضياعهم وما حلَّ بهم من الغضب والعذاب المهين فيقول تعالى: ﴿بِئْسَمَا أَشْتَرُوا بِهِ أَنْفُسَهُمْ أَنْ يَكْفُرُوا بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ بَعِيًّا أَنْ يُنَزَّلَ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾.

أما قوله تعالى: ﴿بِئْسَمَا﴾ فيشتمل على كلمتين:

أحدهما: (بئس) والأخرى (ما).

أما (بئس) فأصلها من البؤس ثم استعملت للذم والتوبيخ.

(١) المراد بالاستفتاح هنا: الاستنصار أي طلب النصر.

(٢) أخرجه البخاري (حديث ٣٦٤٩)، ومسلم (٢٥٣٢)، وأحمد (٧/٣) من حديث أبي سعيد الخدري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مرفوعًا.

أما (ما) فبمعنى الذي وهنا المراد الشيء الذي.

وقوله: ﴿أَشْتَرُوا﴾ المراد به هنا باعوا.

قال الطبري رحمه الله: شريت بمعنى بعت ومنه قوله تعالى: ﴿وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ﴾ [يوسف: ٢٠] واشتريت بمعنى ابتعت، ولكن قد تستعمل اشتريت بمعنى بعت، وشريت بمعنى (ابتعت) أحياناً، والأصل ما قدمنا.
أما قوله تعالى: ﴿بَغْيًا﴾ أي حسداً.

وعليه فيكون المعنى الإجمالي وبالله التوفيق بئس هذا الشيء الذي باع به اليهود أنفسهم وأدخلوها الجحيم بسببه لقد رضوا بالكفر ورضوا بأن يدخلوا الجحيم مقابل ماذا هذا الرضى بالكفر ودخول الجحيم؟ إنه مقابل إمضاء شهوة الحسد التي ملأت قلوبهم تلك الشهوة التي قادتهم إلى الكفر فرضوا لأنفسهم أن يستمروا في الحسد، وأن يؤول بهم هذا الحسد إلى الكفر، وأن يؤد بهم هذا الكفر إلى الجحيم، كل ذلك ولا يؤمنوا بمحمد ﷺ فأدخلوا أنفسهم الجحيم مقابل استمرارهم في الحسد وامتناعهم عن الإيمان فحاصل القول أن الحامل لليهود على الكفر بالنبي محمد ﷺ هو حسدهم له.

قال بعض أهل العلم: وسبب هذا الحسد أنهم كانوا يريدون أن يكون النبي ﷺ منهم، من ولد يعقوب وإسحاق عليهما السلام فلما جاء من ذرية إسماعيل عليه السلام حسدوه لذلك كذا قال بعض العلماء، وهذا وإن كان له وجه عند بعضهم، إلا أنهم أيضاً سيحسدون ولو كان من ولد إسحاق ويعقوب عليهما السلام فقد قال تعالى: ﴿أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَىٰ أَنفُسُكُمْ أَتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ﴾.

أما قوله تعالى: ﴿أَن يُنَزَّلَ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾ فالمراد بالفضل هنا النبوة والرسالة والقرآن والإيمان والحكمة وهذا القدر الكريم من الآيات يحمل توبيخاً لليهود وتقريعاً لهم فكان المعنى أحسدتهم الناس وبغيتهم عليهم لكون الله عزَّ

وجل تفضل عليهم، أي أحسدتهم النبي محمدًا ﷺ وبغيتهم عليه وكفرتهم به لا لشيء صنعه ولكن لامتنان الله عليه وتفضله عليه وهذا كقوله تعالى: ﴿أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَى مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَآتَيْنَاهُمْ مُلْكًا عَظِيمًا ۚ فَمِنْهُمْ مَنْ ءَامَنَ بِهِ وَمِنْهُمْ مَنْ صَدَّ عَنْهُ وَكَفَى بِجَهَنَّمَ سَعِيرًا ۚ﴾.

أما قوله تعالى: ﴿فَبَاءُوا بِغَضَبٍ عَلَى غَضَبٍ﴾ أي فرجع هؤلاء اليهود وقد غضب الله عليهم غضبًا بعد غضب ورجعوا مغضوبًا عليهم ثم مغضوب عليهم. أما الغضب الثاني فسببه كفرهم بمحمد ﷺ بعد أن عرفوا صفته وتيقنوا من لغته وأنه النبي المبعوث ﷺ.

❖ أما الغضب الأول فسببه كفرهم بـ عيسى ﷺ قبل النبي محمد ﷺ عليه الصلاة والسلام ويدخل في أسباب الغضب الأول عليهم أيضًا عبادتهم العجل، وتضييعهم التوراة، وقولهم عزيز ابن الله وقولهم يد الله مغلولة، وقولهم إن الله فقير ونحن أغنياء... إلى غير ذلك من أنواع الكفر التي ارتكبوها، والله تعالى أعلم. أما قوله تعالى: ﴿وَاللَّكَفِرِينَ عَذَابٌ مُهِينٌ﴾ أي ول هؤلاء الكافرين الجاحدين الذين باءوا هنا بغضب على غضب لهم عذاب مذل مخزي.

ثم يبين الله عز وجل مخازي اليهود ومساوئهم فيقول تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا نُوْمِنُ بِمَا أَنْزَلَ عَلَيْنَا﴾ أي نؤمن بالتوراة فقط التي أنزلت على موسى عليه السلام.

﴿وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَاءَهُ﴾ أي يكفرون بما عداها وبما سواها وبما بعدها ودليل ذلك المعنى، معنى ﴿وَرَاءَهُ﴾ بما بعده، وقيل: بما سواه، ودليله قوله تعالى: ﴿فَمَنْ أَبْغَىٰ وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْعَادُونَ﴾ [المؤمنون: ٧] وقوله تعالى: ﴿وَأَحَلَّ لَكُم مَّا وَرَاءَ ذَٰلِكُمْ﴾ [النساء: ٢٤].

ومرادهم بذلك أنهم يكفرون بالقرآن ويكفرون كذلك بالإنجيل بل يكفرون بأي كتاب آخر نزل من عند الله غير التوراة، وهم وإن كذبوا القرآن فهو حق رغم

أنوفهم وقد أنزله الله ومن ثم دافع ربنا عنه بقوله: ﴿وَهُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَهُمْ﴾ أي موافقًا للتوراة التي بين أيديهم، وقد أخبرت به التوراة ثم يتوجه إليهم ما ينقض به قولهم، وحاصل ذلك إن كنتم يا معشر يهود تزعمون أنكم تؤمنون بما أنزل عليكم فلم يا معشر يهود ﴿تَقْتُلُونَ أَنْبِيَاءَ اللَّهِ مِنْ قَبْلُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ أي مصدقين بالتوراة التي بين أيديكم هل أمرتم في التوراة التي بين أيديكم بقتل أنبياء الله فحقًا إن اليهود كذبة!! إنهم قوم بهت إنهم أهل غدر! وأهل تناقض؟ وأهل كفر وفسق وعصيان!!

إن اليهود لم يكونوا صادقين أبدًا في دعواهم إذ قالوا ﴿تُؤْمِنُ بِمَا أُنزِلَ عَلَيْنَا﴾ فإن الله ﷻ أخذ عليهم فيما أنزل عليهم أن يؤمنوا بمحمد ﷺ، قال تعالى: ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْنُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَاَلَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [الأعراف: ١٥٧].

❖ ومما يدل على كذبهم في قولهم: ﴿تُؤْمِنُ بِمَا أُنزِلَ عَلَيْنَا﴾ [البقرة: ٩١] أيضًا قوله تعالى: ﴿فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنْبِيَاءَ اللَّهِ مِنْ قَبْلُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [البقرة: ٩١] فلم ينزل عليهم في كتبهم أن يقتلوا أنبياء الله ﷺ.

أما لماذا عوتب اليهود الموجودون في زمن رسول الله ﷺ: بقوله تعالى: ﴿قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنْبِيَاءَ اللَّهِ مِنْ قَبْلُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [البقرة: ٩١]، وهم لم يباشروا قتل نبي؟ ولماذا عبر بقوله تعالى: ﴿تَقْتُلُونَ﴾ ولم يقل قتلتم؟

لأنهم أقروا قتل الأنبياء وتولوا من قتلهم ولم يستنكروا أفعالهم قال الله تعالى: ﴿تَرَى كَثِيرًا مِنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيَبْلُوَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنْفُسُهُمْ أَنْ سَخِطَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَفِي الْعَذَابِ هُمْ خَالِدُونَ﴾ (٨٠) وَلَوْ كَانُوا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالنَّبِيِّ

وَمَا أَنزَلْنَا إِلَيْهِ مَا اتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَاءَ وَلَكِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُمْ فَدَسِقُونَ ﴿١٣٥﴾

[الأنعام: ٨٠، ٨١]

❀ وقد قال تعالى عن قوم ثمود: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا﴾ [الشمس: ١٤] مع أن الذي عقرها شخص واحد منهم.

❀ وأيضًا لأن هؤلاء الموجودين على عهد رسول الله ﷺ حاولوا قتل رسول الله ﷺ كما قدمناه، والله أعلم.

❀ أما لماذا عبر بـ ﴿تَقْتُلُونَ﴾ [البقرة: ٩١] ولم يُعبر بـ (قتلتم) فلما ذكر من قبل أنهم حاولوا قتل رسول الله ﷺ، وقال بعض أهل العلم: إنه يجوز سوق الماضي بمعنى المستقبل والمستقبل بمعنى الماضي، قال الحطيئة:

شهد الحطيئة يوم يلقى ربه أن الوليد أحق العذر



(بنو إسرائيل يعبدون العجل ويعلنون عن عصيانهم
صراحةً ويدعون أن الجنة لهم يوم القيامة)

قال الله عز وجل: ﴿ وَلَقَدْ جَاءَكُمْ مُوسَى بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ
أُتِخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ ﴾ (٩٢) وَإِذْ أَخَذْنَا
مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمْ الطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ
وَأَسْمِعُوا قَالُوا سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَأَشْرَبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ
بِكُفْرِهِمْ قُلْ بِئْسَمَا يَأْمُرُكُمْ بِهِ إِيمَانُكُمْ إِنْ كُنْتُمْ
مُؤْمِنِينَ ﴾ (٩٣) قُلْ إِنْ كَانَتْ لَكُمْ الدَّارُ الْآخِرَةُ عِنْدَ اللَّهِ خَالِصَةً
مِّنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوْا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ (٩٤) وَلَنْ
يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴾ (٩٥) وَلَنَجْذِثَهُمْ
أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَى حَيَوةٍ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ
أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُزَحَّزِّجٍهُ مِنْ الْعَذَابِ أَنْ يُعَمَّرَ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا
يَعْمَلُونَ ﴾ (٩٦)

ثم يبين الله سبحانه وتعالى نعمه ومنه على بني إسرائيل وما قابلت به بنو
إسرائيل هذه النعم من الجحود والكفر والنكران فيقول تعالى: ﴿ وَلَقَدْ
جَاءَكُمْ ﴾ يا بني إسرائيل ﴿ مُوسَى ﴾ وهو نبي الله وكليمه ورسوله موسى بن
عمران عليه السلام ﴿ بِالْبَيِّنَاتِ ﴾ بالدلالات الواضحات المبينات لصدقه، وأنه
رسول من عند الله عز وجل وهذه البيئات هي التي ذكرها الله في كتابه حيث قال:

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى قِسْعَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ﴾ [الإسراء: ١٠١].

❁ وهي العصا التي ألقاها فإذا هي ثعبان مبین وضرب بها البحر فانفلق فكان كل فرق كالطود العظيم وضرب بها الحجر فانفجرت منه اثنتا عشرة عیناً وضرب بها الحجر لما طار بثوبه وإن بالحجر لندباً.

❁ ويده التي يدخلها في جيبه فتخرج بيضاء للناظرين من غير سوء.

❁ والطوفان، والجراد، والقمل، والضفادع، والدم، تلك الآيات المفصلات التي أرسلها الله على قوم فرعون كي يؤمنوا بموسى ﷺ ويرجعوا عن كفرهم. ❁ وكذلك: أخذ الله ﷻ آل فرعون بالسنين ونقص من الثمرات لعلهم يذكرون وهذا تأييد لموسى ﷺ كذلك.

❁ وتظليل الغمام على بني إسرائيل، وإنزال المن والسلوى عليهم وفوق ذلك كله الألواح وما كُتب فيها من كل شيء موعظة وتفصيلاً لكل شيء، والله تعالى أعلم.

ولكن ماذا بعد هذه البيّنات؟ هل استفاد الإسرائيليون؟ كلا بل اتخذوا العجل إلهاً فعبدوه، وزعموا أنه الله قال تعالى: ﴿ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِهِ﴾ ❁ تعالى الله عما يقولون علواً كبيراً لقد قال لهم السامري هذا إلهكم وإله موسى.

هذا وما زال البيان مستمراً، بياناً لنقد بني إسرائيل العهود والمواثيق فيقول تعالى ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ﴾ ❁ أي واذكروا أيضاً يا بني إسرائيل وقت أن أخذنا الميثاق وهو العهد على أجدادكم وأسلافكم وبيان لهم عند أخذنا الميثاق، قدرتنا عليهم بأن رفعنا فوقهم جبل الطور وهددناهم بإسقاطه عليهم إن لم يعطوا العهد والميثاق كما قال تعالى: ﴿وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمْ الطُّورَ﴾ ❁ وكما قال تعالى: ﴿وَإِذْ نَتَقْنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ وَظَنُّوا أَنَّهُ وَاقِعٌ بِهِمْ خُذُوا مَا آتَيْنَكُمْ بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ ❁.

هذا وقد قلنا لهم عند أخذ الميثاق عليهم والجبل مرفوع عن الأرض وهم تحته ﴿خُذُوا مَا آتَيْنَكُمْ بِقُوَّةٍ وَأَسْمِعُوا﴾ ❁ أي أقبلوا على التوراة التي أنزلناها على نبيكم وكلفناكم بالعمل بما فيها، أقبلوا عليها بجد واجتهاد وحرص واسمعوا

لما فيها وأطيعوا وامثلوا وأجيبوا فأقروا والجبل مرفوع فوقهم بالسمع ﴿قَالُوا سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا﴾ ثم بعد ذلك أعلنوا التمرد والعصيان كما أفاده قولهم ﴿سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا﴾ أي سمعنا قولك وعصينا أمرك، وكذا كما أفاده قوله تعالى: في آيات تقدمت ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ (١٣) ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ مِمَّا بَعْدَ ذَلِكَ ﴿.

فهذا يفيد أنهم أقروا بالسمع لما رفع فوقهم الطور ثم أعلنوا التمرد والعصيان بعد ذلك.

قوله تعالى: ﴿وَأُشْرِبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ﴾ فيان لسبب عصيانهم وسبب تمردهم، وسبب قولهم سمعنا وعصينا، فذلك والله أعلم لكون محبة العجل قد تغلغت في قلوبهم وتمكنت فيها فرفضوا أوامر الله عز وجل وأعلنوا العصيان أما عن سبب تغلغل هذه المحبة في قلوبهم فهو جرائمهم المتواصلة من قتل الأنبياء وتكذيبهم وسائر صور الكفر التي كانوا يرتكبونها، فهذه الجرائم جعلتهم وبسهولة ويسر يقبلون أن يكون العجل إلهاً فعظموه وعبدوه وتغلغت محبته في قلوبهم وهو ما عبر عنه بقوله تعالى ﴿وَأُشْرِبُوا﴾ لأن شرب الماء يتغلغل حتى يصل إلى باطنها.

أما قوله تعالى: ﴿وَأُشْرِبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ﴾ أي وأشربوا في قلوبهم حب العجل فحذف المضاف، وهو (حب) وأقيم المضاف إليه وهو (العجل) مقامه وهذا وارد في كتاب الله في جملة مواطن كما في قوله تعالى: ﴿أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ﴾ أي أجعلتم صاحب سقاية الحاج وكقوله تعالى: ﴿بَلْ مَكْرٌ أَلِيلٌ وَالنَّهَارِ﴾ أي بل مكركم في الليل والنهار وكقوله تعالى ﴿فَلْيَدْعُ نَادِيَهُ﴾ أي فليدع أهل نادية.

أما قوله تعالى: ﴿قُلْ بِسْمَايَا مُرُكِّمٍ بِهِ إِيمَنُكُمْ﴾ إن كنتم مؤمنين ﴿أي إن كنتم تزعمون أنكم مصدقين فبئس الشيء الذي يأمركم به إيمانكم إن كنتم مصدقين إذا كان هذا التصديق يأمركم بعبادة العجل واتخاذة إلهاً، ويأمركم بالعصيان وقول: سمعنا وعصينا، وقتل النبيين بغير حق وتكذيب الأنبياء، ونقض العهود والمواثيق فبئس هذه الأفعال والأوامر التي تصدر عن هذا الإيمان

المزعمون، والله تعالى أعلم.

ثم يبين الله سبحانه وتعالى وجهًا لمحااجة اليهود وبيانًا لما هم عليهم من التناقض فيقول تعالى: ﴿قُلْ إِنْ كَانَتْ لَكُمْ الدَّارُ الْآخِرَةُ عِنْدَ اللَّهِ خَالِصَةً مِّنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوْا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾.

فقد كان اليهود يزعمون أنهم أهل الجنة دون غيرهم من الناس وأن عموم الناس غيرهم إنما هم من أهل النار فكان وجه المحااجة قل (يا محمد) وقل (يا أيها المسلم) لهؤلاء اليهود ﴿إِنْ كَانَتْ لَكُمْ الدَّارُ الْآخِرَةُ﴾ إن كانت لكم العاقبة الحسنة في الآخرة وهي الجنة ﴿خَالِصَةً مِّنْ دُونِ النَّاسِ﴾ أي خاصة بكم ليس لغيركم فيها شيء ﴿فَتَمَنَّوْا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ في دعوكم إن الجنة لكم. وفي هذه الآية حجة عظيمة للمسلمين على اليهود تدفع باطلهم وتزهقه ووجه هذه المحااجة أن من اعتقد أنه من أهل الجنة كان الموت أحب إليه من البقاء في هذه الحياة الدنيا لما يصير إليه من نعيم في الآخرة ولما يتركه من كدر الحياة الدنيا وأذاها فلو كنتم صادقين يا معشر اليهود بأن الدار الآخرة خالصة لكم والجنة خاصة بكم دون سواكم فتمنوا الموت، فأحجموا عن ذلك التمني فرقا من عذاب الله وخوفا من سوء العاقبة لقبح أعمالهم وسوء صنيعهم، فظهر بامتناعهم بطلان قيلهم من أن الدار الآخرة خالصة لهم من دون الناس، والله أعلم.

أما تمني الموت هنا فقد ذكر له أهل العلم صورتين:

أحدهما: ﴿فَتَمَنَّوْا الْمَوْتَ﴾ [البقرة: ٩٤] أي اطلبوه من ربكم ﷻ واسألوه إياه.

الثاني: ادعوا بالموت على أي الفريقين أكذب (أي: على الكاذب من الفريقين

منا نحن المسلمين، ومنكم معشر اليهود) وذلك على نحو من المباهلة.

أما قوله تعالى: ﴿وَلَنْ يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ﴾ فيبان لسبب امتناعهم عن تمني الموت إنهم امتنعوا عن تمني الموت لما قدمته أيديهم واقترفوه من ذنوب وكبائر وجرائم عظام من تكذيب رسل الله وجحد آياته وكتمان الحق والبغي والحسد فكيف يواجهون ربهم ﷻ في الآخرة، وقد حملوا هذه الأوزار وخاصة وأنهم يؤمنون بالبعث والجنة والنار والحساب، والله أعلم.

هذا ولأن أكثر الجنایات التي يرتكبها الإنسان تكون بيده فأضيفت سائر أعمال الجوارح إلى اليد تغليباً.

أما قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ﴾ أي فمهما أبدى هؤلاء اليهود ومهما بالغوا في الإخفاء فإن الله عليم بهم وبأفعالهم وأقوالهم ونواياهم وسيحاسبهم على ذلك.

(مبحث في النهي عن تمني الموت)

هذا وقد نهينا في شريعتنا عن تمني الموت في عدة نصوص وردت عن رسول الله ﷺ ولكن هذا النهي عن تمني الموت ليس للعلة التي من أجلها امتنع اليهود عن تمني الموت إنما نهينا عن تمني الموت للترود من فعل الخيرات وللاستغفار من الخطايا والسيئات، كما في الحديث « إِمَّا مُحْسِنًا فَلَعَلَّهُ أَنْ يَزْدَادَ خَيْرًا ، وَإِمَّا مُسِيئًا فَلَعَلَّهُ أَنْ يَسْتَعْتَبَ »^(١).

وفي الحديث الآخر: « خَيْرُكُمْ مَنْ طَالَ عُمُرُهُ وَحَسَنَ عَمَلُهُ »^(٢).

بيد أن من خشي على نفسه الفتنة في دينه يُشرع له أن يتمنى الموت كما قال النبي ﷺ: « وَإِذَا أَرَدْتَ فِتْنَةً فِي قَوْمٍ فَتَوَفَّنِي غَيْرَ مَفْتُونٍ »^(٣).

وكما قال ﷺ: « اللَّهُمَّ بَعْلِمِكَ الْغَيْبِ وَقُدْرَتِكَ عَلَى الْخَلْقِ أَحْيِنِي مَا كَانَتْ الْحَيَاةُ خَيْرًا لِي ، وَتَوَفَّنِي إِذَا عَلِمْتَ الْوَفَاةَ خَيْرًا لِي »^(٤).

ثم يبين الله سبحانه وتعالى أمر اليهود ومدى تعلقهم بالدنيا الفانية الزائلة فيقول تعالى: ﴿ وَلَنَجْذِثَّهُمْ أَخْرَصَ النَّاسِ عَلَى حَيَوَةٍ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا ﴾ أي ولتجدن يا محمد، أو ولتجدن أيها المسلم، أيها الناظر، لتجدن اليهود واللام هنا من

(١) أخرجه البخاري (٥٦٧٣)، وفيه «ولا يتمنين أحدكم الموت إما مُحْسِنًا.....».

(٢) صحيح أخرجه أحمد في المسند (١٨٨/٤-١٩٠).

(٣) أخرجه الترمذي (حديث ٣٢٣٥).

(٤) صحيح أخرجه النسائي (٥٤/٣)، وأحمد (٢٦٤/٤).

العلماء من قال إنها لام القسم، والمعنى، والله لتجدنهم والنون للتوكيد.

الحاصل: ولتجدن اليهود أشد الناس حرصًا على الحياة الطويلة حتى إنهم من شدة حرصهم على طول الحياة أصبحوا أحرص عليها من المشركين الذي لا يقرون بالبعث أما المراد بالذين أشركوا فللعلماء فيه ثلاثة أقوال:

❁ منها أنهم الأعاجم، لأنهم الحريصون على طول الحياة كما قدمنا أن تحيتهم عش ألف سنة أو عشرة آلاف سنة.

❁ **وقيل:** إنهم مشركو العرب الذين لا يُقرون بالبعث، بل يقولون: ﴿مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ﴾ [البقرة: ٢٤].

ويقول شاعرهم:

تمتع من الدنيا فإنك فانٍ من النشوات والنساء الحسان

❁ **وقيل:** إن المراد بالذين أشركوا عموم المشركين الذين لا يُقرون بالبعث، والله تعالى أعلم.

أما فائدة بيان حرصهم على الحياة حرصًا أشد من حرص المشركين عليها فمزيد من التوبيخ والإنكار على اليهود فقد بلغ بهم الأمر في حب الحياة الطويلة حدًا أشد من حرص المشركين عليها.

أما قوله تعالى: ﴿يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ﴾.

فكثير من أهل العلم يرى أنه يرجع إلى المشركين وصح عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله: ﴿يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ [البقرة: ٩٦] قال: هو قول الأعاجم: (سال زه نورو ز مهر جان حر).

❁ **وفي رواية عنه هو كقول الفارسي:** زه هزار سال، يقول: عشرة آلاف سنة

فمن شدة حب الأعاجم للدنيا أنهم جعلوا تحيتهم فيما بينهم (عشرة آلاف سنة) أي: عش عشرة آلاف سنة، وعش ألف سنة.

أما لماذا خُصَّ الألف بالذكر فذلك لأن العرب كانت تُعبّر به عند إرادة المبالغة.

أما قوله تعالى: ﴿وَمَا هُوَ بِمُرْزَحٍ مِنْ الْعَذَابِ أَنْ يُعَمَّرَ﴾ فقد قيل: يرجع إلى طول البقاء والتعمير أي: وما تعميره وطول حياته بمزحزه من العذاب وقيل: يرجع إلى الشخص المذكور في قوله تعالى: ﴿يُودُّ أَحَدُهُمْ﴾ [البقرة: ٩٦] أي: وما الشخص منهم بمزحزه أن يُعَمَّرَ ألف سنة، والمعنى قريب، والله أعلم.

وعلى ما ذكر فالمعنى الإجمالي لقوله تعالى: ﴿وَلَنَجْذِثُنَّهُمْ أَنْ حَرَصَ النَّاسُ عَلَى حَيَوتِهِمْ﴾ الآية والله أعلم - والله لتجدن أشد الناس حرصًا على طول الحياة وطول العمر والبقاء اليهود فهم أشد الناس حرصًا عليها حتى إنهم أشد حرصًا عليها من الذين أشركوا المنكرين للبعث الذين يطمع أحدهم أن يعيش ألف سنة، وما هذا التعمير وطول البقاء بمزحزح صاحبه عن العذاب ومنحيه عنه. انتهى.

وزيادة في التوضيح فالمشركون لا يقرون ببعث ولا بجنة ولا بنار ولا بحساب ومن ثم كان مطعمهم في الحياة الدنيا ورغبتهم في طول البقاء فيها شديدة فغلبهم اليهود في الحرص على الحياة الدنيا رغم أن اليهود يقرون بالبعث وبالجنة وبالنار، وما حملهم على هذا الحرص في طول الحياة إلا سوء أعمالهم التي يخشون من جرائها النار، وعظيم كبائرهم التي يتوقعون لها سوء القرار وتكذيب الأنبياء الذي لا يجدون من جزائه فرارًا، والله تعالى أعلم.

وقوله: ﴿وَاللَّهُ بِصِرْطِ الْعَمَلُونَ﴾ حاصله البيان عن أن الله عز وجل ليس بغافل عن عملهم وإفسادهم بل مطلع عليه وشاهد ورقيب وسيحاسبهم على ذلك وفي الآية الكريمة مواساة لرسوله ﷺ وتهديد للمشركين.



(عداوة اليهود لجبريل عليه السلام
وتواصل نقضهم للعهد والمواثيق)

﴿ قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ (١٧) مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِلَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَلَ فَإِنَّ اللَّهَ عَدُوٌّ لِلْكَافِرِينَ ﴾ (١٨) وَلَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ وَمَا يَكْفُرُ بِهَا إِلَّا الْفَاسِقُونَ ﴾ (١٩) أَوْ كَلِمَا عَهْدُوا عَهْدًا نَبَذَهُ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ (٢٠) .

هذا وبعد أن بين الله عز وجل كفر اليهود وعداوتهم للنبي ﷺ ثم خيانتهم أيضا لنبينهم موسى ﷺ ومخالفتهم أمره وبين كذلك تناقضهم ودعاويهم الباطلة بين كذلك عداوتهم لجبريل عليه السلام وفي هذا كله مواساة لرسول الله ﷺ وتصيير له وتثبيت فكأن المعنى إذا كنت يا محمد عانيت من هؤلاء اليهود، وابتليت بهم وبغدرهم وخيانتهم وكفرهم وتكذيبهم فليس هذا صنيعهم معك وحدك بل هذا صنيعهم مع نبيهم موسى عليه السلام كذلك، وكذلك بل هو صنيع لهم مضطرد مع الرسل بل مع الملائكة وما هم يعادون جبريل عليه السلام لا شيء إلا لكونه نزل بالقرآن الذي لا يوافق أهواؤهم.

قال تعالى: ﴿ قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ ﴾ الآية.
أما عن سبب نزولها ^(١) أن اليهود سألوا رسول الله ﷺ من وليك من الملائكة

(١) قال الطبري رحمه الله (١/٣٧٧): أجمع أهل العلم بالتأويل. جميعا على أن هذه الآية نزلت جوابا لليهود من بني إسرائيل، إذ زعموا أن جبريل عدو لهم وأن ميكائيل ولي لهم.

فعندها نتابعك أو نفارقك قال: «فإن وليي جبريل، ولم يبعث الله نبياً قط إلا وهو وليه»، قالوا: فعندها نفارقك، لو كان وليك سواه من الملائكة تابعناك وصدقناك. قال: «فما يمنعكم أن تصدقوه؟» قالوا: إنه عدونا فأنزل الله ﷻ: ﴿مَنْ كَانَتْ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ [البقرة: ٩٧] إلى قوله: ﴿كَانَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

[البقرة: ١٠١]

هذا ومما يدل على عداوة اليهود لجبريل عليه السلام أن عبد الله بن سلام سأل النبي ﷺ عن ثلاثة أمور فأجابه رسول الله ﷺ بقوله «أخبرني بهن جبريل أنفا» قال جبريل؟ قال «نعم» قال ذاك عدو اليهود من الملائكة فقرأ هذه الآية ﴿قُلْ مَنْ كَانَتْ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ﴾.

هذا ومن الدليل أيضاً على عداوة اليهود لجبريل عليه السلام ما أخرجه البخاري^(١) من حديث أنس رضي الله عنه قال: سمع عبد الله بن سلام بقدم رسول الله ﷺ وهو في أرض يخرتف فأتى النبي ﷺ فقال: إني سائلك عن ثلاث لا يعلمهن إلا نبي، فما أول أشراط الساعة؟ وما أول طعام أهل الجنة؟ وما ينزع الولد إلى أبيه أو إلى أمه؟ قال: «أخبرني بهن جبريل أنفا». قال: جبريل؟ قال: «نعم» قال: ذاك عدو اليهود من الملائكة فقرأ هذه الآية: ﴿مَنْ كَانَتْ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ «أما أول أشراط الساعة فنار تحشر الناس من المشرق إلى المغرب، وأما أول طعام أهل الجنة فزيادة كبد الحوت وإذا سبق ماء الرجل ماء المرأة نزع الولد، وإذا سبق ماء المرأة ماء الرجل نزع»، قال: أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أنك رسول الله، يا رسول الله إن اليهود قوم بُهت وإنهم إن علموا بإسلامي قبل أن تسألهم يبهتوني، فجاءت اليهود فقال النبي ﷺ: «أي رجل عبد الله فيكم؟» قالوا: خيرنا وابن خيرنا وسيدنا وابن سيدنا.

أما عن جبريل عليه السلام فيقرأ جبريل وجبرائيل.

(١) البخاري (٤٤٨٠).

*أما معنى (جبر) فمعناها - على ما ذكره بعض أهل العلم عبد، وأما (إيل) فهو (الله) فمعنى جبريل: عبد الله وميك معناها عبيد، وإيل هو الله فميكائيل هو عبيد الله.

وقوله تعالى: ﴿فَإِنَّهُ نَزَلَهُ عَلَى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ أي فإن جبريل نزل بالقرآن فيكون من الآية ﴿قُلْ﴾ يا محمد لهؤلاء الذين عادوا جبريل من اليهود ﴿مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ﴾ فهو ظالمٌ في عداوته لجبريل عليه السلام فجبريل عليه السلام ما صنع شيئاً كي يُعادي، بل قد نزل بشيء يُحمد عليه ويُشكر ويُحب لأنه نزل بالقرآن الذي هو شفاء لما في الصدور وهدى ورحمة.

ووجه آخر من كان عدو لجبريل فليعادي ربه إذاً لأن جبريل ما نزل بشيء من تلقاء نفسه، وإنما نزل بإذن الله ونزل هذا القرآن عليك يا محمد بإذن الله.

ووجه ثالث: أن من عادى جبريل فهو مبطل، وحق للمبطل أن يعادي جبريل لأن جبريل عليه السلام نزل بالكتاب برهاناً على نبوتك يا محمد ومصدّقاً لصدقك، وهم يكرهون ذلك فكيف لا يبغضون جبريل وقد نزل بما يفضحهم ويكشف أكاذيبهم.

ووجه رابع: أن الجواب محذوف وهو (فليمت) أي: من عادى جبريل فليمت بغیظه، والله أعلم.

أما قوله تعالى: ﴿فَإِنَّهُ نَزَلَهُ عَلَى قَلْبِكَ﴾ فيفيد أن القرآن نزل على قلب رسول الله ﷺ وقد قال تعالى أيضاً: ﴿نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ﴾ (١١٣) عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ. ولكن يُبين في مواطن أخر أن معنى ذلك أن الملك كان يقرؤه عليه حتى يسمعه منه فتصل معانيه إلى قلبه بعد سماعه، وذلك هو معنى تنزيله على قلبه كما قال سبحانه: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ﴾ (١٦) إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ ﴿١٧﴾ فَإِذَا قَرَأَهُ فَأَنعِقْ فَرَّانَهُ. ﴿١٨﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ﴾ [القيامة: ١٦-١٩]، وكما قال تعالى: ﴿وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُقْضَىٰ إِلَيْكَ وَحْيُهُ﴾ [طه: ١١٤]، والله تعالى أعلم.

وقوله تعالى: ﴿مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ فيه وجهان:

أحدهما: أنه (أي القرآن) موافق لما في الكتب السابقة من التوحيد وسلامة المعتقد والأمر بمتابعة النبي ﷺ وامتنال أمر الله عز وجل .

الثاني: أنه لما جاء به النبي ﷺ كان مجيئه تصديقاً للتوراة التي أخبرت به وكذا تصديقاً للإنجيل .

أما قوله تعالى: ﴿وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ فمعناه أن جبريل عليه السلام نزل بالقرآن هداية لأهل الإيمان وتبشير لهم بعظيم أجر ربهم وواسع مغفرته ورحمته بهم .

ثم يبين الله سبحانه وتعالى جزاء من عاداه وعادى ملائكته ورسله وعلى وجه الخصوص من عادى جبريل وميكال فيقول تعالى: ﴿مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِلَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ فَإِنَّ اللَّهَ عَدُوٌّ لِلْكَافِرِينَ﴾ .

أي من عاداهم فهو كافر، والله عدوه هذا، وقد خُصَّ جبريل وميكال بالذكر لأن اليهود ذكروهما، وفرقوا بينهما في المحبة فقالوا: جبريل عدو اليهود من الملائكة، وميكال هو وليهم والله أعلم .

هذا، وكما هو معلوم فمن عادى ملكاً من الملائكة فقد عادى الملائكة جميعهم، وهو كافر بكل الملائكة بتلك العداوة، كما أن من عادى رسولاً منهم فقد عادى الرسل كلهم وهو كافر أيضاً كما قال تعالى: ﴿كَذَّبَتْ عَادُ الْمُرْسَلِينَ﴾ وهم إنما كذبوا هوداً عليه السلام في زمانهم وكذا قال تعالى: ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ الْمُرْسَلِينَ﴾ وهم إنما كذبوا صالحاً عليه السلام هذا وأيضاً فكما هو معلوم أن جبريل عليه السلام أفضل الملائكة وسيأتي مزيد لذلك في بابه إن شاء الله ونجتزئ هنا ببعض ما أورده العلماء في فضل جبريل على ميكائيل عليهما السلام فكان مما ذكروه في ذلك ما يلي:

أولاً: أن الله تعالى قدم جبريل ﷺ في الذكر، وتقديم المفضل على الفاضل في الذكر مستقبح عرفاً فوجب أن يكون مستقبحاً شرعاً .

❁ **وثانيها:** أن جبريل عليه السلام ينزل بالقرآن والوحي والعلم وهو مادة بقاء الأرواح وميكائيل ينزل بالخصب والأمطار وهي مادة بقاء الأبدان، ولما كان العلم أشرف من الأغذية وجب أن يكون جبريل أفضل من ميكائيل.

❁ **وثالثها:** قوله تعالى في صفة جبريل: ﴿مُطَاعٌ ثُمَّ آمِينَ﴾ [التكوير: ٢١] ذكره بوصف المطاع على الإطلاق، وظاهره يقتضي كونه مطاعاً بالنسبة إلى ميكائيل فوجب أن يكون أفضل منه والله تعالى أعلم.

ثم يبين الله سبحانه وتعالى أنه أنزل ﴿ءَايَاتٍ﴾ معجزات ﴿بَيِّنَاتٍ﴾ بقوله: ﴿وَلَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ ءَايَاتٍ بَيِّنَاتٍ﴾ ووضحت الدلالات على صدق نبوة نبيه محمد صلى الله عليه وسلم قاطعات الدلالة على صدق الرسول صلى الله عليه وسلم ﴿وَمَا يَكْفُرُ بِهِآ إِلَّا الْفَاسِقُونَ﴾ هذه الآيات ما يكابر فيها أحد ولا يُماري فيها أحد ولا يتشكك فيها أحد إلا أهل الفسق والكفر والجحود والنكران، فالفاسقون هنا هم الكفار المعاندون واليهود المكابرون الجاحدون المنكرون.

وهذا العناد وتلك المكابرة وذاك الكفر كل ذلك شأن مطرد لليهود فأكثرهم على نقض العهود والمواثيق قال تعالى: ﴿أَوْكُلَّمَا عَاهَدُوا عَهْدًا نَبَذَهُ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ﴾ أي طرحه وراء ظهره ونقضه ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ كما قال تعالى: ﴿وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَى خَائِنَةٍ مِّنْهُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ﴾ فأفادت الآية أن أكثرهم خونة وأفادت هذه الآية ﴿مِّنْهُمْ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ أن أكثرهم فسقة فمع هذا ينبغي الحذر وأخذ الحيطة من هؤلاء اليهود فإن دأبهم الغدر وشأنهم الخيانة وشيئتهم نقض العهود والمواثيق.



(تجاهل بني إسرائيل للتوراة وإعراضهم عنها
بعد مبعث النبي ﷺ لكون ما فيها موافق لما جاء به النبي ﷺ
والبيان عن أن من ترك الحق ابتلي بالباطل وما جاء في
تعلم اليهود السحر وتكفيرهم لنبي الله سليمان عليه السلام ،
وما كفر سليمان عليه السلام وكذا ما ورد في ذكر هاروت وماروت)

قال الله عز وجل: ﴿ وَلَمَّا جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا
مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ كِتَابَ اللَّهِ وَرَاءَ
ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٠١﴾ وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُوا الشَّيَاطِينُ عَلَى
مُلْكٍ سُلَيْمَنَ ۖ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَنُ وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا
يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ وَمَا أُنزِلَ عَلَى الْمَلَائِكَةِ بِبَابِلَ هَارُوتَ
وَمَارُوتَ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّى يَقُولَا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ
فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ ۚ وَمَا هُمْ
بِضَارِينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا
يَنْفَعُهُمْ وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلْقٍ
وَلَيْسَ مَا شَكَرُوا بِهِ أَنْفُسَهُمْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿١٠٢﴾
وَلَوْ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا وَاتَّقَوْا لَمَثُوبَةٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ خَيْرٌ لَّوْ كَانُوا
يَعْلَمُونَ ﴿١٠٣﴾ ۝

يظهر الله سبحانه وتعالى أحوال اليهود الذين نقضوا العهود والمواثيق وخالفوا التوراة التي بأيديهم فيقول تعالى: ﴿وَلَمَّا جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ﴾ أي ولما بُعث هذا النبي الكريم محمد ﷺ موافقاً للتوراة وأوصافه موافقة للأوصاف التي أخبرت بها التوراة وأقواله كذلك موافقة لما في التوراة كان من اللائق بهم أن يؤمنوا به ويصدقوه ويتبعوه، ولكنهم ما آمنوا، وما صدقوا وما اتبعوا ولم يقتصر الأمر على ذلك بل رمى فريقٌ منهم بالتوراة وراء ظهره ولم يعبأ ولم يكثرث كأنه لا يعلم أن هناك توراة ولم يهتم بما فيها فهذا قوله تعالى ﴿بَذَ فَرِيقٌ مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ كَتَبَ اللَّهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (١٠١) وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُوا الشَّيَاطِينُ عَلَى مُلْكٍ سُلَيْمَنَ ﴿ أي واتجه بعد أن تركها إلى الخرافات والشعوذات، وهكذا مصير من ترك الحق فإنه يبتلى باتباع الباطل، فاتجه هؤلاء الذين نبذوا التوراة وراء ظهورهم إلى الأباطيل الافتراءات والشعوذات وأنواع الكذب الذي افترته الشياطين واختلقته فيما يتعلق بملك سليمان عليه السلام، ولأهل العلم هنا قولان:

أحدهما: أن الشياطين افترت أشياء أثناء ملك سليمان عليه السلام.

والثاني: أن الشياطين افترت أشياء بعد وفاة سليمان عليه السلام.

وقالوا هذه شعوذات كان سليمان عليه السلام يحكم بها ويُسخر بها الجن والإنس والطير وغير ذلك.

وقد أخرج الطبري^(١): من طريق أبي السائب السوائي قال: حدثنا أبو معاوية عن الأعمش عن المنهال عن سعيد بن جبير عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: كان الذي أصاب سليمان بن داود في سبب أناس من أهل امرأة يقال لها جَرَادَة، وكانت من أكرم نسائه عليه، قال: فكان هوى سليمان أن يكون الحق لأهل الجراداة فيقضي لهم فعوقب حين لم يكن هواه فيهم واحداً، قال: وكان سليمان بن داود إذا أراد أن يدخل الخلاء أو يأتي شيئاً من نسائه أعطى الجراداة خاتمه فلما أراد الله أن يبتلي

(١) الطبري (١٦٦٠) وأبو السائب هو مسلم بن جنادة.

سليمان بالذي ابتلاه به أعطى الجرادة ذات يوم خاتمه فجاء الشيطان في صورة سليمان فقال لها: هاتي خاتمي فأخذه فلبسه، فلما لبسه دانت له الشياطين والجن والإنس، قال: فجاءها سليمان فقال: هاتي خاتمي! فقالت: كذبت لست بسليمان! قال: فعرف سليمان أنه بلاء ابتلي به قال: فانطلقت الشياطين فكتبت في تلك الأيام كتباً فيها سحر وكفر ثم دفنوها تحت كرسي سليمان ثم أخرجوها فقرءوها على الناس وقالوا: إنما كان سليمان يغلب الناس بهذه الكتب! قال: فبرئ الناس من سليمان وأكفروه حتى بعث الله محمداً ﷺ فأنزل جل ثناؤه: ﴿وَاتَّبِعُوا مَا تَنَزَّلُ الشَّيَاطِينُ عَلَىٰ مَلِكٍ سُلَيْمَانَ﴾ [البقرة: ١٠٢] يعني الذي كتب الشياطين من السحر والكفر ﴿وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَٰكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا﴾ [البقرة: ١٠٢] فأنزل الله ﷻ عذره، وهذا إسناد حسن إلى ابن عباس رضي الله عنهما.

❁ ومن طريق ^(١) أبي أسامة عن الأعمش عن المنهال عن سعيد بن جبير عن ابن عباس أيضاً قال: كان ^(٢) آصف كاتب سليمان وكان يعلم الاسم الأعظم وكان يكتب كل شيء بأمر سليمان ويدفنه تحت كرسيه فلما مات سليمان أخرجته الشياطين فكتبوا من كل سطرين سحراً وكفراً وقالوا: هذا الذي كان سليمان يعمل بها، قال: فأكفره جهال الناس وسبُّوه، ووقف علماءهم فلم يزل جهالهم يسبوه حتى أنزل الله على محمد: ﴿وَاتَّبِعُوا مَا تَنَزَّلُ الشَّيَاطِينُ عَلَىٰ مَلِكٍ سُلَيْمَانَ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَٰكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا...﴾ [البقرة: ١٠٢].

❁ أثر قتادة رحمه الله:

أخرج الطبري بإسناد حسن ^(٣) عن قتادة قوله: ﴿وَاتَّبِعُوا مَا تَنَزَّلُ الشَّيَاطِينُ عَلَىٰ مَلِكٍ سُلَيْمَانَ﴾ من الكهانة والسحر، وذكر لنا - والله أعلم - أن الشياطين ابتدعت كتاباً فيه سحر وأمرٌ عظيم ثم أفشوه في الناس وعلموهم إياه.

(١) أخرجه ابن أبي حاتم في «التفسير» (٩٨٨).

(٢) في الأصل (قال) والصواب ما أثبتناه.

(٣) الطبري (١٦٥٢).

✽ أثر أبي مجلز رَحِمَهُ اللهُ:

أخرج الطبري بإسناد صحيح^(١) إلى أبي مجلز رَحِمَهُ اللهُ قال: أخذ سليمان من كل دابة عهداً فإذا أصيب رجل فسأل بذلك العهد خُلِّي عنه فرأى الناس السَّجْعَ والسحر، وقالوا: هذا كان يعمل به سليمان، فقال الله جل ثناؤه: ﴿وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَنُ وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ﴾ [البقرة: ١٠٢].

وهذه الآثار كما رأيت ثابتة إلى قائلها لكن الله أعلم من أين أخذها قائلوها والظاهر أنهم تلقوها من الروايات الإسرائيلية المنقولة عن أهل الكتاب، والله أعلم. هذا، وليعلم أن الذين نبذوا كتاب الله وراء ظهورهم هم الذين اتبعوا ما تلتته الشياطين على ملك سليمان سواء كانوا من اليهود المعاصرين لرسول الله ﷺ أم من أسلافهم الذين تقدموهم.

✽ فاليهود المعاصرون لرسول الله ﷺ حاججوه بالتوراة وخاصموه بها فلما رأوا أن التوراة موافقة للقرآن وفيها صفة رسول الله ﷺ وصفة مبعثه وصفة ما جاء به نبذوا التوراة وراء ظهورهم وذهبوا يتحاكون افتراءات افترتها الشياطين على ملك سليمان وأكاذيب اختلقتها الشياطين عليه.

✽ وأسلافهم من اليهود كذلك فشا فيهم السحر اتباعاً منهم لما تلتته الشياطين على ملك سليمان وتركاً للتوراة وللعمل بها.

هذا، ولأن الله سبحانه وتعالى يدافع عن أنبيائه وأوليائه، وما كان النبي من أنبياء الله عليهم صلوات الله وسلامه أن يكون ساحراً، قال تعالى: ﴿وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَنُ﴾ فبرأ الله ساحة هذا النبي الكريم مما نسبته إليه المفترون الكذابون وبين الله سبحانه وتعالى من الكافر ومن المفتري ومن الكذاب فقال تعالى: ﴿وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ﴾.

أما عن السحر فالسحر عند كثير من أهل العلم عبارة عن التمويه والتخييل والخداع لإظهار الشيء على خلاف ما هو عليه بأمور يفعلها الساحر وحركات يصطنعها.

(١) أخرجه الطبري (١٦٦١) بإسناد صحيح عنه.

(مبحث في السحر)

أما منزلة السحر من بين الذنوب:

فالسحر من كبائر الذنوب، وذلك لأن النبي ﷺ ثناه بالشرك ففي «الصحيحين» من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «اجتنبوا السبع الموبقات»، قالوا: يا رسول الله وما هن؟ قال: «الشرك بالله والسحر، وقتل النفس التي حرم الله إلا بالحق، وأكل الربا وأكل مال اليتيم والتولي يوم الزحف، وقذف المحصنات المؤمنات الغافلات»^(١).

❖ ومن أهل العلم من ذهب إلى أن السحر كفر لقول الله ﷻ: ﴿وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَنُ وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ وَمَا أُنْزِلَ عَلَى الْمَلَائِكَةِ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَرْوْتَ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّى يَقُولَا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ﴾.

[البقرة: ١٠٢]

❖ وكذلك حكم الساحر: فمن العلماء من ذهب إلى أنه مرتكب لكبيرة ومنهم من ذهب إلى أنه كافر، ومن العلماء من فصل في ذلك.

❖ قال النووي رحمته الله: إن كان في السحر قول أو فعل يقتضي الكفر كفر الساحر وتقبل توبته إذا تاب عندنا، وإن لم يكن في سحره ما يقتضي الكفر عزر واستتيب.

❖ وقال القرطبي رحمته الله: وقال بعض العلماء: إن قال أهل الصناعة: إن السحر لا يتم إلا مع الكفر والاستكبار أو تعظيم الشيطان فالسحر إذاً دالٌّ على الكفر على هذا التقدير، والله أعلم.



(١) أخرجه البخاري (٢٧٦٦)، ومسلم (حديث ٨٩).

(حديث سحر النبي ﷺ وردود العلماء على الطاعنين فيه)

هذا، وقد أخرج البخاري ومسلم في صحيحيهما ^(١) من حديث عائشة رضي الله عنها قالت: سحر النبي ﷺ حتى إنه ليُخِيلُ إليه أنه يفعل الشيء ^(٢) وما فعله حتى إذا كان ذات يوم وهو عندي دعا الله ودعاه ثم قال: «أشعرت يا عائشة أن الله قد أفتاني فيما استفتيته فيه؟» قلت: وما ذلك يا رسول الله؟ قال: «جاءني رجلان فجلس أحدهما عند رأسي والآخر عند رجلي ثم قال أحدهما لصاحبه: ما وجع الرجل؟ قال: مطبوب ^(٣) قال: ومن طبه؟ قال: لبيد بن الأعصم اليهودي من بني زريق، قال: في ماذا؟ قال: في مُشط ومشاطة ^(٤) وجُف طلعة ذكر، قال: فأين هو؟ قال: في بئر ذي أروان ^(٥)» قال: فذهب النبي ﷺ في أناس من أصحابه إلى البئر فنظر إليها وعليها نخلٌ ثم رجع إلى عائشة فقال: «والله لكان ماءها نُقاعة ^(٦) الحناء، ولكأن نخلها رءوس الشياطين»، قلت: يا رسول الله أفأخرجته ^(٧)؟ قال: «لا، أما أنا فقد عافاني

(١) أخرجه البخاري (حديث ٥٧٦٥، ٥٧٦٦)، ومسلم (حديث ٢١٨٩).

(٢) في رواية للبخاري: حتى كان يرى أنه يأتي النساء ولا يأتيهن.

(٣) مطبوب أي: مسحور.

(٤) المشاطة هي: الشعر الذي يسقط من الرأس أو اللحية عند تسريحهما وتمشيطهما.

(٥) في رواية في بئر (ذروان).

(٦) نقاعة الحناء هي الماء الذي تُنقع فيه الحناء، والحناء معلومة وهي التي تستعمل في الخضاب.

(٧) في هذه الرواية (أفأخرجته) وفي رواية أخرى في البخاري أيضًا (٥٧٦٥) قالت: (فأتى النبي ﷺ البئر حتى استخرجه فقال: «هذه البئر التي أريتها، وكان ماءها نُقاعة الحناء وكان نخلها رءوس الشياطين» قال فاستخرج، قالت: فقلت: أفلا - أي تنشرت؟ فقال: «أما والله فقد شفاني وأكره أن أثير على أحدٍ من الناس شرًّا».

* وفي رواية ثالثة للبخاري (٥٧٦٣): قلت يا رسول الله: (أفلا استخرجته) قال: «قد عافاني الله، فكرهت أن أثير على الناس فيه شرًّا» فأمر بها فدُفنت.

* وفي رواية مسلم (قالت: فقلت يا رسول الله أفلا أحرقت؟ قال: «لا أمّا أنا فقد عافاني الله وكرهت أن أثير على الناس شرًّا فأمرتُ بها فدُفنت» وفي رواية أخرى لمسلم: وقالت: قلت يا رسول الله فأخرجته.

* ورجَّح الحافظ ابن حجر رحمه الله رواية سفيان بن عيينة (التي هي فأتى النبي ﷺ البئر حتى استخرجه فقال: «هذه البئر التي أريتها وكان ماءها نقاعة الحناء، وكان نخلها رءوس الشياطين» قال: فاستخرج قالت فقلت: أفلا - أي تنشرت؟ فقال: «أما والله فقد شفاني وأكره أن أثير على الناس شرًّا».

الله وشفاني وكرهت أن أثور على الناس منه شرًا» وأمر بها فدفنت.

هذا، وقد اعترض قوم على حديث السحر ولا وجه لاعتراضهم فالحديث ثابت في الصحيحين كما رأيت وقد رد عليهم الحافظ ابن حجر في فتح الباري فقال: **قوله:** (حتى كان رسول الله ﷺ يخيل إليه أنه كان يفعل الشيء وما فعله).

قال المازري: أنكر بعض المبتدعة هذا الحديث وزعموا أنه يحط منصب النبوة ويشكك فيها، قالوا: وكل ما أدى إلى ذلك فهو باطل، وزعموا أن تجويز ذلك يعدم الثقة بما شرعوه من الشرائع، إذ يحتمل على هذا أن يخيل إليه أنه يرى جبريل وليس هو ثم، وأنه يوحى إليه بشيء ولم يوح إليه بشيء.

قال المازري: وهذا كله مردود؛ لأن الدليل قد قام على صدق النبي ﷺ فيما يبلغه عن الله تعالى وعلى عصمته في التبليغ، والمعجزات شاهدات بتصديقه، فتجوز ما قام الدليل على خلافه باطل.

وأما ما يتعلق ببعض أمور الدنيا التي لم يبعث لأجلها ولا كانت الرسالة من أجلها فهو في ذلك عرضة لما يعترض البشر كالأعراض؛ فغير بعيد أن يخيل إليه في أمر من أمور الدنيا ما لا حقيقة له مع عصمته عن مثل ذلك في أمور الدين، قال: وقد قال بعض الناس: إن المراد بالحديث أنه كان ﷺ يخيل إليه أنه وطئ زوجته ولم يكن وطأهن، وهذا كثيرًا ما يقع تخيله للإنسان في المنام فلا يبعد أن يخيل إليه في اليقظة هذا، والله تعالى أعلم.

ولمزيد راجع ما كتبه الحافظ ابن حجر في فتح الباري .

وقوله تعالى: ﴿وَمَا أُنْزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ﴾:

* وأورد الحافظ ابن حجر رحمه الله وجهًا آخر عن بعض العلماء حاصله أن الاستخراج المنفي غير الاستخراج المثبت، فالمثبت هو استخراج الجف، والمنفي استخراج ما حواه، قال: وكان السر في ذلك أن لا يراه الناس فيتعلمه من أراد استعمال السحر.

* هذا وذهب بعض أهل العلم إلى أن قوله: (أفلا أحرقتة) يرجع الضمير فيه إلى لبيد بن الأعصم الذي سحر رسول الله ﷺ، والله تعالى أعلم.

قوله تعالى: ﴿وَمَا﴾ للعلماء فيها قولان:

أحدهما: أنها نافية، أي ولم ينزل السحر على الملكين.

والثاني: أنها اسم موصول بمعنى الذي، وهو مفعول والمعنى يعلمون الناس السحر ويعلمون الناس الذي أنزل على الملكين.

قال ابن العربي رحمه الله^(١): اختلف الناس في حرف (ما) فمنهم من قال إنه نفي، ومنهم من قال: إنه مفعول وهو الصحيح، ولا وجه لقول من يقول: إنه نفي لا في نظام الكلام ولا في صحة المعنى ولا يتعلق من كونه مفعولاً سياق الكلام بمحال عقلاً ولا يمتنع شرعاً وتقريره: واتبع اليهود ما تلتته الشياطين من السحر على ملك سليمان أي: نسبته إليه وأخبرت به كقوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ﴾ [الحج: ٥٢] أي: إذا تلا ألقى الشيطان في تلاوته ما لم يلقه النبي يحاكيه ويلبس على السامعين به حسبما بيناه.

وما كفر سليمان قط ولا سحر، ولكن الشياطين كفروا بسحرهم وأنهم يعلمون الناس، ومعتقد الكفر كافر، وقائله كافر، ومعلمه كافر، ويعلمون الناس ما أنزل على الملكين ببابل هاروت وماروت، وما كان الملكان يُعلمان أحداً حتى يقولوا: ﴿إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ وَمَا هُمْ بِضَاكِرِينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ﴾ [البقرة: ١٠٢].

وقال ابن العربي رحمه الله: فإن قيل كيف أنزل الله تعالى الباطل والكفر؟ قلنا: كُلُّ خَيْرٍ أَوْ شَرٍّ أَوْ طَاعَةٍ أَوْ مَعْصِيَةٍ أَوْ إِيمَانٍ أَوْ كُفْرٍ مَنْزُلٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ تَعَالَى قَالَ النَّبِيُّ ﷺ كَمَا فِي الصَّحِيحِ: «مَاذَا فَتَحَ اللَّيْلَةُ مِنَ الْخَزَائِنِ؟ مَاذَا أَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى مِنَ الْفَتَنِ؟ أَيقظوا صواحب الحُجَرِ رَبَّ كَاسِيَةٍ فِي الدُّنْيَا عَارِيَةٍ يَوْمَ الْقِيَامَةِ»^(٢).

أما عن هاروت وماروت ومن هما؟

(١) أحكام القرآن (١/٢٨).

(٢) انظر البخاري (٧٠٦٩).

فلم أقف على أي خبر صحيح عن رسول الله ﷺ في تعيينهما أو التعريف بهما، وإنما الذي ورد في ذلك أقوال للعلماء وأخبار إسرائيلية.

فمن العلماء من قال: إنهما الملكان المذكوران في قوله تعالى: ﴿وَمَا أُنْزِلَ عَلَى الْمَلَائِكَةِ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ﴾ [البقرة: ١٠٢] وهما ملكان من الملائكة ابتلاهما الله ﷻ وابتلى بهما على ما سيأتي بيانه إن شاء الله.

❦ **ومن العلماء من قال:** إن هاروت وماروت رجلان مفسدان يعلمون الناس التفريق بين المرء وزوجه وصنوفاً أخرى من السحر، وعلى هذا القول فالملكان هما جبريل وميكائيل.

أما الأخبار الإسرائيلية والتي فيها الحديث عن هاروت وماروت وأن الملائكة في السماء قالت: أي رب هذا العالم إنما خلقتهم لعبادتك وطاعتك وقد ركبوا الكفر وقتل النفس الحرام وأكل المال الحرام والسرقة والزنا وشرب الخمر، فجعلوا يدعون عليهم ولا يعذرونهم فقليل لهم اختاروا منكم ملكين أمرهما بأمري وأنهاهما عن معصيتي فاختراروا هاروت وماروت فأهبطا إلى الأرض وجُعِلَت فيهما شهوات بني آدم وأمر أن يعبد الله ولا يشركا به شيئاً... إلى آخر ما ورد في هذا الخبر ونحوه وفي آخره أنهما عصيا ربهما وشربا الخمر وقتلا النفس وزنيا... وفي آخر أمرهما أنهما اختارا عذاب الدنيا فجعلا ببابل فهما يعذبان إلى يوم القيامة وكذلك المرأة التي أغوتهما طارت فكانت كوكب الزهرة ونحو هذا.

فكلها أخبار لا نعلم منها شيئاً ثابتاً عن رسول الله ﷺ وإنما ذكرها بعض السلف والغالب أنهم تلقوها من الإسرائيليات التي يرويها بها أهل الكتاب والعلم عند الله تعالى.

فأعود قائلاً: إن الحاصل في تأويل قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ كِتَابَ اللَّهِ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (١٠١) وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُوا الشَّيَاطِينُ عَلَىٰ مُلْكٍ سُلَيْمَنَ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَنُ وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ وَمَا أُنْزِلَ عَلَىٰ

الْمَلَكَئِنِّ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَرْوُتَ ﴿البقرة: ١٠١، ١٠٢﴾ .

هو أن الله عز وجل يبين: حال اليهود وما هم عليه من العناد والشقاق لأنبياء الله وللكتب المنزلة من عند الله **سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى** وأنهم كان عندهم في التوراة صفة رسول الله ﷺ ونعته فلما جاء رسول الله ﷺ موافقاً في صفته ونعته وما عندهم في التوراة ويأمر بالتوحيد والإيمان برسول الله وملائكته... إلى غير ذلك رفض هؤلاء اليهود التوراة ونبذوها وراء ظهورهم نبذ رجل جاهل، وهم في الحقيقة يعلمون ما فيها فتركوها لما وجدوها توافق رسول الله ﷺ وتُصدقه ويوافقها ويصدق الثابت فيها واتجهوا بعد نبذها - كما اتجه كل نابذ للحق - إلى الأكاذيب والأباطيل وأنواع السحر والشعوذة التي افترتها الشياطين ونسبتها إلى سليمان عليه السلام كذباً وزوراً، وما سحر سليمان عليه السلام، ولا أمر بالسحر ولا أقره بحال من الأحوال **عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ** وما كفر سليمان عليه السلام، ولكن الشياطين كفروا، وكفروا باختلاقهم السحر وتعليمه للناس، وكفروا أيضاً بتعليمهم الناس الذي أنزل على المَلَكَيْنِ بَبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ من التفريق بين المرء وزوجه وهاروتُ وماروتُ ملكان بَبَابِلَ تتعلم الشياطين وأتباعها منهما ما يفرّقون به بين المرء وزوجه، ﴿وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّى يَقُولَا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ﴾ أي حتى يحذرنا ويقولان له قبل أن يعلماه، إنما نحن ابتلاء لك واختبار فلا تكفر بتعلمك السحر.

هذا، وعن المراد بالتفريق بين المرء وزوجه في قوله تعالى: ﴿فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ﴾ ﴿البقرة: ١٠٢﴾ وكيف يُفَرِّقُ الشيطان بين المرء وزوجه؟

فأقول وبالله التوفيق: المراد بالتفريق بين المرء وزوجه إما الطلاق، وإما المنع من الوطء، وإما بث الكراهية بين الزوجين.

أما كيفية التفريق بين المرء وزوجه:

فقال الطبري رحمه الله: فإن قال قائل: وكيف يفرّق بين المرء وزوجه؟

قيل: قد دللنا فيما مضى على أن معنى (السحر) تخييل الشيء إلى المرء بخلاف ما هو به في عينه وحقيقته بما فيه الكفاية لمن وفق لفهمه فإذا كان ذلك

صحيحًا بالذي استشهدنا عليه فتفريقه بين المرء وزوجه تخيله بسحره إلى كل واحدٍ منهما شخص الآخر على خلاف ما هو به في حقيقته من حُسنٍ وجمال حتى يقبحه عنده فينصرف بوجهه ويُعرض عنه حتى يحدث الزوج لامرأته فراقًا فيكون الساحر مفرقًا بينهما بإحداثه السبب الذي كان منه فُرقة ما بينهما ثم أورد الطبري بإسناد حسن عن قتادة قال: وتفريقهما أن يؤخذ كل واحد منهما عن صاحبه ويُغض كل واحد منهما إلى صاحبه.

هذا، والتفريق بين المرء وزوجه غير مؤكد، ولا يتم للشياطين ولا للسحرة ذلك إلا بإذن الله إذ الله قال ﴿وَمَا هُمْ بِضَآئِرِينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾.

ف فعل السحرة إنما هو من باب الأسباب (غير المشروعة) والمسببات وقد يأخذ الشخص بالأسباب ولا يوفق لنيل مراده فقد يسعى الإنسان للكسب مثلاً ويتاجر من أجل ذلك ويجد ويجتهد ولكنه يخسر فضلاً عن أن يحرم الكسب، وقد يتداوى الشخص ولكن لا ينجح فيه الدواء فكذلك الساحر قد يسحر ويُجري شعواته ولا يستطيع أن يصل بضرره إلى الشخص، والله ﷻ يقول: ﴿وَمَا هُمْ بِضَآئِرِينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ [البقرة: ١٠٢] ويقول سبحانه: ﴿وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِنْ يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾.

[الأنعام: ١٧]

ويقول سبحانه: ﴿وَلَا تَدْعُ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ فَإِنْ فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذَا مِنْ الظَّالِمِينَ﴾ (١٠٦) وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِنْ يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَادَّ لِفَضْلِهِ يُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿[يونس: ١٠٦، ١٠٧].

وقال تعالى: ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ وَيُخَوِّفُونَكَ بِالَّذِينَ مِنْ دُونِهِ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ...﴾ إلى قوله تعالى: ﴿قُلْ أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ أَرَادَنِيَ اللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّيهِ أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ هَلْ هِيَ مُمْسِكَةٌ

رَحْمَتِهِ ۖ قُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ ﴿٣٥-٣٨﴾ [الزمر: ٣٥-٣٨].

وقال النبي ﷺ: «واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن يضروك بشيء لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك»^(١).

وقوله تعالى: ﴿وَيَنَعَلُونَ مَا يُضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ﴾ أي أن الذين يتعلمون السحر إنما يتعلمون علوماً تضرهم في آخرتهم، ودنياهم، ولا تنفعهم بشيء في دينهم ولا في دنياهم، وإن ظهر لهم النفع في ذلك.

أما قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَلِمُوا﴾ أي ولقد علمت اليهود ﴿لَمَنِ اشْتَرَاهُ﴾ لمن باشر السحر وتاجر به وتعاطى أجوراً بسببه ﴿مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلْقٍ﴾ ما له في الآخرة من نصيب من الخير.

وقوله تعالى: ﴿وَلَيْسَ مَا شَكَّرُوا بِهِ أَنْفُسَهُمْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ أي ولبئس الشيء الذي باعوا به أنفسهم فقد باعوا أنفسهم بثمن بخس، وهو المتحصل لهم من وراء السحر في الدنيا ﴿لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ الأمور على حقيقتها.

وقوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا وَاتَّقَوْا﴾ أي ولو أن هؤلاء الشياطين والسحرة آمنوا بالله وصدقوا المرسلين واتقوا السحر والمحرمات وأسباب العذاب ﴿لَمْ تُوبَهُ مِّنْ عِنْدِ اللَّهِ﴾ أي لأثبوا ثواباً عظيماً من عند الله ﴿خَيْرٌ﴾ لهم من الدنيا وما فيها ﴿لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ حقيقة الأمور، ولو كانوا يتتفعون بالعلم والله أعلم.



(١) صحيح، أخرجه أحمد في «المسند» (١ / ٢٩٣)، والترمذي (حديث ٢٥١٦) وقال: هذا حديث حسن صحيح، والحاكم (٣ / ٥٤١ - ٥٤٢)، وابن أبي عاصم في السنة (حديث ٣١٦ معلقاً)، وغيرهم من حديث ابن عباس رضي الله عنهما مرفوعاً.

(بيان حق اليهود على المسلمين وسخريتهم
واستهزائهم برسول الله ﷺ والنهي عن التشبه بهم في ذلك)

قال الله عز وجل: ﴿ يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَقُولُوا رَاعِنَا
وَقُولُوا أَنْظِرْنَا وَأَسْمِعُوا وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ (١٠٤) مَا
يُودُّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَلَا الْمُشْرِكِينَ أَنْ يُنَزَّلَ
عَلَيْكُمْ مِنْ خَيْرٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَاللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ
يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴾ (١٠٥).

قد كان اليهود يسخرون من رسول الله ﷺ ويستهزئون به ويلوون ألسنتهم
بالكلام يوهمون رسول الله ﷺ أنهم يقصدون شيئاً وإنما يقصدون الذم والانتقاص
فكانوا يوهمونه أنهم يقولون ﴿ رَاعِنَا ﴾ أي انظر إلينا وفرغ لنا سمعك، وإنما
يقصدون يا أرحم يا أحق يا جاهل قاتلهم الله فلدفع هذا الاشتباه قال تعالى ﴿ يَتَأْتِيهَا
الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَقُولُوا رَاعِنَا ﴾ لا تقولوا ذلك لرسول الله ﷺ ﴿ وَقُولُوا
أَنْظِرْنَا ﴾ انظر إلينا، وذلك لعدم التشبه باليهود ﴿ وَأَسْمِعُوا ﴾ قول ربكم وامثلوا
أمره ﴿ وَلِلْكَافِرِينَ ﴾ ومنهم الذين يسبون رسول الله ﷺ ﴿ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾
مؤلم وموجع وقوله ﴿ مَا يُودُّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَلَا الْمُشْرِكِينَ ﴾ أي ما
يتمنى اليهود والنصارى والمشركون ﴿ أَنْ يُنَزَّلَ عَلَيْكُمْ مِنْ خَيْرٍ مِنْ رَبِّكُمْ ﴾
نزول الخير عليكم من الله بل يريدون لكم الشر.

﴿ وَاللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ ﴾ أي والله يختص بفضله وهداية النبوة
ورحمته من يشاء ﴿ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴾ صاحب الفضل العظيم.

قول الله تعالى: ﴿ مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا أَوْ مِثْلَهَا أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ (١٠٦) ﴿ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴾ (١٠٧) ﴿ أَمْ تُرِيدُونَ أَنْ تَسْأَلُوا رَسُولَكُمْ كَمَا سُئِلَ مُوسَى مِنْ قَبْلُ وَمَنْ يَتَّبِعِ الْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ ﴾ (١٠٨)

قوله تعالى: ﴿ مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ ﴾ وانتقل من الحكم الوارد في آية إلى حكم آخر كأن يصبح المباح محظوراً أو المحظور مباحاً، أو الحلال حراماً أو الحرام حلالاً أو ما نزيل من لفظ آية، أو ما نزيلها معا (الحكم واللفظ).

﴿ أَوْ نُنسِهَا ﴾ أو نَمَحُهَا من الصدور، أو نتركها بلا نسخ ﴿ نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا ﴾ أي بما هو أسهل منها في الحفظ أو يكون العمل بما في الآية الجديدة أعظم في الأجر أو أنها تخفف الحكم ﴿ أَوْ مِثْلَهَا ﴾ في كل ما ذكر.

﴿ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ قادر على كل شيء وقادر على أن يأتي بآية قبل آية ويؤخر حكم آية عن آية وقادر على أن يبدل آية بخير منها أو مثلها.

﴿ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ يتصرف فيها كيف شاء ويحكم فيها بما يريد ﴿ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ ﴾ غير الله وبعد الله وسوى الله ﴿ مِنْ وَلِيٍّ ﴾ يتولاكم ويقوم بأمركم ويديرها لكم ﴿ وَلَا نَصِيرٍ ﴾ ينصركم.

﴿ أَمْ تُرِيدُونَ أَنْ تَسْأَلُوا رَسُولَكُمْ كَمَا سُئِلَ مُوسَى مِنْ قَبْلُ ﴾ معناه والله أعلم بل تريدون والمراد لا تسألوا رسولكم يا أهل الإيمان كما سألت اليهود موسى عليه السلام أسئلة على سبيل التعنت وأموراً لا تجوز لكم ولا تحل كما قال البعض: «اجعل

لنا ذات أنواط كما لهم ذات أنواط»^(١).

وكذلك توبيخ لأهل الشرك الذين قالوا لن نؤمن بك حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعاً، وكفولهم اجعل لن الصفا ذهباً، وكذلك توبيخ لليهود فالمراد لا تسألوا رسول الله محمدًا ﷺ كما سألتهم موسى عليه السلام من قبل وقوله: ﴿كَمَا سَأَلَ مُوسَى مِنْ قَبْلُ﴾ أي كما سألت اليهود موسى عليه السلام من قبل فقد سأله رؤية الله عز وجل جهره وسأله غير ذلك.

﴿وَمَنْ يَتَّبِدْ الْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ﴾ أي ومن يختار الكفر بديلاً عن الإيمان ﴿فَقَدْ ضَلَّ﴾ حاد وانحرف وابتعد عن ﴿سَوَاءَ السَّبِيلِ﴾ عن الطريق المستقيم الموصل لجنة الله ورضوانه.



(١) وهي شجرة كان المشركون يتعبدون عندها ويتبركون بها.

(البيان عن رغبة كثير من اليهود والنصارى
في إضلال المسلمين وما يجب على المسلمين فعله)

قال الله عز وجل: ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنْفُسِهِمْ مِّنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّ لَهُمُ الْحَقُّ فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرٍ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٠٩﴾ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١١٠﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ﴾ أحب وتمنى ورغب كثير من اليهود والنصارى ﴿لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنْفُسِهِمْ﴾ أي أنهم يرغبون في كفركم حسداً لكم وحقداً عليكم، حسداً لم يأمرهم الله به إنما من تلقاء أنفسهم ﴿مِّنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّ لَهُمُ الْحَقُّ﴾ من بعد ما ظهر له أن محمداً ﷺ رسول من عند الله عز وجل وأن دينه دين الحق ﴿فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا﴾ يا أهل الإيمان تجاوزوا عن هؤلاء ولا تؤاخذوهم ﴿حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرٍ ۚ﴾ حتى يؤذن لكم بقتالهم، أو يحل بهم أمر من عند الله عز وجل ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ ومن ذلك قدرته على الانتقام منهم ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾ حافظوا عليها في أوقاتها بأركانها وشروطها وواجباتها ﴿وَآتُوا الزَّكَاةَ﴾ التي افترضها الله عليكم، ووجه ما ذكر من الصلاة وإتيان الزكاة أن ينشغل المؤمنون بإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة ولا يفكروا في حسد الحاسدين ولا ينشغلوا بهم ﴿وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ﴾ وما تعملوا من عمل صالح يرضى الله عز وجل ﴿تَجِدُوهُ عِندَ اللَّهِ﴾ أي تجدوا ثوابه عند الله ﴿إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ مطلع على أعمالكم وشاهد عليها وبصير بها.

(دعاوي اليهود والنصارى الكاذبة بأنهم يدخلون الجنة
دون من سواهم وبيان تضاربهم واختلافهم فيما بينهم)

قال الله عز وجل: ﴿ وَقَالُوا لَن يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ
نَصْرَىٰ تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ
صَادِقِينَ ﴿١١١﴾ بَلَىٰ مَن أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ
عِندَ رَبِّهِ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١١٢﴾ وَقَالَتِ الْيَهُودُ
لَيْسَتِ النَّصْرَىٰ عَلَىٰ شَيْءٍ وَقَالَتِ النَّصْرَىٰ لَيْسَتِ الْيَهُودُ عَلَىٰ شَيْءٍ
وَهُمْ يَتْلُونَ الْكِتَابَ كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ فَاللَّهُ
يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١١٣﴾ ۞

قوله تعالى: ﴿ وَقَالُوا لَن يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصْرَىٰ ﴾ قالت اليهود لن
يدخل الجنة إلا من كان يهوديًا، وقالت النصارى لن يدخل الجنة إلا من كان نصرانيًا
﴿ تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ ﴾ هذه رغباتهم وما يتمنونه ﴿ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ ﴾ هاتوا
حجتكم على ما تدعونه وما تتمنونه ﴿ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾ في دعاكم ﴿ بَلَىٰ مَن
أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ ﴾ أي ليس الأمر كما ادعوا ولكن من أخلص عمله لله وهو
موافق في عمله لكتاب الله وسنة رسول الله ﷺ ﴿ فَلَهُ أَجْرُهُ عِندَ رَبِّهِ ﴾ فله ثواب عمله
عند الله ﴿ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ ﴾ مما هو آت ﴿ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ على ما قد فات.

﴿ وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتِ النَّصْرَىٰ عَلَىٰ شَيْءٍ ﴾ أي ليسوا على شيء صحيح من أمر
دينهم ﴿ وَقَالَتِ النَّصْرَىٰ لَيْسَتِ الْيَهُودُ عَلَىٰ شَيْءٍ ﴾ صحيح من أمر دينها وليسوا

مستمسكين بشيء. ﴿وَهُمْ يَتْلُونَ الْكِتَابَ﴾ أي واليهود يقرؤون التوراة، والتوراة تكذبهم والنصارى يتلون الإنجيل، والإنجيل يكذبهم ﴿كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ من مشركي قريش والجهلة عموماً ﴿مِثْلَ قَوْلِهِمْ﴾ مثل قول اليهود والنصارى فقد تكلموا بما لا علم لهم به وادعوا أنهم على الحق وغيرهم على الباطل ﴿فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ من الأقوال والأعمال والادعاءات.



(بيان عقوبة مانعي المسلمين من المساجد وعقوبة الساعين
في خرابها وكذا بيان أحوال أهل الكتاب وكفرهم وضلالهم
ورغبتهم في إضلال المسلمين ، والتحذير من ذلك)

قال الله عزَّ جل: ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ مَنَعَ مَسْجِدَ اللَّهِ أَنْ يُذْكَرَ فِيهَا
أَسْمُهُ، وَسَعَىٰ فِي خَرَابِهَا أُولَٰئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَنْ يَدْخُلُوهَا إِلَّا
خَافِفِينَ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ
﴿١١٤﴾ وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُولُوا فَشَمَّ وَجْهُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ
وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴿١١٥﴾ وَقَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَنَهُ بَلْ لَهُ مَا فِي
السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلُّ لَّهُ قَلْبُونَ ﴿١١٦﴾ بَدِيعُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ
وَإِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴿١١٧﴾ وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ
لَوْلَا يُكَلِّمُنَا اللَّهُ أَوْ تَأْتِينَا آيَةٌ كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ مِنْ
قَبْلِهِمْ مِثْلَ قَوْلِهِمْ تَشَبَهْتُ قُلُوبُهُمْ قَدْ بَيَّنَّا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ
يُوقِنُونَ ﴿١١٨﴾ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَا تُسْأَلُ عَنْ
أَصْحَابِ الْجَحِيمِ ﴿١١٩﴾ وَلَنْ تَرْضَىٰ عَنْكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ
مِلَّتَهُمْ قُلْ إِنَّ هُدَىٰ اللَّهِ هُوَ الْهُدَىٰ وَلَئِنْ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ الَّذِي
جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿١٢٠﴾ .

﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ مَنَعَ مَسْجِدَ اللَّهِ أَنْ يُذْكَرَ فِيهَا أَسْمُهُ ﴾ أي ليس هناك أحدٌ أظلم

من هذا الذي منع الناس من ذكر الله عز وجل في المساجد ﴿وَسَعَىٰ فِي خَرَابِهَآ﴾^(١) واجتهد في تخريب المساجد.

﴿أُولَٰئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَن يَدْخُلُوهَا إِلَّا خَآفِيَةً﴾ أي ما كان يحق لهم ولا ينبغي لهم أن يدخلوا المساجد إلا خائفين من أهل الإيمان ﴿لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ﴾ ذل وصغار بالقتل والسبي والجزية ﴿وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ وذلك يوم القيامة والعذاب عذاب النار والعياذ بالله.

﴿وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ﴾ أي: والله ملك المشرق والمغرب ﴿فَآيِنَمَا تُولُوا﴾ أي فحيثما تتجهوا وتقبلوا ﴿فَتَمَّ﴾ فهناك ﴿وَجْهَ اللَّهِ﴾^(٢) قيل: المراد ثم الله تبارك وتعالى وقيل: فتمَّ قبله الله عز وجل فاتجهوا إليها وقيل: إن ذلك يتعلق بصلاة المسافر على الراحلة يصلي حيثما اتجهت به راحلته.

﴿إِنَّ اللَّهَ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ هذا إخبار منه سبحانه أنه واسع العطاء عليم بمن اتجه إليه وأخلص عليه ﴿وَقَالُوا أَخَذَ اللَّهُ وَلَدًا﴾ اليهود قالوا عزيز ابن الله والنصارى قالوا المسيح ابن الله، وبعض المشركين قالوا الملائكة بنات الله، ﴿سُبْحَنَهُ﴾ تنزه ربنا عن أن يكون له ولد ﴿بَلْ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ لكن له ملك كل شيء في السموات والأرض ﴿كُلُّ لَّهُ قَلْبُونٌ﴾ خاضعون له مطيعون.

﴿بَدِيعُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ خالق السموات والأرض ومُبدعهما على غير مثال سابق.

﴿وَإِذَا قَضَىٰ أَمْرًا﴾ وإذا أراد أمرًا ﴿فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ أي: فإنها يتحقق ما أراد به بكلمة واحدة وهي كلمة كن.

وقيل: ﴿وَإِذَا قَضَىٰ﴾ أي: إذا أحكم أمرًا وأمضاه وفرغ منه.

﴿فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ أي فيتحقق ما أراد به ربنا سبحانه وتعالى بكلمة كن

(١) وهنا أمران عليهما عشرات الأدلة ومن معتقد أهل السنة والجماعة وينبغي التنبيه عليهما، أولهما: أن الله عز وجل في السماء مستو على العرش، والثاني: أن صفة الوجه ثابتة لله عز وجل على الوصف الذي يليق به فليس كمثله شيء وهو السميع البصير.

كقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا مَثَلُ عِيسَىٰ عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾. وكما قال: ﴿فَلَمَّا عَتَوْا عَنْ مَا نُهُوا عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ﴾.

﴿وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ وهم مشركوا العرب ﴿لَوْلَا﴾ هلا ﴿يُكَلِّمُنَا اللَّهُ﴾ كلاما نسمعه مشافهة ﴿أَوْ تَأْتِينَا آيَةً﴾ أو تأتينا يا محمد بمعجزة تفجر لن من الأرض ينبوعاً أو تجعل لنا الصفا ذهباً أو غير ذلك.

﴿كَذَٰلِكَ﴾ كهذا الذي قالوه ﴿قَالَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ وهم اليهود والنصارى ﴿مَثَلُ قَوْلِهِمْ﴾ فقد طلب اليهود والنصارى من أنبيائهم المعجزات ﴿تَشَبَّهَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ في الكفر والضلال والعناد ﴿قَدْ بَيَّنَّا الْآيَاتِ﴾ قد جئناكم بآيات القرآن وهي معجزات وأيضاً قد آتيناكم بمعجزات أخر كانشقاق القمر وغيره ﴿لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ ولكنها لا تنفع إلا القوم الموقنين المصدقين بالله ورسوله المدعين لأوامر الله عز وجل ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ﴾ يا رسول الله ﴿بِالْحَقِّ﴾ بالصدق والقرآن والإسلام ﴿بَشِيرًا﴾ لمن أطاع بالجنة ﴿وَنَذِيرًا﴾ محذراً ممن عصى وكذب من النار، ﴿وَلَا تُسْأَلُ عَنْ أَصْحَابِ الْجَحِيمِ﴾ لست مسؤولاً عن كفر من كفر وكان من أهل النار الملتهبة إنما عليك البلاغ.

﴿وَلَنْ تَرْضَىٰ عَنْكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَىٰ حَتَّىٰ تَبِيعَ مِلَّتَهُمْ﴾ أي لن ترضى عنك اليهود حتى تتبع دينهم فتدخل في اليهودية، ولن ترضى عنك النصارى حتى تصبح نصرانياً، كما قال تعالى: ﴿وَدُّوا لَوْ تُكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا فَتَكُونُونَ سَوَاءً﴾.

وقوله: ﴿قُلْ إِنِّي هَدَىٰ اللَّهُ هُوَ الْهُدَىٰ﴾ ما أنزله الله في كتابه هداية للناس هو الحق الذي لا مرية فيه ولا شك فيه، والمهتدي من هداه الله وقوله تعالى: ﴿وَلِيِّنِ أَتَّبَعَتْ أَهْوَاءَهُمْ﴾ فيما يدعونك إليه من باطلهم ﴿بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ﴾ ببطلان عقائدهم وكفرهم وتحريفهم الكتب المنزلة من عند الله وقد جاءك العلم بذلك في الكتاب المنزل عليك وهو القرآن لئن اتبعت أهواءهم بعد هذا العلم والوحي وما من الله به عليك من الإسلام ﴿مَا لَكَ مِنْ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ﴾ يتولاك ﴿وَلَا نَصِيرٍ﴾ ينصرك.



بيان فضل مؤمني أهل الكتاب وتذكير بني إسرائيل بنعم الله عليهم وتحذيرهم من الكفر والعصيان

قال الله عز وجل: ﴿الَّذِينَ ءَاتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ ۖ أُولَٰئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ ۖ وَمَن يَكْفُرْ بِهِ ۖ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿١٢١﴾ يَبْنِي إِسْرَءِيلَ أَذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿١٢٢﴾ وَاتَّقُوا يَوْمًا لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا تَنفَعُهَا شَفْعَةٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿١٢٣﴾﴾.

﴿الَّذِينَ ءَاتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ﴾ وهم علماء بني إسرائيل المؤمنون المصدقون الذين لم يغيروا ولم يبدلوا ولم يحرفوا ما أنزل إليهم من التوراة والإنجيل. ﴿يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ﴾ يتبعون الكتاب المنزل إليهم حق الاتباع.

﴿أُولَٰئِكَ﴾ أي علماء بني إسرائيل ﴿يُؤْمِنُونَ بِهِ﴾ بالقرآن الذي أنزل إليك يا رسول الله، فالكتب التي عندهم تأمرهم بالإيمان بك واتباعك ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِهِ﴾ بهذا القرآن ﴿فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ الذين خسروا أنفسهم فقد باعوها بأبخس الأثمان ورضوا بالنار بدلاً عن فسيح الجنان مقابل عرض قريب زائل.

﴿يَبْنِي إِسْرَءِيلَ﴾ يا ذرية النبي الصالح يعقوب عليه السلام ﴿أَذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنعَمْتُ عَلَيْكُمْ﴾ حدثوا بنعمتي التي أنعمت بها عليكم ولا تنسوها، اذكروها شاكرين لها معترفين بها غير منكبين والتي منها ﴿وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ أي: على العالمين في زمانكم، أو على العالمين كلهم بكثرة الأنبياء فيكم فليست هناك أمة من الأمم جاءها من الأنبياء كالذي جاء بني إسرائيل.

﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا﴾ واحذروا يومًا شديدًا عصيبًا وهو يوم القيامة ﴿لَا تَجْزِي نَفْسٌ﴾ لا
تغني ولا تنفع ولا تحمل ﴿عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ﴾ أي إن افتدت نفسها بفدية
فلن تُقبل الفدية ﴿وَلَا تَنْفَعُهَا شَفْعَةٌ﴾ وساطة أحد ولا تدخل أحد ﴿وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾
وليس لهم أحد ينصرهم ولا هم يستطيعون نصر أنفسهم.



ذكر نبي الله وخليفه إبراهيم عليه السلام وذكر ولده صادق الوعد
إسماعيل عليه السلام وما كان من بنائهما الكعبة، وشيء من فضلهما
ودعائهما لعل مقتدياً أن يقتدي ومتأسياً أن يأتس

قال الله عز وجل: ﴿ وَإِذْ أُنْتَلَىٰ إِلَهُهُمُ رَبُّهُ بِكَلِمَتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي
جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ
﴿١٢٤﴾ وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا وَاتَّخِذُوا مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ
مُصَلًّى وَعَهِدْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ
وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ ﴿١٢٥﴾ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا
ءَامِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِن الثَّمَرَاتِ مَنْ ءَامَنَ مِنْهُمْ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ قَالَ وَمَن كَفَرَ
فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَىٰ عَذَابِ النَّارِ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴿١٢٦﴾ وَإِذْ يَرْفَعُ
إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ
الْعَلِيمُ ﴿١٢٧﴾ رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ
وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴿١٢٨﴾ رَبَّنَا وَابْعَثْ
فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ
وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١٢٩﴾

قوله تعالى: ﴿ وَإِذْ أُنْتَلَىٰ إِلَهُهُمُ رَبُّهُ بِكَلِمَتٍ ﴾ واذكر إذا اختبر الله عز وجل خليفه
إبراهيم عليه السلام بأوامر ونواه وتكاليف شرعية، وهي عموم ما أمر به إبراهيم

عليه السلام.

﴿فَأْتَمَّهُنَّ﴾ أي: فقام بهن خير قيام وأداهن خير تأدية كما قال تعالى ﴿وَابْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى﴾ فلما أتمهن عليه السلام ﴿قَالَ﴾ الله عز وجل ﴿إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا﴾ في الدين ﴿قَالَ﴾ إبراهيم عليه السلام ﴿وَمِنْ ذُرِّيَّتِي﴾ دعا ربه أن يكون من ذريته أئمة أيضًا وقيل: إنه استفسار أي وهل تجعل من ذريتي أئمة؟ ﴿قَالَ﴾ الله عز وجل ﴿لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾ ليس للظالم عندي عهد أن يكون إمامًا وليس له عندي عهد أن أسلمه من عذاب النار.

﴿وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ﴾ أي واذكر إذ جعلنا البيت الحرام والمراد الحرم المكي عمومًا بما فيه الكعبة ﴿مَثَابَةً لِّلنَّاسِ﴾ مرجعًا يحبون الرجوع إليه كلما فارقه وتحن قلوبهم إليه وتشتاق وكذلك ﴿مَثَابَةً﴾ يثابون عنده وترتفع درجاتهم، وكذلك ﴿مَثَابَةً﴾ مجتمعًا تجتمعون عنده.

﴿وَأَمَّنَّا﴾ أي وجعلناه آمنًا من الغدر فكان الرجل يلتقي بقاتل أبيه في الحرم ولا يتعرض له بسوء.

﴿وَاتَّخِذُوا مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى﴾ أمر بأن يصلى الناس خلف مقام إبراهيم ومن ذلك الركعتان بعد الطواف ومقام إبراهيم هو الحجر الذي كان يقف عليه الخليل إبراهيم عليه السلام لبناء الكعبة لما ارتفع الجدار وكان إسماعيل عليه السلام يناوله الأحجار، ﴿وَعَهْدُنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ﴾ أوحينا إليهما وأمرناهما ﴿أَن طَهِّرَا بَيْتِيَ﴾ من الشرك والبدع والخرافات والنجاسات ﴿لِلطَّائِفِينَ﴾ الذين يطوفون حول الكعبة ﴿وَالْعَاكِفِينَ﴾ المعتكفون ﴿وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ﴾ وهم المصلون ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا﴾ يعني مكة ﴿بَلَدًا آمِنًا﴾ دعا إبراهيم عليه السلام لمكة أن تكون بلدًا آمنًا يأمن الناس فيها على دمائهم وأموالهم وأنفسهم ﴿وَأَرْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَن آمَنَ مِنْهُمْ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ أراد أن يقتصر الرزق على المؤمنين فما وافقه الله على ذلك بل ﴿قَالَ﴾ تعالى ﴿وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ﴾ أي فارزقه أيضًا ﴿قَلِيلًا﴾ أي زمنا قليلاً وهو الدنيا ﴿ثُمَّ

أَصْطَرَهُ ﴿ أَلْجُوهَ وَأَسْوَقهَ وَأَدْفَعَهَ ﴾ إِلَى عَذَابِ النَّارِ وَيُسْ أَلْمَصِيرُ ﴿ وبُسَ الموضع الذي يصيرون إليه.

﴿ وَإِذْ رَفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ ﴾ واذكر يا رسول الله إبراهيم وولده إسماعيل عليهما السلام وهما يرفعان أساس الكعبة (قواعدها التي تأسست عليها) أي بينان على القواعد بناءً حتى ترتفع وتظهر، وهما يقولان أثناء البناء ﴿ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا ﴾ أعمالنا وما نقوم به من البناء ﴿ إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ ﴾ لأقولنا ولكل شيء يُسمع ﴿ الْعَلِيمُ ﴾ بنوايانا وبكل شيء وفي هذا أدب نتأدب به، نعمل الصالحات ونسأل القبول.

﴿ رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ خَاضِعِينَ لَكَ طَائِعِينَ لَكَ فَالْسَمْعَ وَالطَّاعَةَ لِلَّهِ نِعْمَةُ يَمْنُ اللَّهِ بِهَا عَلَى مَنْ يَشَاءُ نَسْأَلُ اللَّهَ أَنْ يَرْزُقَنَا السَّمْعَ وَالطَّاعَةَ لَهُ سُبْحَانَهُ، ﴿ وَمَنْ ذُرِّيَّتَنَا ﴾ أي واجعل من نسلنا ومن عقبنا ﴿ أُمَّةً ﴾ جماعة ﴿ مُسْلِمَةً لَكَ ﴾ مستسلمة لك خاضعة طائعة ﴿ وَأَرْنَا مَنَاسِكَكَ ﴾ بيِّن لنا ووضح لنا الأماكن والمواطن والأزمان التي نتقرب فيها إليك بأعمال الطاعات والبر كالذبح والصلاة والطواف والسعي وغير ذلك ﴿ وَتُبَّ عَلَيْنَا ﴾ وتفضل علينا بعفوك وغفرانك ﴿ إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ ﴾ إنك أنت العائد على عبادك بالفضل المتفضل عليهم بالعفو والغفران ﴿ الرَّحِيمُ ﴾ والرحمة بعبادك تنقذ من تشاء منهم برحمتك وتنجي من تريد ﴿ رَبَّنَا ﴾ يا ربنا ﴿ وَأَبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ ﴾ وقد استجاب الله الدعاء فبعث محمداً ﷺ من ذرية إسماعيل، وإسماعيل بن إبراهيم عليهما السلام ﴿ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ ﴾ يرتلها عليهم ويقصها لهم ويذكرهم بها ﴿ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ ﴾ وهو القرآن ﴿ وَالْحِكْمَةَ ﴾ السنَّة والسداد في القول والعمل ووضع الشيء في محله اللاتق به ﴿ وَيُزَكِّيهِمْ ﴾ يطهرهم من الشرك والذنوب والمعاصي بما يرشدهم إليه ويعلمهم إياه، ﴿ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ ﴾ الذي لا يغلب ﴿ الْحَكِيمُ ﴾ فيما تشرع والحكيم في كل شيء تفعله وفي كل قول تقوله.



(التحذير من الانحراف عن ملة إبراهيم عليه السلام
والتذكير بوصية إبراهيم ويعقوب عليهما السلام
بالتوحيد والموت على الإسلام)

قال الله عز وجل: ﴿ وَمَنْ يَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ وَلَقَدْ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ ﴾ (١٣٠) إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿ ١٣١ ﴾ وَوَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَبْنِي إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى لَكُمْ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ﴿ ١٣٢ ﴾ أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَهًا وَاحِدًا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴿ ١٣٣ ﴾ تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿ ١٣٤ ﴾

﴿ وَمَنْ يَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ ﴾ أي ومن يعرض عن دين إبراهيم عليه السلام - وهو الإسلام - إلا الشخص السفيه الجاهل، والسفه الجهل وقلة العقل. ﴿ وَلَقَدْ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا ﴾ ولقد اخترناه واجتبيناه من بين سائر العباد في الدنيا في زمانه ﴿ وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ ﴾ لمن الفائزين، وذلك لكونه كان من المؤدين لحقوق الله عز وجل ﴿ إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ ﴾ استسلم وأخلص العبادة لله

وأحسن الانقياد والخضوع لله عزَّ وجلَّ ﴿قَالَ أَسْلَمْتُ﴾ استسلمت وخضعت وسمعت وأطعت ﴿لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾.

﴿وَوَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ﴾ أي وأمر إبراهيم عليه السلام أبناءه وهما إسماعيل وإسحاق باتباع هذه الملة ملة الإسلام والاستسلام لله رب العالمين وتوحيد الله عزَّ وجلَّ، وكذا أمر يعقوب عليه السلام أبناءه بها وهم يوسف وإخوته كلاهما يقول ﴿يَبْنِي﴾ يا أبنائي ﴿إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى لَكُمْ الدِّينَ﴾ إن الله اختار لكم دين الإسلام واجتباكم له فاستمسكوا به ﴿فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ أي واثبتوا عليه حتى تموتوا مسلمين.

﴿أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ﴾ فيه وجهان:

أحدهما: أكنتم يا معشر يهود حضور وفاة يعقوب عليه السلام حتى تشهدوا عليه بأنه مات على اليهودية أو النصرانية كلا ما حضرتم ذلك بل هي افتراءات تفترونها.

والوجه الثاني: بل كان أجدادكم حضور وفاة يعقوب، وقد رأوه يموت على الإسلام ويوصي بالإسلام.

وقوله: ﴿إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي﴾ سأل أبناءه سؤالاً للاطمئنان عليهم فقال ما الإله الذي تعبدونه من بعدي؟ ﴿قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَهًا وَاحِدًا﴾ أي لا نشرك به شيئاً ولا نعبد معه غيره ﴿وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ مستسلمون منقادون خاضعون.

﴿تِلْكَ أُمَّةٌ﴾ هؤلاء إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب وأبناء يعقوب وهم الأسباط جماعة ﴿قَدْ خَلَتْ﴾ قد مضت ﴿لَهُمَا مَا كَسَبَتْ﴾ لها جزاء ما عملت ﴿وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ﴾ ولكم جزاء ما علمتم ﴿وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ أي ولا يسألكم أحد عن أعمال غيركم بل عليكم ما حملتم وعليهم ما حملوا «ومن بطأ به عمله لم يسرع به نسبه» كما قال عليه السلام.



(الأمر باتباع ملة إبراهيم عليه السلام والإيمان بالكتب المنزلة
من عند الله عز وجل وبطلان دعاوي اليهود والنصارى أن المهتدي
هو اليهودي والنصراني وكذا بيان بطلان دعواهم بأن إبراهيم
وذريته كانوا يهوداً أو نصارى)

قال الله عز وجل: ﴿وَقَالُوا كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى تَهْتَدُوا قُلْ بَلْ مِلَّةَ
إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٣٥﴾ قُولُوا ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ
إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا
أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ
مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٦﴾ فَإِنْ ءَامَنُوا بِمِثْلِ مَا ءَامَنَ بِهِ فَقَدْ
أُهْتَدَوْا وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ وَهُوَ السَّمِيعُ
الْعَلِيمُ ﴿١٣٧﴾ صَبَغَهُ اللَّهُ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنْ اللَّهِ صِبْغَةً وَنَحْنُ لَهُ
عَبِيدُونَ ﴿١٣٨﴾ قُلْ أَتَحَاجُّونَنَا فِي اللَّهِ وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ وَلَنَا أَعْمَلُنَا
وَلَكُمْ أَعْمَلُكُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُخْلِصُونَ ﴿١٣٩﴾ أَمْ نَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ
وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطَ كَانُوا هُودًا أَوْ
نَصَارَى قُلْ ءَأَنْتُمْ أَعْلَمُ أَمِ اللَّهُ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَتَمَ شَهَادَةً عِنْدَهُ
مِنَ اللَّهِ وَمَا اللَّهُ بِغَفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٤٠﴾ تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا
كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٤١﴾

قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى تَهْتَدُوا﴾ أي أن اليهود قالوا للمسلمين كونوا يهودًا يا أهل الإسلام تهتدوا للحق وتدخلون الجنة والنصارى قالوا للمسلمين كونوا نصارى تهتدوا للحق وتدخلون الجنة، وهذا، وذاك كقولهم ﴿لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَى﴾ وليس المعنى أن اليهود قالوا كونوا يهودًا أو نصارى تهتدوا إنما اليهود قالوا كونوا يهودًا والنصارى قالوا كونوا نصارى، وذلك لأن اليهود لا يقرون للنصارى بالجنة بل يكفرونهم وكذا النصارى مع اليهود.

﴿قُلْ﴾ يا رسول الله وقل يا مسلم ﴿بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ﴾ أي بل نتبع ملة إبراهيم ﴿حَنِيفًا﴾ مستقيمًا مخلصًا مائلًا عن الشرك، ﴿وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ أي وما كان الخليل إبراهيم عليه السلام مشركًا.

ووجه آخر في قوله تعالى: ﴿بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ﴾ أي بل المهتدي الذي يدخل الجنة من اتباع ملة إبراهيم حنيفًا وما كان من المشركين، وليس اليهودي والنصراني هو الذي يدخل الجنة.

ووجه ثالث: معناه: بل تعالوا نتبع ملة إبراهيم التي أجمعنا نحن وأنتم على نبوته، وملته هي الحنيفية السمحة التي ليس فيها شرك بالله عز وجل.

قال الطبري رحمه الله: احتج الله لنبيه محمد ﷺ بأبلغ حجة وأوجزها وأكملها وعلمها محمدًا نبيه ﷺ فقال: يا محمد قل للقائلين لك من اليهود والنصارى ولأصحابك: ﴿كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى تَهْتَدُوا﴾ [البقرة: ١٣٥]: بل تعالوا نتبع ملة إبراهيم التي يُجمع جميعنا على الشهادة لها بأنها دين الله الذي ارتضاه واجتبهه وأمر به فإن دينه كان الحنيفية المسلمة، وندع سائر الملل التي نختلف فيها فينكرها بعضنا ويقرُّ بها بعضنا فإن ذلك على اختلافه لا سبيل لنا على الاجتماع عليه كما لنا السبيل إلى الاجتماع على ملة إبراهيم.

هذا، ووجه إيراد قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ في الرد على اليهود والنصارى أن الله عز وجل نفى عن إبراهيم ﷺ الشرك، ولكن اليهود والنصارى

قد أشركوا فادعت اليهود أن عزيزاً ابن الله، وادعت النصارى أن المسيح ابن الله، فخالفوا بذلك ملة إبراهيم عليه السلام.

قال الله تعالى: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ ذَلِكَ قَوْلُهُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهِئُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ قَتَلْنَاهُمْ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ﴾ [التوبة: ٣٠] فبين الله ﷻ شرك اليهود والنصارى في هذه الآيات، ويُن في آية البقرة ﴿وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [البقرة: ١٣٥]، براءة إبراهيم عليه السلام من هذه الأديان التي يزعم أهلها أن اتباعها فيه الهداية، والله تعالى أعلم.

وقوله تعالى: ﴿قُولُوا﴾ يا أهل الإيمان ﴿ءَامَنَّا بِاللَّهِ﴾ أى صدقنا بأنه واحد لا شريك له وآمنا به على الوجه اللائق به على ما أخبرنا به في كتابه وأخبرنا به نبينا محمد ﷺ في سنته وقولهم ﴿وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا﴾ أى وقولوا آمنا بما أنزل إلينا من الوحي (القرآن والسنة).

(و) صدقنا أيضاً وأقررنا بـ ﴿وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا مِنْ رَبِّهِمْ﴾ وهي صحف إبراهيم عليه السلام وكذا الذي أخبرنا الله في القرآن بأنه نزل على إبراهيم عليه السلام ﴿وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ﴾ أى آمنا بما أنزل على هؤلاء أيضاً ﴿وَالْأَسْبَاطَ﴾ أى وآمنا بالذي أنزل أيضاً على الأسباط وهم أبناء يعقوب الاثنا عشر، الذين منهم يوسف عليه السلام (و) كذا آمنا بـ ﴿وَمَا أُوتِيَ مُوسَى﴾ هي التوراة (و) ما أوتي ﷺ وهو الإنجيل ﴿وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ﴾ أى آمنا بكل كتاب آتاه الله أي نبي من أنبيائه وأنزله على نبي من أنبيائه، وآمنا بالمعجزات التي أيد الله بها أنبياءه وقوله ﴿لَا نُفِرُّكَ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ﴾ أى أننا لا نؤمن بنبي ونكفر بآخر، بل نؤمن بهم جميعاً، وذلك لأن الإيمان ببعضهم والكفر ببعضهم يُعدُّ كفراً مخرجاً من الدين ويعدُّ تكذيباً للقرآن الكريم.

هذا، وفي معنى الآية الكريمة قوله تعالى: ﴿ءَامَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ

وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَكِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا يَفْرِقُونَ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ ۚ

ومن الدليل على كفر من كفر ببعض الأنبياء قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيُرِيدُونَ أَنْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيَقُولُوا نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَنْ يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا ۝١٥٠﴾ أُولَٰئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا ۚ

أما قولهم: ﴿وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ أي ونحن لربنا موحدون مخلصون مستسلمون سامعون مطيعون.

وقوله تعالى: ﴿فَإِنْ آمَنُوا بِمِثْلِ مَا آمَنْتُ بِهِ فَقَدْ اهْتَدَوْا﴾ أي إن آمنت اليهود والنصارى بمثل ما أنتم به يا أهل الإسلام، أقروا بوحدانية الله وأنه لا شريك له ولا ولد له ولا ند له ولا صاحبة وأقروا بنبوة جميع الأنبياء وصدقوا بالكتب المنزلة من عند الله فقد وفقوا الطريق الحق واهتدوا إليه وسلكوا السبيل الموصل لجنّة الله ومرضاته.

وقوله تعالى: ﴿وَإِنْ تَوَلَّوْا﴾ أي أعرضوا عن الحق وأعرضوا عن الإقرار بوحدانية الله ورسالات المرسلين وعن الإقرار بالكتب المنزلة من عند الله ﴿فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ﴾ أي في عناد وفراق للحق وجدال وعصيان.

﴿فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ﴾ سيكفيك الله شرهم وينصرك عليهم ويمكنك منهم ﴿وَهُوَ السَّمِيعُ﴾ لأقوالهم وأقوالك والسميع لكل شيء ﴿الْعَلِيمُ﴾ بك وبهم وبكل شيء.

وقوله تعالى: ﴿صِبْغَةَ اللَّهِ﴾ أي الزموا صبغة الله وهي دين الله والفطرة التي فطر الناس عليها وهي ملة إبراهيم عليه السلام.

﴿وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صِبْغَةً وَنَحْنُ لَهُ عَبِيدُونَ﴾ أي ونحن له موحدون مخلصين عابدون مطيعون.

وقوله تعالى: ﴿قُلْ أَتَحَاجُّونَنَا فِي اللَّهِ وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ وَلَنَا أَعْمَلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَلُكُمْ

وَنَحْنُ لَهُ مُخْلِصُونَ ﴿١٨٠﴾ حاصل معناه والله أعلم - قل يا محمد لهؤلاء اليهود والنصارى الذين قالوا لكم: ﴿كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى تَهْتَدُوا﴾ [البقرة: ١٣٥]، ماذا تريدون أن نحاجوننا فيه؟!!! فهل توحيد الله ﷻ والإخلاص إليه والانقياد له واتباع أوامره وترك زواجه يحتاج إلى مناظرة؟!!

أتحاجوننا في الله وتزعمون أنكم أولى بالله منا لكون نبيكم قبل نبينا وكتابكم نزل قبل كتابنا، فإن كان هذا هو احتجاجكم فليست الأسبقية بمجدية هنا لأن ربنا وربكم واحد ونحن لم نغير ولم نبدل ولم نشرك بالله شيئاً كما أشركتم يا يهود فجعلتم عزيزاً ابن الله وكما أشركتم يا نصارى فزعمتم أن المسيح ابن الله، فليست أسبقيتكم بنافعتكم شيئاً مع شرككم بالله ﷻ.

﴿١٨١﴾ أخاصموننا يا يهود أن الله اصطفى منا - نحن العرب - نبياً ولم يصطفه منكم، فالله ربنا وربكم وهو سبحانه يصطفى من خلقه ما يشاء ويختار من يريد! **وقولهم:** ﴿وَنَحْنُ لَهُ مُخْلِصُونَ﴾ أي موحدون نبتغي وجهه بأعمالنا ولا نشرك في عبادته ولا نراي أحداً من الناس.

وقوله: ﴿أَمْ نَقُولُ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطَ كَانُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى﴾ ﴿١٨٢﴾ حاصل معناه أنه استفهام للتوبيخ والإنكار عليهم، فالمعنى أجادلوننا استفهام للتوبيخ والإنكار عليهم، فالمعنى أجادلوننا وتحاججوننا يا معشر اليهود والنصارى وتزعمون أن إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط كانوا يهوداً أو نصارى؟! فإن زعمتم ذلك فأنتم مفترون في دعواكم فالتوراة والإنجيل ما أنزلتا إلا من بعد هؤلاء الأنبياء عليهم الصلاة والسلام كما قال تعالى: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَحَاجُّونَ فِي إِبْرَاهِيمَ وَمَا أُنْزِلَتْ التَّوْرَةُ وَالْإِنْجِيلُ إِلَّا مِنْ بَعْدِهِ﴾ ﴿١٨٣﴾ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٨٤﴾ هَتَأَنْتُمْ هَؤُلَاءِ حُجَجَتُمْ فِيمَا لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَاجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿١٨٥﴾ مَا كَانَ إِبْرَاهِيمَ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٨٦﴾ [آل عمران: ٦٥ - ٦٧].

وقوله: ﴿قُلْ ءَأَنْتُمْ أَعْلَمُ أَمِ اللَّهُ﴾ قل يا رسول الله هؤلاء اليهود والنصارى أنتم أعلم بإبراهيم وسائر الأنبياء وما كانوا عليه من الدين أم الله؟ بل الله أعلم منكم. وقوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَتَمَ شَهَادَةً عِنْدَهُ مِنَ اللَّهِ﴾ أي ومن أشد ظلماً من شخص كتم الشهادة التي أخبره الله بها في الكتب المنزلة ﴿وَمَا اللَّهُ بِغَفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ أي أن الله مطلع عليكم وشاهد على أعمالكم لا يغفل عن شيء منها ولا يسهو ولا ينسى سبحانه وتعالى أما عن الشهادة التي كتموها، وعن الذين كتموها فلاهل العلم في ذلك أقوال:

أحدها: إن المعنيين هم اليهود والنصارى، والشهادة التي كتموها هي كون إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط كانوا مسلمين^(١).

والقول الثاني: أن المعنيين بقوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَتَمَ شَهَادَةً عِنْدَهُ مِنَ اللَّهِ﴾ [البقرة: ١٤٠]، هم اليهود، والشهادة التي كتموها هي صفة محمد ﷺ المثبتة في كتبهم.

والقول الأول أظهر لأن سياق الكتاب العزيز في هذا الموطن يؤيده والله تعالى أعلم.

وبمزيد من الإيضاح لمعنى قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَتَمَ شَهَادَةً عِنْدَهُ مِنَ اللَّهِ﴾ وبيان ما كتّمه اليهود والنصارى، أقول وبالله التوفيق:

المعنى - والله أعلم - لا أحد أشد ظلماً ممن كتم شهادة الله التي عنده وأخفاها، وقد كتم اليهود والنصارى شهادة الله التي عندهم مما يخص إبراهيم ومما يخص محمداً صلى الله عليهما وسلم، وكذلك كتموا ما يتعلق بالشرائع

(١) قال الطبري رحمه الله تعالى: فإن زعمت يا محمد اليهود والنصارى - الذين قالوا لك ولأصحابك: ﴿كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى﴾ [البقرة: ١٣٥]، أن إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط كانوا هوداً أو نصارى فمن أظلم منهم، يقول: وأي امرئ أظلم منهم؟ وقد كتموا شهادة عندهم من الله بأن إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط كانوا مسلمين.

والفروع، فمن ذلك أن في كتبهم أن إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط كانوا مسلمين، وما كانوا يهوداً ولا نصارى فقد جاءوا قبل اليهودية والنصرانية، وكانوا قبلها خاضعين لله مستسلمين له مقرين بالعبودية له والوحدانية. وكنتموا صفة محمد ﷺ فقد كانت صفته عندهم كما قال تعالى: ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْنُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ﴾ [الأعراف: ١٥٧].

وكما قال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَّا آتَيْنَاكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِءَ وَلَتَنْصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ﴾ [آل عمران: ٨١]، وكنتموا أيضاً أحكام الله في الزنا كما قد تقدم من وضعهم أصابعهم على آية الرجم أمام رسول الله ﷺ^(١)، والله أعلم.

وعن الجمع بين قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ مَنَعَ مَسَاجِدَ اللَّهِ أَنْ يُذَكَرَ فِيهَا أَسْمُهُ، وَسَعَىٰ فِي خَرَابِهَا﴾ [البقرة: ١١٤]، وبين قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَتَمَ شَهَادَةً عِنْدَهُ مِنَ اللَّهِ﴾ [البقرة: ١٤٠]؟

فلأهل العلم في طريقة الجمع وجوه نذكر منها وجهين:

أحدهما: إنهما في الظلم سواء (في الدرجة العليا من الظلم) أعني أن مانع مساجد الله من أن يذكر فيها اسمه، الساعي في خرابها على درجة من الظلم تساوي من كتم شهادة عنده من الله.

(١) أخرج البخاري (حديث ٧٥٤٣)، ومسلم (حديث ١٦٩٩) من حديث ابن عمر رضيهما الله عنهما قال: أتى النبي ﷺ برجل وامرأة من اليهود قد زنيا فقال لليهود ما تصنعون بهما؟ قالوا: نسخّم وجوههما ونخزيهما قال: فأتوا بالتوراة فاتلوها إن كنتم صادقين، فجاءوا فقالوا الرجل ممن يرضون: يا أعور اقرأ فقرأ حتى انتهى إلى موضع منها فوضع يده عليه قال: ارفع يدك فرفع يده فإذا فيه آية الرجم تلوح فقال: يا محمد إن عليهما الرجم ولكننا نتكاتمهما بيننا فأمر بهما فُرّجا فرأيتَهُ يُجَانِي عليها الحجارة.

الثاني: إن ذلك على الاختصاص بمعنى أنه ليس من المانعين أظلم ممن منع مساجد الله أن يذكر فيها اسمه وليس من كاتمي الشهادة أظلم ممن كتم شهادة عنده من الله، والله أعلم.

هذا، وقوله تعالى: ﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ كُرِّرَ لأمر منها:

١ - أنه كرر للتهديد والتخويف، والمعنى أنه إذا كان أولئك الأنبياء على طاعتهم لله وفضلهم يُجازون يوم القيامة بكسبهم فأنتم أخرى أن تجازون بكسبكم كذلك.

٢ - أنه كرر لقطع التعلق بالمخلوقين وتنبيهاً لليهود ولمن يتكل على فضل آبائه وأجداده وشرفهم كي لا يتكلوا على فضل الآباء فكلُّ يؤخذ بعمله والمعول عليه هو ما اتصف به الإنسان لا عمل أسلافه وآبائه، فالنفع الحقيقي بالأعمال لا بالانتساب إلى الرجال.

٣ - كرر لشدة حاجة الناس إلى معرفته.

٤ - كرر لأنه إذا اختلفت مواطن الحجاج والمجادلة حسن تくりه للتذكير به وتأكده.

وقال الطبري رحمه الله تعالى في معنى الآية الكريمة: قل يا محمد لهؤلاء الذين يجادلونك في الله من اليهود والنصارى إن كتموا ما عندهم من الشهادة في أمر إبراهيم ومن سمينا معه وأنهم كانوا مسلمين وزعموا أنهم كانوا هوداً أو نصارى فكذبوا: إن إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط أمة قد خلت - أي: مضت لسبيلها فصارت إلى ربها وخلت بأعمالها وآمالها لها عند الله ما كسبت من خير في أيام حياتها وعليها ما اكتسبت من شر لا ينفعها غير صالح أعمالها ولا يضرها إلا سيئها، فاعلموا أيها اليهود والنصارى ذلك فإنكم إن كان هؤلاء، وهم الذين بهم تفتخرون وتزعمون أن بهم ترجون النجاة من عذاب ربكم مع سيئاتكم وعظيم خطيئاتكم لا ينفعهم عند الله غير ما قدّموا من صالح الأعمال ولا يضرهم

غير سيئها فأنتم كذلك أخرى أن لا ينفعكم عند الله غير ما قدمتم من صالح الأعمال ولا يضركم غير سيئها فاحذروا على أنفسكم وبادروا خروجها بالتوبة والإنابة إلى الله مما أنتم عليه من الكفر والضلالة والفرية على الله وعلى أنبيائه ورسله، ودعوا الاتكال على فضائل الآباء والأجداد فإنما لكم ما كسبتم وعليكم ما اكتسبتم ولا تسألون عما كان إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط يعملون من الأعمال؛ لأن كل نفس قدمت على الله يوم القيامة فإنما تسأل عما كسبت وأسلفت دون ما أسلف غيرها. والله أعلم.



(تحويل القبلة والأمر بالتوجه في الصلاة إلى المسجد الحرام
وبيان أحوال الناس في ذلك وحث المؤمنين على الثبات
على طاعة الله ورسوله وعلى الإكثار من ذكر الله عز وجل)

قال الله عز وجل: ﴿ سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلَّيْنَاهُمْ عَنْ قِبَلِهِمُ
الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا قُلْ لِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ
مُسْتَقِيمٍ ١٤٢ ﴾ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى
النَّاسِ وَيَكُونَ الرُّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنْتَ
عَلَيْهَا إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يَتَّبِعِ الرُّسُولَ مِمَّنْ يَنْقَلِبُ عَلَى عَقْبَيْهِ وَإِنْ كَانَتْ
لَكِبْرَةٌ إِلَّا عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِلَّ عَمَّا يَمُنُّونَ إِنَّ اللَّهَ
بِالنَّاسِ لَرءُوفٌ رَحِيمٌ ١٤٣ ﴾ قَدْ زَرَى تَقَلُّبُ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ
فَلَنُؤْيِّنَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ
وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ وَإِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ
لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ وَمَا اللَّهُ بِغَفِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ ١٤٤ ﴾ وَلَئِنْ
أَتَيْتَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ بِكُلِّ آيَةٍ مَا تَبِعُوا قِبْلَتَكَ وَمَا أَنْتَ بِتَابِعٍ
قِبْلَتَهُمْ وَمَا بَعْضُهُمْ بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ وَلَئِنْ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ
مِّنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ إِنَّكَ إِذَا لَمِنَ الظَّالِمِينَ ١٤٥ ﴾
الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ

لَيَكُونَنَّ الْحَقُّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٤٦﴾ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ
 الْمُتَمَرِّينَ ﴿١٤٧﴾ وَلِكُلِّ وِجْهَةٍ هُوَ مُوَلِّيًا فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ أَيْنَ مَا
 تَكُونُوا يَأْتِ بِكُمْ اللَّهُ جَمِيعًا إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٤٨﴾ وَمِنْ
 حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِنَّهُ لِلْحَقِّ مِنْ
 رَبِّكَ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٤٩﴾ وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ
 شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ لِئَلَّا
 يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ
 وَاخْشَوْنِي وَلِأَتِيَنَّهُمْ نِعْمَتِي عَلَيْكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥٠﴾ كَمَا أَرْسَلْنَا
 فِيكُمْ رَسُولًا مِنْكُمْ يَتْلُوا عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيَكُمُ
 وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ ﴿١٥١﴾
 فَأَذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ ﴿١٥٢﴾ .

قوله تعالى: ﴿ سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ ﴾ وهم الجهال وهم هنا اليهود
 والمشركون والمنافقون فكل هؤلاء سفهاء وأطلق عليهم سفهاء لأنهم سفهوا الحق
 وأنكروه، وأهل النفاق جهلوا أن الله على كل شيء قدير، وأنه سبحانه قادر على أن
 يحول المسلمين من قبله إلى أخرى، وجهلوا حكمة الله في ذلك، أما أهل الشرك
 فهم سفهاء أصلاً لأنهم اختاروا الكفر على الإيمان.

وقولهم: ﴿ مَا وَلَّهُمْ عَنْ قِبَلِهِمُ الَّذِي كَانُوا عَلَيْهِمْ ﴾ ما السبب الذي حمل المسلمين على
 الانصراف عن قبلتهم الأولى التي كانوا يتوجهون إليها في صلاتهم وهي بيت المقدس
 ويتحولون إلى الكعبة في صلاتهم كقبلة لهم.

هذا، وقد ورد في الصحيحين^(١) من حديث البراء بن عازب رضي الله عنه «أن رسول الله ﷺ صلى إلى بيت المقدس ستة عشر شهراً أو سبعة عشر شهراً» الحديث.
وقوله: ﴿قُلْ﴾ يا رسول الله ﴿لِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ﴾ أي لله ملك المشرق والمغرب فهو رب المشرق والمغرب وله الحكم والتصرف والأمر فيها ﴿يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ يوفق من يشاء إلى طريق الحق الذي لا اعوجاج فيه ذلكم الطريق الموصل إلى جنات الله ومرضاته.

والمعنى إجمالاً أن الاتجاهات كلها لله وملك المشرق والمغرب وما بينهما لله سبحانه، وليست العبرة بالاتجاه إلى المشرق والمغرب إنما العبرة بطاعة الله ﷻ وامثال أمره كما قال تعالى: ﴿لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُولُوا وَجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ [البقرة: ١٧٧].

وهكذا يُردُّ على كل ملحد حاجج المؤمنين في عبادتهم، فإن قال لنا قائل: لماذا تطوفوا بالكعبة وتسعون بين الصفا والمروة وترمون الجمار وتقفون بعرفات؟... فالإجابة على كل هذا أن هذا أمر الله ونحن لربنا مسلمون طائعون.

والمعنى أيضاً والله أعلم: قل لله ملك المشرق والمغرب وما بينهما، وله الحكم والتصرف والأمر فيهما، والمراد أن العبرة بامثال أوامر الله تعالى كما قال سبحانه: ﴿لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُولُوا وَجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ [البقرة: ١٧٧]

قال الحافظ ابن كثير رحمته الله: أي الشأن كله في امثال أوامر الله، فحيثما وجهنا توجهنها فالطاعة في امثال أمره ولو وجهنا في كل يوم مرات إلى جهات متعددة فنحن عبيده وفي تصرفه وخدامه حيثما وجهنا توجهنها، وهو تعالى له بعبده ورسوله محمد صلوات الله وسلامه عليه وأمته عناية عظيمة إذ هداهم إلى قبلة إبراهيم خليل الرحمن، وجعل توجههم إلى الكعبة المبنية على اسمه تعالى وحده لا شريك

(١) أخرجه البخاري (٤٤٨٦)، ومسلم (٥٢٥).

له أشرف بيوت الله في الأرض إذ هي بناء إبراهيم الخليل عليه السلام، ولهذا قال: ﴿قُلْ لِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [البقرة: ١٤٢].

هذا، ومن فوائد الإخبار بقول السفهاء قبل وقوعه توطين النفس وتأهيلها لاستقبال ما سيقوله هؤلاء السفهاء، وتهوين صدمة القول وتخفيف روعته، والإشارة إلى سفاهة القائل وجهله قبل أن يتكلم بالكلام.

وقد تقدم أن في الآية الكريمة نوع إعجاز للإخبار بالغيب، والله أعلم.

أما لماذا وجه المسلمون أولاً إلى بيت المقدس ثم حوّلوا إلى الكعبة؟

فجوابه والله أعلم أن هذا ابتلاء من الله وامتحان ليظهر المنافق المرتاب من المؤمن الموقن كما قال الله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنْتَ عَلَيْهَا إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يَتَّبِعِ الرَّسُولَ مِمَّنْ يَنْقَلِبُ عَلَى عَقْبَيْهِ﴾ [البقرة: ١٤٣]، فقال أهل النفاق لما حوّلت القبلة: ما بال محمد يحولنا مرة إلى هاهنا ومرة إلى هاهنا؟ وقال بعض المسلمين: كيف ياخواننا الذين ماتوا وقتلوا وكانوا يصلون إلى بيت المقدس؟ وقال أهل الشرك: كما رجع محمد إلى قبلتنا فسيرجع إلى ديننا، أما أهل الإيمان الكامل واليقين الصادق فعلموا أن كل ذلك حق وأنه من عند الله سبحانه وسمعوا له وأطاعوا ورضوا به وقرت أعينهم، والله أعلم.

وقوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾ أي وكما هديناكم أيها المؤمنون بمحمد صلى الله عليه وسلم وبما جاءكم به من عند الله ووفقناكم لاتباع ملة إبراهيم والاتجاه لقبلة وفضلناكم بذلك على سائر الملل فكذلك أيضاً جعلناكم أمة وسطاً.

❖ **وقيل:** راجع إلى إبراهيم عليه السلام، فالمعنى: وكما اصطفيناه في الدنيا فكذلك أيضاً جعلناكم أمة وسطاً.

❖ **وقال بعض العلماء:** وكما هديناكم إلى الكعبة التي هي وسط الأرض فكذلك أيضاً جعلناكم أمة وسطاً.

والقول الأول أولى، والله أعلم.

هذا، ومعنى الوسط العدل ففي الصحيح من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال: «الوسط العدل»^(١).

والوسط أيضًا يطلق على الأفضل والأشرف ومنه قوله تعالى: ﴿حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَى﴾.

وقوله تعالى: ﴿قَالَ أَوْسَطُهُمُ الرَّاقِلُ لَكُمُ لَوْلَا تُسَيِّحُونَ﴾.

* وأمة محمد ﷺ أمة وسط بين الأمم أيضًا من باب آخر فلا هم أهل غلو كالنصارى الذين غالوا في عيسى عليه السلام، وقالوا إنه ابن الله أو أنه هو الله أو أنه ثالث ثلاثة ولا أهل جحود وتقصير وانتقاص وكذا كاليهود الذين قالوا في شأن عيسى قولاً عظيماً ورموا أمه بالبهتان العظيم.

بل أمة محمد وسط في شأن عيسى عليه السلام فهو عبد الله ورسوله وكلمته ألقتها إلى مريم وروح منه، وهو وجيه في الدنيا والآخرة ومن المقربين، وأمه صديقة جعلها الله وابنها آية للعالمين وكذا فإن أهل السنة والجماعة وسط بين سائر الفرق فلا هم أهل إرجاء ولا هم خوارج وكذا فليسوا بنواصب يطعنون في أهل البيت وليسوا بروافض يطعنون في صحابة رسول الله ﷺ وفي الشيخين أبي بكر وعمر رضي الله عنهما.

ولمزيد في هذا راجع كتابي التسهيل.

أما قوله تعالى: ﴿لَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾.

أما شهادة أمة محمد على الناس فتكون في الدنيا والآخرة.

أما كونها في الآخرة فلقول الله ﷻ: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيدًا﴾^(٤١) يَوْمَئِذٍ يَوْمُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَعَصُوا الرَّسُولَ لَوْ تَسَوَّى بِهِمُ الْأَرْضُ وَلَا يَكْنُمُونَ اللَّهَ حَدِيثًا ﴿[النساء: ٤١، ٤٢].

(١) أخرجه البخاري في صحيحه.

✽ أما كونها في الدنيا فلما أخرجه البخاري ^(١) ومسلم من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه قال: مروا بجنزة فأتوا عليها خيراً فقال النبي ﷺ: «وجبت» ثم مروا بأخرى فأتوا عليها شراً فقال: «وجبت» فقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: ما وجبت؟ قال: «هذا أثنتم عليه خيراً فوجبت له الجنة، وهذا أثنتم عليه شراً فوجبت له النار، أنتم شهداء الله في الأرض»، وفي رواية مسلم: «أنتم شهداء الله في الأرض، أنتم شهداء الله في الأرض، أنتم شهداء الله في الأرض».

وأمة محمد ﷺ تشهد على الأمم بأن رسلهم قد بلغوهم رسالات الله ﻋَﻠَﻴْﻬِﻢُ السَّلَامُ، ويدل على ذلك ما أخرجه البخاري من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «يُدعى ^(٢) نوح يوم القيامة فيقول: لبيك وسعديك يا رب فيقول: هل بلغت؟ فيقول: نعم، فيقال لأمته: هل بلغكم؟ فيقولون: ما أتانا من نذير فيقول: من يشهد لك؟ فيقول: محمد وأمته فيشهدون أنه قد بلغ» ويكون الرسول عليكم شهيداً، فذلك قوله جل ذكره: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِنَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ [البقرة: ١٤٣]. والوسط العدل.

أما بماذا يشهد رسول الله ﷺ على أمته فجوابه أنه يشهد على أمته بأنهم قد فعلوا ما أمروا بفعله إذا هم فعلوه، وبعض أهل العلم يقول: ﴿عَلَيْكُمْ﴾ هنا بمعنى: لكم، أي: يشهد لكم بالإيمان، والله أعلم.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنْتَ عَلَيْهَا﴾ أي القبلة الأولى التي كنت تصلي إليها وهي بيت المقدس، أي وما جعلناك تصلي إليها ثم حولناك عنها ﴿إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّنْ يَنْقَلِبُ عَلَى عَقْبَيْهِ﴾.

أما قوله: ﴿إِلَّا لِنَعْلَمَ﴾ فأقول وبالله التوفيق: إن الله عز وجل يعلم كل شيء قبل

(١) البخاري (مع الفتح ٣ / ٢٢٨)، ومسلم (مع النووي ٧ / ١٨).

(٢) أخرجه البخاري (حديث ٤٤٨٧).

وقوعه وعند وقوعه وبعد وقوعه فهو سبحانه العليم ولا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء وهو عالم الغيب والشهادة.

أما عن معنى: ﴿إِلَّا لِنَعْلَمَ﴾ قال الشنقيطي رحمه الله تعالى في كتابه أضواء البيان: ومعنى ﴿إِلَّا لِنَعْلَمَ﴾ أي علما يترتب عليه الثواب والعقاب فلا ينافي أنه كان عالماً به قبل ذلك، وفائدة الاختبار ظهور الأمر للناس أما عالم السر والنجوى فهو عالم بكل ما سيكون كما لا يخفى.

وقال الطبري رحمه الله: أما معناه عندنا فإنه وما جعلنا القبلة التي كنت عليها إلا ليعلم رسولي وحزبي وأوليائي من يتبع الرسول ممن ينقلب على عقبيه فقال جل ثناؤه ﴿إِلَّا لِنَعْلَمَ﴾ ومعناه ليعلم رسولي وأوليائي والله أعلم.

قلت (مصطفى) أما قوله: ﴿مَنْ يَتَّبِعُ الرَّسُولَ﴾ أي من يطيعه ويسمع له ويمثل ﴿مَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقْبَيْهِ﴾ أي ممن يرد عن دينه بسبب أمر كتحويل القبلة أو أي ابتلاء آخر.

وقوله: ﴿وَإِنْ كَانَتْ لَكَبِيرَةً﴾ أي مسألة تحويل القبلة شاقة على نفوس البعض ﴿إِلَّا عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ﴾ أي إلا على الذين ثبتهم الله عز وجل على الإيمان ووفقهم لطريق الجنة والاستقامة فالأمر عليهم يسيراً لأنهم موقنون برسالة النبي محمد ﷺ ويعلمون أنه لا ينطق عن الهوى وهم سامعون مطيعون لله على آية حال.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ﴾ أي وما كان الله ليذهب ويضيع ثواب صلاة إخوانكم الذين صلوا إلى بيت المقدس وماتوا قبل أن تحوّل القبلة، وكذلك ما كان الله ليضيع ثواب صلاتكم أنتم التي صليتموها إلى بيت المقدس قبل أن تحوّل القبلة، وذلك لأنكم ومن مات منكم من الذين ماتوا قبل تحويل القبلة كنتم ممثلين لأمر الله مصدقين بأنه وجهكم إلى بيت المقدس في صلاتكم فلم يكن الله ليضيع ثوابكم هذا وقوله: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ﴾ وكيف يفهم إذا نزلناه على الذين ماتوا قبل تحويل القبلة، أي لم يقل وما كان الله ليضيع إيمانهم،

وعبر بقول ﴿إِيْمَنْكُمْ﴾ فجوب ذلك أن الذين صلوا إل القبلة الأولى وماتوا ليسوا بمحل للخطاب بعد موتهم فقد اقتصروا إلى ما قدموا ولكن خوطب الموجودون الأحياء، وأيضاً لأن المسلمين جسدٌ واحد فقوله ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضَيِّعَ إِيْمَنْكُمْ﴾ كقوله ﴿وَلَا نَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ﴾ أي لا تعيبوا إخوانكم، وكقوله: ﴿لَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنْفُسِهِمْ خَيْرًا﴾ أي بإخوانهم.

هذا، وختام الآية الكريمة بقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرُءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ قال الطبري بيان ذلك الختام: وإنما أراد جلّ ثناؤه بذلك أن الله ﷻ أرحم بعباده من أن يضيع لهم طاعة أطاعوه بها فلا يثيبهم عليها، وأرأف بهم من أن يؤاخذهم بترك ما لم يفرضه عليهم، أي: ولا تأسوا على موتاكم الذين ماتوا وهم يصلون إلى بيت المقدس فإني لهم على طاعتهم إياي بصلاتهم التي صلوها كذلك مثيبٌ لأنّي أرحم بهم من أن أضيع لهم عملاً عملوه لي، ولا تحزنوا عليهم فإني غير مؤاخذهم بتركهم الصلاة إلى الكعبة لأنّي لم أكن فرضت ذلك عليهم، وأنا أرأف بخلقّي من أن أعاقبهم على تركهم ما لم أمرهم بعمله، والله أعلم.

هذا، وسبب نزول قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضَيِّعَ إِيْمَنْكُمْ﴾ هو ما أخرجه البخاري ^(١) في «صحيحه» من حديث البراء بن عازب رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم صلى إلى بيت المقدس ستة عشر شهراً أو سبعة عشر شهراً، وكان يعجبه أن تكون قبلته قبل البيت وأنه صلى - أو صلاها - صلاة العصر وصلى معه قوم فخرج رجل ممن كان صلى معه فمرّ على أهل المسجد وهم راكعون قال: أشهد بالله لقد صليت مع النبي صلى الله عليه وسلم قبل مكة فداروا كما هم قبل البيت وكان الذي مات على القبلة قبل أن تحوّل قبل البيت رجال قتلوا لم ندر ما نقول فيهم فأنزل الله: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضَيِّعَ إِيْمَنْكُمْ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرُءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ [البقرة: ١٤٣].
قوله تعالى: ﴿قَدْ زَيَّ تَقَلُّبَ وَجْهَكَ فِي السَّمَاوَاتِ﴾.

(١) أخرجه البخاري (حديث ٤٤٨٦).

﴿قَدْ﴾ هنا للتحقيق، والمعنى أننا نرى تقلب وجهك في السماء أي تحوله وتنقله ناظرًا إلى السماء وفي اتجاه السماء أمّا لماذا كان يوجّه بصره إلى السماء فلأن رسول الله ﷺ كان يرغب في نزول الوحي بالتحويل من بيت المقدس إلى الكعبة، وقال بعض العلماء: إن تقلبيه وجهه ﷺ بمعنى الدعاء، والله أعلم.

وقد ذكر العلماء بعض الأسباب التي كان رسول الله ﷺ لأجلها يدعو الله أن يحول القبلة إلى مكة، منها مخالفة أهل الكتاب، ومنها كون الكعبة هي قبلة إبراهيم عليه السلام، ومنها تفادي ما يقوله المشركون، إذ كانوا يقولون يزعم أنه على ملة إبراهيم ويخالف قبلته ويتجه إلى غير بيته، وكان اليهود يقولون إنه يخالفنا ومع ذلك يتجه إلى قبلتنا والله أعلم.

هذا، ويلفت النظر هنا إلى أمر وهو أنه لا يشرع رفع البصر إلى السماء في الصلاة والنصوص الواردة في المنع تدل على التحريم ففي صحيح مسلم من حديث جابر بن سمرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لينتهين أقوام يرفعون أبصارهم إلى السماء في الصلاة أو لا ترجع إليهم».

❦ وأخرج مسلم أيضًا من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «لينتهين أقوام عن رفعهم أبصارهم عند الدعاء في الصلاة إلى السماء أو لتخطفن أبصارهم»^(١).

أما إلى أين ينظر المرء في صلاته؟ فيرى بعض أهل العلم أن المصلي ينظر إلى الأمام لقول الله تبارك وتعالى ﴿فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ﴾ [البقرة: ١٤٤].

أما عن دفع الإشكال الذي قد يرد على البعض من فهمهم ﴿قَدْ زَرَى ثَقَلُ بْنُ وَجْهَكَ فِي السَّمَاءِ﴾ فليس في الآية ما يفيد أن ذلك كان في الصلاة هذا من ناحية وقوله تعالى: ﴿فَلَنَوَلِّيَنَّكَ﴾ أي فلنوجهنك في صلاتك ولنأمرنك بالتوجه ﴿قِبْلَةً﴾

(١) أخرجه مسلم (حديث ٤٢٩) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعًا.

تَرْضَاهَا ﴿ أَيُّ إِلَى قِبَلَةِ تَحِبُّهَا وَتَهْوَاهَا وَتَرْضَاهَا وَهِيَ الْكَعْبَةُ وَذَلِكَ لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ [البقرة: ١٤٤]، وتقدم في حديث البراء أيضًا ما يفيد ذلك، وفيه أن الرجل قال: ... أشهد بالله لقد صليت مع رسول الله ﷺ قَبْلَ مَكَّةَ فداروا كما هم قَبْلَ الْبَيْتِ.

وقوله تعالى: ﴿فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ أي اتجه بوجهك واصرف بصرك وحوله ناحية المسجد الحرام وفي أي مكان كنت في الأرض وأردت الصلاة فاتجه بوجهك ناحية المسجد الحرام إلى الكعبة البيت الحرام، فهذا قوله: ﴿وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ﴾ قال الحافظ ابن كثير في معناها: أمر الله تعالى باستقبال الكعبة من جميع جهات الأرض شرقًا وغربًا وشمالًا وجنوبًا ولا يستثنى من هذا شيء سوى النافلة في حال السفر فإنه يصليها حيث توجه قلبه وقلبه نحو الكعبة، وكذا في حال المسابقة في القتال يصلي على كل حال، وكذا من جهل جهة القبلة يصلي باجتهاده وإن كان مخطئًا في نفس الأمر لأن الله تعالى لا يكلف نفسًا إلا وسعها.

* وقوله تعالى: ﴿وَإِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ﴾ وهم اليهود والنصارى ﴿يَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ﴾ أي يعلمون أن التوجه والتحول إلى المسجد الحرام هو الحق الذي أنزله الله عز وجل وفرضه على إبراهيم عليه السلام وذريته وسائر عباده من بعده.

وقيل: ﴿أَنَّهُ الْحَقُّ﴾ أي رسول الله ﷺ رسول من عند الله حقًا.

* **وقيل:** إنه يرجع إلى القرآن، والقرآن بما فيه من أمر المسلمين بالتحول إلى المسجد الحرام يعلم أهل الكتاب أن القرآن حق من ربهم فإنهم يعلمون يقينا من كتبهم أن رسول الله ﷺ محمدًا نبي الله حقًا وأنه لا يقول إلا صدقًا ولا يفعل إلا ما أمر به فما قاله وفعله حق، فلما تحول النبي ﷺ إلى الكعبة وهم يعلمون إجمالاً أن أفعاله حق، كانوا يعلمون إذن أن تحوُّله حق.

✽ ويعلمون أيضًا من دينهم جواز النسخ وإن كانوا يُكابرون في ذلك، والله أعلم.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا اللَّهُ بِغَفِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ﴾ مفاده أن الله عز وجل ليس بساه ولا غافل ﴿عَمَّا يَعْمَلُونَ﴾ عما يفعله هؤلاء اليهود والنصارى من كتمان الحق والتشويش على العباد لصرفهم عن دينهم وتشكيكهم فيه.

ثم يبين الله عز وجل أن أهل الكتاب الذين سبق في علم الله أنهم سيموتون على الكفر لن تنفع معهم الآيات ولن تجدي مهما جاءتهم من معجزات فهذا قوله: ﴿وَلَيْنَ آتَيْتَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ بِكُلِّ آيَةٍ مَا تَبِعُوا قِيلَتَكَ﴾ وهي كقوله تعالى: ﴿وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا مِّنَ السَّمَاءِ فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ﴾ ﴿١٤﴾ لَقَالُوا إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَارُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ﴾ [الحجر: ١٤، ١٥].

✽ وقول الله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ ﴿١٦﴾ وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّى يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾ [يونس: ٩٦، ٩٧].

✽ وقوله تعالى: ﴿وَمَا تَغْنِي الْآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَنْ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [يونس: ١٠١].
وقوله تعالى: ﴿وَمَا أَنْتَ بِتَابِعٍ قِيلَتُهُمْ﴾ حاصل معناه أنك لن تتوجه بعد ذلك (أي بعد نزول آية تحويل القبلة) في صلاتك إلى بيت المقدس، ولن ينسخ الأمر بالتوجه إلى القبلة فلتنقطع أطماع اليهود والنصارى في رجوعك إلى قبلتهم يا رسول الله وفيه بيان شدة اتباع رسول الله ﷺ لأمر الله عز وجل وحسن امتثاله.

هذا، وفي إخبار الله عز وجل نبيه ﷺ أن اليهود والنصارى لن يتبعوا قبلته، فيه إراحة بال النبي ﷺ وإبعاد الشغل والفكر عنه في هؤلاء، أي لا تنشغل بهم ولا تفكر فيهم، وأيضًا فإنهم أعني اليهود والنصارى لا يجتمعون على قبلة واحدة قال تعالى ﴿وَمَا بَعْضُهُمْ بِتَابِعٍ قِبَلَةَ بَعْضٍ﴾.

✽ قال الطبري رحمه الله: وإنما يعني جل ثناؤه بذلك: أن اليهود والنصارى لا تجتمع على قبلة واحدة مع إقامة كل حزب منهم على ملتهم، فقال تعالى ذكره لنبيه

محمد ﷺ يا محمد لا تشعر نفسك رضا هؤلاء اليهود والنصارى فإنه أمر لا سبيل إليه لأنهم مع اختلاف مللهم لا سبيل لك إلى إرضاء كل حزب منهم من أجل أنك إن اتبعت قبلة اليهود أسخطت النصارى وإن اتبعت قبلة النصارى أسخطت اليهود، فدع ما لا سبيل إليه، وادعهم إلى ما لهم السبيل إليه من الاجتماع على ملتك الحنيفية المسلمة، وقبلتك قبلة إبراهيم والأنبياء من بعده. والله أعلم.

وقوله تعالى: ﴿وَلَكِنْ أَتَّبَعْتُ أَهْوَاءَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ إِنَّكَ إِذَا لَمِنَ الظَّالِمِينَ﴾ أي لئن سرت على مرادهم واتجهت لقبلتهم بعد نزول الوحي إليك بالتحول عن قبلتهم إنك إذن لمن الذين ظلموا أنفسهم وبخسوها حقها، فحق لنفسك أن تطمئن وأن تستقر في الجنة فإذا أوردتها لظى، وأوردتها الجحيم فقد ظلمتها وبخستها حقها من الأمن والطمأنينة.

(علماء اليهود والنصارى يعرفون صفة النبي ﷺ تمام المعرفة)

قال تعالى: ﴿الَّذِينَ آتَيْنَهُمُ الْكِتَابَ﴾ وهم علماء اليهود والنصارى ﴿يَعْرِفُونَهُ، كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ﴾ أي يعرفون النبي ﷺ كما يعرفون أبناءهم وفي هذا يقول الله سبحانه: ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْنُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ﴾.

[الأعراف: ١٥٧]

وقال سبحانه: ﴿مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَفَازَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ...﴾.

[الفتح: ٢٩]

❖ **وقال فريق آخر من العلماء:** إنه يرجع إلى البيت (أو القبلة) والمعنى: أن الأحرار من اليهود والعلماء من النصارى يعلمون أن البيت الحرام هو قبلتهم وقبله إبراهيم وقبله الأنبياء قبله^(١).

وقوله تعالى: ﴿وَإِنْ فَرِيقًا مِّنْهُمْ﴾ أي بعضهم ﴿لَيَكُونَنَّ الْحَقُّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ أي يعلمون أنه الحق، والمراد بالحق هنا صفة النبي ﷺ^(٢).

وقال آخرون: إن المراد بالحق الحق في أمر القبلة^(٣).

وقال غيرهم: المراد أنهم يكتُمون الحق بصفة عامة، فقد كتموا الحق في شأن محمد ﷺ وكتموا الحق في أمر القبلة، وكتموا الحق في حكم الزاني، إلى غير ذلك من أنواع الحق الذي كتموه.

وقوله تعالى: ﴿الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ﴾ أي هذا الذي أخبرناك به والذي أنزلناه عليك هو الحق من عند الله.

أما قوله تعالى: ﴿فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُخَلَّفِينَ﴾ أي من الشاكِّين في أمر القبلة ولم

(١) أخرج الطبري بإسناد حسن عن قتادة (٢٢٥٩) قال: قوله: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِشَيْءٍ مِّنَ الدُّنْيَا﴾ يقول: يعرفون أن البيت الحرام هو القبلة.

❖ وأخرج الطبري أيضًا (٢٢٦٤) بإسناد صحيح إلى ابن زيد في قوله: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِشَيْءٍ مِّنَ الدُّنْيَا﴾ كما يعرفون أبناءهم^(٢) [البقرة: ١٤٦] قال: اليهود يعرفون أنها هي القبلة مكة.

(٢) أخرج الطبري (٢٢٦٩) بإسناد حسن عن قتادة قوله: ﴿وَإِنْ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكُونَنَّ الْحَقُّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ١٤٦] فكتُموا محمدًا ﷺ.

(٣) قال الطبري رحمه الله: قوله: ﴿لَيَكُونَنَّ الْحَقُّ﴾ [البقرة: ١٤٦] وذلك الحق هو القبلة التي وجه الله ﷻ إليها نبيه محمدًا ﷺ، يقول فول وجهك شطر المسجد الحرام التي كانت الأنبياء من قبل محمد ﷺ يتوجهون إليها فكتُمها اليهود والنصارى، فوجه بعضهم شرقًا، وبعضهم بيت المقدس ورفضوا ما أمرهم الله به وكتموا مع ذلك أمر محمد ﷺ وهم يجدونه مكتوبًا عندهم في التوراة والإنجيل فأطلع الله ﷻ نبيه محمدًا ﷺ وأتمه على خيانتهم الله ﷻ وخيانتهم عباده وكتمانهم ذلك، وأخبر أنهم يفعلون ما يفعلون من ذلك على علم منهم بأن الحق غيره، وأن الواجب عليهم من الله جل ثناؤه خلافه فقال: ﴿لَيَكُونَنَّ الْحَقُّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ١٤٦] أن ليس لهم كتمانهم فيتعبدون معصية الله ﷻ.

يكن النبي ﷺ شاكاً ولكن المراد أمته (أمة الدعوة والتبليغ).

هذا وقد قال الطبري رحمه الله: فإن قال لنا قائل: أو كان النبي ﷺ شاكاً في أن الحق من ربه أو في أن القبلة التي وجهه الله إليها حق من الله تعالى ذكره حتى نهي عن الشك في ذلك، فقل له: ﴿فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشَكِّينَ﴾ [البقرة: ١٤٧]؟

قيل: ذلك من الكلام الذي تخرجه العرب مخرج الأمر أو النهي للمخاطب به، والمراد به غيره، كما قال جل ثناؤه: ﴿يَتَأَيَّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ﴾ [الأحزاب: ١] ثم قال: ﴿وَاتَّبِعْ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾ [الأحزاب: ٢] فخرج الكلام مخرج الأمر للنبي ﷺ والنهي له، والمراد به أصحابه المؤمنون به، وقد بينا نظير ذلك فيما مضى قبل بما أغنى عن إعادته.

وقوله تعالى: ﴿وَلِكُلِّ وِجْهَةٍ هُومُؤَلِّيٰهَا﴾ أي ولكل أهل ملة أو أهل دين قبله يتجهون إليها فليهودي قبله يتجه إليها وللنصراني قبله يتجه إليها، وقبلتكم أنتم أيها المؤمنون هي القبلة الحق، والله أعلم.

أما قوله تعالى: ﴿هُومُؤَلِّيٰهَا﴾ أي هو متجه إليها وموليها وجهه أي ولكل صاحب دين أو ملة قبله هو متجه إليها بوجهه وقيل إن قوله ﴿هُومُؤَلِّيٰهَا﴾ راجع إلى الله، والمعنى ولكل وجهة الله عز وجل موليه إياها.

وقوله تعالى: ﴿فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ﴾ أي بادروا بفعلها قبل وفاتكم كما قال تعالى ﴿وَسَارِعُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ وقوله تعالى: ﴿أَيْنَ مَا تَكُونُوا يَأْتِ بِكُمْ اللَّهُ جَمِيعًا﴾ أي في أي مكان كنتم في حياتكم أو بعد مماتكم يأتي بكم الله جميعاً ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ أي أن الله قادر على كل شيء، وقادر على أن يفعل ما يريد.

هذا، وقد أخرج البخاري ومسلم^(١) من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه، عن

(١) البخاري (٧٥٠٨) ومسلم (٢٧٥٧).

النبي ﷺ أنه ذكر رجلاً فيمن سلف - أو فيمن كان قبلكم - قال كلمة - يعني «أعطاه: الله ما لا وولداً - فلما حضرت الوفاة قال لبنيه: أي أب كنت لكم؟ قالوا: خير أب قال: فإنه لم يبتثر - أو لم يبتثر - عند الله خيراً وإن يقدر الله عليه يعذبه فانظروا إذا مت فاحرقوني حتى إذا صرت فحمًا فاسحقوني، أو قال: فاسحقوني - فإذا كان يوم ريح عاصف فأذروني فيها».

فقال نبي الله ﷺ: «فأخذ مواعيقهم على ذلك وربّي، ففعلوا ثم أذروه في يوم عاصف فقال الله ﷻ: كن فإذا هو رجل قائم، قال الله: أي عبي ما حملك على أن فعلت ما فعلت؟ قال: مخافتك أو فرّق منك» قال: «فما تلافاه أن رحمه عندها».

✽ ونحوه في «الصحيحين» أيضاً من حديث أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «أسرف رجل على نفسه فلما حضره الموت أوصى بنيه فقال: إذا أنا مت فأحرقوني ثم اسحقوني ثم اذروني في الريح في البحر، فوالله لئن قدر عليّ ربي ليعذبني عذاباً ما عذبه به أحداً قال: ففعلوا ذلك به فقال للأرض: أدّي ما أخذت فإذا هو قائم فقال له: ما حملك على ما صنعت؟ قال: خشيتك يا رب - أو قال: مخافتك - فغفر له بذلك»^(١).

وقوله تعالى: ﴿وَمَنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ أي من أي مكان خرجت إلى أي مكان توجهت فاتجه بوجهك إلى ناحية المسجد الحرام ﴿وَإِنَّهُ﴾ أي التوجه شطر المسجد الحرام ﴿لَلْحَقِّ مِنْ رَبِّكَ﴾ أي هو الحق الذي لا مرية ولا شك في أنه من عند الله سبحانه وتعالى: ﴿وَمَا اللَّهُ بِغَفِلٍ﴾ بساه ﴿عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ عن أعمالكم وأقوالكم، وهو سبحانه وتعالى مُحْصِيهَا لَكُمْ وسيجازيكم بها يوم القيامة.

* وقوله تعالى: ﴿وَمَنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ تكرر

(١) أخرجه البخاري (حديث ٣٤٨١)، ومسلم (حديث ٢٧٥٦ ص ٢١١٠).

للتأكيد ﴿وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ﴾ أينما كنتم ﴿فَقُولُوا وَجُوهَكُمْ سَطْرَةٌ﴾ فاتجهوا بوجوهكم إلى ناحيته ﴿لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ﴾ كي لا يكون للناس، والمراد بهم هنا أهل الكتاب أولاً ولا يمنع أن يدخل معهم غيرهم أما أهل الكتاب فقد قالوا اشتاق الرجل إلى بيت أبيه ودين قومه ﴿لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ﴾ فهذه الحجة هي مجادلة أهل الكتاب ومجادلة المشركين في شأن القبلة، أما أهل الكتاب فوجه جدالهم يتمثل في قولهم: إن كنت يا محمد تزعم أننا على باطل فلماذا تتجه إلى قبلتنا في صلاتك، أليس اتجأهك إلى قبلتنا في صلاتك يؤكد أننا على الحق وأن قبلتنا هي الصواب؟! فوجه الله نبيه ﷺ إلى الاتجاه إلى البيت الحرام لقطع هذه الحجة.

وتتمثل مجادلة أهل الكتاب أيضاً في أنهم يجدون في كتبهم أن هذا النبي ﷺ سيكون من أمره أن يصلي إلى الكعبة، فلما لم يتجه رسول الله في صلاته إلى الكعبة يبقى في نفوسهم شك في صفته وصفة أفعاله فقطعا لهذا الاحتجاج أمر الله نبيه ﷺ بالاتجاه إلى البيت الحرام، أما مجادلة أهل الشرك فتتمثل في قولهم: إن كنت يا محمد تزعم أنك أولى الناس بإبراهيم لكونك من ولده ﷺ فلماذا تنحرف عن قبلته وتتجه إلى بيت المقدس، فقطع الله ﷻ حجة المشركين هذه بأن أمر نبيه ﷺ بالاتجاه إلى البيت الحرام، لكن بقي لطوائف من الذين ظلموا نوع احتجاج سيرد في محله قريباً إن شاء الله.

أما قوله تعالى: ﴿إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ﴾ فمنهم من قال هم مشركوا قريش ومنهم من قال أعم من ذلك.

وقوله: ﴿فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِي﴾ أي لا تخشوا جدالهم في قولهم إن محمداً رجع إلى قبلتنا وسيرجع إلى ديننا ولكن اخشوني وخافوا عقابي في خلافكم أمري إن خالفتموه.

وقوله: ﴿وَلَا تُتِمَّ نِعْمَتِي عَلَيْكُمْ﴾ بتوجيهكم إلى قبلة إبراهيم ﷺ ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ تُرشدون للصواب من أمر القبلة.

وقوله تعالى: ﴿كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِّنكُمْ﴾ يحتمل أن يعود على ما قبله، أي هديتكم للقبلة كما أرسلت إليكم رسولاً منكم ووجه آخر أي: كما أنعمت عليكم بإجابة دعوة خليلي إبراهيم لكم إذ دعا فقال: ﴿رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ...﴾ [البقرة: ١٢٨]، وقال: ﴿رَبَّنَا وَأَبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ...﴾ [البقرة: ١٢٩]، فأرسلت فيكم رسولاً منكم، فكما أرسلت فيكم رسولاً منكم فكذا أتممت عليكم هدايتي بأن وجهتكم إلى قبلة إبراهيم ﷺ.

وقوله تعالى: ﴿يَتْلُوا عَلَيْكُمْ ءَايَاتِنَا﴾ يذكرها عليكم ويذكركم بها ﴿وَيُزَكِّيْكُمْ﴾ يطهركم من رذائل الأخلاق ومن الشرك وأدناس الجاهلية وقذرها ﴿وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ﴾ القرآن ﴿وَالْحِكْمَةَ﴾ السنة ووضع الشيء في موضعه ﴿وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ﴾ من أخبار الأنبياء وقصص الأمم الخالية وأخبار ما هو آت وعقائد التوحيد وعموم ما أخبر الله به ورسوله ﷺ.

وقوله تعالى: ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ﴾ اذكروني في أنفسكم أذكركم في نفسي، واذكروني في ملاء أذكركم في ملاء خير منهم واذكروا نعمي واشكروها أذكركم بفضلي وأزيدكم وثم وجوه أخر.

وقوله تعالى: ﴿وَأَشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ﴾ احمّدوني على نعمي ولا تجحدونها.

قال الطبري رحمه الله: القول في تأويل قوله تعالى: ﴿وَأَشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ﴾ [البقرة: ١٥٢].

يعني تعالى ذكره بذلك: اشكروا لي أيها المؤمنون فيما أنعمت عليكم من الإسلام، والهداية للدين الذي شرعته لأنبيائي وأصفياي، ﴿وَلَا تَكْفُرُونِ﴾ [البقرة: ٢٥١]، يقول: ولا تجحدوا إحساني إليكم، فأسلبكم نعمتي التي أنعمت عليكم، ولكن اشكروا لي عليها، وأزيدكم فأتكم نعمتي عليكم، وأهديكم لما هديت له من رضيت عنه من عبادي، فإني وعدت خلقي أن من شكر لي زدت، ومن كفرني حرمته

وسلبته ما أعطيته.

ومعلوم أن النعم تستلزم الشكر، ومن الأدلة على ذلك ما يلي :

✽ لما اصطفى الله ﷻ مريم ﷺ اصطفاً من وطهرها تطهيراً أمرها بالقنوت والسجود والركوع مع الراكعين كما قال سبحانه: ﴿يَمْرِمُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَكَ وَطَهَّرَكَ وَاصْطَفَكَ عَلَى نِسَاءِ الْعَالَمِينَ﴾ (٤٤) يَمْرِمُ أَقْنِي لِرَبِّكِ وَأَسْجُدِي وَأَرْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ ✽.

[آل عمران: ٤٢، ٤٣]

✽ ولما أنعم الله على نبينا محمد ﷺ بالرسالة قال له: ﴿يَا أَيُّهَا الْمُرْسَلُ﴾ (١) قُلِ الْبَلَدِ إِلَّا قَلِيلًا (٢) نَصَفَهُ أَوْ انْقَضَ مِنْهُ قَلِيلًا (٣) أَوْزِدْ عَلَيْهِ وَرَبُّهُ الْقُزَّاءَ تَرْتِيلًا ✽ [المزمل: ١-٤]، وكان ﷺ يقوم من الليل حتى ترم قدماه ويقول: «أفلا أكون عبداً شكوراً».

✽ ولما منَّ الله سبحانه على موسى بتكليمه واصطفائه على الناس بالرسالة والتكليم قال له: ﴿يَمُوسَىٰ إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالَتِي وَبِكَلِمِي فَخُذْ مَا آتَيْتُكَ وَكُن مِّنَ الشَّاكِرِينَ﴾ [الأعراف: ١٤٤].

✽ ولما منَّ الله على يحيى ﷺ بالنبوة قال له: ﴿يَحْيَىٰ خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ﴾.

[مريم: ١٢]

✽ ولما أنعم الله ﷻ على نساء نبيه ﷺ بالزواج من رسول الله ﷺ قال لهن: ﴿يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ النِّسَاءِ إِنِ اتَّقَيْتُنَّ فَلَا تَحْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ﴾ [الأحزاب: ٣٢] وقبلها قال تعالى: ﴿يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ مَن يَأْتِ مِنْكُنَّ بِفَاحِشَةٍ مُّبِينَةٍ يُضَعَفْ لَهَا الْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا﴾ (٣٠) ✽ وَمَن يَقْنُتْ مِنكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِ وَتَعْمَلْ صَالِحًا نُؤْتِهَا أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ وَأَعْتَدْنَا لَهَا رِزْقًا كَرِيمًا ✽.

[الأحزاب: ٣٠، ٣١]

✽ ولما أنعم الله ﷻ على نبيه وبشره بالكوثر كلفه بالصلاة والنحر، فقال تعالى: ﴿إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ﴾ (١) فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَأَنْحَرْ ✽ [الكوثر: ١، ٢].

✽ وأنعم الله على نبيه بالغنى بعد الفقر والهدى بعد الضلال وإيوائه وهو يتيم، ثم كلفه بأن لا يقهر اليتيم ولا ينهر السائل وأن يحدث بنعمة ربّه عليه، كما هو وارد في سورة الضحى: ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَى ۖ وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَى ۖ وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَى ۖ فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ ۙ وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ ۙ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ۚ﴾ [الضحى: ٦-١١].

✽ ومن الله ﷻ على ساكني قريش بالأمن فكلفهم بعبادته فقال: ﴿لَا يَلْفُ فُرَيْشَ ۙ إِيَّاهُمْ رَحَلَةُ الشَّتَاءِ وَالصَّيْفِ ۚ فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ ۚ الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَآمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ ۚ﴾ [قريش: ١-٤].



الأمر بالاستعانة بالصبر والصلاة والتذكير بما يفعل عند المصائب

قال الله عز وجل: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ ١٥٣﴾ وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمُوتَ بَلْ أحيَاءٌ وَلَكِنْ لَا تَشْعُرُونَ ١٥٤ وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ شَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ ١٥٥ الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمُ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ١٥٦ أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ ١٥٧﴾.

يُذكرنا ربنا سبحانه وتعالى بالاستعانة بالصبر والصلاة بقوله ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اسْتَعِينُوا﴾ اطلبوا العون من الله عز وجل ﴿بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ﴾ أي بالصبر على الأذى والمكره واحتمال البلاء والصلاة بما فيها من دعاء ورجاء وتوسل، وقد تكرر الأمر بذلك في عدة آيات كقوله تعالى: ﴿وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ﴾.

وكقوله تعالى: ﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفِي النَّهَارِ وَزُلْفًا مِّنَ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ذَلِكَ ذِكْرَى لِلذَّكِرِينَ ١١٤﴾ وَأَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴿هود: ١١٤﴾، وقوله تعالى: ﴿فَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ ٣٩﴾ وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَأَدْبَرَ السُّجُودِ ﴿ق: ٣٩، ٤٠﴾.

وقال الإمام ابن تيمية في كتابه «السياسة الشرعية»: وأعظم عون لولي الأمر خاصة، ولغيره عامة ثلاثة أمور:

أحدها: الإخلاص لله، والتوكل عليه بالدعاء وغيره. وأصل ذلك المحافظة على الصلاة بالقلب والبدن.

والثاني: الإحسان إلى الخلق بالنفع والمال الذي هو الزكاة.

والثالث: الصبر على الأذى من الخلق وغيره من النوائب.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ ينصرهم ويثبتهم ويحفظهم ويعينهم.
وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمُوتٌ﴾ أي لا تصفونهم بأنهم أموات ولا تقولوا عنهم إنهم أموات.
وقوله: ﴿بَلْ أَحْيَاءٌ وَلَكِنْ لَا تَشْعُرُونَ﴾ أي لا تشعرون بحياتهم لكونكم لا ترونهم.

وسياقي لمعنى الآية مزيد بيان عند قوله تعالى: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمُوتًا﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ﴾ ولنختبرنكم ﴿بَشْيٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ﴾ أي قلة من الأموال وموت ومرض وجذب في الأرض ونحو ذلك.

الأدلة على حتمية الابتلاءات كثيرة منها:

قوله تعالى: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ الْمُجْتَهِدِينَ مِنكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ﴾

[محمد: ٣١]

وقوله تعالى: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ﴾ الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمُ مُّصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ.

[البقرة: ١٥٥، ١٥٦]

وقوله تعالى: ﴿وَنَبْلُوَكُمْ بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً﴾ [الأنبياء: ٣٥].

وقال تعالى: ﴿إِنَّا بَلَوْنَهُمْ كَمَا بَلَوْنَا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ﴾ [القلم: ١٧].

وقوله تعالى: ﴿أَحْسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ﴾ [٢] وَلَقَدْ

فَتَنَّا الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلْيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلْيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ [العنكبوت: ٢، ٣].

❁ وقوله تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُتْرَكُوا وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَلَمْ يَتَّخِذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَا رَسُولِهِ وَلَا الْمُؤْمِنِينَ وَلِجَةً وَاللَّهُ خَيْرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾

[التوبة: ١٦]

❁ وقوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنْتَ عَلَيْهَا إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يَتَّبِعِ الرَّسُولَ مِمَّنْ يَنْقَلِبُ عَلَى عَقْبَيْهِ﴾ [البقرة: ١٤٣].

❁ وقوله تعالى في شأن خزنة جهنم: ﴿وَمَا جَعَلْنَا عَدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا...﴾.

[المدثر: ٣١]

❁ وقال سليمان عليه السلام لما رأى عرش ملكة سبأ مستقرًا عنده: ﴿هَذَا مِنْ فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَنْ شَكَرَ فَإِنَّمَا يَكُفِّرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ﴾ [النمل: ٤٠].

أما صور هذه الابتلاءات فمنها:

❁ ابتلاءات بالخوف والجوع ونقص من الأموال والأنفس والثمرات.

❁ ابتلاءات بالأمراض والأسقام.

❁ ابتلاءات ببقاء الجبابرة والظالمين.

❁ ابتلاءات بالناسخ والمنسوخ من الأحكام.

❁ ابتلاءات بالغنَى والفقر ^(١).

❁ وقوله تعالى: ﴿وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ﴾ بشرهم بما أعدَّه الله لهم في جنات النعيم وللصابر فضائل ذكرت في كتاب الله منها:

* قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ﴾.

* قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يُوفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾.

* قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾.

* قوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا﴾.

(١) وانظر في هذا كتابنا الصحيح المسند من أحاديث الفتن والملاحم وأشراط الساعة.

* قوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ﴾.
 * ومنها تسليم الملائكة على الصابرين، قال تعالى: ﴿وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ ۖ (٢٣) سَلَامٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ ۖ (٢٤)﴾.
 * ومنها مجازاة الصابر أحسن الجزاء قال تعالى: ﴿وَلَنَجْزِيَنَّهُ الَّذِينَ صَبَرُوا أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾.

هذا ويستحب للمبتلى أن يقول إذا أصابته مصيبة ﴿إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾ وذلك لقوله تعالى في كتابه ﴿الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾ (١٦٦) ﴿أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ﴾ [البقرة: ١٥٦، ١٥٧]. وما سنَّه لهم نبيهم محمد ﷺ فيما أخرجه مسلم في صحيحه من حديث أم سلمة رضي الله عنها قالت: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ما من مسلم تصيبه مصيبة فيقول ما أمره الله: إنا لله وإنا إليه راجعون اللهم أجرني في مصيبي وأخلف لي خيراً منها إلا أخلف الله له خيراً منها»، قالت: فلما مات أبو سلمة قلت: أي المسلمين خيراً من أبي سلمة، أول بيت هاجر إلى رسول الله ﷺ، ثم إنني قتلها فأخلف الله لي رسول الله ﷺ قالت: أرسل إلي رسول الله ﷺ حاطب بن أبي بلتعة يخطبني له فقلت له: إن لي بنتاً وأنا غيور، فقال: «أما ابنتها فندعو الله أن يغنيها عنها، وأدعو الله أن يذهب بالغيرة»^(١).

أما عن معنى ﴿الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾ فحاصل معناه

(١) أخرجه مسلم (مع النووي ٦ / ٢٢٠)، وفي رواية لمسلم من حديث أم سلمة أيضاً قالت: قال رسول الله ﷺ: «إذا حضرتم الميت فقولوا خيراً فإن الملائكة يؤمنون على ما تقولون» قالت: فلما مات أبو سلمة أتيت النبي ﷺ فقلت: يا رسول الله إن أبا سلمة قد مات، قال: فقولي: «اللهم اغفر لي وله وأعقبني منه عقبة حسنة» قالت: فقلت، فأعقبني الله من هو خير لي منه محمد ﷺ.

هذا وقد أخرج الطبري (أثر ٢٣٣١) بإسناد صحيح عن سعيد بن جبیر رحمه الله قال: ما أعطي أحد ما أعطيت هذه الأمة ﴿الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾ (١٦٦) ﴿أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ﴾ [البقرة: ١٥٦، ١٥٧] ولو أعطيها أحد لأعطيها يعقوب ﷺ ألم تسمع إلى قوله: ﴿يَتَأَسَّى عَلَى يَوْسُفَ﴾ [يوسف: ٨٤].

- والله أعلم - : إنا ممالك لله **سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى** وعبيد له يتصرف فينا كيف يشاء ويقبض منا إليه من شاء ويؤخر من يشاء ويتلي من يشاء وينعم على من يشاء، ثم إنا بعد موتنا صائرون إليه جميعاً يقضي فينا بما يشاء.

وقول الصابرين هذا صادر منهم على سبيل الاعتراف والإذعان والتسليم لقضاء الله سبحانه والرضا بأحكامه، ونحن هذا قال عدد من أهل العلم:

❖ **قال الطبري رحمه الله:** يعني تعالى ذكره: وبشر، يا محمد، الصابرين الذين يعلمون أن جميع ما بهم من نعمة فمني، فيقرون بعبوديتي، ويوحدوني بالربوبية، ويصدقون بالمعاد والرجوع إلي، فيستسلمون لقضائي، ويرجون ثوابي، ويخافون عقابي، ويقولون - عند امتحاني إياهم ببعض محني، وابتلائي إياهم بما وعدتهم أن أبتليهم به من الخوف والجوع ونقص الأموال والأنفس والثمرات وغير ذلك من المصائب التي أنا ممتحنهم بها -: إنا ممالك ربنا ومعبودنا أحياء، ونحن عبيده وإنا إليه بعد مماتنا صائرون - تسليماً لقضائي ورضاً بأحكامي.

❖ **وقال ابن الجوزي رحمه الله (زاد المسير ص ١٦٢):** ﴿قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ﴾ [البقرة: ١٥٦] يريدون نحن عبيده يفعل بنا ما يشاء ﴿وَأِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾ [البقرة: ١٥٦] يريدون نحن مقرون بالبعث والجزاء على أعمالنا والثواب على صبرنا.

وقوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ﴾ أي أولئك الصابرون عليهم ثناءات من ربهم ومغفرة من ربهم وعلو المنزلة عند ربهم ﴿وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ﴾ الذين هداهم الله ووقفهم لسلوك الطريق المستقيم الموصل لجنته ورضائه.



(ذكر الصفا والمروة والحج على الحج والعمرة)

قال الله عز وجل: ﴿ إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِن شَعَائِرِ اللَّهِ فَمَنْ حَجَّ
الْبَيْتَ أَوْ اعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطَّوَّفَ بِهِمَا وَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا
فَإِنَّ اللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ ﴾ (١٥٨).

قوله تعالى: ﴿ إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِن شَعَائِرِ اللَّهِ ﴾ أما الصفا والمروة فهما الجبلان المعروفان بمكة اللذان يسعى بينهما الحاج أو المعتمر.
وقوله تعالى: ﴿ مِن شَعَائِرِ اللَّهِ ﴾ أي من المعالم التي جعلها الله لعباده يذكرونه عندها، وإن كانت كلمة شعائر الله قد تطلق على أشياء أخر غير الصفا والمروة كما سيأتي عند قوله تعالى ﴿ لَا تَحِلُّوا شَعَائِرَ اللَّهِ ﴾ وكما قال تعالى: ﴿ وَالْبُدْنَ جَعَلْنَاهَا لَكُم مِّنْ شَعَائِرِ اللَّهِ ﴾ وغير ذلك، فشعائر الله هي أعلام دينه الظاهرة وأعمال دينه الظاهرة التي يذكر عندها اسم الله عز وجل.
وقوله تعالى: ﴿ فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوْ اعْتَمَرَ ﴾ أي من ذهب إلى مكة حاجًا أو معتمرًا ﴿ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطَّوَّفَ بِهِمَا ﴾ أي فلا إثم عليه إذا طاف بينهما أي إذا سعى بينهما ذاهبًا وآيبًا.

وقوله تعالى: ﴿ وَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا ﴾ أي ومن فعل خيرًا ﴿ فَإِنَّ اللَّهَ شَاكِرٌ ﴾ أي فإن الله يشكر له صنيعه ويشبهه عليه ﴿ عَلِيمٌ ﴾ بعمله وقوله ونواياه.

﴿ هذا وهنا أمورٌ ينبغي التنبيه عليها، أذكر منها ما يلي : ﴾

أولاً: قد يفهم شخص من الآية الكريمة، من قوله ﴿ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطَّوَّفَ بِهِمَا ﴾ أنه يجوز لشخص أراد الحج أو العمرة ألا يسعى بين الصفا والمروة لأن المفهوم المتبادر من الآية أنه إذا سعى بين الصفا والمروة لا يَأْثُم وهذا القدر لا يفيد وجوبًا!!

لكن هذا الفهم مردودٌ لأن النبي ﷺ قد سعى^(١) بينهما وقال «لتأخذوا عني مناسككم»^(٢) ولم يرد أن النبي ﷺ رخص لأحد في ترك السعي بينهما. هذا، وقد فهم عروة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ من الآية الكريمة فهما كالفهم المشار إليه وردته أم المؤمنين عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا وذلك واضح من سبب نزول الآية الكريمة ففي الصحيحين^(٣): من طريق عروة قال: سألت عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا فقلت لها: رأيت قول الله تعالى: ﴿إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوْ اعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطَّوَّفَ بِهِمَا﴾ [البقرة: ١٥٨] قلت: فوالله ما على أحد جناح ألا يتطوف بهما فقالت عائشة: بئسما قلت يا ابن أخي إنها لو كانت على ما أولتها عليه كانت فلا جناح عليه ألا يطوف بهما، ولكنها إنما أنزلت أن الأنصار كانوا قبل أن يسلموا كانوا يهلون لمناة الطاغية التي كانوا يعبدونها عند المشلل، وكان من أهل لها يتخرج أن يطوف بالصفاء والمروة فسألوا عن ذلك رسول الله ﷺ فقالوا يا رسول الله إنا كنا نتخرج أن نطوف بالصفاء والمروة في الجاهلية فأنزل الله عز وجل ﴿إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوْ اعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطَّوَّفَ بِهِمَا﴾ [البقرة: ١٥٨]، قالت عائشة ثم قد سنَّ رسول الله ﷺ الطواف بهما فليس لأحد أن يدع الطواف بهما.

وللآية سبب نزول آخر أخرجه البخاري ومسلم من حديث أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنه سئل عن الصفا والمروة فقال: كنا نرى أنهما من أمر الجاهلية، فلما كان الإسلام أمسكنا عنهما فأنزل الله تعالى: ﴿إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ﴾ [البقرة: ١٥٨] ولا مانع أن تكون نزلت لسبيين. والله أعلم.

ثانيًا: هذا الحرج الذي ارتفع بقوله تعالى ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطَّوَّفَ بِهِمَا﴾ يتمثل في أن الناس كانوا يطوفون في الجاهلية بين الصفا والمروة لصنمين كانا عليهما، فلما جاء الله ﷻ بالإسلام، وتركوا الأوثان والأصنام تخرجوا من الطواف

(١) سعى أي طاف.

(٢) مسلم (١٢٩٧).

(٣) البخاري (١٦٤٣)، ومسلم (١٢٧٧).

بهما، هكذا ذكر بعض أهل العلم^(١)، وقد تقدم قول الشعبي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في ذلك. وضح عن أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وقد سئل أكنتم تكرهون الطواف بين الصفا والمروة حتى نزلت هذه الآية؟ فقال: نعم كنا نكره الطواف بينهما، لأنهما من شعائر الجاهلية حتى نزلت هذه الآية ﴿إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِن شَعَائِرِ اللَّهِ﴾ [البقرة: ١٥٨].

✽ وضح عن ابن زيد^(٢) في قوله: ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطَّوَّفَ بِهِمَا﴾ [البقرة: ١٥٨] قال: كان أهل الجاهلية قد وضعوا على كل واحد منهما صنمًا يعظمونها فلما أسلم المسلمون كرهوا الطواف بالصفا والمروة لمكان الصنمين فقال الله تعالى: ﴿إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِن شَعَائِرِ اللَّهِ فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوِ اعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطَّوَّفَ بِهِمَا﴾ [البقرة: ١٥٨] وقرأ ﴿وَمَنْ يُعْظَمْ شَعِيرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى الْقُلُوبِ﴾ [الحج: ٣٢] وسن رسول الله ﷺ الطواف بهما.

وتقدم أثر عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا في ذلك قريبًا.

وروى الطبري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بإسناد حسن^(٣) إلى قتادة في قوله تعالى: ﴿إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِن شَعَائِرِ اللَّهِ﴾ [البقرة: ١٥٨] الآية، فكان حيي من تهامة في الجاهلية لا يسعون بينهما فأخبرهم الله أن الصفا والمروة من شعائر الله، وكان من سنة إبراهيم وإسماعيل الطواف بينهما.

قلت: فحاصل الحرج - على ما ذكره أهل العلم - يتلخص في الآتي:

✽ منهم من كان يتحرج لكون صنمين كانا عليهما (أي: على الصفا والمروة).
✽ ومنهم من كان يتحرج لكونه أهلًا لمناة الطاغية التي عند المشلل، وكان من أهل لها تحرج من السعي بين الصفا والمروة.

(١) وصاغه بعضهم بصياغة أخرى فقال: ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطَّوَّفَ بِهِمَا﴾ [البقرة: ١٥٨] أي: لا حرج ولا إثم عليه أن يسعى بينهما، فإذا كان المشركون يسعون بينهما ويتمسحون بالأصنام فاسعوا أنتم لله رب العالمين ولا تتركوا الطواف بينهما خشية التشبه بالمشركون.

(٢) أخرجه الطبري (٢٣٤٥) بإسناد صحيح إلى ابن زيد، وهو وإن كان صحيحًا إلى ابن زيد إلا أنه إلى رسول الله ﷺ مرسل، بل معضل لكون ابن زيد بينه وبين رسول الله ﷺ بونٌ بعيد لكني أرى أن هذا تفسيرٌ من ابن زيد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لسياق الآية الكريمة.

(٣) الطبري (أثر ٢٣٤٨).

❖ ومنهم من كان يتحرج لكونه كان لا يسعى بينهما في الجاهلية أصلاً.

الأمر الثالث: لم يكن هناك منعٌ للسعي بين الصفا والمروة في وقت من الأوقات وقد نقل الطبري رحمه الله تعالى في تفسيره إجماع الجميع على أن الله تعالى ذكره لم يحظر ذلك في وقت من الأوقات والله تعالى أعلم.

الأمر الرابع: ذكر بعض أهل العلم أن أصل السعي بين الصفا والمروة مأخوذ من سعي هاجر عليها السلام بين الصفا والمروة وقد ذكر ذلك عبد الله بن عباس رضي الله عنه فيما أخرجه البخاري ^(١) من قصة هاجر عليها السلام لما تركها الخليل إبراهيم عليه السلام في مكة مع إسماعيل عليهما السلام ففي الأثر الذي أخرجه البخاري عن ابن عباس رضي الله عنه قال فذكر الأثر وفيه فانطلق إبراهيم حتى إذا كان عند الشية حيث لا يرونه استقبل بوجهه البيت ثم دعا بهؤلاء الكلمات ورفع يديه فقال: ﴿رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ﴾ حتى بلغ ﴿يَشْكُرُونَ﴾ [إبراهيم: ٣٧] وجعلت أم إسماعيل ترضع إسماعيل وتشرب من ذلك الماء، حتى إذا نفذ ما في السقاء عطشت وعطش ابنها، وجعلت تنظر إليه يتلوى - أو قال: يتلبط - فانطلقت كراهية أن تنظر إليه، فوجدت الصفا أقرب جبل في الأرض يليها، فقامت عليه، ثم استقبلت الوادي تنظر هل ترى أحداً، فلم تر أحداً، فهبطت من الصفا، حتى إذا بلغت الوادي رفعت طرف ذراعها، ثم سعت سعي الإنسان المجهود حتى جاوزت الوادي، ثم أتت المروة فقامت عليها فنظرت هل ترى أحداً؛ فلم تر أحداً، ففعلت ذلك سبع مرات.

قال ابن عباس قال النبي ﷺ: «فذلك سعي الناس بينهما».

هذا، وقد قال الحافظ ابن كثير رحمه الله تعالى: وقد تقدم في حديث ابن عباس أن أصل ذلك مأخوذ من طواف هاجر وتردادها بين الصفا والمروة متذلة خائفة وجلة مضطرة فقيرة إلى الله ﷻ حتى كشف الله كربتها وأنس غربتها وفرج شدتها وأنبع لها زمزم التي ماؤها (طعام طعم وشفاء سقم) فالساعي بينهما ينبغي له أن يستحضر فقره وذله وحاجته إلى الله في هداية قلبه وصلاح حاله وغفران ذنبه، وأن

(١) البخاري (٣٣٦٤).

يلتجئ إلى الله ﷻ لتفريج ما هو به من النقائص والعيوب، وأن يهديه إلى الصراط المستقيم وأن يثبت عليه إلى مماته وأن يحوله من حاله الذي هو عليه من الذنوب والمعاصي إلى حال الكمال والغفران والسداد والاستقامة كما فعل بهاجر عليه السلام.

الأمر الخامس: لم يرد فيما علمت عن رسول الله ﷺ أنه سعى تطوعاً بين الصفا والمروة.

وقوله تعالى: ﴿وَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا﴾ حاصل معناه ومن حج تطوعاً بعد قضاء حجته الواجبة عليه أو اعتمر تطوعاً فإن الله شاكر له على تطوعه ومثيبه على ذلك عليم بنواياه.

الأمر السادس: يبدأ الساعي بين الصفا والمروة بالصفا.

الأمر السابع: يُشرع الذكر عند صعود الصفا والمروة والدعاء عليهما إذا صعد، وذلك لما أخرجه مسلم^(١) في صحيحه من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنهما في وصف حجة رسول الله ﷺ قال جابر ثم خرج.

الأمر الثامن: يستحب أن يُسرع الناس بالمشي في المنطقة من المسعى التي بين العلامتين الخضراوين لقول النبي ﷺ: «لَا يَقْطَعُ الْأَبْطَحُ إِلَّا شِدًّا»^(٢)، وأيضاً لما تقدم في حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنهما أن النبي ﷺ نزل إلى المروة حتى إذا انصبت قدماه في بطن الوادي سعى حتى إذا صعدتا مشى... الحديث، والله تعالى أعلم.

الأمر التاسع: اختلف العلماء في حكم السعي بين الصفا والمروة هل هو واجب يُجبر إذا ترك يدم أم أنه ركن لا تتم العمرة ولا يتم الحج إلا به وتفصيل ذلك في موضع آخر، انظره في كتاب التسهيل إن شئت وبالله التوفيق.

(١) مسلم (حديث ١٢١٨).

(٢) أخرجه أحمد (٤٠٥ / ٦)، والنسائي (٢٤٢ / ٥)، والبيهقي في الكبرى (٩٨ / ٥) من طريق بديل ابن ميسرة عن المغيرة بن حكيم عن صفية بنت شيبة عن امرأة مرفوعاً، وهذا إسناد صحيح، فالمرأة صحابية (إذ قد أفادت أنها رأت رسول الله ﷺ).

وقد روي الحديث (عند أحمد ٤٠٤ / ٦) وابن ماجه (٢٩٨٧) وغيرهم من طريق بديل بن ميسرة عن صفية بنت شيبة عن أم ولدٍ لشيبة أنها رأت رسول الله ﷺ... فذكرت الحديث، وفيه أن النبي ﷺ قال: «لَا يَقْطَعُ الْأَبْطَحُ إِلَّا شِدًّا»، وهذا خلاف لا يضر سواء أثبت المغيرة أو حذف، والله أعلم.

(التحذير من كتمان العلم والحث على التوبة والبيان)

قال الله عز وجل: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَىٰ مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ أُولَٰئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّعِينُونَ ۝١٥٩ إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَبَيَّنَّوْا فَأُولَٰئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَأَنَا التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ۝١٦٠﴾

قوله تعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَىٰ مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ أُولَٰئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّعِينُونَ ۝١٥٩﴾.

هذه الآية الكريمة فيها وعيدٌ شديدٌ لعلماء اليهود والنصارى الذين علموا صفة النبي محمد ﷺ وعلموا أنه رسول الله حقاً وأن ما جاء به هو الحق من عند الله وكتبوا ذلك كله وكتبوا ما به هداية للناس فتوعدهم الله بهذا الوعيد الشديد، فقوله: ﴿الْبَيِّنَاتِ﴾ الدلالات الواضحات النيرات على نبوة نبينا محمد ﷺ وقوله: ﴿وَالْهُدَىٰ﴾ المراد به كل ما فيه هداية الناس وذلك مما أنزله الله عز وجل وقوله: ﴿مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ﴾ أي من بعد ما بيناه للناس ومنهم اليهود والنصارى ﴿فِي الْكِتَابِ﴾ أي في التوراة والإنجيل فالكتاب اسم جنس والمراد به هنا التوراة والإنجيل.

وقوله: ﴿أُولَٰئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّعِينُونَ﴾ أما اللاعنون فهم على قول أكثر أهل العلم - الملائكة والناس وذلك لقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ أُولَٰئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ [البقرة: ١٦١].

وقال تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أُولَٰئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَىٰ رَبِّهِمْ وَيَقُولُ الْأَشْهَادُ هَٰؤُلَاءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَىٰ رَبِّهِمْ أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ﴾

وقال تعالى: ﴿ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَمَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا﴾ [العنكبوت: ٢٥].

* ثم إن الله عز وجل يفتح باب التوبة أمام مريدها وأمام كل مذنّب من الذنّب الذي اقترفه فيقول تعالى: ﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَبَيَّنُّوا فَأُولَٰئِكَ أَثُوبٌ عَلَيْهِمْ وَأَنَا التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾.

فهؤلاء الذين تابوا من كتمان العلم تفتح لهم أبواب التوبة، وكلمة أستغفر الله لا تكفيهم في هذا المقام، بل عليهم أن يبينوا الحق وأن يصلحوا بعد ما صدر منهم الذي صدر فهؤلاء الذين تابوا وأصلحوا ويبنوا يتوب الله عليهم. قال الطبري رحمه الله في قوله تعالى: ﴿وَأَنَا التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ أي: كثير التوبة على عبادي واسع الرحمة بهم أصفح عما فرط منهم من السيئات.

تنبيهات:

أولها: الآية وإن كانت تُذكر اليهود والنصارى بما صنعوه من كتمان وتبين عقوبة من كتم الحق ولكنها بعمومها تشمل كل كاتم للعلم النافع كما بينا وفي معناها من الآيات ما يلي:

❖ قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنْ الْكِتَابِ وَيَشْتُرُونَ بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَٰئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ إِلَّا النَّارَ﴾ [البقرة: ١٧٤].

❖ وقوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لُبِّيْنُهُ، لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ، فَبَدُّوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ وَأَشْرَوْا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَبُخْسَ مَا يَشْتُرُونَ﴾.

[آل عمران: ١٨٧]

عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قَالَتْ مَنْ حَدَّثَكَ أَنَّ مُحَمَّدًا - ﷺ - كَتَمَ شَيْئًا مِمَّا أَنْزَلَ عَلَيْهِ، فَقَدْ كَذَبَ، وَاللَّهُ يَقُولُ: ﴿يَأْتِيهَا الرُّسُولُ بَلِّغْ مَا أَنْزَلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ﴾ [المائدة: ٦٧] ^(١).

(١) البخاري (٧٥٣١)، ومسلم (١٧٧).

التنبيه الثاني: هل يجب على كل شخص أن يعلم كل علم تعلمه لكل أحد من الناس؟

وجوابه أن هذا أمر لا يطاق، إنما يبلغ قدر استطاعته ما ينفع الناس أما إذا كانوا سيفهمون الأمور على غير وجهها فيكتم عنهم ما قد يكون سبباً في ضررهم.
 ﴿وقد قال الله ﷻ: ﴿فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ الذِّكْرَى﴾ [الأعلى: ٩] أي: حيث تنفع الذكرى على قول لبعض المفسرين.

﴿وقال رسول الله ﷺ لعائشة رضى الله عنها: «لولا أن قومك حديثو عهدٍ بكفرٍ لنقضت الكعبة وبنيتها على قواعد إبراهيم»^(١).
 ﴿وقال عليه الصلاة والسلام: «لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلاً ولبكيتم كثيراً»^(٢).

﴿وهذا أبو هريرة رضى الله عنه الذي قال: لولا آية من كتاب الله ﷻ ما حدثتكم، وهي قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَى مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ أَُولَئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّعْنُونَ﴾^(٣) [البقرة: ١٥٩].

أبو هريرة نفسه يقول: (حفظت من رسول الله ﷺ وعاءين أما أحدهما فبثثته،

(١) أخرج البخاري حديث (١٥٨٥)، ومسلم (١٣٣٣) من حديث عائشة رضى الله عنها قالت: قال لي رسول الله ﷺ: «لولا حداثة قومك بالكفر لنقضت البيت ثم لبنيته على أساس إبراهيم عليه السلام، فإن قریشاً استقصرت بناءه وجعلت له خلفاً» وفي رواية: «لولا أن قومك حديث عهدٍ بجاهلية لأمرت بالبيت فهدم فأدخلت فيه ما أخرج منه وألزقته بالأرض وجعلت له باين باباً شرقياً وباباً غربياً فبلغت به أساس إبراهيم».
 (٢) أخرجه البخاري (حديث ١٠٤٤)، ومسلم (حديث ٩٠١) من حديث أم المؤمنين عائشة رضى الله عنها عن النبي ﷺ.

(٣) أخرج البخاري (١١٨) من حديث أبي هريرة رضى الله عنه قال: إن الناس يقولون: أكثر أبو هريرة ولولا آيتان في كتاب الله ما حدثت حديثاً ثم يتلو: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ...﴾ إلى قوله - الرَّحِيمُ ﴿[البقرة: ١٥٩، ١٦٠].

إن إخواننا من المهاجرين كان يشغلهم الصفق بالأسواق وإن إخواننا من الأنصار كان يشغلهم العمل في أموالهم، وإن أبا هريرة كان يلزم رسول الله ﷺ بشع بطنه ويحضر ما لا يحضرون ويحفظ ما لا يحفظون.

وأما الآخر فلو بثثته لقطع مني هذا البلعوم»^(١).

✽ وهذا أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه أراد أن يخطب بمنى خطبة ينبه فيها على بعض الأمور الهامة فأشار عليه عبدالرحمن بن عوف بتأجيل ذلك حتى يرجع إلى المدينة لأن المجلس يجمع رعاة الناس وغوغاءهم، فقد أخرج البخاري^(٢) في «صحيحه» عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: كنت أقرئ رجلاً من المهاجرين منهم عبدالرحمن بن عوف فبينما أنا في منزله بمنى وهو عند عمر بن الخطاب في آخر حجة حجها إذ رجع إليَّ عبدالرحمن فقال: لو رأيت رجلاً أتى أمير المؤمنين اليوم فقال: يا أمير المؤمنين هل لك في فلان يقول: لو قد مات عمر لقد بايعت فلاناً، فوالله ما كانت بيعة أبي بكر إلا فلتة فتمت، فغضب عمر ثم قال: إني إن شاء الله لقائم العشية في الناس فمحذرهم هؤلاء الذين يريدون أن يغضبوهم أمورهم، قال عبدالرحمن فقلت: يا أمير المؤمنين لا تفعل فإن الموسم يجمع رعاة الناس وغوغاءهم فإنهم هم الذين يغلبون على قربك حين تقوم في الناس، وأنا أخشى أن تقوم فتقول مقالة يطيرها عنك كل مطير، وأن لا يعوها، وأن لا يضعوها على مواضعها، فأمهل حتى تقدم المدينة فإنها دار الهجرة والسنة فتخلص

(١) قال القرطبي رحمته الله: قال علماؤنا: وهذا الذي لم يبثه أبو هريرة وخاف على نفسه فيه الفتنة أو القتل، إنما هو مما يتعلق بأمر الفتن.

والنص على أعيان المرتدين والمنافقين، ونحو هذا مما لا يتعلق بالبينات والهدى، والله أعلم.
قلت: والحديث أخرجه البخاري (حديث ١٢٠)، ومسلم (٣٢). قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى: وَأَمَّا حَدِيثُ أَبِي هُرَيْرَةَ فَهُوَ حَدِيثٌ صَحِيحٌ قَالَ: «حَفِظْتُ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ جَرَائِينَ فَأَمَّا أَحَدُهُمَا فَبَثَّثَهُ فِيكُمْ وَأَمَّا الْآخَرُ فَلَوْ بَثَّثَهُ لَقَطَعْتُمْ هَذَا الْبُلْعُومَ». وَلَكِنْ لَيْسَ فِي هَذَا مِنَ الْبَاطِنِ الَّذِي يُخَالِفُ الظَّاهِرَ شَيْءٌ؛ بَلْ وَلَا فِيهِ مِنْ حَقَائِقِ الدِّينِ وَإِنَّمَا كَانَ فِي ذَلِكَ الْجَرَابِ الْخَبَرُ عَمَّا سَيَكُونُ مِنَ الْمَلَا حِمٍ وَالْفِتَنِ فَأَلْمَلَا حِمُ الْخُرُوبِ الَّتِي بَيْنَ الْمُسْلِمِينَ وَالْكَفَّارِ وَالْفِتَنِ مَا يَكُونُ بَيْنَ الْمُسْلِمِينَ وَلِهَذَا قَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عُمَرَ: لَوْ أَخْبَرَكُمُ أَبُو هُرَيْرَةَ أَنَّكُمْ تَقْتُلُونَ خَلِيفَتَكُمْ وَتَفْعَلُونَ كَذَا وَكَذَا لَقُلْتُمْ كَذَبَ أَبُو هُرَيْرَةَ وَإِظْهَارُ مِثْلِ هَذَا مِمَّا تَكْرَهُهُ الْمُلُوكُ وَأَعْوَانُهُمْ لِمَا فِيهِ مِنَ الْإِخْبَارِ بِتَغْيِيرِ دَوْلِهِمْ (مجموع الفتاوى (١٣/٢٥٥)).

(٢) أخرجه البخاري (حديث ٦٨٣٠) كتاب الحدود باب رجم الحبلى من الزنا إذا أحصنت.

بأهل الفقه وأشراف الناس فتقول ما قلت فيعي أهل العلم مقاتلك ويضعوها على مواضعها، فقال عمر: أما والله إن شاء الله لأقومن بذلك أول مقام أقومه بالمدينة.
 ﴿وقال علي رضي الله عنه﴾: حدثوا الناس بما يعرفون أتحبون أن يكذب الله ورسوله.
 ﴿وروي عن ابن مسعود رضي الله عنه﴾ أنه قال: ما أنت بمحدث قومًا حديثًا لا تبلغه عقولهم إلا كان لبعضهم فتنة.

وقال القرطبي رحمه الله بعد إirاده أثر علي: (حدثوا الناس بما يعرفون...): وهذا محمول على بعض العلوم كعلم الكلام أو ما لا يستوي في فهمه جميع العوام، فحكم العالم أن يحدث بما يفهم عنه وينزل كل إنسان منزلته، والله تعالى أعلم.
 ثم قال رحمه الله: وتحقيق الآية أن العالم إذا قصد كتمان العلم عصي، وإذا لم يقصده لم يلزمه التبليغ إذا عرف أنه مع غيره، وأما من سئل فقد وجب عليه التبليغ لهذه الآية وللحديث، أما أنه لا يجوز تعليم الكافر القرآن والعلم حتى يسلم، وكذلك لا يجوز تعليم المبتدع الجدال والحجاج ليجادل به أهل الحق، ولا يُعلم الخصم على خصمه حجة يقطع بها ماله، ولا السلطان تأويلًا يتطرق به إلى مكاره الرعية ولا ينشر الرخص في السفهاء فيجعلوا ذلك طريقًا إلى ارتكاب المحظورات وترك الواجبات ونحو ذلك.

وقد ورد في الباب أيضًا باب جواز كتمان بعض العلوم خشية الضرر أو الفهم الخاطيء ما يلي:

ما ورد عن معاذ رضي الله عنه: قال أنس بن مالك أن النبي - ﷺ - ومعاذ رديفه على الرّحل قال: «يا معاذ بن جبل». قال لبيك يا رسول الله وسعديك. قال: «يا معاذ». قال لبيك يا رسول الله وسعديك. ثلاثًا. قال: «ما من أحد يشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله صدقًا من قلبه إلا حرمه الله على النار». قال يا رسول الله، أفلا أخبر به الناس فيستبشروا قال: «إذا يتكلموا». وأخبر بها معاذ عند موته تأمّمًا^(١).

(١) البخاري (١٢٨)، ومسلم (٣٢).

وأخرج البخاري^(١) من حديث أنسٍ أَنَّ نَاسًا كَانَ بِهِمْ سَقَمٌ قَالُوا يَا رَسُولَ اللَّهِ أَوْنَا وَأَطَعِمْنَا فَلَمَّا صَحُّوا قَالُوا إِنَّ الْمَدِينَةَ وَحِمَةٌ . فَأَنْزَلَهُمُ الْحَرَّةَ فِي ذُودٍ لَهُ فَقَالَ : «اشْرَبُوا أَلْبَانَهَا» . فَلَمَّا صَحُّوا قَتَلُوا رَاعِيَ النَّبِيِّ - ﷺ - وَاسْتَأْفُوا ذُودَهُ ، فَبَعَثَ فِي أَثَارِهِمْ ، فَقَطَعَ أَيْدِيَهُمْ وَأَرْجُلَهُمْ ، وَسَمَرَ أَعْيُنَهُمْ ، فَرَأَيْتُ الرَّجُلَ مِنْهُمْ يَكْدُمُ الْأَرْضَ بِلِسَانِهِ حَتَّى يَمُوتَ . قَالَ سَلَامٌ فَبَلَغَنِي أَنَّ الْحَجَّاجَ قَالَ لِأَنَسٍ حَدِّثْنِي بِأَشَدِّ عُقُوبَةٍ عَاقَبَهُ النَّبِيُّ - ﷺ - فَحَدَّثَهُ بِهَذَا . فَبَلَغَ الْحَسَنَ فَقَالَ وَدِدْتُ أَنَّهُ لَمْ يُحَدِّثْهُ .

وقد قال الحافظ ابن حجر رحمه الله في شرح ذلك: قوله (مبلغ الحسن) هو ابن أبي الحسن البصري فقال (وددت أنه لم يحدثه زاد الكشميهني « بهذا » وفي رواية « بهز » فوالله ما انتهى الحججاج حتى قام بها على المنبر فقال : حَدَّثَنَا أَنَسٌ « فذَكَرَهُ وَقَالَ : « قَطَعَ النَّبِيُّ ﷺ الْأَيْدِي وَالْأَرْجُلَ وَسَمَلَ الْأَعْيُنَ فِي مَعْصِيَةِ اللَّهِ ، أَفَلَا نَفْعَلُ نَحْنُ ذَلِكَ فِي مَعْصِيَةِ اللَّهِ » ؟ وَسَاقَ الْإِسْمَاعِيلِيُّ مِنْ وَجْهِ آخَرَ عَنْ ثَابِتٍ « حَدَّثَنِي أَنَسٌ قَالَ : مَا نَدِمْتُ عَلَى شَيْءٍ مَا نَدِمْتُ عَلَى حَدِيثٍ حَدَّثْتُ بِهِ الْحَجَّاجَ » فذَكَرَهُ ، وَإِنَّمَا نَدِمَ أَنَسٌ عَلَى ذَلِكَ لِأَنَّ الْحَجَّاجَ كَانَ مُسْرِفًا فِي الْعُقُوبَةِ ، وَكَانَ يَتَعَلَّقُ بِأَدْنَى شُبْهَةٍ . وَلَا حُجَّةَ لَهُ فِي قِصَّةِ الْعُرَيْنِيِّينَ لِأَنَّهُ وَقَعَ التَّضَرُّيحُ فِي بَعْضِ طُرُقِهِ أَنَّهُمْ ارْتَدُّوا ، وَكَانَ ذَلِكَ أَيْضًا قَبْلَ أَنْ تَنْزِلَ الْحُدُودُ كَمَا فِي الَّذِي بَعْدَهُ ، وَقَبْلَ النَّهْيِ عَنِ الْمُثَلَّةِ .

وَقَدْ حَضَرَ أَبُو هُرَيْرَةَ الْأَمْرُ بِالتَّعْذِيبِ بِالنَّارِ ثُمَّ حَضَرَ نَسْخُهُ وَالنَّهْيُ عَنِ التَّعْذِيبِ بِالنَّارِ ، وَكَانَ إِسْلَامُ أَبِي هُرَيْرَةَ مُتَأَخِّرًا عَنْ قِصَّةِ الْعُرَيْنِيِّينَ .

وقد أثر النبي ﷺ بعض الصحابة ببعض العلوم منهم حذيفة (رضي الله عنه) فقد خصَّه النبي ﷺ بأسماء بعض المنافقين، فقد أخرج البخاري ومسلم من طريق إبراهيم قَالَ ذَهَبَ عَلَقَمَةُ إِلَى الشَّامِ ، فَلَمَّا دَخَلَ الْمَسْجِدَ قَالَ اللَّهُمَّ يَسِّرْ لِي جَلِيسًا صَالِحًا . فَجَلَسَ إِلَى أَبِي الدَّرْدَاءِ فَقَالَ أَبُو الدَّرْدَاءِ مِمَّنْ أَنْتَ قَالَ مِنْ أَهْلِ الْكُوفَةِ . قَالَ أَلَيْسَ

(١) البخاري (٥٦٨٥)، ومسلم (١٦٧١).

فِيكُمْ - أَوْ مِنْكُمْ - صَاحِبُ السِّرِّ الَّذِي لَا يَعْلَمُهُ غَيْرُهُ يَعْنِي حُذَيْفَةَ . قَالَ قُلْتُ بَلَى .
قَالَ أَلَيْسَ فِيكُمْ - أَوْ مِنْكُمْ - الَّذِي أَجَارَهُ اللَّهُ عَلَى لِسَانِ نَبِيِّهِ - ﷺ - يَعْنِي مِنَ
الشَّيْطَانِ ، يَعْنِي عَمَّارًا . قُلْتُ بَلَى ^(١) .

عَنْ قَيْسٍ قَالَ قُلْتُ لِعَمَّارٍ أَرَأَيْتُمْ صَنِيعَكُمْ هَذَا الَّذِي صَنَعْتُمْ فِي أَمْرِ عَلِيٍّ أَرَأَيْتُمْ
رَأَيْتُمُوهُ أَوْ شَيْئًا عَهْدَهُ إِلَيْكُمْ رَسُولُ اللَّهِ - ﷺ - فَقَالَ مَا عَهْدَ إِلَيْنَا رَسُولُ اللَّهِ - ﷺ -
شَيْئًا لَمْ يَعْهَدْهُ إِلَى النَّاسِ كَافَّةً وَلَكِنْ حُذَيْفَةُ أَخْبَرَنِي عَنِ النَّبِيِّ - ﷺ - قَالَ قَالَ النَّبِيُّ
- ﷺ - « فِي أَصْحَابِي - وَفِي رِوَايَةٍ : إِنْ فِي أُمَّتِي - اثْنَا عَشَرَ مُنَافِقًا فِيهِمْ ثَمَانِيَةٌ لَا
يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى يَلْجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ ثَمَانِيَةٌ مِنْهُمْ تَكْفِيكُهُمُ الدُّبَيْلَةُ
وَأَرْبَعَةٌ » . لَمْ أَحْفَظْ مَا قَالَ شُعْبَةُ فِيهِمْ ^(٢) .

قال ابن كثير رحمه الله ^(٣) : كَانَ حُذَيْفَةَ يُقَالُ لَهُ صَاحِبُ السِّرِّ الَّذِي لَا يَعْلَمُهُ غَيْرُهُ
أَيُّ مِنْ تَعْيِينَ جَمَاعَةٍ مِنَ الْمُنَافِقِينَ وَهُمْ هَؤُلَاءِ قَدْ أَطْلَعَهُ عَلَيْهِمْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ دُونَ
غَيْرِهِ وَاللَّهُ أَعْلَمُ .

قال الحافظ في «فتح الباري» ^(٤) : كَانَ حُذَيْفَةَ صَاحِبَ السِّرِّ الَّذِي لَا يَعْلَمُهُ غَيْرُهُ
حَتَّى خُصَّ بِمَعْرِفَةِ أَسْمَاءِ الْمُنَافِقِينَ وَبِكَثِيرٍ مِنَ الْأُمُورِ .

وخصَّ النبي ﷺ فاطمة ببعض أمره :

عَنْ عَائِشَةَ قَالَتْ كُنَّ أَزْوَاجُ النَّبِيِّ - ﷺ - عِنْدَهُ لَمْ يُغَادِرْ مِنْهُنَّ وَاحِدَةً فَأَقْبَلَتْ
فَاطِمَةُ تَمْشِي مَا تَخْطِي مِشْيَتُهَا مِنْ مِشْيَةِ رَسُولِ اللَّهِ - ﷺ - شَيْئًا فَلَمَّا رَأَاهَا رَحَّبَ بِهَا
فَقَالَ : « مَرْحَبًا بِابْنَتِي » . ثُمَّ أَجْلَسَهَا عَنْ يَمِينِهِ أَوْ عَنْ شِمَالِهِ ثُمَّ سَارَّهَا فَبَكَتْ بُكَاءً
شَدِيدًا فَلَمَّا رَأَى جَزَعَهَا سَارَّهَا الثَّانِيَةَ فَضَحِكَتْ . فَقُلْتُ لَهَا خَصَّكَ رَسُولُ اللَّهِ -
ﷺ - مِنْ بَيْنِ نِسَائِهِ بِالسَّرَارِ ثُمَّ أَنْتِ تَبْكِينَ فَلَمَّا قَامَ رَسُولُ اللَّهِ - ﷺ - سَأَلْتُهَا مَا قَالَ

(١) البخاري (٣٧٤٣)، ومسلم (٨٢٤) .

(٢) مسلم (٢٧٨٩) .

(٣) تفسيره طبعة دار طيبة (٤/ ١٨٢) .

(٤) فتح الباري (١٣/ ٤١) .

لَكَ رَسُولُ اللَّهِ - ﷺ - قَالَتْ مَا كُنْتُ أَفْشَى عَلَى رَسُولِ اللَّهِ - ﷺ - سِرَّهُ. قَالَتْ فَلَمَّا تُوَفِّي رَسُولُ اللَّهِ - ﷺ - قُلْتُ عَزَمْتُ عَلَيْكَ بِمَا لِي عَلَيْكَ مِنَ الْحَقِّ لَمَّا حَدَّثْتَنِي مَا قَالَ لَكَ رَسُولُ اللَّهِ - ﷺ - فَقَالَتْ أَمَّا الْآنَ فَنَعَمْ أَمَّا حِينَ سَارَرْنِي فِي الْمَرَّةِ الْأُولَى فَأَخْبَرَنِي « أَنَّ جَبْرِيلَ كَانَ يُعَارِضُهُ الْقُرْآنَ فِي كُلِّ سَنَةٍ مَرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ وَإِنَّهُ عَارِضُهُ الْآنَ مَرَّتَيْنِ وَإِنِّي لَا أَرَى الْأَجَلَ إِلَّا قَدْ اقْتَرَبَ فَاتَّقِ اللَّهَ وَاصْبِرْ فَإِنَّهُ نِعْمَ السَّلَفُ أَنَا لَكَ ». قَالَتْ فَبَكَيْتُ بُكَائِي الَّذِي رَأَيْتُ فَلَمَّا رَأَى جَزَعِي سَارَرَنِي الثَّانِيَةَ فَقَالَ: « يَا فَاطِمَةُ أَمَا تَرْضَى أَنْ تَكُونِي سَيِّدَةَ نِسَاءِ الْمُؤْمِنِينَ أَوْ سَيِّدَةَ نِسَاءِ هَذِهِ الْأُمَّةِ ». قَالَتْ فَضَحِكْتُ ضَحِكِي الَّذِي رَأَيْتُ ^(١).

قال الحافظ ابن حجر رحمه الله: ^(٢) واختلف فيما سارها به ثانيا فضحكت ففي رواية عروة: أنه إخباره إياها بأنها أول أهله لحوقاً به.

وفي رواية مسروق: أنه إخباره إياها بأنها سيدة نساء أهل الجنة، وجعل كونها أول أهله لحوقاً به مضموماً إلى الأول وهو الراجح.

وخصَّ علياً رضي الله عنه ببعض الأمور: أخرج البخاري ومسلم ^(٣) من حديث أبي جُحَيْفَةَ - رضي الله عنه - قَالَ قُلْتُ لِعَلِيٍّ - رضي الله عنه - هَلْ عِنْدَكُمْ شَيْءٌ مِنَ الْوَحْيِ إِلَّا مَا فِي كِتَابِ اللَّهِ قَالَ وَالَّذِي فَلَقَ الْحَبَّةَ وَبَرَأَ النَّسَمَةَ مَا أَعْلَمُهُ إِلَّا فَهَمَّا يُعْطِيهِ اللَّهُ رَجُلًا فِي الْقُرْآنِ، وَمَا فِي هَذِهِ الصَّحِيفَةِ. قُلْتُ وَمَا فِي الصَّحِيفَةِ قَالَ الْعَقْلُ وَفَكَأُكَ الْأَسِيرِ، وَأَنْ لَا يُقْتَلَ مُسْلِمٌ بِكَافِرٍ.

وقال الحافظ ابن حجر رحمه الله: ^(٤) وَمِمَّنْ كَرِهَ التَّحْدِيثَ بَعْضُ دُونِ بَعْضٍ أَحْمَدُ فِي الْأَحَادِيثِ الَّتِي ظَاهِرُهَا الْخُرُوجُ عَلَى السُّلْطَانِ، وَمَالِكٌ فِي أَحَادِيثِ

(١) البخاري (٦٢٨٥)، ومسلم (٢٤٥٠).

(٢) الفتح (٧/٧٤٣).

(٣) البخاري (٦٩٠٣)، ومسلم (٧٨).

(٤) فتح الباري (١/٢٧٢).

الْصِّفَاتِ ، وَأَبُو يُوسُفَ فِي الْغَرَائِبِ ، وَمَنْ قَبْلَهُمْ أَبُو هُرَيْرَةَ كَمَا تَقَدَّمَ عَنْهُ فِي الْجِرَائِينَ وَأَنَّ الْمُرَادَ مَا يَقَعُ مِنَ الْفِتَنِ ، وَنَحْوَهُ عَنْ حُذَيْفَةَ وَعَنِ الْحَسَنِ أَنَّهُ أَنْكَرَ تَحْدِيثَ أَنَسٍ لِلْحَجَّاجِ بِقِصَّةِ الْعُرَيْنِيِّ لِأَنَّهُ اتَّخَذَهَا وَسِيلَةً إِلَى مَا كَانَ يَعْتَمِدُهُ مِنَ الْمُبَالَغَةِ فِي سَفْكَ الدِّمَاءِ بِتَأْوِيلِهِ الْوَاهِي ، وَضَابِطُ ذَلِكَ أَنْ يَكُونَ ظَاهِرَ الْحَدِيثِ يُقَوِّي الْبِدْعَةَ وَظَاهِرَهُ فِي الْأَصْلِ غَيْرُ مُرَادٍ ، فَالْإِمْسَاكُ عَنْهُ عِنْدَ مَنْ يُخْشَى عَلَيْهِ الْأَخْذُ بِظَاهِرِهِ مَطْلُوبٌ . وَاللَّهُ أَعْلَمُ .

التنبيه الثالث: وقد سبقت الإشارة إليه، وحاصله أن التوبة لا يكفي فيها في كثير من الأحيان قول المذنب أستغفر الله بل تجب مع الاستغفار أمور أخرى وإيضاحه ذلك أن التوبة إذا كانت تتعلق بالذنب الذي هو فيما بين العبد وربه يكفي فيها قول القائل: أستغفر الله أو رب اغفر لي أو نحو ذلك مما يتعلق بطلب المغفرة من الله ﷻ.

أما إذا كانت تتعلق بالذنب الذي هو فيما بين العباد أنفسهم فيلزم فيها أداء الحقوق إلى أهلها، فمثلاً إذا سرق رجلٌ مالاً من شخص يعرفه فلا يكفي أن يقول: أستغفر الله، بل عليه أن يرد المال إلى صاحبه.

كذلك إذا أفتى عالمٌ من العلماء الناس فتياً فغشهم فيها عن عمد فلا يكفي أن يقول: أستغفر الله، بل عليه أن يبين وجه الصواب في هذه الفتيا، يدل على هذا وذاك قوله تعالى: ﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَبَيَّنُّوا فَأُولَٰئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَأَنَا التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ [البقرة: ١٦٠] وقول النبي ﷺ عن المؤمنين إذا خلصوا من النار حبسوا على قنطرة بين الجنة والنار «فيتقاصون مظالم كانت بينهم في الدنيا»^(١).

وقال النبي ﷺ: «لتؤذن الحقوق إلى أهلها يوم القيامة حتى يقاد للشاة

(١) أخرجه البخاري (حديث ٢٤٤٠) من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ قال: «إذا خلص المؤمنون من النار حبسوا بقنطرة بين الجنة والنار فيتقاصون مظالم كانت بينهم في الدنيا حتى إذا نقوا وهذبوا أذن لهم بدخول الجنة، فوالذي نفس محمد بيده لأحدهم بمسكنه في الجنة أدل بمنزله كان في الدنيا».

الجلحاء من الشاة القرناء»^(١).

وكذلك من قذف امرأة بالزنا وهي بريئة لا يكفي في توبته قوله: (أستغفر الله) فالله ﷻ يقول: ﴿وَالَّذِينَ يَزْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾^(٤) إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿[النور: ٤، ٥].

وهكذا ألا ترى أن الشهيد يغفر له كل ذنب إلا الدين؟! والله تعالى أعلم.

التنبيه الرابع: أبواب التوبة مفتوحة لا تغلق في وجه من يريد التوبة وقد قال تعالى: ﴿قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَنْتَهُوا يُغْفَرْ لَهُمْ مَا قَدْ سَلَفَ﴾.

وقال تعالى: ﴿قُلْ يَاعِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ [الزمر: ٥٣].

وقد أخرج مسلم في صحيحه من حديث جندب رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ حدث أن رجلاً قال: «والله لا يغفر الله لفلان، وإن الله تعالى قال: من ذا الذي يتألى عليّ أن لا أغفر لفلان، فإني قد غفرت لفلان وأحبطت عملك»^(٢).

التنبيه الخامس: الملاحظ من كتاب الله عز وجل وهذا مما يبين سعة رحمة الله عز وجل أن الجرائم والجنایات بعد أن تذكر عقوباتها تفتح أبواب التوبة أمام من يريد التوبة حتى لا يقنط من رحمة الله -عز وجل- فهذا كبار الذنوب وعظام الجرائم، الشرك والقتل والزنا يفتح الله الباب أمام مرتكبيها كي يتوبوا منها قبل موتهم.

قال الله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا﴾^(٦٨) يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا^(٦٩) إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ

(١) أخرجه مسلم (حديث ٢٥٨٢) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعاً.

(٢) أخرجه مسلم (حديث ١٦٢١).

سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَتْ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ﴿٧٠﴾ وَمَنْ تَابَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَإِنَّهُ يَتُوبُ إِلَى اللَّهِ مَتَابًا ﴿٧١﴾ [الفرقان: ٦٨-٧١].

*وها هم أصحاب الأخدود الذين كفروا وظلموا وحرّقوا المؤمنين والمؤمنات، وقذفوهم في النار، وما كان للمؤمنين والمؤمنات من ذنب إلا أنهم آمنوا بالله العزيز الحميد هؤلاء أصحاب الأخدود الذين فرّقوا بين الوالدة وولدها، وقذفوا ولدها أمام عينيها في النار، وجلسوا على حافة الأخدود يتلذذون بمشاهدة أهل الإيمان وهم يُقذفون في النيران ويستمتعون بذلك، هؤلاء أصحاب الأخدود الذين اجتهدوا غاية الاجتهاد لصرف الناس عن دينهم، مع كل هذه الجرائم التي صدرت منهم يفتح الله لهم باب التوبة كي يتوبوا قال سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ فَنَوْا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ الْحَرِيقِ﴾ [البروج: ١٠].

فقله سبحانه وتعالى: ﴿ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا﴾ يُفِيد أنهم لو تابوا قبل الله توبتهم، فسبحانك يا ربنا ما أحلمك وما أرحمك!!!

*وها هم قطاع الطرق: تفتح أمامهم أبواب التوبة كي يتوبوا ويرجعوا عن غيهم وفسادهم، ويقطعوا عن الناس شرهم.

قال الله تبارك وتعالى: ﴿إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا أَنْ يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ مِنْ خَلْفٍ أَوْ يُنْفَوْا مِنَ الْأَرْضِ ذَلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [٣٣]

إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَقْدَرُوا عَلَيْهِمْ فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٣٤﴾.

[المائدة: ٣٣، ٣٤]

***وها هم الذين أضاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات:**

تفتح أمامهم أبواب التوبة والإنابة إلى بارئهم ومولاهم كي يتوبوا ويُقبلوا على عمل الصالحات وإقامة الصلاة وترك الشهوات قال سبحانه وتعالى: ﴿خَلَفَ مِنْ بَعدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ فَسُوفَ يَلْقَوْنَ غِيًّا﴾ [٥٩] إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ

صَلِحًا فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ شَيْئًا ﴿٦٠﴾ [مريم: ٥٩، ٦٠].

* وهؤلاء الذين يرتكبون الكبائر البشعة من قذف المحصنات الغافلات المؤمنات بالزنا والفاحشة: تفتح أمامهم أبواب التوبة من هذا الذنب الكبير فيقول سبحانه: ﴿وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ [النور: ٤، ٥].

* وها هو رجل قتل تسعة وتسعين نفسًا: ثم سأل عن أعلم أهل الأرض فدل على راهب فأتاه، ولكن للأسف راهب قليل العلم والفقه، أخبره أن لا توبة له فقتله فأتى به المائة، ثم سأل عن أعلم أهل الأرض، فدل على عالم فأتاه فأخبره أن له توبة فكان ماله بعد ذلك إلى رحمة الله عز وجل وتلقته ملائكة الرحمة على ما ورد في الصحيحين من حديث أبي سعيد الخدري أن نبي الله - ﷺ - قال: «كَانَ فِيمَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ رَجُلٌ قَتَلَ تِسْعَةً وَتِسْعِينَ نَفْسًا فَسَأَلَ عَنْ أَعْلَمِ أَهْلِ الْأَرْضِ فَدُلَّ عَلَى رَاهِبٍ فَأَتَاهُ فَقَالَ إِنَّهُ قَتَلَ تِسْعَةً وَتِسْعِينَ نَفْسًا فَهَلْ لَهُ مِنْ تَوْبَةٍ فَقَالَ لَا. فَفَتَلَّهُ فَكَمَلَ بِهِ مِائَةً ثُمَّ سَأَلَ عَنْ أَعْلَمِ أَهْلِ الْأَرْضِ فَدُلَّ عَلَى رَجُلٍ عَالِمٍ فَقَالَ إِنَّهُ قَتَلَ مِائَةَ نَفْسٍ فَهَلْ لَهُ مِنْ تَوْبَةٍ فَقَالَ نَعَمْ وَمَنْ يَحُولُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ التَّوْبَةِ انْطَلِقْ إِلَى أَرْضٍ كَذَا وَكَذَا فَإِنَّ بِهَا أَنْاسًا يَعْبُدُونَ اللَّهَ فاعْبُدِ اللَّهَ مَعَهُمْ وَلَا تَرْجِعْ إِلَى أَرْضِكَ فَإِنَّهَا أَرْضُ سَوْءٍ. فَاِنْطَلَقَ حَتَّى إِذَا نَصَفَ الطَّرِيقَ أَتَاهُ الْمَوْتُ فَاخْتَصَمَتْ فِيهِ مَلَائِكَةُ الرَّحْمَةِ وَمَلَائِكَةُ الْعَذَابِ فَقَالَتْ مَلَائِكَةُ الرَّحْمَةِ جَاءَ تَائِبًا مُقْبِلًا بِقَلْبِهِ إِلَى اللَّهِ. وَقَالَتْ مَلَائِكَةُ الْعَذَابِ إِنَّهُ لَمْ يَعْمَلْ خَيْرًا قَطُّ. فَأَتَاهُم مَلِكٌ فِي صُورَةِ آدَمِيٍّ فَجَعَلُوهُ بَيْنَهُمْ فَقَالَ قِيسُوا مَا بَيْنَ الْأَرْضَيْنِ فَإِلَى أَيَّتَهُمَا كَانَ أَذْنَى فَهُوَ لَهُ. فَقَاسُوهُ فَوَجَدُوهُ أَذْنَى إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي أَرَادَ فَخَبَضَتْهُ مَلَائِكَةُ الرَّحْمَةِ». قَالَ فَتَادَهُ فَقَالَ الْحَسَنُ ذَكَرَ لَنَا أَنَّهُ لَمَّا أَتَاهُ الْمَوْتُ نَأَى بِصَدْرِهِ.

فلا ينبغي أن يقنط أحدٌ أبداً من رحمة الله، فاليأس والقنوط من رحمة الله عز وجل كبيرة من الكبائر.

قال سبحانه وتعالى: ﴿وَمَنْ يَقْنَطُ مِنْ رَحْمَةِ رَبِّهِ إِلَّا الضَّالُّونَ﴾ [الحجر: ٥٦]

وقال سبحانه: ﴿إِنَّهُ لَا يَأْتِسُّ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ﴾ [يوسف: ٨٧].

وقد ذهب فريق من أهل العلم إلى أن المراد بقوله سبحانه وتعالى: ﴿وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ﴾ [البقرة: ١٩٥].

إن العبد يُذنب ثم يظن أن ذنبه لا يغفر فيترك الاستغفار ويترك الرجوع إلى الله، فمن ثم يقع في الهلكة والعياذ بالله.

وفي الصحيح عن النبي ﷺ - فِيمَا يَحْكِي عَنْ رَبِّهِ عَزَّ وَجَلَّ قَالَ: «أُذْنِبَ عَبْدٌ ذَنْبًا فَقَالَ اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي ذَنْبِي. فَقَالَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى أَذْنِبَ عَبْدِي ذَنْبًا فَعَلِمَ أَنَّ لَهُ رَبًّا يَغْفِرُ الذَّنْبَ وَيَأْخُذُ بِالذَّنْبِ. ثُمَّ عَادَ فَأَذْنَبَ فَقَالَ أَيُّ رَبِّ اغْفِرْ لِي ذَنْبِي. فَقَالَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى عَبْدِي أَذْنَبَ ذَنْبًا فَعَلِمَ أَنَّ لَهُ رَبًّا يَغْفِرُ الذَّنْبَ وَيَأْخُذُ بِالذَّنْبِ. ثُمَّ عَادَ فَأَذْنَبَ فَقَالَ أَيُّ رَبِّ اغْفِرْ لِي ذَنْبِي. فَقَالَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى أَذْنَبَ عَبْدِي ذَنْبًا فَعَلِمَ أَنَّ لَهُ رَبًّا يَغْفِرُ الذَّنْبَ وَيَأْخُذُ بِالذَّنْبِ وَاعْمَلْ مَا شِئْتَ فَقَدْ غَفَرْتُ لَكَ.»



(التحذير من الكفر وبيان عقوبة من مات كافراً)

قال تعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١٦١﴾ خَالِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿١٦٢﴾ وَإِلَهُكُمْ إِلَهٌُ وَاحِدٌ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ ﴿١٦٣﴾ ۞ .

* قوله تعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ۞ .

* المراد بلعنة الله لهم طردهم من رحمة الله عز وجل وإبعادهم عنها.

* والمراد بلعنة الملائكة والناس أجمعين دعاؤهم على الكفار بأن يبعدهم الله عز وجل عن رحمته.

* وقوله تعالى: ﴿ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ۞ ﴾ عنده تساؤل حاصله هل يلعن الكفار بعضهم بعضاً؟

وجوابه نعم يلعن الكفار بعضهم بعضاً، فالكافر يلعن الكافر وذلك إما في الدنيا وإما في الآخرة، أما لعنة الكفار بعضهم بعضاً في الدنيا، فكون الكافر يدعو على الظالم مثلاً، فإذا قال الكافر: اللهم العن الكافر أو الظالم دخل هو نفسه في اللعنة ودخل فيها كل كافر، وكذلك إذا تلاعن كافر ومؤمن فاللعنة ترجع إلى الكافر، أما كون الكفار يلعن بعضهم بعضاً في الآخرة فذلك واضح جلي من قوله تعالى: ﴿ وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا فَأَضَلُّنَا السَّبِيلَ ﴾ ﴿٦٧﴾ رَبَّنَا إِنَّهُمْ ضَعِيفِينَ مِنَ الْعَذَابِ وَالْعَنَمُ لَعْنًا كَبِيرًا ﴿ [الأحزاب: ٦٧، ٦٨].

وكذلك من قوله تعالى: ﴿ كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَعْنَتْ أُخْتَهَا حَتَّى إِذَا ادَّارَكُوا فِيهَا جَمِيعًا

قَالَتْ أَخْرِثُهُمْ لِأُولِهِمْ رَبَّنَا هَؤُلَاءِ أَضَلُّونَا فَثَاتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِّنَ النَّارِ قَالَ لِكُلِّ ضِعْفٍ وَلَكِن لَّا نَعْلَمُونَ ﴿٣٨﴾ [الأعراف: ٣٨].

وقال تعالى في شأن الكافرين: ﴿ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَمَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا وَمَأْوَهُمُ النَّارُ وَمَالُكُمْ مِّنْ نَّصِيرِينَ﴾ [العنكبوت: ٢٥] إلى غير ذلك من الآيات في هذا الباب، والله تعالى أعلم.

وقوله تعالى: ﴿خَالِدِينَ فِيهَا﴾ أي خالدين في اللعنة وقيل المراد أنهم خالدين في متبوعات اللعنة وهي نار جهنم والعياذ بالله.

وقوله تعالى: ﴿لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ الْعَذَابُ﴾ كقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ مِّنْ عَذَابِهَا كَذَلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَافِرٍ﴾ ﴿٣٦﴾ وَهُمْ يَصْطَرِحُونَ فِيهَا رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَدَقًا غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ فَذُوقُوا فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِّنْ نَّصِيرٍ ﴿٣٧﴾.

[فاطر: ٣٦، ٣٧]

٢ - قوله تعالى: ﴿إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي عَذَابٍ جَهَنَّمَ خَالِدُونَ﴾ ﴿٧٤﴾ لَا يُفْتَرُ عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ ﴿٧٥﴾ [الزخرف: ٧٤، ٧٥].

٣ - قوله تعالى: ﴿كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ﴾

[النساء: ٥٦]

وقوله تعالى: ﴿وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ﴾ أي ليس لهم ناصر ينصرهم ولا دافع يدفع عنهم العذاب والله أعلم.



(التذكير بوحدانية الله عز وجل وبيان واسع رحمته وبيان فضل التوحيد)

قال الله عز وجل: ﴿وَالْهُكْمُ لِلَّهِ وَحْدَهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾ معناه، والله تعالى أعلم: ومعبودكم الذي يستحق العبادة وحده لا شريك له والذي تجب له الطاعة، والذي لا مثل له ولا شبيه له ولا ند له ولا مثيل له هو الله الذي هو معبود واحد بحق، لا معبود سواه وهو الرحمن الذي وسعت رحمته في الدنيا كل شيء الرحيم الذي اختص المؤمنين برحمته في الآخرة كما قال ﴿وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا﴾ .

قال الطبري رحمه الله: وأما قوله: «لا إله إلا هو»، فإنه خبرٌ منه تعالى ذكره أنه لا رب للعالمين غيره، ولا يستوجب على العباد العبادة سواه، وأن كل ما سواه فهم خلقه، والواجب على جميعهم طاعته والانقياد لأمره، وترك عبادة ما سواه من الأنداد والآلهة، وهجر الأوثان والأصنام؛ لأن جميع ذلك خلقه، وعلى جميعهم الدينونة له بالوحدانية والآلوهة، ولا تنبغي الآلوهة إلا له، إذ كان ما بهم من نعمة في الدنيا فممنه، دون ما يعبدونه من الأوثان ويشركون معه من الأشرار، وما يصيرون إليه من نعمة في الآخرة فممنه، وأن ما أشركوا معه من الأشرار لا يضر ولا ينفع في عاجل ولا في آجل، ولا في دنيا ولا في آخرة.

هذا، والآية الكريمة تتضمن معنى كلمة لا إله إلا الله التي هي كلمة التقوى، وقد جاء في فضلها من الأحاديث ما يلي:

❁ قول النبي ﷺ: «من قال: لا إله إلا الله ابتغاء وجه الله ختم له بها دخل الجنة»^(١).

(١) أخرجه أحمد (٥ / ٣٩١) من حديث حذيفة بن اليمان رضي الله عنه مرفوعاً.

✽ قول النبي عليه الصلاة والسلام: «إِنَّ اللَّهَ قَدْ حَرَّمَ عَلَى النَّارِ مَنْ قَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ يَتَغَيَّرُ بِذَلِكَ وَجْهَ اللَّهِ»^(١).

✽ قول النبي ﷺ: «مَا مِنْ عَبْدٍ قَالَ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ ثُمَّ مَاتَ عَلَى ذَلِكَ إِلَّا دَخَلَ الْجَنَّةَ»^(٢).

✽ حديث البطاقة، وقد أخرجه الترمذي بإسناد صحيح من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ سَيَخْلُصُ رَجُلًا مِنْ أُمَّتِي عَلَى رِءُوسِ الْخَلَائِقِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَيَنْشُرُ عَلَيْهِ تِسْعَةَ وَتِسْعِينَ سَجَلًا كُلُّ سَجَلٍ مِثْلُ مَدِّ الْبَصَرِ ثُمَّ يَقُولُ: أَتَنْكَرُ مِنْ هَذَا شَيْئًا؟ أَظْلَمْتُكَ كَتَبْتِي الْخَافِظُونَ؟ فَيَقُولُ: لَا يَا رَبِّ فَيَقُولُ: أَفَلَمْ عَذَّرْتُ؟ فَيَقُولُ: لَا يَا رَبِّ فَيَقُولُ: بَلَى إِنَّ لَكَ عِنْدَنَا حَسَنَةً فَإِنَّهُ لَا ظُلْمَ عَلَيْكَ الْيَوْمَ فَتُخْرِجُ بَطَاقَةً فِيهَا أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ فَيَقُولُ: احْضُرْ وَزَنْكَ فَيَقُولُ: يَا رَبِّ مَا هَذِهِ الْبَطَاقَةُ مَعَ هَذِهِ السَّجَلَاتِ فَقَالَ: إِنَّكَ لَا تَظْلَمُ قَالَ: فَتُوضَعُ السَّجَلَاتُ فِي كِفَّةٍ وَالبَطَاقَةُ فِي كِفَّةٍ فَطَاشَتْ السَّجَلَاتُ وَثَقُلَتِ الْبَطَاقَةُ فَلَا يَثْقُلُ مَعَ اسْمِ اللَّهِ شَيْءٌ»^(٣).

قول النبي ﷺ: «وَلَهُ بِكُلِّ تَهْلِيلِهِ صَدَقَةٌ»^(٤).

✽ وفي الصحيحين من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ - وَمَعَاذَ رَدِيفِهِ عَلَى الرَّحْلِ - قَالَ: «يَا مَعَاذُ بْنُ جَبَلٍ» قَالَ: لَبِيكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ وَسَعْدِيكَ، قَالَ: «يَا مَعَاذُ» قَالَ: لَبِيكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ وَسَعْدِيكَ (ثَلَاثًا) قَالَ: «مَا مِنْ أَحَدٍ يَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ صِدْقًا مِنْ قَلْبِهِ إِلَّا حَرَّمَهُ اللَّهُ عَلَى النَّارِ...»^(٥) الحديث.

(١) أخرجه البخاري (حديث ٤٢٥)، ومسلم (حديث ٣٣) من حديث عتب بن مالك رضي الله تعالى عنه مرفوعًا.

(٢) أخرجه البخاري (حديث ٥٨٢٧)، ومسلم (مع النووي ٢ / ٩٤) من حديث أبي ذر رضي الله عنه مرفوعًا.

(٣) أخرجه الترمذي (حديث ٢٦٣٩) وقال: حديث حسن غريب، وأحمد (٢ / ٢١٣، ٢٢١، ٢٢٢)، وابن ماجه (حديث ٢٣٠٠) من حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنه مرفوعًا.

(٤) أخرجه مسلم (حديث ٧٢٠) من حديث أبي ذر رضي الله عنه مرفوعًا.

(٥) أخرجه البخاري (حديث ١٢٨)، ومسلم (حديث ٣٢).

❁ وفي «الصحيحين» من حديث أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن النبي ﷺ قال: «فأقول: يا رب
 ائذن لي فيمن قال: لا إله إلا الله فيقول: وعزتي وجلالي وكبريائي وعظمتي
 لأخرجن منها من قال لا إله إلا الله» ^(١).



(١) أخرجه البخاري (حديث ٧٥١٠)، ومسلم ص (١٨٤).

(ذكر بعض الآيات الدالة على وحدانية الله عز وجل)

وقوله تعالى: ﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيْحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ (١٦٤)

وفي هذه المذكورات دلالات على وحدانية الله عز وجل وعلى قدرته وعلى أنه الذي يحب أن يعبد وحده ولا شريك له.

أما الدلالة على ذلك من خلق السموات، فذلك من اتساعها ورفعها بغير عمد نراها وعدم وجود تشققات ولا تصدعات بها كما قال تعالى: ﴿ أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِنْ فُرُوجٍ ﴾ [ق: ٦].

وقوله تعالى: ﴿ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ طِبَاقًا مَا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِنْ تَفَوتٍ فَأَرْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَى مِنْ فُطُورٍ ۚ ثُمَّ أَرْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنْقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ ۚ ﴾ (٢) وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصْبِيحٍ وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا لِلشَّيَاطِينِ وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ السَّعِيرِ ۚ

[الملك: ٣-٥]

وكذا ما فيها من شمس وقمر ونجوم سيارات وكواكب نيرات وغير ذلك. والآية في خلق الأرض فيما ذكره الله عز وجل بقوله: ﴿ وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ ۚ ﴾ (٧) تَبَصَّرَةٌ وَذَكَرَى لِكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ ﴿ [ق: ٨، ٧]، وقوله تعالى: ﴿ هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذُلُولًا فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ ۚ وَإِلَيْهِ

الشُّورُ ﴿[الملك: ١٥].

وكذا ما فيها من الآيات كالبحار والأنهار والأشجار والجبال، وفي كونها ممهدة للخلق، وفيها فجاج أي طرق، وسبل نسلكتها إذا أردنا الذهاب إلى مرادنا وغير ذلك.

والآية من اختلاف الليل والنهار ما ذكره الله عز وجل إذ قال: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ مَنْ إِلَهُ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِضِيَاءٍ أَمْ لَا تَسْمَعُونَ﴾ (٧١) ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ مَنْ إِلَهُ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِاللَّيْلِ تَسْكُونُ فِيهِ أَمْ لَا تَبْصُرُونَ﴾ (٧٢) وَمِنْ رَحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿[القصص: ٧١-٧٣].

﴿وقوله تعالى: ﴿وَأَيُّ لَّهُمُ اللَّيْلُ سَلَخَ مِنْهُ النَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ﴾﴾ [يس: ٣٧].
﴿وقوله تعالى: ﴿لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾﴾ [يس: ٤٠].

وكونه سبحانه جعل الليل لباساً مُظْلَمًا والنهار مشرقاً واضحاً للسعي على المعاش، وهذا يطول أحياناً وذاك يطول أحياناً، والحر والبرد والتوسط وغير ذلك مما يدل على اختلاف الليل والنهار وقوله تعالى: ﴿وَالْقُلُوبُ أَلْتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ﴾ أي وفي السفن العظيمة التي تجري في البحر وتحمل الناس إلى بلاد لم يكونوا بالغيها وكذا تسخير البحر لحمل هذه السفن العظيمة بينما المسمار الصغير إذا ألقى في البحر فإن البحر لا يحمله بل يسقط فيه.

﴿وقوله تعالى: ﴿وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَّاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾﴾ فيه دلالة على قدرة الله ووحدانيته، ودلالة أخرى على البعث بعد الموت كما قال تعالى ﴿وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُبَارَكًا فَأَنْبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ الْحَصِيدِ﴾ (٩) ﴿وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ لَهَا طَلْعٌ نَضِيدٌ﴾ (١٠) رِزْقًا لِلْعِبَادِ وَأَحْيَيْنَا بِهِ بَلْدَةً مَيِّتًا كَذَلِكَ الْخُرُوجُ ﴿[ق: ٩-١١].
﴿وقوله تعالى: ﴿وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ

وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ ذَوْجٍ بِهَيْجٍ ﴿٥﴾ ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّهُ يُخَيِّ الْمَوْتَى وَأَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿[الحج: ٥، ٦].﴾

*وكما قال تعالى: ﴿وَأَيُّهُمُ الْأَرْضُ أَلَمِيتُهُ أَحْيَيْنَهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ ﴿٣٣﴾ وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّاتٍ مِّنْ نَّجِيلٍ وَأَعْنَبٍ وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ الْعُيُونِ ﴿٣٤﴾ لِيَأْكُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴿[يس: ٣٣-٣٥].﴾

*وكما قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَسُوقُ الْمَاءَ إِلَى الْأَرْضِ الْجُرُزِ فَنُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَامُهُمْ وَأَنْفُسُهُمْ أَفَلَا يُبْصِرُونَ ﴿[السجدة: ٢٧].﴾

*وكما قال تعالى: ﴿وَالَّذِي نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً يَقْدِرُ فَأَنْشَرْنَا بِهِ بَلْدَةً مَّيْتًا كَذَلِكَ نُخْرِجُوهَا ﴿[الزخرف: ١١].﴾

*وفي كونه ينزل بقدر آية أخرى، ولو شاء الله لأنزله متصلاً لا ينقطع فيهلك الخلق بذلك، ولو شاء الله لمنعه من الأصل أيضاً فيهلك الخلق ويضيعون.

وقوله تعالى: ﴿وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ﴾ أي نشر الدواب وفرّقها في أنحاء الأرض، والدابة كل ذي روح يدب على الأرض ووجه الدلالة من بثها على رحمة الله ﷻ ووجدانيته أنه سبحانه سخرها للناس ينتفعون بها بجميع وجوه الانتفاع، فمنها دواب سخرت لحمله، ومنها دواب سخرت لمطعمه ومشربه يأكل منها اللحم ويشرب منها اللبن، ومنها دواب يخرج من بطونها شراب مختلف ألوانه، ومنها دواب وجه الانتفاع منها هو الاعتبار والاتعاظ فالحية مثلاً تخيفه رؤيتها فيتذكر مانع الزكاة مثلاً ما سيلقاه يوم القيامة من الشجاع الأقرع فيبادر بإخراج الزكاة، وتذكره فيتعوذ بالله من شرها.

ومنها دواب سخرت لحراسته ومصلحته إلى غير ذلك، فكل ذلك رحمة من الله ﷻ سبحانه وتعالى بعباده وكون الله ﷻ رازق هذه الدواب ومتكفل بها وعالم بأمرها وحده سبحانه دليل على وحدانيته والله تعالى أعلم.

أما قوله تعالى: ﴿وَتَصْرِيفِ الرِّيْحِ﴾ أي تنويعها فمرة تأتي شديدة ومرة تأتي

هادئة ومرة تأتي باردة ومرة تأتي حارة، ومرة تأتي عقيماً وعذاباً لا فائدة فيها بل تحمل الضرر لقوم ومرة تأتي مبشرات ورحمة، والذي يسيرها هو الله عز وجل هو القادر على ذلك وحده لا شريك له.

وقال ابن كثير رحمه الله: أي: فتارة تأتي بالرحمة وتارة تأتي بالعذاب وتارة تأتي مبشرة بين يدي السحاب وتارة تسوقه، وتارة تجمععه وتارة تفرقه وتارة تصرفه ثم تارة تأتي من الجنوب وهي الشامية، وتارة تأتي من ناحية اليمين وتارة صَباً وهي الشرقية التي تصدم وجه الكعبة، وتارة دبوراً وهي غربية تنفذ من ناحية دبر الكعبة.

وقوله تعالى: ﴿وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ أي في تسخير السحاب بين السماء والأرض وتسخيره تذليله وتوجيهه إلى حيث يشاء الله ﷻ ويتم ذلك بأمر الله عز وجل كما قال سبحانه في كيفية ذلك: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُزْجِي سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَّامًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ جِبَالٍ فِيهَا مِنْ بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَصْرِفُهُ عَنِ مَنْ يَشَاءُ يَكَادُ سَنَاقِرُهُ بِأَلْبَصَرٍ﴾ [النور: ٤٣].

وكما قال سبحانه: ﴿وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيْحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ حَتَّى إِذَا أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَهُ لِبَلَدٍ مَيِّتٍ فَأَنْزَلْنَا بِهِ الْمَاءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ كَذَلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتَى لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [الأعراف: ٥٧] والله أعلم.

أما قوله تعالى: ﴿لَا يَتَّبِعُ﴾ أي لدلالات ﴿لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ أي يعقلون عن الله عز وجل أمره ونهيه، ويستدلون بهذه الآيات على وحدانيته وقدرته وعظمته، وأنه المعبود بحق ولا مبعود بحق سواه.



(تبرؤ المعبودين من دون الله من عابديهم يوم القيامة)

قال الله عز وجل: ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَنْدَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِذْ يَرُونَ الْعَذَابَ أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعَذَابِ ﴾ (١٦٥) إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوْا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ ﴿ ١٦٦ ﴾ وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا لَوْ أَنَّا كُنَّا نَدْرِي أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُوا مِنَّا كَذَلِكَ يُرِيهِمُ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ ﴿ ١٦٧ ﴾ .

وقوله تعالى: ﴿ وَمِنَ النَّاسِ ﴾ وهم أهل الشرك ﴿ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَنْدَادًا ﴾ أن يعبد مع الله عز وجل آلهة أخرى جعلها من عند نفسه أندادًا لله أي أمثالا ونظراء وعدلاء لله عز وجل أي أنه أنزلها منزلة رب العباد سبحانه وتعالى في عبادته لها وهذا أعظم ذنب وأكبر جرم فقد سئل النبي ﷺ أي الذنب أعظم قال: « أَنْ تَجْعَلَ لِلَّهِ نِدًّا وَهُوَ خَلَقَكَ » .

وفي الصحيحين^(١) من حديث ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: « قال رسول الله ﷺ كلمة وقلت أخرى، قال النبي ﷺ: « مَنْ مَاتَ وَهُوَ يَدْعُو مِنْ دُونِ اللَّهِ نِدًّا دَخَلَ النَّارَ ». وَقُلْتُ أَنَا مَنْ مَاتَ وَهُوَ لَا يَدْعُو لِلَّهِ نِدًّا دَخَلَ الْجَنَّةَ » .

ولأهل العلم قولان في المراد بالأنداد، أحدهما: أنها الأوثان، والثاني: أن المراد بالأنداد هنا السادة المطاعين من دون الله عز وجل الذين اتخذهم المشركون

(١) البخاري (٤٤٩٧)، ومسلم (٩٢).

أولياء من دون الله ومشرعين من دون الله يحلون لهم الحرام ويحرمون عليهم الحلال، ويتقوى هذا الوجه بقوله تعالى: ﴿إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا﴾. والذي يظهر لي والله أعلم القول بالعموم فدخل فيه الأوثان والسادة الذين أطاعهم قومهم من دون الله في تحريم ما أحل الله وتحليل ما حرم، والله أعلم.

وقوله تعالى: ﴿يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ﴾ فيه وجهان:

أحدهما: أشد حباً لله من حب المشركين لله، فعلى هذا القول يكون المشركون يحبون الله ويحبون آلهمتهم كحبهم لله كما قال تعالى مبيناً حالهم وقولهم: ﴿تَاللَّهِ إِن كُنَّا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ (٩٧) إِذْ دُسَّوْكُمْ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿ [الشعراء: ٩٧، ٩٨].

الثاني: أشد حباً لله من حب المشركين لآلهمتهم، وكلا القولين له وجه، ونورد هنا ما ذكره ابن القيم رحمه الله في «التفسير القيم» لما فيه من الفائدة.

هذا، والمراد بمحبة المشركين للأنداد عبادتهم لها وتعظيمهم إياهم، وعلى رأي من ذهب إلى أن الأنداد السادة الذين يطاعون في معصية الله وتحليل ما حرم وتحريم ما أحل، فيدخل في هذه المحبة الطاعة أيضاً.

هذا ولا يدخل في هذه المحبة التي يحبها المشركون للأنداد اعتقاد أن الأنداد خلقتهم، فهذا شيء لم يقر به المشركون، بل قال الله عز وجل حاكياً عن المشركين: ﴿وَلَكِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾ [الزخرف: ٨٧].

وقوله تعالى: ﴿وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِذْ يَرُونَ الْعَذَابَ أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعَذَابِ﴾ فمعناه والله أعلم ولو يرى أهل الكفر وأهل الظلم العذاب الآخروي في دنياهم أي لو رأى النار التي يعذب بها أهل الكفر، لو رأوها في الدنيا، ورأوا ما فيها، ورأوا عظمتها وهولها ورأوا أنها لظى وأنها الحطمة ورأوها موقدة ورأوا ما فيها من الجبابة والظلمة، ورأوا ما فيها من الأوثان والأحجار التي عُبِدَت من دون الله أيضاً ورأوا عموم ما فيها لعلوا حينئذ أن القوة لله جميعاً ولا يملك أحد قوة مع الله عز وجل ولعلوا أيضاً شدة عذاب الله عز وجل كما قال سبحانه:

﴿فَيَوْمَئِذٍ لَا يُعَذِّبُ عَذَابُهُ أَحَدٌ ۖ وَلَا يُوثِقُ وَثَاقُهُ أَحَدٌ﴾ (٣٦)

هذا وكثيراً ما يطلق الظلم على الكفر والشرك في كتاب الله عز وجل كما قال تعالى: ﴿وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ وكما قال: ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾. وقوله تعالى: ﴿إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوْا الْعَذَابَ﴾ أي وسيعلم الذين كفروا والذين ظلموا إذا رأوا تبرا المعبودين ممن عبدوهم أن القوة لله جميعاً.

وقيل: المعنى واذكر إذ تبرا الذين اتبعوا من الذين اتبعوا، فهو منظرٌ وموقفٌ جديرٌ بأن يذكر هذا والآية الكريمة أفادت أن المعبودين يتبرؤون ممن عبدوهم من دون الله، وهنالك على ذلك أدلة عامة وأدلة تفصيلية.

أما الأدلة العامة فمنها ما يلي:

﴿قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا﴾﴾ [البقرة: ١٦٦].

﴿قوله تَعَالَى: ﴿كَلَّمَادَخَلَتْ أُمَّةٌ لَعَنَتْ أَخْنَهَا﴾﴾ [الأعراف: ٣٨].

﴿قوله سبحانه: ﴿الْأَخْلَاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ﴾﴾.

[الزخرف: ٦٧]

وقال تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ (٦٢) قَالَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ رَبَّنَا هَؤُلَاءِ الَّذِينَ أَغْوَيْنَا أَغْوَيْنَاهُمْ كَمَا غَوَيْنَا تَبَرَّأْنَا إِلَيْكَ مَا كَانُوا إِيَّانَا يَعْبُدُونَ (٦٣) وَقِيلَ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ فَدَعَوْهُمُ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ وَرَأَوُا الْعَذَابَ لَوْ أَنَّهُمْ كَانُوا يَهْتَدُونَ﴾ [القصص: ٦٢ - ٦٤].

أما الأدلة التفصيلية:

فالملائكة تبرا من عابديها، قال الله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَائِكَةِ أَهَؤُلَاءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ﴾ (٤٠) قَالُوا سُبْحَنَكَ أَنْتَ وَلَيْسْنَا مِنْ دُونِهِمْ بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنُونَ (٤١) فَالْيَوْمَ لَا يَمْلِكُ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا وَنَقُولُ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّتِي كُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ﴾ [سبا: ٤٠ - ٤٢].

❖ وكذلك الشيطان يتبرأ من تابعيه، قال الله سبحانه: ﴿وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُمُونِي وَلُومُوا أَنْفُسَكُمْ مَا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنْتُمْ بِمُصْرِخِيَّ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِنْ قَبْلُ إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [إبراهيم: ٢٢].

❖ وكذلك الأوثان تتبرأ من عابديها، قال الله تعالى: ﴿وَقَالَ إِنَّمَا اتَّخَذْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ يَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّاصِرِينَ﴾.

[العنكبوت: ٢٥]

❖ والجن كذلك، قال الله ﷻ: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُوا مِن دُونِ اللَّهِ مَن لَا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَن دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ ﴿٥﴾ وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ﴾ ^(١) [الأحقاف: ٥، ٦].

❖ وكذلك عيسى بن مريم عليه السلام ^(٢) يتبرأ ممن عبدوه، قال الله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَعْيسَى ابْنُ مَرْيَمَ ءَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُخَيَّ إِلَهَيْنِ مِن دُونِ اللَّهِ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقِّ إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمَ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ ﴿١١٦﴾ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنْ أَعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتُ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنْتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ [المائدة: ١١٦، ١١٧].

(١) حمل عدد من أهل العلم هذه الآية على أن المعبودين (المدعويين من دون الله) هم الجن، ونرى أن معناها هنا أوسع، والله تعالى أعلم.

(٢) بيد أن عيسى ابن مريم عليهما السلام من أهل الجنة ومن أهل الوجاهة والدرجات العلى والمقربين فيها، قال الله عز وجل في شأنه: ﴿وَجِئَا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ مِنَ الْمُقَرَّبِينَ﴾ ^(١٤٥) [آل عمران: ٤٥]، وأيضاً هو من الذين سبقت لهم من الله الحسنى.

❦ وكذلك الجبابة والظلمة يتبرءون ممن عبدتهم وأطاعهم في معصية الله يوم القيامة، قال الله ﷻ: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الظَّالِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِندَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ الْقَوْلَ يَقُولُ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لَوْلَا أَنْتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ ٣١﴾ قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا أَنَحْنُ صَدَدْنَاكُمْ عَنِ الْهُدَىٰ بَعْدَ إِذْ جَاءَكُمْ بَلْ كُنتُمْ مُجْرِمِينَ ٣٢ وَقَالَ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا بَلْ مَكْرَ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَا أَنْ نَكْفُرَ بِاللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُ أَندَادًا وَأَسْرُوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ وَجَعَلْنَا الْأَغْلَلَ فِي آعْنَاقِ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ يُحْزَنُونَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿سبأ: ٣١-٣٣﴾.

❦ وقال تعالى: ﴿وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكِبَرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلًا ٦٧﴾ رَبَّنَا إِنَّا أَتَيْنَا مِنْكَ ضَعِيفِينَ مِنَ الْعَذَابِ وَالْعَنَيْنَا كَبِيرًا ﴿الأحزاب: ٦٧، ٦٨﴾. أما قوله تعالى: ﴿وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ﴾: أما ﴿بِهِمْ﴾: فمعناها (عنهم) وهي كقوله تعالى: ﴿فَسُئِلَ بِهِ خَيْرًا﴾ [الفرقان: ٥٩] أي: فاسأل عنه خبيرًا.

أما معنى الأسباب، فالأسباب هي الوسائل التي يتوصل بها الشخص إلى مطالبه وإلى ما يريد، فقد يتوصل الشخص إلى مطلبه بجأه، وقد يتوصل بعمله، وقد يتوصل بحيلة يحتالها، وقد يتوصل بقرابته، وقد يتوصل بماله، وقد يتوصل بصداقاته وأخلائه إلى غير ذلك من الوسائل فكل هذه أسباب، فالمراد بقوله تعالى: ﴿وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ﴾ [البقرة: ١٦٦]، أي: وانقطعت عنهم وسائل النجاة والخلاص التي يريدون أن ينجوا بها من عذاب الله ﷻ.

❦ فلا ينتفع صديق بصديقه ولا زوج بزوجه ولا قريب بقريبه، بل يفرُّ كلٌّ من الآخر، كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ٣٤ وَأُمُّهُ وَأَبِيهِ ٣٥ وَصَدِيقِيهِ ٣٦ وَبَنِيهِ ٣٦ لِكُلِّ أَمْرٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ﴾.

و كما قال تعالى: ﴿الْأَخِلَاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ ٦٧﴾. و كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ الْمَرْءُ لَوْ يَفْتَدِي مِنْ عَذَابٍ يَوْمِئِذٍ بِبَنِيهِ ١١ وَصَدِيقَتِهِ ١٢ وَأَخِيهِ ١٣ وَفَصِيلَتِهِ الَّتِي تُؤْوِيهِ ١٣ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ يُنْجِيهِ﴾.

فلا ولد ينفع ولا والد، ولا جاه ينفع ولا مال ولا قرابة تنفع ولا شفيع لأهل

الكفر كما قال تعالى: ﴿مَا لَكُمْ لَا تَنَاصَرُونَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا لَوْ أَتَيْنَاكَ لَنَافَعُكُمْ كَمَا تَبَرَّأُوا مِنَّا﴾ أي أن أهل الكفر لما يرون آلهتهم التي عبدوها من دون الله قد تبرأت منهم يتمنون أن لو رجعوا إلى الدنيا كي يعبدوا الله ويتبرأوا من عبادة الآلهة التي عبدوها مع الله عز وجل فقولهم: ﴿لَوْ أَتَيْنَاكَ لَنَافَعُكُمْ﴾ أي رجعة إلى الحياة الدنيا ﴿فَنَتَبَرَّأُ مِنْهُمْ﴾ نترك عبادتهم وننفض عنها ونظهر براءتنا منها ﴿كَمَا تَبَرَّأُوا مِنَّا﴾ كما أظهر عدم مسؤوليتهم عنا وأنكروا عبادتنا لهم.

وأقول هنا هل الكفار المشركون إذا رُدُّوا إلى الدنيا سيعبدون الله ويوحّدونه بعد أن رأوا العذاب أم لا فأقول كلا بل هم كاذبون في دعواهم.

فلو ردوا لعادوا إلى الكفر وموالاة أهله أيضًا، قال الله تبارك وتعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ وَقَعُوا عَلَى النَّارِ فَقَالُوا يَلَيْسَ لَنَا نَارٌ وَلَا نَكْذِبُ يَأْتِيَتْ رَبِّنَا وَنَكُونُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (٢٧) بل بدا لهم ما كانوا يُخَفُّونَ مِنْ قَبْلُ وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿[الأنعام: ٢٧، ٢٨].

أما قوله تعالى: ﴿كَذَلِكَ يُرِيهِمُ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ﴾ فمحتمل لعدة وجوه: وكلها إن شاء الله صحيحة، والاختلاف فيها من اختلاف التفرع وليس من اختلاف التضاد.

الأول: أن المراد بالأعمال هنا الأعمال السيئة التي عملها الكفار فيرى الله ﷻ للكفار أعمالهم السيئة فيودوا أنهم لم يعملوها وأنهم عملوا صالحًا غيرها.

الثاني: أن المراد بالأعمال هنا أوامر الله التي أمرهم الله بها ونواهيه التي نهاهم عنها سبحانه، فيرى الله ﷻ هذه الأوامر والنواهي للكافرين فيتحسروا على عدم امتثالهم لأوامره وعدم اجتنابهم نواهيه.

الثالث: أن المراد بالأعمال هنا الأعمال الصالحة التي عملها الكفار في الدنيا وذهب ثوابها في الآخرة بسبب كفرهم فيتحسرون على تلك الأعمال التي عملوها وذهب ثوابها، وذلك كما قال تعالى في شأن ذهاب ثواب تلك الأعمال.

﴿وَقَدْ مَنَّآ إِلَىٰ مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُورًا﴾ [الفرقان: ٢٣].

❁ وكما قال سبحانه: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ لَا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا عَلَى شَيْءٍ ذَلِكَ هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ﴾.

[إبراهيم: ١٨]

❁ وكما قال سبحانه: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِنْدَهُ فُوقَهُ حِسَابَهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾.

[النور: ٣٩]

❁ **وتم أقوال آخر منها:** أن المراد بـ (أعمالهم) سيادتهم ووجاهتهم في الدنيا يتحسرون على ذهابها، إلى غير ذلك من الأقوال، والله أعلم.
وقوله تعالى: ﴿وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ﴾ فيه بيان لبقائهم فيها، وفيه الرد على القائلين بفناء النار.



(أمر الناس بالأكل من الحلال الطيب والتحذير من اتباع خطوات الشيطان وكذا التحذير من التقليد في الباطل)

قال الله عز وجل: ﴿يَأْتِيهَا النَّاسُ كُلُّوا مِمَّا فِي الْأَرْضِ حَلَالًا طَيِّبًا وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ ﴿١٦٨﴾ إِنَّمَا يَأْمُرُكُم بِالسُّوءِ وَالْفَحْشَاءِ وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا نَعْلَمُونَ ﴿١٦٩﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلَى نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاءُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴿١٧٠﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿يَأْتِيهَا النَّاسُ كُلُّوا مِمَّا فِي الْأَرْضِ حَلَالًا طَيِّبًا وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾ حاصل معناه يا أيها الناس كلوا مما أخرج لكم من الأرض، من الحلال الطيب، الحلال الذي أحله الله لكم في كتابه الطيب المستساغ الذي تستطيع نفوسكم وتحبونه، والطيب الطاهر الذي ليس بنجس، والطيب غير الضار بالعقول والأبدان.

﴿وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ﴾ أي ولا تسلكوا طرقه التي يقودكم إليها فتحرموا على أنفسكم ما أحله الله لكم كما قال تعالى: ﴿فَكُلُوا مِمَّا ذَكَرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ إِنْ كُنْتُمْ بِآيَاتِهِ مُؤْمِنِينَ ﴿١١٨﴾ وَمَا لَكُمْ أَلَّا تَأْكُلُوا مِمَّا ذَكَرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَقَدْ فَصَّلَ لَكُمْ مَا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ إِلَّا مَا اضْطُرَرْتُمْ إِلَيْهِ وَإِنَّ كَثِيرًا لَيُضِلُّونَ بِأَهْوَاءِهِمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ إِنْ رَبُّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِالْمُعْتَدِينَ ﴿١١٩﴾﴾.

وقال تعالى: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَحَرِّمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾ والاعتداء هنا بتحريم ما أحله الله وتحليل ما حرمه الله فأقبلوا أيها الناس على أكل الحلال الطيب، وقد قال ربكم ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ



لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَتِ مِنَ الرِّزْقِ قَلَّ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَمَةِ ﴿١﴾.

فالشیطان يسعى جاهداً لتحريم ما أحله الله وتحليل ما حرمه الله ويزين ذلك غاية التزيين.

أما قوله: ﴿إِنَّهُ﴾ أي الشیطان ﴿لَكُمْ﴾ يا بني آدم ﴿عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾ عدو قد أظهر لكم عداوته وأبانها فلم تعد خافية ولا مستترة، وأيضاً ﴿إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾ تحتمل إنه عدو ظاهر العداوة.

أما قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَأْمُرُكُمْ بِالسُّوءِ وَالْفَحْشَاءِ﴾ فهو ما يُسيء إلى صاحبه أو يجلب له الإساءة واللوم والعقاب، والمعاصي من السوء لأنها تسيء إلى صاحبها بسوء العاقبة التي يلقاها والمصير الذي يصير إليه.

أما الفحشاء فهي كبائر الذنوب من الأقوال والأفعال كقذف المحصنات، وكالزنا وفعل قوم لوط وغير ذلك.

أما قوله: ﴿وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا نَعْلَمُونَ﴾ مفاده أن الشیطان يأمر أتباعه من بني آدم بالافتراء على الله عز وجل، والكذب على الله، وأن يتكلموا على الله بغير علم، وأن يتبدعوا في دينه، فمن هذه الافتراءات تقولهم على الله ﷻ في مسائل التحليل والتحريم، فيحلون أشياء ويحرمون أشياء وينسبون ذلك إلى الله **سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى** قال الله سبحانه: ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالْأَنْعَامِ نَصِيبًا فَقَالُوا هَذَا لِلَّهِ بِرِزْقِهِمْ وَهَذَا لِشُرَكَائِنَا فَمَا كَانَ لِشُرَكَائِهِمْ فَلََّا يَصِلُ إِلَى اللَّهِ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَيْهِ لَئِنْ شُرَكَائِهِمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿١٣٦﴾ وَكَذَلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِنَ الْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلَادِهِمْ شُرَكَائِهِمْ لِيُرْدُوهُمْ وَلِيَلْبِسُوا عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴿١٣٧﴾ وَقَالُوا هَذِهِ أَنْعَمُ وَحَرَّتْ حَجَرٌ لَا يَطْعَمُهَا إِلَّا مَنْ نَشَاءَ بِرِزْقِهِمْ وَأَنْعَمُ حُرِّمَتْ ظُهُورُهَا وَأَنْعَمُ لَا يَذْكُرُونَ أَسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا افْتِرَاءً عَلَيْهِ سَيَجْزِيهِمْ بِمَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿١٣٨﴾ وَقَالُوا مَا فِي بُطُونِ هَذِهِ الْأَنْعَامِ خَالِصَةٌ لِّذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَى أَزْوَاجِنَا وَإِنْ يَكُن مَيْتَةً فَهُمْ فِيهِ شُرَكَاءُ سَيَجْزِيهِمْ وَصَفَهُمْ إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿١٣٩﴾ قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ قَتَلُوا أَوْلَادَهُمْ سَفَهًا

يَغْيِرَ عَلَيْهِمْ وَحَرِّمُوا مَا رَزَقَهُمُ اللَّهُ افْتِرَاءً عَلَى اللَّهِ قَدْ ضَلُّوا وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ ﴿١٤٠﴾

[الأنعام: ١٣٦، ١٤٠]

﴿ومنها﴾: تقولهم وافترأؤهم وقولهم هذه سائبة وتلك وصيلة وذاك حام، وقد ردَّ الله ﷻ عليهم مزاعمهم تلك فقال سبحانه: ﴿مَا جَعَلَ اللَّهُ مِنْ بَحِيرَةٍ وَلَا سَائِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ وَلَكِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَكَثُرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ [المائدة: ١٠٣] كما قال تعالى: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ لَكُمْ مِنْ رِزْقٍ فَجَعَلْتُمْ مِنْهُ حَرَامًا وَحَلَالًا قُلْ ءَلِلَّهِ إِذْ بَكَرْتُمْ لَكُمْ أَمْ عَلَى اللَّهِ تَفْتَرُونَ﴾ [يونس: ٥٩]. ثم افتراءات على الله ﷻ كما زعمت اليهود عليهم لعائن الله المتتابعة إلى يوم القيامة حيث قالوا: ﴿إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ﴾ [آل عمران: ١٨١]. وزعمهم أن يد الله مغلولة، كما حكى الله ذلك عنهم فقال سبحانه: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ﴾ [المائدة: ٦٤].

﴿ومزاعمهم مع النصارى﴾: أن لله الولد، كما حكى ذلك الله سبحانه عنهم فقال ﷻ: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ ذَلِكَ قَوْلُهُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهِئُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ قَتَلْنَا لَهُمُ اللَّهَ أَنَّى يُؤْفَكُونَ﴾ [التوبة: ٣٠].

وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِمْ آبَاءَنَا﴾ أي وإذا قيل لهؤلاء الكفار المتخذين من دون الله أندادًا، الذين عبدوا الأصنام والأوثان وجعلوها ندًا لله عز وجل، وكذا إذا قيل لهؤلاء الذين حرموا ما أحله الله وأحلوا ما حرم الله، إذا قيل لهؤلاء وأولئك ﴿اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ﴾ امتثلوا أوامر الله فوحدوه وأحلوا ما أحلَّ وحرموا ما حرم واعملوا بما أنزل الله على نبيه ﷺ، رفضوا ذلك واستكبروا ولم يذعنوا للحق، وقالوا بل نفعل ما فعله آباؤنا ونقول بقولهم ونعمل بعملهم فنحل ما أحلوه ونحرم ما حرموه ونعبد ما عبدوه، فيقال لهم ﴿أَوَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ﴾ أفتتبعونهم وإن كانوا ﴿لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا﴾ من دين الله ولا يعرفون حدود الله ولا محارم الله!!

أفتتبعونهم وإن كانوا على ضلال ﴿وَلَا يَهْتَدُونَ﴾ لخير ولا لرشد؟!

(ذم التقليد في الباطل)

وفي الآية الكريمة ذمٌ للتقليد في الباطل كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾ [البقرة: ١٧٠].

❀ وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ تَعَالَوْا إِلَىٰ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَإِلَىٰ الرَّسُولِ قَالُوا حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾ [البقرة: ١٠٤].

❀ وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ الشَّيْطَانُ يَدْعُوهُمْ إِلَىٰ عَذَابِ السَّعِيرِ﴾ [لقمان: ٢١].

❀ وقوله تعالى: ﴿أَمْ أَنَسَنتُمْ كِتَابًا مِن قَبْلِهِ فَهُمْ بِهِ مُسْتَمْسِكُونَ ﴿٢١﴾ بَلْ قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَرِهِمْ مُّهْتَدُونَ ﴿٢٢﴾ وَكَذَلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَرِهِمْ مُّقْتَدُونَ ﴿٢٣﴾ قُلْ أُولُو حِشْمَتِكُمْ يَهْدِي مِمَّا وَجَدْتُمْ عَلَيْهِ آبَاءَكُمْ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ ﴿٢٤﴾ فَانْتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَنْظَرَكِيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكْذِبِينَ﴾ [الزخرف: ٢١-٢٥].

وقال تعالى: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨﴾ إِنَّهُمْ لَن يُغْنُوا عَنْكَ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَإِنَّ الظَّالِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [البقرة: ١٨، ١٩].

❀ وقوله تعالى: ﴿وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكِبَرَاءَنَا فَأَضَلُّنَا السَّبِيلَ رَبَّنَا ﴿٦٧﴾ إِنَّهُمْ ضِعَفَيْنِ مِنَ الْعَذَابِ وَالْعَنَافُ لَعَنَّا كَبِيرًا﴾ [الأحزاب: ٦٧، ٦٨].



(مثل مضروب لأهل الكفر مع الهتهم)

قال الله عز وجل: ﴿ وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لَا

يَسْمَعُ إِلَّا دُعَاءً وَنِدَاءً صُمُّ بُكْمٌ عُمَىٰ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ۖ ﴾ .

قوله تعالى: ﴿ وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَاءً وَنِدَاءً ۖ ﴾

فيه تأويلان مشهوران لأهل العلم:

التأويل الأول هو: ومثل واعظ الذين كفروا الذي يعظمهم مع هؤلاء الكفار كمثل صاحب بقر أو غنم أو بهيمة يناديها وينعق بها فتسمع ما يقول لكنها لا تفقه منه شيئاً، فهناك أربعة أطراف:

١ - واعظ^(١) الذين كفروا. ٢ - الذين كفروا.

٣ - الناقع الذي ينعق (وهو الراعي). ٤ - الذي لا يسمع.

(وهي: الدواب التي يرهاها).

فحال واعظ الذين كفروا مع الذين كفروا كحال الراعي مع البهائم التي يناديها، فكما أن البهائم لا تفهم من راعيها شيئاً إلا صوته، فكذلك الذين كفروا لا يفهمون من واعظهم شيئاً إلا صوته فعلى ذلك فالذين كفروا بهائم، ويؤيد كونهم بهائم ما يلي:

﴿ قَوْلُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿إِنَّهُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾ [الفرقان: ٤٤].

﴿ وَقَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿فَمَا لَهُمْ عَنِ التَّذْكَرَةِ مُعْرِضِينَ﴾ (٤٩) كَانَهُمْ حُمُرٌ مُّسْتَنْفِرَةٌ ﴿٥٠﴾ فَرَّتْ مِنْ

قَسْوَرَةٍ﴾ [المدثر: ٤٩ - ٥١].

﴿ وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي ءَاتَيْنَاهُ ءَايَاتِنَا فَانْسَلَخَ مِنْهَا فَاتْبَعَهُ

(١) وواعظ الكفار هو كل داعٍ لهم إلى الخير، وبالدرجة الأولى هو نبينا محمد ﷺ.

الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْعَاوِينَ ﴿١٧٥﴾ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَتَشَبَّهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحْمِلَ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَثْ ذَلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٧٦﴾ [الأعراف: ١٧٥، ١٧٦].

❀ وقوله تعالى: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ حُمِلُوا التَّوْرَةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا بِئْسَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ﴾ [الجمعة: ٥].

❀ **والوجه الثاني من أوجه التأويل:** ومثل الذين كفروا مع آلهتهم التي يدعونها من دون الله (عند ندائهم لها وطلبهم منها) كمثال الراعي حين ينادي البهائم التي لا تفهم عنه ولا تعي ما يقول.

فهناك أيضًا أربعة أطراف:

١ - الذين كفروا حين ينادون.

٢ - الآلهة.

٣ - الراعي حين ينادي.

٤ - بهائم.

فكما أن البهائم لا تعقل شيئاً إلا أنها تسمع الدعاء والنداء، فكذلك الآلهة التي تدعى من دون الله لا تعقل شيئاً^(١).

وقوله تعالى: ﴿صُمُّ بُكْمٌ عُمَىٰ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ أي أن أهل الكفر ﴿صُمٌّ﴾ عن سماع الحق لا يسمعون، وإن سمعوه لا يعقلوه ﴿بُكْمٌ﴾ أي خرسٌ عن النطق بالحق ﴿عُمَىٰ﴾ عن الحق وعن رؤيته وتمييزه ﴿فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ لا يفهمون الحق من الباطل، ولا الصواب من الخطأ.



(١) وإن قُدِّرَ سماعُ الجنَّةِ التي في بعضها.

(أمر المؤمنين بالأكل من الحلال الطيب
وبيان ما حرمه الله عز وجل عليهم)

قال الله عز وجل: ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَاشْكُرُوا لِلَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ۖ إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنْزِيرِ وَمَا أُهْلَ بِهِ لِغَيْرِ اللَّهِ فَمَن أَضْطَرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ ۚ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝١٧٣﴾.

وقوله تعالى: ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَاشْكُرُوا لِلَّهِ﴾ كلوا من الحلال الطيب الذي أحللتكم لكم فطاب لكم بتحليلي إياه لكم، ولا تحرموا ما أحلته لكم، وقدموا شكراً لله على ما أنعم به عليكم فالنعم تستلزم تقديم الشكر فقوله تعالى: ﴿وَاشْكُرُوا لِلَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ معناه وقدموا شكراً لله على نعمه، والتي منها تحليل الطيبات قدموا شكراً لله ﴿إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ أي إن كنتم إياه تعبدون وحده لا تشركون به أحداً.

وقد تلا رسول الله ﷺ هذه الآية في موطن، وذلك من حديث أبي هريرة رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «أَيُّهَا النَّاسُ، إِنَّ اللَّهَ طَيِّبٌ لَا يَقْبَلُ إِلَّا طَيِّبًا، وَإِنَّ اللَّهَ أَمَرَ الْمُؤْمِنِينَ بِمَا أَمَرَ بِهِ الْمُرْسَلِينَ، فَقَالَ: ﴿يَأَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا ۚ إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾ وَقَالَ: ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ﴾ ثُمَّ ذَكَرَ الرَّجُلَ يُطِيلُ السَّفَرَ أَشْعَثَ أَغْبَرَ، يَمُدُّ يَدَيْهِ إِلَى السَّمَاءِ، يَا رَبَّ، يَا رَبَّ، وَمَطْعَمُهُ حَرَامٌ، وَمَشْرَبُهُ حَرَامٌ، وَمَلْبَسُهُ حَرَامٌ، وَغُذِيَ بِالْحَرَامِ، فَأَنَّى يُسْتَجَابُ لِذَلِكَ؟»^(١).

أما قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنْزِيرِ وَمَا أُهْلَ بِهِ﴾

(١) أخرجه مسلم (١٠١٥).

لِغَيْرِ اللَّهِ ۖ فَحَاصِلُ مَعْنَاهُ: كُلُوا أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ مِمَّا أَحَلَّتْهُ لَكُمْ وَاشْكُرُوا نِعْمَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ فِي تَحْلِيلِهِ لَكُمْ مَا أَحَلَّهُ وَتَطْيِيبِهِ لَكُمْ، وَلَا تَحْرُمُوا عَلَى أَنْفُسِكُمُ الطَّيِّبَاتِ الَّتِي أَحَلَّتْهَا لَكُمْ، وَلَا تَعْتَقِدُوا فِي شَيْءٍ أَنَّهُ مُحْرَمٌ فَتَمْتَنِعُونَ مِنْ أَكْلِهِ فَإِنَّ الَّذِي حَرَّمَهُ عَلَيْكُمْ إِنَّمَا هُوَ الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ وَلَحْمُ الْخَنزِيرِ وَمَا أَهَلَ بِهِ لِغَيْرِ اللَّهِ، وَمَا سِوَى ذَلِكَ فَهُوَ لَكُمْ حَالِلٌ.

هذا، وقد استثنيت أشياء من الآية وأضيفت أشياء فأحلَّ من الميتة السمك والجراد، واستثنى من الدم الكبد والطحال كما جاء في الأثر عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: «أُحِلَّتْ لَنَا مَيْتَتَانِ وَدَمَانِ فَأَمَّا الْمَيْتَتَانِ فَالْسَمَكُ وَالْجَرَادُ وَأَمَّا الدَّمَانِ فَالْكَبِدُ وَالطَّحَالُ» ^(١).

وكذا أُحِلَّتْ لَنَا مَيْتَةُ الْبَحْرِ لِقَوْلِ النَّبِيِّ ﷺ لما سئل عن الوضوء بماء البحر، قال: «هُوَ الطَّهُّورُ مَاؤُهُ الْحَلَالُ مَيْتَةً» ^(٢).

وكذا فَإِنَّ النَّبِيَّ ﷺ حَرَّمَ كُلَّ ذِي نَابٍ مِنَ السَّبَاعِ وَكُلِّ ذِي مَخْلَبٍ مِنَ الطَّيْرِ ^(٣) فَحَرَّمَ بِذَلِكَ الْكِلَابَ وَالسَّبَاعَ وَالصَّقُورَ وَالنَّمُورَ وَالْعُقَارِبَ وَالْحَيَاتِ. وكذا فَقَدْ نَهَى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَنْ لَحُومِ الْحَمْرِ الْإِنْسِيَةِ ^(٤).

وكذا فَإِنَّ الْخَبَائِثَ حَرَّمَ إجمالاً قال تعالى: ﴿وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ﴾.

أما قوله تعالى: ﴿وَمَا أَهَلَ بِهِ لِغَيْرِ اللَّهِ﴾ ۖ فَمَعْنَاهُ وَاللَّهُ أَعْلَمُ: وما ذبح وذكر عليه اسم غير اسم الله تبارك وتعالى وذلك أَنَّهُمْ كَانُوا يَذْكُرُونَ اسْمَ آلِهَتِهِمْ عَلَى الذَّبِيحَةِ وَيَرْفَعُونَ أَصْوَاتَهُمْ بِذَلِكَ وَيَشْمَلُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَمَا أَهَلَ﴾

(١) صحيح موقوف لكن له حكم المرفوع، أخرجه الطبري بنحوه (١٢٧٠٠).

(٢) صحيح: أخرجه أبو داود (٨٣) والترمذي (٦٩) وغيرهما.

(٣) أخرجه مسلم (١٩٣٤) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما وأخرجه البخاري (٥٥٣٠) ومسلم (١٩٣٢).

من حديث أبي ثعلبة الخشني رضي الله عنه نهى النبي ﷺ عن كل ذي مخلب من السباع.

(٤) البخاري (٤٢١٦) ومسلم (١٤٠٧).

بِهِ لَعَنَ اللَّهُ ۖ مَا ذَبَحَ لِغَيْرِ اللَّهِ.

وقوله تعالى: ﴿فَمَنْ أَضْطَرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ لأهل العلم في معناه أقوال: منها فمن ألجأته الضرورة فأكل من هذه المذكورات غير باغ على الناس غير خارج على الأئمة بسيفه بغير حق ولا خارج في معصية الله ولا مفارق للجماعة ولا عادياً عليهم بحرب وعدوان، فمن خرج وهو مفارق للجماعة أو خرج على إمام المسلمين أو خرج قاطعاً للطريق ولم يجد طعاماً فليس له أن يأكل من الميتة والدم ولحم الخنزير وممن قال بهذا القول مجاهد بن جبر رضي الله عنه فقد روى الطبري ذلك عنه من عدة طرق.

والقول الثاني: وهو غير باغ غير طالب للحرام وللشهوة، و﴿وَلَا عَادٍ﴾ [البقرة: ١٧٣] أي: ولا متعد القدر الذي أبيح له أن يأكله. فليس له أن يطلب الحرام وينشده، وليس له أن يأكل أكثر من حاجته.

وقوله تعالى: ﴿فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ حاصل معناه أن المضطر لا وزر عليه ولا يعاقب على كونه أكل من المذكورات التي حرمها الله عز وجل، وذلك لأن الله عز وجل يغفر له ذنبه رحيم به لطاعته له فإنه لم يأكل من المحرمات إلا عندما ألجأته الضرورة والله أعلم.

هذا، وقد وردت عدة آيات في رفع الحرج عن أمة محمد ﷺ منها الآية المذكورة، ومنها قوله تعالى: ﴿وَقَدْ فَصَّلَ لَكُمْ مَا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ إِلَّا مَا اضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ﴾. وقوله تعالى: ﴿فَمَنْ أَضْطَرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾.



(التحذير من كتمان العلم الشرعي النافع
وبيان عقوبة من فعل ذلك)

قال الله عز وجل: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنْ الْكِتَابِ وَيَشْتَرُونَ بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ إِلَّا النَّارَ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ١٧٤ ﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرُوا الضَّلَالََةَ بِالْهُدَى وَالْعَذَابَ بِالْمَغْفِرَةِ فَمَا أَصْبَرَهُمْ عَلَى النَّارِ ١٧٥ ﴾ ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ نَزَّلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِي الْكِتَابِ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ ١٧٦ ﴾

وقوله تعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنْ الْكِتَابِ وَيَشْتَرُونَ بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ إِلَّا النَّارَ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ١٧٤ ﴾

فيه تحذير لليهود والنصارى ومن سلك مسلكهم في كتمان العلم النافع الذي أنزله الله عز وجل فقوله: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنْ الْكِتَابِ ﴾ هم اليهود والنصارى كتموا جملةً من الأمور الموجودة في التوراة والإنجيل، منها صفة رسول الله ﷺ وصفة أصحابه وكتموا أموراً تتعلق بالحدود وكتموا الحق والهدى، وكان أكثرهم كتماناً اليهود فقد عُرِفوا بذلك (فالكتاب) المراد به التوراة كتمت اليهود كثيراً مما فيه والإنجيل كتمت النصارى أيضاً كثيراً مما فيه.

وقوله تعالى: ﴿ وَيَشْتَرُونَ بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا ﴾ أي أنهم يشترون بالشيء الذي كتموه ثمنًا قليلاً، فمحتمل أنهم كانوا يأخذون مقابل كتمانهم أمر محمد ﷺ بعض

الرشاوي أو يظنون أنهم يحصّلون بعض الجاه والمنزلة عند أتباعهم، ويحتمل أيضاً أنهم يحرفون الكتاب يأخذون عوضاً مقابل تحريفه بما يتمشى مع أهل الشرف والمال منهم، والله تعالى أعلم.

وقوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ﴾ أي الكاتمون ﴿مَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ إِلَّا النَّارَ﴾ حاصل معناه والله أعلم: ما يأكلون في بطونهم إلا ما يوردهم النار. وأطلق على ما يأكلونه أنه نار باعتبار ما سيؤول إليه يوم القيامة كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ آلَيْتَمَى ظُلْمًا إِنَّمَّا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا﴾ [النساء: ١٠]، والله أعلم. وقوله تعالى: ﴿وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ﴾ أي لا يكلمهم كلاماً فيه رحمة وفيه بشارة، وإنما إذا كلمهم فيكلمهم للتوبيخ والوعيد وعدم إجابة طلبهم كما في قوله تعالى لهم ﴿أَخْشَوْا فِيهَا وَلَا تَكْمُنُوا﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَلَا يُزَكِّيهِمْ﴾ أي لا يطهرهم من دنس الذنوب ولا يغفر لهم ولا يمحو عنهم خطاياهم ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ أي مؤلم مّوجع. وقوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرُوا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَى وَالْعَذَابَ بِالْمَغْفِرَةِ﴾ حاصل معناه أولئك الذين تركوا الهدى وأخذوا ما يوجب لهم العذاب وتركوا من يجلب لهم المغفرة.

وقوله: ﴿فَمَا أَصْبَرَهُمْ عَلَى النَّارِ﴾ لأهل العلم فيه أقوال:

أحدها: فما أجرأهم على العمل الذي يدخلهم النار.

الثاني: العجب كيف يتحملون النار ويصبرون عليها.

الثالث: العجب كيف لا يبالون بالنار.

الرابع: ما الذي سيصبره على تحمل النار والله أعلم.

أما قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ نَزَّلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ﴾ أي ذلك التعذيب الذي ذكرناه وأنه يحل بالذين يكتمون ما أنزل الله من الكتاب ويشترون به ثمناً قليلاً إنما حل بهم وحق عليهم لأن الله ﷻ نزل الكتاب بالحق فكفروا به وخالفوه وكتموا ما فيه.

وقوله: ﴿وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِي الْكِتَابِ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ﴾ فيه أقوال :

أحدها: أن المراد بالكتاب هو التوراة والذين اختلفوا فيه هم اليهود والنصارى، واختلفوا في جملة أمور منها: اختلافهم في شأن عيسى، فزعمت اليهود أن التوراة ليس فيها ذكر عيسى وكفرت يهود بعيسى وبمريم عليهما السلام.

أما النصارى فآمنوا ببعض ما في التوراة من شأن عيسى وكفروا ببعض آخر وهو أنهم آلهوا عيسى عليه السلام وجعلوه رباً يُعبد.

واليهود والنصارى كلاهما اختلفوا في شأن نبينا محمد صلى الله عليه وسلم وفي صفته المثبتة في كتبهم بعد أن حرفوها وكنموها.

واختلفوا في أمور أخر كما قال النبي صلى الله عليه وسلم: «أضل الله من قبلنا عن يوم الجمعة...» الحديث، فاختارت اليهود السبت، واختارت النصارى الأحد.

﴿ومن العلماء من قال: إن المراد بالكتاب القرآن، والذين اختلفوا فيه اليهود والنصارى والمشركون.

أما وجه اختلافهم فاختلف اليهود والنصارى فيه شيء مما ذكر سابقاً واختلاف المشركين في قولهم على الكتاب فمنهم من قال: ﴿أَسْطِيرَ الْأَوَّلِينَ﴾ أَسْطِيرَ هَافِي تُمَلَّى عَلَيْهِ بُكْرَةٌ وَأَصِيلًا ﴿[الفرقان: ٥]، ومنهم من قال: ﴿إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْتَرُ﴾ (٢٤) إِنْ هَذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ ﴿[المصدر: ٢٤، ٢٥]، ومنهم من قال: ﴿إِنَّمَا يَعْلَمُهُ بَشَرٌ﴾ [النحل: ١٠٣] إلى غير ذلك.



(بيان وجوه البر)

قال الله عز وجل: ﴿لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّنَ وَءَاتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَءَاتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ﴾ معناه ليس التبرر والتقرب إلى الله عز وجل بتوجهكم ناحية المشرق أو ناحية المغرب في صلاتكم، فليس المقصد هو التوجه إنما يتقرب من الله عز وجل للإيمان به وطاعته وامتنال أمره، فإذا وجهكم ناحية المشرق توجهتم، وإذا وجهكم ناحية المغرب توجهتم، وإذا وجهكم إلى أي مكان توجهتم فالثواب يتأتى من طاعة الله عز وجل واتباع ما أمر به فقوله: ﴿لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ﴾ حاصل معناه، والله أعلم ليس ذلك هو البر إذا لم يكن عن طاعة الله ورسوله فليس ذلك من البر، والبر إنما هو طاعتنا لله في ذلك، فلو أمرنا أن نتوجه إلى أي مكان فتوجهنا إليه كان توجهنا إليه برُّ لما فيه من طاعة الله، والله أعلم.

وهذا كقوله تعالى في شأن الأضاحي ودماء التمتع ﴿لَنْ يَنَالَ اللَّهُ لُحُومَهَا وَلَا دِمَاؤها وَلَكِنْ يَنَالُهُ التَّقْوَىٰ مِنْكُمْ﴾.

هذا، وقد ذهب بعض أهل العلم إلى أن الآية الكريمة في اليهود والنصارى، فاليهود يولون وجوههم قبل المغرب والنصارى يولون وجوههم قبل المشرق، وكل منهم يزعم أنه على خير مع كفره برسالة محمد ﷺ وتركهم الإيمان، فلهم يوجّه الخطاب.

وقوله: ﴿وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ﴾ فيه أقوال:

أحدها: ولكن البرُّ من آمن.

الثاني: ولكن التبرر والتقرب إلى الله عز وجل تبرر وتقرب من تقرب إلى الله بالإيمان بالله واليوم الآخر.

الثالث: أن البر بمعنى البار، والمعنى ولكن البار والمتقرب إلى الله هو من تقرب إلى الله بالإيمان بالله واليوم الآخر.

فحاصل هذه الأقوال: ولكن التبرر الحقيقي والتقرب إلى الله عز وجل حق التقرب إنما هو بالإيمان بالله، التصديق بوحدايته والإقرار بقدرته وبأسمائه الحسنی وصفاته العلی ونفی الشریک عنه والولد والصاحبة والند والمثیل، وكل ذلك على ما ورد في كتاب الله عز وجل وسنة رسوله ﷺ الثابتة الصحيحة، فذاك قوله: ﴿وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ أي وآمن باليوم الآخر وهو يوم القيامة على الوجه الذي أخبر به الله عز وجل ورسوله ﷺ وقوله ﴿وَالْمَلَائِكَةِ﴾ أي وآمن بملائكة الله عز وجل، والمراد - والله تعالى أعلم - التصديق بهم وبوجودهم والأعمال الموكولة إليهم فمنهم رسل الله إلى أنبيائه، ومنهم من يلتصقون مجالس الذكر، ومنهم الخزنة (خزنة الجنة وخزنة جهنم)، ومنهم الحفظة، ومنهم الكتبة الكرام، ومنهم من يقبض الأرواح، ومنهم من ينفخ في الصور، ومنهم من ينقلون صلاتنا على رسول الله ﷺ إليه، ومنهم من يشهدون الصلوات، ومنهم المقاتلون في سبيل الله، ومنهم... وكلهم عباد لله ﴿يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لَا يَفْترُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٠]، ﴿لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ﴾ [الأنبياء: ١٩]، وكلهم ﴿لَا يَعْصُونَ

اللَّهُ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴿التَّحْرِيم: ٦﴾.

وكذا يؤمن بأنهم خلقوا من نور، ويؤمن بسائر أوصافهم وأعمالهم الواردة في كتاب الله عز وجل وسنة رسوله ﷺ.

وقوله: ﴿وَالْكِتَابِ﴾ المراد به عموم الكتب المنزلة من عند الله عز وجل فدخل فيها القرآن والتوراة والزبور والإنجيل وصحف إبراهيم وصحف موسى وعموم الكتب التي أنزلها الله على أنبيائه.

وقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ﴾ أي وآمن بجميع الأنبياء الذين بعثهم الله عز وجل. وقوله تعالى: ﴿وَأَتَى الْوَالِدَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى﴾ أي: وأنفق المال مع محبته له ^(١) على ذوي القربى وهم الأقرباء، وأقرباء المتصدق وهم ﴿وَالَّذِينَ﴾ وهم من مات آباؤهم وهم ضعفاء صغار دون البلوغ والقدرة على التكسب ﴿وَالْمَسْكِينِ﴾ وهم الذين لا يجدون ما يكفيهم لمعايشهم وسكناهم، ولا يسألون الناس إلحافاً وأخرج البخاري ومسلم من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «لَيْسَ الْمِسْكِينُ الَّذِي يَطُوفُ عَلَى النَّاسِ تَرُدُّهُ اللَّقْمَةُ وَاللَّقْمَتَانِ وَالتَّمْرَةُ وَالتَّمْرَتَانِ وَلَكِنَّ الْمِسْكِينَ الَّذِي لَا يَجِدُ غَنًى يُغْنِيهِ وَلَا يَفْطَنُ بِهِ فَيَتَصَدَّقَ عَلَيْهِ وَلَا يَقُومُ فَيَسْأَلَ النَّاسَ».

*والسائل الذي ترده اللقمة واللقمتان مسكينٌ وحديث رسول الله ﷺ: «لَيْسَ الْمِسْكِينُ الَّذِي تَرُدُّهُ اللَّقْمَةُ وَاللَّقْمَتَانِ» ^(٢) معناه - والله أعلم - ليس المسكين كامل المسكنة هو من ترده اللقمة واللقمتان وإنما هناك مسكين أشد من هذا المسكين وهو الذي لا يجد غنى يغنيه ولا يفطن به فيتصدق عليه ولا يقوم فيسأل الناس، والله أعلم.

وقوله: ﴿وَأَبْنِ السَّبِيلِ﴾ أي أعطى ابن السبيل وابن السبيل هو المسافر الذي انتهت النفقة التي معه ولا يستطيع الرجوع إلى بلده فيعطى ما يوصله إلى بلده،

(١) كقوله تعالى: ﴿لَنْ نَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ﴾ وكقوله تعالى: ﴿وَيُطْعَمُونَ أَلْفَ طَعَامٍ عَلَى حُبِّهِ﴾.

(٢) البخاري (١٤٧٩)، ومسلم (١٠٣٩).

وزاد الحافظ ابن كثير فقال: وكذا الذي يريد سفرًا في طاعة فيُعْطَى ما يكفيه في ذهابه وإيابه.

وقوله: ﴿وَالسَّائِلِينَ﴾ أي وأعطى السائلين وهم المحاويج الذين يسألون الناس ويتعرضون للطلب منهم هذا، وقد ورد هاهنا حديث ضعيف؟ ألا وهو «للسائل حق وإن جاء على فرس»^(١).

وقوله: ﴿وَفِي الرِّقَابِ﴾ أي في تحريرها من العبودية وكذلك في الأداء عن المكاتب^(٢).

وقوله تعالى: ﴿وَأَقَامَ الصَّلَاةَ﴾ أي حافظ عليها في أوقاتها وداوم عليها بأركانها وواجباتها ﴿وَعَاتَى الزَّكَاةَ﴾ المفروضة عليه، أما قوله تعالى المتقدم ﴿وَعَاتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ﴾ فالظاهر أنه منزلٌ على التطوع، أي على صدقة التطوع وليست الزكاة المفروضة والله أعلم.

وقوله تعالى: ﴿وَالْمُؤْفُوكَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا﴾ حتى مع الكفار فضلًا عن المؤمنين، وذلك لعموم النصوص وهذه كقوله تعالى ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ﴾.

كقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَلَا يَنْقُضُونَ الْعَيْثَ﴾ [الرعد: ٢٠].

وقوله عز وجل: ﴿وَابْرِهِمَ الَّذِي وَفَّى﴾ [النجم: ٣٧].

وقوله تعالى: ﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ وَلَا تَنْقُضُوا الْأَيْمَنَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا﴾ [النحل: ٩١].

(١) ضعيف: أخرجه أبو داود (١٦٦٥)، وأحمد (٢٩/١)، وغيرهما، وفي سنده يعلى بن أبي يحيى وهو مجهول.

(٢) أي: العبد الذي اتفق مع سيده على أن يعتقه مقابل بعض المال يعطيه العبد للسيد وكتبنا بذلك كتابًا، فيسمى العبد حينئذ: مكاتبًا، ويساعد ببعض المال، وفي هذا المعنى قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَبْتَغُونَ الْكِتَابَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا ؕ وَأَوْفُوا بِمَا أَلَّفَ اللَّهُ الَّذِي ءَاتَاكُمْ﴾ [النور: ٣٣].
وقول النبي ﷺ: «ثلاثة حق على الله عونهم والمكاتب يريد الأداء...».

وقوله تعالى: ﴿وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ﴾ أي الصابرين في أوقات الفقر، وهو ﴿الْبَأْسَاءِ﴾، ﴿وَالضَّرَّاءِ﴾ وهي الضر في الأبدان والأمراض والأسقام.

وقوله تعالى: ﴿وَحِينَ الْبَأْسِ﴾ أي عند القتال.

وقوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا﴾ في إيمانهم وكونهم متبررين إلى الله متقربين إليه معه التقرب، وليسوا كمن ادعوا الإيمان لكونهم توجهوا إلى المشرق أو إلى المغرب مع كفرهم بالله عز وجل وتكذيبهم رسل الله ونقضهم العهود والمواثيق وكتمانهم العلم الشرعي النافع.

وقوله: ﴿وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُنْفِقُونَ﴾ الذين اتقوا الشرك واتقوا غضب الله وعقابه باجتناب ما نهاهم عنه وبفعل ما أمرهم به.



(الأمر بالقصاص وإباحة العفو وبيان فائدة القصاص)

قال الله عز وجل: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلِ ۖ
 الْحُرُّ بِالْحُرِّ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ ۖ وَالْأُنثَىٰ بِالْأُنثَىٰ ۖ فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ
 فَأُنبِيعَ بِالْمَعْرُوفِ ۖ وَأَدَاءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَنٍ ۚ ذَلِكَ تَخْفِيفٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ
 فَمَنِ اعْتَدَىٰ بَعْدَ ذَلِكَ فَهُوَ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٧٨﴾ وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَوةٌ
 يَتَأُولَىٰ أَلْبَابٍ لَّعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٧٩﴾ ۝

قوله تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلِ﴾ أما ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ﴾ فمعناها: فرض عليكم وألزمتم به، أما القصاص فمعاقبة الجاني بمثل ما صنع والمراد هنا أنه إذا قتل قُتل.

والمعنى الإجمالي يا أيها الذين آمنوا فرض عليكم من الأحكام في شريعتكم أن القاتل يُقتل إذا أراد أهل المقتول ذلك.

وهنا تنبيهات:

أحدها: أن المراد بالقاتل القاتل عمداً أما القاتل على سبيل الخطأ فخارج من ذلك لقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَتْ لِمُؤْمِنٍ أَنْ يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَاً وَمَنْ قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَاً فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ وَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰ أَهْلِهِ إِلَّا أَنْ يَصَدَّقُوا﴾ الآية.

التنبيه الثاني: كما سلف أهل المقتول ليس بفرض عليهم أن يقتلوا القاتل بل لهم العفو أو قبول الدية وذلك لقوله تعالى: ﴿فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَأُنبِيعَ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدَاءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَنٍ﴾ [البقرة: ١٧٨].

وقوله تعالى: ﴿فَمَنْ تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَهُ﴾ [المائدة: ٤٥].

ولقول النبي ﷺ: «وَمَنْ قُتِلَ لَهُ قَتِيلٌ فَهُوَ بِخَيْرِ النَّظَرَيْنِ إِمَّا يُودَىٰ وَإِمَّا يُقَادُ»^(١).

التنبيه الثالث: إقامة الحدود منوطة بولاية أمور المسلمين في البلاد التي بها ولاية أمور يقيمون في الناس كتاب الله عز وجل وسنة رسول الله ﷺ ويقتصون للمظلوم من ظالمه ففي مثل هذه البلاد لا يجوز لمن قتل له قتيلا أن يقتل القاتل إلا بعد الحكم الشرعي على القاتل بالقتل وإلا حدثت الفوضى وعم الفساد، والله تعالى أعلم.

التنبيه الرابع: ذهب جمهور العلماء - كما نقل عنهم القرطبي وغيره إلى أنه لا يقتل مسلم بكافر ومن حججهم ما أخرجه البخاري^(٢) من حديث علي رضي الله عنه وقد سأله أبو جحيفة: هَلْ عِنْدَكُمْ شَيْءٌ مِنَ الْوَحْيِ إِلَّا مَا فِي كِتَابِ اللَّهِ قَالَ: وَالَّذِي فَلَقَ الْحَبَّةَ وَبَرَأَ النَّسَمَةَ مَا أَعْلَمُهُ إِلَّا فَهَمَّا يُعْطِيهِ اللَّهُ رَجُلًا فِي الْقُرْآنِ، وَمَا فِي هَذِهِ الصَّحِيفَةِ. قُلْتُ وَمَا فِي الصَّحِيفَةِ قَالَ الْعَقْلُ وَفِكَاكَ الْأَسِيرِ، وَأَنْ لَا يُقْتَلَ مُسْلِمٌ بِكَافِرٍ».

قلت: وهو يخصص عموم قوله تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ فِي الْقَتْلِ﴾ [البقرة: ١٧٨] الآية، وعموم قوله: ﴿النَّفْسُ بِالنَّفْسِ﴾ [المائدة: ٤٥].

ومن حججهم أيضًا ما ورد من طريق ابن إسحاق عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده مرفوعًا «لا يقتل مسلم بكافر»^(٣).

وصح عن ابن عمر أن رجلاً مُسْلِمًا قتل رجلاً من أهل الذمة عمدًا ورُفِعَ إلى عثمان فلم يقتله وغلظ عليه الدية مثل دية المسلم^(٤).

(١) أخرجه البخاري (حديث ٦٨٨٠)، ومسلم (حديث ١٣٥٥) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعًا.

(٢) البخاري (٦٩١٥).

(٣) أخرجه أبو داود (٢٧٥١)، وإسناده قابل للتحسين وقد صرح ابن إسحاق بالتحديث كما عند أحمد

(٢١٨/٢) إلا أن بعض أهل العلم لا يقبلون ما رواه ابن إسحاق في الأحكام لكن يشهد له ما تقدم.

(٤) عبد الرزاق (١٠٢٢٤).

التنبية الخامس: ذهب جمهور العلماء إلى أنه إذا اشترك جماعة في قتل واحد فإنهم يقتلون به، ومن حججهم ما يلي:

* قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلِ﴾ * وأن هؤلاء قتلة.
* أن النبي ﷺ قتل العرنين، وهم جماعة، لما قتلوا الراعي، وهو واحد^(١).
* ومن الحجج أيضاً لذلك ما أخرجه البخاري من حديث ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أن غلاماً قُتل غيلةً فقال عمر: لو اشترك فيها أهل صنعاء لقتلتهم^(٢).

ومن الحجج أيضاً ما أخرجه البخاري^(٣) من حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قالت عائشة: لَدَدْنَاهُ فِي مَرَضِهِ، فَجَعَلَ يُشِيرُ إِلَيْنَا، أَنْ لَا تَلْدُونِي. فَقُلْنَا كَرَاهِيَةَ الْمَرِيضِ لِلدَّوَاءِ. فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ: «أَلَمْ أَنْهَكُمُ أَنْ تَلْدُونِي». قُلْنَا كَرَاهِيَةَ الْمَرِيضِ لِلدَّوَاءِ. فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «لَا يَبْقَى فِي الْبَيْتِ أَحَدٌ إِلَّا لَدَّ - وَأَنَا أَنْظُرُ - إِلَّا الْعَبَّاسَ فَإِنَّهُ لَمْ يَشْهَدْكُمْ». وقد ورد عن علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بإسناد رجاله ثقات أنه قتل ثلاثة قتلوا رجلاً^(٤).

ولمزيد انظر القرطبي وابن كثير وابن عبد البر في الاستذكار.

التنبية السادس: الرجل يقتل بالمرأة إذا قتلها وهذا رأى أكثر العلماء بل قد نُقل الإجماع عليه، ومن الأدلة على ذلك ما يلي:

قوله تعالى: ﴿وَكُنِبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنْ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ﴾.

وفعل رسول الله ﷺ وذلك فيما أخرجه البخاري ومسلم في صحيحيهما من حديث أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن يهودياً رضخ رأس امرأة بين حجرين فرضخ رسول

(١) أخرجه البخاري (٢٣٣) وفي غير موضع من صحيحه ومسلم (١٦٧١) ومن العلماء من خدش في الاستدلال بهذا لكون العرنين قد ارتدوا.

(٢) أخرجه البخاري (٦٨٩٦)، قال الحافظ ابن حجر: وهذا الأثر موصول إلى عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بأصح إسناد وأورد الحافظ ابن حجر عدة طرق لهذا الأثر.

(٣) البخاري (٦٨٩٧).

(٤) أخرجه ابن أبي شيبة في المصنف (٢٧٦٩٦)، وله طريق آخر عند عبد الرزاق في المصنف (١٨٢٩٢).

الله ﷺ رأسه بين حجرين»^(١).

وكذا فقد نقل ابن المنذر الإجماع على ذلك، وقال في كتابه الإجماع: وأجمعوا على القصاص بين المرأة والرجل في النفس إذا كان القتل^(٢).

التنبيه السابع: هل يُقتل الحر بالعبد؟

ذهب جمهور العلماء إلى أن الحر لا يقتل بالعبد واستدلوا بقوله تعالى: ﴿وَمَنْ قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لَوْلِيهِ سُلْطَانًا﴾.

وليست الآية الكريمة بصريحة في الاستدلال واستدلوا بأدلة أخرى ضعيفة الأسانيد منها أن رجلاً قتل عبده متعمداً فجلده رسول الله ﷺ مائة جلدة ونفاه سنة ومحا سهمه من المسلمين ولم يُقد منه»^(٣).

وتم استدلالاً آخر فيها ضعف.

* وذهب الأحناف إلى أن الحر يقتل بالعبد.

وذلك لقوله تعالى: ﴿وَكُنَّا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنْ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ﴾.

ولقول النبي ﷺ: «الْمُسْلِمُونَ تَكَافَأُوا دِمَائُهُمْ»^(٤).

التنبيه الثامن: هل يقتل الوالد إذا قتل ولده؟ هذا أيضاً من مسائل الخلاف، فقد

ذهب الجمهور إلى أن الوالد لا يقتل بولده والأحاديث التي استدلتوا بها في هذا الصدد أحاديث ضعيفة مثل حديث ابن عمر رضي الله عنهما عن رسول الله ﷺ «لا يقتل الوالد بالولد» وهو حديث ضعيف^(٥).

(١) أخرجه البخاري (٦٨٧٦، ٦٨٧٧)، ومسلم (١٦٧٢).

(٢) الإجماع لابن المنذر ص ١٦٣.

(٣) إسناده ضعيف جداً: أخرجه ابن أبي شيبة (٤١٣/٥)، في المصنف وابن ماجه (٢٦٦٤) وغيرها وفي إسناده إسحاق بن عبد الله بن أبي فروة متروك وثمَّ وجوه أخر للتضعيف والله أعلم.

(٤) صحيح بمجموع طرقه وشواهده وانظر سنن أبي داود (٢٧٥١)، (٤٥٣٠) وأحمد في المسند (٢١٥/٢)، وابن ماجه (٢٦٨٥) وغيرهم.

(٥) أخرجه أحمد (٢٢/١)، وفي سنده ابن لهيعة، وثمَّ وجوه أخر للتضعيف وطرقه كلها ضعيفة.

*بينما ذهب مالك رحمه الله إلى أن الوالد يُقتل إذا تعمد قتل ولده، وذلك لقوله تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُذِّبَ عَلَيْكُمْ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلِ﴾.

ولقوله تعالى: ﴿وَكُنِبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ﴾.

ولحديث: «المُسْلِمُونَ تَتَكَافَأُ دِمَاؤُهُمْ» فالله أعلم.

هذا، وقوله تعالى: ﴿الْحُرُّ بِالْحُرِّ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ وَالْأُنْثَى بِالْأُنْثَى﴾ قد يُفهم أن الرجل لا يقتل بالمرأة، ولدفع هذا المفهوم أقول، وبالله التوفيق.

الآية الكريمة أفادت أن الحر يقتل بالحر والعبد يقتل بالعبد والأنثى تقتل بالأنثى هذا هو ظاهر الآية الكريمة، ولكنها لم تنف أن الحر يُقتل بالعبد، أو أن الرجل يقتل بالمرأة، أما كوننا أثبتنا أن الرجل يقتل بالمرأة أو أن الحر يقتل بالعبد فذلك من أدلة آخر قدمنا ذكرها.

ومع ذلك لا يمنع أن نوجه الآية الكريمة توجيهًا ترتضيه أفئدة الذين يؤمنون بالآخرة وتصغي إليه، وقد ذكره أهل العلم في «تفاسيرهم»:

الوجه الأول: قال فريق من أهل العلم: إن الآية نزلت في قوم لا يرضون إذا قُتل العبد منهم أن يُقتل قاتله العبد من القبيلة التي تركته ويقولون لا نرضى مقابله إلا رجلاً حراً أفضل من قاتله.

❁ وإذا قتلت امرأة من غيرهم امرأة منهم لا يرضون بقتل المرأة القاتلة فقط ولكنهم يقولون نقتل مكانها رجلاً (وهو غير القاتل فالقاتل امرأة).

❁ وإذا قتل منهم حرٌّ قالوا لا نرضى بأن نقتل قاتله فقط بل لابد أن نقتل أكثر من قاتله فنزلت الآية فيهم.

وأسباب نزول الآية وإن كانت ضعيفة^(١) إلا أنها كأوجهٍ للتفسير تعدُّ أوجهًا

(١) منها ما أخرجه الطبري (٢٥٥٨) بإسناد صحيح عن الشعبي في قوله: ﴿الْحُرُّ بِالْحُرِّ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ وَالْأُنْثَى بِالْأُنْثَى﴾

[البقرة: ١٧٨] قال: نزلت في قبيلتين من قبائل العرب اقتتلتا قتال عُمِيَّة فقالوا: نقتل بعبدا فلان بن فلان،

وبفلانة فلان بن فلان فأنزل الله: ﴿الْحُرُّ بِالْحُرِّ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ وَالْأُنْثَى بِالْأُنْثَى﴾ [البقرة: ١٧٨].

مقبولة.

الوجه الثاني: قال بعض أهل العلم إنها نزلت في قتال عمية ، تقاتل فريقان من الناس رجال ونساء فأمر الله ﷻ نبيه أن يجعل ديات الرجال الأحرار في الرجال الأحرار، وديات العبيد في العبيد وديات النساء في النساء.

وسبب النزول الوارد في هذا ضعيف أيضًا ^(١).

الوجه الثالث: وقال آخرون: إنها منسوخة بقوله تعالى: ﴿وَكُنْزَنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنْ النَّفْسَ بِالْأَنْفِ...﴾ [البقرة: ٤٥].

الوجه الرابع: أن ذلك في الديات فالحر ديته دية حر، والعبد ديته دية عبد ، والأنثى ديتها دية أنثى، فإذا قتل حرُّ عبدًا وأراد أهل العبد أن يقتلوا الحر نظروا إلى

^{فقالت} (مصطفى) وهذا مرسل فالشعبي تابعي لم يدرك رسول الله ﷺ.

❦ ومنها ما أخرجه الطبري أيضًا (٢٥٥٩) بإسناد حسن عن قتادة قوله: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلِ الْحُرِّ بِالْحُرِّ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ وَالْأُنْثَى بِالْأُنْثَى﴾ [البقرة: ١٧٨].

قال: كان أهل الجاهلية فيهم بغي وطاعة للشيطان، فكان الحي إذا كان فيهم عدة ومنعة فقتل عبد قوم آخرين عبدًا لهم قالوا: لا تقتل به إلا حرًّا تعزيرًا لفضلهم على غيرهم في أنفسهم، وإذا قتلت لهم امرأة قتلتها امرأة قوم آخرين قالوا: لا تقتل بها إلا رجلاً! فأنزل الله هذه الآية يخبرهم أن ﴿وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ وَالْأُنْثَى بِالْأُنْثَى﴾ [البقرة: ١٧٨]، فنهاهم عن البغي ثم أنزل الله تعالى ذكره في سورة المائدة بعد ذلك فقال: ﴿وَكُنْزَنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنْ النَّفْسَ بِالْأَنْفِ وَالْعَيْنَ بِالْأَعْيُنِ وَالْأُذُنَ بِالْأُذُنِ وَالسِّنَّ بِالسِّنِّ وَالْجُرُوحَ قِصَاصٌ﴾ [المائدة: ٤٥].

قلت: (مصطفى): وهذا مرسل أيضًا : قتادة تابعي ومراسيله ضعيفة.

(١) أخرج الطبري (٢٥٦٧) بإسناد صحيح عن الشعبي ، قال في هذه الآية: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلِ الْحُرِّ بِالْحُرِّ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ وَالْأُنْثَى بِالْأُنْثَى﴾ [البقرة: ١٧٨]. **قال:** نزلت في قتال عمية، قال: كان على عهد النبي ﷺ.

قلت (مصطفى): وهذا أيضًا مرسل، وهذا الأثر هو نفسه الذي قدمناه عن الشعبي رحمته الله إلا أن الطبري أوردته مرتين المرة الثانية عند ذكره من قال: بل نزلت هذه الآية في فريقين كان بينهم قتال على عهد رسول الله ﷺ فقتل من كلا الفريقين جماعة من الرجال والنساء فأمر النبي ﷺ أن يُصلح بينهم بأن يجعل ديات النساء من كل واحد من الفريقين قصاصًا بديات النساء من الفريق الآخر، وديات الرجال بالرجال، وديات العبيد بالعبيد فذلك معنى قوله: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلِ﴾ [البقرة: ١٧٨].

دية العبد كم هي؟ وإلى دية الحر كم هي ثم أعطوا لأهل الحر فرق الدية وقتلوا الحر مكان العبد، وكذلك الأمر بالنسبة للمرأة إذا قتلها رجل يُعطي أهل القاتل فرق الدية ثم يُقتل القاتل.

وقد وردت بذلك آثار عن عليٍّ رضي الله عنه عند الطبري لكنها ضعيفة الإسناد إليه رضي الله عنه.

لكن قد صح هذا القول عن الحسن البصري، فأخرج الطبري بإسناد صحيح عن الحسن قال: لا يقتل الرجل بالمرأة حتى يعطوا نصف الدية. وهذا القول الأخير من أفسد الأقوال لأمر، منها أنه لا دليل عليه من كتاب ولا سنة، ومنها أن النبي ﷺ أمر بقتل اليهودي الذي قتل المرأة ولم يعط أولياءه باقي الدية.

❁ وقد رد الطبري: هذا القول الأخير ردًا شديدًا فقال:

فإذا كان مختلفًا باختلاف الذي وصفت، فيما نزلت فيه هذه الآية، فالواجب علينا استعمالها فيما دلت عليه من الحكم بالخبر القاطع العذر.

وقد تظاهرت الأخبار عن رسول الله ﷺ بالنقل العام: أن نفس الرجل الحر قودٌ قصاصًا بنفس المرأة الحرة. فإذا كان ذلك كذلك، وكانت الأمة مختلفة في التراجع بفضل ما بين دية الرجل والمرأة - على ما قد بينا من قول علي وغيره - كان واضحًا فساد قول من قال بالقصاص في ذلك والتراجع بفضل ما بين الديتين، بإجماع جميع أهل الإسلام: على أن حرامًا على الرجل أن يتلف من جسده عضوًا بعوض يأخذه على إتلافه، فدع جميعه - وعلى أن حرامًا على غيره إتلاف شيء منه - مثل الذي حرم من ذلك - بعوض يعطيه عليه فالواجب أن تكون نفس الرجل الحر بنفس المرأة الحرة قودًا.

وإذا كان ذلك كذلك، كان بيننا بذلك أنه لم يرد بقوله تعالى ذكره: ﴿الْحُرُّ بِالْحُرِّ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ وَالْأُنْثَى بِالْأُنْثَى﴾ [البقرة: ١٧٨] أن لا يقاد العبد بالحر، وأن لا تقتل الأنثى بالذكر ولا الذكر بالأنثى، وإذا كان ذلك كذلك، كان بيننا أن الآية معني بها أن

أحد المعنيين الآخرين . إما قولنا: من أن لا يتعدى بالقصاص إلى غير القاتل والجاني، فيؤخذ بالأثني الذكر وبالعبد الحر . وإما القول الآخر: وهو أن تكون الآية نزلت في قوم بأعيانهم خاصة أمر النبي ﷺ أن يجعل ديات قتلاهم قصاصًا بعضها من بعض، كما قاله السدي ومن ذكرنا قوله.

وقد أجمع الجميع - لا خلاف بينهم - على أن المقاصة في الحقوق غير واجبة، وأجمعوا على أن الله لم يقض في ذلك قضاء ثم نسخه . وإذا كان ذلك كذلك ، وكان قوله تعالى ذكره: ﴿كُنِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ﴾ ينبي عن أنه فرض، كان معلومًا أن القول خلاف ما قاله قائل هذه المقالة. لأن ما كان فرضًا على أهل الحقوق أن يفعلوه ، فلا خيار لهم فيه. والجميع مجمعون على أن لأهل الحقوق الخيار في مقاصتهم حقوقهم بعضها من بعض. فإذا تبين فساد هذا الوجه الذي ذكرنا ، فالصحيح من القول في ذلك هو ما قلنا.

وقوله تعالى: ﴿فَمَنْ عَفَى لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَأَتْبَاعُ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدَاءُ إِلَيْهِ بِإِحْسَنٍ﴾ حاصل معناه والله تعالى أعلم: أن القاتل الذي عفى عنه أولياء المقتول وتركوا قتله قصاصًا، ورضوا منه بالدية عليه أن يؤدي الدية إليهم بإحسان وعليهم هم الآخرون أن يطالبوه بما عليه من الدية بالمعروف والله تعالى أعلم.

وبهذا جاءت الآثار عن بعض الصحابة والتابعين:

❦ فقد صح عن ابن عباس ^(١) رضي الله عنهما: ﴿فَمَنْ عَفَى لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ﴾ [البقرة:

١٧٨] فالعفو أن يقبل الدية في العمد، ﴿فَأَتْبَاعُ بِالْمَعْرُوفِ﴾ أن يطلب هذا بمعروف ويؤدي هذا بإحسان ، وفي رواية أخرى عن ابن عباس قال: الذي يقبل الدية ذلك منه عفو واتباع بالمعروف ويؤدي إليه الذي عفى له من أخيه بإحسان.

❦ وصح عن الشعبي ^(٢) أنه قال في قوله تعالى: ﴿فَمَنْ عَفَى لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ﴾

(١) أخرجه الطبري (٢٥٧٣) بإسناد صحيح عن ابن عباس، والرواية الأخرى (عند الطبري ٢٥٧٥).

(٢) أخرجه الطبري (٢٥٨١).

فَاتَّبَاعُ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدَاءُ إِلَيْهِ بِإِحْسَنٍ ﴿البقرة: ١٧٨﴾ قال: هو العمد يرضى أهله بالدية.
 ✽ وأخرج الطبري بإسناد حسن ^(١) عن قتادة قال: ﴿فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ﴾
 فَاتَّبَاعُ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدَاءُ إِلَيْهِ بِإِحْسَنٍ ﴿البقرة: ١٧٨﴾، يقول: قتل عمداً فعفي عنه،
 وقبلت منه الدية، يقول: ﴿فَاتَّبَاعُ بِالْمَعْرُوفِ﴾ فأمر المتبع أن يتبع بالمعروف، وأمر
 المؤدي أن يؤدي بإحسان، والعمد قودٌ إليه قصاص لا عقل ^(٢) فيه إلا أن يرضوا
 بالدية فإن رضوا بالدية فمائة، خَلِيفَةٌ ^(٣) فإن قالوا لا نرضى إلا بكذا وكذا فذاك لهم.
 ✽ وأخرج الطبري بإسناد صحيح عن ابن زيد قال: ﴿وَأَدَاءُ إِلَيْهِ بِإِحْسَنٍ﴾
 [البقرة: ١٧٨]، قال: أنت أيها المعفو عنه ^(٤).

✽ وقال الطبري رَحِمَهُ اللَّهُ: وأولى الأقوال عندي بالصواب في قوله: ﴿فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ﴾ ﴿البقرة: ١٧٨﴾: فمن صُفِّحَ له - من الواجب كان لأخيه عليه من القود - عن شيء من الواجب، على دية يأخذها منه، فاتباع بالمعروف - من العافي عن الدم، الراضي بالدية من دم وليه - ﴿وَأَدَاءُ إِلَيْهِ﴾ - من القاتل - ذلك: ﴿بِإِحْسَنٍ﴾. لما قد بينا من العلل فيما مضى قبل: من أن معنى قول الله تعالى ذكره: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقَصَاصُ﴾ [البقرة: ١٧٨]، إنما هو القصاص من النفوس القاتلة أو الجارحة أو الشاجة عمداً، كذلك (العفو) أيضاً عن ذلك.

وأما معنى قوله: ﴿فَاتَّبَاعُ بِالْمَعْرُوفِ﴾ [البقرة: ١٧٨]، فإنه يعني: فاتباع على ما

^{فائدة:} إذا عفى أحد الورثة عن القاتل سقط حق سائر الورثة في القصاص، ولكن يثبت لهم حقهم في الدية، ومن هنا قال بعض أهل العلم: إن تنكير (شيء) في قوله تعالى: ﴿فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ﴾ [البقرة: ١٧٨] يفيد سقوط القصاص بالعفو عن بعضه ومن بعض الورثة والله تعالى أعلم.

(١) أخرجه الطبري (أثر ٢٥٨٣).

(٢) العقل: الدية سميت عقلاً لأن الدية كانت عند العرب في الجاهلية إبلاً؛ لأنها كانت أموالهم، فكان القاتل يسوق الدية إلى فناء ورثة المقتول فيعقلها بالعقل ويسلمها إلى أوليائه. شاعر.

(٣) الخليفة: الحامل من الإبل.

(٤) الطبري أثر (٢٥٨٩).

أوجه الله له من الحق قبل قاتل وليه، من غير أن يزداد عليه ما ليس له عليه - في أسنان الفرائض أو غير ذلك - أو يكلفه ما لم يوجهه الله له عليه، كما حدثني بشر بن معاذ قال: حدثنا يزيد قال: حدثنا سعيد عن قتادة قال: بلغنا عن نبي الله ﷺ أنه قال: «من زاد أو ازداد بعيراً - يعني في إبل الديات وفرائضها - فمن أمر الجاهلية»^(١).

وأما إحسان الآخر في الأداء، فهو أداء ما لزمه بقتله لولي القتل، على ما ألزمه الله وأوجهه عليه، من غير أن يبخسه حقاً له قبله بسبب ذلك، أو يحوجه إلى اقتضاء ومطالبة.

هذا، وفي قوله تعالى: ﴿فَمَنْ عَفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ﴾ دليل على أن مرتكب الكبيرة لا يكفر وإيضاح أن القاتل مع أنه قتل لم يخرج به الله سبحانه من دائرة المسلمين بل وصفه الله سبحانه بأنه أخ لأولياء المقتول فقال: ﴿فَمَنْ عَفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ﴾، وقد قال الله تعالى: ﴿وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلَحُوا بَيْنَهُمَا﴾ [الحجرات: ٩]، فسامهم الله مؤمنين رغم اقتتالهما، وقال الله تعالى أيضاً: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلَحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ﴾ [الحجرات: ١٠].

وقال الله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾

[النساء: ٤٨، ١١٦]

وقوله تعالى: ﴿ذَلِكَ تَخْفِيفٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ﴾ يرجع إلى ما أبيح من العفو عن القاتل مقابل الدية، فالمعنى: ذلك الذي شرعناه لكم من أداء الدية وقبولها في حالة رضى أولياء المقتول نوع من التخفيف خففناه عنكم ورحمة رحمانكم بها، والله أعلم.

وقوله تعالى: ﴿فَمَنْ أَعْتَدَىٰ بَعْدَ ذَلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ حاصل معناه والله أعلم - أن من قبل الدية من القاتل ثم اعتدى عليه بعد أن قبلها منه فله عذاب أليم، وذلك أن من أهل المقتول من يُغَرَّر القاتل ويقبل منه الدية فيطمأن القاتل إلى أنه آمن ثم يُفاجأ بأهل المقتول يعتدون عليه بعد قبولهم الدية منه.

(١) هذا مرسل من مراسيل قتادة، ومراسيل قتادة من أضعف المراسيل.

❖ وقد أخرج الطبري ^(١) بإسناد حسن عن قتادة قوله: ﴿فَمَنْ أَعْتَدَى بَعْدَ ذَلِكَ فَهُوَ عَذَابُ أَلِيمٍ﴾ [البقرة: ١٧٨] يقول: فمن اعتدى بعد أخذه الدية فقتل فله عذاب أليم.

❖ وأخرج بإسناد صحيح إلى ابن زيد قال: في قوله: ﴿فَمَنْ أَعْتَدَى بَعْدَ ذَلِكَ فَهُوَ عَذَابُ أَلِيمٍ﴾ [البقرة: ١٧٨] قال: أخذ العقل ^(٢) ثم قتل بعد أخذ العقل قاتل قتيله فله عذاب أليم.

❖ وقال الطبري رَحِمَهُ اللَّهُ: يعني تعالى ذكره بقوله: ﴿فَمَنْ أَعْتَدَى بَعْدَ ذَلِكَ﴾ [البقرة: ١٧٨] فمن تجاوز ما جعله الله له بعد أخذه الدية اعتداءً وظلمًا إلى ما لم يُجعل له من قتل قاتل وليه وسفك دمه فله بفعله ذلك وتعدّيه إلى ما قد حرّمته عليه عذاب أليم.

والعذاب الأليم قيل إنه يُراد به القتل في الدنيا فإذا قُتل لرجل قاتل ثم قبل هذا الرجل الدية ثم اعتدى بعد ذلك على القاتل بعد قبوله الدية فقتل القاتل، استحق هذا الرجل (الذي كان قبل الدية) القتل، وذلك لأن حق قريبه قد سقط، وأنشأ هو قتلاً جديداً استحق عليه القتل أو الدية أو العفو على ما يريده أهل المقتول الجديد. هذا وقد ذهب بعض أهل العلم إلى أن ولي المقتول الأول إذا اعتدى - بعد قبول الدية - على القاتل وقتله فلا يقتل به إنما يرد إليه ديته فقط وممن ذهب إلى هذا القول الحسن البصري رَحِمَهُ اللَّهُ فقد أخرج الطبري عنه بإسناد حسن: في رجل قتل فأخذت منه الدية ثم إن وليه قتل به القاتل قال الحسن: تؤخذ منه الدية التي أخذ ولا يقتل به ^(٣).

وهذا القول عندي ضعيف، وذلك لقوله تعالى: ﴿فَلَهُ عَذَابُ أَلِيمٍ﴾ فقد ضم هذا القاتل إلى كونه قاتلاً: (غدرًا وخيانة) إضافة إلى القتل الذي ارتكبه، أما كونه

(١) الطبري (٢٦٠٣).

(٢) العقل هو الدية: والأثر عند الطبري (٢٦١١).

(٣) أخرجه الطبري (٢٦١٦).

قد قُتِلَ له قَتِيلٌ فقد سقط حقه في القتل بقبوله الدِّية وإظهاره الرضا بذلك، والله تعالى أعلم.

وقال آخرون من أهل العلم: إن أمر القاتل الجديد يرجع إلى الإمام يقضي فيه بما شاء، وهذا القول أيضًا مردود لقوله تعالى: ﴿وَمَنْ قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لَوْلِيٍّ سُلْطَنًا...﴾ [الإسراء: ٣٣] فجعل الله سبحانه السلطان إلى الأولياء^(١).

قال الطبري رحمه الله: وأولى التأويلين بقوله: ﴿فَمَنْ أَعْدَى بَعْدَ ذَلِكَ فَهُوَ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [البقرة: ١٧٨]، تأويل من قال: فمن اعتدى بعد أخذه الدية فقتل قاتل وليه، فله عذاب أليم في عاجل الدنيا، وهو القتل. لأن الله تعالى جعل لكل ولي قاتل قُتِلَ ظلمًا، سلطانًا على قاتل وليه، فقال تعالى ذكره: ﴿وَمَنْ قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لَوْلِيٍّ سُلْطَنًا فَلَا يُسْرِفُ فِي الْقَتْلِ﴾ [الإسراء: ٣٣]، فإذا كان ذلك كذلك. وكان الجميع من أهله مجتمعين على أن من قتل قاتل وليه بعد عفو عنه وأخذه منه دية قتيله أنه بقتله إياه له ظالم في قتله - كان بينا ألا يولي من قتله ظلمًا كذلك، السلطان عليه في القصاص والعفو وأخذ الدية، أي ذلك شاء، وإذا كان ذلك كذلك، كان معلومًا أن ذلك عذابه، لأن من أقيم عليه حده في الدنيا، كان ذلك عقوبته من ذنبه، ولم يكن به متبعًا في الآخرة، على ما قد ثبت به الخبر عن رسول الله ﷺ. وقوله تعالى: ﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَوةٌ يَكُونُ الْآلَبُ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾.

في القصاص حياة من وجوه:

أولها: أن القصاص يروع مَنْ فَكَرَ في القتل، فإذا فكر الرجل في قتل آخر وعلم أنه سيقتل به انكف عن القتل وانزجر فحصلت الحياة.

(١) وليس المراد أنهم أنفسهم يباشرون القتل إنما يوجهون الأمر.

قال القرطبي رحمه الله: لا خلاف أن القصاص في القتل لا يقيمه إلا أولو الأمر فرض عليهم النهوض بالقصاص وإقامة الحدود وغير ذلك؛ لأن الله سبحانه خاطب جميع المؤمنين بالقصاص ثم لا يتهياً للمؤمنين جميعاً أن يجتمعوا على القصاص فأقاموا السلطان مقام أنفسهم في إقامة القصاص وغيره من الحدود.

وقد أخرج الطبري بإسنادٍ حسنٍ^(١) عن قتادة: ﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَوةٌ﴾ [البقرة: ١٧٩]، جعل الله هذا القصاص حياةً، ونكالاً وعظةً لأهل السّفه والجهل من الناس وكم من رجل قد همّ بداهيةٍ لولا مخافة القصاص لوقع بها ولكن الله حجز بالقصاص بعضهم عن بعض، وما أمر الله بأمرٍ قط إلا وهو أمرٌ إصلاح في الدنيا والآخرة، ولا نهى الله عن أمرٍ قط إلا وهو أمرٌ فساد في الدنيا والدين، والله أعلم بالذي يصلح خلقه.

ثانيها: أن قصاص الرجل بالرجل يمنع من انتشار الفوضى والظلم، فقد يقتل رجلٌ من قبيلة ولا ترضى قبيلته إلا بعشرة رجال أو أكثر من قبيلة الذي قتله فإذا قيد القتل بالقاتل فقد حصلت الحياة لمن كان سيقتل، والله تعالى أعلم.

هذا، وقد قال ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ «التفسير القيم» (١٤٣، ١٤٤):

قول الله تعالى: ﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَوةٌ يَأْتُوايَ الْأَلْبَبِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾.

[البقرة: ١٧٩]

في ضمن هذا الخطاب: ما هو كالجواب لسؤال مقدر: إن في إعدام هذه البنية الشريفة، وإيلام هذه النفس وإعدامها في عدم مقابلة إعدام المقتول تكثير لمفسدة القتل، فلاية حكمة صدر هذا ممن وسعت رحمته كل شيء، وبهرت حكمته العقول؟ فتضمن الخطاب جواب ذلك بقوله: ﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَوةٌ﴾.

[البقرة: ١٧٩]

وذلك لأن القاتل إذا توهم أنه يقتل قصاصاً بمن قتله كف عن القتل وارتدع، وآثر حب حياته ونفسه. فكان فيه حياة له ولمن أراد قتله.

ومن وجه آخر: وهو أنهم كانوا إذا قتل الرجل من عشيرتهم وقبيلتهم قتلوا به كل من وجدوه من عشيرة القاتل وحيه وقبيلته. وكان في ذلك من الفساد والهلاك ما يعم ضرره، وتشتد مؤنته، فشرع الله تعالى القصاص، وأن لا يقتل بالمقتول غير قاتله. ففي ذلك حياة عشيرته وحيه وأقاربه. ولم تكن الحياة في القصاص من حيث

(١) الطبري (أثر ٢٦٢٠).

إنه قتل، بل من حيث كونه قصاصًا ، يؤخذ القاتل وحده بالمقتول لا غيره، فتضمن القصاص الحياة في الوجهين.

وتأمل ما تحت هذه الألفاظ الشريفة من الجلالة والإيجاز، والبلاغة والفصاحة، والمعنى العظيم.

فصدر الآية بقوله: ﴿وَلَكُمْ﴾ المؤذن بأن منفعة القصاص مختصة بكم ، عائدة إليكم، فشرعه إنما كان رحمة بكم وإحسانًا إليكم، فمنفعته ومصلحته لكم، إلا لمن لا يبلغ العباد ضرره ونفعه.

ثم عقبه بقوله: ﴿فِي الْقَصَاصِ﴾ [البقرة: ١٧٩]، إيذانًا بأن الحياة الحاصلة إنما هي في العدل ، وهو أن يفعل به كما فعل بالمقتول.

و﴿الْقَصَاصِ﴾ في اللغة: المماثلة، وحقيقته راجعة إلى الاتباع ، ومنه قوله تعالى: ﴿وَقَالَتْ لِأُخْتِهِ قُصِّيهِ﴾ [القصص: ١١] ، أي: اتبعي أثره.

ومنه قوله: ﴿فَأَرْتَدَّ أَعَثَارُهُمَا قَصَصًا﴾ [الكهف: ٦٤]، أي: يقصان الأثر ويتبعانه. ومنه : قص الحديث واقتصاصه، لأنه يتبع بعضه بعضًا في الذكر، فسمى جزاء الجاني قصاصًا، لأنه يتبع أثره، فيفعل به كما فعل وهذا أحد ما يستدل به على أن يفعل بالجاني كما فعل، فيقتل بمثل ما قتل به، لتحقيق معنى القصاص.

وقال الزجاج في «معاني القرآن» : ومعنى الحياة في القصاص أن الرجل إذا علم أنه يقتل إن قتل أمسك عن القتل ففي إمساكه عن القتل حياة الذي همّ هو بقتله، حياة له لأنه من أجل القصاص أمسك عن القتل فسلم أن يقتل.

ونقل هذا ابن الجوزي في «زاد المسير»، وزاد: وأخذ هذا المعنى الشاعر فقال:

أبلغ أبا مالك عني مغلغلة وفي العتاب حياة بين أقوام

يريد: أنهم إذا تعاتبوا أصلح ما بينهم العتاب.

وقوله تعالى: ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ أي: تتقون العقوبة وتنتهون عن القتل.

وقد أخرج الطبري بإسناد صحيح إلى ابن زيد في قوله: ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾

[البقرة: ١٧٩]، قال: لعلك تتقي أن تقتله فتقتل به.

(الوصية وبعض أحكامها)

قال الله عز وجل: ﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ إِنْ تَرَكَ خَيْرًا الْوَصِيَّةَ لِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ ﴾ (١٨٠)

فَمَنْ بَدَّلَهُ بَعْدَ مَا سَمِعَهُ فَإِنَّمَا إِثْمُهُ عَلَى الَّذِينَ يُبَدِّلُونَهُ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (١٨١)

فَمَنْ خَافَ مِنْ مُوصٍ جَنَفًا أَوْ إِثْمًا فَأَصْلَحَ بَيْنَهُمْ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (١٨٢) .

قوله تعالى: ﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ إِنْ تَرَكَ خَيْرًا الْوَصِيَّةَ لِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ ﴾ .

* حاصل معناه، والله تعالى أعلم كتب عليكم إذا حضرت أحدكم أسباب الموت ورأيتم علاماته، والتي منها المرض، كتب على هذا الذي حضره الموت إن كان سيموت وله أموال كثيرة أن يوصي للوالدين وللأقربين بشيء من ماله ولا يضر بسائر الورثة في وصيته إنما يوصي بالقدر المتعارف عليه والذي سنّه رسول الله ﷺ وهو الثلث كما سيأتي إن شاء الله ويرجع هذا ما لم يتجاوز الثلث إلى اجتهاد الموصي ونظره إلى المحتاج وغير المحتاج وإلى نية الموصي من وراء وصيته.

وقوله: ﴿ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ ﴾ أي حقًا على المتقين أن يفعلوا ذلك والله تعالى أعلم.

هذا ويلزم النظر إلى هذه التنبيهات والتي منها:

التنبيه الأول: هل هذه الآية الكريمة منسوخة أم لا؟

تنازع في ذلك أهل العلم ^(١) :

✽ فقال فريق من أهل العلم: هي محكمة لم تنسخ ^(٢) ولكن ظاهرها العموم الذي يُراد به الخصوص وهم غير الورثة، فالتقدير.. والوصية للوالدين والأقربين

(١) وإذا تنازع أهل العلم في حكم آية هل هي منسوخة أم محكمة فالعمل على أنها ليست منسوخة ما لم يتم برهان صحيح على النسخ.

قال الطبري رحمه الله: وإذا كان في نسخ ذلك تنازع بين أهل العلم لم يكن لنا القضاء عليه بأنه منسوخ إلا بحجة يجب التسليم لها إذا كان غير مستحيل اجتماع حكم هذه الآية وحكم آية الموارث في حال واحدة على صحة بغير مدافعة حكم إحداهما حكم الأخرى، وكان الناسخ والمنسوخ هما المعنيان للذان لا يجوز اجتماع حكمهما على صحة في حالة واحدة لنفي أحدهما صاحبه.

(٢) وقد أورد الطبري رحمه الله هذا القول بقوله:

فقال بعضهم: لم ينسخ الله شيئاً من حكمها، وإنما هي آية ظاهرها ظاهر عموم في كل والد ووالدة والقريب، والمراد بها في الحكم البعض منهم دون الجميع وهو من لا يرث منهم الميت دون من يرث.

وكان قد أورد آثاراً في ذلك منها أثر مسروق بإسناد صحيح عنه أنه حضر رجلاً فوصى بأشياء لا تنبغي فقال له مسروق: إن الله قد قسم بينكم فأحسن القسم، وإنه من يرغب برأيه عن رأي الله يضلّه، أوصي لذي قرابتك ممن لا يرثك ثم دع المال على ما قسمه الله عليه (أثر ٢٦٢٩).

✽ وأورد بإسناد صحيح عن محمد (وهو ابن سيرين): قال: قال عبد الله بن معمر في الوصية: من سمى جعلناها حيث سمى، ومن قال حيث أمر الله جعلناها في قرابته (أثر ٢٦٣٣).

✽ وأخرج الطبري بإسناد صحيح عن عمران بن حدير (٢٦٣٤) قال: قلت لأبي مجلز: الوصية على كل مسلم واجبة؟ قال: على من ترك خيراً، وفي رواية عنه: (هي حق على من ترك خيراً). وأورد الطبري رحمه الله آثاراً أخرى تحت باب (ذكر قول من لم يذكر قوله منهم في ذلك - أي: من لم يذكر قوله في أن الآية منسوخة).

✽ وأورد بإسناد صحيح عن جابر بن زيد في رجل أوصى لغير ذي قرابة وله قرابة محتاجون قال: يرد ثلثا الثلث عليهم وثلث الثلث لمن أوصى له به (أثر: ٢٦٣٦).

✽ وأورد بإسناد صحيح عن الحسن أنه كان يقول: إذا أوصى الرجل لغير ذي قرابته بثلثه فلهم ثلث الثلث وثلثا الثلث لقرابته: (أثر ٢٦٣٨).

✽ وأورد بإسناد صحيح عن طاوس قال: (من أوصى لقوم وسماهم وترك ذوي قرابته محتاجين انتزعت منهم وردت إلى ذوي قرابته).

غير الورثة^(١).

❖ **وقال فريق آخر:** إن جزءاً من هذه الآية منسوخ والآخر محكم، فالمنسوخ الوصية للوالدين والأقارب الذين يرثون، والمحكم هو الوصية لغير الورثة^(٢).

❖ **وقال فريق ثالث:** إن الآية كلها منسوخة^(٣).

قلت: فعلى كل تلك الأقوال فالوصية للأقارب الذين يرثون - أي: الذين لهم نصيب من الميراث بكتاب الله وبسنة رسول الله ﷺ - منسوخة فلا وصية لوارث، أما الذين لا يرثون ففيهم النزاع المذكور والله تعالى أعلم.

(١) **فإن قال قائل:** كيف يكون الوالدين غير ورثة، فالإجابة أن الوالدين في حالة كفرهما أو استرقاق ولدهما يكونان غير ورثة والله أعلم.

(٢) وأورد الطبري هذا الرأي فقال: وقال آخرون: بل هي آية قد كان الحكم بها واجباً وعُمل بها برهة ثم نسخ الله منها بآية الموارث الوصية لوالدي الموصي وأقربائه الذين يرثونه، وأقر فرض الوصية لمن كان منهم لا يرثه، وأورد أثر قتادة (٢٦٤٠) بإسناد حسن في قوله: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ إِنْ تَرَكَ خَيْرًا الْوَصِيَّةُ لِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ﴾ [البقرة: ١٨٠] فجعلت الوصية للوالدين والأقربين، ثم نسخ ذلك بعد ذلك فجعل لهما نصيب مفروض فصارت الوصية لذوي القرابة الذين لا يرثون وجعل للوالدين نصيب معلوم، ولا تجوز وصية لوارث.

(٣) أخرج البخاري رحمه الله (حديث ٢٧٤٧) بإسناده إلى ابن عباس رضي الله عنهما قال: كان المال للولد وكانت الوصية للوالدين فنسخ الله من ذلك ما أحب فجعل للذكر مثل حظ الأنثيين، وجعل للأبوين لكل واحدٍ منهما السدس، وجعل للمرأة الثمن والربع، وللزوج الشطر والربع. وأخرج الطبري (٢٦٥٢) بإسناد صحيح عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قام فخطب الناس ههنا فقرأ عليهم (سورة البقرة) ليسين لهم منها فأتى على هذه الآية: ﴿إِنْ تَرَكَ خَيْرًا الْوَصِيَّةُ لِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ﴾ [البقرة: ١٨٠] قال: نسخت هذه.

❖ وأخرج الطبري من طريق محمد بن بشار قال حدثنا عبد الرحمن بن مهدي قال حدثنا سفيان عن جهم عن عبد الله بن بدر قال سمعت ابن عمر يقول في قوله: ﴿إِنْ تَرَكَ خَيْرًا الْوَصِيَّةُ لِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ﴾ [البقرة: ١٨٠] قال: نسختها آية الميراث، قال ابن بشار: قال عبد الرحمن: فسألت جهماً عنه فلم يحفظه (أثر ٢٦٥٤).

قلت: ومثل هذا لا يؤثر فمن حدث ونسي ما دام حدث عنه ثقة قبل حديثه.

❖ وأخرج الطبري أيضاً (٢٦٦١) بإسناد صحيح عن نافع: أن ابن عمر لم يوص وقال: أما مالي فالله أعلم ما كنت أصنع فيه في الحياة، وأما رباعي فما أحب أن يشرك ولدي فيها أحد.

وأخرج الطبري أيضاً (٢٦٥١) بإسناد صحيح إلى ابن زيد في قوله: ﴿إِنْ تَرَكَ خَيْرًا الْوَصِيَّةُ لِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ﴾ [البقرة: ١٨٠]، قال: فنسخ الله ذلك كله وفرض الفرائض.

التنبيه الثاني: القائلون بالنسخ لهم أقوال في بيان الناسخ: فمنهم من يرى أن الناسخ هي آية المواريث: ﴿يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ لِلَّذِ كَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثَيَيْنِ...﴾ [النساء: ١١].

ومنهم من يرى أن الناسخ قوله تعالى: ﴿لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ...﴾ الآية [النساء: ٧].

ومنهم من يرى أن الناسخ هو حديث: «إِنَّ اللَّهَ قَدْ أَعْطَى كُلَّ ذِي حَقٍّ حَقَّهُ فَلَا وَصِيَّةَ لِرِوَارِثٍ»^(١).

ومنهم من عوّل في ذلك على الإجماع (عند من ادعى الإجماع على نسخها وقد بينا ما فيه قريباً) والله أعلم.

التنبيه الثالث: وقد سلف ذكره ضمناً، حاصله أن من سيرث لا يُوصى له بشيء من التركة، لما تقدم من الأدلة في بيان الناسخ، وقد نقل القرطبي الإجماع على ذلك (أي على أن الوصية للوارث لا تجوز)^(٢) وللحديث المذكور قريباً.

التنبيه الرابع: من لم يكن عنده إلا مالٌ يسير (قليل) لا تندب له الوصية لقوله تعالى: ﴿إِنْ تَرَكَ خَيْرًا﴾.

التنبيه الخامس: من أراد أن يُوصي فلا يتجاوز بوصيته ثلث التركة، فهذا هو القدر المسموح به، والجمهور من أهل العلم على ذلك، على أنه لا يجوز لأحدٍ

(١) عليه عمل عامة أهل العلم وله عدة طرق عن رسول الله ﷺ لكن لا يخلو طريق منها من مقال، وأمثلها عندي ما أخرجه أبو داود (حديث ٢٨٧٠)، (٣٥٦٥)، والترمذي (حديث ٢١٢٠) وغيرهم من طريق إسماعيل بن عياش عن شرحبيل بن مسلم قال: سمعت أبا أمامة سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إِنَّ اللَّهَ قَدْ أَعْطَى كُلَّ ذِي حَقِّ حَقَّهُ فَلَا وَصِيَّةَ لِرِوَارِثٍ». فهذا إسناد حسن وفي إسماعيل بن عياش كلام فمن العلماء من تكلم فيه مطلقاً، ومنهم من حسن حديثه، ومنهم من حسن حديثه عن أهل بلده، وهذا من أحاديثه عن أهل بلده، وقد ذكر ابن عدي في «الكامل» هذا الحديث في ترجمة إسماعيل بن عياش، لكن على كل حال فعمل عامة أهل العلم عليه، ومن ثم قال الشافعي، نقله كافة عن كافة وهو أقوى من قول الواحد، والله تعالى أعلم.

(٢) وهذا رأي أكثر أهل العلم بل وقد نقل ابن عبد البر الإجماع على ذلك، وإن عورض في دعوى الإجماع وإن كان هو قول أكثر أهل العلم (انظر فتح الباري ٥/ ٤٢٠).

أن يوصي بأكثر من الثلث^(١) وذلك لحديث: «الثلث والثلث كثير إنك إن تذر ورثتك أغنياء خير من أن تذرهم عالة يتكففون الناس»^(٢)، ولأن رجلاً أعتق - على عهد رسول الله ﷺ - ستة أعبد - ليس له مال غيرهم - فردهم النبي ﷺ وأسهم بينهم فأعتق اثنين وأرق أربعة^(٣).

وفي «صحيح البخاري» عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: لو أن الناس غضوا من الثلث إلى الربع فإن رسول الله ﷺ قال: «الثلث والثلث كثير»^(٤).

التنبيه السادس: أكثر أهل العلم على أن الوصية غير واجبة (ما لم يترك ديوناً أو تكون عنده ودائع وأمانات للناس) فإذا كانت عليه ديون أو للناس عنده ودائع فحينئذ تجب عليه الوصية، وقد نقل القرطبي الإجماع على ذلك.

التنبيه السابع: وهل تستحب الوصية أو لا تستحب؟ جواب ذلك أنها راجعة إلى حال الشخص (الموصي) وحال من يريد الوصية لهم.

(١) قال القرطبي رحمته الله: ذهب الجمهور من العلماء إلى أنه لا يجوز لأحد أن يوصي بأكثر من الثلث، إلا أبا حنيفة وأصحابه فإنهم قالوا: إن لم يترك الموصي ورثة جاز له أن يوصي بماله كله، وقالوا: إن الاقتصار على الثلث في الوصية إنما كان من أجل أن يدع ورثته أغنياء لقوله ﷺ: «إنك إن تذر ورثتك أغنياء خير من أن تذرهم عالة يتكففون الناس» الحديث رواه الأئمة ومن لا وارث له فليس ممن عني بالحديث، روي هذا القول عن ابن عباس، وبه قال أبو عبيدة ومسروق، وإليه ذهب إسحاق ومالك في أحد قوله، وروي عن علي وسبب الخلاف مع ما ذكرنا، الخلاف في بيت المال هل هو وارث أو حافظ لما يجعل فيه؟ قولان.

(٢) أخرجه البخاري (حديث ١٢٩٥)، ومسلم (حديث ١٦٢٨)، من حديث سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه قال: كان رسول الله ﷺ يعودني عام حجة الوداع من وجع اشتد بي، فقلت: إني قد بلغ بي من الوجع وأنا ذو مال ولا يرثني إلا ابنة أفاتصدق بثلثي مالي؟ قال: «لا»، فقلت: بالشرط، فقال: «لا»، فقلت: «بالثلث»؟ فقال: «الثلث والثلث كبير - أو كثير - إنك إن تذر ورثتك أغنياء خير من أن تذرهم عالة يتكففون الناس...» الحديث.

(٣) أخرجه مسلم (حديث ١٦٦٨) من حديث عمران بن حصين رضي الله عنه أن رجلاً أعتق ستة مملوكين له عند موته، لم يكن له مال غيرهم - فدعاهم رسول الله ﷺ فجزأهم ثلاثاً ثم أقرع بينهم فأعتق اثنين وأرق أربعة، وقال له قولاً شديداً.

(٤) أخرجه البخاري (حديث ٢٧٤٣) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما قال: (لو غَضَّ الناس إلى الربع، لأن رسول الله ﷺ قال: «الثلث والثلث كثير»)، وأخرجه مسلم كذلك (حديث ١٦٢٩).

التنبيه الثامن: يجوز للموصي أن يرجع في وصيته، وقد نقل القرطبي رحمه الله تعالى الإجماع على ذلك فقال: وأجمعوا على أن للإنسان أن يغيّر وصيته ويرجع فيما شاء منها، إلا أنهم اختلفوا من ذلك في المدبّر^(١).

التنبيه التاسع: تستحب كتابة الوصية ولا تجب كتابتها إلا إذا خُشي أن يكون هناك من يُنكر.

التنبيه العاشر: إذا أوصى شخص بما لا يجوز كأن يوصي بفعل محرم لا تُمضى وصيته.

قال القرطبي رَحِمَهُ اللهُ: ولا خلاف أنه إذا أوصى بما لا يجوز، مثل أن يُوصي بخمرٍ أو خنزيرٍ أو شيء من المعاصي أنه يجوز تبديله ولا يجوز إمضاؤه كما لا يجوز إمضاء ما زاد على الثلث، قاله أبو عمر^(٢).

التنبيه الحادي عشر: إذا أوصى رجل لغير أقربائه تُمضى وصيته (تُنفذ) إذا كانت بما لا يتعدى الثلث، وقد أخرج الطبري بإسناد صحيح عن قتادة عن عطاء وسالم بن عبد الله وسليمان بن يسار أنهم قالوا: تمضي الوصية لمن أوصى له به^(٣).

التنبيه الثاني عشر: الوصية التي يوجبونها في بعض الدول ويجعلونها واجبة، وهي التي يسمونها الوصية الواجبة، ليس لوجوبها مستند فيما علمت، وهي التي يجعلونه للأحفاد الذين مات أبوهم في حياة جدهم أو جدتهم أو مات أمهم في حياة جدهم أو جدتهم، فيجعلون للأحفاد نصيباً كما لو أن آباءهم كانوا أحياء، أو ببعض التفاصيل الأخرى في ذلك، لا أعلم له مستنداً، أعني لا أعلم للإيجاب مستنداً بل هؤلاء الأحفاد محجوبون بالأعمام إذا كان الميت هو الأب وبالأخوال إذا كانت الميتة هي الأم).

(١) وهو العبد الذي أعتق وهو مدبّر.

(٢) يعني ابن عبد البر.

(٣) أخرجه الطبري (٢٦٨٩).

ولكن إذا أوصى لهم جدهم بشيء فلهم ذلك ما لم تتجاوز الوصية الثلث كما تقدم.

هذا وعلى فرض التسليم بأن الآية الكريمة ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ إِنْ تَرَكَ خَيْرًا الْوَصِيَّةُ﴾ على فرض أنها لم تنسخ فليس فيها تعيين القدر الذي يُوصي به، ولا الأقربون الذين يوصى لهم وقد يكون هناك من هذا أبعد في القرابة من الأحفاد لكن أحوج، والله أعلم وقوله تعالى: ﴿فَمَنْ بَدَلَهُ بَعْدَ مَا سَمِعَهُ فَأَنَّمَا إِثْمُهُ عَلَى الَّذِينَ يُبَدِّلُونَهُ﴾.

قال الطبري رحمه الله في معناه: يعني تعالى ذكره بذلك فمن غير ما أوصى به الموصي من وصيته بالمعروف لوالديه أو أقربيه الذين لا يرثونه - بعد ما سمع الوصية فإنما إثم التبديل على من بدل وصيته.

وقال الطبري في قوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾: يعني تعالى ذكره بذلك ﴿إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ﴾ [البقرة: ١٨١]، لو صيبتكم التي أمرتكم أن توصوا بها لأبائكم وأمهاتكم وأقربائكم حين توصون بها أتعدلون فيها على ما أذنت لكم من فعل ذلك بالمعروف أم تحيفون فتميلون عن الحق وتجورون عن القصد؟ ﴿عَلِيمٌ﴾: بما تخفيه صدوركم من الميل إلى الحق والعدل أم الجور والحيف.

وقوله تعالى: ﴿فَمَنْ خَافَ مِنْ مُوصٍ جَنَفًا أَوْ إِثْمًا فَأَصْلَحَ بَيْنَهُمْ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ﴾ حاصل معناه أن من خاف من مريض حضرته الوفاة وأشرف على الموت أن يجور في وصيته، يميل فيها عن الحق والصواب على سبيل الخطأ، فالجنف الميل عن الحق والصواب من غير تعمد ﴿أَوْ إِثْمًا﴾ أو خشي أن يكون المريض المحتضر تعمد الظلم، فقام أعني الذي يحضر عند المريض، أو الذي يقوم بأمره - بالإصلاح فلا إثم عليه أي على من يقوم بالإصلاح وإعادة الأمور إلى نصابها الصحيح.

هذا، وقوله تعالى ﴿فَأَصْلَحَ بَيْنَهُمْ﴾ محتملة لعدة وجوه:

أولها: أصلح بين الموصي وبين الورثة.

فقد يتعمد الموصي الظلم أو الجور - أو قد يُخطئ فيظلم ويجور - فيوصي بما يجلب الضرر للورثة - وقد يتعنت الورثة فيمنعون الموصي من الوصية، فالإصلاح أن تُذكر الموصي بما أمره الله من العدل والإنصاف وأن تذكر الورثة بحق المحتضر في الوصية وأنها مشروعة له ^(١).

ثانيها: أصلح بين الورثة وبين الموصي لهم:

والمعنى: فمن خاف منكم (يا أولياء الميت أو يا ولي أمر المسلمين أو يا من حضرتم الميت) خطأ من الموصي أو ظلمًا وإثمًا منه في وصيته فأصلح بين الورثة وبين الموصي لهم فرد الوصية إلى العدل والحق فلا حرج عليه ^(٢).

ثالثها: أصلح بين الورثة أنفسهم:

فقد يُعطي المحتضر (قبيل الموت) عطية لأحد الورثة دون بعض فيسبب الضغينة بينهم فلا جناح على من أصلح بين الورثة ^(٣).

ومن ذلك أيضًا: أن يوصي المحتضر لشخص غير وارث كي يرجع نفعه لأحد الورثة، كأن يوصي مثلاً لابن ابنته مُريدًا بذلك تمييز إحدى بناته، فهذه الوصية

(١) قال الطبري رحمه الله: اختلف أهل التأويل في تأويل هذه الآية، فقال بعضهم: تأويلها فمن حضر مريضًا وهو يوصي عند إشرافه على الموت فخاف أن يخطئ في وصيته فيفعل ما ليس له أو أن يعمد جورًا فيها فيأمر بما ليس له الأمر به فلا حرج على من حضره فسمع ذلك منه أن يصلح بينه وبين ورثته بأن يأمره بالعدل في وصيته، وأن ينهاهم عن منعه مما أذن الله له فيه وأباحه له.

(٢) قال الطبري رحمه الله: وقال آخرون: بل معنى ذلك: فمن خاف - من أولياء ميت أو والي أمر المسلمين - من موصٍ جنفًا في وصيته التي أوصى بها الميت فأصلح بين ورثته وبين الموصي لهم بما أوصى لهم به فرد الوصية إلى العدل والحق فلا حرج ولا إثم.

وأخرج الطبري (٢٦٩٤) بإسناد حسنٍ عن قتادة قوله: ﴿فَمَنْ خَافَ مِنْ مَوْصٍ جَنَفًا أَوْ إِثْمًا﴾ [البقرة: ١٨٢] وكان قتادة يقول: من أوصى بجور أو حيف في وصيته فردّها ولي المتوفى أو إمام من أئمة المسلمين إلى كتاب الله وإلى العدل فذاك له.

(٣) قال الطبري رحمه الله: وقال بعضهم بل معنى ذلك: فمن خاف من موصٍ جنفًا أو إثمًا في عطيته عند حضور أجله في بعض ورثته دون بعض فلا إثم على من أصلح بينهم - يعني بين الورثة -.

سيرجع نفعها إلى ابنته ^(١).

رابعها: أصلح بين الآباء والأقرباء ^(٢):

خامسها: أن المراد الإصلاح بين الموصي وبين الموصى له وبين الورثة:

فقد يوصي الموصي بأكثر من الثلث فيقبل ذلك الموصى لهم ويعترض سائر الورثة فيحدث النزاع، فلا جناح حينئذٍ على المصلح أن يصلح.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ عَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ فيه وجوه:

أحدها: ﴿عَفُورٌ﴾ للموصي لما حدثته به نفسه من الإثم أو لما تعمدته من الإثم أو لما وقع فيه من الخطأ أي أن القائمين على أمر الميت إذا أصلحوا ما وقع فيه الميت من (الجنف) الخطأ غير المتعمد أو ﴿إِثْمٌ﴾ الخطأ المتعمد فحينئذٍ يرفعون الإثم عنه إن شاء الله، لكونهم أصلحوا ما قد أفسده ميتهم.

وقوله: ﴿رَحِيمٌ﴾ بعبده الذي قد مات ما يرحمه ويتجاوز عنه بإصلاح القائمين على أمره ما قد أفسده.

والمعنى الثاني: ﴿عَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ للقائمين على أمر الميت إذا عدلوا وصيته الجائرة (عن خطأ منه أو عن عمد) فإذا أصلحوا ما أفسده ميتهم فإن الله غفور رحيم.

(١) أخرج الطبري بإسناد صحيح (٢٧٠١) عن طائوس في قوله: ﴿فَمَنْ خَافَ مِنْ مَوْصٍ جَنَفًا أَوْ إِثْمًا فَأَصْلَحَ بَيْنَهُمْ﴾ [البقرة: ١٨٢] قال: هو الرجل يوصي لولد ابنته.

(٢) قال الطبري رحمه الله: وقال آخرون: بل معنى ذلك: فمن خاف من موصٍ لأبائه وأقربائه جَنَفًا على بعضهم لبعض فأصلح بين الآباء والأقرباء فلا إثم عليه.

وقد أخرج الطبري (٢٧٠٣) بإسناد صحيح إلى ابن زيد في قوله عز وجل: ﴿فَمَنْ خَافَ مِنْ مَوْصٍ جَنَفًا أَوْ إِثْمًا فَأَصْلَحَ بَيْنَهُمْ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ﴾ [البقرة: ١٨٢]، قال: «الجنف» أن يحيف لبعضهم على بعض في الوصية، «والإثم» أن يكون قد أثم في أبويه بعضهم على بعض، ﴿فَأَصْلَحَ بَيْنَهُمْ﴾ الموصى إليه بين الوالدين والأقربين - الابن والبنون هم «الأقربون» - فلا إثم عليه، فهذا الموصى الذي أوصى إليه بذلك، وجعل إليه، فرأى هذا قد أجنف لهذا على هذا، فأصلح بينهم فلا إثم عليه، فيعجز الموصي أن يوصي كما أمره الله تعالى، وعجز الموصى إليه أن يصلح، فانتزع الله تعالى ذكره ذلك منهم، ففرض الفرائض.

هذا، وقد قال الطبري رحمه الله تعالى:

وأما قوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [البقرة: ١٨٢] فإنه يعني: والله غفور للموصي فيما كان حدث به نفسه من الجنف والإثم إذا ترك أن يآثم ويجنف في وصيته فتجاوز له عما كان حدث به نفسه من الجور إذ لم يُمض ذلك فيغفل أن يؤاخذه به رحيم بالمصلح بين الموصي وبين من أراد أن يحيف عليه لغيره أو يآثم فيه له.



(آيات الصيام وتتخللها آية الدعاء)

قال الله عز وجل: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٨٣﴾ أَيَّامًا مَعْدُودَاتٍ فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ فَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ وَأَنْ تَصُومُوا خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٨٤﴾ شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْءَانُ هُدًى لِلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ وَمَنْ كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُوا الْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَى مَا هَدَيْتُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٨٥﴾﴾

قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ﴾.

الخطاب موجّه للمؤمنين^(١) البالغين^(٢) العقلاء القادرين على الصيام الذين انتفت عنهم موانعه في وقت من الأوقات كالحائض والمسافر والمريض ونحو هؤلاء. وقوله تعالى: ﴿كُتِبَ﴾ أي فرض ﴿عَلَيْكُمْ﴾ يا أهل الإيمان ﴿الصِّيَامُ﴾ والمراد به هنا شهر رمضان وهو ركن من أركان الإسلام ففي الحديث «بُنِيَ

(١) والمراد بهم هنا المسلمون.

(٢) الذين هم دون البلوغ يستحب لهم الصيام (ما داموا يطيقون) ولكن لا يجب عليهم.

الإِسْلَامُ عَلَى خَمْسٍ شَهَادَةٍ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ، وَإِقَامِ الصَّلَاةِ، وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ، وَالْحَجِّ، وَصَوْمِ رَمَضَانَ^(١).

وعن الصيام لغة: فهو الامتناع ومنه قول مريم عليها السلام: ﴿إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا﴾.

وشرعاً: الامتناع عن الطعام والشراب والشهوة من طلوع الفجر إلى غروب الشمس ويكون ذلك مصحوباً بالنية.

وكل ذلك عليه أدلة، وفيه تفصيلات^(٢).

وقوله تعالى: ﴿كَأَكُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ﴾ فقد كُتِبَ على ذلك من قبلنا (كاليهود والنصارى وغيرهم) صياماً أيضاً.

وقوله تعالى: ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ قيل تتقون المعاصي وقيل تتقون بصيامكم النار، أي تجعلوا الصيام حاجزاً بينكم وبين النار وقيل لعلكم تتقون الطعام والشراب، والأقوال بينها تلازمٌ وتقاربٌ في المعنى، فمن صام فقد راقب ربّه عزّ وجلّ، وقوي وازع المراقبة في نفسه فيحمله هذا على اتقاء المعاصي بإذن الله وكأن من صام فقد قلّ جريان الدم في جسمه، ومعلوم أن الشيطان يجري من ابن آدم مجرى الدم كما ورد في الحديث عن رسول الله ﷺ^(٣) فمن ثمّ يضعف عمل الشيطان بقلة الطعام.

وثمّ وجه آخر لحدوث التقوى بالصيام، ألا وهو أن الصائم يشعر بالجوع والعطش ومن ثمّ يشعر ببؤس البائسين وضرر المتضررين فيحمله ذلك على الإحسان إليهم والصدقة عليهم فيجعل بذلك بينه وبين النار وقاية والله أعلم.

هذا، وكما هو معلوم فإن أعمال البرّ وقاية تقى من النار، فالتوحيد وقاية من النار والصلاة وقاية من النار والصدقة وقاية من النار، وكذا الصوم وقاية من النار، والله تعالى أعلم.

أما قوله تعالى: ﴿أَيَّامًا مَعْدُودَاتٍ﴾ فالمراد أياماً قليلاً يأتي عليها العدُّ

(١) أخرجه البخاري (٨)، ومسلم (١٦).

(٢) وقد أوردت كثيراً من ذلك في كتابي التسهيل لتأويل التنزيل، وكذا في كتابي تفسير آيات الأحكام.

(٣) البخاري مع الفتح (٢٧٨/٤)، ومسلم (١٥٦/١٤).

والحصر، فالصيام أيامه قليلة، والتعبير بمعدودات يدل على ذلك، كما قالت عائشة رضي الله عنها في الحديث: «كان رسول الله ﷺ يتكلم كلاماً لو عدّه العادّ لأحصاه»^(١) وتعني ﷺ - أن كلامه كان قليلاً.

أما قوله تعالى: ﴿فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَّرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ﴾ ففيه مقدرٌ محذوف لكنه مفهوم من السياق ألا وهو (فأفطر) فالمعنى: فمن كان منكم مريضاً أو على سفر فأفطر فعده من أيام أخر.

وهذا التقدير لا بد منه، وذلك لأن من كان مريضاً وصام أو كان مسافراً فصام لا يلزم بإعادة الأيام التي صامها أثناء مرضه أو أثناء سفره.

وهذا التقدير كالتقدير في قوله تعالى: ﴿فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَّرِيضًا أَوْ بِإِذَى مِنْ رَأْسِهِ فَفِدْيَةٌ مِنْ صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ﴾ [البقرة: ١٩٦] فالتقدير: فمن كان منكم مريضاً أو به أذى من رأسه فارتكب محظوراً كأن حلق أو غطّى رأسه أو ارتكب محظوراً آخر من محظورات الإحرام فعليه فدية من صيام أو صدقة أو نسك.

أما من كان مريضاً أو به أذى من رأسه فلم يرتكب محظوراً فلا شيء عليه، والله تعالى أعلم.

أما عن المرض الذي يسوغ الفطر، فهو المرض الذي يزداد بالصيام أو يتأخر برؤه بالصيام، ويُقال عن صاحبه: إنه مريض - عرفاً -.

أما السفر فما يطلق عليه السفر عرفاً يسوغ الفطر، والله تعالى أعلم. وقوله تعالى: ﴿فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ﴾ أي فعليه صيام عدد الأيام التي أفطرها وذلك في أيام أخر.

وقوله: ﴿مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ﴾ تستفاد منه فائدة ألا وهي أن أمد القضاء موسع، بمعنى: أننا لم نلزم بالقضاء في أيام بعينها دون ما سواها، وإن كان استباق الخيرات محموداً، وكانت المبادرة إليها مستحبة، لقوله تعالى: ﴿فَاسْتَيْقُوا الْخَيْرَاتِ﴾ [المائدة: ٤٨] إلا أنه إذا تأخر الشخص حتى ولو دخل عليه رمضان آخر ولم يكن صام ما عليه من رمضان الماضي فلا دليل - فيما علمت - على إلزامه بالكفارة مع

(١) البخاري (حديث ٣٥٦٧)، ومسلم (٢٤٩٣).

الصيام بل قوله تعالى: ﴿فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ﴾ يعافيه من تلك الكفارة، والله أعلم. أما الوارد عن أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها من أنها كان يكون عليها الأيام من رمضان فلا تستطيع أن تقضيها إلا في شعبان^(١)، فغاية ما يُستفاد منه أنها كانت لا ترغب أن تتراكم عليها أيام جديدة لم تصمها من رمضان جديد إضافة إلى ما عليها من أيام سالفة، بل تبادر بالقضاء قبل أن يدخل عليها رمضان الجديد، وليس في خبرها هذا ما يدل على أنها تلزم نفسها بالكفارة مع القضاء، بل وليس للكفارة في الخبر ذكرًا والله تعالى أعلم.

أما قوله تعالى: ﴿وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ﴾ أي: وعلى الذين يستطيعون الصيام إن أرادوا أن يفطروا فأفطروا ﴿وَفِدْيَةٌ﴾ مقابل هذا اليوم الذي أفطروه وقدرها ﴿طَعَامٌ مِّسْكِينٍ﴾ أي: ما يُطعم به مسكين وتُسد به جوعته.

وهذا كان في أول أمر فرض الصيام، فقد كان من شاء صام، ومن شاء أفطر وأطعم مكان كل يوم مسكينًا، إلى أن جاء الإلزام بالصيام ونسخ هذا التخيير بقوله تعالى: ﴿فَمَن شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ﴾.

وهذا الذي ذكرناه رأي جمهور العلماء، وخالفهم في ذلك عبد الله بن عباس رضي الله عنهما^(٢) فرأى أن الآية محكمة وليست بمنسوخة، وهي باقية في حق الشيخ الكبير والمرأة العجوز والمرضع والحامل فهؤلاء الذين يشق عليهم الصيام لهم أن يفطروا ويطعموا مكان كل يوم مسكينًا فهذه وجهة عبد الله بن عباس رضي الله عنهما في ذلك.

أما قوله تعالى: ﴿فَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ﴾ أي: فمن أطعم أكثر من مسكين بدلًا من مسكين واحد ﴿فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ﴾ أي: فذلك الصنيع خير له عند ربه.

أما قوله تعالى: ﴿وَأَن تَصُومُوا خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ فالمراد به -والله أعلم- وصيامكم خير لكم من الفطر والإطعام.

وبإيضاح آخر: أن المسلم - في أول فرض الصيام - كان مُخَيَّرًا بين أن يصوم،

(١) وفي زيادة مُدرجة (للسَّيِّدِ بِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ) وهذه الزيادة من قول يحيى القطان - رحمه الله - وأثر عائشة رضي الله عنها فيه: كان يكون عليَّ الصيام من رمضان فلا أستطيع قضاءه إلا في شعبان (للسَّيِّدِ بِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ) أخرجه البخاري (١٩٥٠).

(٢) الطبري (٢٧٥٢، ٢٧٥٣).

وبين أن يُفطر ويُطعم مكان كل يوم مسكيناً، فبيّن الله سبحانه وتعالى أن هذا، وإن كان جائزاً - أول الأمر - إلا أن الصيام خيرٌ من الفطر والإطعام.

هذا، وليس قوله تعالى: ﴿وَأَنْ تَصُومُوا خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ متعلق بالصوم في المرض والسفر، وإنما الصوم والفطر في المرض والسفر لهما شأن آخر وفقه آخر، هذا حاصله:

أن الفطر في السفر قد يُفَضَّل أحياناً، وأن الصوم في السفر قد يُفَضَّل أحياناً^(١) وأن ذلك يرجع إلى حال المسافر وقوته فإذا كان الصوم يشق عليه أو يعوقه عن فعل خيرٍ فالفطر أولى له، ومن هذا قول النبي ﷺ - للرجل الذي ظلَّ عليه والتف الناس حوله وسأل عنه النبي ﷺ فقالوا: صائم - فقال: «ليس من البر الصيام في السفر»^(٢).

وقول النبي ﷺ - لما صام بعض أصحابه في سفر وأفطر آخرون وقام المفطرون بخدمة إخوانهم الصائمين - : «ذهب المفطرون بالأجر»^(٣).

وقول النبي ﷺ لأصحابه - وكانوا في غزوة - «إنكم مصبحو العدو غداً والفطر أقوى لكم»^(٤).

✽ وأما إذا كان الصوم لا يعوق عن فعل خيرٍ^(٥) ولا يشق على صاحبه تلك

- (١) تنبيه: الحديث الوارد في هذا الصدد: «الصَّائِمُ فِي السَّفَرِ كَالْمُفْطِرِّ فِي الْحَضَرِ» حديث ضعيف لا يثبت عن رسول الله ﷺ، وقد أخرجه ابن ماجه (١٦٦٦) وغيره.
- (٢) البخاري (١٩٤٦)، ومسلم (١١١٥)، من حديث جابر بن عبد الله ﷺ قال: كان رسول الله ﷺ في سفرٍ فرأى زحاماً ورجلاً قد ظلَّ عليه فقال: «ما هذا؟» فقالوا: صائم فقال: «لَيْسَ مِنَ الْبِرِّ الصَّوْمُ فِي السَّفَرِ».
- (٣) أخرجه مسلم (حديث ١١١٩) من حديث أنس بن مالك ﷺ قال: كنا مع رسول الله ﷺ في السفر فمنا الصائم ومنا المفطر قال: فنزلنا منزلاً في يوم حار، أكثرنا ظلاً صاحب الكساء، ومنا من يتقي الشمس بيده، قال فسقط الصَّوَامُ وقام المفطرون فضربوا الأبنية وسقوا الركاب فقال رسول الله ﷺ: «ذهب المفطرون اليوم بالأجر».
- (٤) أخرجه مسلم (حديث ١١٢٠) من حديث أبي سعيد الخدري ﷺ قال: سافرنا مع رسول الله ﷺ إلى مكة ونحن صيام قال فنزلنا منزلاً فقال رسول الله ﷺ: «إنكم قد دنوتُم من عدوكم والفطر أقوى لكم» فكانت رخصة فمنا من صام ومنا من أفطر، ثم نزلنا منزلاً آخر فقالوا: «إنكم مصبحو عدوكم والفطر أقوى لكم فأفطروا» وكانت عزيمة فأفطروا، ثم قال: لقد رأيتمنا نصوم مع رسول الله ﷺ بعد ذلك في السفر.
- (٥) قال ابن العربي رحمه الله في تأويل قوله ﷺ: ﴿وَأَنْ تَصُومُوا خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ [البقرة: ١٨٤] والصحيح أن الصوم أفضل لعموم قوله عز وجل: ﴿وَأَنْ تَصُومُوا خَيْرٌ لَّكُمْ﴾، وأما فطر النبي ﷺ فإنه روي في «الصحيح» أنه قيل له إن الناس قد شق عليهم الصيام وإنما ينتظرون فطرك، فأفطر ولا خلاف في أن من شق عليه الصوم فله الفطر، وقد روى أبو سعيد الخدري ﷺ أنه قال: كنا نغزو مع رسول الله ﷺ في رمضان فمنا الصائم ومنا المفطر.
- من وجد قوةً فصام فذلك حسن، ومن وجد ضعفاً فأفطر فذلك حسن فأما عند القرب من العدو فلا

المشقة فللصائم حينئذ أسوة في رسول الله ﷺ فقد صام النبي ﷺ في سفره أيضاً ^(١) والله تعالى أعلم.

أما قوله تعالى: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ﴾ فيبان لفضيلة هذا الشهر الكريم، ومنزلته العظيمة من بين سائر الشهور، ويطيب في هذا المقام التذكير به وبفضله، وفضل الصيام فيه، فأقول وبالله التوفيق:

لقد وردت عدة أحاديث عن رسول الله ﷺ تبين فضل هذا الشهر، وفضل صيامه وقيامه، من هذه الأحاديث ما يلي:

ما أخرجه البخاري ومسلم ^(٢) من حديث أبي هريرة - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - يَقُولُ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ - ﷺ - « إِذَا دَخَلَ شَهْرُ رَمَضَانَ فَتُحْتَفَتُ أَبْوَابُ السَّمَاءِ ، وَغُلِقَتْ أَبْوَابُ جَهَنَّمَ ، وَسُلْسِلَتِ الشَّيَاطِينُ ».

وفي رواية في الصحيح: «فُتِحَتْ أَبْوَابُ الْجَنَّةِ».

= ينبغي أن يكون في استحباب الفطر اختلاف، قاله ابن حبيب وبه أقول.

❦ **قلت (مصطفى):** وأخرج الطبري (٢٨٦٩) من طريق ابن بشار قال: حدثنا عبد الوهاب قال حدثنا أيوب قال حدثنا عروة وسالم أنهما كانا عند عمر بن عبد العزيز إذ هو أمير على المدينة فتذاكروا الصوم في السفر، قال سالم: كان ابن عمر لا يصوم في السفر، وقال عروة: وكانت عائشة تصوم في السفر فقال سالم: إنما أخذت عن ابن عمر وقال عروة: إنما أخذت عن عائشة حتى ارتفعت أصواتهما، فقال عمر ابن عبد العزيز: اللهم عفوا! إذا كان يسراً فصوموا وإذا كان عسراً فأفطروا.

وأخرج الطبري (٢٨٩٤) بإسناد صحيح إلى أبي حمزة قال: سألت ابن عباس عن الصوم في السفر فقال: يُسَّرُ وَعُسْرٌ فَخُذْ بِيسر الله.

❦ وأخرج الطبري بإسناد حسن عن قتادة (٢٨٩٦) قوله: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمْ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمْ الْعُسْرَ﴾ [البقرة: ١٨٥] فأريدوا لأنفسكم الذي أراد الله لكم.

(١) أخرج البخاري (حديث ١٩٤٥) ومسلم (١١٢٢) من حديث أبي الدرداء رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: خرجنا مع النبي ﷺ في بعض أسفاره في يوم حارٍّ حتى يضع الرجل يده على رأسه من شدة الحر وما فينا صائم إلا ما كان من النبي ﷺ وابن رواحة.

❦ هذا وقد أخرج البخاري (حديث ١٩٤٣)، ومسلم (حديث ١١٢١) من حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أن حمزة ابن عمرو الأسلمي قال للنبي ﷺ: أأصوم في السفر؟ وكان كثير الصوم - فقال: «إن شئت فصم وإن شئت فأفطر».

(٢) أخرجه البخاري (حديث ١٨٩٩)، ومسلم (حديث ١٠٧٩).

ما أخرجه البخاري ومسلم في صحيحيهما ^(١) ومنها: ما أخرجه من حديث أبي هريرة أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ - ﷺ - كَانَ يَقُولُ: « الصَّلَاةُ الْخَمْسُ وَالْجُمُعَةُ إِلَى الْجُمُعَةِ وَرَمَضَانُ إِلَى رَمَضَانَ مُكَفِّرَاتٌ مَا بَيْنَهُنَّ إِذَا اجْتَنَبَ الْكَبَائِرَ ».

وهذه طائفة من الأحاديث في فضل الصيام عموماً:

من هذه الأحاديث ما يلي:

١- ما أخرجه البخاري ومسلم ^(٢) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: « قَالَ اللَّهُ كُلُّ عَمَلٍ ابْنِ آدَمَ لَهُ إِلَّا الصِّيَامَ ، فَإِنَّهُ لِي ، وَأَنَا أَجْزَى بِهِ . وَالصِّيَامُ جَنَّةٌ ، وَإِذَا كَانَ يَوْمُ صَوْمِ أَحَدِكُمْ ، فَلَا يَزِفْتُ وَلَا يَصْحَبُ ، فَإِنْ سَابَّهُ أَحَدٌ ، أَوْ قَاتَلَهُ فَلْيَقُلْ إِنِّي امْرُؤٌ صَائِمٌ . وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ لَخُلُوفُ فَمِ الصَّائِمِ أَطْيَبُ عِنْدَ اللَّهِ مِنْ رِيحِ الْمِسْكِ ، لِلصَّائِمِ فَرْحَتَانِ يَفْرَحُهُمَا إِذَا أَفْطَرَ فَرِحَ ، وَإِذَا لَقِيَ رَبَّهُ فَرِحَ بِصَوْمِهِ ».

٢- عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - عَنِ النَّبِيِّ - ﷺ - قَالَ: « مَنْ قَامَ لَيْلَةَ الْقَدْرِ إِيمَانًا وَاحْتِسَابًا غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ ، وَمَنْ صَامَ رَمَضَانَ إِيمَانًا وَاحْتِسَابًا غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ ».

وفي رواية في الصحيح: « مَنْ قَامَ رَمَضَانَ إِيمَانًا وَاحْتِسَابًا غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ ».

٣- ومنها ما أخرجه البخاري ومسلم ^(٣) من حديث ابن عباسٍ قَالَ كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ - أَجْوَدَ النَّاسِ ، وَكَانَ أَجْوَدُ مَا يَكُونُ فِي رَمَضَانَ حِينَ يَلْقَاهُ جَبْرِيلُ ، وَكَانَ يَلْقَاهُ فِي كُلِّ لَيْلَةٍ مِنْ رَمَضَانَ فَيُدَارِسُهُ الْقُرْآنَ ، فَلَرَسُولُ اللَّهِ ﷺ - أَجْوَدُ بِالْخَيْرِ مِنَ الرِّيحِ الْمُرْسَلَةِ ».

٤- ما أخرجه البخاري ومسلم ^(٤) من حديث سهل بن سعد الساعدي - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ -

(١) أخرجه البخاري (حديث ١٩٠١)، ومسلم (حديث ٧٥٩).

(٢) أخرجه البخاري (حديث ١٩٠٤)، ومسلم (حديث ١١٥١) ص (٨٠٧).

(٣) أخرجه البخاري (حديث ١٩٠٢)، ومسلم (حديث ٢٣٠٨).

(٤) أخرجه البخاري (حديث ١٨٩٦)، ومسلم (حديث ١١٥٢).

عَنِ النَّبِيِّ - ﷺ - قَالَ: « إِنَّ فِي الْجَنَّةِ بَابًا يُقَالُ لَهُ الرَّيَّانُ ، يَدْخُلُ مِنْهُ الصَّائِمُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، لَا يَدْخُلُ مِنْهُ أَحَدٌ غَيْرُهُمْ يُقَالُ أَيْنَ الصَّائِمُونَ فَيَقُومُونَ ، لَا يَدْخُلُ مِنْهُ أَحَدٌ غَيْرُهُمْ ، فَإِذَا دَخَلُوا أُغْلِقَ ، فَلَمْ يَدْخُلْ مِنْهُ أَحَدٌ » .

٥- ونحوه من حديث أبي هريرة رضي الله عنه عند البخاري ومسلم ^(١) وفيه أن رسول الله ﷺ قال: « مَنْ أَتَفَقَ زَوْجَيْنِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ نُودِيَ مِنْ أَبْوَابِ الْجَنَّةِ يَا عَبْدَ اللَّهِ ، هَذَا خَيْرٌ . فَمَنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ الصَّلَاةِ دُعِيَ مِنْ بَابِ الصَّلَاةِ ، وَمَنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ الْجِهَادِ دُعِيَ مِنْ بَابِ الْجِهَادِ ، وَمَنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ الصِّيَامِ دُعِيَ مِنْ بَابِ الرَّيَّانِ » .

٦- وأخرج البخاري ومسلم ^(٢) من حديث حذيفة رضي الله عنه « فِتْنَةُ الرَّجُلِ فِي أَهْلِهِ وَمَالِهِ وَجَارِهِ تُكْفَرُهَا الصَّلَاةُ وَالصِّيَامُ وَالصَّدَقَةُ » .

٧- وأخرج البخاري ومسلم ^(٣) من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: « مَا مِنْ عَبْدٍ يَصُومُ يَوْمًا فِي سَبِيلِ اللَّهِ إِلَّا بَاعَدَ اللَّهُ بِذَلِكَ الْيَوْمَ وَجْهَهُ عَنِ النَّارِ سَبْعِينَ خَرِيفًا » .

٨- وأخرج البخاري ومسلم ^(٤) من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال كنا مع النبي ﷺ فقال: « مَنْ اسْتَطَاعَ الْبَاءَةَ فَلْيَتَزَوَّجْ ، فَإِنَّهُ أَغْضُ لِلْبَصْرِ وَأَخْصَنُ لِلْفَرْجِ ، وَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَعَلَيْهِ بِالصَّوْمِ ، فَإِنَّهُ لَهُ وَجَاءٌ » .

أما لماذا خص الصوم من بين سائر العبادات أنه لله في الحديث القدسي: «إِلَّا الصَّوْمُ فَإِنَّهُ لِي وَأَنَا أَجْزِي بِهِ» ^(٥) ؟ فللعلماء في ذلك أقوال:

قال الماوردي في «تفسيره»: وإنما اختص الصوم بأنه له وإن كان كل العبادات له لأمرين بآين الصوم بهما سائر العبادات.

(١) أخرجه البخاري حديث (١٨٩٧)، ومسلم (حديث ١٠٢٧).

(٢) أخرجه البخاري حديث (١٨٩٥)، ومسلم حديث (١٤٤).

(٣) أخرجه مسلم (حديث ١١٥٣)، والبخاري حديث (٢٨٤٠).

(٤) أخرجه البخاري (حديث ١٩٠٥)، ومسلم (حديث ١٤٠٠).

(٥) صحيح وقد تقدم قريباً.

أحدهما: أن الصوم منع من ملاذ النفس وشهواتها ما لا يمنع منه سائر العبادات.

والثاني: أن الصوم سرٌّ بين العبد وربه لا يظهر إلا له فلذلك صار مختصاً به، وما سواه من العبادات ظاهر، ربما فعله تصنعاً ورياءً فلهذا صار أخص بالصوم من غيره.

أما قوله تعالى: ﴿الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ﴾ ففيه حثٌّ وترغيبٌ في قراءة القرآن في هذا الشهر الكريم، ولذلك كان جبريل عليه السلام يُدارس رسول الله ﷺ القرآن في هذا الشهر من كل عام كما ورد في الصحيحين^(١) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما قال: كَانَ النَّبِيُّ - ﷺ - أَجْوَدَ النَّاسِ بِالْخَيْرِ ، وَكَانَ أَجْوَدُ مَا يَكُونُ فِي رَمَضَانَ ، حِينَ يَلْقَاهُ جِبْرِيلُ ، وَكَانَ جِبْرِيلُ - عَلَيْهِ السَّلَامُ - يَلْقَاهُ كُلَّ لَيْلَةٍ فِي رَمَضَانَ حَتَّى يَنْسَلِخَ ، يَعْرِضُ عَلَيْهِ النَّبِيُّ - ﷺ - الْقُرْآنَ ، فَإِذَا لَقِيَهِ جِبْرِيلُ - عَلَيْهِ السَّلَامُ - كَانَ أَجْوَدَ بِالْخَيْرِ مِنَ الرِّيحِ الْمُرْسَلَةِ .

هذا، وقد يتساءل شخصٌ قائلاً: ما وجه قوله تعالى: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ﴾ ومعلوم أن نزول القرآن على رسول الله ﷺ كان على مدار ثلاث وعشرين سنة؟

وللعلماء على ذلك أجوبة، منها:

أن ابتداء الإنزال كان في رمضان، كما قال تعالى: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ﴾ [القدر: ١] ثم توالى بعد ذلك.

ومنها: أن القرآن نزل في ليلة القدر من اللوح المحفوظ إلى سماء الدنيا في شهر رمضان كما قال تعالى: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ﴾ [القدر: ١]، وكما قال تعالى: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ مُبَرَكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنْذِرِينَ﴾ [الدخان: ٣]، وكما قال تعالى: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ﴾ [البقرة: ١٨٥]، ثم نزل مفروقاً على رسول الله ﷺ

(١) البخاري (١٩٠٢) ومسلم (٢٣٠٨).

بعد ذلك بحسب الوقائع.

ومما يؤيد نزوله مفرقاً قول الله تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلاً﴾ [الفرقان: ٣٢]، وهذا شيء من المسلمات - أي: كون القرآن نزل على رسول الله ﷺ مفرقاً بحسب الوقائع - فقد نزلت العلق على رسول الله ﷺ بمكة ونزلت براءة والبقرة بالمدينة.... إلى غير ذلك.

وقد روي ذلك من طرق عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما ^(١).

وقال القرطبي رحمه الله: ولا خلاف أن القرآن أنزل من اللوح المحفوظ ليلة القدر على ما بيناه جملة واحدة فوضع في بيت العزة في سماء الدنيا ثم كان جبريل ينزل به نجماً نجماً في الأوامر والنواهي والأسباب وذلك في عشرين سنة. أما قوله تعالى: ﴿هُدًى لِلنَّاسِ﴾ فمعناه أن هذا القرآن أنزل هداية وإرشاداً للناس إلى سبيل الحق.

وقوله تعالى: ﴿وَبَيَّنَّا مِنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ﴾ أي: ودلالات واضحة وحجج ظاهرات من دلالات الهدى وحجج الحق التي يفرق الله بها بين الحق والباطل.

وقوله تعالى: ﴿فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ﴾ فمعناه أن من حضره هذا الشهر وهو في بلده فليصم من الشهر الذي شهدته منه وهو مقيم فإذا كان مسافراً فله

(١) أخرجه الطبري من طرق صحيحة وحسان عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما رقم (٢٨١٢)، (٢٨١٣)، (٢٨١٦)، (٢٨١٧)، (٢٨١٨)، ومن ألفاظها (بإسناد صحيح عن ابن عباس كما ذكرنا): أنزل القرآن كله جملة واحدة في ليلة القدر في رمضان إلى السماء الدنيا فكان الله إذا أراد أن يحدث في الأرض شيئاً أنزله منه حتى جمعه. وقال ابن جرير الطبري رحمه الله تعالى: وأما قوله: ﴿الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ﴾ [البقرة: ١٨٥]، فإنه ذكر أنه نزل في ليلة القدر من اللوح المحفوظ إلى سماء الدنيا في ليلة القدر من شهر رمضان ثم أنزل إلى محمد ﷺ على ما أراد الله إنزاله إليه.

وقال الحافظ ابن كثير رحمه الله: وأما القرآن فإنما نزل جملة واحدة إلى بيت العزة من السماء الدنيا كان ذلك في شهر رمضان في ليلة القدر منه كما قال تعالى: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ﴾ [القدر: ١] وقال: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ مُبَرَّكَةٍ﴾ [الدخان: ٣] ثم نزل بعد مفرقاً بحسب الوقائع على رسول الله ﷺ.

أَنْ يُفْطِرَ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

وقوله تعالى: ﴿وَمَنْ كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ﴾ أعيد ذكر ذلك حتى لا يُظن أن التخيير في قوله تعالى: ﴿وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ﴾ لما نُسخ نُسخَت معه الرخصة للمريض والمسافر في الفطر فأعيد الترخيص للمريض والمسافر في الفطر لدفع هذا الظن، والله أعلم.

أما قوله تعالى: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ﴾ فبيان لرحمة الله بالمؤمنين وأنه يريد بهم يسير الأمور وأسهلها، ومن إرادته اليسر بالمؤمنين أن رخص لهم في الفطر في المرض والسفر ﴿يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ﴾ أي: ولا يريد بكم المشقة والشدة. وهذه الآية إحدى آيات رفع الحرج عن أمة محمد ﷺ تلك الآيات التي ينبغي أن يستحضرها كل من يُفتي الناس ويرشدهم.

فمن هذه الآيات:

قوله تعالى: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ﴾ [البقرة: ١٨٥]، وقوله تعالى: ﴿فَإِنْ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا﴾ [الشرح: ٤، ٥]، وقوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ [الحج: ٧٨]، وقوله تعالى: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُخَفِّفَ عَنْكُمْ﴾ [النساء: ٢٨]، وقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْكُمْ﴾ [النساء: ٢٧]، وقوله تعالى: ﴿مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَءَامَنْتُمْ﴾ [النساء: ١٤٧].

وكذلك قول رسول الله ﷺ: «يسرا ولا تعسرا»^(١)، وقوله عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «إن الله غني عن تعذيب هذا نفسه»^(٢) إلى غير ذلك من الأدلة الواردة في هذا الباب.

أما قوله تعالى: ﴿وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَى مَا هَدَيْتَكُمْ﴾.

فمعناه -والله أعلم-: ولتكمّلوا صيام عدد الأيام التي فرضناها عليكم ولتعظموا

(١) البخاري (٤٣٤١، ٤٣٤٢) ومسلم (١٧٣٢).

(٢) البخاري (حديث ٦٧٠١).

الله بالذكر له بما أنعم به عليكم من الهداية: تلك الهداية التي حُرِّمَها غيركم فأخذ من ذلك التكبير عند الأمر المحمود، وقد دلَّت على ذلك جملة أدلة منها: تكبير الصحابة - رضي الله عنهم - لما قال لهم نبيهم ﷺ أنه يطمع أن يكونوا شطر أهل الجنة ^(١).

قال الطبري رحمه الله تعالى - في تفسير الآية الكريمة: ﴿وَلِتُكْمِلُوا الْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَى مَا هَدَيْتُكُمْ﴾ ولتعظموا الله بالذكر له بما أنعم عليكم به من الهداية التي خذل عنها غيركم من أهل الملل الذين كتب عليهم من صوم شهر رمضان مثل الذي كتب عليكم فيه.

فضلوا عنه بإضلال الله إياهم وخصَّكم بكرامته فهداكم له ووفقكم لأداء ما كتب الله عليكم من صومه وتشكروه على ذلك بالعبادة له. والذكر الذي حضهم الله على تعظيمه به (التكبير) يوم الفطر فيما تأوله جماعة من أهل التأويل.

ثم قال الطبري رحمته الله (أثر ٢٩٠٣): حدثني يونس قال أخبرنا ابن وهب قال قال ابن زيد: كان ابن عباس يقول: حقُّ على المسلمين إذا نظروا إلى هلال شوال أن يكبروا الله حتى يفرغوا من عيدهم، لأن الله تعالى ذكره يقول: ﴿وَلِتُكْمِلُوا الْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَى مَا هَدَيْتُكُمْ﴾ [البقرة: ١٨٥]. قال ابن زيد: ينبغي لهم إذا غدوا إلى المصلى كبروا، فإذا جلسوا كبروا، فإذا جاء الإمام صمتوا، فإذا كبر الإمام كبروا، ولا يكبرون إذا جاء الإمام إلا بتكبيره، حتى إذا فرغ وانقضت الصلاة فقد انقضى العيد.

قال يونس: قال ابن وهب: قال عبد الرحمن بن زيد: والجماعة عندنا على أن يغدوا بالتكبير إلى المصلى.

أما قوله تعالى: ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ فقد قال الطبري في تفسيره:

يعني تعالى ذكره بذلك: ولتشكروا الله على ما أنعم به عليكم من الهداية

(١) البخاري (مع الفتح ٨ / ٤٤١) ومسلم (مع النووي ٣ / ٩٧).

والتوفيق وتيسير ما لو شاء عَسَّرَ عليكم و (لعل) في هذا الموضع بمعنى (كي) ولذلك عطف به على قوله: ﴿وَلِتُكْمِلُوا الْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَى مَا هَدَيْتُكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [البقرة: ١٨٥].

وقال الحافظ ابن كثير رحمه الله: وقوله: ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [البقرة: ١٨٥]، أي: إذا قمتم بما أمركم الله به من طاعته بأداء فرائضه وترك محارمه وحفظ حدوده فلعلكم أن تكونوا من الشاكرين بذلك. ثم قال تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾.

فهذه آية كريمة تحث على الدعاء وترغب فيه، تخللت آيات الصيام وكأنها - والله أعلم - توجه وتلفت نظر الصائم إلى الإكثار من الدعاء فالصائم له دعوة لا ترد حتى يفطر، كما ورد بذلك الخبر عن رسول الله ﷺ، وهكذا ينبغي أن يتخلل الدعاء سائر العبادات، فالصلاة تحتوي على دعاء في جملة من أركانها، والصوم كذلك كما هاهنا، والحج كذلك، وقد قال تعالى: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا يُسْكَرُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَشِيعِينَ﴾ [الأنبياء: ٩٠].

قال الحافظ ابن كثير رحمه الله:

وفي ذكره تعالى هذه الآية الباعثة على الدعاء متخللة بين أحكام الصيام إرشاداً إلى الاجتهاد في الدعاء عند إكمال العدة وعند كل فطر.



(آية في الحث على الدعاء)

تخللت آيات الصيام وبيان بعض ما يتعلق بها)

قال الله عز وجل: ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴾ (١٨٦)

قال الله تعالى: ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ﴾ حاصل معناه وإذا سألك عبادي عني أقرب أم بعيد، فإنني قريب ﴿ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ﴾ أسمع الداعي إذا دعان وأعطيه ما سأل ﴿ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي ﴾ أي فليجيبوني وليطيعوني ﴿ وَلْيُؤْمِنُوا بِي ﴾ وليصدقوني فيما أخبرهم به ﴿ لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴾ أي لعلهم يهتدون.

وهنا يطرح سؤال ويوضح جوابه:

السؤال حاصله ما بال كثير من الناس يدعون ولا يستجاب لهم، وقد قال تعالى ﴿ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ﴾.

وجوابه من عدة وجوه:

الأول: أن الدعاء قد يستجاب ولكننا لا نعرف الصورة التي يستجيب بها الدعاء، فقد تكون صورة الاستجابة تتمثل في صرف السوء عن الداعي، وقد تتمثل صورة الإجابة في ادخار الإجابة إلى الآخرة، كما قال رسول الله ﷺ: «ما من مسلم يدعو الله بدعوة ليس فيها إثم ولا قطيعة رحم إلا أعطاه بها إحدى ثلاث خصال: إما أن يعجل له دعوته وإما أن يدخر له في الآخرة، وإما أن

يصرف عنه من السوء مثلها»^(١) .

الثاني: من العلماء من قال: إن الآية الكريمة مقيدة بمشيئة الله ﷻ، والمعنى: أوجب دعوة الداع إن شئت ، ومستند القائلين بهذا القول هو قوله تعالى: ﴿بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِنْ شَاءَ وَتَنْسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ﴾ [الأنعام: ٤١]، لكن الذي يُعكر على هذا القول هو أن سياق هذه الآية الكريمة إنما هو في المشركين^(٢) .

الثالث: أن المراد بـ (الدعاء) هنا دعاء العباد ربهم أن يتقبل منهم أعمالهم ويشيهم على طاعتهم، وإجابة هذا من الله معناها الوفاء لهم بما وعدهم به وبما ضمنه للمطيعين من الثواب كما قال تعالى: ﴿وَيَسْتَجِيبُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَيَزِيدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ﴾ [الشورى: ٢٦] .

فمعنى أوجب دعوة الداع^(٣) ، أتقبل عمل العامل وأثيبه عليه، وشاهد ذلك قول رسول الله ﷺ: «الدعاء هو العبادة»^(٤) .

الرابع: من أهل العلم من قال: ﴿أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ﴾ إذا استوفى الداعي شروط الدعاء^(٥) .

الخامس: من العلماء من قال إن المراد بـ (الداع) : الداعي المؤمن وليس

(١) أخرجه أحمد في «المسند» (١٨ / ٣) بإسناد حسن.

(٢) قال الشنقيطي رحمه الله (أضواء البيان ١ / ١٠٤) : وقال بعضهم: التعليق بالمشيئة في دعاء الكفار كما هو ظاهر سياق الآية ، والوعد المطلق في دعاء المؤمنين، وعليه فدعاؤهم لا يُرد، إما أن يُعطوا ما سألوا أو يُدخر لهم خيرٌ منه أو يدفع عنهم من السوء بقدره.

(٣) قال ابن القيم رحمه الله: الدعاء نوعان، دعاء ثناء، ودعاء مسألة، والنبى ﷺ كان يكثر في سجوده من النوعين، والدعاء الذي أمر به في السجود يتناول النوعين، والاستجابة أيضاً نوعان: استجابة دعاء الطالب بإعطائه سؤاله واستجابة دعاء المثني بالثناء، وبكل واحد من النوعين فُسّر قوله تعالى: ﴿أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾ [البقرة: ١٨٦] والصحيح أنه يعم النوعين.

(٤) صحيح وقد تقدم.

(٥) وسيأتي بيان بعضها إن شاء الله.

الكافر لقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾ ^(١) [البقرة: ٢٧].

السادس: قال بعض أهل العلم: إن الداعي قد يعتقد المصلحة في إجابته إلى ما سأل، وقد لا تكون المصلحة في ذلك فيجاء إلى مقصوده الأصلي وهو طلب المصلحة، وقد تكون المصلحة في التأخير أو المنع.

السابع: ذكر بعض العلماء هنا أن معنى (أجيب) أي: أسمع، فقوله تعالى: ﴿أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ﴾ أي: أسمع دعوة الداع وذلك كقولنا في الصلاة: سمع الله لمن حمده أي: أجاب الله ^(٢).

الثامن: أن المراد من الدعاء التوبة من الذنوب، وذلك لأن التائب يدعو الله تعالى عند التوبة، وإجابة الدعاء بهذا التفسير عبارة عن قبول التوبة.

التاسع: أن الإجابة قد تتأخر حتى يكثر الداعي من الدعاء فيزداد ثواباً.

العاشر: أن الداعي قد يدعو ولكن هناك معوقات للدعاء عن الإجابة كدعوة المظلوم أو أكل المال الحرام أو عدم الأخذ بالأسباب أو غير ذلك فهذه بعض الوجوه التي ظهرت لي من أقوال العلماء في هذا الباب والله أعلم.

(١) قال القاسمي (محاسن التأويل ٣/ ٤٣٤):

قال الراغب: بين تعالى في هذه الآية إفضاله على عباده، وضمن أنهم إذا دعوه أجابهم، وعليه نبه بقوله تعالى: ﴿ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ [غافر: ٦٠]. وإن قيل: قد ضمن في الآيتين أن من دعاه أجابه، وكم رأينا من داع له لم يجبه! قيل: إنه ضمن الإجابة لعباده، ولم يرد بالعباد من ذكرهم بقوله: ﴿إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتَى الرَّحْمَنِ عَبْدًا﴾ [مريم: ٩٣] وإنما عنى به الموصوفين بقوله: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنْ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ﴾ [الحجر: ٤٢] وقوله: ﴿وَيَعَاذُ الرَّحْمَنُ﴾ الآيات [الفرقان: ٦٣].

قلت: لكن ما زال الإشكال وارداً على هذا الوجه فمن المؤمنين من يدعو ولا يظهر أن الدعوة استجيب له أيضاً.

(٢) قال الرازي في «تفسيره»: وقال ابن الأنباري (أجيب) ههنا بمعنى أسمع لأن بين السماع وبين الإجابة نوع ملازمة فلهذا السبب يقام كل واحد منهما مقام الآخر، فقولنا: سمع الله لمن حمده أي: أجاب الله فكذا ههنا قوله: ﴿أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ﴾ [البقرة: ١٨٦]، أي: أسمع تلك الدعوة فإذا حملنا قوله تعالى: ﴿ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ على هذا الوجه زال الإشكال.

(تتمة آيات الصيام)

قال الله عز وجل: ﴿أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إِلَى نِسَائِكُمْ هُنَّ لِبَاسٌ لَكُمْ وَأَنْتُمْ لِبَاسٌ لَهُنَّ عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَخْتَانُونَ أَنْفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنْكُمْ فَالْآنَ بَشِّرُوهُمْ وَابْتَغُوا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ ثُمَّ أَتُمُوا الصِّيَامَ إِلَى اللَّيْلِ وَلَا تُبَشِّرُوهُمْ وَأَنْتُمْ عَاكِفُونَ فِي الْمَسَجِدِ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَقْرَبُوهَا كَذَلِكَ

يُبَيِّنُ اللَّهُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿١٨٧﴾

قوله تعالى: ﴿أُحِلَّ لَكُمْ﴾ أي أبيع لكم ﴿لَيْلَةَ الصِّيَامِ﴾ في الليلة التي ستصبحون بعدها صائمين ﴿الرَّفَثُ إِلَى نِسَائِكُمْ﴾ أي: جماع نساءكم ﴿هُنَّ لِبَاسٌ لَكُمْ﴾ أي سكنٌ لكم، ولحافٌ لكم ﴿وَأَنْتُمْ لِبَاسٌ لَهُنَّ﴾ أي غطاءٌ لهن يعني بذلك الجماع والمواقعة.

فإن سأل سائل: هل كان الجماع ممنوعاً ليلة الصيام قبل هذه الآية، ومن ثم قيل: ﴿أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ﴾.

فجواب ذلك: إن إباحة الجماع كانت مقيدة، ففي أول فرض الصيام كان الصائم إذا حان وقت الإفطار أفطر، فأكل وشرب، وجامع زوجته إن شاء وتستمر هذه الإباحة إلى أن ينام، سواء نام أول الليل أو آخره، حتى الفجر، فعلى سبيل المثال: إذا كان أذان المغرب الساعة السادسة مساءً والفجر موعده الساعة الرابعة صباحاً - مثلاً - فله أن يأكل ويشرب ويجمع ما بين الساعة السادسة مساءً إلى الرابعة صباحاً،

ما لم يكن نام بينهما، فإذا نام الساعة الثامنة مساءً -مثلاً- ثم استيقظ من الليل قبل الفجر فليس له أن يأكل ولا أن يشرب ولا أن يجامع حتى تغرب شمس اليوم التالي، أي أن المباح لهم كان الأكل والشرب والجماع ما لم يناموا، فإذا ناموا فقد مُنِعوا من ذلك حتى يأتي وقت المغرب من اليوم التالي، كان هذا أول فرض الصيام، ثم رخص لهم بهذه الآية: ﴿أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصَّيَامِ الرَّفَثُ﴾ فأبيح لهم الجماع، وكذا الأكل والشرب في الليلة بكاملها.

أخرج البخاري في صحيحه^(١): من حديث البراء - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - قَالَ كَانَ أَصْحَابُ مُحَمَّدٍ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - إِذَا كَانَ الرَّجُلُ صَائِمًا، فَحَضَرَ الْإِفْطَارُ، فَتَامَ قَبْلَ أَنْ يُفْطَرَ لَمْ يَأْكُلْ لَيْلَتَهُ وَلَا يَوْمَهُ، حَتَّى يُمْسَى، وَإِنَّ قَيْسَ بْنَ صِرْمَةَ الْأَنْصَارِيِّ كَانَ صَائِمًا، فَلَمَّا حَضَرَ الْإِفْطَارُ أَتَى امْرَأَتَهُ، فَقَالَ لَهَا أَعِنْدِكَ طَعَامٌ قَالَتْ لَا وَلَكِنْ أَنْطَلِقُ، فَأَطْلُبُ لَكَ. وَكَانَ يَوْمُهُ يَعْمَلُ، فَغَلَبَتْهُ عَيْنَاهُ، فَجَاءَتْهُ امْرَأَتُهُ، فَلَمَّا رَأَتْهُ قَالَتْ خَبِيَّةٌ لَكَ. فَلَمَّا انْتَصَفَ النَّهَارُ غَشِيَ عَلَيْهِ، فَذَكَرَ ذَلِكَ لِلنَّبِيِّ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - فَنَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ ﴿أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصَّيَامِ الرَّفَثُ إِلَى نِسَائِكُمْ﴾ فَفَرَحُوا بِهَا فَرَحًا شَدِيدًا، وَنَزَلَتْ ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ﴾ [البقرة: ١٨٧].

وللحديث رواية أخرى^(٢) ولفظها: لما نزل صوم رمضان كانوا لا يقربون النساء رمضان كله وكان رجال يخونون أنفسهم فأنزل الله تعالى: ﴿عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَخْتَانُونَ أَنْفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ﴾ [البقرة: ١٨٧].
أما قوله تعالى: ﴿عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَخْتَانُونَ أَنْفُسَكُمْ﴾ أي تخونونها، وكانت خيانتهم لها في شيئين:

أحدهما: جماع النساء في الوقت الذي حظر الله عليهم فيه الجماع.

الثاني: المطعم والمشرب في الوقت الذي حظر الله عليهم فيه الطعام والشراب.

(١) البخاري (١٩١٥).

(٢) البخاري (٤٥٠٨).

✽ وحاصل ذلك أن أحدهم إذا كان صائماً وأذن المغرب أكل وشرب وجامع النساء إن شاء وأبيح له ذلك ما لم ينم فإذا نام أو نامت زوجته منعاً من الأكل والشرب والجماع إذا استيقظا حتى تغرب شمس اليوم التالي، فكان أقوام منهم يختانون أنفسهم فيأكلون ويشربون ويجامعون نساءهم إن استيقظوا قبل الفجر، والله تعالى أعلم ^(١).

وقوله تعالى: ﴿فَتَابَ عَلَيْكُمْ﴾ أي: فرجع فضله عليكم بعد أن امتثلتم أمره ﴿وَعَفَا عَنْكُمْ﴾ ومحا عنكم ما صدر منكم من تخوين للأنفس ﴿فَالْأَن﴾ وبعد نزول الإباحة في هذه الآية ﴿بَشِّرُوهُمْ﴾ أي: جامعوا نساءكم إن شئتم ﴿وَابْتَغُوا﴾ اطلبوا والتمسوا ﴿مَا كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ﴾ أي: ما قدره الله وقضاه لكم من الذرية والولد ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّى يَبَيِّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ﴾ أي: أبحنا لكم الأكل والشراب والجماع طول الليل، حتى يظهر بياض النهار من سواد الليل.

هذا وقد ورد في ذكر الخيط الأبيض والأسود من الخبر عن رسول الله ﷺ ما أخرجه البخاري ^(٢) من حديث عدي بن حاتم الطائي رضي الله عنه قال: لما نزلت: ﴿حَتَّى يَبَيِّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ﴾ [البقرة: ١٨٧]، عمدت إلى عقالٍ أسود وإلى عقالٍ أبيض فجعلتهما تحت وسادتي فجعلت أنظر في الليل فلا يستبين لي، فغدوت على رسول الله ﷺ فذكرت له ذلك فقال: «إنما ذلك سواد الليل وبياض النهار».

(١) هذا وقد أخرج الطبري بإسناد حسن عن قتادة قال (٢٩٤٧):

﴿عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَخْتَانُونَ أَنْفُسَكُمْ﴾ [البقرة: ١٧٨]. وكان بدءُ الصيام أمروا بثلاثة أيام من كل شهر، وركعتين غدوة، وركعتين عشية، فأحلَّ الله لهم في صيامهم - في ثلاثة أيام، وفي أول ما افترض عليهم في رمضان - إذا أفطروا، وكان الطعام والشراب وغشيان النساء لهم حلالاً ما لم يرقدوا، فإذا رقدوا حُرِّمَ عليهم ذلك إلى مثلها من القابلة. وكانت خيانة القوم أنهم كانوا يُصَيِّبون أو ينالون من الطعام والشراب وغشيان النساء بعد الرقاد، وكانت تلك خيانة القوم أنفسهم ثم أحلَّ الله لهم بعد ذلك الطعام والشراب وغشيان النساء إلى طلوع الفجر.

(٢) البخاري (١٩١٦).

هذا، وقد قال الطبري -رحمه الله-: وكلوا بالليل في شهر صومكم واشربوا وباشروا نساءكم مبتغين ما كتب الله لكم من الولد من أول الليل إلى أن يقع لكم ضوء النهار بطلوع الفجر من ظلمة الليل وسواده.

ومما ورد أيضًا في ذكر الخيط الأبيض من الخيط الأسود وصفته ما أخرجه مسلم وغيره من حديث سمرة بن جندب رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يغرنكم من سحوركم أذان بلال ولا بياض الأفق المستطيل هكذا حتى يستطير هكذا» ^(١) يعني: معترضًا. أي: أنه باتجاه العرض ويكون ذلك ناحية طلوع الشمس.

✽ وصح عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: هما فجران فأما الذي يسطع في السماء فليس يحل ولا يحرم شيئًا، ولكن الفجر الذي يستبين على رؤوس الجبال هو الذي يحرم الشراب ^(٢).

✽ وأخرج الطبري بإسناد صحيح عن أبي مجلز: الضوء الساطع في السماء ليس بالصبح، ولكن ذاك (الصبح الكاذب) إنما الصبح إذا انفضح الأفق ^(٣).

✽ وأخرج الطبري بإسناد صحيح عن مسلم (بن صبيح) قال: لم يكونوا يعدّون الفجر فجرهم هذا كانوا يعدّون الفجر الذي يملأ البيوت والطرق ^(٤).

وفي رواية عنه ^(٥): ما كانوا يرون إلا أن الفجر الذي يستفيض في السماء.

✽ وأخرج ابن أبي شيبة في «المصنف» بإسناد صحيح عن مسلم بن صبيح

(١) أخرجه مسلم (حديث ١٠٩٤ ص ٧٧٠).

(٢) أخرجه الطبري (أثر ٢٩٩٤).

(٣) قال الشيخ محمود شاكر في تعليقه على الطبري:

فضحه الصبح: دهمته فضحة الصبح، وهي بياضه فكشفه وبينه للأعين بضوئه. والأفصح: الأبيض ليس شديد البياض، والأثر أخرجه الطبري (٢٩٩١)، وابن أبي شيبة في المصنف (٢٧/٣).

(٤) أخرجه الطبري (٢٩٩٢)، وابن أبي شيبة في المصنف (٢٧/٣).

(٥) وهي صحيحة أيضًا عند الطبري (٢٩٩٣).

قال: جاء رجل إلى ابن عباس يسأله عن السحور فقال له رجل من جلسائه كُل حتى لا تشك، فقال له ابن عباس: إن هذا لا يقول شيئاً كل ما شكت حتى لا تشك^(١). وفي رواية بإسناد صحيح عن عبد الرزاق في «المصنف» - عن ابن عباس: أحل الله لك الشراب ما شكت حتى لا تشك^(٢).

وقال عبد الرزاق في «مصنفه»^(٣) أخبرنا ابن جريج قال: قلت لعطاء: أتكره أن أشرب وأنا في البيت لا أدري لعلي قد أصبحت؟ قال: لا بأس بذلك هو شك. هذا، وقوله تعالى: ﴿مِنَ الْفَجْرِ﴾ له فائدة وهي دفع الإشكال الذي قد يتوهمه متوهم فيفهم أن الخيط الأبيض والخيط الأسود هما خيط الحائك، وقد توهم ذلك بعض الصحابة رضي الله تعالى عنهم، فأخرج البخاري^(٤) من حديث سهل بن سعد رضي الله عنه قال: (أُنزِلَتْ ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ﴾ [البقرة: ١٨٧] ولم ينزل ﴿مِنَ الْفَجْرِ﴾ فكان رجال إذا أرادوا الصوم ربط أحدهم في رجله الخيط الأبيض والخيط الأسود، ولم يزل يأكل حتى يتبين له رؤيتهما فأنزل الله بعد ﴿مِنَ الْفَجْرِ﴾ فعلموا أنه إنما يعني: (الليل والنهار).

قلت: ففائدة التقييد بـ ﴿الْفَجْرِ﴾ حتى يعلم أن المراد بالخيط الأبيض والخيط الأسود بياض النهار وسواد الليل، والله تعالى أعلم.

وهنا تأتي مسألة السحور، واستحبابه، فالسحور مستحب كما هو معلوم لديكم ويستحب تأخيره كما قد ورد في الأثر.

(١) أخرجه ابن أبي شيبة في المصنف (٣/ ٢٥-٢٦)، وعبد الرزاق (٧٣٦٨) بإسناد صحيح كما ذكرنا ومعناها: كُل وإن تسرب إليك الشك، وإن كان في نفسك شك حتى ينتفي هذا الشك تمامًا، والله تعالى أعلم.

(٢) أخرجه عبد الرزاق (المصنف ٧٣٦٧).

(٣) أخرجه عبد الرزاق (المصنف ٧٣٧١) بإسناد صحيح إلى عطاء.

(٤) أخرجه البخاري حديث (١٩١٧).

أما استحباب السحور فلقول النبي ﷺ: «تَسَحَّرُوا فَإِنَّ فِي السَّحُورِ بَرَكَهً»^(١).
أما استحباب تأخيره فلما في الصحيح أيضًا من حديث زيد بن ثابت رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ -
قَالَ تَسَحَّرْنَا مَعَ النَّبِيِّ - ﷺ - ثُمَّ قَامَ إِلَى الصَّلَاةِ . قُلْتُ الْقَائِلُ: أَنَسُ الَّذِي رَوَى عَنْ
زَيْدٍ كَمْ كَانَ بَيْنَ الْأَذَانِ وَالسَّحُورِ قَالَ: «قَدَرُ خَمْسِينَ آيَةً»^(٢).

وفي الصحيح^(٣) كذلك من حديث سهل بن سعد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: كنت أتسحر في أهلي
ثم تكون سرعتي أن أدرك السجود مع رسول الله ﷺ.

وفي صحيح مسلم^(٤) من حديث عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ - ﷺ - قَالَ
«فَصُلِّ مَا بَيْنَ صِيَامِنَا وَصِيَامِ أَهْلِ الْكِتَابِ أَكَلَةُ السَّحْرِ».

أما عن وصال الصيام وحكمه فقد قال الحافظ ابن حجر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: (الوصال) هو
الترك في ليالي الصيام لما يفطر بالنهار بالقصد، فيخرج من أمسك اتفاقاً، ويدخل
من أمسك جميع الليل أو بعضه.

وقال الصنعاني في «سبل السلام»: في تعريف الوصال: هو ترك الفطر بالنهار
وفي ليالي رمضان بالقصد.

أما حكمه: فأكثر أهل العلم على تحريمه، قال الحافظ في «الفتح»: وذهب
الأكثر إلى تحريم الوصال.

قلت: والأدلة التي استدلت بها بعض أهل العلم على تحريمه في البخاري وغيره
ففي البخاري من حديث أَنَسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «لَا تَوَاصِلُوا» قالوا: إنك
تواصل، قال: «لست كأحد منكم إني أطعم وأسقى أو إني أبيت أطعم وأسقى»^(٥).
ومن حديث ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: (نهى رسول الله ﷺ عن الوصال، قالوا: إنك

(١) البخاري (١٩٢٣)، ومسلم (١٠٩٥).

(٢) البخاري (١٩٢١)، ومسلم (١٠٩٧).

(٣) البخاري (١٩٢٠).

(٤) صحيح مسلم (١٠٩٦).

(٥) أخرجه البخاري حديث (١٩٦١).

تواصل، قال: «إني لست مثلك إني أطعم وأُسقي»^(١).
 ومن حديث أبي سعيد رضي الله عنه أنه سمع النبي ﷺ يقول: «لا تواصلوا فأياكم إذا أراد أن يواصل فليواصل حتى السحر» قالوا: فإنك تواصل يا رسول الله، قال: «إني لست كهيتكم إني أبيت لي مُطعم يطعمني وساق يسقيني»^(٢) وأخرج البخاري أيضًا من طريق عثمان بن أبي شيبة ومحمد قالا أخبرنا عبدة عن هشام بن عروة عن أبيه عن عائشة رضي الله عنها قالت: (نهى رسول الله ﷺ عن الوصال رحمة لهم، فقالوا: إنك تواصل، قال: «إني لست كهيتكم إني يطعمني ربي ويسقيني»^(٣) قال أبو عبد الله: لم يذكر عثمان (رحمة لهم).

قلت: فهذه أصول الأدلة التي استدلت بها من ذهب إلى تحريم الوصال فقالوا: إن النهي يقتضي التحريم^(٤).

ومن العلماء من قال: إن الوصال يكره فقط، والنهي محمول على الكراهية، وذلك لما أخرجه البخاري من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: نهى رسول الله ﷺ عن الوصال في الصوم فقال له رجل من المسلمين: إنك تواصل يا رسول الله، قال: «وأيكم مثلي، إني أبيت يطعمني ربي ويسقيني» فلما أبوا أن ينتهوا عن الوصال واصل بهم يومًا ثم رأوا الهلال فقال: «لو تأخر لزدتكم» كالتنكيل لهم حين أبوا أن ينتهوا^(٥).

❦ هذا وقد احتج الطبري رحمته الله بقوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَتَمُوا الصِّيَامَ إِلَى اللَّيْلِ﴾
[البقرة: ١٨٧] على منع الوصال فقال:
 وأما قوله: ﴿ثُمَّ أَتَمُوا الصِّيَامَ إِلَى اللَّيْلِ﴾ **[البقرة: ١٨٧]**، فإنه تعالى ذكره حَدَّ الصوم

(١) أخرجه البخاري حديث (١٩٦٢).

(٢) أخرجه البخاري حديث (١٩٦٣).

(٣) أخرجه البخاري حديث (١٩٦٤).

(٤) ومن أحب أن يمسك بعد غروب الشمس إلى وقت السحر فله ذلك لقول النبي ﷺ في حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تواصلوا فأياكم أراد أن يواصل فليواصل إلى السحر».

(٥) أخرجه البخاري (١٩٦٦).

بأن آخر وقته إقبال الليل - كما حدَّ الإفطارَ وإباحةَ الأكل والشرب والجماع وأوَّل الصوم، بمجيء أول النهار وأول إدبار آخر الليل.
فدَلَّ بذلك على أن لا صوم بالليل، كما لا فطر بالنهار في أيام الصوم - وعلى أنَّ المواصل مجوِّعٌ نفسه في غير طاعة ربه، والله تعالى أعلم.

أما هل ورد عن أحد من السلف أنه كان يواصل، وكيف يوجه وصالهم هذا؟
فنعلم ورد عن بعض السلف أنهم كانوا يواصلون، فمن ذلك ما رواه الطبري بإسناد صحيح^(١) عن هشام بن عروة قال: كان عبدالله بن الزبير يُواصل سبعة أيام فلما كبر جعلها خمسًا فلما كبر جدًّا جعلها ثلاثًا.

❁ وأخرج الطبري بإسناد صحيح إلى أبي إسحاق: أن ابن أبي نعم كان يواصل من الأيام حتى لا يستطيع أن يقوم، فقال عمرو بن ميمون: لو أدرك هذا أصحاب محمد ﷺ رجموه^(٢).

أما توجيه ذلك فللعلماء فيه أقوال، منها:

قول الطبري رحمه الله حيث قال: قيل: وجه من فعل ذلك إن شاء الله تعالى على طلب الخموصة^(٣) لنفسه والقوة لا على طلب البر لله بفعله، وفعلهم ذلك نظير ما كان عمر يأمرهم به بقوله: (اخشوشنوا وتمعددوا وانزوا على الخيل نزوًا واقطعوا الركب وامشوا حفاة) يأمرهم في ذلك بالتخشن في عيشهم لئلا يتنعموا فيركنوا إلى خفض العيش ويميلوا إلى الدعة فيجبنوا ويحتمون عن أعدائهم.

❁ وقال الحافظ ابن كثير رحمه الله: ويحتمل أنهم كانوا يفهمون من النهي أنه إرشاد من باب الشفقة كما جاء في حديث عائشة (رحمة لهم) فكان ابن الزبير وابنه عامر ومن سلك سبيلهم يتجشمون ذلك ويفعلونه لأنهم كانوا يجدون قوة عليه وقد ذكر عنهم أنهم كانوا أول ما يفطرون على السمن والصبر لئلا تنخرق الأمعاء

(١) أخرجه الطبري (أثر ٣٠٢٨).

(٢) أخرجه الطبري (أثر ٣٠٣٢).

(٣) لعله يعني: التجويع لنفسه من قوله تعالى: ﴿فَمَنْ أَضْطَرَّ فِي مَخْبَصَةٍ...﴾ [المائدة: ٣] أي: في مجاعة.

بالطعام أولاً.

أما قوله تعالى: ﴿ثُمَّ آتَمُوا الصِّيَامَ إِلَى اللَّيْلِ﴾ فالمراد به إلى ابتداء الليل وإقباله، وذلك يكون بغروب الشمس لحديث رسول الله ﷺ: «إِذَا أَقْبَلَ اللَّيْلُ مِنْ هَاهُنَا، وَأَدْبَرَ النَّهَارُ مِنْ هَاهُنَا، وَغَرَبَتِ الشَّمْسُ، فَقَدْ أَفْطَرَ الصَّائِمُ».

وليس المراد حتى تطلع النجوم، فالصائم يفطر إذا تحقق غروب الشمس^(١) وذلك لما في الصحيح^(٢) من حديث عمر بن الخطاب رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إِذَا أَقْبَلَ اللَّيْلُ مِنْ هَاهُنَا، وَأَدْبَرَ النَّهَارُ مِنْ هَاهُنَا، وَغَرَبَتِ الشَّمْسُ، فَقَدْ أَفْطَرَ الصَّائِمُ».

وأخرج البخاري^(٣) كذلك من حديث عبد الله بن أبي أوفى - رضى الله عنه - قال كُنَّا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ - ﷺ - فِي سَفَرٍ، وَهُوَ صَائِمٌ، فَلَمَّا غَرَبَتِ الشَّمْسُ قَالَ لِبَعْضِ الْقَوْمِ «يَا فُلَانُ قُمْ، فَاجْدَحْ لَنَا». فَقَالَ يَا رَسُولَ اللَّهِ، لَوْ أَمْسَيْتَ. قَالَ: «انْزِلْ، فَاجْدَحْ لَنَا». قَالَ يَا رَسُولَ اللَّهِ فَلَوْ أَمْسَيْتَ. قَالَ «انْزِلْ، فَاجْدَحْ لَنَا». قَالَ إِنَّ عَلَيْكَ نَهَارًا. قَالَ: «انْزِلْ، فَاجْدَحْ لَنَا». فَنَزَلَ فَجَدَحَ لَهُمْ، فَشَرِبَ النَّبِيُّ - ﷺ - ثُمَّ قَالَ: «إِذَا رَأَيْتُمُ اللَّيْلَ قَدْ أَقْبَلَ مِنْ هَاهُنَا، فَقَدْ أَفْطَرَ الصَّائِمُ».

فالمستحب أن يعجل الصائم فطره، وذلك لما في الصحيح^(٤) من حديث سهل ابن سعد الساعدي رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «لَا يَزَالُ النَّاسُ بِخَيْرٍ مَا عَجَّلُوا الْفِطْرَ».

ولما في الصحيح^(٥) أيضاً من حديث ابن أبي أوفى رضى الله عنه - قال كُنْتُ مَعَ النَّبِيِّ - ﷺ - فِي سَفَرٍ، فَصَامَ حَتَّى أَمْسَى، قَالَ لِرَجُلٍ «انْزِلْ، فَاجْدَحْ لِي». قَالَ لَوْ

(١) قال الحافظ ابن حجر - رحمه الله تعالى -: ... واتفق العلماء على أن محل ذلك إذا تحقق غروب الشمس بالرؤية أو بإخبار عدلين، وكذا عدل واحد في الراجح.

(٢) أخرجه البخاري (حديث ١٩٥٤).

(٣) أخرجه البخاري (١٩٥٥).

(٤) أخرجه البخاري (حديث ١٩٥٧)، ومسلم حديث (١٠٩٨).

(٥) أخرجه البخاري (حديث ١٩٥٨).

انْتَظَرْتُ حَتَّى تُمْسِيَ . قَالَ « انْزِلْ ، فَاجْدُخْ لِي ، إِذَا رَأَيْتَ اللَّيْلَ قَدْ أَقْبَلَ مِنْ هَاهُنَا فَقَدْ أَفْطَرَ الصَّائِمُ » .

أما عن قوله تعالى: ﴿وَلَا تُبَشِّرُوهُمْ﴾ وَأَنْتُمْ عَاكِفُونَ فِي الْمَسْجِدِ ﴿﴾ ففيه نهي عن مباشرة النساء أثناء الاعتكاف في المساجد، أما بالنسبة للمراد بالمباشرة فمن العلماء من قال: إن المراد بالمباشرة هنا الجماع. **ومنهم من قال:** إن المراد بالمباشرة الجماع ودواعيه من تقبيل ومعانقة ونحو ذلك.

والأكثر على أنه الجماع، بل نقل الحافظ ابن حجر - رحمه الله تعالى - في الفتح^(١)، عن ابن المنذر الإجماع على أن المراد بالمباشرة في الآية الجماع^(٢). **قلت:** ونقل القرطبي عن ابن عبد البر قوله: وأجمعوا على أن المعتكف لا يباشر ولا يقبل.

❦ وأخرج الطبري في «تفسيره» بإسناد صحيح إلى ابن عباس رضي الله عنهما قال: **المباشرة الجماع، ولكن الله يكتفي بما شاء^(٣).**

أما الحافظ ابن كثير فقال في «تفسيره»: ثم المراد بالمباشرة إنما هو الجماع ودواعيه من تقبيل ومعانقة ونحو ذلك، فأما معاطاة الشيء ونحوه فلا بأس به فقد ثبت في «الصحيحين» عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يديني إليّ رأسه فأرجله وأنا حائض، وكان لا يدخل البيت إلا لحاجة الإنسان.

هذا وقد قال القرطبي رحمه الله: وأجمع أهل العلم على أن من جامع امرأته وهو معتكف عامداً لذلك في فرجها أنه مفسدٌ لا اعتكافه.

❦ **وقال الحافظ ابن حجر في «الفتح»:** إن الجماع منافٍ للاعتكاف بالإجماع.

(١) فتح الباري (٤/ ٣١٩).

(٢) الذي يبدو لي أن مراده أن الجماع يدخل في المباشرة بالإجماع، والله أعلم.

(٣) أخرجه الطبري (٢٩٥٨، ٢٩٥٩).

هذا وقوله تعالى: ﴿وَأَنْتُمْ عَنْكُمْ فِي الْمَسْجِدِ﴾ [البقرة: ١٨٧]، هل يفيد جواز الاعتكاف في عموم المساجد أم أن هناك أدلة تحمله على مساجد مخصوصة؟
ج: بل يفيد قوله تعالى: ﴿وَأَنْتُمْ عَنْكُمْ فِي الْمَسْجِدِ﴾ جواز الاعتكاف في كل مسجد من المساجد وإلى هذا ذهب البخاري رحمه الله وجمهور أهل العلم.
 فقد بوب البخاري في «صحيحه» بباب الاعتكاف في العشر الأواخر والاعتكاف في المساجد كلها لقوله تعالى: ﴿وَلَا تُبْشِرُوهُمْ﴾ وَأَنْتُمْ عَنْكُمْ فِي الْمَسْجِدِ [البقرة: ١٨٧].

❦ **وقال الحافظ ابن حجر رحمه الله:** وقال الجمهور بعمومه من كل مسجد إلا لمن تلزمه الجمعة فاستحب له الشافعي في الجامع وشرطه مالك لأن الاعتكاف عندهما ينقطع بالجمعة.

قلت: وقد استدلل البعض بحديث: (لا اعتكاف إلا في المساجد الثلاثة^(١)) على منع الاعتكاف فيما سواها من المساجد، ولكن هذا حديث ضعيف وإياه لا يثبت عن رسول الله ﷺ، والصواب أنه من قول حذيفة رضي الله عنه، وهو محمول كذلك على نفي تمام الفضيلة، والمعنى لا اعتكاف أفضل ولا أكمل من الاعتكاف في المساجد الثلاثة. والله تعالى أعلم.

وقوله تعالى: ﴿تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَقْرُبُوهَا﴾ معناه تلك محارم الله وشروطه، فلا تقربوها.

وقوله تعالى: ﴿كَذَلِكَ﴾ أي وكما بينا لكم أحكاماً أخر في هذه السورة وفي غيرها ﴿يُبَيِّنُ اللَّهُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ فأيضاً بينا لكم الصيام وما يتعلق به من أحكام لعلكم تحذرون غضب الله وعقابه، وتتقون عذابه وناره، ولعل التقوى تحصل في القلوب، فتمنع من اقتراف المحارم وارتكاب الآثام جعلنا الله من المتقين وحشرنا في زمرة الأنبياء والصالحين والشهداء.

(١) وهي المسجد الحرام والمسجد النبوي والمسجد الأقصى.

(التحذير من أكل أموال الناس بالباطل والترهيب من الرشوة)

قال الله عز وجل: ﴿ وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ وَتُدْلُوا بِهَا إِلَى الْحُكَّامِ لِتَأْكُلُوا فَرِيقًا مِّنْ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالْإِثْمِ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ (١٨٨)

وقوله تعالى: ﴿ وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ ﴾ معناه - والله أعلم - ولا يأكل بعضكم مال بعض بغير الحق، أو بالسبب الباطل فيدخل في هذا الغش والقمار والخداع والغصب وجحد الحقوق والمال المأخوذ بغير طيب نفس من صاحبه، والسرعة والأجرة على الزنا، وهو ما يسمى مهر البغي، وكذا حلوان الكاهن وثمان الخمور والخنازير، والأجور التي تتعاطاها الرافصات، وأكل أموال اليتامى ظلماً والرشوة والمال مقابل شهادة الزور، والزكاة لغير مستحقيها، وغير ذلك من صور الباطل فقله: ﴿ وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ ﴾ المراد به - والله أعلم - أموال إخوانكم كقله تعالى: ﴿ وَلَا نَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ ﴾ وكقله تعالى: ﴿ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنْفُسِهِمْ خَيْرًا ﴾ أي بإخوانهم.

أما قوله تعالى: ﴿ وَتُدْلُوا بِهَا إِلَى الْحُكَّامِ لِتَأْكُلُوا فَرِيقًا مِّنْ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالْإِثْمِ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ قد تقدمه نهى والمعنى ولا تخاصموا وتتحاكموا إلى الحكام وترشونهم وتهدون إليهم الهدايا كي يساعدوكم على اختلاس جزء من أموال الناس ﴿ بِالْإِثْمِ ﴾ أي بالحرام الذي قد حرّمه الله عليكم ﴿ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ وأنتم تعلمون تحريم ذلك، وتتعمدون أكل أموال الناس بالحرام.

أورد الطبري رحمه الله ^(١) تعالى، بإسناد حسن عن قتادة قال قوله: ﴿ وَلَا

(١) الطبري (٣٠٦٢).

تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ وَتُدْلُوا بِهَا إِلَى الْحُكَّامِ ﴿البقرة: ١٨٨﴾، وكان يقال: من مشى مع خصمه وهو له ظالم، فهو آثم حتى يرجع إلى الحق، واعلم يا بن آدم أن قضاء القاضي لا يحل لك حراماً ولا يُحق لك باطلاً، وإنما يقضي القاضي بنحو ما يرى ويشهد به الشهود، والقاضي بشر يخطئ ويصيب، واعلموا أنه من قد قُضي له بالباطل، فإن خصومته لم تنقض حتى يجمع الله بينهما يوم القيامة، فيقضي على المُبطل للمحق، بأجود مما قُضي به للمبطل على المحق في الدنيا.



(ذكر الأهلّة والأمر بإتيان البيوت من أبوابها)

قال الله عز وجل: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَهْلَةِ ۖ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَنْ تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ ظُهُورِهَا وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ اتَّقَىٰ وَآتَىٰ الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ (١٨٩).

قوله تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَهْلَةِ ۖ﴾ أما الأهلّة فهي جمع هلال، والمعنى يسألك الناس يا رسول الله عن زيادة الأهلّة ونقصانها واختلاف أحوالها، أي ما بال الهلال يبدو صغيراً ثم يكبر حتى يستتم، ثم يبدأ في الصغر والتلاشي مرة ثانية، والله تعالى أعلم.

وقوله: ﴿قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ﴾ قل للسائلين عن الأهلّة وشؤونها إنها مواعيد لصومهم وإفطارهم ولمناسكهم وحجّهم وعدة نسائهم؛ وأوقات يعرفون بها سداد ديونهم ومدة الحمل والإجازات... نحو ذلك، وقد قال نحو ذلك جمهور العلماء.

فقال سفيان الثوري^(١) في «تفسيره»: هي مواقيت للناس في حجهم وديونهم وفطرهم ونحرهم وعدة نسائهم.

وقوله تعالى: ﴿وَالْحَجِّ﴾ معناه أن الأهلّة مواقيت للحج أيضاً تعرفون بها أوقاته ف (الحج) المراد به (وللحج) كما قال تعالى: ﴿وَلِنْ أَرَدْتُمْ أَنْ تَسْرِعُوا أَوْلَدَكُمْ﴾ [البقرة: ٢٣٣] أي: إن أردتم أن تسرعوا لأولادكم.

(١) «تفسير الثوري» (ص ٨٥).

وفي معنى الآية الكريمة آيات أخر، منها قول الله تبارك وتعالى: ﴿وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَاتٍ ۚ فَحَوْنًا آيَةً ۚ وَاللَّيْلَ وَجَعَلْنَا آيَةً النَّهَارِ مُبْصِرَةً ۚ لَتَبْتَغُوا فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ ۚ وَكُلَّ شَيْءٍ فَضَّلْنَاهُ تَفْصِيلًا ۝﴾ [الإسراء: ١٢].

وقوله تعالى: ﴿وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَن تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ ظُهُورِهَا وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنِ اتَّقَىٰ وَأَتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا ۚ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ۝﴾ له سبب نزول أخرجه البخاري^(١) ومسلم من حديث البراء بن عازب رضي الله عنه قال: نزلت هذه الآية فينا، كانت الأنصار إذا حجُّوا فجاءوا لم يدخلوا من قِبَل أبواب بيوتهم ولكن من ظُهورها، فجاء رجل من الأنصار فدخل من قِبَل بابه فكأنه عيِّر بذلك فنزلت: ﴿وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَن تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ ظُهُورِهَا وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنِ اتَّقَىٰ وَأَتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا ۝﴾ [البقرة: ١٨٩]، والله تعالى أعلم.

وقوله تعالى: ﴿وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَن تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ ظُهُورِهَا ۝﴾ فيه دليل على أن كل عبادة يُتَعَبَدُ بها ولم يشرعها الله عزَّ وجل فهي باطلة، وإيضاح ذلك أن الأنصار كانوا يتعبدون بدخولهم البيوت من ظُهورها عند رجوعهم من الحج فبين الله بطلان ذلك وأنه ليس من البر فقال: ﴿وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَن تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ ظُهُورِهَا ۝﴾

[البقرة: ١٨٩]

وقوله تعالى: ﴿وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنِ اتَّقَىٰ ۝﴾ أي ولكن البر برٌّ من اتقى، أي ولكن التعبد والتقرب إلى الله تبرُّ المتقين الذين يتعبدون الله عزَّ وجل بما شرعه لهم وسنَّه لهم وبعث به رسوله الأمين محمد صلى الله عليه وسلم كما قال تعالى: ﴿وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنِ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ۖ وَالْمَلَائِكَةِ ۝﴾ الآية.

وقوله تعالى: ﴿وَأَتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا ۝﴾ قيل المراد به بيوت المنازل كما ورد في سبب نزول الآية الكريمة المتقدم وقيل إنها مثلٌ، أمر الناس أن يأتوا الأمور من وجوها ويدخلوا إلى الأشياء من الطرق السهلة الموصلة إليها وقيل

(١) البخاري (١٨٠٣)، ومسلم (٣٠٢٦).

المعنى: تقربوا إلى الله بما شرع ولا تتعبوه بطرق لم يشرعها.
*** وقيل:** الآية تشمل كل ذلك فإذا أردت عبادة الله عزَّ وجل فتعبده بما شرعه سبحانه وتعالى وسنَّه لك على لسان رسوله ﷺ.
 وإذا أردت مسألة فاسأل أهل الذكر والاختصاص فيها وإذا أردت خطبة امرأة فاذهب إلى أوليائها.
 وقوله تعالى: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ اجعلوا بينكم وبين عذاب الله وغضبه وقاية فاحذروه وارهبوه وأطيعوه فيما أمركم به من فرائض واجتناب ما نهاكم عنه لتفْلحوا، وتدرکوا مطلوبکم وهو الجنة وتحذروا مرهوبکم وهي النار.



(الأمر بقتال من يقاتلوننا والنهي عن الاعتداء)

قال الله عز وجل: ﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾ (١٩٠) وَأَقْتُلُوهُمْ حَيْثُ تَقْبَلُونَهُمْ وَأَخْرِجُوهُمْ مِّنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ وَلَا تُقَاتِلُوهُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّى يُقَاتِلُوكُمْ فِيهِ فَإِنْ قَتَلُوكُمْ فَأَقْتُلُوهُمْ كَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ ﴿١٩١﴾ فَإِنْ أَنَّهُوْا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٩٢﴾ وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ فَإِنْ أَنَّهُوْا فَلَا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ ﴿١٩٣﴾ الشَّهْرُ الْحَرَامُ بِالشَّهْرِ الْحَرَامِ وَالْحُرُمَتُ قِصَاصٌ فَمَنِ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَأَعْدُوْا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ ﴿١٩٤﴾ ﴿١٩٥﴾

قوله تعالى: ﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ﴾.

أي: وقاتلوا في طريق الله عز وجل الذي أوضحه لعباده ودينه الذي شرعه، ويكون الشخص مقاتلاً في سبيل الله إذا كان يقاتل لإعلاء كلمة الله عز وجل، وذلك لقول النبي ﷺ «مَنْ قَاتَلَ لِتَكُونَ كَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا فَهُوَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ»^(١). وقوله تعالى: ﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ إذن بالقتال وقد كان لقوله تعالى: ﴿أَلَمْ

(١) أخرجه البخاري (حديث ٢٨١٠)، ومسلم (حديث ١٩٠٤) من حديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه مرفوعاً، وفيه أن رجلاً أعرابياً أتى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله! الرجل يقاتل للمغنم، والرجل يقاتل ليذكر، والرجل يقاتل ليُرى مكانه فمن في سبيل الله؟ فقال رسول الله ﷺ: «من قاتل لتكون كلمة الله أعلی فهو في سبيل الله».

وفي رواية: سئل رسول الله ﷺ عن الرجل يُقاتل شجاعة، ويُقاتل حمية، ويُقاتل رياءً أي ذلك في سبيل الله؟ فقال رسول الله ﷺ: «من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله».

تَرَى إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ ﴿١﴾ وَلَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَاعْفُوا وَأَصْفَحُوا﴾ وما على شاكلتها من الآيات.

أما قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ﴾ قاتلوا أهل الكفر الذين يقاتلونكم أما الذين لم يقاتلونا ففي شأنهم تفصيل يأتي في سورة براءة إن شاء الله.
وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَعَدُّوا﴾ للاعتداء صوراً منها:

✽ قتل النساء ^(١) والولدان والشيخوخ ^(١) والمجانين والرهبان ^(١).

✽ قتل من أعطى الجزية من أهل الكتاب (اليهود والنصارى).

✽ قتل الحيوانات وتقطيع الأشجار من غير مصلحة.

✽ الغدر بمن بينك وبينه معاهدة أو ميثاق.

✽ الغلول والمثلة وكذا سائر أنواع الاعتداء الذي نهى عنه الله **سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى**

ونهى عنه رسوله ﷺ.

وقد أخرج مسلم من حديث بريدة رضي الله عنه قال: كان رسول الله ﷺ إذا أُمِّرَ أميراً على جيش أو سرية أوصاه في خاصته بتقوى الله ومن معه من المسلمين خيراً ثم قال: «اغزوا باسم الله في سبيل الله، قاتلوا من كفر بالله، اغزوا ولا تَغْلُوا ولا تغدروا ولا تمثلوا ولا تقتلوا وليدًا» ^(٢).

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾ فيه إثبات صفة المحبة لله عز وجل فهو يحب المتقين والصابرين والمحسنين والمقاتلين في سبيله صفات كآتهم بنيان مرصوص وغير هؤلاء ولا يحب المعتدين والمعتدون هم المتجاوزون لحدود الله المتعدون على العباد بغير وجه حق.

(١) إلا إذا كانت المرأة والشيخ والراهب يُقاتلون فحينئذ يُقاتلون لقوله تعالى: ﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ﴾ [البقرة: ١٩٠].

(٢) أخرجه مسلم (١٣٥٧) ترتيب محمد فؤاد عبد الباقي).

ومعنى الغلول (لا تغلوا): الخيانة في الغنمة (فيسرق منها مثلاً قبل القسمة).

✽ والغدر المراد به نقض العهد.

✽ و(لا تمثلوا) أي: لا تشوهوا القتلى بقطع بعض أعضائهم كالأنف والأذن وفقاً العين ونحو ذلك، والله أعلم.

وقوله تعالى: ﴿وَأَقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَفَفْتُمُوهُمْ وَآخِرُجُوهُمْ مِّنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ﴾ الخطاب للمؤمنين ويدخل فيهم بالدرجة الأولى المهاجرون، والمعنى واقتلوا يا أهل الإيمان، واقتلوا يا معشر المهاجرين اقتلوا أهل الشرك الذين أخرجوكم من دياركم وقتلوكم وحاربوكم لإرجاعكم عن دينكم، اقتلوهم إذا أبصرتهم مقاتلهم وأمكنكم قتلهم، اقتلوهم حيث وجدتموهم، وكما أنهم أخرجوكم من دياركم فأخرجوهم أنتم أيضًا من ديارهم.

وقوله تعالى: ﴿وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ﴾ فيه أقوال:

أحدها: أن المراد بالفتنة العذاب وشاهد ذلك من التنزيل قوله تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِاللَّهِ فَإِذَا أُوذِيَ فِي اللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ كَعَذَابِ اللَّهِ﴾ أي جعل عذاب الناس كعذاب الله.

* والمعنى أن عذاب الله الذي ينتظرهم أشد من كونهم عذبوا بالقتل.

الثاني: أن الفتنة الصرف والتحويل أن صرف الناس عن دينهم أشد من قتلهم أي: أن ما صنعه الكفار من إيذاء الناس لصرفهم عن دينهم أشد من قتلهم.

الثالث: أن المراد بالفتنة الكفر، وكونه أشد من القتل لأن القتل كبيرة يمكن أن تغفر، ثم أن مآل فاعله إلى الجنة بإذن الله إذا كان مسلمًا، أما الكفر فلا يغفر قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاءُ﴾.

ثم معاني آخر للفتنة تأتي في مواطنها إن شاء الله هذا، وفي الآية الكريمة دليل على اختيار أخف الضررين إذا تواردت الأضرار، وذلك لدفع أعظم الضررين ووجه ذلك في قوله تعالى: ﴿وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ﴾ [البقرة: ١٩١]، والحاصل فيها أن إقدامكم على القتال (بما يصحبه من قتل لبعضكم) أخف بكثير من ارتدادكم عن دينكم ورجوعكم إلى الكفر، والعياذ بالله.

هذا، وقوله تعالى: ﴿وَلَا تُقَاتِلُوهُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّى يَقْتُلُوكُمْ فِيهِ فَإِن قَتَلُوكُمْ فَاقْتُلُوهُمْ كَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ﴾ ذهب بعض أهل العلم إلى أنه منسوخ بقوله تعالى: ﴿فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ﴾ [التوبة: ٥]، وأيدوا قولهم بما أخرجه

البخاري ومسلم^(١) من حديث أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن النبي ﷺ دخل مكة عام الفتح وعلى رأسه مغفر، فلما نزعه جاءه رجل فقال: ابن خَطْلٍ متعلق بأستار الكعبة فقال: «اقتلوه».

✽ بينما ذهب آخرون من أهل العلم إلى أن الآية ليست منسوخة بل هي محكمة ، وقالوا: إن العام لا ينسخ الخاص فقوله تعالى: ﴿فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ﴾ [التوبة: ٥]، نصٌّ عام، وقوله تعالى: ﴿وَلَا تُقْبِلُوهُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّى يُقَتِّلُوَكُمْ فِيهِ﴾ [البقرة: ١٩١]، نصٌّ خاص ، والعام لا ينسخ الخاص، بل يستثنى الخاص من العام، فالكف عن القتال عند المسجد الحرام مستثنى من قوله تعالى: ﴿فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ﴾ [التوبة: ٥].

وأيد هذا الفريق من أهل العلم قوله بما أخرجه البخاري ومسلم^(٢) من حديث ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أن النبي ﷺ قال في شأن مكة: «إن هذا البلد حرمه الله يوم خلق السموات والأرض؛ فهو حرام بحرمة الله إلى يوم القيامة ، وإنه لم يحل القتال فيه لأحد قبلي ولم يحل لي إلا ساعة من نهار؛ فهو حرام بحرمة الله إلى يوم القيامة لا يُعْضَدُ شوكه ولا يُنْقَرُ صيده ولا يلتقط إلا من عَرَفَها....» الحديث.

✽ ونحوه من حديث أبي شريح العدوي عند البخاري ومسلم^(٣) كذلك، وفيه أن النبي ﷺ قال: «إن مكة حرمها الله ولم يحرمها الناس، لا يحل لامرئ يؤمن

(١) أخرجه البخاري (حديث ٣٠٤٤)، ومسلم (حديث ١٣٥٧).

✽ وممن قال بالنسخ قتادة فقد أخرج الطبري عنه بإسناد حسن (٣١٠٥) قوله: ﴿وَلَا تُقْبِلُوهُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّى يُقَتِّلُوَكُمْ فِيهِ﴾ [البقرة: ١٩١]: كانوا لا يقاتلون فيه حتى يبدؤوا بالقتال، ثم نسخ بعد ذلك فقال: ﴿وَقَتِّلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ﴾ [البقرة: ١٩٣] حتى لا يكون شرك ﴿وَيَكُونَ الَّذِينَ لِلَّهِ﴾ [البقرة: ١٩٣] أن يقال لا إله إلا الله ، عليها قاتل نبي الله وإليها دعا.

✽ وكذلك قال بالنسخ ابن زيد فقد أخرج الطبري بإسناد صحيح عنه في قوله تعالى: ﴿وَلَا تُقْبِلُوهُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّى يُقَتِّلُوَكُمْ فِيهِ﴾ [البقرة: ١٩١] قال: حتى يبدؤكم ، كان هذا قد حُرِّمَ فأحل الله ذلك له فلم يزل ثابتاً حتى أمره الله بقتالهم بعد.

(٢) أخرجه البخاري (حديث ١٨٣٤)، ومسلم (حديث ١٣٥٣).

(٣) أخرجه البخاري (حديث ٤٢٩٥)، ومسلم (حديث ١٣٥٤).

بالله واليوم الآخر أن يسفك بها دمًا، ولا يعضد بها شجرًا، فإن أحدٌ ترخص لقتال رسول الله ﷺ فيها، فقولوا له: إن الله أذن لرسوله ولم يأذن لكم، وإنما أذن لي فيها ساعة من نهار، وقد عادت حرمتها اليوم كحرمتها بالأمس، وليبلغ الشاهد الغائب».

✽ ونحو ذلك من حديث أبي هريرة في «الصحيحين»، وفيه أن النبي ﷺ قال: «... ألا وإنها لم تحل لأحد قبلي ولم تحل لأحد بعدي، ألا وإنها حلت لي ساعة من نهار، ألا وإنها ساعتى هذه حرام لا يختلى شوكتها...» الحديث.

✽ وأجاب هذا الفريق من أهل العلم على أمر النبي ﷺ بقتل ابن خطل بأن هذا الأمر من رسول الله تم في الساعة التي أحلت له فيها مكة، والله أعلم. وقوله تعالى: ﴿فَإِنْ أَنْهَوْا﴾ عن الشرك والقتال ﴿فَإِنَّ اللَّهَ عَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ غفور يغفر الذنوب ولا يؤاخذ بها رحيم بعباده إذ فتح لهم أبواب التوبة. ✽ غفور رحيم لكم أيها المؤمنون إذ قاتلتموهم عند المسجد الحرام بعد ابتدائهم لكم.

✽ وغفور رحيم لهم إذا انتهوا عن الشرك والقتال وثم معنى ثالث: يأمركم بالغفران والرحمة وترك مؤاخذتهم بعد انتهائهم، والله أعلم. وقوله تعالى: ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ﴾ أي وقاتلوا يا أهل الإسلام أهل الشرك حتى لا يكون هناك شرك بالله عز وجل وحتى لا يُعبد أحدٌ مع الله عز وجل ويؤيد هذا المعنى ما أخرجه البخاري ومسلم^(١) من حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله فمن قال لا إله إلا الله فقد عصم مني ماله ونفسه إلا بحقه وحسابه على الله».

✽ وما أخرجه البخاري ومسلم^(٢) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: «أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة فإن فعلوا ذلك عصموا مني دماءهم وأموالهم

(١) البخاري (حديث ١٣٩٩)، ومسلم (حديث ٢٠).

(٢) البخاري (حديث ٢٥)، ومسلم (٢٢).

إلا بحق الإسلام وحسابهم على الله».

﴿ومن أهل العلم من قال: إن معنى قوله تعالى: ﴿حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةً﴾ [البقرة: ١٩٣]، أي: حتى لا يكون هناك أذى لمن آمن، والقول الأول أولى وعليه الأكثر.

وقوله تعالى: ﴿فَإِنْ أَنْهَوْا﴾ عن شركهم وعن أذاهم للمؤمنين ﴿فَلَا عُدْوَانَ﴾ فلا عقوبة ولا قتل وأطلق على القتال العقوبة، وعدوان لأن القتل والعقوبة جزاء العدوان كما قال تعالى: ﴿وَحَزَّوُوا سَيِّئَةً سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا﴾ وكما قال تعالى: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ﴾.

أما قوله تعالى: ﴿إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ﴾ أي على المشركين وعلى المعتدين والمعنى الإجمالي لقوله ﴿فَإِنْ أَنْهَوْا فَلَا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ﴾ في تأويلها وجوه:

أحدها: إن انتهى هؤلاء المشركون عن شركهم فلا يجوز لكم أن تعتدوا عليهم، إذ لا اعتداء على مسلم إلا من ظلم من المسلمين فيعاقب بمثل الذي صنع.

الثاني: إن انتهوا فلا عدوان إلا على الذين لا ينتهون عن ظلمهم (والمراد به هنا شركهم) فالشرك ظلم عظيم.

الثالث: إن تعرضتم لهم بعد انتهائهم عن الشرك والقتال كنتم أنتم ظالمين بالظلم فنسلط عليكم من يعتدي عليكم، والله أعلم.

ومن العلماء من قال: إن الظالم هنا أعم والمعنى إن أسلموا فلا عدوان إلا على ظالم (يُعتدى عليه بمثل ما اعتدى) والله أعلم.

وقوله تعالى: ﴿الشَّهْرُ الْحَرَامُ بِالشَّهْرِ الْحَرَامِ وَالْحُرُمَتُ قِصَاصٌ﴾.

أما الشهر الحرام فيُعنى به الأشهر الحرم عموماً والمراد منها الشهر الحرام الذي صُدَّ فيه النبي ﷺ وأصحابه عن المسجد الحرام.

فالأشهر الحرم هي ذو القعدة وذو الحجة وشهر الله المحرم، وشهر رجب.

أما الشهر الذي صُدَّ فيه النبي ﷺ عن الحرم فهو ذو القعدة وقد أخرج البخاري ومسلم^(١) من حديث أبي بكرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «إِنَّ الزَّمَانَ قَدِ اسْتَدَارَ كَهَيْئَتِهِ يَوْمَ

(١) البخاري (٤٦٦٢)، ومسلم (١٦٧٩).

خَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ السَّنَةَ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ثَلَاثَةٌ مُتَوَالِيَاتٌ ذُو الْقَعْدَةِ وَذُو الْحِجَّةِ وَالْمُحَرَّمُ وَرَجَبٌ مُضَرَّ الَّذِي بَيْنَ جُمَادَى وَشَعْبَانَ.

وقوله تعالى: ﴿وَالْحُرُمَتُ قِصَاصٌ﴾ فالحرمات جمع حُرمة، والمراد بها حرمة الشهر وحرمة البلد (مكة) وحرمة المُحَرَّم الذي أهل بالحج والعمرة. وقوله: ﴿فَمَنْ أَعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَأَعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا أَعْتَدَى عَلَيْكُمْ وَأَتَّقُوا اللَّهَ﴾ معناه والله أعلم وكما اعتدى عليكم في الحرمات فلكم أن تنتصروا لأنفسكم من المعتدي عليكم وتعتدوا عليه في الحرمات أيضًا ولا لوم ولا جناح عليكم في ذلك وهذا كقوله تعالى: ﴿وَلَا تُقَاتِلُوهُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّى يَقْتُلُوَكُمْ فِيهِ فَإِنْ قَتَلُوكُمْ فَاقْتُلُوهُمْ كَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ﴾.

هذا وعن سبب وصف الشهر بالحرام أن العرب في جاهليتها كانت تُحَرِّم فيه القتل والقتال وتضع فيه السلاح ولا يقتل فيه أحدٌ أحدًا ولو لقي الرجل فيه قاتل أبيه أو ابنه، كما قاله الطبري **رحمته الله**، وقال أيضًا: وإنما كانوا سموه (ذا القعدة) لعودهم فيه عن المغازي والحروب، فسماه الله بالاسم الذي كانت العرب تُسميه به. ويستفاد من قوله تعالى: ﴿فَمَنْ أَعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَأَعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا أَعْتَدَى عَلَيْكُمْ﴾ عموم أنواع القصاص فمن اعتدى عليه في عرضه جاز له القصاص في ذلك ما لم يفعل محرماً ومن اعتدى عليه في ماله جاز له القصاص في ذلك، ولكل ذلك ضوابط ليس محلها في هذا المقام. وقوله: ﴿وَأَتَّقُوا اللَّهَ﴾ اجعلوا بينكم وبين عذابه وقايةً فلا تبدؤوا بالاعتداء عليهم في الحرم.

وقوله تعالى: ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾ ينصرهم ويؤيدهم ويحفظهم ويعينهم، والمعنى إجمالاً: والله أعلم - أن الله **رحمته الله** لما أباح القصاص حذر من التعدي والتجاوز، فالنفوس في الغالب مجبولة على الانتصار ولا تقف على حدها إذا رخص لها في المعاقبة لطلبها الشفي، فأمر الله **رحمته الله** بلزوم تقواه التي هي الوقوف عند حدوده وعدم تجاوزها، وأخبر تعالى أنه ﴿مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: ١٩٤] أي: بالعون والنصر والتأييد والتوفيق، أشار إلى بعض ذلك ابن سعدي **رحمته الله** في «تفسيره».

(الحث على الإحسان والنفقة في سبيل الله عز وجل والتحذير من الإلقاء باليد إلى التهلكة)

قال الله عز وجل: ﴿وَأَنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ (١٩٥)

وقوله تعالى: ﴿وَأَنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ﴾ معناه وأخرجوا من أموالكم الحلال الطيب جزءاً لإعلاء كلمة الله عز وجل وإعزاز دينه ولا تستسلموا للهلاك وتُمكنوا أسباب الهلاك منكم فتدمركم ومن أسباب الهلاك الجبن والبخل واليأس من رحمة الله فالتهلكة معناها الهلاك، والمراد بها هنا فيه أقوال كلها صحيحة، واختلافها من اختلاف النوع وليس من اختلاف التضاد.

والتهلكة معناها: الهلاك، والمراد بها هنا لأهل العلم فيه أقوال:

أحدها: ترك الإنفاق في سبيل الله ^(١) (فإن ترك الإنفاق يؤدي إلى التهلكة).

الثاني: ترك الجهاد في سبيل الله والانشغال بإصلاح الأموال وجمعها ^(٢).

الثالث: القنوط من رحمة الله (فيرتكب الرجل المعصية أو الكبيرة ويأس من رحمة الله ويسلم نفسه للهلكة) ^(٣).

(١) تقدم أن البخاري أخرج من حديث حذيفة رضي الله عنه (٤٥١٦) في قوله تعالى: ﴿وَأَنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ﴾ [البقرة: ١٩٥] قال: نزلت في النفقة.

وأخرجه الطبري (٣١٤٥) ولفظه هو ترك النفقة في سبيل الله.

(٢) تقدم ذلك في حديث أبي أيوب الأنصاري رضي الله عنه.

(٣) أخرجه الطبري (٣١٦٧) بإسناد صحيح عن البراء بن عازب في قوله تعالى: ﴿وَأَنْفِقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ﴾ [البقرة: ١٩٥] قال: هو الرجل يصيب الذنوب فيلقي بيده إلى التهلكة يقول: لا توبة لي.

وفي رواية (٣١٦٩): هو الرجل يذنب الذنب فيقول: لا يغفر الله له.

الرابع: أن المراد بـ (التهلكة): عذاب الله.

الخامس: المراد عموم ما يؤدي إلى التهلكة.

واختار الطبري رحمه الله العموم فقال:

والصواب من القول في ذلك عندي أن يقال إن الله جل ثناؤه أمر بالإنفاق في سبيله بقوله: ﴿وَأَنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ [البقرة: ١٩٥] - وسيله: طريقه الذي شرعه لعباده وأوضحه لهم. ومعنى ذلك: وأنفقوا في إعزاز ديني الذي شرعته لكم، بجهد عدوكم الناصيين لكم الحرب على الكفر بي، ونهاهم أن يلقوا بأيديهم إلى التهلكة فقال: ﴿وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ﴾ [البقرة: ١٩٥].

وذلك مثل العرب تقول للمستسلم للأمر: «أعطى فلان يديه»، وكذلك يقال للممكن من نفسه ما أريد به: «أعطى يديه».

فمعنى قوله: ﴿وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ﴾ [البقرة: ١٩٥]، ولا تستسلموا للهلكة، فتعطوها أزمتمكم فتهلكوا.

والتارك؛ النفقة في سبيل الله عند وجوب ذلك عليه، مستسلم للهلكة بتركه أداء فرض الله عليه في ماله، وذلك أن الله جل ثناؤه جعل أحد سهام الصدقات المفروضات الثمانية «في سبيله»، فقال: ﴿إِنَّمَا الصَّدَقَتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسْكِينِ﴾ إلى قوله: ﴿وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأَبْنِ السَّبِيلِ﴾ [التوبة: ٦٠]، فمن ترك إنفاق ما لزمه من ذلك في سبيل الله على ما لزمه، كان للهلكة مستسلمًا، ويديه للهلكة ملقيًا.

وكذلك الآيس من رحمة الله لذنوب سلف منه، ملق بيديه إلى التهلكة لأن الله قد نهى عن ذلك فقال: ﴿وَلَا تَأْتِسُوا مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِنَّهُ لَا يَأْتِسُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ﴾ [يوسف: ٨٧].

^٢ وأخرج الطبري نحوه عن عبيدة أيضًا، فأخرج بإسناد صحيح (٣١٧٤) عن ابن سيرين قال: سألت عبيدة السلماني عن ذلك فقال: هو الرجل يذنب الذنب فيستسلم ويلقي يديه إلى التهلكة، ويقول: لا توبة له - يعني قوله: ﴿وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ﴾ [البقرة: ١٩٥].

وكذلك التارك غزو المشركين وجهادهم، في حال وجوب ذلك عليه، في حال حاجة المسلمين إليه، مضيعٌ فرضاً، ملقٍ بيده إلى التهلكة.

فإذا كانت هذه المعاني كلها يحتملها قوله: ﴿وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ﴾ [البقرة: ١٩٥]، ولم يكن الله ﷻ خص منها شيئاً دون شيء، فالصواب من القول في ذلك أن يقال: إن الله نهى عن الإلقاء بأيدينا لما فيه هلاكنا، والاستسلام للهلكة - وهي العذاب - بترك ما لزمنا من فرائضه . فغير جائز لأحد منا الدخول في شيء يكرهه الله منا، ومما نستوجب بدخولنا فيه عذابه.

غير أن الأمر وإن كان كذلك ، فإن الأغلب من تأويل الآية: وأنفقوا ، أيها المؤمنون، في سبيل الله، ولا تتركوا النفقة فيها، فتهلكوا باستحقاقكم - بترككم ذلك - عذابي.

وقد وردت للآية الكريمة أسباب نزول منها ما أخرجه البخاري من حديث حذيفة رضي الله عنه ﴿وَأَنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ﴾ [البقرة: ١٩٥]، قال: نزلت في النفقة^(١).

✽ وأخرج الترمذي من طريق أسلم أبو عمران التجيبي قال: كنا بمدينة الروم فأخرجوا إلينا صفّاً عظيماً من الروم فخرج إليهم من المسلمين مثلهم أو أكثر وعلى أهل مصر عقبة بن عامر وعلى الجماعة فضالة بن عبيد فحمل رجل من المسلمين على صف من الروم حتى دخل فيهم فصاح الناس، وقالوا: سبحان الله ! يلقي بنفسه إلى التهلكة، فقام أبو أيوب الأنصاري فقال: يا أيها الناس إنكم لتؤولون هذه الآية هذا التأويل، وإنما نزلت هذه الآية فينا معشر الأنصار لما أعز الله الإسلام وكثر ناصروه فقال بعضنا لبعض سرّاً دون رسول الله ﷺ: إن أموالنا قد ضاعت، وإن الله قد أعز الإسلام وكثر ناصروه فلو أقمنا في أموالنا فأصلحنا ما ضاع منها، فأنزل الله على نبيه ﷺ يردُّ علينا ما قلناه ﴿وَأَنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى

(١) أخرجه البخاري (٤٥١٦).

الْهَلَكَةِ ﴿البقرة: ١٩٥﴾، فكانت التهلكة الإقامة على الأموال وإصلاحها وتركنا الغزو، فما زال أبو أيوب شاخصاً في سبيل الله حتى دفن بأرض الروم.

أما قوله تعالى: ﴿وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ فالذي يظهر أن معنى الإحسان هنا عام فيدخل فيه جميع أنواع الإحسان كالأحسان بالمال والإحسان بالجاء بالشفاعات ونحو ذلك، والإحسان بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وتعليم العلم النافع، وقضاء حوائج الناس: من تفريج كرباتهم وإزالة شدائدهم وعيادة مرضاهم وتشجيع جنائزهم وإرشاد ضالهم وإعانة من يعمل عملاً صحيحاً مشروعاً و... ويدخل فيه ما ورد في حديث النبي ﷺ: «الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه»^(١) كما أشار إلى ذلك السعدي رحمه الله في «تفسيره» ويدخل فيه أيضاً العفو عن الناس كما في قوله تعالى: ﴿وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٤] ويدخل فيه إحسان الظن بالله تعالى ويدخل فيه أيضاً الإحسان في القتل والذبح كما قال النبي ﷺ: «إن الله كتب الإحسان في كل شيء فإذا قتلتم فأحسنوا القتلة وإذا ذبحتم فأحسنوا الذبح...»^(٢) الحديث، والله تعالى أعلم.

وقوله: ﴿وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ فيه إثبات صفة المحبة لله عز وجل فهو يحب أقواماً ويبغض آخرين والله أعلم.



(١) أخرجه مسلم حديث (رقم ٨) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.

(٢) أخرجه مسلم حديث (١٩٥٥)، من حديث شداد بن أوس رضي الله عنه مرفوعاً.

(۱) انظره في صحيح مسلم (۱۱۸۵).

حابس منعكم أو حبسكم فالواجب عليكم أن تهتدوا تذبحوا أو تنحروا (ما استيسر) أي ما تيسر لكم ﴿مَنْ أَلْهَدَى﴾ وأقله شاة تذبحونها وإن ذبحتم أي شيء أعلى منه أجزأكم فإن ذبحتم بقرة أجزأت، وإن نحرتم جملاً أو ناقة أجزأت عنكم.

هذا، وللعلماء بعض الأقوال في المراد بالإحصار:

الأول: أن المراد بالإحصار: كل مانع أو حابس يمنع المحرم أو يحبسه عن العمل الذي فرضه الله عليه في إحرامه ووصوله إلى البيت الحرام؛ سواء كان هذا المانع يتمثل في العدو الذي يمنع المحرم من الوصول إلى البيت الحرام، أو كان المانع مرضاً أو كسراً أو غير ذلك، ويؤيد هذا الرأي قوله تعالى: ﴿أُحْصِرْتُمْ﴾ [البقرة: ١٩٦]، فمعناها: مُنْعَتُمْ، وهي غير مقيدة.

الثاني: أن المراد بالإحصار: المنع بسبب العدو وحده.

وحجة هذا القول أن النبي ﷺ أحصر بسبب العدو، وقوله تعالى: ﴿فَإِذَا أَمِنْتُمْ﴾ [البقرة: ١٩٦]، والأمن يكون من العدو.

الثالث: أن المراد بالإحصار: الإحصار بالمرض.

واختار الطبري رحمه الله القول بالعموم، والله أعلم.

وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَحْلِفُوا رُءُوسَكُمْ حَتَّىٰ يَبْلُغَ الْهَدْيُ مَحَلَّهُ﴾ من العلماء من قال: إنه معطوف على قوله تعالى: ﴿فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ﴾ [البقرة: ١٩٦]، ومنهم من يقول: إنه معطوف على قوله تعالى: ﴿وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ﴾ [البقرة: ١٩٦]، وهذا الأخير هو الذي اختاره الحافظ ابن كثير رحمه الله في «تفسيره»، قال: لأن النبي ﷺ وأصحابه لما حصرهم كفار قريش عن الدخول إلى الحرم حلقوا وذبحوا هديهم خارج الحرم^(١).

(١) أخرج البخاري (٢٧٣١، ٢٧٣٢) من حديث المسور بن مخرمة ومروان يصدق كل واحد منهما حديث صاحبه قالاً: خرج رسول الله ﷺ زمن الحديبية حتى إذا كانوا ببعض الطريق... الحديث، وفيه: فلما فرغ من قضية الكتاب قال رسول الله ﷺ لأصحابه: «قوموا فانحروا ثم احلقوا»، قال: فوالله ما قام منهم رجل حتى

فأما في حال الأمن والوصول إلى الحرم فلا يجوز الحلق حتى يبلغ ﴿الْهَدْيُ مَحَلَّهُ﴾ [البقرة: ١٩٦]، ويفرغ الناسك من أفعال الحج والعمرة إن كان قارناً أو من فعل أحدهما إن كان مفرداً أو متمتعاً كما ثبت في «الصحيحين» عن حفصة أنها قالت: يا رسول الله ما شأن الناس حلوا من العمرة ولم تحل أنت من عمرتك؟ فقال: «إني لبدت رأسي وقلدت هديي فلا أحل حتى أنحر»^(١).

والمراد بمحل الهدي المكان الذي ينبغي أن يصل إليه الهدي حتى يتحلل المحرم من إحرامه، ولأهل العلم أقوال في تحديد هذا المحل، وها هي بعضها:

القول الأول: أن المراد بـ (المحل): الحرم، وذلك لقوله تعالى: ﴿ثُمَّ مَحَلُّهَا إِلَى الْبَيْتِ الْعَتِيقِ﴾ [الحج: ٣٣]، ولقوله تعالى: ﴿هُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَالْهَدْيِ مَعْكُوفًا أَنْ يَبْلُغَ مَحَلَّهُ﴾ [الفتح: ٢٥] وثم أقوال آخر في هذا الباب.

❖ **القول الثاني:** أن المراد بالمحل هنا المحل الذي حُصر فيه الشخص سواء كان الحرم أو غيره، وإلى هذا الرأي ذهب جمهور أهل العلم.

❖ **قال الشنقيطي رَحِمَهُ اللهُ فِي «أَضْوَاءِ الْبَيَانِ»:** وجمهور العلماء على أن ينحره في المحل الذي حصر فيه حلاً كان أو حرماً، وقد نحر النبي ﷺ هو وأصحابه بالحديبية، وجزم الشافعي وغيره بأن الموضع الذي نحرُوا فيه من الحديبية من الحل لا من الحرم واستدل لذلك بدليل واضح من القرآن وهو قوله تعالى: ﴿هُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَالْهَدْيِ مَعْكُوفًا أَنْ يَبْلُغَ مَحَلَّهُ﴾

قال ذلك ثلاث مرات، فلما لم يقم منهم أحد دخل على أم سلمة فذكر لها ما لقي من الناس، فقالت أم سلمة: يا نبي الله أتحب ذلك؟ أخرج ثم لا تكلم أحداً منهم كلمة حتى تنحر بُدْنَكَ وتدعو حالقك فيحلقك، فخرج فلم يكلم أحداً منهم حتى فعل ذلك نحر بُدْنَهُ ودعا حالقه فحلقه، فلما رأوا ذلك قاموا فنحروا وجعل بعضهم يحلق بعضاً حتى كاد بعضهم يقتل بعضاً غمّاً... الحديث.

❖ وأخرج البخاري (١٨٠٧)، ومسلم (١٢٣٠) والسياق للبخاري من حديث ابن عمر رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا قال: خرجنا مع النبي ﷺ فحال كفار قريش دون البيت فنحر النبي ﷺ هديه وحلق رأسه.

(١) أخرجه البخاري (١٧٢٥)، ومسلم (حديث ١٢٢٩).

[الفتح: ٢٥] فهو نص صريح في أن ذلك الهدى لم يبلغ محله.

وذهب هؤلاء إلى أن معنى قوله: ﴿حَتَّىٰ يَبْلُغَ الْهَدْيُ مَحَلَّهُ﴾ [البقرة: ١٩٦] حتى يبلغ بالذبح أو النحر محل أكله والانتفاع به في محل ذبحه ونحره كما روي عن النبي ﷺ في نظيره إذ أتى بلحم أخته بريرة من صدقة تُصَدَّقُ به عليها فقال: «قربوه فقد بلغ محله».

يعني: فقد بلغ محل طيبه وحلاله له بالهدية إليه بعد أن كان صدقة على بريرة^(١).

﴿القول الثالث: هو التفصيل بين ما إذا كان الإحصار بعدو أو ما إذا كان الإحصار بسبب مرض ونحوه؛ فقالوا: إذا كان الإحصار بعدو فمحل المحرم حيث أحصر (في الحرم كان أو في غير الحرم) قالوا: وقد حل النبي ﷺ في الحديبية (وليس من الحرم)^(٢).

أما إذا كان الإحصار بمرض ونحوه فلا يحل إلا في الحرم بعد أن يطوف بالبيت ويسعى بين الصفا والمروة.

الرابع: إن استطاع المحصر أن يرسل هديه إلى الحرم أرسله، وإن لم يستطع فينحر حيث استطاع، وثم أقوال آخر في هذا الباب.

والذي يبدو أن المحصر محله حيث أحصر وذلك لأن النبي ﷺ نحر هديه بالحديبية^(٣)، وإن سلمت أخبار أن بعض الصحابة تسلل ببعض الهدى من بعض

(١) أشار إلى ذلك الطبري رحمه الله نقلاً عن غيره.

(٢) كما قدمنا عن الشافعي رحمه الله إذ استدل بقوله تعالى: ﴿وَالْهَدْيُ مَعْكُوفًا أَنْ يَبْلُغَ مَحَلَّهُ﴾ [الفتح: ٢٥] على أن المكان الذي نحرُوا فيه من الحل.

﴿وقال القرطبي رحمه الله: جمهور الناس على أن المحصر بعدو يحل حيث أحصر وينحر هديه إن كان ثم هدي ويخلق رأسه.

(٣) أخرجه البخاري (حديث ٢٧٠١)، من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.

الطرق إلى الحرم^(١) فهذا لم يكن على عمومته بل فعل أفراد إن ثبت الخبر بذلك، وكذلك لا حجة في إيراد من أورد أن الصحابة نحروا في الحل وجاءت ريح فنقلت شعورها إلى الحرم لأن أصل النحر - على هذا القول - كان في الحل، ولا تفريق بين المحصر بعدو والمحصّر بمرض للعمومات لقوله تعالى: ﴿فَأَنقُذُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ﴾ [التغابن: ١٦]، ولقوله تعالى: ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [البقرة: ٢٨٦]، ولقوله: ﴿وَمَا جَعَلْ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ [الحج: ٧٨] والله تعالى أعلم.

هذا، والمسنون في الحج أن النحر يُفعل أولاً فقد ثبت أن النبي ﷺ نحر قبل أن يحلق في عمرة الحديبية وفي حجة الوداع، ودل القرآن على ذلك في موضعين: **أحدهما:** قوله تعالى: ﴿وَلَا تَحْلِقُوا رُءُوسَكُمْ حَتَّىٰ يَبْلُغَ الْهَدْيُ مَحَلَّهُ﴾ [البقرة: ١٩٦]. **الثاني:** قوله تعالى في سورة الحج: ﴿لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَّعْلُومَاتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُمْ مِّنْ بَهِيمَةٍ الْأَنْعَامِ﴾ [الحج: ٢٨].

قال الشنقيطي في «أضواء البيان»: فالمراد بقوله: ﴿وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَّعْلُومَاتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُمْ﴾ الآية [الحج: ٢٨]: ذكر اسمه تعالى عند نحر البدن إجماعاً، وقد قال تعالى بعده عاطفاً بـ ﴿ثُمَّ﴾ التي هي للترتيب ﴿ثُمَّ لِيَقْضُوا تَفَثَهُمْ﴾ الآية [الحج: ٢٩]، وقضاء التفث يدخل فيه بلا نزاع إزالة الشعر بالحلق، فهو نص صريح في الأمر بتقديم النحر على الحلق.

قلت: لكن من حلق قبل أن ينحر فلا حرج عليه، وذلك لما أخرجه البخاري ومسلم^(٢) من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ وقف في حجة الوداع فجعلوا يسألونه فقال رجل: لم أشعر يا رسول الله فحلقت قبل أن أذبح قال: «اذبح ولا حرج» فجاء آخر فقال: لم أشعر فنحرت قبل أن أرمي قال: «ارم ولا حرج»، فما سئل عن شيء قُدِّم ولا أُخِّر إلا قال: «افعل ولا حرج».

(١) انظر النسائي في «السنن الكبرى» (٤٥٣/٢) حديث ناجية بن جندب الأسلمي.

(٢) البخاري (حديث ١٧٣٦)، (١٧٣٧)، ومسلم (حديث ١٣٠٦).

ولهذا الحديث عدة طرق عن رسول الله ﷺ.

يجوز التقصير أيضًا ، وذلك لقوله عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «اللهم اغفر للمُحَلِّقِينَ»، قالوا: وللمقصرين يا رسول الله؟ قال: «اللهم اغفر للمُحَلِّقِينَ» قالوا: يا رسول الله الله وللمقصرين؟ قال: «اللهم اغفر للمُحَلِّقِينَ» قالوا: يا رسول الله وللمقصرين؟ قال: «وللمُقَصِّرِينَ»^(١).

✽ ونحوه من حديث ابن عمر رضي الله عنهما^(٢) أن رسول الله ﷺ قال: «اللهم ارحم المحلقين»، قالوا: والمقصرين يا رسول الله؟ قال: «اللهم ارحم المحلقين» قالوا: والمقصرين يا رسول الله؟ قال: «والمقصرين»^(٣).

وقوله تعالى: ﴿فَن كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضًا أَوْ بِهِ أَذًى مِّن رَّأْسِهِ فَفَدِيَةٌ مِّن صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ﴾.

حاصل معناه فمن كان منكم مريضًا مرضًا استدعى أن يرتكب محظورًا كحلق الشعر مثلاً أو غيره من المحظورات، فارتكب ذلك المحظور، فعلى من ارتكبه فدية من صيام أو صدقة أو نسك وهذه الفدية وضحها سبب النزول الذي أخرجه البخاري ومسلم^(٤) من حديث كعب بن عجرة رضي الله عنه قال: وقف عليّ رسول الله ﷺ بالحديبية ورأسي يتهافت قُملاً، فقال: «يؤذيك هوأمك؟» قلت: نعم. قال: «فاحلق رأسك» - أو قال: «احلق» - قال: في نزلت هذه الآية: ﴿فَن كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضًا أَوْ بِهِ أَذًى مِّن رَّأْسِهِ﴾ [البقرة: ١٩٦]، إلى آخرها فقال النبي ﷺ: «صم ثلاثة أيام أو تصدق بفرق بين ستة أو انسك بما تيسر».

وقوله: «أو تصدق بفرق بين ستة» يعني إطعام ستة مساكين، والنسك أقله شاة

(١) أخرجه البخاري (١٧٢٨)، ومسلم (١٣٠٢)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعاً.

(٢) أخرجه البخاري (١٧٢٧)، واللفظ له، ومسلم (١٣٠١).

(٣) في بعض الروايات: أن النبي ﷺ كرر «اللهم ارحم المحلقين» ثلاث مرات... في حديث ابن عمر وهي في «الصحيح» أيضاً (انظر صحيح مسلم ص ٩٤٦).

(٤) أخرجه البخاري (١٨١٥)، ومسلم (١٢٠١).

وهذا على التخيير لقوله تعالى: ﴿فَفِدْيَةٌ مِّن صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ﴾. هذا، وقوله تعالى: ﴿فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ بِهِ أَذًى مِّن رَّأْسِهِ، فَفِدْيَةٌ مِّن صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ﴾ فيه مقدارٌ محذوف، والمعنى فمن كان منكم مريضاً أو به أذى من رأسه ففعل محظوراً من محظورات الإحرام كالحلق أو التطيب أو نحو ذلك فعليه فدية من صيام أو صدقة أو نسك.

وكذا قوله: ﴿وَلَا تَحْلِفُوا رُءُوسَكُمْ حَتَّىٰ يَبْلُغَ الْهَدْيُ مَحَلَّهُ﴾ فيه مقدارٌ فالمعنى حتى يبلغ الهدي محله وتنحروه أو تذبحوه وذلك لأن الرجل لا يتحلل ببلوغ الهدي محله، بل لا يحصل التحلل إلا بالنحر أو الذبح.

وقوله تعالى: ﴿فَإِذَا آمَنْتُمْ﴾ من عدوكم وذهب الخوف عنكم أو برأتم من مرضكم وتمكنتم من أداء مناسككم ولم يحل بينكم وبين أدائها حائل ﴿فَمَن تَمَنَّعَ بِالْعُمْرَةِ إِلَى الْحَجِّ﴾ أي فمن حج متمتعاً بأن يعتمر في أشهر الحج ثم يتحلل ويهمل بالحج في تلك السنة.

وأشهر الحج هي شوال وذو القعدة وعشرٌ من ذي الحجة، وقيل وذو الحجة^(١) كله، وقيل وتسع من ذي الحجة مع ليلة المزدلفة هذا، ويطلق التمتع في عرف السلف على القرآن أيضاً (أي على العمرة والحج بدون تحلل من العمرة بينهما أيضاً)^(٢).

هذا، والآية الكريمة أفادت أن التمتع ليس بواجب بل هو مباح، وإن قال قائل بالاستحباب فله وجهٌ وذلك من أدلة آخر.

وقد أخرج مسلم^(٣) في صحيحه من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنه في وصف حجة النبي ﷺ وفيه حتى إذا كان آخر طوافه على المروة فقال: «لو أني استقبلت

(١) وسيأتي لذلك مزيد إن شاء الله.

(٢) انظر فتح الباري التمهيد لابن عبد البر.

(٣) مسلم (١٢١٨).

من أمري ما استدبرت لم أسق الهدى، وجعلتها عمرة، فمن كان منكم ليس معه هدي فليحل وليجعلها عمرة»، فقام سراقه بن مالك بن جعشم فقال: يا رسول الله ألعامنا هذا أم لأبد؟ فشَبَّكَ رسول الله ﷺ أصابعه واحدة في الأخرى، وقال: «دخلت العمرة في الحج» مرتين «لا بل لأبد أبدي»... الحديث.

هذا، وقوله تعالى: ﴿فَمَا اسْتَسْرَعَ مِنَ الْهَدْيِ﴾ فيه ردُّ على من قال إنه يشترط في الهدى ما يشترط في الأضاحي من السن وغير ذلك والله أعلم.

ثم ليُعلم أنه لا يجزئ الصيام عن الحاج المتمتع ما دام يستطيع الهدى، قال القرطبي رحمه الله: أجمع العلماء على أن الصوم لا سبيل للمتمتع إليه إذا كان يجد الهدى وأقل ما يجزئ عن المتمتع من الهدى هو شاة أو أن يشترك هو وستة آخرون في بقرة أو بدنة، ويدل على ذلك ما أخرجه البخاري^(١) بإسناده إلى أبي جمرة قال: سألت ابن عباس رضي الله عنهما عن المتعة فأمرني بها، وسألته عن الهدى فقال: فيها جزور أو بقرة أو شاة أو شرك في دم، قال: وكأن ناساً كرهوها فنمت فرأيت في المنام كأن إنساناً يُنادي: حجٌّ مبرور ومتعة متقبلة، فأتيت ابن عباس رضي الله عنهما فحدثته، فقال: الله أكبر، سنة أبي القاسم رضي الله عنه.

وأخرج مسلم^(٢) في «صحيحه» من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنه قال: نحرنا مع رسول الله ﷺ عام الحديبية البدنة عن سبعة والبقرة عن سبعة، وفي رواية: خرجنا مع رسول الله ﷺ مهلين بالحج، فأمرنا رسول الله ﷺ أن نشترك في الإبل والبقرة كل سبعة منا في بدنة.

وقوله تعالى: ﴿فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ فِي الْحَجِّ﴾ أي: فعليه صيام ثلاثة أيام في الحج، ولم يرد في تحديدها نص عن النبي ﷺ ولذلك تكاثرت أقوال العلماء في ذلك،

(١) البخاري (١٦٨٨).

(٢) أخرجه مسلم (حديث ١٣١٨).

فمنهم من قال: إن جوازها يبدأ من حين الإحرام بالعمرة ^(١) وآخرها ثلاثة أيام بعد النحر.

✽ ومن العلماء من قال: إنها يوم السادس والسابع والثامن من منى ، ومنهم من قال: إنها السابع والثامن والتاسع، ومنهم من قال : تبدأ من الإهلال بالحج وتنتهي إلى يوم عرفة إلى غير ذلك من الأقوال.

وأولها بالصواب عندي - والله أعلم - : أنها تبدأ من وقت الإحرام بالحج إلى نهاية أيام التشريق ، فإن قال قائل : إن النبي ﷺ قد نهى عن صيام أيام التشريق ^(٢) . فيجيب على هذا بأن صومها مستثنى للمتمتع الذي لا يجد الهدي، وذلك لما أخرجه البخاري ^(٣) من حديث عائشة وابن عمر رضي الله عنهما قالوا: لم يُرخص في أيام التشريق أن يُصمَّنَ إلا لمن لم يجد الهدي.

وأخرج البخاري ^(٤) أيضًا عن ابن عمر قال: (الصيام لمن تمتع بالعمرة إلى الحج إلى يوم عرفة ، فإن لم يجد هديًا صام أيام منى). وأخرج البخاري أيضًا بإسناده إلى عروة قال: (كانت عائشة رضي الله عنها تصوم أيام منى، وكان أبوه يصومها) ^(٥) ، والله تعالى أعلم.

وقوله تعالى: ﴿وَسَبِّحْ إِذَا رَجَعْتَ﴾ أي إذا رجعتُم إلى أهاليكم وبلاذكم، والدليل على ذلك ما أخرجه البخاري ومسلم ^(٦) من حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنهما ، وفيه: ..

(١) أي: العمرة التي في أشهر الحج (التي تمتع بها المتمتع إلى الحج).

(٢) أخرجه مسلم (حديث ١١٤١) من حديث نبیسة الهذلي قال : قال رسول الله ﷺ: «أيام التشريق أيام أكل وشرب».

ونحوه عند مسلم أيضًا (حديث ١١٤٢) من حديث كعب بن مالك رضي الله عنه أن النبي ﷺ بعثه وأوس بن الحدثان أيام التشريق فنادى «أنه لا يدخل الجنة إلا مؤمن وأيام منى أيام أكل وشرب».

(٣) أخرجهما البخاري (١٩٩٧، ١٩٩٨).

(٤) أخرجه البخاري (١٩٩٩).

(٥) أخرجه البخاري (١٩٩٦).

(٦) أخرجه البخاري (حديث ١٦٩١) ، ومسلم (حديث ١٢٢٧).

فمن لم يجد هديًا فليصم ثلاثة أيام في الحج وسبعة إذا رجع إلى أهله.

وبنحوه قال ابن عباس قال: إلى أمصاركم ^(١).

وقوله تعالى: ﴿تِلْكَ عَشْرَةٌ كَامِلَةٌ﴾ للتأكيد، وإلا فقد علم أن الثلاثة والسبعة مجموعها عشرة وأيضًا لدفع التوهم الذي قد يرد من أن الواو تأتي بمعنى (أو) أحيانًا فلدفع هذا التوهم قال تعالى: ﴿تِلْكَ عَشْرَةٌ كَامِلَةٌ﴾ والله أعلم.

وقوله تعالى: ﴿ذَلِكَ﴾ من العلماء من قال إنه راجع إلى التمتع بالعمرة إلى الحج، ومنهم من قال إنه راجع إلى الصيام فعلى القول بأنه راجع إلى التمتع فإن حاضري المسجد الحرام ليس لهم التمتع.

والذين ذهبوا إلى أنه راجع إلى الصيام قالوا إذن لا مانع يمنع حاضري المسجد الحرام من التمتع وقوله: ﴿ذَلِكَ لِمَنْ لَمْ يَكُنْ أَهْلَهُ حَاضِرِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ قد نقل الطبري الإجماع على أن أهل الحرم معنيين به بالإجماع وأخرج البخاري ^(٢) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما قال: ... فجمعوا نُسكين في عام بين الحج والعمرة، فإن الله تعالى أنزله في كتابه وسنة نبيه ﷺ وأباحه للناس غير أهل مكة، قال الله: ﴿ذَلِكَ لِمَنْ لَمْ يَكُنْ أَهْلَهُ حَاضِرِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ [البقرة: ١٩٦].

لكن هل يدخل مع أهل الحرم غيرهم أم لا؟ فذهب فريق من العلماء إلى أن الآية مقتصرة على أهل الحرم، ومن العلماء من قال: يدخل معهم مَنْ كان من الحرم على مسافة لا تقصر فيها الصلاة، واختار هذا القول الطبري رحمته الله.

ومن العلماء من قال: مَنْ كان منزله دون المواقيت. والله تعالى أعلم.

وقوله: ﴿ذَلِكَ لِمَنْ لَمْ يَكُنْ أَهْلَهُ حَاضِرِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ المعنى به إقامته في الحرم (مكة وما أطلق عليه حرم كمنى ومزدلفة أيضًا) وأطلق الأهل لأن الغالب على الرجل أنه يسكن مع أهله والله أعلم.

(١) البخاري (١٥٧٢).

(٢) أخرجه البخاري (حديث ١٥٧٢).

وقوله تعالى: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ .

قال الطبري في معناه: يعني بذلك جل اسمه: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ [البقرة: ١٩٦]، بطاعته
 فيما ألزمكم من فرائضه وحدوده، واحذروا أن تعتدوا في ذلك وتتجاوزوا فيما بين
 لكم من مناسككم فتستحلوا ما حرم فيها عليكم، ﴿وَأَعْلَمُوا﴾ [البقرة: ١٩٦]، تيقنوا
 أنه تعالى ذكره شديد عقابه لمن عاقبه على من انتهك محارمه وركب من معاصيه.



(مزيدُ بيان لبعض أحكام الحج)

قال الله عز وجل: ﴿الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَةٌ ۖ فَمَنْ فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي الْحَجِّ ۚ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ اللَّهُ ۚ وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَىٰ ۚ وَاتَّقُونِ يَا أُولِيَ الْأَلْبَابِ ﴿١٩٧﴾ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَبْتَغُوا فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ فَإِذَا أَفَضْتُمْ مِّنْ عَرَفَاتٍ فَاذْكُرُوا اللَّهَ عِندَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ وَاذْكُرُوهُ كَمَا هَدَيْتُكُمْ وَإِنْ كُنْتُمْ مِّن قَبْلِهِ لَمَنِ الضَّالِّينَ ﴿١٩٨﴾ ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٩٩﴾ فَإِذَا قَضَيْتُمْ مَنَسِكَكُمْ فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَذِكْرِكُمْ آبَاءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا ۖ فَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ رَبَّنَا آئِنَا فِي الدُّنْيَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلْقٍ ﴿٢٠٠﴾ وَمِنْهُمْ مَّن يَقُولُ رَبَّنَا آئِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴿٢٠١﴾ أُولَٰئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّمَّا كَسَبُوا ۚ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿٢٠٢﴾ ۝

وقوله تعالى: ﴿الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَةٌ﴾ لأهل العلم فيه قولان:

أحدهما: وقت الحج أشهر معلومات (أي: لا يصح الإحرام بالحج إلا فيها).

الثاني: الحج حج أشهر معلومات (أي: الحج الكامل المفضل : ما كان في هذه الأشهر المعلومات).

فعلى القول الأول لا يجوز الإحرام بالحج إلا في هذه الأشهر المعلومات وبه يقول الشافعي رحمته الله ، فلو أحرم به قبلها لم ينعقد إحرامه به، وعلى القول الثاني يصح الإحرام بالحج في غير هذه الأشهر أيضًا وهو قول مالك وأبي حنيفة وأحمد وإسحاق بن راهويه وغيرهم.

ويشهد لهذا القول قوله تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَهْلِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ﴾ [البقرة: ١٨٩].

أما ما هي هذه الأشهر فلاهل العلم في ذلك أقوال:

أحدها: أن المراد بهذه الأشهر: شوال ، وذو القعدة، وذو الحجة ^(١).

الثاني: أن المراد بهذه الأشهر: شوال، وذو القعدة، وعشرة أيام ^(٢) من ذي الحجة.

(١) وحجة هذا القول ظاهر الآية الكريمة، وذكر أنها أشهر فلا معنى لأخذ بعض أيام الشهر أو لياليه دون الأيام والليالي الأخرى.

(٢) حجة هذا القول أن الطواف والرمي في العقبة ركنان يعلان في العشر، وجنح الطبري إلى هذا القول وقال: فإن قال قائل فكيف قيل ﴿الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَعْلُومَةٌ﴾ [البقرة: ١٩٧] هو شهران وبعض الثالث ، قيل : إن العرب لا تمتنع خاصة في الأوقات من استعمال مثل ذلك فتقول: (له اليوم يومان منذ لم أره) وإنما تعني بذلك يومًا وبعض آخر، وكما قال جل ثناؤه: ﴿فَمَنْ تَجَلَّيْ يَوْمَيْنِ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ﴾ [البقرة: ٢٠٣] ، وإنما يتعجل في يوم ونصف، وقد يفعل الفاعل منهم الفعل في الساعة ثم يخرجهم عامًا على السنة والشهر فيقول: (زرتك العام، وأتيته اليوم) وهو لا يريد بذلك أن فعله أخذ من أول الوقت الذي ذكره إلى آخره، ولكنه يعني أنه فعله إذ ذاك وفي ذلك الحين، وكذلك ﴿الْحَجُّ أَشْهُرٌ﴾ والمراد منه: الحج شهران وبعض آخر، فمعنى الآية إذاً: ميقات حجكم أيها الناس شهران وبعض الثالث، وهو شوال ، وذو القعدة، وعشر ذي الحجة.

❦ هذا وقد صح عن ابن عمر أنه قال: شوال وذو القعدة وعشر ذي الحجة ؛ وذلك في تفسير قول الله تعالى: ﴿الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَعْلُومَةٌ﴾ [البقرة: ١٩٧] (الطبري ، ٣٥٣٢ ، ٣٥٣٣).

وصح عن ابن جريج عند الطبري (٣٥٣٦) أنه قال : قلت لنافع أسمعت ابن عمر يسمي أشهر الحج ؟ قال نعم : شوال وذو القعدة وذو الحجة.

الثالث: أنها شوال وذو القعدة وعشر ليالٍ من ذي الحجة ^(١).

الرابع: أنها شوال وذو القعدة وذو الحجة من أوله إلى آخر أيام التشريق ^(٢).

وقوله تعالى: ﴿فَمَنْ فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ﴾ أوجب على نفسه الحج وألزم نفسه به ودخل فيه، وقد ذهب بعض أهل العلم إلى أن النية تكفي في هذا، وقال آخرون لأبد من الإهلال بالتلبية والله أعلم.

هذا، وليعلم أن التلبية ليست ركناً من أركان الحج وإلى هذا ذهب الشافعي رحمه الله.

* وقوله تعالى: ﴿فَلَا رَفَثَ﴾ من العلماء من قال المراد به الجماع قوله تعالى: ﴿أَحَلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصَّيَامِ الرَّفَثُ إِلَى نِسَائِكُمْ﴾ ومنهم من قال الجماع ومقدماته، والأسلم والأحوط الابتعاد عن الجماع ومقدماته أثناء الإحرام.

ولكن من جامع أهله أشد بلا شك ارتكاباً للمحظور من الذي لم يجمع، وذلك لأنه قد وقع في الرفث اتفاقاً وخالف قول الله عز وجل، وهذا المخالف ماذا عليه؟ قدمنا أننا لم نقف على شيء في الكتاب والسنة يوضح أن عليه كفارة بعينها، ولا على شيء صريح يوضح أن حجّه صحيح أو باطل، وأيضاً لم ينعقد الإجماع على شيء بعينه في هذا الباب، فمن العلماء من قال على كل واحد منهما هدي، من هؤلاء: ابن عباس رضي الله عنهما، ومنهم من قال إن حجّه قد بطل، وعليه أن يخرج مع الناس فيصنع كما يصنعون فإذا كان من العام القادم حج وأهدى، وهذا قول ابن عباس أيضاً وابن عمر وابن عمرو رضي الله عنهم.

✽ ومنهم من زاد على ما تقدم أنهما يفترقان عن بعضهما في الحج القادم.

✽ ومنهم من فصل فقال: ليس على الزوجة المكروهة كفارة، فإن طاعته

فعلى كل واحد منهما كفارة.

(١) وحجة هذا القول أن الحج يكمل بطلوع الفجر يوم النحر لصحة الوقوف بعرفة وهو الحج كله.

(٢) ومن قال: آخر أيام التشريق رأى أن الرمي من أفعال الحج وشعائره، وبعض الشهر يسمى شهراً لغّة.

❁ **ومنهم من قال:** بينهما بدنة وحج بعد الحج الذي أفسدوه، منهم: الإمام الشافعي رحمته الله.

❁ **ومنهم من قال:** فسد حجه، لكن يُحرم من موضعه، فإن أدرك تمام الحج فلا شيء عليه غير ذلك، وإن كان لا يدرك تمام الحج فقد عصى وأمره إلى الله تعالى، ولا هدي في ذلك ولا شيء، إلا أن يكون لم يحج قط فعليه الحج والعمرة، من هؤلاء: ابن حزم رحمه الله.

❁ **ومنهم من رأى أن الحج صحيح** كما أشار الشوكاني ونقله عن داود الظاهري، فقال الشوكاني رحمته الله: واعلم أنه ليس في الباب من المرفوع ما تقوم به حجة، والموقوف ليس بحجة، فمن لم يقبل المرسل ولا رأى حجية أقوال الصحابة فهو في سعة عن التزام هذه الأحكام، وله في ذلك سلف كداود الظاهري.

قلت: وينضم إليه صديق حسن خان كما في «الروضة الندية».

على ذلك فيتلخص لنا مما سبق أن من جامع أهله وهو محرم فقد عصى الله عز وجل وأنهم، وعليه أن يستغفر الله ويعمل صالحاً كأن يذبح هدياً أو ينحره.

أما الحكم ببطلان حجه، أو أمره بالافتراق والبعد عن زوجته من مكان الجماع، وفساد الحج، والإلزام بإتمام ذلك الحج الفاسد، أو نحر بدنة، أو غير ذلك، فليس معنا في ذلك دليل من كتاب الله ولا من سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم اللهم إلا عموم قوله تعالى: ﴿فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي الْحَجِّ﴾ والله أعلم.

وقوله تعالى: ﴿وَلَا فُسُوقَ﴾ المراد به المعاصي كلها.

وقوله: ﴿وَلَا جِدَالَ فِي الْحَجِّ﴾ المراد به المراء الذي يُغضب صاحبك، وقيل السباب أيضاً وقوله تعالى: ﴿فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي الْحَجِّ﴾ فيه تأكيد للمنع من هذه الأشياء فإثمها أعظم في الحج من إثمها في وقت آخر غير الحج.

هذا، وقد أخرج البخاري ومسلم^(١) من حديث أبي هريرة - رضي الله عنه - قال قال

(١) البخاري (١٥٢١)، ومسلم (١٣٥٠).

رَسُولُ اللَّهِ - ﷺ - « مَنْ حَجَّ هَذَا الْبَيْتَ ، فَلَمْ يَرْفُثْ وَلَمْ يَفْسُقْ ، رَجَعَ كَمَا وَلَدَتْهُ أُمُّهُ » .

وقوله تعالى: ﴿وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ اللَّهُ﴾ أي وسيجازيكم عليه ويشيكم عليه.

وقوله تعالى: ﴿وَتَكْزُدُوا فَاِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى﴾ له سبب نزول أخرجه البخاري (١) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما قال: كان أهل اليمن يحججون ولا يتزودون ويقولون: نحن المتوكلون، فإذا قدموا مكة سألوا الناس؛ فأنزل الله تعالى: ﴿وَتَكْزُدُوا فَاِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى﴾ [البقرة: ١٩٧].

ولأهل العلم أقوال في الآية الكريمة:

الأول: وتزودوا يا معشر الحجيج ويا معشر المسافرين من الطعام والشراب والزاد ما تبلغون به حجكم وترجعون به إلى دياركم ، واتقوا (أي: اجتنبوا) أذى الناس بسؤالكم إياهم، فإن خير الزاد ما اتقى به المسافر أذى الناس، وما اتقى به المسافر الهلكة.

فالتقوى على هذا القول: اتقاء الهلكة، واتقاء أذى الناس بسؤالهم.

الثاني: وتزودوا من التقوى ، فإن التقوى هي خير زاد، وكتوضيح لهذا القول الثاني قال بعض أهل العلم: وتزودوا من التقوى للمعاد، فإن الإنسان لا بد له من سفرٍ في الدنيا، ولا بد فيه من زاد، ويحتاج - ولا بد - فيه إلى الطعام والشراب والمركب.

وسفر من الدنيا إلى الآخرة، فيه من زادٍ أيضًا، وهو تقوى الله والعمل بطاعته واتقاء المحظورات ، وهذا الزاد أفضل من الزاد الأول، فإن زاد الدنيا يوصل إلى مراد النفس وشهواتها، وزاد الآخرة يوصل إلى النعيم المقيم في الآخرة، وفي هذا

(١) أخرجه البخاري حديث (١٥٢٣) وقد أشار البخاري إلى اختلاف في وصله وإرساله ، فقال بعد أن أخرجه موصولاً: رواه ابن عيينة عن عمرو عن عكرمة مرسلًا، ورجح عدد من أهل العلم الإرسال.

المعنى قال الأعشى:

إِذَا أَنْتَ لَمْ تَرْحَلْ بِزَادٍ مِنَ التُّقَى وَلَا قَيْتَ بَعْدَ الْمَوْتِ مَنْ قَدْ تَزَوَّدَا
نَدِمْتَ عَلَى أَنْ لَا تَكُونَ كَمِثْلِهِ وَأَنْتَ لَمْ تَرُصِدْ كَمَا كَانَ أَرْصَدَا

الثالث: (ذكره القاسمي أيضاً): وهو أن قوله تعالى: ﴿وَتَزَوَّدُوا﴾ [البقرة: ١٩٧]، أمر باتخاذ الزاد: هو طعام السفر، وقوله: ﴿فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ الْتَقْوَى﴾ [البقرة: ١٩٧]، إرشاد إلى زاد الآخرة، وهو استصحاب التقوى إليها بعد الأمر بالزاد للسفر في الدنيا كما قال تعالى: ﴿وَرِيشًا وَلِبَاسٌ الْتَقْوَى ذَلِكَ خَيْرٌ﴾ [الأعراف: ٢٦]، لما ذكر اللباس الحسي نبه مرشداً إلى اللباس المعنوي وهو الخشوع والطاعة، وذكر أنه خير من هذا وأنفع.

وقوله تعالى: ﴿وَأَتَّقُونَ يَتَأُولَى الْأَلْبَابِ﴾ واحذروا غضبي وعقابي يا أصحاب العقول النيرة الرشيدة.

قوله تعالى: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَبْتَغُوا فَضْلاً مِنْ رَبِّكُمْ﴾ حاصل معناه: ليس عليكم إثم يا معشر الحجاج والمعتمرين أن تتاجروا في حجكم أو في عمرتكم، فالآية فيها رفع الإثم عن البائع والمشتري من الحجيج والمعتمرين أثناء حجهم أو عمرتهم وعلى هذا جماهير العلماء.

وإن كان الأفضل التفرغ لأعمال الحج والعمرة، وللذكر والدعاء، فغاية ما في الآية رفع الإثم عن من باع واشترى وللآية الكريمة سبب نزول أخرجه البخاري في «صحيحه» من حديث ابن عباس رضي الله عنهما قال: كانت عكاظ ومَجَنَّة وذو المجاز أسواقاً في الجاهلية فتأثموا أن يتجروا في المواسم، فنزلت: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَبْتَغُوا فَضْلاً مِنْ رَبِّكُمْ﴾ [البقرة: ١٩٨] في مواسم «الحج» ^(١).

(١) أخرجه البخاري حديث (٤٥١٩).

وقوله تعالى: ﴿فَإِذَا أَفَضْتُمْ مِنْ عَرَفَاتٍ﴾^(١) أي إذا رجعتُم من عرفات، أي في طريق الرجوع من عرفات وقوله: ﴿فَإِذَا ذُكِّرُوا اللَّهَ عِنْدَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ﴾ أما المشعر فمن أهل العلم من يقول: المشعر الحرام هو مزدلفة كلها، ومنهم من يقول: إن المراد بالمشعر الحرام جبل موجود بمزدلفة والدليل يرجح القول الثاني وذلك لما أخرجه مسلم^(٢) من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنه في وصفه لحجة رسول الله ﷺ، وفيه... حتى أتى المزدلفة فصلى بها المغرب والعشاء بأذان واحد وإقامتين ولم يُسَبِّح بينهما شيئاً ثم اضطجع رسول الله ﷺ حتى طلع الفجر وصلى الفجر حين تبين له الصبح بأذان وإقامة ثم ركب القصواء حتى أتى المشعر الحرام فاستقبل القبلة فدعاه وكبره وهللّه ووحدّه فلم يزل واقفاً حتى أسفر جداً فدفع قبل أن تطلع الشمس.. الحديث.

ففي قوله: حتى أتى المزدلفة.. وقوله حتى أتى المشعر الحرام ما يدل على التغاير، ويفيد أن المشعر الحرام جزء من مزدلفة.

لكن على كل حال فلا يلزم الوقوف عند المشعر الحرام نفسه (في حالة اختيار أن المشعر الحرام هو الجبل) وذلك لقول النبي ﷺ: «وجمع^(٣) كلها موقف»^(٤). هذا، والمراد بذكر الله عند المشعر الحرام فيه قولان:

أحدهما: أن المراد بذكر الله هو ذكره بالتلبية والتكبير والتهليل والتوحيد والحمد والتسبيح ونحو ذلك.

(١) والإفاضة سرعة المسير، وقد أخرج البخاري (١٦٦٦)، ومسلم (٩٣٦) من حديث أسامة بن زيد - رضي الله عنه - وقد سئل كيف كان رسول الله ﷺ يسير حين أفاض من عرفة؟ قال: كان يسير العنق، فإذا وجد فجوة نص، ومعنى العنق السير المتوسط، ومعنى الفجوة المكان المتسع، ومعنى نص أي أسرع.

(٢) مسلم حديث (١٢١٨).

(٣) جمع هي المزدلفة.

(٤) الحديث أخرجه مسلم (ص ٨٩٣).

الثاني: أن المراد بذكر الله الجمع بين صلاتي المغرب والعشاء والله تعالى أعلم.
هذا، والمبيت بمزدلفة ليس ركناً من أركان الحج أي أن الحج لا يبطل إذا ترك
الوقوف بمزدلفة أو المبيت بها وذلك لوجهين:

أحدهما: أنه ليس في ذكر المبيت، وإنما فيه مجرد الذكر.

الثاني: أن النبي ﷺ بين لعروة بن مضرس أجزاء الحج مع الوقوف بعرفة دون
المبيت بالمزدلفة.

قلت: لكن ذكر عدد من أهل العلم أنه واجب، وأوجبوا على من تركه دم.
وقوله تعالى: ﴿وَأَذْكُرُوهُ كَمَا هَدَيْكُمْ﴾ كُرر الأمر بالذكر تأكيداً على
أهمية ذكر الله عز وجل وتنبهها على عظيم نعمه وامتنانه.
وقوله تعالى: ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلِهِ لَمَنِ الضَّالِّينَ﴾ المراد به ضالون عن
الإيمان والتوحيد، وضالون عن ملة إبراهيم وطريقته عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ في حجه
وتوحيده لله ﷻ، والله تعالى أعلم.

وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ﴾ فيه قولان:

الأول: وعليه أكثر أهل العلم - أن المخاطبين بهذه الآية هم رسول الله ﷺ
وقريش وما ولدت (وهم الذين كانوا يُسمون بالحُمس)، فقد كانوا يذهبون من
منى إلى مزدلفة ولا يصلون إلى عرفات، كما قدمنا في سبب نزول الآية، وكما
أخرجه مسلم^(١) في «صحيحه» من حديث جابر في صفة حجة النبي ﷺ وفيها:
(فسار رسول الله ﷺ ولا تشك قريش إلا أنه واقف عند المشعر الحرام كما كانت
قريش تصنع في الجاهلية فأجاز رسول الله ﷺ حتى أتى عرفة...).

فأفاد هذا الحديث أن قريشاً كانت لا تتجاوز المشعر الحرام (أي: مزدلفة)،
وهي متجهة من منى، فلا تصل إلى عرفات، ولكنها تقف في مزدلفة، فإذا رجع
الناس من عرفات رجعت قريش من مزدلفة، فكان معنى الآية: ثم أنتم أيضاً يا

(١) أخرجه مسلم (حديث ١٢١٨).

معشر قريش (أو يا حُمس) سيروا مع الناس إلى عرفات وأفيضوا من عرفات كما يفيض سائر الناس، وعلى هذا القول أكثر أهل العلم.

الثاني: أن الخطاب في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَفِيضُوا﴾ [البقرة: ١٩٩]، خطاب لعموم الحجيج، والمراد بالناس: إبراهيم ﷺ، والمعنى: ثم أفيضوا يا معشر الحجيج من مزدلفة إلى منى كما أفاض إبراهيم ﷺ.

فإن قال قائل: فإن الله قال: ﴿مَنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ﴾ [البقرة: ١٩٩]، وإبراهيم ﷺ فرد واحد فكيف يجاب على هذا؟ فيقال لسائل هذا السؤال: إن الطبري رحمه الله أجاب على ذلك بقوله: إن العرب تفعل ذلك كثيراً فتدل بذكر الجماعة على الواحد، ومن ذلك قول الله ﷻ: ﴿الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ﴾ [آل عمران: ١٧٣]، والذي قال ذلك واحد، وهو فيما تظاهرت به الرواية من أهل السير نعيم بن مسعود الأشجعي، ومنه قول الله ﷻ: ﴿يَتَأْتِيَ الرُّسُلَ كُلُّوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَأَعْمَلُوا صَالِحًا﴾ [المؤمنون: ٥١]، قيل: عني بذلك النبي ﷺ، ونظائر ذلك في كلام العرب أكثر من أن تحصى.

قلت: وقد نقل مثل هذا القول - وأن المراد بالناس إبراهيم عليه الصلاة والسلام - عن الضحاك.

❁ وقد أخرج البخاري ^(١) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما قال: (يطوف الرجل بالبيت ما كان حلالاً حتى يهل بالحج فإذا ركب إلى عرفة فمن تيسر له هديه من الإبل أو البقر أو الغنم ما تيسر له من ذلك أي ذلك شاء غير إن لم يتيسر له فعليه ثلاثة أيام في الحج، وذلك قبل يوم عرفة، فإذا كان آخر يوم من الأيام الثلاثة يوم عرفة فلا جناح عليه ثم لينطلق حتى يقف بعرفات من صلاة العصر إلى أن يكون الظلام ثم ليدفعا من عرفات، فإذا أفاضوا منها حتى يبلغوا جمعاً الذي يتبرر فيه ثم ليذكروا الله كثيراً أو أكثروا التكبير والتهليل قبل أن تصبحوا ثم أفيضوا فإن الناس

(١) أخرجه البخاري (حديث ٤٥٢١).

كانوا يُفِيضُونَ ، وقال الله تعالى: ﴿ ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ وَأَسْتَغْفِرُوا لِلَّهِ إِنَّكَ اللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ [البقرة: ١٩٩]، حتى ترموا الجمرة.

وسبب نزول الآية الكريمة ما أخرجه البخاري ومسلم من حديث عائشة رضي الله عنها (١) قالت: كانت قريش ومن دان دينها يقفون بالمزدلفة وكانوا يُسمون الحمس، وكان سائر العرب يقفون بعرفات فلما جاء الإسلام أمر الله نبيه ﷺ أن يأتي عرفات ثم يقف بها ثم يفيض منها فذلك قوله تعالى: ﴿ ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ ﴾ [البقرة: ١٩٩].

وأخرج البخاري (٢) أيضًا من طريق عروة قال: كان الناس يطوفون في الجاهلية عراة إلا الحمس، والحمس قريش وما ولدت - وكانت الحمس يحتسبون على الناس، يُعطي الرجل الرجل الثياب يطوف فيها، وتُعطي المرأة المرأة الثياب تطوف فيها، فمن لم يعطه الحمس طاف بالبيت عريانًا وكان يفيض جماعة الناس من عرفات ويفيض الحمس من جمع، قال: وأخبرني أبي عن عائشة رضي الله عنها أن هذه الآية نزلت في الحمس: ﴿ ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ ﴾ [البقرة: ١٩٩]، قال: كان الناس يُفِيضُونَ من جمع فدفعوا إلى عرفات.

وقوله تعالى: ﴿ وَأَسْتَغْفِرُوا لِلَّهِ إِنَّكَ اللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ فيه حث على الاستغفار، وكثير ما يأتي الأمر بالاستغفار عند نهايات الأعمال من ذلك أن النبي ﷺ في آخر حياته نزل عليه قوله تعالى: ﴿ إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ۖ وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا ۖ ﴾ (١) فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَأَسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا ﴿ [النصر: ١ - ٣]، كان يقول في ركوعه وسجوده: «سبحانك اللهم ربنا وبحمدك اللهم اغفر لي» (٣).

(١) أخرجه البخاري (حديث ٤٥٢٠).

(٢) البخاري (حديث ١٦٦٥).

(٣) في «الصحیح» (البخاري ٤٩٦٧)، من حديث عائشة رضي الله عنها قالت: (ما صلى النبي ﷺ صلاة بعد أن نزلت عليه: ﴿ إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ۖ ﴾ [النصر: ١]، إلا يقول فيها: «سبحانك ربنا وبحمدك اللهم اغفر لي».)

✽ ونوح عليه السلام بعد إغراق قومه قال: ﴿رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِوَلَدَيَّ وَلِمَنْ دَخَلَ بَيْتِي مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا نَبَارًا﴾ [نوح: ٢٨].

✽ وفي «الصحيحين»^(١) من حديث أبي بكر الصديق رضي الله عنه أنه قال لرسول الله ﷺ: علمني دعاءً أدعوه به في صلاتي، قال: «قل اللهم إني ظلمت نفسي ظلمًا كثيرًا، ولا يغفر الذنوب إلا أنت، فاغفر لي مغفرةً من عندك وارحمني، إنك أنت الغفور الرحيم».

✽ وفي «صحيح مسلم» وعند النسائي والترمذي وأبي داود وابن ماجه^(٢) من حديث ثوبان أن رسول الله ﷺ كان إذا انصرف من صلاته استغفر ثلاث مرات، ثم يقول: «اللهم أنت السلام ومنك السلام تباركت يا ذا الجلال والإكرام».

✽ وأخرج أبو داود بإسناد حسن عن أبي برزة الأسلمي^(٣) قال: (كان رسول الله ﷺ يقول بأخرة إذا أراد أن يقوم من المجلس: «سبحانك اللهم ربنا وبحمدك، أشهد أن لا إله إلا أنت، أستغفرك وأتوب إليك»)، فقال رجل: إنك لتقول قولاً ما كنت تقوله فيما مضى يا رسول الله؟ فقال: «كفارة لما يكون في المجلس».

✽ وقال تعالى: ﴿ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ التَّكَاثُفُ وَأَسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّكَ اللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [البقرة: ١٩٩].

وقوله تعالى: ﴿فَإِذَا قُضِيَتْ مَنَاسِكُكُمْ فَادْكُرُوا اللَّهَ كَذِكْرِكُمْ آبَاءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا﴾ فإذا انتهيت من أعمال حجكم أدبتموها وانتهيت منها فلا تظنوا

^(١) وفي «الصحيحين» أيضًا (البخاري مع «الفتح» ٢/ ٢٨١)، و(مسلم مع النووي ٤/ ٢٠١)، من حديث عائشة

رضي الله عنها أن النبي ﷺ كان يقول في ركوعه وسجوده: «سبحانك اللهم ربنا وبحمدك اللهم اغفر لي».

(١) البخاري حديث رقم (٨٣٤)، ومسلم (مع النووي ١٧/ ٢٨)، وقد أورد البخاري هذا الحديث تحت باب الدعاء قبل السلام.

قلت: وهذا الاستغفار يكون للتقصير الذي حصل في أداء العبادة، والله أعلم.

(٢) مسلم (مع النووي ٥/ ٨٩)، والنسائي (٣/ ٦٨)، والترمذي (مع التحفة ٢/ ١٩٥)، وأبو داود (٣٦١)، وابن ماجه حديث (٩٢٨)، واللفظ له.

(٣) أخرجه أبو داود (٥/ ١٨٢).

أن ذكر الله ينقطع وأن دعاء الله ينقطع بل واصلوا ذكر الله واستمروا فيه وأكثروا منه وكذا دعاءه ورجاءه اذكروه كما تذكرون آباءكم بل أشد من ذكركم لآبائكم فذكر الله لا ينقض بانقضاء النسك، وعلى سبيل المثال أقول:

* لقد قال تعالى في شأن صلاة الجمعة، ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾.

وبعد انقضاء الصلاة عموماً قال ابن عباس إن رفع الصوت بالذكر عند الانتهاء من المكتوبة كان على عهد النبي ﷺ.

* وعند إتمام الصيام قال تعالى: ﴿وَلِتُكْمِلُوا الْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَى مَا هَدَيْتُكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ وعموماً فإن العبد يعبد ربه حتى الموت قال تعالى: ﴿وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ﴾ وقال عيسى عليه السلام: ﴿وَأَوْصِنِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا﴾.

أما قوله تعالى: ﴿كَذِكْرُكُمْ أَبَاءَكُمْ﴾ فقد ذكر العلماء فيه أقوالاً:

أحدها: أن القوم كانوا إذا فرغوا من ذبائهم ومن حجهم ومناسكهم يجتمعون فيتفاخرون بمآثر آبائهم، فأمرهم الله في الإسلام أن يكون ذكركم بالثناء والشكر والتعظيم لربهم دون غيره، وأن يلزموا أنفسهم من الإكثار من ذكره نظيراً ما كانوا ألزموا أنفسهم في جاهليتهم من ذكر آبائهم.

الثاني: استغيثوا بالله والجنوا إليه كما يستغيث الصغير بأبيه إذا مسه سوء.

الثالث: عظموا الله وذُوبوا عن حُرْمه، وادفعوا من أراد الشرك في دينه ومشاعره كما تذكرون آباءكم بالخير إذا غَضَّ أحد منهم وتحمون جوانبهم وتذُبُون عنهم.

الرابع: بعد كل عمل من أعمال الحج اذكروا الله ﷻ، فبعد الإحرام اذكروه بالتلبية، وعند رمي الجمار كبروه، وعند الذبح اذكروا اسم الله على الذبيحة وكبروه أيضاً، وكذلك فاذكروه عند الطواف وعند السعي وفي سائر أوقاتكم، وبعد الفراغ من أعمالكم وقضاء نسككم.

الخامس: كما كنتم تحلفون بأبائكم في الجاهلية فلا تحلفوا إلا بالله ﷻ.

السادس: بعد إراقتكم للدماء اذكروا الله ﷻ في يوم النحر وأيام التشريق ، كما قال تعالى: ﴿وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَيْتُكُمْ﴾ [البقرة: ١٨٥] ، وكما قال النبي ﷺ: «أيام التشريق أيام أكل وشرب وذكر لله»^(١).

وقوله تعالى: ﴿فَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِن خَلْقٍ﴾ معناه والله أعلم أن من الناس من يقصر دعواته في الحج على طلب متاع الدنيا وملذاتها الفانية فيحجون للمسألة وللدنيا فقط، يقول قائلهم: اللهم اسقنا المطر، وهب لنا من الإبل والغنم والنساء والديار والصحة والأولاد والمال وبارك لنا فيها، ونحو ذلك من متاع الدنيا ، ولا يسأل ربّه شيئاً من الجنة ونعيمها، ولا يسأل ربّه المغفرة لذنوبه ووضع أوزاره^(٢) ، ولا يسأل ربّه تيسير الحساب والأمن من الفزع الأكبر، ولا يسأل ربّه أن يقيه النيران، ويخفف عليه سكرات الموت ويهونها، ولا يسأل ربّه أن يجنبه المحارم والشبهات والآثام، ولا يسأل ربّه طهارة قلبه من الغل والأحقاد ونحو ذلك... والله تعالى أعلم.

وقوله تعالى: ﴿وَمِنْهُمْ مَّن يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ المراد بحسنة الآخرة: فهي الجنة، وقد نقل القرطبي الإجماع على ذلك^(٣).

❁ **أما حسنة الدنيا فمن العلماء من قال:** إن المراد بها العافية في الدنيا^(٤).

(١) أخرجه مسلم (حديث ١١٤١)، من حديث نبیة الهذلي ؓ مرفوعاً.

(٢) أخرج الطبري بإسناد حسن عن أبي وائل (٣٨٦٧): ﴿فَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا﴾ [البقرة

٢٠٠] هب لنا غنماً! هب لنا إبلًا! ﴿وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِن خَلْقٍ﴾ [البقرة: ٢٠٠].

وأخرج أيضاً بإسناد حسن عن قتادة (٣٨٧٣)، في قوله تعالى: ﴿فَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِن خَلْقٍ﴾ [البقرة: ٢٠٠]، فهذا عبد نوى الدنيا لها عَمِلَ ولها نصب.

(٣) وقد قال بعض العلماء: إن المراد بحسنة الآخرة: العافية في الآخرة، وهي تشمل الوقاية من النار ووراثة الجنة.

(٤) أخرج الإمام مسلم (مع النووي ١٧/١٣)، من حديث أنس بن مالك ؓ أن رسول الله ﷺ عاد رجلاً من

❖ **ومنهم من قال:** إن المراد بها: العلم والعبادة، والرزق الطيب ^(١).

❖ **ومنهم من قال:** إن المراد بها: الزوجة الصالحة.

والراجح - والله أعلم - أن المراد بحسنة الدنيا أعم مما ذكر ، فيدخل فيها كل ما يحسن وقعه عند العبد من رزق هني واسع حلال ، وزوجة صالحة ، وولد تقر به العين ، وراحة ، وعلم نافع ، وعمل صالح ، ونحو ذلك من المطالب المحبوبة والمباحة ، ويدخل فيه أيضًا العافية في الجسم والمعاش والرزق وغير ذلك ، والله تعالى أعلم.

أما القائلون: ﴿رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً﴾ فهم أهل الإيمان الذين حجوا بيت الله الحرام ويدخل فيهم رسول الله ﷺ أصحابه، ثم المؤمنون هذا، وقد كانت أكثر دعوة يدعو بها النبي ﷺ ﴿رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ أخرجه البخاري ومسلم ^(٢) من حديث أنس رضي الله عنه قال: كان أكثر دعاء النبي ﷺ: ﴿رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ [البقرة: ٢٠١].

وقوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّمَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ بيانه والله تعالى أعلم - أولئك الذين قالوا بعد قضاء مناسكهم: ﴿رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا

^١ المسلمين قد خفت فصار مثل الفرخ فقال له رسول الله ﷺ: «هل كنت تدعو بشيء أوتسأله إياه؟» قال: نعم، كنت أقول: اللهم ما كنت معاقبي به في الآخرة فعجله لي في الدنيا، فقال رسول الله ﷺ: «سبحان الله لا تطيقه - أو لا تستطيعه - أفلا قلت: اللهم آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النار»، قال: فدعا الله له فشفاه.

(١) أخرج الطبري بإسناد صحيح (٣٨٨١)، إلى سفيان الثوري، قال في هذه الآية ﴿رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً﴾ [البقرة: ٢٠١]، قال: الحسنة في الدنيا: العلم والرزق الطيب، وفي الآخرة حسنة الجنة. ❖ وأخرج بإسناد صحيح (٣٨٨٢)، عن ابن زيد ﴿وَمِنْهُمْ مَن يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ [البقرة: ٢٠١]، قال: فهو لاء النبي ﷺ والمؤمنون.

(٢) البخاري (٦٣٨٩)، ومسلم (٢٦٩٠).

(٣) في رواية «اللهم آتنا...».

حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴿البقرة: ٢٠١﴾، لهم نصيب من جنس ما كسبوا وفعلوا، ولهم نصيب مما دعوا به.

وقال بعض العلماء: لهم نصيب من أجل ما كسبوا، وهي كقوله تعالى: ﴿مِمَّا خَطِيئَتِهِمْ أُغْرِقُوا﴾ [نوح: ٢٥].

ومن العلماء من قال: إن (أولئك) ترجع إلى الفريقين: الفريق القائل: ﴿رَبَّنَا آئِنَا فِي الدُّنْيَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلْقٍ﴾ (٢٠٠)، والفريق القائل: ﴿رَبَّنَا آئِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ (٢٠١)، والله تعالى أعلم. وقوله: ﴿وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ لا يعجزه حساب عباده يوم القيامة بل يحاسبهم أدق الحساب في أسرع الأوقات.



(الأيام المعدودات)
وحكم من تعجل فيها ومن تأخر
والحث على تقوى الله عز وجل

قال الله عز وجل: ﴿وَأَذْكُرُوا اللَّهَ فِي أَيَّامٍ مَّعْدُودَاتٍ فَمَنْ تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ وَمَنْ تَأَخَّرَ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ لِمَنِ اتَّقَىٰ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَعْلَمُوا أَنَّكُمْ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ (٢٠٣).

قوله تعالى: ﴿وَأَذْكُرُوا اللَّهَ فِي أَيَّامٍ مَّعْدُودَاتٍ﴾ الخطاب به الحجاج، وقد نُقل الإجماع على ذلك ويدخل فيهم غيرهم أيضًا.

قال ابن العربي رَحِمَهُ اللَّهُ «أحكام القرآن»^(١):

لا خلاف أن المخاطب به هو الحاج، خوطب بالتكبير عند رمي الجمار، فأما غير الحاج فهل يدخل فيه أم لا؟ وهل هو أيضًا خطاب للحجاج بغير التكبير عند الرمي؟ فنقول: أجمع فقهاء الأمصار والمشاهير من الصحابة والتابعين رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ على أن المراد به: التكبير لكل أحد، وخصوصًا في أوقات الصلوات؛ فيكبر عند انقضاء كل صلاة، كان المصلي في جماعة أو وحده يُكبر تكبيرًا ظاهرًا في هذه الأيام...

أما الأيام المعدودات فقد: ذهب جمهور أهل العلم إلى أن المراد بهذه الأيام: أيام منى، وهي أيام التشريق الثلاثة: (الحادي عشر، والثاني عشر، والثالث عشر من ذي الحجة).

﴿وقد صح ذلك عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا﴾^(٢)، وغيره من أهل العلم.

(١) «أحكام القرآن» (١/ ٤٢)، ولمزيد انظر كتابي التسهيل لتأويل التنزيل.

(٢) انظر الطبري (٣٨٨٦) فما بعده.

ويتأيد ذلك بقول رسول الله ﷺ: «أيام التشريق أيام أكل وشرب وذكر لله»^(١).
 *ولا تدخل التلبية في الذكر أيام التشريق، وذلك لما أخرجه البخاري ومسلم
 من حديث الفضل بن عباس رضى الله عنهما أن النبي ﷺ ما زال يلبي حتى رمى جمرة
 العقبة^(٢).

وقوله تعالى: ﴿فَمَنْ تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ﴾ أي: من أراد من الحجيج
 أن يتعجل فلينفر من منى بعد رمي الجمرة يوم الثاني عشر من ذي الحجة بعد زوال
 الشمس (أي بعد الظهر تقريباً) وله أن يخرج من منى في أي وقت قبل غروب
 الشمس إذا كان سيطوف ويرحل إلى بلده.
 وقوله: ﴿فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ﴾ أي لا يَأْثَمُ لكونه تعجل ولم يمكث لليوم الثالث
 عشر بمنى.
 وقوله تعالى: ﴿وَمَنْ تَأَخَّرَ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ﴾ أي فلا إثم عليه لكونه لم يأخذ
 بالرخصة.

وهناك وجه ثان حاصله أن المتعجل والمتأخر كان أحدهما يعيب على الآخر
 فعله كان المتأخر يرى أن التعجل مخالفة لسنة الحج، وكان المتعجل يرى أن
 التأخر مخالفة لسنة الحج، فبين الله تعالى أنه لا عيب في واحد من القسمين ولا
 إثم، فإن شاء تعجل وإن شاء لم يتعجل.

وقوله تعالى: ﴿لِمَنِ اتَّقَى﴾ المراد منه، والله أعلم أن مغفرة الذنوب حاصلة لمن
 اتقى الله في حجه فلم يرفث ولم يفسق ولم يجادل جدال المرء ولم يفعل ما حرّمه
 الله عليه وكرهه الله له، فمن حج فلم يرفث ولم يفسق رجع كيوم ولدته أمه.
 وهي أيضاً حاصلة لمن اتقى الله في بقية حياته فلم يشرك ولم يرتكب من
 المظالم ما يطغى على حسناته ويجلب له النار، والله تعالى أعلم.
 ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَعْلَمُوا أَنَّكُمْ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ واتقوا الله يا أهل الإيمان ويا
 معشر الحجيج بلزومكم ما أمركم به وانتهاكم عما نهاكم عنه واعلموا أنكم
 تُجمعون إليه يوم القيامة.

(١) أخرجه مسلم من حديث نبیة الهذلي رضى الله عنه مرفوعاً وله عدة طرق عن رسول الله ﷺ.

(٢) البخاري (١٦٨٥)، ومسلم (١٢٨١).

(بيان بعض أحوال الناس
المفسد منهم والمصلح، والطالح منهم والصالح)

قال الله عز وجل: ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهَدُ اللَّهُ عَلَى مَا فِي قَلْبِهِ ۖ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ ۖ وَإِذَا تَوَلَّى سَعَىٰ فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ ۗ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفُسَادَ ۖ وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللَّهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالْإِثْمِ فَحَسْبُ لَهُ جَهَنَّمُ وَلَبِئْسَ الْمِهَادُ ۖ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ ۖ ﴾ (٢٠٧).

قوله تعالى: ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾ هؤلاء أهل النفاق والكذب تعجبك أقوالهم إذا تكلموا وتصغي إليهم وتستمع وتعجب بكلماتهم في الحياة الدنيا، وذلك يشهدون الله أي يستشهدون الله على ما في قلوبهم، فهذا قوله تعالى ﴿ وَيُشْهَدُ اللَّهُ عَلَى مَا فِي قَلْبِهِ ۖ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ ﴾ أي أنه يستشهد الله ﷻ ما في قلبه، بمعنى أنه يدعي الادعاءات ويكذب الأكاذيب ويفتري الافتراءات ثم يقول والله على ما أقول شهيد، أو يقول: والله يعلم أنني صادق، أو يقسم بالله على صدقه.

ومن العلماء من قال إنه يبارز الله بما في قلبه من العصيان.

وقوله تعالى: ﴿ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ ﴾ وهو الخصام أي شديد الخصومة مُتَمَادِي فيها ذو جدال بالباطل، وفي الحديث عن رسول الله ﷺ «إن أبغض الرجال إلى الله

الألدُّ الخصم»^(١).

وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا تَوَلَّى سَعَى فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفُسَادَ﴾.

أما قوله: ﴿وَإِذَا تَوَلَّى﴾ ففيه وجهان:

أحدهما: أصبح واليا أو أميراً.

الثاني: انصرف من عندك وخرج غضباناً.

والمعنى: وإذا خرج هذا الشخص الذي ذكر شأنه وأن قوله يعجبك إذا خرج من عندك وابتعد عنك أو تولى أمراً من أمور الناس ظهر على حقيقته ﴿سَعَى فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ﴾ مشى في الأرض واجتهد للفساد والعياذ بالله، خرج يفسد في الأرض، يفسد بين الناس، يشعل الحروب والفتن، يثير القلاقل والاضطرابات، يوقع بين الناس، ينشر الرذيلة والفاحشة، يبدل شرع الله، يجور ويقبل الرشوة ويقتل ويسرق ويختلس ويسكر ويُعربد وينشر الشر والكفر ويقطع الطريق إلى غير ذلك من صور الإفساد في الأرض، وكذا ﴿وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ﴾ ويتمثل إهلاك الحرث في إتلاف الزراعات والنخيل والأشجار والأموال بالتحريق والتخريب والسلب والنهب، ويتمثل إهلاك النسل بقتل النفس المحرمة من الأولاد والبنات والآباء والأمهات. ونتاج الدواب.

❀ ومن العلماء من قال إن المراد بالحرث - حرث بني آدم أي أولاد بني آدم ونساء بني آدم، والنسل نسل الدواب.

❀ **ومنهم من قال:** إنه (أي: هذا المتولي) بمعاصيه يتسبب في منع الرزق والمطر عن أهل الأرض مما يسبب إهلاكاً للحرث والنسل كما قال تعالى: ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الروم: ٤١] والله تعالى أعلم.

(١) البخاري (٤٥٢٣)، ومسلم (٢٦٦٨).

وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللَّهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالْإِثْمِ﴾ أي أنه إذا ذُكِّرَ لا يتذكر، وإذا وُعِظَ لا يتعظ.

قال الطبري رحمه الله: يعني بذلك جل ثناؤه: وإذا قيل لهذا المنافق الذي نعت نعتَه لنبيه ﷺ وأخبره أنه يعجبه قوله في الحياة الدنيا: اتق الله وخُفِّهِ في إفسادك في أرض الله، وسعيك فيها بما حَرَّمَ الله عليك من معاصيه وإهلاكك حروث المسلمين ونسلهم استكبر ودخلته عزة وحمية بما حَرَّمَ الله عليه وتمادى في غيِّه وضلاله، قال الله جل ثناؤه، فكفاه عقوبة من غيه وضلاله صِلِيَّ نار جهنم ولبئس المهاد لصاليها.

❦ **وقال ابن كثير رحمه الله:** إذا وعظ هذا الفاجر في مقاله وفعاله وقيل له اتق الله وانزع عن قولك وفعلك وارجع إلى الحق امتنع وأبى وأخذته الحمية والغضب بالاثم أي بسبب ما اشتمل عليه من الآثام...

وقوله: ﴿فَحَسْبُ جَهَنَّمَ وَلَيْسَ الْمِهَادُ﴾ أي فجهنم تكفيه فهي كافيته وبئس الفراش الذي يفرشه فهو يفرش النار ويتمهدا كما يتمهد الصبي فراشه، والآية كقوله تعالى: ﴿هَلُمَّ مِّنْ جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِنْ فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ﴾.

ومن الناس من حياته كلها لله باعها لربِّه عزَّ وجلَّ قال تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ﴾ أي: طلباً لرضا الله عزَّ وجلَّ عليه.

وسبب نزول الآية الكريمة: أخرجه الحاكم^(١) من طريق عكرمة قال لما خرج صهيب مهاجراً تبعه أهل مكة فنثل كنانته فأخرج منها أربعين سهماً فقال: لا تصلون إليَّ حتى أضع في كل رجل منكم سهماً، ثم أصير بعدد إلى السيف فتعلمون أي رجل، وقد خلفت بمكة قيتين فهما لكم^(٢).

(١) المستدرک (٣/٣٩٨).

(٢) هذا القدر مرسل لأن راويه عكرمة لم يدرك القصة، لكن يشهد له القدر الذي بعده.

قال^(١): وحدثنا حماد بن سلمة عن ثابت عن أنس نحوه ونزلت على النبي ﷺ: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ﴾ الآية [البقرة: ٢٠٧]، فلما رآه النبي ﷺ قال: «أبا يحيى ربح البيع» قال: وتلا عليه الآية^(٢).

وقال الحاكم: صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه.

هذا، وإن كان سبب نزول الآية خاصاً إلا أنها تشمل كل مجاهد في سبيل الله، كما قال الأكثرون فيما نقله عنهم الحافظ ابن كثير **رحمه الله** وذلك كما قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنْ لَهُمُ الْجَنَّةُ يُقَنِّلُونَهُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا يُوَفِّقُ اللَّهُ لَكُمْ عَزَابًا وَغَدَا عَلَيْهِ حَقٌّ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْفُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾.

[براءة: ١١١]

وقال الطبري رحمه الله في معنى الآية الكريمة: إن الله ﷻ وصف شارياً نفسه ابتغاء مرضاته، فكل من باع نفسه في طاعته حتى قتل فيها أو استقتل، وإن لم يقتل، فمعنى قوله: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ﴾ في جهاد عدو المسلمين كان ذلك منه، أو في أمرٍ بمعروفٍ أو نهي عن منكر^(٣).

(١) القائل هو سليمان بن حرب كما هو واضح.

(٢) صحيح على شرط مسلم، وله شواهد أيضاً.

هذا وقد أخرج الطبري (٤٠٠٣) بإسناد صحيح إلى محمد (وهو ابن سيرين) قال: حمل هشام بن عامر على الصف حتى خرقة فقالوا ألقى بيده! فقال أبو هريرة: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ﴾ [البقرة: ٢٠٧].

وأخرج الطبري بإسناد حسن عن المغيرة قال: بعث عمر جيشاً فحاصروا أهل حصن وتقدم رجل من بجيلة فقاتل حتى قُتل فأكثر الناس فيه يقولون: ألقى بيده إلى التهلكة! قال فبلغ ذلك عمر بن الخطاب **رحمه الله** فقال: كذبوا! أليس الله ﷻ يقول: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ﴾. (أثر ٤٠٠٤).

(٣) من العلماء من ربط بين هذه الآية والتي تليها على النحو الذي يفهم مما يأتي:

قال ابن العربي (أحكام القرآن ص ١٤٥): ويروى أن عمر **رضي الله عنه** كان إذا صلى الصبح دخل مريدًا له فأرسل

وقال في معنى قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ﴾ الطبري رحمه الله: والله ذو رحمة واسعة بعبده الذي يشري نفسه له في جهاد من حادّه في أمره من أهل الشرك والفسوق، وبغيره من عباده المؤمنين في عاجلهم وآجل معادهم فينجز لهم الثواب على ما أبلوا في طاعته في الدنيا، ويسكنهم جناته على ما عملوا فيها من مرضاته.



إلى فتیان قد قرأوا القرآن منهم ابن عباس وابن أخي عنبسة فقرأوا القرآن فإذا كانت القائلة انصرفوا قال: فمروا بهذه الآية ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللَّهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالْإِثْمِ فَحَسْبُهُ جَهَنَّمُ وَلَيْسَ إِلْهَآدُ﴾ ومن الناس من يشري نفسه ابتغاءَ مرضاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ ﴿البقرة: ٢٠٦، ٢٠٧﴾ فقال ابن عباس لبعض من كان إلى جانبه اقتتل الرجلان فسمع عمر رضي الله عنه ما قال، فقال: أي شيء قلت؟ قال: لا شيء، قال ماذا قلت؟ قال: فلما رأى ذلك ابن عباس قال: أرى هذا أخذته العزة بالإثم من أمره بتقوى الله، فيقول هذا: وأنا أشري نفسي ابتغاء مرضاة الله فيقاتله، فاقتتل الرجلان فقال عمر: لله تِلَادُكَ يا ابن عباس. لكنني لم أقف على إسناد هذا الأثر، فالله أعلم.

(الأمر بالدخول في الإسلام كله والتحذير من اتباع خطوات الشيطان
والتذكير ببعض مشاهد القيامة)

قال الله عز وجل: ﴿يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ
كَآفَّةً وَلَا تَتَّبِعُوا خُطَوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ
مُبِينٌ ﴿٢٠٨﴾ فَإِنْ زَلَلْتُمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْكُمْ الْبَيِّنَاتُ
فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٠٩﴾ هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ
فِي ظُلُلٍ مِّنَ الْغَمَامِ وَالْمَلَائِكَةُ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ
الْأُمُورُ ﴿٢١٠﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَآفَّةً﴾ معناه يا أيها
الذين آمنوا ادخلوا في الإسلام جميعاً فاعملوا بكل شرائعه وتمسكوا بكل ما في
كتاب الله عز وجل وسنة رسوله ﷺ قدر استطاعتكم وادخلوا في الإسلام بقلوبكم
وجوارحكم وثم معنى آخر يا أيها الذين آمنوا من أهل الكتاب وممن شهد أن لا إله
إلا الله وأن محمد رسول الله بلسانه ومن قال ذلك أيضاً صدقاً من قلبه يا هؤلاء
ادخلوا كلكم في الإسلام بقلوبكم وجوارحكم واثبتوا عليه واعملموا بتعاليمه
وشرائعه.

وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا خُطَوَاتِ الشَّيْطَانِ﴾ أي لا تسلكوا المسالك التي
يزينها لكم الشيطان، ولا تسلكوا السبل التي دعاكم إليها الشيطان ﴿إِنَّهُ لَكُمْ
عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ عدوٌّ مظهرٌ لعداوته، وقد بانت لكم عداوته وظهرت.
وقوله تعالى: ﴿فَإِنْ زَلَلْتُمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْكُمْ الْبَيِّنَاتُ﴾ أي إن أخطأتم

الحق فضللتم عنه عن عمد وعن قصد وخالفتم الإسلام وشرائعه من بعد ما جاءكم حججي والدلائل على وحدانيتي والدلائل على صحة الإسلام، وصحة نبوة رسولي وصدقه فيما جاء به ﴿فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ ذو عزة لا يمنعه من الانتقام منكم مانع ولا يدفعه عن عقوبتكم دافع حكيم فيما يفعل بكم من عقوبته على معصيتكم بعد إقامة الحجج عليكم.

وقوله تعالى: ﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ فِي ظُلَلٍ مِنَ الْغَمَامِ وَالْمَلَائِكَةُ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ﴾ (٢١٠).

حاصله ماذا ينتظر هؤلاء المكذبون بمحمد ﷺ التاركون لدينه المخالفون لشريعته، الساعون في الأرض بالفساد المتبعون لخطوات الشيطان، هل ينتظرون إلا أن يأتيهم الله في ظلل من الغمام (وذلك يوم القيامة)، وهل ينتظرون إلا أن تأتيهم الملائكة، وحينئذ يحل عليهم العذاب ويقع عليهم ولا يجدون حينئذ من يدفع عنهم شيئاً من ذلك فالأمور كلها مرجعها إلى الله **سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى**.

❖ والقراءة في (الملائكة) بالرفع، وهذه الآية كقوله تعالى: ﴿وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا﴾ [الفجر: ٢٢]، وكقوله تعالى: ﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ﴾ [الأنعام: ١٥٨]، والله تعالى أعلم.



(الآيات التي آتاها الله عز وجل بني إسرائيل)

قوله تعالى: ﴿سَلِّ بَنِي إِسْرَءِيلَ كَمَا آتَيْنَاهُمْ مِنْ آيَةٍ بَيْنَهُ وَمَنْ يُبَدِّلْ نِعْمَةَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ (٢١١) زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَيَسْخَرُونَ مِنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَالَّذِينَ اتَّقَوْا فَوْقَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ (٢١٢).

وقوله تعالى: ﴿سَلِّ بَنِي إِسْرَءِيلَ كَمَا آتَيْنَاهُمْ مِنْ آيَةٍ بَيْنَهُ﴾ يقول: أسأل يا رسول الله بني إسرائيل الذين يسكنون في مدينتك وما حولها واسأل بني إسرائيل عموما عن عدد المعجزات والدلالات الواضحات على نبوة موسى عليه السلام، بل وعلى وحدانية الله عز وجل وقدرته أسألهم عن هذه الآيات، والتي منها العصا - تظليل الغمام عليهم - إنزال المن والسلوى عليهم - فلق البحر لهم - الحجر الذي انبجست منه اثنتا عشرة عينا - نتق الجبل فوقهم كأنه ظلة - تكليم الله لنبيهم موسى ﷺ - إنزال التوراة - اليد التي تخرج بيضاء للناظرين من غير سوء. وغير ذلك ومع ذلك كله لم يؤمنوا بموسى حق الإيمان بل جادلوه وعاندوه فالغرض من السؤال، توبيخ بني إسرائيل وتقريعهم، فبعد أن آتاها الله الآيات البينات كفروا أيضًا ولم يحمدوا الله ويشكروا له على هذه الآيات.

تذكيرهم بنعم الله عليهم.

تصبير النبي ﷺ حتى يتأسى بالأنبياء قبله ويصبر كما صبروا فإن الأنبياء قبله أتوا أممهم بالآيات البينات والحجج الواضحات الدالة على صدق رسالتهم ومع ذلك كذبتهم أممهم فصبرت الرسل على تكذيب أممها فليكن لك يا محمد في هؤلاء الرسل أسوة، والله تعالى أعلم.

وقوله تعالى: ﴿وَمَنْ يُبَدِّلْ نِعْمَةَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ يقول ومن يبدل الآيات والدلالات التي أنعم الله عليه بها، والتي أنار الله له بها الطريق، فيحرف الكلم عن مواضعه، ويغير في صفة النبي محمد ﷺ التي بينها الله في التوراة والإنجيل كي يهتدوا بها إلى الإيمان برسول الله ﷺ وكذا يبدل نعمة الله التي شرعها الله لعباده يتحاكمون بها فيغيرها ويحرفها كما فعل اليهود في قصة الرجم، وغير ذلك وكذا من يقابل عموم نعم الله بالجحود والكران ﴿فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ عقابه شديد وأخذه أليم موجه.

(تزيين الحياة الدنيا لأهل الكفر وبيان سخريتهم من المؤمنين)

وقوله تعالى: ﴿زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا﴾.

قال بعض العلماء: الذي زينها هو الشيطان، وذلك لقوله تعالى: ﴿وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ﴾.

وقال الأكثرون: إن الذي زينها هو الله، وذلك لقوله تعالى: ﴿كَذَلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ﴾ ولأن الله عز وجل حفّ النار بالشهوات ولا تعارض، فتزين الشيطان لا يكون إلا بإذن الله ولهذا نظائر كثيرة في الكتاب العزيز، كما قال تعالى: ﴿قُلْ يَنفِقَكُم مِّلْكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ﴾ وقوله: ﴿تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفْرِطُونَ﴾ وقوله تعالى: ﴿اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا﴾.

فتوفي الملائكة للأنفس يكون بإذن ملك الموت الذي يأتمر بأمر الله عز وجل. وقوله تعالى: ﴿زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا﴾ أي زين للذين كفروا حبُّ الحياة الدنيا فرأوها جميلةً وحسنةً، ورأوا ما فيها جميلاً وحسناً بغض النظر عن حقيقته، قال الطبري رحمه الله: يعني بذلك جل ثناؤه: زين للذين كفروا حبُّ الحياة الدنيا العاجلة اللذات، فهم يبتغون فيها المكاثرة والمفاخرة ويطلبون فيها الرياسة

والمباهاة ويستكبرون عن اتباعك يا محمد والإقرار بما جئت به من عندي. تعظُّماً منهم على من صدَّقك واتبَعك، ويسخرون بمن تبعك من أهل الإيمان والتصديق بك في تركهم المكاثرة والمفاخرة بالدنيا وزينتها من الرياش والأموال بطلب الرياسات وإقبالهم على طلبهم ما عندي برفض الدنيا وترك زينتها، والذين عملوا لي وأقبلوا على طاعتي ورفضوا لذات الدنيا وشهواتها اتباعاً لك وطلباً لما عندي واتقاءً منهم بأداء فرائضي وتجنب معاصيِّ فوق الذين كفروا يوم القيامة بإدخال المتقين الجنة، وإدخال الذين كفروا النار.

وقوله تعالى: ﴿وَيَسْخَرُونَ مِنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ فهذا دأبُّ أهل الكفر وتلك عادتهم يسخرون من أهل الإيمان قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا كَانُوا مِنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا يَضْحَكُونَ﴾ (٢٩) وَإِذَا مَرُّوا بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ ﴿٣٠﴾ وَإِذَا انْقَلَبُوا إِلَىٰ أَهْلِهِمْ انْقَلَبُوا فَكِهِينَ ﴿٣١﴾ وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوا إِنَّ هَؤُلَاءِ لَضَالُّونَ ﴿المطففين: ٢٩ - ٣٢﴾.

وقوله تعالى: ﴿زَيْنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَيَسْخَرُونَ مِنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾

[البقرة: ٢١٢]

وقوله تعالى - في شأن نوح عليه السلام: ﴿وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأَ مِنْ قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ﴾ [هود: ٣٨].

وقول قوم شعيب لشعيب عليه السلام على وجه السخرية: ﴿إِنَّكَ لَأَنْتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ﴾ [هود: ٨٧].

وقول المشركين لرسول الله صلى الله عليه وسلم: ﴿يَتَأْتِيَهَا الَّذِي نَزَلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ﴾ [الحجر: ٦].

وسخرية أهل النفاق من أهل الإيمان كما في قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَلْمِزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي الصَّدَقَاتِ وَالَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ﴾ [براءة: ٧٩].

وسخرية أهل الكفر من المؤمنين لعدم حرصهم على الدنيا وعدم التفاتهم إليها

وعدم تكالبهم عليها.

ويسخرون منهم أيضًا لاتباعهم النبي ﷺ ويسخرون منهم كذلك لتصديقهم بالآخرة والبعث والجزاء والله أعلم.

وقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ اتَّقَوْا فَوْقَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ﴾ المراد منه - والله أعلم - أن الذين اتقوا في الجنان، والذين كفروا في النيران أو بمعنى آخر، أن الذين اتقوا في الغرفات، والكفار في الدرك الأسفل من النار، والله أعلم.

وقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ يدخل فيه الرزق الحلال الطيب، ويدخل فيه الإيمان بالله ويدخل فيه عموم الرزق، فمع أن الدنيا جميلة ومُزينة في نظر الناظرين إليها لكن لا يعطاها إلا من أرادها الله له، فقد يُعطاها بعض أهل الإيمان أيضًا، وقد يكون الكافر مع كفره وشقائه فقيرًا ذليلًا فيها أيضًا والله أعلم فالله يعطي من يشاء وعطاءه لا يقف عند حد يحده البشر بل هو سبحانه فعال لما يريد والله أعلم.



(اختلاف الناس بعد معرفتهم الحق
فمنهم من يتبعه ومنهم من يعرض عنه)

قال الله عز وجل: ﴿ كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِي مَا اخْتَلَفُوا فِيهِ وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا الَّذِينَ أُوتُوهُ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَاتُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾ (٢١٣).

قوله تعالى: ﴿ كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً ﴾ على التوحيد وذلك ما بين آدم إلى نوح عليهما السلام فسار هؤلاء على التوحيد إلى أن انتشر الشرك في عهد نوح عليه السلام فبعث نوح ﷺ وهو أول رسول إلى أهل الأرض، وهذا رأي الجمهور وأيضاً كلما طال الأمد في البعد عن الرسل والرسالات كلما انتشر الشرك فبعثت الرسل انقسم الناس منهم من يعبد الله عز وجل ويوحده ويتبع المرسلين ومنهم من أبى إلا أن يشرك وثم أقوال أخر.

هذا، وفي الحديث القدسي: «... وإني خلقت عبادي حنفاء كلهم، وإنهم أتتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم وحرّمت عليهم ما أحللت لهم، وأمرتهم أن يشركوا بي ما لم أنزل به سلطاناً....» (١).

وقول النبي ﷺ: «ما من مولود إلا يولد على الفطرة، فأبواه يهودانه، أو

(١) أخرجه مسلم (حديث ٢٨٦٥) من حديث عياض بن حمار المجاشعي أن رسول الله ﷺ قال ذات يوم في خطبته.... فذكره.

ينصرانه أو يُمجسانه..» الحديث (١).

وقوله تعالى: ﴿فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّنَ مُبَشِّرِينَ ﴿﴾ وَمُنذِرِينَ ﴿﴾ وَمَخُوفِينَ ﴿﴾ مِنْ عَصَى النَّارِ ﴿﴾ وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ ﴿﴾ أَي: أنزل مع كل نبي كتاباً متضمناً الحق وفيه الحق، فالكتاب اسم جنس المراد الكتب، والمعنى وأنزل مع كل نبي منهم كتاباً والكتاب إنما يُحَكَّم به، ولكن المعنى ليحكم النبي بالكتاب، ومن العلماء من قال: إن المراد بالكتاب هنا التوراة، ويؤيده قوله تعالى: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِنْ كِتَابِ اللَّهِ وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءً ﴿﴾ [البقرة: ٤٤].

وقوله تعالى: ﴿لِيَحْكُمَ ﴿﴾ أَي: ليحكم كل نبي بالكتاب الذي أنزله الله عليه ﴿بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ ﴿﴾ مِنْ الْمَشَاكِلِ وَالْمَسَائِلِ وَنَحْوِ ذَلِكَ.

قوله: ﴿وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا الَّذِينَ أُوتُوهُ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَ تَهُمُ الْبَيِّنَاتُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ ﴿﴾ المعنى - والله تعالى أعلم - وما اختلف في الحق إلا الذين أوتوا الكتاب من اليهود والنصارى، ولم يكن اختلافهم هذا عن جهل منهم، وإنما كان اختلافهم بعد ما جاءتهم البينات تعدياً من بعضهم على بعض وظلماً من بعضهم لبعض وحسداً من بعضهم لبعض.

وقوله: ﴿فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ ۗ وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿﴾ حاصله أن الله عز وجل وفق أهل الحق والإيمان لوجوه الحق والصواب في المسائل المختلف فيها، التي اختلفت فيها الأمم من قبلنا، وهذه الهداية توفيق من الله عز وجل فهو الذي يوفق من يشاء، ويرشد ويوفق من يشاء إلى طريق الحق والصواب.

هذا، والشيء الذي هدى الله أهل الإيمان إليه أجمع ما قيل فيه ما أخرجه

(١) أخرجه البخاري (حديث ٤٧٧٥) وقال البخاري هناك: والفطرة: الإسلام، ومسلم (حديث ٢٦٥٨) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعاً.

الطبري بإسناد صحيح^(١) عن ابن زيد في قوله: ﴿فَهَدَىٰ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾، للإسلام واختلفوا في الصلاة فمنهم من يصلي إلى المشرق ومنهم من يصلي إلى بيت المقدس فهدانا للقبلة، واختلفوا في الصيام فمنهم من يصوم بعض يوم وبعضهم بعض ليلة، وهدانا الله له، واختلفوا في يوم الجمعة^(٢) فأخذت اليهود السبت وأخذت النصارى الأحد فهدانا الله له، واختلفوا في إبراهيم فقالت اليهود: كان يهوديًا، وقالت النصارى: كان نصرانيًا فبرأه الله من ذلك وجعله حنيفًا مسلمًا وما كان من المشركين للذين يدعون من أهل الشرك، واختلفوا في عيسى فجعلته اليهود لِفِرْيَةٍ وجعلته النصارى ربًّا، فهدانا الله للحق فيه فهذا الذي قال جل ثناؤه: ﴿فَهَدَىٰ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ﴾ [البقرة: ٢١٣].



(١) الطبري أثر (٤٠٦١).

(٢) أخرج البخاري (حديث ٨٧٦)، ومسلم (حديث ٨٥٥) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «نحن الآخرون السابقون يوم القيامة، بيد أنهم أوتوا الكتاب من قبلنا ثم هذا يومهم الذي فرض عليهم فاختلفوا فيه فهدانا الله فالناس لنا فيه تبع: اليهود غداً والنصارى بعد غدٍ».

(التذكير بالابتلاء وأنه سيكون)

قال الله عز وجل: ﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللَّهِ ۚ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ ﴾ (٣١٤)

قال الله تبارك وتعالى: ﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ ﴾ أفظنتم يا أهل الإيمان ﴿ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ ﴾ أن تدخلوا الجنة ولم تصابوا بمثل ما أصيب به من كان قبلكم من الأمم الماضية من أهل الإيمان واتباع الرسل عليهم الصلاة والسلام فقد ﴿ مَسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَاءُ وَزُلْزِلُوا ﴾ أي نزل به الابتلاء بالفقر والجوع الشديدين أحياناً والضر في الأبدان والعلل والأمراض أحياناً وكذا ابتلوا بالعدو فأصابتهم منه شدة وأصابهم منه خوف حتى وصل الأمر بالرسول من الرسل الذين كانوا من قبلكم وبمن معه من أهل الإيمان إلى أن استبطأ الرسول ومن معه النصر فقالوا متى الله ناصرنا؟! ولماذا تأخر نصر الله؟! فهذا قوله: ﴿ حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللَّهِ ﴾ فجاء الجواب مُبَشِّرًا ﴿ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ ﴾ فاستفيد من الآية الكريمة أن أهل الإيمان ينزل بهم في حياتهم بعض البلاء وسيختبروا كما قال تعالى: ﴿ أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ﴾ وكما قال تعالى: ﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجْهِدِينَ مِنْكُمْ وَالصَّادِقِينَ وَنَبْلُوَنَّكُمْ أَخْبَارَكُمْ ﴾ هذا، وقد أصيب أصحاب رسول الله ﷺ بنحوهما أصيب به من كان قبلهم، كما حدث ذلك في الخندق، وقبله في شعب أبي طالب وقد قال تعالى: ﴿ يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ۝٩١ ﴾ إِذْ جَاءَكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ

الْقُلُوبِ الْحَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا ﴿١٠﴾ هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالًا شَدِيدًا ﴿[الأحزاب: ٩-١١].﴾

هذا، ومن الابتلاءات التي ابتلي بها من كانوا قبلنا ما أخرجه البخاري ^(١) في صحيحه من حديث خباب بن الأرت رضي الله عنه قال: شكونا إلى رسول الله ﷺ وهو متوسد بردة له في ظل الكعبة قلنا له: ألا تستنصر لنا، ألا تدعو الله لنا، قال: «كان الرجل فيمن قبلكم يحفر له في الأرض فيجعل فيه فيجاء بالمتشار فيوضع على رأسه فيشق باثنتين وما يصده ذلك عن دينه، ويمشط بأمشاط الحديد ما دون لحمه من عظم أو عصب، وما يصده ذلك عن دينه».

❁ وفي حديث صهيب عن رسول الله ﷺ في قصة أصحاب الأخدود عند مسلم ^(٢) فذكر النبي ﷺ الحديث وفيه... «فأمر ^(٣) بالأخدود في أفواه السكك فخذت وأضرمت النيران، وقال: من لم يرجع عن دينه فأحموه فيها، أو قيل له: اقتحم ففعلوا حتى جاءت امرأة ومعهما صبي لها فتقاعست أن تقع فيها فقال لها الغلام: يا أمه اصبري فإنك على الحق».



(١) أخرجه البخاري (٣٦١٢).

(٢) مسلم (حديث ٣٠٠٥).

(٣) أي: الملك.

(بيان بعض وجوه النفقة)

قال الله تبارك وتعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلْ مَا أَنْفَقْتُ مِنْ خَيْرٍ فَلِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ وَالْيَتَامَى وَالْمَسْكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ﴾ (٢١٥).

حاصل معناه، والله أعلم يسألك أصحابك يا محمد أي شيء ينفقون وعلى من يتصدقون، قل: المال الذي تنفقونه فأنفقوه على الوالدين، والأقربين، واليتامى، والمساكين، وابن السبيل، وما تفعلوا من خير فإن الله يعلمه ويشيكم عليه.

وفي معنى الآية الكريمة بعض الأحاديث منها:

ما أخرجه مسلم في صحيحه من حديث أبي هريرة قال: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مَنْ أَحَقُّ بِحُسْنِ الصُّحْبَةِ قَالَ: «أُمُّكَ ثُمَّ أُمُّكَ ثُمَّ أَبُوكَ ثُمَّ أَدْنَاكَ» (١).
*ومنها قول النبي ﷺ لأبي طلحة لما أراد أن يتصدق ببيرحاء: «أرى أن تجعلها في الأقربين» (٢)؟



(١) أخرجه مسلم (ص ١٩٧٤)، وأخرجه البخاري مختصراً (٥٩٧١).

(٢) أخرجه البخاري (حديث ١٤٦١)، ومسلم (٩٩٨)، من حديث أنس رضي الله عنه مرفوعاً.

(بعض وجوه الخير في القتال في سبيل الله)

قوله تعالى: ﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهُ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ (٣١٦).

اختار الطبري رحمه الله في معناه أنه على كل أحد حتى يقوم به من في قيامه الكفاية، فيسقط فرض ذلك حينئذٍ عن باقي المسلمين، كالصلاة على الجنائز، وغسلهم الموتى ودفنهم، قال: وعلى هذا عامة علماء المسلمين، واحتج له الطبري بالإجماع وبقوله تعالى: ﴿ فَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ دَرَجَةً وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَى ﴾ [النساء: ٩٥] فأخبر جل ثناؤه: أن الفضل للمجاهدين وأن لهم وللقاعدتين الحسنى، ولو كان القاعدون مضيّعين فرضاً لكان لهم السوأى لا الحسنى.

وأفادت الآية الكريمة أن المسلم قد تحدث له أمور يكرهها وقد يتكلف بتكاليف يكرهها، وهي تحمل له كل خير، وفي الباب أدلة أخر على ذلك منها: قوله تعالى: ﴿ إِنْ الَّذِينَ جَاءُوا بِإِلْفِكَ عُصْبَةٌ مِنْكُمْ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَكُمْ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَكُمْ... ﴾ [النور: ١١].

وقوله تعالى في شأن النساء: ﴿ فَإِنْ كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا ﴾ [النساء: ١٩].

هذا، والخيرية في قتال الأعداء من وجوه منها:

١ - ردع العدو عن التفكير في غزو المسلمين، فإن العدو إذا علم أن المسلمين يجنحون إلى الدعة والسكون استولى عليهم، وأنزل بهم بأسه، واستباح نساءهم،

وأموالهم، ودماءهم، وأولادهم.

٢- القتال سبب للأمن، فإذا علم عدوك أنك مقاتله انكف عنك فحدث لك الأمن.

٣- السرور العظيم بالاستيلاء على الأعداء، والفرح بالغنيمة.

٤- الثواب العظيم الذي يحصل للمجاهد يوم القيامة.

٥- الأمن من الفزع الأكبر، واثقاء فتنة القبر.



(القتال في الشهر الحرام)

قال تعالى: ﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَكُفْرٌ بِهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِندَ اللَّهِ وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ وَلَا يَزَالُونَ يَقْتُلُونَكُمْ حَتَّى يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَعُوا وَمَن يَرْتَدِدْ مِنْكُم عَن دِينِهِ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ٢١٧ ﴾ إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَفُورٌ رَّحِيمٌ ٢١٨ ﴾ .

قوله تعالى: ﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَكُفْرٌ بِهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِندَ اللَّهِ وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ ﴾ حاصل معناه يسألك الناس يا رسول الله عن القتال في الشهر الحرام، والمراد بالشهر الحرام هنا الأشهر الحرم عموماً وهي ذو القعدة وذو الحجة والمحرم، ورجب مضر الذي بين جمادى وشعبان، ومحتمل أن يكون السائلون هم المؤمنين، ومحتمل أن يكون السائلون هم الكفار عن القتال في الشهر الحرام هل هو جائز، أو هو محرم، فقل لهم: إن القتال في الشهر الحرام إثم كبير، وذنبه عظيم، ولكن يا معشر قريش كيف تستعظمون علينا. أننا قاتلنا في الشهر الحرام، وما فعلتموه أنتم من الصد عن سبيل الله لمن أراد الإسلام، وما فعلتموه من الكفر بالله، وما فعلتموه من إخراج النبي والمؤمنين من البلد الحرام ، والمسجد الحرام أكبر

جرماً وأعظم إثماً وأقبح ذنباً عند الله من القتال في الشهر الحرام، والله تعالى أعلم.
هذا، وقوله تعالى: ﴿وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ﴾ حاصل معناه وإيذاء الناس حتى ينصرفوا عن دينهم أشد من قتلهم فلو تصورنا شخصية، أحدهما قتل مؤمناً، والآخر فتنه حتى حوَّله إلى الكفر، فأشدهما إثماً وجرماً الذي تسبب في كفره وإخراجه عن دينه، والله أعلم.

هذا، وقد ذهب جمهور العلماء إلى أن النهي عن القتال في الأشهر الحرم منسوخ^(١) فالله أعلم.

وقوله تعالى: ﴿وَلَا يَزَالُونَ يَقْتُلُونَكُمْ حَتَّى يَرُدُّوكُمْ عَنْ دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَعُوا﴾ يبين غرض الكفار من قتال المؤمنين ذلكم الذي قد خفي على كثير من الناس، فغرضهم وقصدهم ردُّ المسلمين عن دينهم، كما قال تعالى: ﴿وَلَا يَزَالُونَ يَقْتُلُونَكُمْ حَتَّى يَرُدُّوكُمْ عَنْ دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَعُوا﴾ [البقرة: ٢١٧].

❀ وكما قال تعالى: ﴿وَلَنْ تَرْضَى عَنْكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَى حَتَّى تَبِيعَ مِلَّتَهُمْ﴾.

[البقرة: ١٢٠]

❀ وكما قال سبحانه: ﴿وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَنْ تَمِيلُوا مَيْلًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٢٧].

وقوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَرْتَدِدْ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ - فِيمَتٌ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُولَٰئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ فيحمل تهديداً ووعيداً لمن سَوَّلَ له نفسه أن يرتد عن الإسلام ويموت على الكفر والعياذ بالله فمصيره إلى النار مخلداً فيها والعياذ بالله ويذهب ثواب عمله الذي عمله في الدنيا والآخرة، أما المراد بحبوط الأعمال في الدنيا فيتمثل في الآتي - والله أعلم :-

❀ أن الأمان يرفع عن المرتد وعن أمواله: فيكون حلال الدم والمال بعد أن كان محقون الدم والمال.

(١) وقد بينت ذلك في كتابي (التسهيل لتأويل التنزيل) فالله أعلم.

✽ أن زوجة المرتد تبين منه، ولا يستحق الميراث من المؤمنين، ولا يرثونه.
 ✽ أن المحبة التي كانت له في قلوب المؤمنين تنزع .
 ✽ أن ما يريدونه بعد الردة من الإضرار بالمؤمنين والكيد لهم لا يتحقق، بل يبطل كيدهم ويخيب سعيهم.
 ✽ أما حبوط الأعمال في الآخرة؛ فهو ذهاب ثواب ما عملوه من أعمال صالحة ، وضياح أجراها والله أعلم.
 هذا، وبعد بيان عاقبة المرتدين، يبينُ حال المؤمنين الصابرين المهاجرين المجاهدين في سبيل الله، أولئك الذين يبتغون بأعمالهم وجه الله سبحانه وتعالى ولا يريدون من أحد جزاءً ولا شكورًا فيقول تعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَولَئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ اللَّهِ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ فلم يعتمدوا فقط على إيمانهم وهجرتهم وجهادهم، بل رجوا رحمة ربهم ﷻ، وهذه الآية كقوله تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا ءَاتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجَلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ ﴾ [المؤمنون: ٦٠]، وكقوله تعالى: ﴿ وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْسُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا ﴾ [٦٣] وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَمًا ﴿٦٤﴾ وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا... ﴾ [الفرقان: ٦٣-٦٥] ، والله أعلم.



(الإجابة على بعض الأسئلة المتعلقة
بالخمر والميسر والنفقة وبعض أمور اليتامى)

قال الله عز وجل: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنْفَعٌ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِمَا وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلِ الْغَفْوُ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١٩﴾ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْيَتَامَى قُلْ إِصْلَاحٌ لَهُمْ خَيْرٌ وَإِنْ تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ الْمُفْسِدَ مِنَ الْمُصْلِحِ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَغْنَيْتَكُمُ إِنَّا اللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٢٠﴾﴾ .

وقوله تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنْفَعٌ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِمَا﴾ إحدى الآيات الواردة في شأن الخمر، فقد نزلت آيات في شأن الخمر قبل آية المائدة القاضية بتحريم الخمر تحريماً قطعياً ومن هذه الآيات ما يلي:

﴿قوله تعالى: ﴿وَمِنْ ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالْأَعْنَابِ نَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَراً وَرِزْقاً حَسَناً﴾ [النحل: ٦٧].

﴿وقوله تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنْفَعٌ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِمَا﴾ [البقرة: ٢١٩].

﴿وقوله تعالى: ﴿يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَقْرُبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَرَىٰ حَتَّىٰ تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ﴾ [النساء: ٤٣].

﴿وقوله تعالى: ﴿يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَمُ رِجْسٌ مِّنْ

عَمِلَ الشَّيْطَانُ فَاجْتَبَاهُ ﴿[المائدة: ٩٠].﴾

وهي أصرح - أعني الآية الأخيرة - هي أصرح آية في تحريم الخمر.
أما الخمر، فقد صح عن عمر رضي الله عنه أنه قال الخمر ما خامر العقل ^(١).
وذهب بعض أهل العلم إلى أن كل شراب أسكر فهو خمر أما الميسر فهو القمار.

وقوله تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ﴾ أي عن حكم ذلك، حكم شرب الخمر والتجارة فيه، وحكم الميسر أيضًا ﴿قُلْ﴾ لهؤلاء السائلين ولغيرهم ﴿فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنْفَعٌ لِلنَّاسِ وَإِنَّهُمَا أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِمَا﴾ وكما بينت فإن الآية كانت قبل نزول آية المائدة القاضية بتحريم الخمر هذا، ومن صور الإثم الموجود في الخمر ابتعاد شاربها عن معرفة ربه ﷻ أثناء شربها ^(٢) وأثناء سُكْرِهِ وتركه فرائض الله ﷻ ووقوعه في محارمه، وارتكاب الفواحش والردائل، ومن ثمَّ يكون عرضة لارتكاب الفواحش والردائل ثم هي سبب للقتل والقتال بين الناس وجلب سخريتهم من شاربها وإيقاع العداوة والبغضاء بينهم كما قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْهَوْنَ﴾ [المائدة: ٩١].

ومن صور الإثم الموجود في الميسر: إيقاع العداوة والبغضاء بين الناس لكون أحد المقامرين يأخذ مال صاحبه بغير حق ويسطو على بيته وعلى امرأته كذلك.

أما منافع الخمر فمنها ما كان يتأتى من ورائها من أرباح في تجارتها، ومن بعض اللذة المتحصلة بسبب شربها.

(١) أخرجه البخاري (٥٥٨٨)، ومعنى خامر العقل أي غطى عليه.

(٢) قال رسول الله ﷺ: «ولا يشرب الخمر حين يشربها وهو مؤمن»، أخرجه البخاري (حديث ٦٧٧٢)، ومسلم (حديث ٥٧)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعًا.

❁ ومن منافع الميسر: كون المال يجلب لبعضهم من غير تعب وأيضًا كانوا أحيانًا يذبحون ما يتقامرون عليه فيأكلون منه ويطعمون ذوي الحاجة منهم أحيانًا، والله أعلم.

هذا، ويستفاد من الآية الكريمة أن الشيء إذا كان ضرره أعظم من منفعه ترك هذا الشيء وإن كانت فيه منفعة والله أعلم.

وقوله تعالى: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ الْعَفْوَ﴾ حاصل معناه أن الصحابة رضي الله عنهم سألوا رسول الله ﷺ عن القدر الذي ينفقون من أموالهم فقال تعالى: ﴿قُلِ الْعَفْوَ﴾ ومن العلماء من قال العفو هو الزائد عن الحاجة، وقال آخرون إنه الوسط الذي لا يُجهد الشخص لا يرهقه، وقال آخرون العفو هو ما تيسر.

وهذا السؤال كان عن صدقة التطوع كما ذهب إليه جمهور العلماء.

وقد ذهب بعض العلماء خاصة من الذين ذهبوا إلى أن العفو هو الزائد عن الحاجة وأيضًا الذين ذهبوا إلى أن المراد السؤال عن النفقة عمومًا، ذهبوا إلى أن الآية منسوخة بما ورد في الزكوات المفروضة.

❁ وقال آخرون: إنها ليست بمنسوخة ووجهوا العفو بالتوجيهات المذكورة والله أعلم.

وقوله تعالى: ﴿كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ﴾ (٢١٩) في الدنيا والآخرة.

المعنى والله أعلم، وكما بينا لكم أحكام دينكم، فقد بينا لكم أيضًا أحكام المسائل التي سألتكم عنها كالخمر والميسر وبيننا لكم أيضًا وجوه الإنفاق، بينا لكم كل ذلك لعلكم تتفكرون في الصالح لكم في دنياكم فتفعلوه وتتفكرون فيما يكون سببًا في سعادتكم في الآخرة فتفعلوه وما فيه ضررٌ عليكم فتجتنبوه، والله تعالى أعلم.

وقوله تعالى: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْيَتَامَى﴾ أي ويسألونك عن أموال اليتامى

والتصرف فيها كيف يكون ﴿قُلْ﴾ لهؤلاء السائلين عن اليتامى ولغيرهم ممن جاء بعدهم يسأل نفس سؤالهم ﴿إِصْلَاحٌ لَهُمْ خَيْرٌ﴾ ومعناه، والله أعلم أن فعل ما يُصلح اليتامى ويُصلح أموالهم وسائر شئونهم خيرٌ من اعتزالهم، فالتدخل مع اليتامى وتفقد أحوالهم وتأديبهم وتقويمهم وإحسان تربيتهم حتى ينشئوا على علمٍ وفضل وأدبٍ وخلق حسن، أولى من تضييعهم واعتزالهم.

وكذلك الحرص على أموالهم وتثميرها والنظر إلى الصالح في شأنها أولى من تركها عرضة للتلف والضياع، وأولى من تركها تذهب بها الصدقات، والله تعالى أعلم.

ولهذه الآية ﴿قُلْ إِصْلَاحٌ لَهُمْ خَيْرٌ﴾ جَوَّز العلماء التجارة في مال اليتيم.

قال القرطبي رَحِمَهُ اللَّهُ: تواترت الآثار في دفع مال اليتيم مضاربةً والتجارة فيه، وفي جواز خلط ماله بماله دلالة على جواز التصرف في ماله بالبيع والشراء إذا وافق الصلاح، وجواز دفعه مضاربة إلى غير ذلك... والله تعالى أعلم.

وقوله تعالى: ﴿وَإِنْ تَخَالَطُوهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ﴾ حاصله إذا خالطتم الأيتام فخالطوهم وتعاملوا معهم بمقتضى الأخوة الإيمانية التي تستلزم الإصلاح والنصح، وسواء كانت هذه المخالطة في الطعام والشراب والمسكن والخدم أو كانت المخالطة بالمشاركة في التجارة بأموالهم، أو كانت المخالطة بالزواج والمصاهرة أو غير ذلك، ففي هذا كله تعاملوا معهم بمقتضى الأخوة الإيمانية، والله تعالى أعلم.

أما قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ الْمُفْسِدَ مِنَ الْمُصْلِحِ﴾ ففيه تحذير القائمين على الأيتام من إفساد أموال الأيتام وإفساد أحوالهم، والحث على إصلاح الأيتام والقيام على أموالهم بما يرضي الله ﷻ.

هذا، وكان عددٌ من أهل العلم إذا سئلوا عن أمور الأيتام يستدلون بقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ الْمُفْسِدَ مِنَ الْمُصْلِحِ﴾ فهي آية جامعة وفيه الجواب السديد والطريق

الأمثل الأرشد للتعاملات مع الأيتام.

هذا، وقوله تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَعْنَتَكُمْ﴾ معناه والله أعلم، ولو شاء الله ما أباح لكم الذي أباحه في شأن الأيتام، ومن ثم ستقعون في المشقة التي هي العنت، ولو تجاوزتم حدود الله لعذبتم ﴿إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ﴾ غالبٌ ﴿حَكِيمٌ﴾ فيما يشرع لكم من الشرائع وحكيم في كل شيء.

هذا، ولقوله تعالى: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْيَتَامَى﴾ سبب نزول أخرجه أبو داود والنسائي والطبري^(١)، وغيرهم من طرق عن عطاء بن السائب عن سعيد بن جبير عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: لما أنزل الله ﷻ ﴿وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ [الإسراء: ٣٤]، و﴿إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْمًا﴾ الآية [النساء: ١٠١]، انطلق من كان عنده يتيم فعزل طعامه من طعامه وشرابه من شرابه فجعل يفضل من طعامه فيحبس له حتى يأكله أو يفسد فاشتد ذلك عليهم فذكروا ذلك لرسول الله ﷺ فأنزل الله ﷻ: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْيَتَامَى قُلْ إِصْلَاحٌ لَهُمْ خَيْرٌ وَإِنْ تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ﴾ [البقرة: ٢٢٠]، فخلطوا طعامهم بطعامه وشرابهم بشرابه.



(١) أخرجه أبو داود (٢٨٧١)، والنسائي (٢٥٦/٦)، والطبري (٤١٨٢، ٤١٨٣ و ٤١٨٩) وغيرهم، وفي إسناده عطاء بن السائب مختلط، لكن أورد له الطبري طرقاً أخرى، وإن كانت لا تخلو من مقال إلا أنها تصلح لتقويته، والله تعالى أعلم.

(النهي عن الزواج بمشركات والنهي عن تزويج المشركين)

قال الله عز وجل: ﴿وَلَا تَنْكِحُوا الْمُشْرِكَ حَتَّى يُؤْمِنَ وَلَأَمَةٌ مُؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِّنْ مُّشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ وَلَا تُنْكِحُوا الْمُشْرِكِينَ حَتَّى يُؤْمِنُوا وَلَعَبْدٌ مُّؤْمِنٌ خَيْرٌ مِّنْ مُّشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ أُولَئِكَ يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ وَاللَّهُ يَدْعُوا إِلَى الْجَنَّةِ وَالْمَغْفِرَةِ بِإِذْنِهِ وَيُبَيِّنُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٣٢١﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَنْكِحُوا الْمُشْرِكَ حَتَّى يُؤْمِنَ﴾ فيها تحريم الزواج بامرأة مشركة، فلا يحل لرجل مسلم أن يتزوج امرأة مشركة ويؤيده أيضاً قوله تعالى: ﴿وَلَا تُنْكِحُوا بِعِصَمِ الْكَافِرِ﴾ إلا أن الكتابية (اليهودية والنصرانية) قد استثنت من المشركات فأباح الله للمسلم أن يتزوج الكتابية (اليهودية أو النصرانية) إذا كانت عفيفة، قال تعالى: ﴿أَلْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حِلٌّ لَّكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَهُمْ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أَجُورَهُنَّ﴾.

أما قوله تعالى: ﴿وَلَأَمَةٌ مُّؤْمِنَةٌ﴾ أي ولأمة مملوكة من الإماء (إناث العبيد) ﴿خَيْرٌ مِّنْ مُّشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ﴾ أي خيرٌ من حرة مشركة ولو أعجبتكم الحرة المشركة، فالمشركة وإن كانت حرة جميلة فزواج الأمة السوداء المؤمنة خير من الزواج بالحرّة المشركة.

وقوله تعالى: ﴿وَلَا تُنْكِحُوا الْمُشْرِكَ حَتَّى يُؤْمِنُوا﴾ أي لا تزوجوا يا أهل الإسلام رجلاً مشركاً امرأة من نسائكم حتى يؤمن هذا المشرك، ولقد قال تعالى: ﴿فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَاتٍ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى الْكُفَّارِ لَأَهُنَّ حِلٌّ لَّهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ﴾.

وفي الآية إثبات الولاية في النكاح وذلك من قوله: ﴿وَلَا تُنكِحُوا الْمُشْرِكِينَ﴾ .
 أما قوله تعالى: ﴿وَلَعَبْدٌ مُّؤْمِنٌ خَيْرٌ مِّنْ مُّشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ﴾ أي ولعبد مؤمن
 أسود خير من حرّ مشرك ولو أعجبكم هذا المشرك، ولو كان جميلاً وضيئاً وسيماً
 ﴿أُولَئِكَ﴾ المشركون والمشركات ﴿يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ﴾ يدعوننا للعمل بما يُدخلنا
 النار ويوجبها لنا، وذلك بالكفر بالله ورسوله، فالزوجة مظنة الألفة والمحبة
 والمودة، وذلك يؤدي إلى تلبية المُحب طلب حبيبه، وربما يؤدي ذلك إلى الانتقال
 عن دين الإسلام لموافقة الزوجة المشركة، أو الزوج المشرك عياداً بالله.
 وقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى الْجَنَّةِ وَالْمَغْفِرَةِ بِإِذْنِهِ﴾ أي يدعو إلى الطريق
 الصحيح الموصل لجنته ورضائه ويدل عليه ويدعو إلى ما يجلب لكم المغفرة
 ببيانه الذي يبينه لكم وبتيسيره وتوفيقه وأمره.
 وقوله: ﴿وَيَبَيِّنُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ أي ويوضح آياته التي فيها أحكام
 دينه للناس، وكذلك يبين لهم وجوه انتفاعهم ووجوه الضرر التي قد تلحق بهم
 لعلهم يتعظون ويعتبرون والله أعلم.



(بعض أحكام المعاشرة الزوجية)

قال الله عز وجل: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذَى فَأَعْتَزِلُوا
النِّسَاءَ فِي الْمَحِيضِ وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّى يَطْهُرْنَ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ
مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ ﴿٢٢٢﴾
نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَكُمْ فَأَتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّى شِئْتُمْ وَقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ
وَأَعْلَمُوا أَنَّكُمْ مُلْقَوُهُ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٢٣﴾﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ﴾ أي ويسألونك عن جماع النساء زمن
الحيض، في مدة الحيض ﴿قُلْ هُوَ أَذَى﴾ أي في جماعهن في هذا التوقيت أذى
﴿فَاعْتَزِلُوا النِّسَاءَ فِي الْمَحِيضِ﴾ اعتزلوا جماعهن زمن الحيضة وهذا القول الأول
في المراد باعتزال النساء في المحيض ألا وهو أن المراد من اعتزال النساء في
المحيض هو اعتزال النكاح في الفرج فقط فعلى هذا القول يجوز للرجل أن يؤاكل
زوجته الحائض ويشاربها ويساكنها في البيت ويضمها إليه ويقبلها ويمص شفيتها
ولسانها ويطأها في بطنها وبين ثدييها وبين فخذيها (ما لم يولج في الفرج) وبين
أليتيها (ما لم يولج في الدبر)، يصنع كل شيء إلا الجماع، وكذا إلا الوطء في
الدبر.

وأدلة هذا القول ما يلي:

- ١ - قول النبي ﷺ: «اصنعوا كل شيء إلا النكاح»^(١).
- ٢ - حديث بعض أزواج النبي ﷺ أن النبي ﷺ كان إذا أراد من الحائض شيئاً

(١) أخرجه مسلم حديث (٣٠٢)، من حديث أنس رضي الله عنه مرفوعاً.

ألقى على فرجها شيئاً^(١) .

٣ - ما أخرجه ابن جرير بسند صحيح إلى مسروق أنه ركب إلى عائشة فقال: السلام على النبي وعلى أهل بيته فقالت عائشة: أبو عائشة؟! مرحباً! فأذنوا له فدخل فقال: إني أريد أن أسألك عن شيء وأنا أستحيي! فقالت: إنما أنا أمك وأنت ابني فقال: ما للرجل من امرأته وهي حائض؟ قالت: له كل شيء إلا فرجها^(٢) .

ومن المعلوم أن عائشة من أعلم الناس بذلك، لأنها زوجة رسول الله ﷺ وقد ذهب إلى هذا أكثر أهل العلم منهم الثوري وأحمد وإسحاق ومحمد بن الحسن ورجحه الطحاوي والنووي وهو أحد القولين للشافعية.

❖ **القول الثاني:** أن المراد من اعتزال النساء في المحيض اعتزال ما بين السرة إلى الركبة أو ما تحت الإزار، فعلى هذا القول يجوز للرجل مباشرة زوجته فيما فوق السرة وتحت الركبة بالذكر أو بالقبلة أو المعانقة أو اللمس أو غير ذلك. ومن أدله هذا القول ما أخرجه البخاري ومسلم من حديث ميمونة رضي الله عنها قالت: كان رسول الله ﷺ إذا أراد أن يباشر امرأة من نسائه أمرها فاتزرت وهي حائض^(٣) .

٢ - ومن الأدلة على ذلك أيضاً حديث عائشة الذي أخرجه البخاري وفيه: كنت أغتسل أنا والنبي ﷺ من إناء واحد كلانا جنب وكان يأمرني فأترز فيباشرني وأنا حائض^(٤) .

٣ - وأخرج أبو داود رحمته الله من حديث حرام بن حكيم عن عمه أنه سأل رسول الله ﷺ ما يحل لي من امرأتي وهي حائض؟ قال: «لك ما فوق الإزار»^(٥) .

(١) أخرجه أبو داود (حديث ٢٧٢) بإسناد صحيح.

(٢) الطبري (٤/٣٧٨).

(٣) أخرجه البخاري حديث (٣٠٣)، ومسلم (حديث ٢٩٤).

(٤) أخرجه البخاري (حديث ٢٩٩).

(٥) أخرجه أبو داود (حديث ٢١٢)، من حديث حرام بن حكيم عن عمه أنه سأل رسول الله ﷺ...

ومن القائلين بهذا القول من أهل العلم عائشة (في رواية عنها) وميمونة وابن عباس رضي الله عنهم.

هذا ووجه الجمع بين القولين المتقدمين، ألا وهما القول الأول: الذي يفيد أن للرجل من زوجته الحائض كل شيء إلا الجماع في الفرج، والقول الثاني: الذي يفيد أن له منها ما فوق الإزار.

تمة بأن يقال : إن ترك ما بين السرة والركبة على سبيل الاحتياط لا على سبيل التحريم فمن الأحوط أن يترك حمى حول الفرج لا يقربه فمن حام حول الحمى يوشك أن يواقع.

قال القرطبي رحمه الله: قال العلماء: مباشرة الحائض وهي متزرة على الاحتياط والقطع للذريعة، ولأنه لو أباح فخذيتها كان ذلك منه ذريعة إلى موضع الدم المحرم بإجماع فأمر بذلك احتياطاً، والمحرم نفسه موضع الدم فتتفق بذلك معاني الآثار ولا تضاد، وبالله التوفيق.

وقال النووي رحمه الله: إن كان المباشر يضبط نفسه عن الفرج ويشق من نفسه باجتنابه إما لضعف شهوته وإما لشدة ورعه جاز وإلا فلا.

هذا، وللآية سبب نزول أخرجه مسلم ^(١) من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه أن اليهود كانوا إذا حاضت المرأة فيهم لم يؤاكلوها ولم يجامعوهن في البيوت فسأل أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم النبي فأنزل الله تعالى: ﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذَىٰ فَاعْتَزِلُوا النِّسَاءَ فِي الْمَحِيضِ ﴾ [البقرة: ٢٢٢]، إلى آخر الآية، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «اصنعوا كل شيء إلا النكاح» فبلغ ذلك اليهود فقالوا: ما يريد هذا الرجل أن يدع من أمرنا شيئاً إلا خالفنا فيه فجاء أسيد بن حضير وعباد بن بشر فقالا: يا رسول الله إن اليهود تقول: كذا وكذا فلا نجامعهن؟ فتغير وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى ظننا أن قد وجد ^(٢) عليهما فخرجا فاستقبلهما هدية من لبن إلى النبي صلى الله عليه وسلم فأرسل في آثارهما فسقاها فعرفا أن لم يجد عليهما.

(١) مسلم (٣٠٢).

(٢) وجد عليهما أي: غضب عليهما.

وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْرُبُوهُنَّ﴾ أي بجماع ﴿حَتَّى يَطْهَرْنَ﴾ حتى يرين الطهر ﴿فَإِذَا تَطَهَّرْنَ﴾ أي فإذا اغتسلن ﴿فَأَتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ﴾ أي فجامعوهن من حيث شرع الله لكم إتيانهن، وهو الإتيان في القبل (الفرج).

وعليه فلا يجوز للرجل: أن يطاء زوجته إذا رأت الطهر حتى تغتسل، وهذا هو رأي جمهور العلماء، وقد سئل سالم بن عبد الله وسليمان بن يسار عن الحائض هل يصيبها زوجها إذا رأت الطهر قبل أن تغتسل؟ فقالا: لا، حتى تغتسل وكذلك سئل عطاء عن الحائض ترى الطهر ولا تغتسل أتحل لزوجها؟ قال: لا، حتى تغتسل.

ويجوز للمرأة أن تتيمم إذا لم تجد الماء للطهر من المحيض ويأتيها زوجها لقوله تعالى: ﴿فَلَمْ يَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا﴾ [البائدة: ٦]، وقد قال بذلك عدد كبير من أهل العلم فقال عطاء: إذا طهرت الحائض فلم تجد ماءً تتيمم ويأتيها زوجها.

وقال الحسن: إن كانت المرأة حائضاً فرأت الطهر في سفر تتيمم، الصعيد يطهرها.

وقوله تعالى: ﴿فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأَتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ﴾ الأمر فيه للإباحة، وليس للوجوب وهو كقوله تعالى: ﴿وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَاصْطَادُوا﴾ [البائدة: ٢]، أي: إذا حللتكم من إحرامكم فقد أبيح لكم الصيد الذي كان محرماً عليكم حال الإحرام، وكقوله تعالى: ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ﴾ [الجمعة: ١٠]، أي: قد أبيح لكم الانتشار الذي نهيتكم عنه في قوله تعالى: ﴿إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ﴾ [الجمعة: ٩]، والله أعلم.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ﴾ المستغفرين من الذنوب الرجاعين إلى الله عز وجل ﴿وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ﴾ بالماء للصلوات والمتوضئين والمغتسلين فالآية فيها حث على النظافة ظاهراً وباطناً، والله أعلم.

وقوله تعالى: ﴿نَسَاؤُكُمْ حَرْثُ لَكُمْ فَأْتُوا حَرْثَكُمْ أَنْتُمْ شَتْمٌ﴾ معناه والله أعلم — نساؤكم مزدراع لكم ومنبت للولد ففرج المرأة كالمزرعة، والنطفة كالبذر، والولد

كالنبات الخارج من المزرعة ، والحرث مصدر ، والله تعالى أعلم .
وقوله : ﴿ أَنَّى شِئْتُمْ ﴾ أي من أي وجه شئتم ما دمت تأتي الحرث ، والحرث موطن الزرع وهو الفرج ، فالمعنى اتتها من الأمام في الفرج أو من الخلف في الفرج أو على جنب في الفرج ، والله تعالى أعلم .

وقوله تعالى : ﴿ وَقَدِّمُوا لِأَنفُسِكُمْ ﴾ قال بعض أهل العلم في معناه قدّموا لأنفسكم أعمالاً صالحةً وصنوفاً من البر والخير والإحسان كي تجدوا ثواب ذلك عند الله كما قال تعالى : ﴿ وَمَا تَقْدِمُوا لِأَنفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ هُوَ خَيْرٌ وَأَعْظَمَ أَجْرًا ﴾ [المزمل: ٢٠] .

❖ **ومن العلماء من قال:** قدموا التسمية عند الجماع .

❖ **ومنهم من قال:** قدموا لأنفسكم المراد اطلبوا الولد الصالح بالجماع ، والله أعلم .

وقوله تعالى : ﴿ وَاتَّقُوا اللَّهَ ﴾ اجعلوا بينكم وبين غضب الله وعقابه وقاية ﴿ وَأَعْلَمُوا أَنَكُمْ مُلْكُوهُ ﴾ موقوفون بين يديه يوم القيامة ﴿ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ بجنات النعيم وبرضوان الله عليهم .

هذا ، وللآية الكريمة سبب نزول أخرجه البخاري ومسلم ^(١) من حديث جابر ابن عبد الله رضي الله عنه قال : كانت اليهود تقول : إذا أتى الرجل امرأته من دبرها في قبلها كان الولد أحول ، فنزلت : ﴿ نِسَاءُكُمْ حَرَّتْ لَكُمْ فَأَتُوا حَرَّتْكُمْ أَنَّى شِئْتُمْ ﴾ [البقرة: ٢٢٣] .

❖ **وأخرج البخاري ^(٢) بإسناده إلى نافع قال:** كان ابن عمر رضي الله عنهما إذا قرأ القرآن لم يتكلم حتى يفرغ منه فأخذت عليه يوماً فقرأ سورة البقرة حتى انتهى إلى مكان قال : تدري فيم أنزلت ؟ قلت : لا ، قال : أنزلت في كذا وكذا ثم مضى .

❖ **وأخرج الطبري بإسناد صحيح إلى نافع قال:** كان ابن عمر إذا قرأ القرآن لم يتكلم ، قال : فقرأت ذات يوم هذه الآية : ﴿ نِسَاءُكُمْ حَرَّتْ لَكُمْ فَأَتُوا حَرَّتْكُمْ أَنَّى شِئْتُمْ ﴾ [البقرة: ٢٢٣] ، فقال : أتدري فيمن نزلت الآية ؟ قلت : لا ، قال : نزلت في إتيان النساء

(١) أخرجه البخاري حديث (٤٥٢٨) ، ومسلم (حديث ١٤٣٥) .

(٢) أخرجه البخاري (٤٥٢٦) .

في أدبارهن.

هذا، وقد ذهب جمهور أهل العلم من الصحابة والتابعين فمن بعدهم إلى تحريم ذلك، واحتج فريق منهم بقوله تعالى: ﴿نَسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ﴾ [البقرة: ٢٢٣]، قالوا: والحرث هو موطن الزرع، واحتجوا أيضًا بالأحاديث الواردة عن رسول الله ﷺ في النهي عن إتيان النساء في أدبارهن، وهي وإن كان في كل منها مقال إلا أنها ترتقي بمجموعها للاحتجاج بها، وعمل أكثر أهل العلم عليها.

بينما ذهب ابن عمر رضي الله عنهما إلى جواز ذلك، وما عليه جمهور الصحابة أولى لما قدمناه ^(١)، والله تعالى أعلم.

هذا، وليس في الآية الكريمة جواز النكاح في الدبر بل الدليل على المنع فيها أقرب، وذلك لقوله تعالى: ﴿فَأَتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّى شِئْتُمْ﴾ [البقرة: ٢٢٣]، والحرث هو موطن الزرع، وقد قدمنا أن الفرج بمنزلة المزرعة، والنطفة (أي المنى) بمنزلة البذرة تُبذر فيه، والبذرة إنما تبذر في موطن تُنبت فيه، فالذي يأتي أهله في دبرها لا يأتي حرثه أصلاً.

فإن قال قائل: فهل تحرمون على الرجل أن يأتي المرأة بين فخذيها؟

فالإجابة: أننا لا نحرم ذلك ولا يسمى هذا إتيان، ولا دليل يمنع منه، وليس هو بضار على المرأة أو على الرجل، وليس فيه أذى على العكس من الإتيان في الدبر، وقد أشرنا إلى ما فيه من الأدلة، والله تعالى أعلم.



(١) أما ما رواه ابن عمر من أن الآية نزلت في إتيان النساء في أدبارهن فهذا فهمهم ابن عمر رضي الله عنهما، وخالفه غيره، فقد روى جابر كما قدمنا أن اليهود كانت تقول: إن الرجل إذا جامع امرأته من دبرها في قبلها جاء الولد أحول، فنزلت الآية لإباحة ذلك (أي: إباحة إتيان المرأة من دبرها في قبلها)، والله أعلم.

(بعض أحكام الأيمان)

قال الله عز وجل: ﴿وَلَا تَجْعَلُوا اللَّهَ عُرْضَةً لِأَيْمَانِكُمْ أَنْ تَبَرُّوا وَتَتَّقُوا وَتُصْلِحُوا بَيْنَ النَّاسِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ (٢٢٤) لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾ (٢٢٥).

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَجْعَلُوا اللَّهَ عُرْضَةً لِأَيْمَانِكُمْ أَنْ تَبَرُّوا وَتَتَّقُوا وَتُصْلِحُوا بَيْنَ النَّاسِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾.

*المعنى إجمالاً لا تتعللوا بالأيمان التي حلفتموها للامتناع عن أعمال البر والتقوى والإصلاح فإذا قال لكم قائل صلوا أرحامكم تعللتم بقولكم لا نصل لأننا حلفنا أن لا نصل الأرحام، وإذا قال لكم قائل اتركوا فعل هذا الشيء فهو خطأ أو حرام قلتم لا نتركه لأننا حلفنا أن لا نتركه وإذا قال لكم قائل أصلحوا بين الناس تعللتم وقلتم لا نصلح لأننا حلفنا ولكن في كل ذلك كفرؤا عن أيمانكم وافعلوا الخير وبشيء من التفصيل أقول وبالله التوفيق:

معنى العُرْضة في كلام العرب: القوة والشدة^(١)، فالمعنى: لا تجعلوا (وهنا مقدر محذوف أراه والله أعلم خوف) الله مقويًا لأيمانكم التي أقسمتموها على ألا تفعلوا الخير (الذي هو البر والتقوى والإصلاح بين الناس).

فالمعنى بأسلوب آخر: لا تجعلوا خوف الله مقويًا لأيمانكم التي أقسمتموها كي لا تفعلوا الخير، فإذا قال لكم قائل: برؤوا واتقوا وأصلحوا بين الناس قلتم: لا

(١) قال ذلك الطبري رحمه الله.

إننا نخاف الله إننا قد حلفنا بالله ألا نفعل، فنهاهم الله عن هذا.

وها هي بعض أقوال العلماء تؤدي هذا المعنى:

❖ **قال الطبري رَحِمَهُ اللهُ:** فمعنى قوله تعالى ذكره: ﴿وَلَا تَجْعَلُوا اللَّهَ عُرْضَةً لِأَيْمَانِكُمْ﴾ [البقرة: ٢٢٤]، لا تجعلوا الله قوة لأيمانكم في ألا تبروا ولا تتقوا ولا تصلحوا بين الناس، ولكن إذا حلف أحدكم فرأى الذي هو خير مما حلف عليه من ترك البر والإصلاح بين الناس فليحث في يمينه وليبر وليتق الله وليصلح بين الناس وليكفر عن يمينه.

❖ **وصح عن سعيد بن جبير^(١):** أنه قال: ﴿وَلَا تَجْعَلُوا اللَّهَ عُرْضَةً لِأَيْمَانِكُمْ﴾ [البقرة: ٢٢٤]، قال: هو الرجل يحلف لا يصلح بين الناس ولا يبر، فإذا قيل له قال: قد حلفت.

❖ **ونقل ابن كثير رَحِمَهُ اللهُ عن الجمهور أن معنى الآية:** لا تجعلن عرضة ليمينك ألا تصنع الخير، ولكن كفر عن يمينك واصنع الخير.

❖ **وقال القرطبي رَحِمَهُ اللهُ:** قال العلماء: لما أمر الله تعالى بالإيفاء وصحبة الأيتام والنساء بجميل المعاشرة قال: لا تمتنعوا عن شيء من المكارم تعللاً بأننا حلفنا ألا نفعل كذا.

قلت (مصطفى): والآية كقوله تعالى: ﴿وَلَا يَأْتَلِ أُولُوا الْفَضْلِ مِنْكُمْ وَالسَّعَةِ أَنْ يُؤْتُوا أُولِي الْقُرْبَى وَالْمَسْكِينِ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا﴾ [النور: ٢٢]، والله أعلم.

هذا، وقد ورد عن رسول الله ﷺ أنه قال: «وإني والله - إن شاء الله - لا أحلف على يمين فأرى غيرها خيراً منها إلا كفرت عن يميني وأتيت الذي هو خير أو أتيت الذي هو خير وكفرت عن يميني»^(٢).

(١) الطبري (٤٣٥٥).

(٢) أخرجه البخاري (٦٦٢٣)، ومسلم (١٦٤٩).

أخرج مسلم ^(١) : من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «من حلف على يمين فرأى غيرها خيراً منها فليكفر عن يمينه وليفعل». وقال النبي ﷺ ^(٢) : «وإذا حلفت على يمين فرأيت غيرها خيراً منها فكفر عن يمينك واث الذي هو خير».

وأخرج مسلم ^(٣) من حديث عدي رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ : «إذا حلف أحدكم على اليمين فرأى خيراً منها فليكفرها وليأت الذي هو خير». قوله تعالى: ﴿لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ﴾ معناه، والله أعلم لا يعاقبكم الله عز وجل على اللغو في أيمانكم ولا يلزمكم فيها بكفارة ﴿وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ﴾ أي ولكن يلزمكم بما تعمدته قلوبكم من الأيمان ويلزمكم في ذلك بالكفارة كما قال تعالى: ﴿وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا عَقَّدْتُمُ الْأَيْمَانَ فَكَفَرْتُمْهُ إِطْعَامَ عَشْرَةِ مَسْكِينٍ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعَمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ ذَلِكَ كَفَرَةُ أَيْمَانِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ﴾.

أما قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ عَفُورٌ حَلِيمٌ﴾ غفورٌ للآثام التي ارتكبتموها بالحلف بالله إذا أنتم كفرتم عنها إذا كانت متعمدة غفور للآثام التي ارتكبتموها بلغو اليمين وإن لم تكفروا عنها.

وقوله تعالى: ﴿حَلِيمٌ﴾ لا يعاجل بالعقوبة بل لمهل لعل تائباً أن يتوب ومُنِيباً أن يُنِيبَ وأقول وبالله التوفيق.

تنقسم الأيمان بالله تعالى إلى ثلاثة أقسام:

١ - اليمين اللغو.

٢ - اليمين الغموس.

(١) أخرجه مسلم (حديث ١٦٥٠).

(٢) أخرجه البخاري (حديث ٦٦٢٢)، ومسلم (حديث ١٦٥٢).

(٣) أخرجه مسلم (حديث ١٦٥١).

٣- اليمين المنعقدة.

أما اليمين اللغو، فأصح ما ورد فيها عن الصحابة رضي الله عنهم ما أخرجه البخاري ^(١) من حديث عائشة رضي الله عنها: ﴿لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ﴾ [البقرة: ٢٢٥]، قالت: أنزلت في قوله: لا والله وبلى والله.

✽ وكذلك صح عن الشعبي ^(٢) أنه قال: في قوله تعالى: ﴿لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ﴾ [البقرة: ٢٢٥]، هو لا والله، وبلى والله.

وكذلك صح نحوه عن أبي قلابة وأبي صالح وعكرمة ^(٣).

✽ ومن أهل العلم من قال: إن المراد باللغو اليمين الخطأ غير العمد هذا وقد ذهب جمهور أهل العلم إلى أن اليمين الغموس لا كفارة عليها أن تحلف على الشيء وأنت ترى أنه كما حلفت عليه ثم لا يكون كذلك فهذا لا كفارة عليه ولا مأثم فيه ^(٤).

✽ وصح عن إبراهيم النخعي أنه قال: ﴿لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ﴾ [البقرة: ٢٢٥]، قال: أن يحلف الرجل على الشيء وهو يرى أنه صادق وهو كاذب فذلك اللغو لا يؤاخذ به ^(٥).

وتم أقوال آخر في لغو اليمين، وأقواها ما ذكرناه أولاً، والله أعلم.

(١) أخرجه البخاري (حديث ٦٦٦٣).

وفي رواية بإسناد صحيح عن عائشة عند عبد الرزاق: هم القوم يتدارءون في الأمر يقول هذا (لا والله)، و(بلى والله)، و(كلا والله)، يتدارءون في الأمر لا يعقد عليه قلوبهم (المصنف: ١٥٩٥٢). وكذلك أخرج الطبري (أثر ٤٤٥٧)، بإسناد صحيح عن عائشة قالت (أيمان اللغو ما كان في الهزل والمراء والخصومة، والحديث الذي لا يعتمد عليه القلب).

(٢) الطبري أثر (٤٣٨٥ و ٤٣٨٦ و ٤٣٨٧).

(٣) أثر أبي قلابة (عند الطبري ٤٣٨٩)، وأثر عكرمة (عند الطبري ٤٣٩٢)، وأثر أبي صالح (عند الطبري ٤٣٨٩).

(٤) أخرجه الطبري (٤٤٢٣) بإسناد حسن عن قتادة.

(٥) الطبري (أثر ٤٤١٥).

❁ **أما اليمين الغموس:** فهي اليمين الكاذبة، ومن العلماء من قيدها بأنها لاقتطاع مال امرئ مسلم أي: يقسم الرجل كاذبًا كي يقطع يمينه مال امرئ مسلم.

❁ **أما اليمين المنعقدة:** فهي اليمين التي ينعقد عليها القلب ولها شروط:

أولها: أن ينعقد عليها القلب ويقصد إليها.

الثاني: أن يكون حالفها غير مكره بل يكون مختارًا.

الثالث: أن تكون مستقبلية، أي: على شيء في المستقبل.

الرابع: ألا يكون القسم بمخلوق، بل يكون بالله أو بأسمائه أو بصفاته ، والله تعالى أعلم.

(بعض التفصيل في المؤاخذه بأعمال القلوب)

هذا، وقد أفادت الآية الكريمة أن أعمال القلوب التي انعقد عليها العزم يؤاخذ عليها العبد وبشيء من التفصيل أقول، وبالله التوفيق: من أعمال القلوب أعمال لا يؤاخذ عليها الشخص ، وذلك كحديث النفس أو الوسوس التي ترد على القلب، وذلك كما في حديث رسول الله ﷺ: «إن الله تجاوز لي عن أمتي ما وسوس به صدورها ما لم تعمل أو تكلم»^(١).

❁ ومن أعمال القلوب أعمال يؤاخذ عليها الشخص وأعمال يثاب عليها الشخص وهي الأعمال التي ينعقد عليها القلب.

فمن ذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ﴾ [الحجرات: ١٢].

وقول الله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ ءَامَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [النور: ١٩].

❁ وقوله تعالى: ﴿وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ﴾ [البقرة: ٢٢٥].

(١) أخرجه البخاري (٢٥٢٨)، ومسلم (١٢٧)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعًا.

✽ وقول النبي ﷺ: «إذا التقى المسلمان بسيفيهما فالقاتل والمقتول في النار...» الحديث وفيه: «إنه كان حريصاً على قتل صاحبه»^(١).
✽ ومن ذلك أن الحاسد آثم.

✽ ومن ذلك قول النبي ﷺ: «إن بالمدينة لرجالاً ما سرتهم مسيراً ولا قطعتم وادياً إلا كانوا معكم» قالوا يا رسول الله: وهم بالمدينة؟ قال: «وهم بالمدينة، حبسهم العذر» وفي رواية: «إلا شركوكم في الأجر»^(٢).

✽ ومن ذلك قول النبي ﷺ: «المرء مع من أحب»^(٣).
✽ ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يُرِدْ فِيهِ بِالْحَافِ يُظْلَمِ نَفْسُهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الحج: ٢٥].



(١) أخرجه البخاري (٧٠٨٣)، ومسلم (٢٨٨٨) من حديث أبي بكرة رضي الله عنه مرفوعاً.

(٢) أخرجه البخاري (٤٤٢٣)، ومسلم (١٩١١) من حديث أنس رضي الله عنه مرفوعاً.

(٣) أخرجه البخاري (حديث ٦١٦٨)، ومسلم (٢٦٤٠)، من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه مرفوعاً.

(حكم الإيلاء)

قال الله عز وجل: ﴿لِلَّذِينَ يُؤْلُونَ مِن نِّسَائِهِمْ تَرَبُّصُ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ فَإِنْ فَاءُوا

فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٣٦﴾ وَإِنْ عَزَمُوا الطَّلَاقَ فَإِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٣٧﴾﴾

قوله تعالى: ﴿لِلَّذِينَ يُؤْلُونَ مِن نِّسَائِهِمْ تَرَبُّصُ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ فَإِنْ فَاءُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٣٦﴾ وَإِنْ عَزَمُوا الطَّلَاقَ فَإِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾. **معناه:** للذين يحلفون ألا يجمعوا نساءهم أو يحلفون أن لا يكلموا نساءهم أو يحلفون أن يضاروا نساءهم، على هؤلاء انتظار أربعة أشهر، وهي أقصى مدة وأقصى مهلة لهم فإن رجعوا إلى الجماع وإحسان المعاشرة وتكليم النساء فإن الله عز وجل يغفر لهم ما سلف منهم، وإن عزموا على الطلاق ألزموا بذلك، فهم بين أو بين إما أن يرجعوا إلى نسائهم بالجماع وإحسان المعاشرة وإما أن يفارقوا و﴿اللَّهُ سَمِيعٌ﴾ للأقوال ﴿عَلِيمٌ﴾ بالنوايا والأعمال.

وبتعبير آخر أقول، وبالله التوفيق: إن بعض الناس يقسمون على ألا يجمعوا نساءهم مدة معينة فإن كانت هذه المدة أقل من أربعة أشهر فلا يدخلون تحت هذه الآية وإن كانت المدة أربعة أشهر أو أكثر فالآية تتعلق بهم، فالمعنى على هذا: للذين يحلفون على أن يمتنعوا من جماع نساءهم انتظار أربعة أشهر فإن رجعوا إلى جماعهم ومعاشرتهم بالمعروف فإن الله غفور لهم ما أذنبوا فيه تجاه نساءهم رحيم بهم وبأزواجه فيما شرعه لهم، وإن قصدوا الطلاق وعزموا عليه فإن الله سميع لذلك منهم عليم به وبهم.

وها هي أقوال بعض أهل العلم في ذلك:

قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ: الإيلاء الحلف فإذا حلف الرجل أن لا يجمع زوجته مدة فلا يخلو إما أن يكون أقل من أربعة أشهر أو أكثر منها، فإن كانت أقل فله أن ينتظر انقضاء المدة ثم يجمع امرأته وعليها أن تصبر وليس لها مطالبة

بالفيئة في هذه المدة وهذا كما ثبت في الصحيحين عن عائشة أن رسول الله ﷺ ألى من نسائه شهراً فنزل لتسع وعشرين وقال: «الشهر تسع وعشرون» ولهما عن عمر بن الخطاب نحوه ، فأما إن ازدادت المدة على أربعة أشهر فللزوجة مطالبة الزوج عند انقضاء أربعة أشهر إما أن يفىء أي: يجامع وإما أن يطلق فيجبره الحاكم على هذا، وهذا لثلاثي ضرر بها ولهذا قال تعالى: ﴿لِّلَّذِينَ يُؤَلُّونَ مِن نِّسَائِهِمْ﴾ [البقرة: ٢٢٦] أي: يحلفون على ترك الجماع من نسائهم، فيه دلالة على أن الإيلاء يختص بالزوجات دون الإماء كما هو مذهب الجمهور ﴿تَرْبُصُ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ﴾ [البقرة: ٢٢٦] أي: ينتظر الزوج أربعة أشهر من حين الحلف ثم يوقف ويطالب بالفيئة أو الطلاق، ولهذا قال: ﴿فَإِنْ فَاءُوا﴾ [البقرة: ٢٢٦]، أي: رجعوا إلى ما كانوا عليه وهو كناية عن الجماع...

وقال صديق حسن خان في «تفسيره فتح البيان»:

واعلم أن أهل كل مذهب قد فسروا هذه الآية بما يطابق مذهبهم وتكلفوا بما لم يدل عليه اللفظ ولا دليل آخر ومعناه ظاهر واضح ، وهو أن الله جعل الأجل لمن يولي أي: يحلف من امرأته أربعة أشهر ثم قال : مخبراً لعباده بحكم هذا المؤلي بعد هذه المدة: ﴿فَإِنْ فَاءُوا﴾ أي: رجعوا إلى بقاء الزوجية واستدامة النكاح ﴿فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ أي: لا يؤاخذهم بتلك اليمين بل يغفر لهم ويرحمهم ﴿وَإِنْ عَزَمُوا الطَّلَاقَ﴾ ، أي: وقع العزم منهم عليه والقصد له: ﴿فَإِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ﴾ لذلك منهم ﴿عَلِيمٌ﴾ ، به. فهذا معنى الآية الذي لا شك فيه ولا شبهة، فمن حلف أن لا يطأ امرأته ولم يقيد بمدة أو قيد بزيادة على أربعة أشهر كان علينا إمهاله أربعة أشهر، فإذا مضت فهو بالخيار إما رجوع إلى نكاح امرأته وكفر عن يمينه، وكانت زوجته بعد مضي المدة كما كانت زوجته قبلها أو طلقها وكان له حكم المطلق لامرأته ابتداءً.

❁ وأما إذا وُقَّتْ بدون أربعة أشهر فإن أراد أن يبر في يمينه اعتزل امرأته التي

حلف منها حتى تنقضي المدة كما فعل رسول الله ﷺ حين آلى من نسائه شهراً فإنه اعتزلهن حتى مضى الشهر، وإن أراد أن يطأ امرأته قبل مضي تلك المدة التي هي دون أربعة أشهر حنث في يمينه ولزمته الكفارة، وكان ممثلاً لما صح عنه ﷺ من قوله: «من حلف على يمين فرأى غيرها خيراً منها فليأت الذي هو خير وليكفر عن يمينه»^(١)، والله تعالى أعلم.

وعلى أي شيء يكون الإيلاء (أي الحلف):

فأقول وبالله التوفيق: قد ذهب أكثر أهل العلم إلى أن الحلف يكون على ترك الجماع بينما ذهب فريق آخر إلى أن الإيلاء الحلف على ترك الكلام أو على أن يغيظها أو لا يجامعها أو يسوءها أو نحو ذلك، وهذا التأويل يشهد له العموم الوارد في الآية، والجماع داخل فيه. والله أعلم.

*وقد ذهب جمهور العلماء (كما نقل عنهم الصنعاني رحمه الله) إلى أنها لا بد أن تكون أكثر من أربعة أشهر، ونقل عنهم الشوكاني أنها أربعة أشهر فصاعداً، وذلك لأن الرجل إذا حلف على ترك جماعها ثلاثة أشهر مثلاً فلا معنى لتربصه أربعة أشهر، وهذا هو الأظهر والله أعلم.

أما ما ورد من أن النبي ﷺ آلى من نسائه شهراً^(٢) فقد قال الحافظ ابن حجر رحمه الله في «فتح الباري»: آلى بمعنى حلف، وليس المراد به الإيلاء العرفي في كتب الفقه على رأي معظم الفقهاء.

قلت: أي أن إيلاء النبي ﷺ من نسائه شهراً وإن سمي إيلاءً إلا أنه لا يقع فيه تربص ولا تتعلق به أحكام الإيلاء التي نحن بصدددها. والله أعلم.

(١) صحيح وقد تقدم.

(٢) أخرجه البخاري (مع الفتح ٩/٤٢٥) من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه قال: آلى رسول الله ﷺ من نسائه وكانت انفكت رجله فأقام في مشربة له تسعاً وعشرين ثم نزل فقالوا: يا رسول الله آليت شهراً فقال: «الشهر تسع وعشرون».

مسألة:

* وإذا حلف الرجل أن لا يطاء امرأته لمدة أربعة أشهر ثم بدا له أن يجامعها قبل مضي الأشهر الأربعة فله ذلك ويكفر عن يمينه وذلك لقول النبي ﷺ: «من حلف على يمين فرأى غيرها خيراً منها فليأت الذي هو خير وليكفر عن يمينه»^(١).

وإذا انقضت الأربعة أشهر من ابتداء الإيلاء، أعني من بداية الحلف، فهل تُطَلَّق المرأة من زوجها التي قد آلى منها، أي حلف عليها، وهو الذي يسمى المؤلي؟ أم أنه يوقَّف (أي يحبس) ويجبر على أحد الأمرين إما الطلاق وإما الرجوع عن يمينه ففي ذلك وجهان للعلماء؟

والجمهور أنه يُخير الحالف بين الطلاق وبين الرجوع والله أعلم.



(١) صحيح وقد تقدم، وأخرجه مسلم (١٦٥١).

(بعض أحكام الطلاق والمطلقات والعدة والخلع)

قال الله عز وجل: ﴿ وَالْمُطَلَّقَاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ وَلَا يَحِلُّ لَهُنَّ أَنْ يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ اللَّهُ فِي أَرْحَامِهِنَّ إِنْ كُنَّ يُؤْمِنَنَّ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ
الْآخِرِ وَبُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فِي ذَلِكَ إِنْ أَرَادُوا إِصْلَاحًا وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي
عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ (٢٢٨) الطَّلَاقُ
مَرَّتَانٍ فَأَمَّا كُتُمُوهُنَّ أَوْ تَسْرِيحُهُنَّ بِإِحْسَنٍ وَلَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ
تَأْخُذُوا مِمَّا آتَيْتُمُوهُنَّ شَيْئًا إِلَّا أَنْ يَخَافَا أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ فَإِنْ خِفْتُمْ
أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا افْتَدَتْ بِهِ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا
تَعْتَدُوهَا وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴾ (٢٢٩) فَإِنْ طَلَّقَهَا فَلَا
نَحْلَ لَهُ مِنْ بَعْدِ حَتَّى تَنْكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُ فَإِنْ طَلَّقَهَا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَنْ
يَتَرَاجَعَا إِنْ ظَنَّا أَنْ يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ يُبَيِّنُهَا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ
﴿ وَإِذَا طَلَقْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمَّا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ
سَرِّحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَلَا تُمْسِكُوهُنَّ ضَرَارًا لِنَعْنُدُوا وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَقَدْ
ظَلَمَ نَفْسَهُ وَلَا تَتَّخِذُوا آيَاتِ اللَّهِ هُزُوًا وَاللَّهُ عَزِيزٌ عَلِيمٌ ﴾ (٢٣٠) وَالْحِكْمَةُ يَعْظُمُ بِهِ وَأَتَّقُوا اللَّهَ
وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ (٢٣١) وَإِذَا طَلَقْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمَّا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ

فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ أَنْ يَنْكِحْنَ أَزْوَاجَهُنَّ إِذَا تَرَضَوْا بَيْنَهُمْ بِالْمَعْرُوفِ ذَلِكَ يُوعَظُ بِهِ مَنْ كَانَ مِنْكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ لَكُمْ لَكُمْ وَأَطْهَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢٣٢﴾

قوله تعالى: ﴿وَالْمُطَلَّقَاتُ يَرْجِعْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ﴾ هذه الآية في بيان عدة المطلقة المدخول بها والتي تحيض وتطهر، فحكم المطلقات اللواتي بهذا الوصف أنهن ينتظرن بعد تلفظ الزوج بالطلاق - ثلاثة قروء والقرء في تفسيره قولان: أحدهما أنه الحيض والآخر أنه الطهر ﴿وَلَا يَحِلُّ لَهُنَّ أَنْ يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ اللَّهُ فِي أَرْحَامِهِنَّ إِنْ كُنَّ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ أي لا يحل للمطلقات أن يعلن أننا حضنا وهن لم يحضن، ولا يحل لهن أن يقلن إنهن حوامل ولسن بحوامل، فإن الله عز وجل يعاقبهن في اليوم الآخر إذا غششن أو كذبن أو دلسن.

وفي هذه المدة التي هي ثلاثة قروء يحل لزوجها أن يراجعها دون إذن (شاءت أم أبت) ما دام الزوج يريد المعاشرة بإحسان ويريد الإصلاح فهذا قوله تعالى: ﴿وَيُعَوِّلُهَا أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فِي ذَلِكَ﴾ أي في العدة ﴿إِنْ أَرَادُوا إِصْلَاحًا﴾.

﴿وَلَهُنَّ﴾ أي للأزواج ﴿مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾ أي لهن من حقوق الزوجية على الرجال مثل ما للرجال عليهن فيحسن صحبتها كما تحسن صحبتته ويتزين لهما كما تتزين له وعليه أن لا يضارها كما عليها أن لا تضاره وعليه أن يعاشرها بالمعروف كما أن عليها أن تعاشره بالمعروف ويتقي الله فيها كما تتقي الله فيه.

وقوله تعالى: ﴿وَاللِّرِّجَالُ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ﴾ قيل المراد بالدرجة القوامة ﴿الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ﴾ وقيل تضعيف الميراث وقيل غير ذلك ﴿وَاللَّهُ عَزِيزٌ﴾ غالب وفيه تذكير للرجال بأن الله عز وجل فوقهم إن هم ظلموا النساء ﴿حَكِيمٌ﴾ فيما يشرع وحكيم في كل شيء.

تنبيهات:

الأول: المطلقة قبل الدخول لا عدة عليها فلا تنتظر هذه القروء الثلاثة لقوله

تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَكَحْتُمُ الْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ طَلَقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمْسُوهُنَّ فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ تَعْدُونَهَا﴾.

الثاني: المطلقة التي يئست من المحيض، أي التي انقطع عنها دم الحيض تعتد بثلاثة أشهر، وكذا المطلقة التي لا تحيض إما لصغر سنها أو لعدة من العلل الأخر، وذلك لقوله تعالى: ﴿وَالَّتِي يَئِسْنَ مِنَ الْمَحِيضِ مِنْ نِسَائِكُمْ إِنْ أَرْبَبْتُمْ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَاثَةُ أَشْهُرٍ وَالَّتِي لَمْ يَحِضْنَ﴾.

الثالث: المطلقة وهي حامل عدتها تنقضي بوضع الحمل لقوله تعالى: ﴿وَأُولَئِذَا أَجْلُهِنَّ أَنْ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ﴾.

الرابع: المطلقة آخر ثلاث تطليقات لا سبيل لزوجها للرجوع إليها، أعني أنها تعتد ولكن ليس لزوجها ارتجاعها في العدة فإنها لا تحل لزوجها حتى تنقضي عدتها وتنكح زوجاً غيره بنية المعاشرة (وليس بنية التحليل)، ثم يجامعها الزوج الجديد ويطلقها وتنقضي عدتها منه، فحينئذ إن شاءت أن تتزوج الزوج الأول تزوجته، وإلا فلا.

قوله تعالى: ﴿الطَّلَاقُ مَرَّتَانٍ﴾ المراد به - والله أعلم - أن الطلاق الرجعي مرتان، أو بتعبير آخر أن الطلاق الذي تصحبه رجعة (أي: يكون للزوج فيه حق مراجعة زوجته)، هو مرتان فقط، أما إذا طلقها ثلاثاً فلا تحل له من بعد حتى تنكح زوجاً غيره^(١).

وقوله تعالى: ﴿فَإِمْسَاكُكُمْ بِمَعْرُوفٍ﴾ الإمساك المراد به هنا: الرجعة الثانية بعد الطلقة الثانية، ويراد أيضاً: بالإمساك بالمعروف: جملة العشرة الحسنة كما يفعل الرجال مع نسائهم من حسن العشرة.

وقوله تعالى: ﴿أَوْ تَصْرِحُ بِإِحْسَانٍ﴾ لأهل العلم قولان في ذلك، أحدهما: أن

(١) بشرط أن يجامعها الزوج الجديد، وبشرط أن لا يكون بنية التحليل.

المراد: الطلقة الثالثة بعد الطلقتين، والثاني: أن المراد: ترك الرجعة بعد التطليقة الثانية حتى تنقضي العدة، وهذا هو: الأصح عندي ^(١).

وقوله تعالى: ﴿وَلَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَأْخُذُوا مِمَّا آتَيْتُمُوهُنَّ شَيْئًا إِلَّا أَنْ يَخَافَا أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ﴾ هذا خطاب من الله ﷻ للأزواج، والمعنى: لا يحل لكم أيها الأزواج أن تأخذوا مما أعطيتموه لأزواجكم - من مهرٍ وخلافه - شيئاً على وجه المضاربة لهن، إلا إذا خشي الزوجان ألا يقيما حدود الله فيما بينهما وأرادت المرأة الفرقة واختارتها، فلا جناح عليها حينئذ أن تفتدي نفسها منه ببعض المال الذي تبذله له، والله أعلم.

وقوله تعالى: ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا افْتَدَتْ بِهِ﴾ أي: إذا خشيتم على الزوجين ألا يفعلوا ما أمرهما الله به ويتهيا عما نهاهما الله عنه ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا﴾ فلا إثم على الزوجين ﴿فِيمَا افْتَدَتْ بِهِ﴾ فيما بذلته المرأة من المال وغيره طلباً للفراق أي: لا إثم على الزوج إن أخذ من زوجته ما لا كي يفارقها ولا إثم على الزوجة إذا دفعت هذا المال طلباً للفراق وخشية من الوقوع في الحرام وهذه الآية الكريمة أصل في الخلع.

❦ **والدليل عليه من سنة رسول الله ﷺ** ما أخرجه البخاري من حديث ابن عباس رضي الله عنهما ^(٢) قال: جاءت امرأة ثابت بن قيس بن شماس إلى النبي ﷺ، فقالت: يا رسول الله ما أنقم على ثابتٍ في دينٍ ولا خلقٍ إلا أني أخاف الكفر، فقال رسول الله ﷺ: «فتردين عليه حديقته؟»، فقالت: نعم فردت عليه وأمره ففارقها.

(١) إذ إنها بعد التطليقة الثانية تُعدُّ مطلقة فكيف يأمر الله ﷻ بطلاق مطلقة؟! وهو أيضاً (أي: الرأي الثاني) أنسب لقوله تعالى في الآية التي تليها: ﴿فَإِنْ طَلَّقَهَا فَلَا يَحِلُّ لَهُ مِنْ بَعْدُ حَتَّى تَنْكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُ﴾ [البقرة: ٢٣٠]، فإن اعتبرنا التسريح بإحسان تطليقة يكون قوله تعالى: ﴿فَإِنْ طَلَّقَهَا فَلَا يَحِلُّ لَهُ مِنْ بَعْدُ حَتَّى تَنْكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُ﴾ تطليقة رابعة، وهذا لا وجه له، فصح ما اخترناه وصحناه، والله أعلم.

(٢) أخرجه البخاري (مع الفتح ٣٩٥ / ٩).

وما أخرجه مالك في «الموطأ»^(١) من حديث حبيبة بنت سهل الأنصاري أنها كانت تحت ثابت بن قيس بن شماس، وأن رسول الله ﷺ خرج إلى الصبح فوجد حبيبة بنت سهل عند بابه في الغلس، فقال رسول الله ﷺ: «من هذه؟» فقالت: أنا حبيبة بنت سهل يا رسول الله، قال: «ما شأنك؟» قالت: لا أنا ولا ثابت بن قيس، لزوجها، فلما جاء زوجها ثابت بن قيس قال له رسول الله: «هذه حبيبة بنت سهل قد ذكرت ما شاء الله أن تذكر»، فقالت حبيبة: يا رسول الله كل ما أعطاني عندي فقال رسول الله ﷺ لثابت بن قيس: «خذ منها» فأخذ منها، وجلست في بيت أهلها.

وقوله تعالى: ﴿تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ أي هذه هي الحدود التي حدّها الله لكم فلا تتجاوزها ولا تنتهكوا حرّامات الله عزّ وجل ولا تقعوا فيما حرّمه الله عزّ وجل عليكم، فإنه من يتجاوز الحدود التي حدّها الله له ويقع في الحرام عن عمد وقصد فهذا هو الظالم لنفسه الذي بخسها حقها، فحق نفسك عليك أن تكرمها وتنزلها منازل كريمة فإذا تسببت لها في دخول النار فقد حرمتها وبخستها حقها من الطمأنينة والأمانة والله أعلم.

أما قوله تعالى: ﴿فَإِنْ طَلَّقَهَا فَلَا يَحِلُّ لَهُ مِنْ بَعْدُ حَتَّى تَنْكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُ فَإِنْ طَلَّقَهَا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَنْ يَرَاجَعَا إِنْ ظَنَّا أَنْ يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ﴾ المراد والله تعالى أعلم - أن الرجل إذا طلق امرأته التطليقة الثالثة بعد التطليقتين فإن امرأته لا تحل له بعد هذه التطليقة الثالثة حتى تنكح زوجاً غيره ويطأها ذلك الزوج الجديد ويكون قصد ذلك الزوج الجديد الرغبة في المرأة وفي دوام عشرتها، فإن قدر الله وطلّق هذا الزوج الجديد هذه المرأة فإنها حينئذٍ تحل لزوجها الأول بعقد نكاح جديد وولي وشهود.

وقوله تعالى: ﴿فَلَا يَحِلُّ لَهُ مِنْ بَعْدُ حَتَّى تَنْكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُ﴾ المراد بالنكاح هنا

(١) أخرجه مالك في «الموطأ» (٢/ ٥٦٤)، وأبو داود (٢٢٢٧)، والنسائي (٧/ ٣١٢)، والبيهقي (٧/ ٣١٢) - (٣١٣)، وإسناده صحيح.

الجماع وذلك لما أخرجه البخاري ومسلم ^(١)، من حديث عائشة رضي الله عنها أن امرأة رفاعة القرظي جاءت إلى رسول الله ﷺ فقالت: يا رسول الله إن رفاعة طلقني فبت طلاقي، وإني نكحت بعده عبد الرحمن بن الزبير القرظي وإنما معه مثل الهدبة ^(٢)، قال رسول الله ﷺ: «لعلك تريدين أن ترجعي إلى رفاعة؟ لا حتى يذوق عسيلتك وتذوقي عسيلته».

وقوله تعالى: ﴿وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ يُبَيِّنُهَا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ أي ذلك أوامر الله ونواهيه التي حدّها لعباده فلا يتجاوزوها يوضحها ربنا لقوم يريدون معرفة دينهم ويتعلمون الحلال والحرام.

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا طَلَقْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمَّا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ﴾ أي: قاربن بلوغ انقضاء العدة، أي اقرب وقت انتهاء عدتها التي هي ثلاثة قروء، وهذا في المطلقة الرجعية التي تحيض.

وقد نقل القرطبي رحمه الله الإجماع على أن (بلغن) معناها قاربن بلوغ الأجل، وذلك في هذا المقام من هذه الآية.

وقوله تعالى: ﴿فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ﴾ أي: ارجعهن إلى عصمتكم إن شئتم، إذا كنتم قد أردتم بهذا الإرجاع التقرب إلى الله عز وجل وإن لم تريدون إرجاعها بالمعروف فاتركوها حتى تنقضي عدتها بالمعروف أيضاً بلا ظلم لها ولا تشهير بها، ولا بخس لحقها فهذا قوله: ﴿أَوْ سَرِّحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ﴾ وقوله تعالى: ﴿وَلَا تُنْسِكُوهُنَّ ضَرَارًا لِّعُنْدُكُمْ﴾ أي: لا تردوها إلى عصمتكم لإيذائها وإلحاق الضرر بها والاعتداء عليها ولذلك صور:

منها أنه يطلقها ويتركها حتى تقترب عدتها من الانتهاء، ثم يراجعها ولا حاجة له فيها ولا يريد معاشرتها، وإنما يمسكها ليطوّل العدة عليها ويؤذيها بذلك، أو

(١) أخرجه البخاري (مع الفتح ٣٦١/٩)، ومسلم (٦٠٦/٣).

(٢) الهدبة: هي طرف الثوب الذي لم ينسج.

يطول العدة عليها ليَجبرها على الخلع كي يأخذ الصداق منها ويذهب ببعض ما آتاها.

وقوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ﴾ أي يرجعها إلى عصمته لإيذائها والإضرار بها والاعتداء عليها ﴿فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ﴾ بخسها حقها من الأمان، وذلك لأن النفس لها حق، ومن حقها أن تُكرم فإذا أنزلها الشخص سيئ المنازل ووضعها في موطن تُهان فيه وتعاقب فيه فقد ظلمها.

وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَنْخِذُوا﴾ أي لا تستهزئوا بآيات الله عز وجل ولا تعرضوا عنها ولا تنهونوا بها ولا تُضيعوا حرَمات الله عز وجل فيقول أحدكم عابثاً قد طلقت قد راجعت ونحو ذلك، والله أعلم.

هذا، وطلاق الهازل والمستهزئ يقع وإن كان حديث «ثلاث جدهن جد وهزلهن جد النكاح والطلاق والرجعة»^(١) حديث ضعيف لكن التعويل في وقوعه على الآية الكريمة ﴿وَلَا تَنْخِذُوا﴾ أي لا تستهزئوا بآيات الله عز وجل وهذا رأي أكثر أهل العلم.

قال الخطابي رحمه الله: في «معالم السنن»: اتفق عامة أهل العلم على أن صريح لفظ الطلاق إذا جرى على لسان البالغ العاقل، فإنه مؤاخذ به ولا ينفعه أن يقول: كنت لا عباً أو هازلاً أو لم أنو به طلاقاً، أو ما أشبه ذلك من الأمور...

﴿وقال القرطبي في «تفسيره»﴾: ولا خلاف بين العلماء أن من طلق هازلاً أن الطلاق يلزمه.

قلت: ومن الأئمة - كمالك وأحمد رحمهما الله - من يذهب إلى أن اللفظ الصريح في الطلاق يفتقر إلى نية، ودليلهم قول النبي ﷺ: «إنما الأعمال بالنيات»، وقول الله ﷻ: ﴿وإن عَزَمُوا الطَّلَاقَ فَإِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٢٧]، والله أعلم.

وقوله تعالى: ﴿وَأَذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمَا أَنزَلَ عَلَيْكُمْ مِنَ الْكِتَابِ وَالْحِكْمَةِ﴾ أي وتذكروا نعمة الله عليكم إذ أخرجكم من الجهل إلى العلم ومن الضلالة إلى

(١) أخرجه أبو داود (٢١٩٤)، والترمذي (١١٨٤)، وابن ماجه (٢٠٣٩) وغيرهم.

الهدى ومن الكفر إلى الإيمان وكذا اذكروا ما أنزل على نبيكم من القرآن والسنة ﴿يَعِظُكُمْ بِهِ﴾ يذكركم به ويزكيكم به ويطهركم به ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ اجعلوا بينكم وبين غضب الله وعقابه وقايةً بامثالكم أمره وانتهائكم عما نهاكم عنه ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ ومن ذلك علمه بما يصدر منكم في شأن نساءكم من طلاق أو إضرار أو استهزاء بآيات الله أو غير ذلك.

(نهى الأولياء عن إعضال النساء إذا أردن الرجوع إلى أزواجهن)

وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا طَلَقْتُمُ النِّسَاءَ فَلَعَنَ أَجَلُهُنَّ فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ﴾.

المراد ببلوغ الأجل - في هذا الموطن - انقضاؤه أي انقضاء العدة، والمعنى وإذا طلقتم النساء فانقضت عدتهن من الأزواج، وذلك في الطلاق الأول أو الثاني أي: البينونة الصغرى أي إذا طلق الرجل زوجته التولية الأولى أو الثانية وانقضت عدتها فمعلوم أنه لا سبيل له عليها بعد انقضاء عدتها، أي: أنه لا يستطيع إرجاعها إلى عصمته إلا بعقد جديد وصادق جديد وولي وشهود ﴿فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ﴾ فلا تمنعهن يا أولياء المرأة ﴿أَنْ يَنْكِحَنَّ أَزْوَاجَهُنَّ﴾ أن يتزوجن بالزوج السابق ﴿إِذَا تَرَضَوْا بَيْنَهُمْ بِالْمَعْرُوفِ﴾ إذ كانت هناك موافقة وتراض بينهما أي: بين المرأة المطلقة التي انقضت عدتها وبين الرجل الذي كان زوجها لها، ولم يكن هناك مُحَرَّمٌ سيقعا فيه.

فقوله: ﴿أَنْ يَنْكِحَنَّ أَزْوَاجَهُنَّ﴾ أي: بمن كانوا لهن أزواج وهذا إطلاق باعتبار ما مضى، وإلا فهو بعد انقضاء عدتها لا يسمى زوجاً.

وقوله تعالى: ﴿ذَلِكَ أَرْزَى لَكُمْ وَأَطْهَرُ﴾ قال الطبري رحمه الله في معناه:

ويعني بقوله: ﴿أَرْزَى لَكُمْ﴾ أفضل وخير عند الله من فرقتهم أزواجهن.

وأما قوله: ﴿وَأَطْهَرُ﴾ فإنه يعني بذلك: أظهر لقلوبكم وقلوبهن وقلوب

أزواجهن من الريبة، وذلك أنهما إذا كان في نفس كل واحد منهما - أعني الزوج والمرأة - علاقة حبٍّ لم يؤمن أن يتجاوزا ذلك إلى غير ما أحله الله لهما، ولم يؤمن من أوليائهما أن يسبق إلى قلوبهم منهما ما لعلهما أن يكونا منه بريئين، فأمر الله تعالى ذكره الأولياء إذا أراد الأزواج التراجع بعد البيونة بنكاح مستأنف في الحال التي أذن لهما بالتراجع أن لا يعضل وليته عما أرادت من ذلك وأن يزوجها لأن ذلك أفضل لجميعهم وأطهر لقلوبهم مما يخاف سُبوقه إليها من المعاني المكروهة. ثم أخبر تعالى ذكره عباده أنه يعلم من سرائرهم وخفيّات أمورهم ما لا يعلمه بعضهم من بعض ودلّهم بقوله لهم ﴿ذَلِكَ﴾ في هذا الموضع أنه إنما أمر أولياء النساء بإنكاح من كانوا أولياءه من النساء إذا تراضت المرأة والزوج الخاطب بينهم بالمعروف ونهاهم عن عضلهم عن ذلك لما علم مما في قلب الخاطب والمخطوبة من غلبة الهوى والميل من كل واحد منهما إلى صاحبه بالمودة والمحبة فقال لهم تعالى ذكره: افعلوا ما أمرتكم به إن كنتم تؤمنون بي وبثوابي وبعقابي في معادكم في الآخرة، فإني أعلم من قلب الخاطب والمخطوبة ما لا تعلمونه من الهوى والمحبة، وفعلكم ذلك أفضل لكم عند الله ولهم، وأزكى وأطهر لقلوبكم وقلوبهن في العاجل.

هذا، وللآية الكريمة سبب نزول أخرجه البخاري^(١) من حديث معقل بن يسار رضي الله عنه قال: زوجت أختاً لي من رجل فطلّقها حتى إذا انقضت عدتها جاء يخطبها فقلت له: زوجتك وأفرشتك وأكرمتك، فطلّقتها ثم جئت تخطبها لا والله لا تعود إليك أبداً، وكان رجلاً لا بأس به، وكانت المرأة تريد أن ترجع إليه، فأنزل الله هذه الآية: ﴿فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ﴾، فقلت: الآن أفعل يا رسول الله، قال: فزوجها إياه.

وفي الآية الكريمة دليل على الولاية في النكاح حتى إذا كانت ثيباً وإيضاحه فيما ذكره الطبري رحمته الله حيث قال: وفي الآية الدلالة الواضحة على صحة قول من

(١) أخرجه البخاري (مع الفتح ٩/ ١٨٣).

قال: (لا نكاح إلا بولي من العصبه) ، وذلك أن الله تعالى ذكره منع الولي من عضل المرأة إذا أرادت النكاح، ونهاه عن ذلك؛ فلو كان للمرأة إنكاح نفسها بغير إنكاح وليها إياها، أو كان لها تولية من أرادت توليته في إنكاحها لم يكن لنهي وليها من عضلها معنى مفهوم، إذ كان لا سبيل له إلى عضلها، وذلك أنها إن كانت متى أرادت النكاح جاز لها إنكاح نفسها أو إنكاح من توكله بإنكاحها؛ فلا عضل هنالك لها من أحد فينهي عاضلها عن عضلها.

وفي فساد القول بأن لا معنى لنهي الله عما نهى عنه صحة القول بأن لولي المرأة في تزويجها حقاً لا يصح عقده إلا به، وهو المعنى الذي أمر الله به الولي من تزويجها إذا خطبها خاطبها ورضيت به ، وكان رضىً عند أوليائها جائزاً في حكم المسلمين لمثلها أن تنكح مثله، ونهاه عن خلافه من عضلها، ومنعها عما أرادت من ذلك، وتراضت هي والخاطب به.

قلت: هذا وسبب نزول الآية الكريمة في امرأة ثيب كما تقدم، فالولاية في النكاح ثابتة عليها أيضاً ، والله أعلم.

وقوله: ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ﴾ ما يصلحكم ﴿وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ ﴿٢٣٣﴾ حقائق الأمور وما تؤول إليه.



(بعض أحكام الرضاعة وأجرة المرضعة)

قال الله عز وجل: ﴿ وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَدَهُنَّ حَوْلَيْنَ كَامِلَيْنِ^ط لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يُتِمَّ الرَّضَاعَةَ وَعَلَى الْمَوْلُودِ لَهُ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ^١ لَا تُكَلِّفُ نَفْسٌ إِلَّا وُسْعَهَا لَا تُضَارَّ وَالِدَةٌ بِوَلَدِهَا وَلَا مَوْلُودٌ لَهُ بِوَلَدِهِ^٢ وَعَلَى الْوَارِثِ مِثْلُ ذَلِكَ فَإِنْ أَرَادَا فِصَالًا عَنْ تَرَاضٍ مِمَّنْهَا وَتَشَاوُرٍ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا وَإِنْ أَرَدْتُمْ أَنْ تَسْتَزِيعُوا^٣ أَوْلَادَكُمْ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِذَا سَلَّمْتُمْ مَا ءَانَيْتُمْ بِالْمَعْرُوفِ^٤ وَأَلْقُوا^٥ اللَّهُ وَأَعْلَمُوا^٦ أَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ^٧ ۝

قوله تعالى: ﴿ وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَدَهُنَّ حَوْلَيْنَ كَامِلَيْنِ^ط لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يُتِمَّ الرَّضَاعَةَ ۝ ﴾ أي والوالدات المطلقات^(١) اللواتي كن لكم أزواج فطلقتموهن أحق بإرضاع أولادهن من غيرهن، فإذا طالبت المرأة أن ترضع مولودها فلها ذلك ما دام بنفس أجر من سواها هذا، ولا يجب على الأم إرضاع^(٢) ولدها إلا إذا كان الطفل لا يقبل إلا ثديها وعدم الوجوب لقوله تعالى: ﴿ وَإِنْ تَعَاَسَرْتُمَ فَسَازِغْ لَهُ^٣ أُخْرَى ۝ ﴾ [الطلاق: ٦] ، وكذلك لا يجب عليها إتمام الرضاعة إلى الحولين لقوله ﷻ: ﴿ لِمَنْ ۝

(١) والحامل على اختيار هذا القول شيان: أحدهما: أن الآية الكريمة ﴿ وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَدَهُنَّ ۝ ﴾ [البقرة: ٢٣٣] جاءت عقب آيات الطلاق فكانت كالتممة لها.

والثاني: قوله تعالى: ﴿ وَعَلَى الْمَوْلُودِ لَهُ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ ۝ ﴾ [البقرة: ٢٣٣] ولو كانت الزوجية باقية لوجب على الزوج ذلك بسبب الزوجية لا بسبب الرضاع، والله تعالى أعلم.

(٢) فإذا تزوجت على سبيل المثل زوجاً آخر فرفض أن ترضع المولود من الرجل القديم أو سافرت أو غير ذلك فلها ذلك (لها الحق في أن ترفض إرضاع الولد).

أَرَادَ أَنْ يُتِمَّ الرَّضَاعَةَ ﴿١﴾.

وقوله تعالى: ﴿حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ﴾ أي سنتين هجريتين كاملتين وفائدة التقييد بالحولين قطع التنازع بين الزوجين في مدة الرضاع فلا يجب على الزوج إعطاء الأجرة لأكثر من حولين، وإن أراد الأب الفطم قبل هذه المدة ولم ترض الأم لم يكن له ذلك، والزيادة على الحولين أو النقصان عنها إنما يكون عند عدم الإضرار بالمولود وعند رضا الوالدين، قاله القرطبي، والله أعلم.

وفائدة التقييد بكاملين للتأكيد، والله أعلم.

وقوله تعالى: ﴿لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يُتِمَّ الرَّضَاعَةَ﴾ استدل به على أن الرضاع بعد الحولين لا يحرم شيئاً على الصحيح، وهذا رأي جمهور أهل العلم، ومن أدلتهم قوله تعالى: ﴿وَالْوَلَدُ يُرْضَعُ أَوْلَدَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يُتِمَّ الرَّضَاعَةَ﴾، وقول النبي ﷺ: «لا يُحَرِّمُ مِنَ الرضاعة إلا ما فتق الأمعاء وكان قبل الفطام»^(١).

وما أخرجه البخاري ومسلم^(٢) من حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أن النبي ﷺ دخل عليها وعندها رجل فكانه تغير وجهه كأنه كره ذلك، فقالت: إنه أخي، فقال: «انظرن ما إخوانكن، وإنما الرضاعة من المجاعة».

وثم جملة آثار عن الصحابة في ذلك، منها: ما أخرجه عبد الرزاق في «المصنف»^(٣) من طريق أبي عطية الوادعي: قال: جاء رجل إلى ابن مسعود فقال: إنها كانت معي امرأتي فحُصر لبنها في ثديها فجعلت أمصُّه ثم أمجُّه فأتيت أبا موسى فسألته فقال: حرمت عليك قال: فقام وقمنا حتى انتهى إلى أبي موسى فقال: ما أفتيت هذا؟ فأخبره بالذي أفتاه، فقال ابن مسعود، وأخذ بيد الرجل: أرضيعاً ترى هذا؟ إنما الرضاع ما أنبت اللحم والدم، فقال أبو موسى: لا تسألوني عن شيء ما

(١) أخرجه الترمذي (حديث ١١٦٢) مع تحفة الأحوذني من حديث أم سلمة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

(٢) أخرجه البخاري (حديث ٥١٠٢)، ومسلم (حديث ١٤٥٥)، وغيرهما.

(٣) «المصنف» (٤٦٣/٧).

كان هذا الخبر بين أظهركم.

وروى مالك في «الموطأ»^(١) عن عبد الله بن دينار أنه قال: جاء رجل إلى عبد الله بن عمر وأنا معه عند دار القضاء يسأله عن رضاعة الكبير؟ فقال عبد الله بن عمر: جاء رجل إلى عمر بن الخطاب فقال: إني كنت لي وليدة وكنت أطؤها فَعَمَدَتِ امرأتي إليها فأرضعتها، فدخلت عليها فقالت: دونك، فقد والله أرضعتها فقال عمر: أوجعها وأت جاريتك فإنما الرضاعة رضاعة الصغير. وإسناده صحيح. وأخرج سعيد بن منصور في «سننه» عن ابن عباس قال: لا رضاع إلا ما كان في الحولين^(٢).

✽ وروى مالك في «الموطأ»^(٣) من حديث ابن عمر قال: لا رضاعة إلا لمن أُرْضِعَ في الصغر، ولا رضاعة لكبير.

✽ هذا بينما ذهب قليل من أهل العلم إلى أن رضاع الكبير يُحَرِّمُ، منهم عائشة رضي الله عنها، واحتجت بما قالته: جاءت سهلة بنت سهيل إلى النبي ﷺ فقالت: يا رسول الله ﷺ إني أرى في وجه أبي حذيفة من دخول سالم (وهو حليفه)، فقال النبي ﷺ: «أرضعيه» قالت: وكيف أرضعه وهو رجل كبير؟! فتبسم رسول الله ﷺ وقال: «قد علمت أنه رجل كبير»^(٤) انتهى.

وخالف في ذلك جمهور العلماء وجمهور أزواج النبي ﷺ، ورأوا أن هذا خاص بسالم مع أبي حذيفة.

(١) «الموطأ» ص (٦٠٦)، وإسناده صحيح.

(٢) وإسناده صحيح (سنن سعيد بن منصور رقم ٩٨٠).

(٣) «الموطأ» (٦٠٣/٢) وإسناده صحيح.

(٤) أخرجه مسلم (١٤٥٣).

(٥) أخرجه النسائي، وغيره بإسناد صحيح عن عروة قال: أبى سائر أزواج النبي ﷺ أن يدخل عليهن بتلك الرضعة أحد من الناس، يريد رضاعة الكبير وقلن لعائشة: والله ما نرى الذي أمر رسول الله ﷺ سهلة بنت سهيل إلا رخصة في رضاعة سالم وحده من رسول الله ﷺ، والله لا يدخل علينا أحد بهذه الرضعة ولا يرانا.

ورأي الجمهور أصح لما قدمناه، والله أعلم.
 وقوله تعالى: ﴿وَعَلَى الْمَوْلُودِ لَهُ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾ أي وعلى والد الصبي رزق أم الصبي وكسوتها أثناء إرضاعها للطفل، أي وعليه النفقة عليها وكسوتها أثناء مدة الرضاعة.

وقوله تعالى: ﴿بِالْمَعْرُوفِ﴾ أي بالمتعارف عليه بين الناس، أي بالذي يجب لمثلها على مثله، وقوله تعالى: ﴿لَا تَكْلَفُ نَفْسٌ إِلَّا وُسْعَهَا﴾ لا يكلف الزوج بما هو فوق طاقته ولا تكلف الزوجة بما هو فوق طاقتها.

وقوله تعالى: ﴿لَا تُضَارُّ وَالِدَهُ وَلَا مَوْلُودُهُ﴾ أي لا تمتنع أم من إرضاع طفلها لتشق بذلك على أبيه، ولا يمنع الوالد أم الصبي من إرضاعه ليحزنها وكذا لا يحرم الوالد من رؤية ولده ولا تحرم الأم كذلك وأي سبيل فيه إضرار بأحد الطرفين فهو ممنوع والله أعلم.

قال قتادة رحمه الله ^(١) وهو من أئمة التابعين في التفسير وقوله ﴿لَا تُضَارُّ وَالِدَهُ وَلَا مَوْلُودُهُ﴾ قال: نهى الله تعالى عن الضرر وقدم فيه، فنهى الله أن يضار الوالد فينتزع الولد من أمه إذا كانت راضية بما كان مسترضعاً به غيرها، ونهيت الوالدة أن تقذف الولد إلى أبيه ضراراً.

❀ وأخرج بإسناد صحيح عن ابن زيد (٤٩٨٣): لا ينتزعه منها وهي تحب أن ترضعه فيضارها ولا تطرحه عليه وهو لا يجد من ترضعه ولا يجد ما يسترضعه به.

وقوله تعالى: ﴿وَعَلَى الْوَارِثِ مِثْلُ ذَلِكَ﴾ اختلف أهل العلم في تفسير الوارث هنا، وارث من؟ ولهم في ذلك عدة أقوال، والذي يظهر لي - والله تعالى أعلم - أن المراد بالوارث هنا: وارث المولود له، فإذا مات المولود له كلف ورثته الإنفاق على الممرض حتى الفطام، والذي حملنا على اختيار هذا الرأي هو أن المولود له

(١) الطبري (٩٤٧٦).

هو الذي تقدم ذكره في قوله تعالى: ﴿وَعَلَى الْمَوْلُودِ لَهُ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ...﴾ والله تعالى أعلم^(١).

وقوله تعالى: ﴿مِثْلُ ذَلِكَ﴾ أي وعلى وارث المولود له أي: وعلى وارث الأب مثل ما على الأب من النفقة والكسوة بالمعروف، وكذا عليه ترك المضارة.
وقوله تعالى: ﴿فَإِنْ أَرَادَا فِصَالًا عَنْ تَرَاضٍ مِّنْهُمَا وَتَشَاوُرٍ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا﴾ أي إذا أراد الزوجان واتفقا فيما بينهما وتشاورا في شأن الطفل، وقررا بعد ذلك فطام الطفل قبل بلوغه الحولين فلا إثم عليهما.

قال ابن كثير رحمه الله: فيؤخذ منه أن انفراد أحدهما بذلك دون الآخر لا يكفي، ولا يجوز لواحدٍ منهما أن يستبدَّ بذلك من غير مشاورة الآخر، قاله الثوري وغيره، وهذا فيه احتياط للطفل وإلزام للنظر في أمره، وهو من رحمة الله بعباده، حيث حجر على الوالدين في تربية طفلهما، وأرشدتهما إلى ما يصلحهما ويصلحه، كما قال تعالى في سورة الطلاق: ﴿فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ فَتَأْتُوهُنَّ أَجُورَهُنَّ وَأَنْتُمْ يُبَيِّنُكُمْ بِمَعْرُوفٍ وَإِنْ تَعَاَسَرْتُمَ فَتَرْضِعْ لَهُ أُخْرَى﴾ [الطلاق: ٦].
وقوله تعالى: ﴿وَإِنْ أَرَدْتُمْ أَنْ تَسْرَضِعُوا أَوْلَادَكُمْ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِذَا سَلَّمْتُمْ مَا آتَيْتُمْ بِالْمَعْرُوفِ﴾.

أي إن أردتم أيها الأزواج أن تطلبوا لأولادكم نسوةً أخريات يرضعوهن - غير أمهاتهن - إن رفضت الأم إرضاعه لعدة من العلل واتفقتما (الزوج والزوجة) على ذلك.

﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ﴾ أي: فلا إثم عليكم، لا إثم عليك أيها الزوجة في بذل الولد لوالده كي ترضعه امرأة أخرى ولا إثم عليك أيها الزوج في أخذه منها ﴿إِذَا سَلَّمْتُمْ

(١) هذا وقد قال الحافظ ابن حجر رحمه الله (فتح الباري ٥١٤/٩): والجمهور قالوا: ولا غرم على أحدٍ من الورثة، ولا يلزمه نفقة ولد الموروث، قلت: وهذا تفسير منهم إلى أنهم اختاروا أن قوله: ﴿أَلْوَارِثُ﴾ هو: الصبي نفسه، والله تعالى أعلم.

مَاءَ أَيْتُمُ بِالْمَعْرُوفِ ﴿١٠٠﴾ سلمتم الأمهات وسلمتم المسترضعات الأخريات غير
الوالدات أجورهن وحقوقهن بالمعروف، والله أعلم.

والمعروف هو: ما تعارف عليه الناس من أجر المرضعات من دون مماطلة
لهن، أو حطّ بعض ما هو لهن من ذلك، فإن عدم توفير أجرهن يبعثهن على
التساهل بأمر الصبي، والتفريط في شأنه، والمعنى: أن يكونوا عند تسليم الأجرة
مستبشري الوجوه ناطقين بالقول الجميل مُطِيبين لأنفس المراضع بما أمكن، قاله
عدد من أهل العلم.

*هذا، وبعد أن ينقضي الحولان من أحق بالطفل الذي لم يميز هل الأم أم
الأب؟ وجواب ذلك أن الأحق به الأم ما لم تتزوج، وذلك لقول النبي ﷺ: «أنت
أحق به ما لم تنكحي».

قال القرطبي رَحِمَهُ اللهُ: قال ابن المنذر: أجمع كل من يُحفظ عنه من أهل العلم
على أن الزوجين إذا افترقا ولهما ولد أن الأم أحق به ما لم تنكح، وكذا قال أبو
عمر: لا أعلم خلافاً بين السلف من العلماء في المرأة المطلقة إذا لم تتزوج أنها أحق
بولدها من أبيه ما دام طفلاً صغيراً لا يُميز شيئاً إذا كان عندها في حرزٍ وكفاية، ولم
يثبت فيها فسق ولا تبرج.

وقوله تعالى: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ اجعلوا بينكم وبين عذاب الله وقاية، وتلك تتأتى
بامثالكم ما شرعه الله لكم وخوفكم منه ولزومكم حدوده ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِمَا
تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ فلا تخفى عليه خافية في الأرض ولا في السماء.



(عدة المتوفى عنها زوجها)

قال الله عز وجل: ﴿وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا ۖ فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا فَعَلْنَ فِي أَنْفُسِهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ ۗ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ۝٢٣٤﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ﴾ والذين يموتون منكم ﴿وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا﴾ ويتركون زوجات ﴿يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا﴾ أي تنتظر المرأة التي توفي عنها زوجها أربعة أشهر لا تتزوج فيها ولا تخطب ولا تتزين ولا تطيب كما أفادت ذلك السنة النبوية، وهذه الآية الكريمة في بيان قدر عدة المتوفى عنها زوجها إذا لم تكن حاملاً، فإذا كانت حاملاً فعدتها تنقضي بوضع الحمل لقوله تعالى: ﴿وَأُولَئِ الْأَحْمَالُ أَجَلُهُنَّ أَنْ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ﴾ ولما أخرجه البخاري ومسلم^(١)، من طريق أبي سلمة قال: جاء رجل إلى ابن عباس وأبو هريرة جالس عنده فقال: أفتني في امرأة ولدت بعد^(٢) زوجها بأربعين ليلة فقال ابن عباس: آخر الأربعين، قلت أنا: ﴿وَأُولَئِ الْأَحْمَالُ أَجَلُهُنَّ أَنْ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ﴾ [الطلاق: ٤]، قال أبو هريرة: أنا مع ابن أخي، يعني: أبا سلمة، فأرسل ابن عباس غلامه كريماً إلى أم سلمة يسألها فقالت: قتل زوج سبيعة الأسلمية وهي حبلى فوضعت بعد موته بأربعين ليلة فخطبت، فأنكحها رسول الله ﷺ، وكان أبو السنابل فيمن خطبها.

وله سياق آخر^(٣) عند مسلم من طريق ابن شهاب قال: حدثني عبيد الله بن عبد

(١) أخرجه البخاري (حديث ٤٩٠٩)، ومسلم (٧٠٥/٣).

(٢) عند مسلم: بعد وفاة زوجها بليالٍ.

(٣) أخرجه مسلم (٧٠٣/٣).

الله بن عتبة بن مسعود: أن أباه كتب إلى عمر بن عبد الله بن الأرقم يأمره أن يدخل على سبيعة بنت الحارث الأسلمية فيسألها عن حديثها وعما قال لها رسول الله ﷺ حين استفتته، فكتب عمر بن عبد الله إلى عبد الله بن عتبة يخبر أن سبيعة أخبرته أنها كانت تحت سعد بن خولة، وهو في بني عامر بن لؤي، وكان ممن شهد بدرًا فتوفي عنها في حجة الوداع وهي حامل، فلم تنشب أن وضعت حملها بعد وفاته، فلما تعلت من نفاسها تجملت للخطاب؛ فدخل عليها أبو السنابل بن بعكك، رجل من بني عبد الدار، فقال لها: ما لي أراك متجملة لعلك ترجين النكاح، إنك والله ما أنت بناكح حتي تمر عليك أربعة أشهر وعشر، قالت سبيعة: فلما قال لي ذلك جمعت علي ثيابي حين أمسيت فأتيت رسول الله ﷺ فسألته عن ذلك، فأفتاني بأني قد حلت حين وضعت حملي وأمرني بالتزوج إن بدا لي.

*أما إذا لم تكن حاملاً فكما قدمت أن عدتها أربعة أشهر وعشر، وهي أشهر (هلالية) أي الأشهر العربية، لقوله تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَهْلِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ﴾.

فعدة المتوفى عنها زوجها أربعة أشهر وعشر سواء كانت مدخولاً بها أو غير مدخول بها، وسواء كانت صغيرة أو كبيرة، وذلك لقول الله عز وجل: ﴿وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا﴾، ولقول النبي ﷺ: « لا يحل لامرأة تؤمن بالله واليوم الآخر أن تُحدَّ على ميت فوق ثلاث ليالٍ إلا على زوج أربعة أشهر وعشراً»^(١).

وهذا قول أكثر أهل العلم، وقد نقل بعض العلماء الإجماع على ذلك. وكذا المرأة التي طُلِّقت طلاقاً رجعيّاً فمات زوجها في عدتها فإنها تلغي ما كانت احتسبته من أيام، ثم تبدأ في عدة الوفاة من جديد، لأنها زوجة له.

(١) أخرجه البخاري (٥٣٣٥، ٥٨٧٩)، ومسلم (١٤٨٦).

قال ابن قدامة رَحِمَهُ اللَّهُ: وإذا مات زوج الرجعية استأنفت عدة الوفاة أربعة أشهر وعشرًا بلا خلاف.

وقال ابن المنذر: أجمع كل من نحفظ عنه من أهل العلم على ذلك، وذلك لأن الرجعية زوجةٌ يلحقها طلاقه، وينالها ميراثه فاعتدت للوفاة كغير المطلقة.

وقال القرطبي رَحِمَهُ اللَّهُ: أجمع العلماء على أن من طلق زوجته طلاقًا يملك رجعتها ثم توفي قبل انقضاء العدة أن عليها عدة الوفاة وترثه.

تنبيهات:

الأول: هذه الآية ناسخةٌ لقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذُرُونَ أَزْوَاجًا وَصِيَّةً لِّأَزْوَاجِهِمْ مِّمَّا تَرَكَوا إِلَى الْوَلَدِ غَيْرَ إِخْرَاجٍ﴾.

الثاني: في زمن التربص أي: في زمن الانتظار تحتد المرأة، ومعنى الإحداد المنع، وشرعًا: ترك المرأة الزينة والطيب وغيرهما مما كان من دواعي الجماع أو المرغبات في الخطبة، وذلك إذا مات للمرأة ميت، ويجب عليها الإحداد إذا مات زوجها.

الثالث: يجب على المرأة الحادة اجتناب الآتي الكحل - والطيب، والثياب المصبوغة - إلا ثوب العصب^(١) - والخضاب، والمعصفر من الثياب - والممشقة^(٢)، والحلي.

أما الأدلة على ذلك فممنها:

ما أخرجه البخاري ومسلم من حديث أم عطية رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قالت: كنا نهى أن نحد على الميت فوق ثلاث إلا على زوج أربعة أشهرٍ وعشرًا، ولا نكتحل ولا نطيب ولا نلبس ثوبًا مصبوغًا إلا ثوب عصب.

ومنها ما أخرجه أبو داود والنسائي وأحمد وغيرهم بإسناد صحيح عن أم سلمة

(١) ثوب العصب: هو الثوب الذي صُبِغت خيوطه قبل أن تنسج.

(٢) هي المصبوغة بالمشق (وهو الطين الأحمر) الذي يسمى بالمغرة.

ﷺ قالت: قال رسول الله ﷺ: «المتوفى عنها زوجها لا تلبس المعصفر من الثياب، ولا الممشقة، ولا الحلي، ولا تختضب، ولا تكتحل».

الرابع: الحادة لا يجوز لها أن تكتحل، وإن اشتكت عينها لا تكتحل، وذلك لما أخرجه البخاري ومسلم من حديث أم سلمة رضي الله عنها أن امرأة توفي زوجها فخشوا على عينيها فأتوا على رسول الله ﷺ فاستأذنوه في التكحل فقال: «لا تكتحل، قد كانت إحداكن تمكث في شر أحلاسها - أو شر بيتها - فإذا كان حول فمرّ كلب رمت ببكرة^(١)، فلا، حتى تمضي أربعة أشهر وعشر».

هذا وقد يسر الله سبل العلاج للمسلمين والمسلمات بغير الكحل فهناك القطرة والمراهم، ونحو ذلك فلا معنى حينئذٍ للتعلل بالمرض لاستعمال الكحل، والله تعالى أعلم.

وقد ورد حديث ضعيف جداً يجوز للمرأة الحادة في الاكتحال ولا يعول عليه. **التنبيه الخامس:** في مكان اعتداد المتوفى عنها زوجها قد ورد في ذلك بعض الخلاف فيرى كثير من أهل العلم أنها تعتد في بيت الزوجية، ويرى البعض أنها تعتد حيث شاءت، واختار القول بأنها تعتد حيث شاءت لضعف الوارد في إلزامها بالعدة في بيت الزوجية، والله أعلم.

وهذا بعض التفصيل في ذلك أقول، وبالله التوفيق: قد وردت عن رسول الله ﷺ أحاديث تبين أين تعتد المتوفى عنها زوجها، إلا أن هذه الأحاديث لم يصح منها شيء عن رسول الله ﷺ على الراجح، ومن هذه الأحاديث: حديث الفريعة بنت

(١) كانت المرأة في الجاهلية إذا مات زوجها دخلت شر بيتها (شر مكان في بيتها) ولا تغتسل ولا تطيب ولا تقلم ظفرًا حتى يمر عليها عام كامل، ثم بعد العام تأخذ بكرة وترمي بها الكلب الذي يمر بها إشارة إلى أن ما كانت فيه من إحداد أهون عليه من البكرة، وذلك لكبر حق الزوج عليها وعظمه، فكأنها تقول: إن حق زوجي أكبر بكثير مما صنعت، أو أنها ترمي بالبكرة ولسان حالها يقول: لا أعاد الله هذا.

فالمعنى والله أعلم: أن على المسلمات أن يصبرن على الإحداد على أزواجهن أربعة أشهر وعشرًا كما أمر الله، فهي مدة يسيرة بالنسبة لما كان يصنع من الجاهلية، والله أعلم.

مالك - أخت أبي سعيد الخدري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - وفيه أن النبي ﷺ قال لها: «امكثي في بيتك حتى يبلغ الكتاب أجله» وهو ضعيف على الراجح.

✽ وحديث مرسل من طريق مجاهد - والمرسل من قسم الضعيف - قال استشهد رجال يوم أحد عن نسائهم وكن متجاورات في داره فجئن النبي ﷺ فقلن: إن نستوحش يا رسول الله بالليل فنبيت عند إحدانا حتى إذا أصبحنا تبددنا بيوتنا، فقال النبي ﷺ: «تحدثن عند إحداكن ما بدا لكن حتى إذا أردتن النوم فلتأت كل امرأة إلى بيتها».

✽ وحديث علي بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وفيه أن النبي ﷺ أمر المتوفى عنها زوجها أن تعتد حيث شاءت، وهو ضعيف أيضًا.

أما عن أقوال أهل العلم في ذلك فأقول وبالله التوفيق:

✽ قد ذهب عددٌ من الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ إلى أنه المتوفى عنها زوجها تعتد حيث شاءت، منهم عليٌّ وابن عباس وجابر بن عبد الله وعائشة، رضي الله عنهم أجمعين.

✽ فصح عن عليٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنه كان ينقلهن.

✽ وصح عن جابر بن عبد الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن قال: تعتد المتوفى عنها حيث شاءت.

✽ وصح عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنه قال: إنما قال الله تعتد أربعة أشهر وعشرًا، ولم يقل تعتد في بيتها، تعتد حيث شاءت.

✽ وصح عن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أنها حجت بأختها في عدتها.

✽ بينما صح عن عمر وابنه عبد الله وابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ أنها تعتد في بيتها.

✽ فصح عن ابن عمر أنه قال: لا تخرج المتوفى عنها في عدتها من بيت زوجها.

✽ وصح عن ابن مسعود - وقد سأله نساء من همدان نعي إليهن أزواجهن فقلن: إنا نستوحش، فقال عبد الله - تجتمعن بالنهار ثم ترجع كل امرأة منكن إلى بيتها بالليل.

✽ وورد عن عمر من طريق ابن المسيب عنه أنه ردّ نساء حاجات، أو معتمرات توفي أزواجهن من ظهر الكوفة.

وثم آثار في الجانبين للتابعين أعرضنا عن ذكرها.

بعد النظر فيما تقدم من أدلة نرى أنه لم يثبت شيء عن رسول الله ﷺ في إلزام المعتدة بلزوم بيت زوجها.

وما دام لم يثبت شيء في هذا الباب، فنحن مع من قال من أهل العلم: أن المتوفى عنها زوجها تعتد حيث شاءت ، والله تعالى أعلم.

التنبيه السادس: لا يجوز للحادة أن تحمر وجهها أو تصفره بأنواع الصباغات الموجودة الآن لأنه نوع من الخضاب وقد ورد في حديث أم عطية رضي الله عنها عن النبي ﷺ - في بيان المحظورات على الحادة - قال: «... ولا تختضب...» وهي صحيحة بمجموع طرقها.

وكذا في حديث أم سلمة رضي الله عنها عن النبي ﷺ قال: «المتوفى عنها زوجها لا تلبس المعصر من الثياب ، ولا المشقة ولا الحلي، ولا تختضب ، ولا تحتكل».

هذا وقد قال ابن قدامة في «المغني في بيان الممنوعات» على الحادة: فيحرم عليها أن تختضب، وأن تحمر وجهها بالكلكون ، وأن تبيضه بأسفنداج العرايس، وأن تجعل عليه صبراً يصفره، وأن تنقش وجهها ويديها، وأن تحفف وجهها، وما أشبهه بما يحسنها.

✽ **وقال ابن القيم:** فيحرم عليها الخضاب ، والنقش ، والتطريف، والحمرة ، والاسفنداج، فإن النبي ﷺ نهى عن الخضاب منبهاً به على هذه الأنواع التي هي أكثر زينة منه وأعظم فتنة وأشد مصادة لمقصود الحداد.

التنبيه السابع: ولا تلزم المرأة بلبس الأسود بلا حداد، بل تنهى عن لبس الثوب المصبوغ بالأسود، إذا كان قد صبغ بعد نسجه، فاللواتي يصبغن الثياب بالسواد

ويلبسها بعد الوفاة مخالفات لحديث رسول الله ﷺ فقد نهى النبي ﷺ الحادة عن لبس الثياب المصبوغة والمصبوغ بالأسود من جملتها وإن كان بعض أهل العلم قد ذهب إلى إباحة ذلك لأنه صبغ للتقبيح لا للزينة، واتباع سنة رسول الله ﷺ أولى والعلم عند الله.

التنبيه الثامن: عن لبس الحادة للحلي فأقول وبالله التوفيق:

لا يجوز للحادة أن تلبس الخاتم أو العقد من الذهب والفضة ونحوها، وذلك لأنها من جملة الحلي، وقد صح من حديث أم سلمة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ نَهَى عَنْ الْحَلِيِّ.

وقال الإمام مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: ولا تلبس المرأة الحادة على زوجها شيئاً من الحلي خاتماً ولا خلخالاً، ولا غير ذلك من الحلي.

التنبيه التاسع: لو مات رجل وترك امرأة حاملاً ومرت عليها أربعة أشهر لم تزل حاملاً لا تحل للزواج إلا بوضع الحمل.

قال القرطبي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وقد أجمع الجميع بلا خلاف بينهم أن رجلاً لو توفي وترك امرأة حاملاً فانقضت أربعة أشهر وعشر أنها لا تحل حتى تلد.

وقوله تعالى: ﴿فَإِذَا بَلَغْنَ أَجْلَهُنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا فَعَلْنَ فِي أَنْفُسِهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ ۗ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ۝﴾ معناه إذا بلغت المتوفى عنها زوجها ولم تكن حاملاً وقت انقضاء العدة الذي هو أربعة أشهر وعشر فلا إثم عليكم، ولا عليهن إذا تزين للخطاب فخطبن أو تزوجن الزواج الحلال الطيب، ولا إثم عليهن إذا اكتحلن وفعلن ما تفعله المرأة التي ليست في عدتها.

وقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ۝﴾ فيه تحذير لمن تخالف أو يخالف أمر الله عز وجل، فربنا سبحانه وتعالى مطلع عليه وشاهد.



(جواز التعريض بخطبة المتوفى عنها زوجها ومنع التصريح بذلك وكذا منع العقد عليها وتحريمه في زمن عدتها)

قال الله عز وجل: ﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا عَرَّضْتُم بِهِ مِنْ خُطْبَةِ النِّسَاءِ أَوْ أَكْنَنْتُمْ فِي أَنْفُسِكُمْ عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ سَتَذْكُرُونَهُنَّ وَلَكِنْ لَا تُوَاعِدُوهُنَّ سِرًّا إِلَّا أَنْ تَقُولُوا قَوْلًا مَعْرُوفًا وَلَا تَعْزِمُوا عُقْدَةَ النِّكَاحِ حَتَّى يَبْلُغَ الْكِتَابُ أَجَلَهُ، وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي أَنْفُسِكُمْ فَاحْذَرُوهُ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَفُوٌ رَحِيمٌ ٢٣٥﴾.

قوله تعالى: ﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا عَرَّضْتُم بِهِ مِنْ خُطْبَةِ النِّسَاءِ﴾ المراد بالنساء هنا النسوة المعتدات لوفاة أزواجهن والمعنى لا إثم عليكم أيها الرجال إذا عرضتم برغبتكم في خطبة النسوة اللواتي مات عنهن الأزواج وهن لازلن في العدة، أعني أن التعريض يكون في العدة أما التصريح بخطوبتها في عدتها فمحرمٌ والتعريض ضد التصريح، والتعريض هو الكلام المفهم للمعنى وليس بصريح في المعنى وأعيد تفسير الآية بصياغة أخرى فأقول، وبالله التوفيق: وقبل تفسيرها، معلومٌ أنه يحرم بالاتفاق خطوبة المرأة التي مات عنها زوجها وهي في عدتها ومن ثمّ فمعلوم أيضاً وبالاتفاق تحريم زواجها وهي لازالت في عدتها من وفاة زوجها، لكن قد رخص الله سبحانه وتعالى في التعريض لها بالخطوبة وهي لازالت في عدتها، والتعريض ضد التصريح، فمعنى الآية الكريمة، والله تعالى أعلم، لا إثم عليكم إذا تلفظتم بألفاظ ليست بصريحة في الخطوبة أو في الزواج أمام النساء اللواتي مات عنهن الأزواج وهن لازلن في العدة.

وللتعريض صور: منها على سبيل المثال إذا كانت المرأة طويلة سمراء نحيفة،

تقول وددت أن الله يسر لي الزواج بامرأة طويلة سمراء نحيفة، وأسأل الله أن يسر لي ذلك وإن كانت المرأة حافظة للقرآن داعية إلى الله عندها أولاد، تقول وددت أن الله يسر لي الزواج بامرأة حافظة للقرآن داعية إلى الله عندها أولاد.

وهذه بعض صور التعريض الواردة عن السلف الصالح رحمهم الله، فمنها: ما أخرجه البخاري عن ابن عباس ^(١) **رَوَاهُ**: ﴿فِيمَا عَرَضْتُمْ بِهِ مِنْ خُطْبَةِ النِّسَاءِ﴾، يقول: (إني أريد التزويج ولوددت أنه يُيسر لي امرأة صالحة).

❀ وما أخرجه مالك في «الموطأ» بإسناد صحيح ^(٢) إلى القاسم بن محمد أنه كان يقول في قول الله عز وجل: ﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا عَرَضْتُمْ بِهِ مِنْ خُطْبَةِ النِّسَاءِ أَوْ أَكْنَنْتُمْ فِي أَنْفُسِكُمْ﴾، أن يقول الرجل للمرأة وهي في عدتها من وفاة زوجها، إنك عليّ لكريمة، وإني فيك لراغب، وإن الله لسائق إليك خيرًا ورزقًا، ونحو هذا من القول.

❀ وأخرج الطبري ^(٣) بإسناد صحيح عن عبيدة قال في هذه الآية: قال: (يذكرها إلى وليّها يقول: لا تسبقني بها)، إلى غير ذلك من صور التعريض، والله تعالى أعلم.

وقوله تعالى: ﴿أَوْ أَكْنَنْتُمْ فِي أَنْفُسِكُمْ﴾ أي: ولا جناح عليكم فيما أسررتم به في أنفسكم من رغبتكم في الزواج بالمتوفى عنهن الأزواج وهن لازلن في العدة ما دمت لم تصرحوا به.

وقوله: ﴿عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ سَتَذْكُرُونَهُنَّ﴾ أي: علم الله أنكم ستحدثون في شأن هؤلاء النسوة اللواتي مات عنهن الأزواج أو ستذكرونهن في أنفسكم فنهاكم عن ذلك ﴿وَلَكِنْ لَا تَوَاعِدُوهُنَّ سِرًّا إِلَّا أَنْ تَقُولُوا قَوْلًا مَعْرُوفًا﴾ معناه ولكن لا تتحدثوا

(١) البخاري (حديث ٥١٢٤).

(٢) «الموطأ» (ص ٥٢٤)، والطبري في «التفسير» (٥١٢٥)، والبيهقي في «السنن الصغرى» (٣٦/٥)، وابن أبي شيبه في «المصنف» (٢٥٩/٤).

(٣) الطبري (أثر ٥١٠٥).

معهن حديثاً في السرّ تأخذوا عليهن به العهود والمواثيق أن لا يتزوجن غيركم ولا تتزوجوهن في السر ولا تفعلوا معهن محرماً كالزنا أو مقدماته أو أي شيء لا يحل لكم منهن أما قوله تعالى: ﴿إِلَّا أَنْ تَقُولُوا قَوْلًا مَّعْرُوفًا﴾ أي المباح لكم هو القول بالمعروف، وهو القول الذي أذن الله به، ومن ذلك ما أخرجه الطبري بإسناد صحيح عن سعيد بن جبير ^(١) قال: ﴿إِلَّا أَنْ تَقُولُوا قَوْلًا مَّعْرُوفًا﴾، قال: يقول: إني فيك لراغب، وإني لأرجو أن نجتمع.

❀ وكذلك ما أخرجه الطبري ^(٢) بإسناد صحيح عن ابن زيد في قوله: ﴿إِلَّا أَنْ تَقُولُوا قَوْلًا مَّعْرُوفًا﴾، قال: يقول: (إن لك عندي كذا، ولك عندي كذا، وأنا معطيك كذا وكذا). قال: هذا كله وما كان قبل أن يعقد عقدة النكاح. وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَعَزَّمُوا عُقْدَةَ النِّكَاحِ حَتَّى يَبْلُغَ الْكِتَابُ أَجَلَهُ﴾ ❀ معناه والله أعلم لا تصححوا عقدة النكاح في عدة المرأة المعتدة حتى تنقضي الأربعة أشهر وعشر، أو بمعنى آخر: لا تعقدوا حتى تنتهي العدة ^(٣).

وقوله تعالى: ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي أَنْفُسِكُمْ فَاحْذَرُوهُ﴾ ❀ تهديد لمن سوّلت لهم أنفسهم أن ينتهكوا حرّات الله عزّ وجلّ أخبرهم الله عزّ وجلّ أنه يعلم ما في أنفسهم وحذرهم من مخالفة أمره، ثم فتح الله عزّ وجلّ باب التوبة أمام من يريدونها بقوله: ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَفُوٌّ﴾ ❀ يغفر ذنب من تاب إليه وامثل أمره ﴿حَلِيمٌ﴾ ❀ لا يُعَاجِلُ بالعقوبة سبحانه، والله تعالى أعلم.



(١) أخرجه الطبري (٥١٧٢).

(٢) أخرجه الطبري (٥١٧٨).

(٣) الطبري (٥١٨٢).

(بعض حقوق المطلقة غير المدخول بها)
(متعة المطلقة قبل المسيس)

قال الله عز وجل: ﴿ لَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِنْ طَلَقْتُمُ النِّسَاءَ مَا لَمْ تَمْسُوهُنَّ أَوْ تَفْرِضُوا لَهُنَّ فَرِيضَةً وَمَتَّعُوهُنَّ عَلَى الْمَوْسِعِ قَدَرُهُ، وَعَلَى الْمُقْتَرِ قَدَرُهُ، مَتَّعًا بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُحْسِنِينَ ﴾ (٢٣٦) وَإِنْ طَلَقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمْسُوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً فَنَصِفْ مَا فَرَضْتُمْ إِلَّا أَنْ يَعْفُوَ أَنْ يَعْفُوَ الَّذِي بِيَدِهِ عُقْدَةُ النِّكَاحِ وَأَنْ تَعْفُوا أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَلَا تَنْسُوا الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ (٢٣٧).

قوله تعالى: ﴿ لَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِنْ طَلَقْتُمُ النِّسَاءَ مَا لَمْ تَمْسُوهُنَّ أَوْ تَفْرِضُوا لَهُنَّ فَرِيضَةً ﴾ هذه الآية في بيان حقوق بعض المطلقات فالمرأة المطلقة قبل الدخول بها إذا لم يعين لها المهر (إذا لم يحدد لها المهر) فالمراد بالجناح هنا التبعة من المهر ونحوه، فالمعنى: لا إثم عليكم إذا لم تدفعوا الصداق إلى النساء ما دتم قد طلقتموهن قبل أن تجامعهن وقبل أن تسموا (أي: تحددوا) لهن الصداق، والله تعالى أعلم.

* فالذي طلق امرأته قبل أن يجامعها ولم يكن سمى لها صداقاً (أي حدد لها مهراً) لا شيء عليه إلا المتعة وذلك لقول الله عز وجل: ﴿ لَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِنْ طَلَقْتُمُ النِّسَاءَ مَا لَمْ تَمْسُوهُنَّ أَوْ تَفْرِضُوا لَهُنَّ فَرِيضَةً وَمَتَّعُوهُنَّ... ﴾.

✽ وقال الطبري رحمه الله: وأجمع الجميع على أن المطلقة غير المفروض لها قبل المسيس لا شيء لها على زوجها المطلقة غير المتعة.

وقوله: ﴿أَوْ تَقْرِضُوا لَهُنَّ فَرِيضَةً﴾ معناه أو تتفقوا معهن على الصداق وتعينونه وقوله تعالى: ﴿وَمَتَّعُوهُنَّ﴾ أي أعطوهن شيئاً من المال يتمتعن به، وعلى ما سبق يجوز للرجل أن يعقد على امرأة ولا يُحدد لها صداقاً ^(١) عند العقد؛ وذلك لقوله تعالى: ﴿لَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِنْ طَلَقْتُمُ النِّسَاءَ مَا لَمْ تَمْسُوهُنَّ أَوْ تَقْرِضُوا لَهُنَّ فَرِيضَةً﴾، ومن المعلوم أن الطلاق لا يكون إلا بعد نكاح، فعليه يجوز النكاح من قبل أن تفرض الفريضة، والله أعلم.

وهذه المتعة لا تحديد لها على الصحيح، بل تختلف باختلاف الأشخاص والأحوال والبلدان والأزمان، ولا تحديد لها لقول الله تعالى: ﴿عَلَى الْمُؤْسِعِ قَدَرُهُ وَعَلَى الْمُقْتِرِ قَدَرُهُ﴾.

قال الشنقيطي في «أضواء البيان»: فإن توافقا على قدرٍ مُعين فالأمر واضح، وإن اختلفا فالحاكم يجتهد في تحقيق المناط، فيعين القدر على ضوء قوله تعالى: ﴿عَلَى الْمُؤْسِعِ قَدَرُهُ وَعَلَى الْمُقْتِرِ قَدَرُهُ﴾، والله أعلم.

قلت: فقله تعالى: ﴿عَلَى الْمُؤْسِعِ قَدَرُهُ﴾ أي من وسع الله عليه في الأرزق وأغناه الله فعليه من المتعة بقدر غناه وبقدر توسعة الله عليه، ﴿وَعَلَى الْمُقْتِرِ قَدَرُهُ﴾ وعلى المقل من المال، الفقير الذي لم يوسع الله عليه، عليه من المتعة للمرأة المطلقة على قدر استطاعته.

وقوله تعالى: ﴿مَتَّعَابًا مَّعْرُوفٍ﴾ أي يدفع إليهن المتاع بالمعروف، بالخلق الكريم وبالقدر المتعارف عليه بين الناس.

﴿حَقًّا﴾ للنسوة المطلقات على أزواجهن المطلقين.

﴿عَلَى الْمُحْسِنِينَ﴾ على أزواجهن المحسنين.

وقوله تعالى: ﴿وَإِنْ طَلَقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمْسُوهُنَّ﴾ أي من قبل الدخول بهن

(١) وليس معنى ذلك إسقاط الصداق، فالصداق فرض؛ وذلك لقول الله تعالى: ﴿وَأَتُوا النِّسَاءَ صَدُقَتَيْنِ خِلَّةً﴾ [النساء: ٤]، أي: فريضة.

(من قبل جماعهن) ﴿وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً﴾ وقد سميتن لهن صداقاً ﴿فَنَصَفُ مَا فَرَضْتُمْ﴾ أي فلهن نصف الصداق الذي اتفقتم عليه ﴿إِلَّا أَنْ يَعْفُوَ﴾ إلا إذا عفت المرأة عن نصف الصداق المستحق لها وسامحت فيه. وقوله: ﴿أَوْ يَعْفُوا الَّذِي بِيَدِهِ عُقْدَةُ النِّكَاحِ﴾ لأهل العلم في تفسير الذي بيده عقدة النكاح قولان: فقال بعض أهل العلم: إنه ولي المرأة له أن يعفو عن نصف الصداق الخاص بموليته.

❖ وقال آخرون: إن الذي بيده عقدة النكاح هو الزوج^(١)، فيكون المعنى على هذا القول: أن يعفو الزوج عن تنصيف الصداق ويعطيها الصداق كاملاً. وبكل قول قد قال فريق من أهل العلم المتقدمين، والآثار الواردة عنهم قد ذكرها ابن جرير الطبري وغيره، ورجح الطبري رحمته الله - من عدة وجوه - أن المراد بالذي بيده عقدة النكاح هو: الزوج^(٢)، والله تعالى أعلم. وقوله تعالى: ﴿وَأَنْ تَعْفُوا أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى﴾ الخطاب فيه للزوجات والأزواج^(٣) فإما معشر النسوة المطلقات قبل الميسر علمتم أن لكن الحق في نصف الصداق، فإن عفوتن عنه فعفوكم يقربكن من التقوى، وهو سبب في حشركن في عداد المتقين.

(١) صح ذلك عن طاوس ومجاهد (عند الطبري ٥٢٨٣، ٥٢٨٩)، وشريح (٥٣٢٤)، وابن المسيب (كما عند الطبري ٥٣٣٩)، وسعيد بن جبیر (كما عند الطبري ٥٣٤٦)، وغيرهم.

(٢) قال الطبري رحمته الله :

وأولى القولين في ذلك بالصواب قول من قال: المعنى بقوله: ﴿الَّذِي بِيَدِهِ عُقْدَةُ النِّكَاحِ﴾، الزوج وذلك لإجماع الجميع على أن وليّ جارية بكر أو ثيب، صبيّة صغيرة كانت أو مدركة كبيرة، لو أبرأ زوجها من مهرها قبل طلاقه إياها، أو وهبه له أو عفا له عنه - أن إبراءه ذلك وعفوه له عنه باطل، وأن صداقها عليه ثابت بثبوته قبل إبرائه إياه منه، فكان سبيل ما أبرأه من ذلك بعد طلاقه إياها، سبيل ما أبرأه منه قبل طلاقه إياها.

(*) في إسناد ابن جرير، مدلس، وقد عنعن.

(٣) على رأي من قال: إن الذي بيده عقدة النكاح هو الزوج.

وأنتم يا معشر الأزواج، يا من طلقتم أزواجكم قبل البناء بهن قد علمتم أن عليكم لأزواجكم نصف الصداق فقط، فإن عفوتن لهن عن النصف الباقي، فهذا أقرب للتقوى، وسبب في جمعكم مع المتقين، ولا تنسوا يا معشر النساء ويا معشر الأزواج ما كان بينكم من سابق فضل وإحسان، والله بما تعملون من عفو وإحسان بصير^(١).

وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَنْسُوا الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ﴾ تذكير لأهل الإيمان من الأزواج والزوجات بأن لا ينسوا الفضل الذي كان بينهم، فكم كان بينهم من فضل وكلام طيب، وكم كانت بينهم من مودة ومحبة، وكم كان بينهم من ائتلاف؟! فلا ينبغي أن يُنسى هذا.

﴿إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ بصيرٌ بعفوكم، بصيرٌ بتصرفاتكم فافعلوا ما يرضي الله عزَّ وجل.

(المطلقات وحقوقهن في الصداق)

وهذه أقسام المطلقات بالنسبة لتسمية الصداق والدخول بهن وحكم كل قسم منهن بالنسبة للمتعة والصداق، فأقول، وبالله التوفيق:

المطلقات بالنسبة لما ذكر أربعة أقسام:

الأول: مطلقة غير مدخول بها ولم يُسم (أي: لم يُحدد) لها الصداق.

الثاني: مطلقة غير مدخول بها، وقد سُمي لها الصداق.

الثالث: مطلقة دخل بها زوجها، ولم يُسم لها الصداق.

الرابع: مطلقة دخل بها زوجها، وسمي لها الصداق.

(١) أخرج الطبري (٥٣٧٠)، بإسناد حسن عن قتادة ﴿وَلَا تَنْسُوا الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾، يرغبكم الله في المعروف، ويحثكم على الفضل.

أما بالنسبة لحكم متعة كل منهن وصداقها، فعلى النحو التالي:

الأول: المطلقة غير المدخول بها، والتي لم يُسم لها صداق، فليس لها من الصداق شيء^(١)، لقول الله عز وجل: ﴿لَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِنْ طَلَقْتُمُ النِّسَاءَ مَا لَمْ تَمْسُوهُنَّ أَوْ تَفْرِضُوا لَهُنَّ فَرِيضَةً...﴾، لكن لها المتعة لقوله تعالى: ﴿وَمَتَّعُوهُنَّ﴾.

الثاني: المطلقة غير المدخول بها وقد سُمي لها صداق، فهذه لها نصف الصداق لقوله تعالى: ﴿وَإِنْ طَلَقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمْسُوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ إِلَّا أَنْ يَعْفُوَ﴾ الآية.

أما بالنسبة لمتعتها: فاختلف أهل العلم فيها، فمن العلماء من قال: لها متعة لعموم قول الله تعالى: ﴿وَالْمُطَلَّقَاتُ مَتَّعٌ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ﴾، ومنهم من قال: ليس لها متعة^(٢)، لأن الله تعالى قال: ﴿لَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِنْ طَلَقْتُمُ النِّسَاءَ مَا لَمْ تَمْسُوهُنَّ أَوْ تَفْرِضُوا لَهُنَّ فَرِيضَةً وَمَتَّعُوهُنَّ عَلَى الْمُوسِعِ قَدَرُهُ وَعَلَى الْمُقْتِرِ قَدَرُهُ مَتَّعًا بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُحْسِنِينَ﴾ (٣١) وَإِنْ طَلَقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمْسُوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ، قالوا: فدل ذلك على التفريق بين التي لم يُسم لها صداق فلها المتعة لقوله تعالى: ﴿وَمَتَّعُوهُنَّ﴾، والتي سُمي لها صداق فلها نصف الصداق.

الثالث: المطلقة التي دخل بها زوجها ولم يُسم لها صداقًا ثم طلقها، فهذه لها الصداق لقوله تعالى: ﴿فَمَا اسْتَمْتَعْتُمْ بِهِ مِنْهُنَّ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ فَرِيضَةً﴾ [النساء: ٢٤]، وهذا الصداق يقدر بمهر مثلها، وذلك لما أخرجه أحمد واللفظ له، وأبو داود والترمذي والنسائي وابن ماجه من طريق علقمة قال: أتي عبد الله في امرأة

(١) والطبري رحمه الله قد نقل الإجماع على ذلك.

(٢) أخرج الطبري (٥٢١٥) بإسناد صحيح إلى ابن عمر أنه كان يقول: لكل مطلقة متعة إلا التي طلقها ولم يدخل بها وقد فرض لها فلها نصف الصداق ولا متعة لها.

وأخرج بأسانيد صحيحة إلى سعيد بن المسيب في الذي يطلق امرأته وقد فرض لها، أنه قال في المتاع: قد كان لها المتاع في الآية التي في الأحزاب، فلما نزلت الآية التي في البقرة جعل لها النصف من صداقها إذا سمى ولا متاع لها، وإذا لم يُسم فلها المتاع.

تزوجها رجل ثم مات عنها ولم يفرض لها صداقاً ولم يكن دخل بها، قال :
فاختلفوا إليه، فقال: أرى لها مثل صداق نساءها، ولها الميراث، وعليها العدة،
فشهد معقل بن سنان أن رسول الله ﷺ قضى في بروع بنت واشق بمثل ما قضى.
قلت: وإسناده صحيح.

أما بالنسبة للمتعة فسيأتي الكلام عليها قريباً مع البند الرابع.

الرابع: مطلقة دخل بها زوجها وسمى لها الصداق ، فهذه لها الصداق كاملاً
لقوله تعالى: ﴿وَلَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَأْخُذُوا مِمَّا آتَيْتُمُوهُنَّ شَيْئًا إِلَّا أَنْ يَخَافَا أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ
اللَّهِ...﴾ [البقرة: ٢٢٩]، ولقوله تعالى: ﴿وَأَتُوا النِّسَاءَ صَدُقَتِهِنَّ نِحْلَةً﴾ [النساء: ٤]،
ولقول النبي ﷺ: «... فلها الصداق بما استحل من فرجها...».

أما بالنسبة لمتعتها ومتعة التي تقدم ذكرها في البند الثالث: فلا هل العلم فيها
قولان:

أحدهما: لهما متعة لعموم قول الله تبارك وتعالى: ﴿وَلِلْمُطَلَّقَاتِ مَتَاعٌ بِمَا مَعْرُوفٍ﴾
حقاً على الْمُتَّقِينَ ﴿[البقرة: ٢٤١]﴾، ولقول الله ﷻ: ﴿يَتَأْتِيَ النَّبِيَّ قُلُوبٌ لَّا رُؤْيَا لَهَا شَيْءٌ وَكَانَ
نُذِيرًا لِلْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَزِينَةً لِلنِّسَاءِ أَمَّا تَعْلَمُونَ أَنَّ صَدُقَتَهُنَّ لِمَنْ نَكَحَهُنَّ فِي الْحَيَاةِ
الدُّنْيَا وَقَدْ كَانَتْ رِجَالًا يَدْعُونَ بِنِسَاءِهِمْ وَلَمْ يَمْسَسُوهُنَّ يَدًا وَلَا رِجْلًا وَلَا جِسْمًا
وَلَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ
وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا﴾ [الأحزاب: ٢١].

ومن العلماء من ذهب إلى أنه لا متعة، وذلك لقول الله تعالى: ﴿حَقًّا عَلَى
الْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: ٢٤١].

✽ هذا ويستفاد من الآية الكريمة أدبٌ عظيم ألا وهو جبر الخواطر المنكسرة
فالمطلقة التي كُسر خاطرها بتطليقها يُجبر كسرهما ببعض المتاع، لقوله تعالى:
﴿وَلِلْمُطَلَّقَاتِ مَتَاعٌ بِمَا مَعْرُوفٍ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ﴾.

وتم استدلالاً آخر على جبر الخواطر المنكسرة منها:

قوله عز وجل: ﴿وَإِذَا حَضَرَ الْقِسْمَةَ أُولُو الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسْكِينُ

فَارْزُقُوهُمْ مِنْهُ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَعْرُوفًا ﴿٨﴾ [النساء: ٨]، فجبر الله خاطر أولي القربى الذين ليس لهم حظ في الميراث، وكذلك جبر خاطر اليتامى والمساكين.

❁ وقوله تعالى: ﴿وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الزخرف: ٢٨].
فجبر الله خاطر إبراهيم عليه السلام لما كذبه قومه، وجعل كلمة التوحيد، وجعل النبوة في عقبه (أي: في ذريته ونسله).

❁ وجبر الله خاطر يوسف عليه السلام بعد أن آذاه إخوته، فرجع الأمر عليهم، وقالوا له: ﴿وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَا إِنَّ اللَّهَ يَجْزِي الْمُتَصَدِّقِينَ﴾ [يوسف: ٨٨].

وقالوا له أيضاً: ﴿قَالُوا تَأَلَّه لَقَدْ ءَاثَرَكَ اللَّهُ عَلَيْنَا وَإِنْ كُنَّا لَخَاطِئِينَ﴾ [يوسف: ٩١].

❁ وجبر الله خاطر المستضعفين فقال: ﴿وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ﴾ ٥ ﴿وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ﴾ [القصص: ٥]
وقال تعالى: ﴿وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضْعَفُونَ مَشْرِقَ الْأَرْضِ وَمَغْرِبَهَا الَّتِي بَرَكْنَا فِيهَا وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَءِيلَ بِمَا صَبَرُوا...﴾

[الأعراف: ١٣٧]



(الأمر بالمحافظة على الصلوات والصلاة الوسطى وشيء من الحديث عن صلاة الخائف)

قال الله عز وجل: ﴿ حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَى
وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ ﴾ (٢٣٨) فَإِنْ خِفْتُمْ فَرَجَلًا أَوْ رُكْبَانًا فَإِذَا أَمِنْتُمْ
فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَمَا عَلَّمَكُمْ مَا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ ﴾ (٢٣٩).

وقوله تعالى: ﴿ حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ ﴾ أدوا الصلوات في أوقاتها ولا تغفلوا عنها ولا تسهوا عنها ﴿ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَى ﴾ أي وحافظوا على الصلاة الوسطى، التي هي صلاة العصر وجاء التأكيد عليها لعظيم فضلها ولعظيم شأنها فهنا عطف للخاص على العام، فالصلاة عامة والصلاة الوسطى خاصة، وهي داخلة في العموم، فزيد التنبيه عليها لعظيم فضلها.

وجمهور العلماء على أن المراد بالصلاة الوسطى: صلاة العصر، وذلك لقول النبي ﷺ يوم الخندق: «حبسونا عن الصلاة الوسطى حتى غابت الشمس ملأ الله قبورهم وبيوتهم - أو أجوافهم - نارا» (١).

وفي بعض الروايات: «شغلونا عن الصلاة الوسطى: صلاة العصر..» (٢).
وقد وصفت صلاة العصر بأنها الوسطى لتوسطها سائر الصلوات، وقيل: لأنها أفضل الصلوات لقول النبي ﷺ: «من ترك صلاة العصر فقد حبط عمله» (٣)،
وقوله عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «من فاتته صلاة العصر فكأنما وتر أهله وماله» (٤).

(١) أخرجه البخاري (حديث ٤٥٣٣)، ومسلم (حديث ٦٢٧)، من حديث علي رضي الله عنه مرفوعاً.

(٢) أخرجهما مسلم (ص ٤٣٧ ترتيب محمد فؤاد عبد الباقي).

(٣) أخرجه البخاري (حديث ٥٥٣).

(٤) أخرجه البخاري (٥٥٢)، ومسلم (حديث ٦٢٦).

وقوله تعالى: ﴿وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ﴾ أي وقوموا لله في صلاتكم ﴿قَانِتِينَ﴾ قيل مُطِيعِينَ، وقيل خاشعين، وقيل ذليلين وقيل ساكتين.

ويطلق القنوت على طول القيام، وكذا قد يطلق أحياناً على الدعاء والمعنى الأول (خاشعين - ساكتين - خاضعين) هو الأولي في هذا المقام، والله أعلم.

وقوله تعالى: ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ فِرْجَلاً أَوْ رُكْبَانًا﴾^(١) أي إن كنتم في حرب أو في موطن خوف شديد حال بينكم وبين إقامة الصلاة على الوجه المشروع ﴿فِرْجَلاً أَوْ رُكْبَانًا﴾ أي فصلوا على أرجلكم مُشَاءً أو وقوفاً أو صلوا على ظهور دوابكم.

وقوله تعالى: ﴿فَإِذَا أَمِنْتُمْ﴾ من عدوكم ﴿فَاذْكُرُوا اللَّهَ﴾ في صلاتكم وفي غيرها ﴿كَمَا عَلَّمَكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ﴾ أي اذكروه شاكرين له لتعليمه إياكم أحكام دينكم وشرائع إيمانكم ولاخباره لكم بعاجل أمركم وآجله هذا، وقوله: ﴿فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَمَا عَلَّمَكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ﴾ يتضمن أننا نصنع كما أمرنا الله، فإذا انقضى الخوف وذهب فلنصلي كما أمرنا الله من القيام والركوع والسجود والجلوس ونحو ذلك.

وهذه كقوله تعالى: ﴿فَإِذَا أَطْمَأْنَنْتُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾.



(١) أخرج الطبري (٥٥٤٧)، بإسناد حسن عن قتادة قال: ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ فِرْجَلاً أَوْ رُكْبَانًا﴾ الآية [البقرة: ٢٣٩]، أحل الله لك إذا كنت خائفاً عند القتال أن تصلي وأنت راكب وأنت تسعى تومئ برأسك من حيث كان وجهك إن قدرت على ركعتين، وإلا فواحدة.

(آية منسوخة في عدة المتوفى عنها زوجها
واعادة التذكير بمتعة المطلقات)

قال الله عز وجل: ﴿وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا وَصِيَّةً
لِأَزْوَاجِهِمْ مَتْنَعًا إِلَى الْحَوْلِ غَيْرَ إِخْرَاجٍ فَإِنْ خَرَجْنَ فَلَا جُنَاحَ
عَلَيْكُمْ فِي مَا فَعَلْتُمْ فِي أَنْفُسِهِنَّ مِنْ مَّعْرُوفٍ وَاللَّهُ عَزِيزٌ
حَكِيمٌ ﴿٢٤٠﴾ وَلِلْمُطَلَّقاتِ مَتَعٌ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ
﴿٢٤١﴾ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ ءَايَتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢٤٢﴾

﴿وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا وَصِيَّةً لِأَزْوَاجِهِمْ مَتْنَعًا إِلَى الْحَوْلِ
غَيْرَ إِخْرَاجٍ فَإِنْ خَرَجْنَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِي مَا فَعَلْتُمْ فِي أَنْفُسِهِنَّ مِنْ مَّعْرُوفٍ
وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٤٠﴾﴾ هذه الآية في عدة المتوفى عنها زوجها كانت في أول الأمر
ثم نُسخت فكانت المرأة إذا مات عنها زوجها تبقى في بيت الزوجية لمدة سنة (وهي
الحول) ولا تخرج من بيتها فقله: ﴿غَيْرَ إِخْرَاجٍ﴾ أي ليس لأولياء الميت أن
يخرجوها وليس لوارثي الميت أن يخرجوها لمدة سنة.

وقوله تعالى: ﴿فَإِنْ خَرَجْنَ﴾ أي إن خرجت المتوفى عنها زوجها من بيت الزوجية
﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِي مَا فَعَلْتُمْ فِي أَنْفُسِهِنَّ مِنْ مَّعْرُوفٍ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾
أي فلا جناح عليكم يا أولياء الزوج الميت، أو يا ورثة الزوج الميت، لا إثم عليكم إذا
خرجت امرأته من البيت وقطعتم عنها النفقة، ولا إثم عليكم إذا خرجت امرأة
الميت بعد الحول وتزوجت بالمعروف ﴿وَاللَّهُ عَزِيزٌ﴾ غالب ﴿حَكِيمٌ﴾ فيما
يشرع، وكما سلف فالآية الكريمة منسوخة قال بذلك جمهور العلماء ومنسوخة بقوله

تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا...﴾.

[البقرة: ٢٣٤]

✽ وأخرج البخاري^(١) بإسناده إلى ابن الزبير قال: قلت لعثمان بن عفان: ﴿وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا﴾ [البقرة: ٢٤٠]، قال: قد نسختها الآية الأخرى، فلم تكتبها أو تدعها، قال: يا ابن أخي لا أغير شيئاً منه من مكانه.

بينما ذهب بعض أهل العلم: إلى أن الآية ليست منسوخة، منهم: مجاهد بن جبر رحمه الله تعالى.

ورأي الجمهور أولى بلا شك، قال القاضي عياض **رحمته الله** - كما نقل عنه القرطبي -: والإجماع منعقد على أن الحول منسوخ، وأن عدتها أربعة أشهر وعشر.

قلت: ودل على هذا قول النبي **ﷺ**: «إنما هي أربعة أشهر وعشر» والله تعالى أعلم.

قوله تعالى: ﴿وَالْمُطَلَّقَاتُ مَتْنِعُ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ﴾ تأكيد على متعة المطلقة، فللمطلقة حق، وهو المتعة على مطلقها، وقد بينت تفصيل ذلك قريباً.

وقوله: ﴿كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ﴾ يظهرها لكم ويوضحها لكم ﴿لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ عن الله عز وجل أمره.



(١) أخرجه البخاري (حديث ٤٥٣٠).

(قصة الذين خرجوا من ديارهم وهم ألوف حذر الموت)

قال الله عز وجل: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ اللَّهُ مُوتُوا ثُمَّ أَحْيَاهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٢٤٣﴾ وَقَتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٤٤﴾ مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضْعِفُهُ لَهُ أَزْوَاجًا كَثِيرَةً وَاللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْصِطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٤٥﴾

معاني مفردات الآيات المباركات :

الكلمة	معناها
﴿ أَلَمْ تَرَ ﴾	ألم تعلم.
﴿ أُلُوفٌ ﴾	جمع: ألف ^(١) - وقيل : وهم مؤتلفون فيما بينهم لم يُخرجهم خلاف ^(٢) .
﴿ حَذَرَ الْمَوْتِ ﴾	خوف الموت ^(١) .
﴿ يَقْبِضُ ﴾	يقتَر ويضيِّق على من يشاء، وقيل : يقبض يد من يشاء عن الإنفاق.
﴿ وَيَبْصِطُ ﴾	يوسِّع على من يشاء ، وقيل : يبسط يد من يشاء فيجعله ينفق.

(١) وعلى ذلك أكثر أهل العلم.

(٢) أشار الطبري رحمه الله إلى شذوذ هذا القول: (القول بأنهم خرجوا مؤتلفين).

المعنى الإجمالي للقصة المباركة وبيان ما فيها من العظات:

يُذَكِّرُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ بأنه لا يغني حذرٌ من قدر وأن أمر الله عَزَّ وَجَلَّ واقع لا محالة فهؤلاء قوم خرجوا من ديارهم خوفاً من الموت وقيل خوفاً من مرض الطاعون فلما خرجوا من بلدتهم واجتمعوا في مكان بعيد عنها قال الله لهم:

﴿مُوتُوا﴾ فماتوا جميعاً عن آخرهم!!

ماتوا جميعاً بكلمة ﴿مُوتُوا﴾!!

ماتوا جميعاً ثم أحياهم الله عَزَّ وَجَلَّ!!

ليعلموا أنه لا يغني حذرٌ من قدر!!

ليعلموا أن الذي يحيى ويميت هو الله عَزَّ وَجَلَّ!!!

ليتعلموا دروساً في حياتهم وليستفيدوا لآخرتهم!!

ففي إحيائهم بعد إماتتهم فضلٌ من الله عَزَّ وَجَلَّ عليهم وفوائدٌ لهم نعم في ذلك فوائد بل جملةٌ من الفوائد:

أولها: إثبات البعث والمعاد، فإذا علموا ذلك عملوا له، فكان في عملهم نجاة لهم من النار بإذن الله.

الثاني: تشجيع الناس على القتال في سبيل الله وبيان أنه لن يقدم أجلاً، ولن يؤخره، فإذا جاهدوا في سبيل الله نالوا جنة الله ﷻ.

الثالث: أنه سبحانه تفضل على الذين أحياهم بعد أن أماتهم، تفضل عليهم بإحيائهم ليعملوا صالحاً ويستغفروا من ذنوبهم، ويُذكر الناس بقدرته فيؤمنوا به فيدخلوا الجنة، جعلنا الله من أهلها.

وثم أوجه آخر، والعلم عند الله **سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى**.

﴿هَذَا﴾ ومع هذا الفضل فإن كثيراً من الناس لا يقدمون شكراً لله عَزَّ وَجَلَّ على نعمه عليهم، وكما سلف فالقصة أُردفت بالحث على القتال إذ الله قال ﴿وَقَاتِلُوا فِي

(١٤) وقيل خوف الموت بالطاعون.

سَبِيلِ اللَّهِ وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٤٤﴾ ووجه ذلك أن يوضح للناس أن فرارهم من القتال لن يطوّل أعمارهم، ولن يباعد آجالهم، وكذلك إقدامهم على الجهاد في سبيل الله لن يُقدّم آجالهم، وعلى هذا جاءت أقوال أهل العلم.

قال الشنقيطي رَحِمَهُ اللَّهُ فِي «أَضْوَاءِ الْبَيَانِ»:

المقصود من هذه الآية الكريمة، تشجيع المؤمنين على القتال بإعلامهم بأن الفرار من الموت لا ينجي، فإذا علم الإنسان أن فراره من الموت أو القتل لا ينجيه، هانت عليه مبارزة الأقران، والتقدم في الميدان، وقد أشار تعالى أن هذا هو مراده بالآية حيث أتبعها بقوله: ﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ الآية [البقرة: ٢٤٤]، وصرح بما أشار إليه هنا في قوله: ﴿قُلْ لَنْ يَنْفَعَكُمْ الْفِرَارُ إِنْ فَرَرْتُمْ مِنَ الْمَوْتِ أَوِ الْقَتْلِ وَإِذًا لَا تُمْنُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الأحزاب: ١٦]، وهذه أعظم آية في التشجيع على القتال، لأنها تبين أن الفرار من القتل لا ينجي منه، ولو فرض نجاته منه فهو ميت عن قريب.

قلت (مصطفى): ولما كان القتال في سبيل الله يحتاج إلى مال ونفقة جاء الحث على النفقة من الكسب الحلال الطيب، نفقة غير متبوعة باليمن والأذى!

نفقة يراد بها وجه الله، لا يراد بها وجه أحد سواه فقال تعالى: ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضْعِفُهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً وَاللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْصُطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾.

وفي ختام الآية بقوله تعالى ﴿وَاللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْصُطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ تذكير بأن المال الذي في يدك يا ابن آدم هو فضل من الله عليك ولو شاء لحرمك منه، فمن ثم أنفق مما أعطاك الله!!

وكذا فيه التحذير من إذهاب المال إذا لم تنفقه في طاعة الله.

وقوله: ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ يوم القيامة فيثيب المنفق المتصدق، ويعاقب البخيل.

*وأعود إلى أصل القصة فأقول، وبالله التوفيق: أخرج الطبري^(١) بإسنادٍ صحيح عن ابن عباس رضي الله عنهما قال في قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ﴾ [البقرة: ٢٤٣]، قال: كانوا أربعة آلاف خرجوا فرارًا من الطاعون، قالوا: نأتي أرضًا ليس فيها موت حتى إذا كانوا بموضع كذا وكذا قال لهم الله: ﴿مُوتُوا﴾ [البقرة: ٢٤٣]، فمر عليهم نبي من الأنبياء فدعا ربه أن يحييهم، فأحياهم فتلا هذه الآية: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ﴾ [البقرة: ٢٤٣] قلت: هكذا قال ابن عباس رضي الله عنهما.

أما عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فلم أقف فيها على شيء ثابت عنه صلى الله عليه وسلم ووجه إيرادي لها في توابع قصة موسى عليه السلام أن جمهور المفسرين ذكروا أن هؤلاء الألوفا هم من بني إسرائيل، وهم قوم موسى عليه السلام فالله أعلم.



(١) الطبري (٥٥٩٦، ٥٥٩٧).

(قصة طالوت وجالوت)

قال الله عز وجل: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الْمَلَا مِنْ بَنِي إِسْرَءِيلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى إِذْ قَالُوا لِنَبِيِّ لَهُمْ أَبْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ أَلَّا تُقَاتِلُوا قَالُوا وَمَا لَنَا أَلَّا نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِنْ دِيَارِنَا وَأَبْنَاءِنَا فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ تَوَلَّوْا إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴿٢٤٦﴾ وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا قَالُوا أَنَّى يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِنَ الْمَالِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ وَاللَّهُ يُؤْتِي مُلْكَهُ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَسِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٤٧﴾ وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ آيَةَ مُلْكِهِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ التَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ آلُ مُوسَى وَآلُ هَارُونَ تَحْمِلُهُ الْمَلَائِكَةُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لَّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿٢٤٨﴾ فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِالْجُنُودِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ مُبْتَلِيكُمْ بِنَهَرٍ فَمَن شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ

مِنِّي إِلَّا مَنِ اعْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ ۚ فَشَرِبُوا مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ ۖ فَلَمَّا جَاوَزَهُ هُوَ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ قَالُوا لَا طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ ۚ قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُّلتَقُوا اللَّهَ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴿٢٤٩﴾ وَلَمَّا بَرَزُوا لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالُوا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴿٢٥٠﴾ فَهَزَمُوهُمْ بِإِذْنِ اللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُدُ جَالُوتَ وَءَاتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿٢٥١﴾ تِلْكَ ءَايَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿٢٥٢﴾

معاني المفردات:

الكلمة	معناها
﴿الْمَلَا﴾	أشراف الناس ووجهائهم ورؤسائهم.
﴿تَوَلَّوْا﴾	أعرضوا عن الجهاد.
﴿أَصْطَفَيْنَاهُ﴾	اختاره - فضله - خصَّه.
﴿ءَايَةً مُّلْكِهِ﴾	العلامة والدلالة على كونه ملكًا.
﴿لَايَةً لَّكُمْ﴾	دلالة وعلامة لكم، (على صدق ما أخبرتكم به).

فَصَلِّ	خرج.
مُبْتَلِيَكُمْ	مختبركم.
فِتْنَةٍ	جماعة.
بَرَزُوا	صاروا بالبراز من الأرض؛ وهو: المكان المتسع - ظهوروا.

المعنى الإجمالي للقصة:

بعد أن ذكر الله سبحانه وتعالى قصة الذين خرجوا من ديارهم وهم ألوف خوف الموت، وأنه سبحانه وتعالى أحياهم فاستبان بذلك أنه لا يغني حذر من قدر وأن أمر الله نافذ ولا بد وأن القتال في سبيل الله لن يقدم أجلاً ولن يؤخره ومن ثم جاء الحث على القتال لإعلاء كلمة الله، وعُقب ذلك بالحث على النفقة إذ هي من مستلزمات الجهاد جاءها هنا التذكير بقوم من بني إسرائيل سألوا نبياً لهم فرض القتال، وأن يكلفوا به بل ويؤمروا به ويفرض عليهم.

أما عن هذا النبي ﷺ واسمه فلم يرد اسمه في كتاب الله ﷻ ولا في سنة رسول الله ﷺ، والعبرة حاصلة على كل حال سواء ذكر اسمه أم لم يذكر، ولو كان في ذكر اسمه فائدة لذكره الله ﷻ، والله تعالى أعلم.

وعلى أية حال فإنهم سألوا نبياً أن يفرض عليهم الجهاد وقد يفرض الجهاد على قوم ولا يقومون بما فرضه الله عليهم وقد يتمنى قوم الجهاد فإذا حضروا ساحات الوغى ورأوا الرقاب تقطع والدماء تسيل والأنفس تزهر والروؤوس تهشم والأيدي والأرجل تتطاير، إذا رأوا ذلك ولّوا الأدبار فيحلّ عليهم من ثمّ العذاب، إذ الله عز وجل قال ﴿يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾.

وقال سبحانه: ﴿يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحَفًا فَلَا تُولُوهُمْ الْأَدْبَارَ ۝١٥﴾ وَمَنْ يُولِهِمْ يُؤَمِّدْ دُبُرَهُ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٍ فَقَدْ بَاءَ

يَغْضَبُ مِنْ اللَّهِ وَمَأْوَهُ جَهَنَّمَ وَيَسْكُنُ الْمَصِيرُ ﴿٧٧﴾.

وقد قال تعالى: ﴿الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً وَقَالُوا رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا الْقِتَالَ لَوْلَا أَخَّرْنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ ﴿النساء: ٧٧﴾.

فقد أخرج النسائي^(١) بإسناد صحيح إلى ابن عباس رضي الله عنهما أن عبد الرحمن بن عوف وأصحاباً له أتوا النبي ﷺ بمكة فقالوا: يا رسول الله إنا كنا في عزٍّ ونحن مشركون فلما آمننا صرنا أذلة فقال: «إني أمرت بالعفو فلا تقاتلوا» فلما حوّلنا الله إلى المدينة أمرنا بالقتال فكفّوا فأنزل الله ﻋَﻠَﻴْﻨَﺎ: ﴿الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ ﴿النساء: ٧٧﴾.

فلهذا نُهيّنا عن تمني لقاء العدو فقد أخرج البخاري ومسلم^(٢) من حديث عبد الله بن أبي أوفى رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «لا تتمنوا لقاء العدو، فإذا لقيتموهم فاصبروا».

وفي «الصحيحين» نحوه من حديث أبي هريرة^(٣) رضي الله عنه مرفوعاً. ولا ينسحب هذا على تمني الشهادة فتمني الشهادة مستحب، وفي الباب حديث: «من سأل الله الشهادة بصدق؛ بلغه الله منازل الشهداء، وإن مات على فراشه»^(٤).

فلو أن الشخص فعل ما كلّف به لكان أولى له من أن يسأل ما قد لا يحتمله!!

(١) «سنن النسائي» (٣/٦)، والحاكم في «المستدرک» (٢/٢٦٦)، وغيرهما.

(٢) أخرجه البخاري (حديث ٣٠٢٤، ٣٠٢٥)، ومسلم (١٧٤٢).

(٣) أخرجه البخاري (٣٠٢٦)، ومسلم (حديث ١٧٤١).

(٤) أخرج مسلم في «صحيحه» (حديث ١٩٠٨)، من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «من طلب الشهادة صادقاً أعطوها ولو لم تصبه».

وأخرج أيضاً من طريق سهل بن أبي أمامة بن سهل بن حنيف عن أبيه عن جده أن النبي ﷺ قال: «من سأل الله الشهادة بصدق بلغه الله منازل الشهداء وإن مات على فراشه» (حديث ١٩٠٩).

قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيثًا ۖ وَإِذَا لَا تَعْنَهُمْ مِّنْ لَّدُنَّا أَجْرًا عَظِيمًا ۖ وَلَهَدَيْنَهُمْ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا ۖ﴾.

وفي أمور الدنيا أشياء كهذا، فلو أن بناءً بيني جدارًا وارتفع به عشرة أمتار في أول يوم بناه فإنه يسقط في نفس اليوم أو من غده!!، ولكنه بيني مترًا مثلًا ثم يتركه يقوى ويتماسك ثم يرفع البناء شيئًا فشيئًا آخذًا الاحتياطات التي تمنعه من السقوط أرجع إلى قصة الملائكة من بني إسرائيل جماعة بني إسرائيل وأشرافها في زمانهم، وماذا كان لما سألوا نبيهم أن يبعث وأن يختار منهم ملكا يقاتلون تحت رايته في سبيل الله لإعلاء كلمة الله؟! قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الْمَلَكِ مَن بَنَىٰ إِسْرَءِيلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَىٰ إِذْ قَالَ لَهُ إِنِّي لَهِمُّ أَعْتَدْتُ لَنَا مَلِكًا نُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ۖ لَقَدْ ذَكَرَهُمْ نَبِيُّهُمْ ^(١)، وحق لهم أن يذكرهم نبيهم لقد ﴿قَالَ﴾ لهم وبين ونصح ﴿هَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ أَلَّا تُقَاتِلُوا﴾ قد يحصل ويكتب عليكم القتال ولكنكم قد تنكلوا عن الجهاد وتنصرفوا عنه! فأصروا على طلبهم ومضوا قدمًا فيه فقالوا ﴿وَمَا لَنَا أَلَّا نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ وما الذي يمنعنا من القتال ويجعلنا نتردد فيه وننكل عنه ونتخلف ﴿وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِنْ دِيَارِنَا وَأَبْنَاءِنَا﴾ أي وقد طرد فريق منا من ديارهم وسبي أبناءهم، أي أخذوا وأصبحوا عبيدًا فهكذا أصروا على أن يفرض عليهم القتال!!

فكتب عليهم القتال فماذا كان منهم؟!!!

﴿فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ تَوَلَّوْا إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ﴾

هكذا تولوا عن الجهاد وتركوه لما فرض عليهم!! إلا القليل منهم الذي ثبت!!.

وهذا شأن كثير من بني إسرائيل مع أنبيائهم عليهم السلام وأنهم (إلا من رحم الله) التخاذل كما قال أسلافهم لنبي الله وكليمه موسى عليه السلام ﴿فَاذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ﴾ فالحذر الحذر من أن يطلب الشخص شيئًا يفعلنه ثم ينكل عن العمل وهو قادر عليه.

(١) لم يذكر اسم هذا النبي في آية ولا حديث ثابت عن رسول الله ﷺ.



أعود قائلاً، وهذه الفئة القليلة التي لم تتول في ظاهر أمرها اختبرت هي الأخرى، لقد قال تعالى: ﴿وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا﴾ فقد طلبتم ملكاً تقاتلون تحت رايته لإعلاء كلمة الله فيها هو طالوت قد ملكه الله عليكم وبعثه لكم ملكاً فماذا كان منهم تجاه تعيين طالوت ملكاً عليهم؟! لقد اعترضوا على تعيين طالوت واختياره ملكاً مع أن نبيهم قال لهم ﴿إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا﴾ أي أن الاختيار ليس لي، إنما هو الله سبحانه فهو الذي بعث طالوت ملكاً ومع ذلك لم يقنعوا بل ﴿قَالُوا أَأَنَّى يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا﴾ من أي وجه يستحق أن يكون ملكاً علينا؟!!!

وما الفضل الذي له علينا؟!!!

وبماذا يمتاز علينا حتى يكون ملكاً؟

ونحن أحق بالملك منه!!

نحن الوجهاء!! نحن الأشراف - نحن الأغنياء!!

فمن أي وجه فضل علينا حتى يكون ملكاً علينا؟!

هكذا اعترضوا (إلا من رحم الله) على تمليك طالوت عليهم قائلين: ﴿وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِنَ الْمَالِ﴾ أي أنه فقير ليس بغني بل نحن أغنى منه وأعلى قدرًا!!

فأكد عليهم نبيهم أن الاختيار ليس لي إنما هو الله سبحانه وتعالى فقال لما يريد قال: ﴿إِنَّ اللَّهَ أَصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ﴾ إن الله اختاره من بينكم، فليس لي ولا لكم حق في الاعتراض، فالمعترض سيعترض على الله عز وجل ثم بين لهم نبيهم عليه السلام بعض أسباب هذا الاختيار بعض الأسباب الظاهرة كي يقنعوا بها.

فقال: ﴿وَزَادَهُ﴾ أي وزاده الله عز وجل عنكم ﴿بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ﴾ أي أنه قوي وعالم، عالم بالحروب وقوي فيها فضلاً عن ديانتها وأمانتها فالذي اصطفاه هو الله ﴿وَاللَّهُ يُؤْتِي مُلْكَهُ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَسِعَ عَلِيمٌ﴾ عليم بمن

يستحق أن يكون ملكاً وعلیم بكل شيء.

ثم أكد لهم نبيهم أن الاختيار ليس من عند نفسه، بل من عند الله عز وجل، وهو وحده الذي اختار طالوت وبعثه ملكاً، وها هي الأدلة الظاهرة أيضاً على ذلك، قال تعالى: ﴿وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ آيَةَ مُلْكِهِ﴾ أي العلامة والدلالة على أن الله عز وجل هو الذي جعله ملكاً عليكم ﴿أَنْ يَأْتِيَكُمُ التَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ آلُ مُوسَىٰ وَآلُ هَارُونَ تَحْمِلُهُ الْمَلَائِكَةُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لَّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُّؤْمِنِينَ﴾.

أي أن العلامة على أن الله عز وجل قد جعله ملكاً أن يأتيكم التابوت وما المراد بالتابوت؟

التابوت صندوق، لكن ما هي صفة التابوت الوارد في الآية، الله أعلم بها، فلم أقف على تفصيلها في شيء من الكتاب أو السنة^(١).

هذا التابوت الذي هو الصندوق يأتي وفيه سَكِينَةٌ من الله عز وجل.

ولأهل العلم في المراد بالسكينة أقوال:

منها: أن السكينة روح، أو شيء له روح، وأنها تنزل مع الملائكة؛ وذلك لما أخرجه البخاري ومسلم^(٢)، من حديث البراء بن عازب رضي الله عنه قال: كان رجل يقرأ سورة الكهف وإلى جانبه حصان مربوط بشطّين، فتغشته سحابة فجعلت تدنو وتدنو وجعل فرسه ينفر، فلما أصبح أتى النبي صلى الله عليه وسلم فذكر ذلك له فقال: «تلك السكينة تنزل بالقرآن»، وفي رواية: «للقرآن».

❁ وفي رواية لمسلم^(٣) من حديث أبي سعيد الخدري أن أسيد بن حضير بينما هو ليلة يقرأ في مربده، إذ جالت فرسه فقرأ ثم جالت أخرى فقرأ ثم جالت أيضاً،

(١) وإن كان بعض أهل العلم ذكر أن بني إسرائيل كانوا يستفتحون بهذا التابوت فغلبوا عليه وسلبهم عدوهم إياه فكانوا يتشاءمون ببعده عنهم، فالله أعلم.

(٢) أخرجه البخاري (مع الفتح ج ٩/ ص ٥٧)، ومسلم (مع النووي ٦/ ٨٢).

(٣) أخرجه مسلم (مع النووي ٦/ ٨٢)، وعند البخاري معلقاً (٩/ ٦٣)، وأحمد (٣/ ٨١).

قال أسيد: فخشيت أن تطأ يحيى فقممت إليها، فإذا مثل الظلة فوق رأسي فيها أمثال الشرج عرجت في الجو حتى ما أراها، قال: فغدوت على رسول الله ﷺ فقلت: يا رسول الله....، فذكر الحديث، وفيه: أن النبي ﷺ قال له: «تلك الملائكة كانت تستمع لك، ولو قرأت لأصبحت يراها الناس ما تستتر منهم».

فعلى هذا رأى فريق من أهل العلم أن رواية البراء فيها: «السكينة»، ورواية أبي سعيد فيها: «الملائكة»، قالوا: فدل ذلك على أن السكينة تنزل مع الملائكة.

❖ **ومن العلماء من قال:** إن التابوت لما جاء سكنت نفوس القوم إلى ملك طالوت وذهب الشك الذي كان بأنفسهم.

❖ **ورجح الطبري رحمه الله** أنها (أي: السكينة) ما تسكن إليه النفوس من الآيات التي يعرفونها، فالله تعالى أعلم.

أما قوله تعالى: ﴿وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ آلُ مُوسَىٰ وَآلُ هَارُونَ﴾ فلم أقف على دليل ثابت عن رسول الله ﷺ يوضح تلك البقية، ومن العلماء من قال: إنها عصا موسى، ومنهم من قال: إنها رضاض الألواح، ومنهم من قال: هي بعض ما تركه آل موسى وآل هارون من ثياب.

وقال الطبري رحمه الله: بعد أن أورد جملة آثار في هذا الباب - :

وجائز أن تكون تلك البقية: العصا، وكسر الألواح، والتوراة، أو بعضها، والنعلين، والثياب، والجهاد في سبيل الله، وجائز أن يكون بعض ذلك، وذلك أمر لا يدرك علمه من جهة الاستخراج ولا اللغة، ولا يدرك علم ذلك إلا بخبر يوجب عنه العلم. ولا خبر عند أهل الإسلام في ذلك للصفة التي وصفنا، وإذا كان ذلك كذلك، فغير جائز فيه تصويب قولٍ وتضعيف آخر غيره، إذ كان جائزاً فيه ما قلنا من القول.

قلت (مصطفى): وهذا التابوت الذي فيه سكينه من الله عز وجل وبقية مما ترك آل موسى وآل هارون، يأتي والملائكة تحمله، يراها الناس عياناً، ويراهها الناس

تمشي حاملة التابوت حاملة هذا الصندوق، كل ذلك كدليل لبني إسرائيل على أن الله عز وجل بعث لهم طالوت ملكاً فقلوه: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لَّكُمْ﴾ لدلالة لكم على صدق نبيكم فيما أخبركم به من أن الله عز وجل هو الذي بعث طالوت ملكاً هذا ﴿إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ أي: إن كنتم مصدقين ومنتفعين بهذه الآية.

فهكذا استقر الأمر، على طالوت عليه السلام ملك عليهم، وأن الذي بعثه هو الله سبحانه وتعالى فخرج طالوت بمن وافق على القتال معه، وبمن أيقنوا أن الله عز وجل بعثه ملكاً، خرج طالوت بكل هؤلاء للجهاد في سبيل الله، لقتال أعداء الله، لإعلاء كلمة الله عز وجل وثم اختبار للمجاهدين بين يدي الجهاد!!

وهل سيصبرون على الجهاد أم لا؟؟!

قال تعالى: ﴿فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ﴾ خرج من البلاد متجها للغزو ﴿بِالْجُنُودِ﴾ لهم طالوت ﴿إِنَّ اللَّهَ مُبْتَلِيكُمْ﴾ مختبركم بنهر تمررون عليه ﴿فَمَنْ شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي﴾ فلن يتبعني في الجهاد معي، فإنه إذا عجز الشخص على الصبر على شرب المياه برهة يسيرة من الزمن، فحريٌّ به أن لا يثبت عند قتال الأعداء.

قال طالوت: ﴿وَمَنْ لَّمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي﴾ ومن لم يتذوق ماء النهر فإنه من جنودي الذين يخرجون معي للغزو ويقاتلون معي ضد أعداء الله!

فماذا كان؟! ماذا كان من بني إسرائيل الذين خرجوا مع طالوت للقتال واختبروا بالنهر وبالشرب منه؟؟! لقد شرب أكثرهم من النهر كما قال تعالى: ﴿فَشَرِبُوا مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ﴾ فالقليل لم يشرب، والأكثر شربوا، فمن ثم رجع الأكثر ولم يشاركوا في القتال مع طالوت!! فجاوز طالوت النهر، وأبقى على من لم يشربوا من النهر وردَّ الآخرون الذين قد شربوا!!

وهكذا يحدث التمحيص وتحصل التصفية بالابتلاء.

فأولاً: لما كتب عليهم القتال تولوا إلا قليلاً منهم.

وثانيًا: لما بُعث طالوت ملكا اعترض من اعترض وقالوا نحن أحق بالملك منه.
وثالثًا: لما مروا بالنهر أعني الذين وافقوا على القتال اختبروا بالشرب منه،
 فشربوا منه إلا قليلاً منهم تصفيةً بعد تصفية بعد تصفية!!!
 فكان الذين تجاوزوا النهر ونجحوا في الاختبارات وهيئوا للقتال وكانوا قلةً
 قليلة بالنسبة لأعدائهم وعددهم.

أخرج البخاري من حديث البراء بن عازب رضي الله عنه ^(١) قال: حدثني أصحاب
 محمد صلوات الله عليه - ممن شهد بدرًا - أنهم كانوا عدة أصحاب طالوت الذين جاوزوا معه
 النهر: بضعة عشر وثلاثمائة، قال البراء: لا والله، ما جاوز معه النهر إلا مؤمن.
 وماذا كان من أمر هذه القلة القليلة التي تجاوزت النهر ولم تشرب منه؟! ماذا
 كان منهم لما واجهوا جالوت ذلكم الطاغية المتكبر ومعه جنوده الجبابرة
 المتكبرون الكثر؟! فلا مقارنة من ناحية العدد بين جند طالوت المؤمن وبين جند
 جالوت الكافر فجندُ جالوت أكثر عددًا بكثير وحينئذ ﴿فَلَمَّا جَاوَزَهُ هُوَ وَالَّذِينَ
 ءَامَنُوا مَعَهُ﴾ ولما تراءت الفئتان ﴿قَالُوا﴾ قال فريق من أصحاب طالوت ﴿لَا
 طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ﴾ لا قدرة لنا اليوم على مواجهة جالوت
 وجنوده وحينئذ ظهر إيمان المؤمنين، وثبات من يشبههم الله عز وجل، لقد قاموا
 وقالوا مقولتهم ﴿قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلْكُوا اللَّهَ﴾ والظن هنا بمعنى اليقين
 والعلم، كما في قوله عز وجل: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَوْفَىٰ كَتَبَهُ بِيَمِينِهِ فَيَقُولُ هَٰؤُلَاءِ أَوْفَىٰ كَتَبَهُ﴾ ^(١٩)
 إِنِّي ظَنَنْتُ أَنِّي مُلْكٌ حَسَابِيَّةٌ ﴿[الحاقة: ١٩، ٢٠].

فليس معناه الشك في لقاء الله، ولا في الحساب بل هم أهل إيمان ويقين
 والظاهر أيضًا أن الذين قالوا لا طاقة لنا اليوم بجالوت وجنوده كانوا مؤمنين أيضًا
 ولكنهم أقل إيمانًا من القائلين ﴿كَمْ مِّن فِتْنَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فَتْنَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ

(١) أخرجه البخاري (٣٩٥٧).

اللَّهُ ﷻ، والدليل على أنهم أهل إيمان أنهم تجاوزوا النهر مع طالوت ^(١)، وقد قال البراء: وما جاوزته (أي: وما جاوز النهر) إلا مؤمن.

أعود قائلًا:

لقد كان أهل الإيمان وأهل الثبات الذين ثبتهم الله عز وجل وتولاهم، قالوا مقولتهم الدالة على إيمانهم وثباتهم لقد قالوا: ﴿كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً يَأْذِنُ اللَّهُ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾.

فحقًا النصر من عند الله عز وجل، وقد ينصر الله القليل على الكثير!!
والله مع الصابرين يؤيدهم ويحفظهم وينصرهم ويختار لهم كل خير.
وماذا كان عند بداية الحرب، ماذا كان عند بروزهم لجالوت وجنوده؟
ماذا كان من أهل الإيمان عندما التقى الجمعان؟! قال تعالى: ﴿وَلَمَّا بَرَزُوا لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالُوا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾
لقد قال أهل الإيمان لما واجهوا جالوت وجنوده ﴿رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا﴾ أنزل علينا يا ربنا الصبر، فالصبر من عند الله، والصابر من صبره الله عز وجل وسألوا الله أيضًا الثبات إذ قالوا ﴿وَتَثَبَّتْ أَقْدَامُنَا﴾ فالذي يثبت الأقدام هو الله عز وجل ﴿وَأَنْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ هكذا سألوا الله عز وجل النصر فالنصر من عنده لا من عند أحد سواه!!!

ويا نعم ما صنعوا!!

ويا حسن ما فعلوا!!

لقد استعانوا بالله وسألوه ودعوه وارتجوه!! ولن يخيب الله ظن من دعاه!

ولن يضيع الله من سألوه وارتجاه!!

لقد مكن الله عز وجل أهل الإيمان من رقاب أعدائهم لقد نصر الله طالوت

(١) أخرج الطبري بإسناد حسن عن قتادة (٥٧٣٦)، أنه قال: ويكون المؤمنون بعضهم أفضل جدًا وعزمًا من بعض وهم مؤمنون كلهم.

ومن معه على جالوت وجماعته قال تعالى: ﴿فَهَزَمُوهُمْ بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ هزموهم والذي نصر وحفظ وسلّم هو الله ولم يكونوا- أعني طالوت ومن معه- لينتصروا إلا إذا نصرهم الله!!

فالحمد لله ثم الحمد لله ثم الحمد لله.

لقد نصر الله طالوت ومن معه على الفئة الباغية الكافرة!!
وأيضًا لقد مكّن الله عزّ وجلّ جنديًا من جند طالوت الأقوياء المؤمنين الفضلاء الذين جاوزوا النهر وأحسنوا الاستعانة بالله مكنه الله من قتل جالوت!
وهذا الجندي آنذاك هو داود عليه السلام الذي أصبح نبيًا كريمًا بعد ذلك.
قال تعالى: ﴿وَقَتَلَ دَاوُدُ جَالُوتَ وَءَاتَتْهُ اللَّهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُ مَكَائِشَ﴾ أصبح داود عليه السلام ملكًا ونبيًا وعالمًا بصناعات الدنيا.

فالمراد بالملك هنا السلطان، والمراد بالحكمة النبوة، أما العلم، الذي علمه الله نبيه داود عليه السلام فمنه ما ذكره الله في كتابه حيث قال: ﴿وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَكُمْ لِنُخْصِنَكُمْ مِنْ بَأْسِكُمْ﴾ [الأنبياء: ٨٠]، فعلمه الله صناعة الدروع، وكما قال تعالى: ﴿أَنْ أَعْمَلَ سَبِيغَتٍ وَقَدِّرَ فِي السَّرْدِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا﴾ [سبأ: ١١]، إلى غير ذلك من أنواع العلوم الدينية والدنيوية، والله أعلم.

أما قوله تعالى: ﴿وَلَوْ لَا دَفَعُ اللَّهُ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ﴾؟ فمعناه والله أعلم - أن الله يدفع بمن يصلي عمن لا يصلي وبمن يتقي عمن لا يتقي، فلولا أن هناك مصلحين يدفع الله بهم فساد المفسدين لأهلك الله الناس بذنوبهم.

وأيضًا يدفع عن قوم بدفاع آخرين عنهم كما وقع لبني إسرائيل فدفع الله بمقاتلة طالوت ومن معه من أهل الإيمان شرور جالوت وجنوده.

والآية كقوله تعالى: ﴿وَلَوْ لَا دَفَعُ اللَّهُ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَهْجَمَتْ صَوَامِعُ وَبُيُوتٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا﴾ [الحج: ٤٠].

❦ **قال الطبري رحمه الله:** يعني تعالى ذكره بذلك: ولولا أن الله يدفع ببعض الناس - وهم أهل الطاعة له والإيمان به - بعضًا، وهم أهل المعصية لله والشرك به - كما دفع عن المتخلفين عن طالوت يوم جالوت من أهل الكفر بالله والمعصية له، وقد أعطاهم ما سألوا ربهم ابتداءً، من بَعَثَهُ ملك عليهم ليجاهدوا معه في سبيله - بمن جاهد معه من أهل الإيمان بالله واليقين والصبر، جالوت وجنوده - ﴿لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ﴾، يعني: لهلك أهلها بعقوبة الله إياهم، ففسدت بذلك الأرض - ولكن الله ذو مَنْ عَلَى خَلْقِهِ وَتَطَوَّلَ عَلَيْهِمْ، بدفعه بالبرِّ من خلقه عن الفاجر، وبالمطيع عن العاصي منهم، وبالمؤمن عن الكافر.

وهذه الآية إعلَامٌ من الله تعالى ذكره أهل النفاق الذين كانوا على عهد رسول الله ﷺ، المتخلفين عن مشاهدته والجهاد معه للشك الذي في نفوسهم ومرض قلوبهم، والمشركين وأهل الكفر منهم، وأنه إنما يدفع عنهم معاجلتهم العقوبة على كفرهم ونفاقهم بإيمان المؤمنين به وبرسوله، الذين هم أهل البصائر والجد في أمر الله، وذوو اليقين بإنجاز الله إياهم وعده على جهاد أعدائه وأعداء رسوله، من النصر في العاجل، والفوز بجنانه في الآجل.

وقوله تعالى: ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ ❦ أي أنه سبحانه له الفضل على خلقه بتسليط قوم على قوم ظالمين حتى يندفع شرهم فقد يكون هناك من يريد الإفساد في الأرض، فيفسد فيتسلط عليه آخر أشد منه فيمنعه من الظلم وتسلم البلاد ويسلم العباد.

أما قوله تعالى: ﴿تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ ❦ فحاصل معناه أن هذه القصص التي قصصناها عليك بما تحمله من معجزات ودلالات على قدرة الله عز وجل نقصها عليك بالحق كي تتلوها على قومك لعلهم يتذكرون ويتعظون بها وسواء اتعظوا بها أم لم يتعظوا بأنك رسول الله من عند الله حقًا.

هذا، وقد قال الطبري رحمه الله تعالى: يعني تعالى ذكره بقوله: ﴿تِلْكَ ءَايَاتُ اللَّهِ﴾، هذه الآيات التي اقتصر الله فيها أمر الذين خرجوا من ديارهم وهم ألوف حذر الموت، وأمر الملاء من بني إسرائيل من بعد موسى الذين سألوا نبيهم أن يبعث لهم طالوت ملكاً، وما بعدها من الآيات إلى قوله: ﴿... وَلَكِنَّ اللَّهَ دُوفَضِّلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾.

ويعني بقوله: ﴿ءَايَاتُ اللَّهِ﴾، حججه وأعلامه وأدلته.

يقول الله تعالى ذكره: فهذه الحجج التي أخبرتك بها، يا محمد، وأعلمتك - من قدرتي على إمارة من هرب من الموت في ساعة واحدة وهم ألوف، وإحيائي إياهم بعد ذلك، وتمليكي طالوت أمر بني إسرائيل بعد إذ كان سقاء أو دباغاً من غير أهل بيت المملكة، وسليبي ذلك إياه بمعصيته أمري، وصرفي ملكه إلى داود لطاعته إياي، ونصرتي أصحاب طالوت مع قلة عددهم وضعف شوكتهم على جالوت وجنوده مع كثرة عددهم وشدة بطشهم - حججي على من جحد نعمتي، وخالف أمري، وكفر برسولي من أهل الكتابين: التوراة والإنجيل، العالمين بما اقتضت عليك من الأنباء الخفية التي يعلمون أنها من عندي، لم تتخرصها ولم تتقولها أنت يا محمد، لأنك أمي ولست ممن قرأ الكتب فإلتبس عليهم أمرك، ويدعوا أنك قرأت ذلك فعلمته من بعض أسفارهم - ولكنها حججي عليهم أتلوها عليك، يا محمد، بالحق اليقين كما كان، لا زيادة فيه ولا تحريف ولا تغيير شيء منه عما كان - ﴿وَإِنَّكَ﴾، يا محمد ﴿لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾، يقول: إنك لمرسل متبع في طاعتي وإيثاري مرضاتي على هواك، فسيبك في ذلك من أمرك سبيل من قبلك من رسلي الذين أقاموا على أمري، وآثروا رضاي على هواهم، ولم تغيرهم الأهواء ومطامع الدنيا، كما غير طالوت هواه وإيثاره ملكه على ما عندي لأهل ولايتي، ولكنك مؤثر أمري كما آثره المرسلون الذين قبلك.



(تفضيل بعض الرسل على بعض وبيان اختلاف الناس بعد مجيئهم)

قال تعالى: ﴿ تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ مِنْهُمْ مَنْ كَلَّمَ اللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَقْتَلْنَا الَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَاتُ وَلَكِنْ اخْتَلَفُوا فَمِنْهُمْ مَنْ ءَامَنَ وَمِنْهُمْ مَنْ كَفَرَ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَقْتَلُوا وَلَكِنْ اللَّهُ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ ﴾ (٢٥٣).

قوله تعالى: ﴿ تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ ﴾ يذكر الله سبحانه وتعالى أنه فضل بعض الرسل على بعض ولا تعارض بين هذا، وبين قول النبي ﷺ «لا تخيروا بين الأنبياء»^(١) وكذا قوله: «لا تخيروني على موسى»^(٢) وكذا قوله عليه السلام «لا ينبغي لعبد أن يقول أنا خير من يونس بن متى»^(٣).

وذلك لإمكانية حمل قول النبي ﷺ في هذه الأحاديث على أنه قالها تواضعاً أو قال ذلك قبل أن يعلم أنه سيد ولد آدم عليه الصلاة والسلام، والله أعلم.

* أعود فأقول إن الله عز وجل فضل بعض الرسل على بعض وقد قال النبي ﷺ «أنا سيد ولد آدم ولا فخر»^(٤) فرسول الله ﷺ سيد ولد آدم.

وأولوا العزم من الرسل: وهم: نوح، وإبراهيم، وموسى، وعيسى، ومحمد

(١) أخرجه البخاري (٦٩١٧)، ومسلم (٢٣٧٤).

(٢) أخرجه البخاري (٣٤٠٨)، وانظر مسلماً (ص ١٨٤٣).

(٣) أخرجه البخاري (٣٤١٦)، ومسلم (٢٣٧٦).

(٤) صحيح، وقد تقدم، وأخرجه البخاري.

صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين أفضل من غيرهم قال الله ﷻ: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنْكَ وَمِنْ نُوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَأَخَذْنَا مِنْهُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا﴾ [الأحزاب: ٧].

❀ وهم الذين يتجه إليهم الناس للاستشفاع بهم يوم القيامة بعد آدم عليه السلام.

وقوله تعالى: ﴿مِنْهُمْ مَنْ كَلَّمَ اللَّهُ﴾ فالذي كلمه الله عز وجل هو موسى ﷺ، قال الله عز وجل: ﴿وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا﴾ [النساء: ١٦٤]، وقال تعالى: ﴿يَمُوسَىٰ إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالَتِي وَبِكَلِمِي﴾ [الأعراف: ١٤٤]، وقال تعالى: ﴿وَلَمَّا جَاءَ مُوسَىٰ لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ﴾ [الأعراف: ١٤٣]، وقد كلم الله ﷻ أنبياء آخرين^(١) غير موسى ﷺ، لكن الذي خصّه الله ﷻ بمزيد من التكليم وصفة خاصة منه هو موسى ﷺ، والله أعلم.

وقوله: ﴿وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ﴾ كأولي العزم من الرسل، وقد تقدم ذكرهم، وقال تعالى أيضًا في شأن إدريس عليه السلام ﴿وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَأَتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ﴾ الدلالات والمعجزات الدالة على صدقه ونبوته ورسالته والتي تتمثل في إبراء الأكمه والأبرص، وإحياء الموتى، وأنه يخلق من الطين كهيئة الطير فينفخ فيه فيكون طيرًا، وينبئ الناس بما يأكلون وما يدخرون في بيوتهم، والمائدة التي نزلت عليهم من السماء، كل ذلك بإذن الله ﷻ، وأيضًا الإنجيل الذي آتاه الله إياه.

وقوله تعالى: ﴿وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ﴾ أي وقوينا بجبريل عليه السلام، فجبريل هو روح القدس وأيد عيسى عليه السلام به عند ولادته، وعند رفعه لما أرادوا صلبه، وكذا يؤيد به عند نزوله من السماء والله أعلم.

(١) قال تعالى: ﴿وَنَدَيْنَاهُ أَنْ يَتَّبِعْهُ إِسْرَءِيلُ﴾ [الصفات: ١٠٤]، وفي الحديث القدسي: «أن الله قال لأيوب: ألم أكن أغنيك»، وكلم الله نبينا محمدًا ﷺ في ليلة المعراج، وفرض الصلوات، إلى غير ذلك.

وقوله تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَقْتَتَلُ الَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ
 الْبَيِّنَاتُ وَلَكِنْ اختلفوا فمنهم من آمن ومنهم من كفر﴾ أي: ولو شاء الله ما تحارب وما
 تقاتل الذين جاءوا من بعد الرسل، ولكن شاء الله وقدر الله أن يختلفوا فيما بينهم
 مع أن البينات قد جاءتهم، وكان ينبغي ألا يختلفوا مع مجيئ البينات إليهم ولكن
 هكذا قدر الله عز وجل أن منهم من يؤمن ومنهم من يكفر كما قال ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ
 مِنْكُمْ كَافِرٌ وَمِنْكُمْ مُؤْمِنٌ﴾ فتقاتل المؤمنون مع الكفار ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَقْتَتَلُوا
 وَلَكِنْ اللَّهُ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ﴾ فهو على كل شيء قدير.



(الحث على الإنفاق)

وقوله تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَنفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاكُمْ مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفِيعَةٌ ۖ وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ (٢٥٤)

في الآية الكريمة حث على النفقة من الرزق الحلال الطيب، وذلك قبل مجيء يوم القيامة، فيوم القيامة لا بيع فيه، ليست هناك تجارات تكتسب منها الأموال وقوله ﴿لَا بَيْعٌ فِيهِ﴾ يحتمل أيضاً أنه لا فدية فيه أي أن الشخص لن يستطيع أن يفتدي نفسه بشيء كما قال تعالى: ﴿فَالْيَوْمَ لَا يُؤْخَذُ مِنْكُمْ فِدْيَةٌ وَلَا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ وقوله ﴿وَلَا خُلَّةٌ﴾ أي: ولا صداقة تنفع ولا قرابة شديدة تنفع ولا مودة خالصة تنفع.

وقوله تعالى: ﴿وَلَا شَفِيعَةٌ﴾ أي ولا شفاعة في الكفار مطلقاً كما قال تعالى ﴿مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ﴾ وكما قال تعالى: ﴿وَذَكَرْ بِهِ ءَن تَبْسَلَ نَفْسٌ بِمَا كَسَبَتْ لَيْسَ لَهَا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ﴾ وكذا لا شفاعة لأحد في أحد إلا بإذن الله وفيمن ارتضاه الله عز وجل كما قال سبحانه: ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾.

وقوله: ﴿وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ هم الذين بخسوا أنفسهم حقوقها فحق النفس أن يحافظ عليها وأن يسعى الشخص في إنقاذها من النار، فإذا تسبب الشخص لها في الجحيم فقد ظلمها وكذلك الكافرون هم الظالمون، فلم يؤدوا لله عز وجل حقه، فحقه أن يؤخذ، ولا يشرك به شيء ولكنهم فعلوا غير ذلك والله أعلم.

(آية الكرسي)

﴿ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لَا تَأْخُذُهُ سِنَّةٌ وَلَا نَوْمٌ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ ﴾ (٢٥٥)

هذه آية الكرسي وهي أعظم آية في كتاب الله عز وجل ودليل ذلك ما أخرجه مسلم في «صحيحه»^(١) من حديث أبي بن كعب رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «يا أبا المنذر أتدري أي آية من كتاب الله معك أعظم؟» قلت: الله ورسوله أعلم، قال: «يا أبا المنذر أتدري أي آية من كتاب الله معك أعظم؟» قال: قلت: ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾، قال: فضرب في صدري، وقال: «والله ليهنك العلم أبا المنذر».

وقد ورد في فضلها ما أخرجه البخاري معلقاً^(٢) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: وكلني رسول الله ﷺ بحفظ زكاة رمضان فأتاني آت فجعل يحثو من الطعام فأخذته فقلت: لأرفعنك إلى رسول الله ﷺ.. فقص الحديث، فقال: إذا أويت إلى فراشك فاقرأ آية الكرسي لم يزل معك من الله حافظ ولا يقربك شيطان حتى تصبح، فقال النبي ﷺ: «صدقك وهو كذوب، ذاك شيطان».

✽ وأخرج ابن السني^(٣) في «عمل اليوم والليلة» بإسناد قابلٍ للتحسين من

(١) مسلم مع النووي (٩٣/٦).

(٢) حديث (٥٠١٠) وهو معلق كما أشرنا، وذكر الحافظ ابن حجر رحمته الله في «فتح الباري» (٢٨٧/٤) الذين

وصلوه، وذكر منهم: النسائي والإسماعيلي وأبو نعيم.

(٣) ابن السني حديث رقم (١٢١)، في «عمل اليوم والليلة».

حديث أبي أمامة قال: قال رسول الله ﷺ: «من قرأ آية الكرسي دبر كل صلاة مكتوبة لم يحل بينه وبين دخول الجنة إلا الموت».

وقوله تعالى: ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ تضمن كلمة التوحيد، وهو الفيصل بيننا وبين غيرنا، فأمة محمد ﷺ أمة الإسلام تقرُّ لربها عزَّ وجل بالوحدانية وتنفي عنه الشريك والند والمثيل والصاحبة والولد إلى غير ذلك مما لا يليق به سبحانه، أمة محمد ﷺ توحدها ربها عزَّ وجل.

أما قوله ﴿الْحَيُّ﴾ أي الذي لا يموت كما قال تعالى: ﴿وَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ﴾ [الفرقان: ٥٨].

وكما في الحديث «أنت الحي الذي لا يموت والجن والإنس يموتون».

وقوله تعالى: ﴿الْقَيُّومُ﴾ القائم بحفظ خلقه ورزقهم وتدبير أمورهم ولا قيام للأشياء إلا به سبحانه وتعالى كما قال سبحانه: ﴿أَفَمَنْ هُوَ قَائِمٌ عَلَى كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ﴾.

وقوله تعالى: ﴿لَا تَأْخُذُهِ سِنَةٌ﴾ أي: لا يأخذه نعاس^(١) ﴿وَلَا نَوْمٌ﴾ وكذا فإنه ينام سبحانه، وأخرج مسلم^(٢) في صحيحه من حديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال: قام فينا رسول الله ﷺ بخمس كلمات فقال: «إن الله عزَّ وجلَّ لا ينام ولا ينبغي له أن ينام يخفض القسط ويرفعه يُرفع إليه عمل الليل قبل عمل النهار وعمل النهار قبل عمل الليل حجاب النور (وفي رواية: النار) لو كشفه لأحرقت سُبحات وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه».

وقوله تعالى: ﴿لَهُ، مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ فكل ما في السموات والأرض ملك له سبحانه وكذا السموات والأرض يملكها سبحانه ويتصرف فيها كما يشاء ويفعل ما يريد.

(١) قال القرطبي رحمه الله: السَّنة هي النعاس في قول الجميع، وقال: والنعاس ما كان في العين فإذا صار في القلب صار نومًا، وقال أيضًا: والنوم هو المستقل الذي يزول معه الذهن في حق البشر.

(٢) مسلم (١٧٩).

وقوله سبحانه: ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾ ﴿مَفَادُهُ أَنَّهُ لَا يَشْفَعُ أَحَدٌ عِنْدَ اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى إِلَّا مِنْ أذنِ اللَّهِ لَهُ فَقَوْلُهُ: ﴿مَنْ ذَا الَّذِي﴾ أَيُّ مِنْ هَذَا الَّذِي ﴿يَشْفَعُ عِنْدَهُ﴾ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾ يتدخل ويطلب كشف الغم عن فلان يوم القيامة، أو كشف العذاب يوم القيامة أو جلب خير لأحد يوم القيامة، كل هذا لا يستطيعه أحدٌ إِلَّا مِنْ أذنِ اللَّهِ لَهُ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَكَمْ مِنْ مَلَكٍ فِي السَّمَوَاتِ لَا تُغْنِي شَفَعَتُهُمْ شَيْئًا إِلَّا مِنْ بَعْدِ أَنْ يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَرْضَى﴾ ، وكَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنْ أَرَضَى﴾ ، وكَمَا قَالَ ﴿مَا مِنْ شَفِيعٍ إِلَّا مِنْ بَعْدِ إِذْنِهِ﴾ .

وقوله تعالى: ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ﴾ قال بعض أهل العلم إن المراد بـ ﴿مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ﴾ : الدنيا، ﴿وَمَا خَلْفَهُمْ﴾ : الآخرة.

والظاهر لي - والله أعلم - أن ﴿مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ﴾ ما سيتقدمهم من الدنيا ومن الآخرة، ﴿وَمَا خَلْفَهُمْ﴾ هو ما مضى من أعمالهم ، والله أعلم.

وقوله تعالى: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ﴾ ﴿مَفَادُهُ أَنَّ أَحَدًا مَا لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يَحْصِلَ عَلَى أَيِّ عِلْمٍ كَانَ وَلَا يُحْصِلَهُ إِلَّا إِذَا عَلَّمَهُ اللَّهُ ذَلِكَ، وَلَقَدْ قَالَ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ لِلْخَضِرِ ﴿هَلْ أَتَيْتُكَ عَلَى أَنْ تُعَلِّمَنِي مِمَّا عَلَّمْتَ رُشْدًا﴾ ، وَقَالَ اللَّهُ لِنَبِيِّهِ ﷺ: ﴿وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ﴾ ، فَاْلْمَعْلَمُ مِنْ عِلْمِهِ اللَّهُ وَلَا يُمْكِنُ أَنْ يَتَعْلَمَ أَيُّ شَخْصٍ أَيُّ عِلْمٍ إِلَّا إِذَا عَلَّمَهُ اللَّهُ سُبْحَانَهُ.

وقوله تعالى: ﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾ قال عددٌ من العلماء الكرسي موضع القدمين.

وقوله: ﴿وَلَا يَئُودُهُ﴾ ولا يجهده ولا يشق عليه ﴿حِفْظُهُمَا﴾ أي حفظ السموات والأرض ﴿وَهُوَ الْعَلِيُّ﴾ قدرًا ومكانًا ومنزلة ورفعة ﴿الْعَظِيمُ﴾ سبحانه فلا أحد أعظم منه.

هذا، وقد قال بعض أهل العلم إن اسم الله الأعظم في هذه الآية آية الكرسي، ولا يصح بذلك خبر عن النبي ﷺ.



معنى قوله تعالى: ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾
ومعنى الطاغوت ومعنى العروة الوثقى

قال الله عز وجل: ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى لَا انْفِصَامَ لَهَا وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ (٢٥٦) **اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ ءَامَنُوا يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أُولَئِكَ هُمُ الظَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُمْ مِنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ** (٢٥٧).

قوله تعالى: ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾ معناه: لا تكرهوا أحداً على الدخول في الدين.
*** ثم إن من العلماء من قال:** إنها في اليهود والنصارى إذا دفعوا الجزية، فيكون المعنى لا تكرهوا اليهود والنصارى على الدخول في دينكم إذا دفعوا الجزية، فعلى هذا فالآية محكمة وليست بمنسوخة.

*** ومن العلماء من قال:** إنها عامة في اليهود والنصارى والمشركين ولكنها منسوخة بقوله تعالى: ﴿فَإِذَا أَنْسَلَخَ الْأَشْهُرَ الْحُرُمَ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ﴾. وبقوله تعالى: ﴿سَتَدْعُونَ إِلَى قَوْمٍ أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ يُقَتِّلُونَكُمْ أَوْ يَسْلُبُونَ﴾. وبقوله تعالى: ﴿يَتَأَيَّأُ الَّذِينَ ءَامَنُوا قَتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ وَلَيَجِدُوا فِيكُمْ غُلَظَةً﴾ ونحوها من الآيات.

ونحوها قول رسول الله ﷺ: «عجب ربك من قوم يقادون إلى الجنة في السلاسل» ومنسوخة في حق اليهود والنصارى بقوله تعالى: ﴿قَتِلُوا الَّذِينَ لَا

يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا يَلْبِسُونَ الْآخِرَ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ، وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ ﴿٤٦٣﴾.

والذي يظهر لي أنها ليست بمنسوخة، وأن الأصح هو الوجه الأول لأن النسخ لا يصار إليه إلا عند عدم إمكان الجمع، والجمع ممكن والحمد لله.

* وقوله تعالى: ﴿قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ﴾ أي: قد ظهر واستبان الحق والإيمان من الباطل والكفر، وقد تبين وظهر الهدى والنور من الضلال والظلام.

وقوله تعالى: ﴿فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ﴾ أي: يجحد الطواغيت ولا يُقرُّ بها ولا باستحقاقها العبادة ﴿وَيُؤْمِنُ بِاللَّهِ﴾ ويصدق بوحدانية الله عزَّ وجلَّ، وأنه لا شريك له ولا ندَّ ولا ولد ولا صاحبة ولا مثل.

وهذا الذي تضمنته الآية الكريمة ﴿فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنُ بِاللَّهِ﴾ تضمنته كلمة لا إله إلا الله.

فقول: ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ﴾ نفي كل معبود عُبد من دون الله نفي استحقاقه للعبادة فلا معبود (إلا الله) إثبات الإلهية والعبودية لله عزَّ وجلَّ وحده لا شريك له.

وتضمنت المعنى أيضاً مقولة الخليل إبراهيم عليه السلام لقومه: ﴿إِنِّي بَرَاءٌ مِمَّا تَعْبُدُونَ﴾ (١٦) إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ ﴿ وتضمنته أيضاً سورتي الكافرون والإخلاص فسورة الكافرون فيها كفر بكل معبود عُبد من دون الله وسورة الإخلاص تضمنت توحيد الله عزَّ وجلَّ وعلى هذا الغرار آيات أخر كقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾.

وهذا، وعن تعريف الطاغوت، فأقول وبالله تعالى التوفيق: الطاغوت مأخوذ من الطغيان وهو الازدياد ومجاوزة الحد، ومنه قوله تعالى: ﴿إِنَّا لَمَّا طَغَا الْمَاءُ حَمَلْنَاكُمْ فِي الْجَارِيَةِ﴾ [الحاقة: ١١]، وقوله تعالى لموسى عليه السلام: ﴿أَذْهَبَ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى﴾.

[النازعات: ١٧]

هذا أصل الطاغوت، أما ما المراد به هنا فقال فريق من أهل العلم: إنه

الشیطان^(١) .

ومنهم من قال: إنه الساحر^(٢) ، ومنهم من قال: إنه الكاهن^(٣) ، ومنهم من قال إنه الظالم الذي تجاوز الحد في ظلمه .

ومنهم من قال: إنه يشمل جميع ما ذكر .

قال الطبري رحمه الله: والصواب من القول عندي في الطاغوت: أنه كل ذي طغيان على الله فُعبد من دونه إما بقهر منه لمن عبده، وإما بطاعة ممن عبده له إنساناً كان ذلك المعبود أو شيطاناً أو وثناً أو صنماً أو كائناً ما كان من شيء .

هذا، وقد ورد لقوله تعالى: ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾ سبب نزول سنده صحيح، ولكنه قد روى مرسلاً .

أخرج الطبري بإسناد صحيح عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: كانت المرأة تكون مقلاتاً فتجعل على نفسها إن عاش لها ولد أن تهوده فلما أجليت بنو النضير كان فيهم من أبناء الأنصار فقالوا: لا ندع أبناءنا^(٤) ! فأنزل الله تعالى ذكره: ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ بَيَّنَّ الرُّشْدَ مِنَ الْغَيِّ﴾ [البقرة: ٢٥٦] .

أما قوله تعالى: ﴿فَكَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى﴾ أي: استمسك بالحلقة القوية المحكمة الشديدة المطمئنة التي ﴿لَا انفِصَامَ لَهَا﴾ لا انكسار لها ولا انفصال لها، بل تستمر في يد صاحبها حتى تقوده إلى الجنة بإذن الله .

وبتعبير آخر: أنه قد استمسك من الدين بأقوى حبل (أي: أقوى سبب) يربطه

(١) ثبت ذلك عن قتادة كما عند الطبري (٥٨٣٩)، فقد روي عنه هناك بإسناد حسن ، وثبت أيضاً عن الشعبي كما عند الطبري (٥٨٣٧)، وعن غيرهم أيضاً .

(٢) صح ذلك عن أبي العالية كما عند الطبري (٥٨٤١)، وصح عنه أيضاً: أنه الكاهن (٥٨٤٤) .

(٣) صح ذلك عن سعيد بن جبیر كما عند الطبري (٥٨٤٣) .

(٤) أي: لا ندع أبناءنا يخرجون مع بني النضير، والأثر أخرجه الطبري (٥٨١٢)، وقد روى مرسلاً أيضاً عند الطبري (٥٨١٣) .

ومعنى مقلاتاً، أي: لا يعيش لها ولد .

به، أي: استمسك من الدين بالحلقة القوية التي لا تنفصم فهي في نفسها محكمة مبرمة قوية، وهذه العروة الوثقى وهذا الحبل والسبب الذي تمسك به الشخص هو الإيمان بالله والكفر بالطاغوت كما قال رب العزة سبحانه: ﴿فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِرْ بِاللَّهِ فَقَدْ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى﴾ ، وبعض العلماء قال أقوالاً آخر في تفسير العروة الوثقى منها: الإيمان ، ومنها: الإسلام، ومنها: لا إله إلا الله، ومنها: القرآن، ومنها: الحب في الله والبغض في الله.

*وقد أخرج البخاري ومسلم^(١) من طريق قيس بن عباد قال: كنت جالساً في مسجد المدينة فدخل رجل على وجهه أثر الخشوع، فقالوا: هذا رجل من أهل الجنة، فصلى ركعتين تجوز فيهما، ثم خرج وتبعته فقلت: إنك حين دخلت المسجد قالوا: هذا رجل من أهل الجنة قال: والله ما ينبغي لأحد أن يقول ما لا يعلم، وسأحدثك لم ذاك: رأيت رؤيا على عهد النبي ﷺ فقصصتها عليه، ورأيت كأني في روضة - ذكر من سعتها وخضرتها - وسطها عمود من جريد أسفله في الأرض وأعلاه في السماء، في أعلاه عروة فقيل لي: ارقه. قلت: لا أستطيع . فأتاني منصف^(٢) فرفع ثيابه من خلفي، فرقيت حتى كنت في أعلاها، فأخذت في العروة فقيل له: استمسك، فاستيقظت وإنها لفي يدي. فقصصتها على النبي ﷺ، فقال: «تلك الروضة الإسلام، وذلك العمود عمود الإسلام، وتلك العروة عروة الوثقى فأنت على الإسلام حتى تموت» وذلك الرجل عبد الله بن سلام.

وأخرج مسلم^(٣) من طريق خرشة بن الحر قال: كنت جالساً في حلقة في مسجد المدينة قال: وفيها شيخ حسن الهيئة ، وهو عبد الله بن سلام قال: فجعل يحدثهم حديثاً حسناً. قال: فلما قام قال القوم: من سره أن ينظر إلى رجل من أهل الجنة فليُنظر إلى هذا. قال فقلت: والله لأتبعنه فلا أعلمن مكان بيته.، قال : فتبعته، فانطلق

(١) البخاري حديث (٣٨١٣)، ومسلم (حديث ٢٤٨٤)، وأحمد (٤٥٢/٥).

(٢) المنصف هو الخادم.

(٣) مسلم (ص ١٣٩١).

حتى كاد أن يخرج من المدينة، ثم دخل منزله، قال: فاستأذنت عليه فأذن لي فقال: ما حاجتك يا ابن أخي؟ قال: فقلت له: سمعت القوم يقولون لك لما قمت: من سره أن ينظر إلى رجل من أهل الجنة فلينظر إلى هذا، فأعجبني أن أكون معك. قال: الله أعلم بأهل الجنة، وسأحدثك مما قالوا ذلك، إني بينما أنا نائم إذ أتاني رجل فقال لي: قم فأخذ بيدي فانطلقت معه، فإذا أنا بجواد عن شمالي قال: فأخذت لآخذ فيها، فقال لي: لا تأخذ فيها فإنها طرق أصحاب الشمال، قال: فإذا جواد منهج عن يميني فقال لي: خذ ههنا، فأتى بي جبلاً فقال لي: اصعد قال: فجعلت إذا أردت أن أصعد خررت على استي قال: حتى فعلت ذلك مراراً، قال: ثم انطلق بي حتى أتى بي عموداً رأسه في السماء وأسفله في الأرض، في أعلاه حلقة، فقال لي: اصعد فوق هذا. قال: قلت: كيف أصعد هذا؟ ورأسه في السماء. قال: فأخذ بيدي فزجل بي، قال: فإذا أنا متعلق بالحلقة قال: ثم ضرب العمود فخرّ، قال وبقيت متعلقاً بالحلقة حتى أصبحت. قال: فأتيت النبي ﷺ فقصصتها عليه، فقال: «أما الطرق التي رأيت عن يسارك فهي طرق أصحاب الشمال»، قال: «وأما الطرق التي رأيت عن يمينك فهي طرق أصحاب اليمين، وأما الجبل فهو منزل الشهداء ولن تناله، وأما العمود فهو عمود الإسلام، وأما العروة فهي عروة الإسلام، ولن تزال متمسكاً بها حتى تموت»^(١).

وقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ سميع للأقوال التي تكلم بها العبد وشهادته أن لا إله إلا الله وسميع وعليم بما في قلبه أيضاً، وهل قال ذلك نفاقاً أم قاله مخلصاً من قلبه.

وقوله تعالى: ﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ الله متولي أمور الذين آمنوا وناصر الذين آمنوا وحافظ الذين آمنوا، ﴿يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ﴾ ظلمات الكفر والشك والارتباب والجهل والضلال ﴿إِلَى النُّورِ﴾ نور الإيمان والهدى والعلم واليقين.

(١) صحيح مسلم (٢٤٨٤) كتاب فضائل الصحابة، باب فضائل عبد الله بن سلام.

﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ أي: أعوانهم وأنصارهم الطواغيت، فالطاغوت قد يكون بمعنى الفرد وقد يكون بمعنى الجمع، وقد يجمع أحياناً كما في الحديث «ويتبع من كان يعبد الطواغيت الطواغيت».

﴿يُخْرِجُونَهُمْ مِنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ﴾ أي: أن الطواغيت تُخرج الذين كفروا من النور إلى الظلمات.

﴿وَأُولَئِكَ﴾ أي: أهل الكفر أولياء الطواغيت ﴿أَصْحَابُ النَّارِ﴾ أهلها الذين هم أهلها على الدوام ﴿هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ أي: هم فيها ما كثون.

وقد يُطرح سؤال: هل كان أهل الكفر في نور وأخرجتهم الطواغيت منه؟ وللإجابة عليها توجيهات للآية الكريمة:

أحدها: أن الآية مخصوصة بأهل الكتاب الذين كانوا مُقرين بنبوة موسى عليه السلام، وكذلك المقرين بنبوة عيسى عليه السلام، وكانوا متبعين لملتهم فهؤلاء كانوا على نور فلما جاءهم محمد صلى الله عليه وآله كفروا به فدخلوا في ظلمات الكفر بعد أن خرجوا من نور الإيمان.

الثاني: أن المراد بإخراجهم من الظلمات إلى النور الحيلولة بينهم وبين الإيمان حتى يضلونهم عن طريق الإيمان فيكفرون فيكون التضليل إخراجاً من النور إلى الظلمات، كقول الرجل أخرجني والدي من الميراث يعني ملكه غيري.

الثالث: أنه لما ظهرت معجزات رسول الله صلى الله عليه وآله كان المخالف له خارجاً من نورٍ قد علمه، والموافق له خارجاً من ظلمات الجهل إلى نور العلم. والله تعالى أعلم.



(قصة الذي حاج إبراهيم في ربه)

قال الله عز وجل: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ
 اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أَحْيِي
 وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ
 الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾ (٢٥٨).

قوله تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ ﴾.

هل رأيت مثل هذا الذي جادل إبراهيم عليه السلام في الله عز وجل وقال ليس
 هناك إله، هل أتاك خبره وهل وصل إليك علمه، وهل رأيت أعجب منه وأشد كفرًا
 منه!!

هذا، ولم يرد في تسميته شيء ثابت عن رسول الله ﷺ ومن العلماء من قال: إنه
 النمرود بن كوش بن كنعان بن سام بن نوح ملك زمانه وصاحب
 النار^(١) والبعوضة^(٢)، وثم أقوال أخرى، والله تعالى أعلم^(٣).

وقوله ﴿ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ ﴾ ذهب جمهور العلماء إلى أن الضمير يرجع إلى
 هذا الجبار المعاند لإبراهيم عليه السلام.

ومن العلماء من قال: إنه يرجع إلى إبراهيم عليه السلام، واحتجوا بقوله تعالى:

(١) يعني: الذي أوقد النار وألقى فيها إبراهيم عليه السلام.

(٢) يعني: الذي دخلت في أنفه بعوضة: فكانوا يضربونه على رأسه سنين طويلة علاجًا له، والله أعلم.

(٣) أخرج الطبري بإسناد حسن عن قتادة (٥٨٦٥)، قال: كنا نحدث أنه ملك يُقال له: نمرود، وهو أول ملك
 تجبر في الأرض وهو صاحب الصرح ببابل.

✽ وأخرج الطبري أيضًا (٥٨٦٩)، بإسناد صحيح إلى ابن زيد: هو نمرود.

﴿فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَآتَيْنَاهُمْ مُلْكًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٥٤]. والله أعلم.

ومعنى ﴿أَن آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ﴾ لكونه آتاه من الملك أي: لما آتاه الله الملك جادل في الله، وكان من اللائق به أن يشكر الله، لكن إعطاؤه الملك جعله يبطر ويطغى ويتكبر، ويجادل في الله ويقول لا إله لما قال له إبراهيم عليه السلام ﴿رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ﴾ فادعى الكافر أنه يحيى ويميت بقوله ﴿أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ﴾ فعدل إبراهيم عليه السلام إلى طريقة أخرى في المناقشة وإلى مثال معجز فقال: ﴿فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِي بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ﴾ أي: إذا كنت تدعى أنك قادرٌ على كل شيءٍ فغيّر مجرى الشمس واجعلها تطلع من المغرب ﴿فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ﴾ أي فانقطعت حجته وسكت ولم تكن له حيلة ولكن لم يوفق للإسلام أيضًا بدليل قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ لا يوفق للهدى من سبق في علمه أنه سيموت على الكفر، ولا يلهمهم حجة ولا برهانًا ويفهم من هذا أن الهادي هو الله، فنعم قد غلبه إبراهيم عليه السلام بالحجة ولكنه لم يوفق للهداية.



(قصة الذي مر على قرية وهي خاوية على عروشها)^(١)

قال الله عز وجل: ﴿ أَوَكَلَّيْ مَرَّ عَلَى قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّى يُحْيِي هَٰذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ ۖ قَالَ كَمْ لَبِثْتُ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ۖ قَالَ بَلْ لَبِثْتُ مِائَةَ عَامٍ ۖ فَانْظُرْ إِلَى طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ ۖ وَانْظُرْ إِلَى حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ ءَايَةً لِلنَّاسِ ۖ وَانْظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنْشِرُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ ۖ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ۖ ﴾ (٢٥٩)

وقوله تعالى: ﴿ أَوَكَلَّيْ مَرَّ عَلَى قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا ﴾ هذا مثال لشخص أنكر البعث ثم لما تبين له قدرة الله عز وجل آمن وانتفع بالمعجزة التي رآها وقد قيل إن هذا الرجل هو (عزير) وقيل غير ذلك والله أعلم بصحة ذلك إذ لم نقف على خبر ثابت بتسميته، والله تعالى أعلم وكذا لم نقف على خبر ثابت بتسمية هذه القرية.

فالحاصل أنه رجل كان متشككاً في البعث أو منكراً له أو متعجباً كيف يكون فمر على قرية ﴿ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا ﴾ فارغة قد سقطت سقوفها ثم سقطت الحيطان على السقوف.

﴿ قَالَ ﴾ متعجباً ﴿ أَنَّى يُحْيِي هَٰذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا ﴾ من أي وجه سيحيي هذه الله بعد موتها؟!، وكيف سيحيي الله أهل هذه البلدة بعد أن ماتوا؟!!

(١) ويقولون إنه (العزير) فالله أعلم.

هكذا تعجب أو استبعد واستنكر!!

﴿فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ﴾ ثم أحياه فسأله ﴿كَمْ لَبِثْتَ﴾، كم مكثت في نومك، أو في نومتك هذه؟! ﴿قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ﴾ نمت يومًا أو جزءًا من اليوم ﴿قَالَ﴾ الله عز وجل ﴿بَلْ لَبِثْتَ﴾ مكثت ميتًا أو نائمًا ﴿مِائَةَ عَامٍ فَانْظُرْ إِلَى طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ﴾ لم يتغير لم تغيره السنون ﴿وَأَنْظُرْ إِلَى حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِلنَّاسِ وَانْظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنْشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا﴾ ذهب فريق من العلماء إلى أن المعنى وانظر إلى إحيائنا حمارك وانظر إلى عظامه كيف ننشرها ثم نكسوها لحماً، فالمعنى على هذا أن الحمار تفرقت أجزاؤه ونخرت عظامه وتقطعت أوصاله ثم أحياه الله ﷻ بأن ركب بعض عظامه على بعض وأعاده الله كما كان ليشاهد كيفية الإحياء.

❁ **ومن العلماء من قال:** وانظر إلى حمارك ما زال قائماً بين يديك، وذهب هذا الفريق من أهل العلم إلى أن قوله: ﴿وَأَنْظُرْ إِلَى الْعِظَامِ﴾ تأويله أن الله رد إلى الرجل بصره ونفخ الروح في عينيه ثم بقي ينظر إلى عظامه وهي تلتئم ويركب بعضها بعضاً ثم يكسوها - الله ﷻ اللحم.

❁ **ومن العلماء من قال:** إن النظر كان إلى عظامه وعظام حماره معاً وهما يركبان ويكسوان اللحم، والله تعالى أعلم.

وقوله تعالى: ﴿وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِلنَّاسِ﴾ أي ولنجعلك عبرة للناس ودلالة على قدرتنا على إحياء الموتى وعلى البعث وقوله: ﴿وَأَنْظُرْ إِلَى الْعِظَامِ﴾ هل المراد وانظر إلى عظامك أم المراد عظام حمارك؟ بكل قال بعض أهل العلم وقال فريق انظر على عظامك وعظام حمارك وقوله تعالى: ﴿كَيْفَ نُنْشِزُهَا﴾ أي نرفعها فنجعل بعضها فوق بعض ﴿ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا﴾ ثم نغطيها باللحم ونبنت اللحم فوقها ﴿فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ﴾ ظهر له ما صنعه الله عز وجل به وبالحمار ﴿قَالَ﴾ مقرأً بقدرة الله عز وجل ﴿أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ فهكذا انتفع وآمن!!!

(الخليل إبراهيم عليه السلام يطلب المزيد مما تطمئن به القلوب
 قصة الخليل إبراهيم مع الطير)

قال الله عز وجل: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَىٰ ۖ قَالَ أَوْلَمْ تُؤْمِنْ ۖ قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي ۖ قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ أَجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ۝٦٠﴾ .

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَىٰ ۖ قَالَ أَوْلَمْ تُؤْمِنْ ۖ قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي ۖ﴾ هذا تذكير بشيء من أمر الخليل إبراهيم عليه السلام لما سأل ربه قائلاً ﴿رَبِّ أَرِنِي﴾ اجعلني أنظر إلى كيفية إحيائك للموتى قال الله عز وجل له ﴿أَوْلَمْ تُؤْمِنْ﴾ أو لم تكن آمنت من قبل ﴿قَالَ بَلَىٰ﴾ قد آمنت ﴿وَلَٰكِن﴾ سألت هذا السؤال وأردت أن أرى بعيني كي ﴿لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي﴾ كي يزداد قلبي إيماناً وطمأنينة و يقيناً ﴿قَالَ﴾ الله عز وجل ﴿فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ﴾ ضمهن إليك وقطعهن ﴿ثُمَّ أَجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا﴾ قطعة من قطع الطير ﴿ثُمَّ ادْعُهُنَّ﴾ ناد عليهن ﴿يَأْتِينَكَ سَعْيًا﴾ تأتيك هذه الطيور الأربعة التي قطعتها ووضعت على كل جبل منهن جزءاً، تأتيك تسعى إليك، تأتي إليك مسرعة!! ﴿وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ﴾ لا يغلب وليس بعاجز ﴿حَكِيمٌ﴾ في كل شيء وفيما يشرع وفيما يضرب من الأمثال وقد ورد في هذا الباب حديث أخرجه البخاري^(١) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال: «نحن أحق بالشك من إبراهيم إذ قال رب أرنى كيف تحي الموتى».

(١) البخاري (٣٣٧٢).

ولأهل العلم في شرحه أقوال:

الأول: إننا لم نشك في قدرة الله على إحياء الموتى؛ فإبراهيم أولى ألا يشك منا، ففي هذا تواضع من رسول الله ﷺ، فالمعنى: لو كان إبراهيم شاكاً لشككنا، فلما لم نشك نحن؛ كان إبراهيم أولى ألا يشك منا.

الثاني: أنه دخل قلب إبراهيم ما يدخل قلوب البشر.

الثالث: أن المعنى: نحن أشد اشتياقاً إلى رؤية ذلك من إبراهيم ﷺ.

وتم أقوال أخر أولاها ما ذكرناه أولاً ، وعليه جمهور المفسرين، والله تعالى أعلم.



(الحث على الإنفاق في سبيل الله عز وجل والنهي عن المن والأذى)

قال الله عز وجل: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلٍ فِي كُلِّ سُنبُلَةٍ مِائَةُ حَبَّةٍ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٣٦﴾ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ لَا يُتَّبَعُونَ مِمَّا أَنْفَقُوا مَنَّا وَلَا أَذَى لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٧﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ أي مثل نفقة الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله، وكيف وأنها تتضاعف.

وقوله: ﴿فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ ذهب بعض أهل العلم إلى أنها النفقة في الجهاد خاصة، وذهب آخرون إلى أنها عامة في كل أنواع البر، والذي يظهر لي أن المراد بالنفقة في سبيل الله: النفقة لتكون كلمة الله هي العليا، ذلك على نسق حديث: «من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله»، والله أعلم.

وقوله تعالى: ﴿كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلٍ فِي كُلِّ سُنبُلَةٍ مِائَةُ حَبَّةٍ﴾ أي أن الحبة تضاعف إلى سبعمائة ضعف فكذلك النفقة في سبيل الله عز وجل تتضاعف إلى سبعمائة ضعف ففي الحديث الذي أخرجه مسلم^(١) وغيره من حديث أبي مسعود رضي الله عنه قال جاء رجل بناقة مخطومة فقال: يا رسول الله هذه في سبيل الله فقال: «لك بها يوم القيامة سبعمائة ناقة كلها مخطومة».

وقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ مفاده أن النفقة قد يتضاعف أجرها إلى

(١) أخرجه مسلم (١٨٩٢).

أكثر من سبعمائة ضعف، وقال النبي ﷺ: «من تصدَّق بعدل ثمرة من كسب طيب - ولا يصعد إلى الله إلا الطيب - فإن الله يتقبلها بيمينه ثم يربُّها لصاحبها، كما يربِّي أحدكم فُلُوهُ حتى تكون مثل الجبل»^(١).

وقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ واسع العطاء عليم بمن يستحقه ومن سيتنفع به.

وقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ لإعلاء كلمة الله ﴿ثُمَّ لَا يُنتِعُونَ مَا أَنْفَقُوا مَنًّا وَلَا أَذًى﴾ أي: ثم لا يمتنون على من أحسنوا إليهم ولا يؤذونهم ﴿لَهُمْ أَجْرُهُمْ﴾ الكامل غير المنقوص ﴿عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾ مما هو آت فـالله يتولاهم ويحفظهم، ويرعاهم ويكرمهم ﴿وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ على ما قد فات، وعلى ما قد تركوه من الأهل والولد فـالله يحفظهم من بعدهم ويستفاد من الآية الكريمة التحذير من المن إذ هو من الكبائر والمن هو: ذكر النعمة على معنى التعديد لها والتقريع بها. وقيل: التحدث بما أعطى حتى يبلغ ذلك المُعْطَى ويؤذيه.

وأخرج مسلم في صحيحه^(٢): من حديث أبي ذر رضي الله عنه عن النبي ﷺ، قال: «ثلاثة لا يكلمهم الله يوم القيامة، ولا ينظر إليهم، ولا يزكيهم، ولهم عذاب أليم» قال: فقرأها رسول الله ﷺ ثلاث مرار، قال أبو ذر: خابوا وخسروا، من هم يا رسول الله؟ قال: «المسبل، والمنان، والمنفق سلعته بالحلف الكاذب».



(١) أخرجه البخاري (٧٤٣٠)، ومسلم (١٠١٤)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعاً.

(٢) مسلم (حديث ١٠٦).

قوله تعالى: ﴿قَوْلٌ مَعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّنْ صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَا أَذَىٰ﴾

وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَلِيمٌ ﴿٦٣﴾.

أما القول المعروف فمنه الكلمة الطيبة والدعوة الصالحة بظهر الغيب للسائل والمحتاج والوعد الحسن: كأن تقول له: لو وسع الله عليّ سأوسع عليك وسأعطيك إن يسر الله، والقول المعروف في الجملة هو القول الجميل الذي تقبله القلوب ولا تنكره.

أما المغفرة، فمن معاني المغفرة الستر، والمراد: أن السائل إذا أتاك لمسألة ورددته لعدم استطاعتك أو لأي سبب ينبغي لك أن تستر عليه ولا تشهر به ولا تظهر أمره للناس.

وقد تكون المغفرة للفقير والسائل، فالفقير والسائل إذا جاء وسألك ورددته ربما حملة ذلك على بذاءة اللسان، والخوض في عرضك، فأمر بالعفو عن بذاءة الفقير والصفح عن إساءته.

وقد يكون المراد بالمغفرة: طلب المغفرة لنفسك وله من الله **سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ،**

والله تعالى أعلم.

وقوله تعالى: ﴿خَيْرٌ مِّنْ صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَا أَذَىٰ﴾ أي: ثوب عند الله وأفضل من الصدقة التي يتبعها المتصدق بإيذاء المتصدق عليه ﴿وَاللَّهُ غَنِيٌّ﴾ عن صدقة المتصدق المنان ﴿حَلِيمٌ﴾ لا يعجل العقوبة لمن من بصدقته على الفقير وآذاه والله أعلم.



(مثل مضروب للمنفق المنان والمنفق المؤذي)

قال الله عز وجل: ﴿يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذَى كَالَّذِي يُنْفِقُ مَالَهُ رِثَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْدًا لَا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِّمَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ﴿٢٦٤﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذَى كَالَّذِي يُنْفِقُ مَالَهُ رِثَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ فيه تحذير من إبطال الأعمال أي: ذهاب ثوابها فالمعنى يا أهل الإيمان والتصدق لا تذهبوا ثواب صدقاتكم ولا تضيعوا الحسنات التي أتتكم من جراء صدقاتكم لا تذهبوا الثواب ولا تضيعوا الحسنات بالمن على الناس بعد إعطائهم، تقولون لهم أعطيناكم وأعطيناكم فتؤذونهم بهذه الكلمات، وكذا تؤذونهم بغيرها من الأفعال فالمن والأذى يُذهبان ثواب الصدقات التي تصدقتم بها، كما أن المرائي الذي يرائي الناس بأعماله ولا يريد وجه الله إنما يريد ثناء الناس عليه وحديث الناس عليه ولا يصدق بالله ولا بثوابه في اليوم الآخر، هذا المرائي لا ثواب له يوم القيامة، فكذا الذي يتبع الصدقات بالمن والأذى يضيع ثوابه.

فوجه الشبه أن الذي يمن على الناس بصدقته ويؤذيهم بها يذهب ثواب صدقته، كالذي يرائي الناس وهو يتصدق، ويُظهر لهم أنه يريد وجه الله، وإنما يريد مدح الناس له وشهرته بينهم بالصفات الجميلة، وليست همته طلب ثواب العمل ونيل مرضات الله.

ثم ضرب مثل للمرائي، وكيف وأنه لا يثاب من الأصل أو أن ثواب عمله

يضيع ولا يجده يوم القيامة بقوله تعالى: ﴿فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْدًا لَا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِمَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾.

وقوله: ﴿فَمَثَلُهُ﴾ أي: مثل المرائي مع عمله ﴿كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ﴾ كمثل حجر عليه تراب، فالصفوان الحجر الأملس ﴿فَأَصَابَهُ وَابِلٌ﴾ أي: فأصاب الحجر الأملس مطر شديد فالوابل المطر الشديد، ومنه قوله تعالى: ﴿فَعَصَى فِرْعَوْنُ الرَّسُولَ فَأَخَذْنَاهُ أَخْذًا وَبِيلًا﴾ أي شديدًا فلما نزل المطر الشديد على التراب الذي على الحجر الأملس ضيع التراب تمامًا وذهب به ومحاه، أعني محى التراب فكذلك الرياء - والمن والأذى - ينزل على الأعمال فيذهبها ويضيعها في كل مكان ولا يستطيع صاحبها العثور عليها ولا الانتفاع بها على الإطلاق، كما أن التراب قد ذهب عن الحجر الأملس بسبب المطر الشديد، ولا يستطيع إعادة التراب، فقد قال تعالى: ﴿فَتَرَكَهُ صَلْدًا﴾ أي أملسًا يابسًا لا شيء عليه فقوله: ﴿لَا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِمَّا كَسَبُوا﴾ أي: لا يستطيعون الانتفاع بشيء من أعمالهم فكما أن التراب قد ذهب وضاع فتواب الأعمال قد ذهب وضاع أيضًا ﴿وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾ لا يوفقهم للفهم الصحيح ولا يوفقهم للنفقة الصحيحة ولا يوفقهم للإيمان.

هذا وبتعبيرات آخر ووجوه آخر أقول، والعلم عند الله: أن الأعمال كالتراب^(١)، والوابل (الذي هو المطر الشديد) هو الرياء والمن والأذى، فالمن والأذى والرياء يذهبان الأعمال وثوابها كما يذهب الوابل التراب.

وجه آخر: أن المنفق رياءً، كرجل ظن أن الحجر الذي عليه تراب تربة صالحة للبذر فبذر في التراب وهو لا يظن أن تحته حجر، وظن أنه بذر بذرة في مكان طيب منبت، فلما جاء الوابل ذهب بالبذرة كلها وهذه بعض أقوال العلماء في ذلك.

(١) ويؤيده قوله تعالى: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ لَا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا عَلَى شَيْءٍ...﴾ [إبراهيم: ١٨].

وقوله تعالى: ﴿وَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى النَّاسِ إِذْ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ لِيُذْهِبَ عَنْهُمْ آلِهَتِهِمْ الَّتِي كَانُوا يَكُونُونَ فِيهَا لَا يَفْقَهُونَ شَيْئًا مِمَّا كَانُوا يَكُونُونَ﴾ [الفرقان: ٢٣].

(مثل مضروب لأهل الإيمان المنفقين المحتسبين
الذين يريدون وجه الله عز وجل)

قال الله عز وجل: ﴿وَمَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ ابْتِغَاءَ
مَرْضَاتِ اللَّهِ وَتَثْبِيْتًا مِّنْ أَنْفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا
وَابِلٌ فَكَانَتْ أَكْطَلَهَا ضِعْفَيْنِ فَإِن لَّمْ يُصِبَّهَا وَابِلٌ فَطُلٌّ وَاللَّهُ بِمَا
تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ۝٢٦٥﴾.

ثم ضرب مثل للمؤمن المتصدق المحسن الذي يتغي بصدقته رضاء الله عنه
وينفق بثبات واحتساب ويقين ولا يتردد عند النفقة بل يوقن بثوابها ويبادر
بإخراجها، ضرب مثل لصدقته وكيف وأنها تنمو وتزداد، فقال تعالى: ﴿وَمَثَلُ الَّذِينَ
يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ وَتَثْبِيْتًا مِّنْ أَنْفُسِهِمْ﴾ أي تصديقاً ويقيناً
واحتساباً ﴿كَمَثَلِ جَنَّةٍ بِرَبْوَةٍ﴾ كمثال بستان وحديقة على ربوة من الأرض وهي
المكان المرتفع عن الأرض ارتفاعاً يسيراً ﴿أَصَابَهَا وَابِلٌ﴾ مطرٌ شديدٌ فأخذت ما
تريده وذهب سائر الوابل عنها، أي ذهب الماء الزائد الذي قد يضرها لكونها
مرتفعة أي أنها أخذت حاجتها من الماء كاملة فأنثرت ثمرة عظيمة مضاعفة
﴿فَكَانَتْ أَكْطَلَهَا ضِعْفَيْنِ﴾ أي أعطت ثمرتها كاملة بل مضاعفة أي أنها أنثرت
في عام واحد ما تثمره غيرها في عامين.

وقوله تعالى: ﴿فَإِن لَّمْ يُصِبَّهَا وَابِلٌ فَطُلٌّ﴾ أي إن لم يأت الوابل -المطر
الشديد- فالطل يكفيها، أي فالمطر الضعيف القليل يكفيها، أو الندى، وهو الرذاذ،
واللين من المطر يكفيها كي تخرج ثمرتها، والمعنى الإجمالي: أن عمل المؤمن لا
يبور كما أن الجنة لا تبور، فإن لم يأتها وابل فالطل يكفيها، وكذلك عمل المؤمن

يقبله الله وينميهِ ويكثره وإن كان قليلاً.

وقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ أي أن الله عز وجل لا يخفى عليه شيء من صنعكم، ولا تخفى عليه أعمالكم ولا نواياكم ولا أقوالكم، بل هو مطلع على كل شيء سبحانه وتعالى.

هذا، وأسوق هنا ما ذكره ابن القيم رحمه الله، فقد قال في التفسير القيم له: هذا مثل الذي مصدر نفقته عن الإخلاص والصدق. فإن ابتغاء مرضاته سبحانه هو الإخلاص. والتثبيت من النفس هو الصدق في البذل، فإن المنفق يعترضه عند إنفاقه آفتان إن نجا منهما كان مثله ما ذكره في هذه الآية، إحداهما: طلبه بنفقته محمداً أو ثناء أو غرضاً من أغراضه الدنيوية، وهذا حال أكثر المنفقين، والآفة الثانية: ضعف نفسه وتقاعسها وترددتها. هل يفعل أم لا؟ فالآفة الأولى: نزول بابتغاء مرضات الله. والآفة الثانية: نزول بالتثبيت فإن تثبيت النفس تشجيعها وتقويتها والإقدام بها على البذل. وهذا هو صدقها وطلب مرضات الله إرادة وجهه وحده وهذا إخلاصها فإذا كان مصدر الإنفاق عن ذلك كان مثله كجنة - وهي البستان الكثير الأشجار - فهو مجتنب بها أي: مستتر ليس قاعاً فارغاً. والجنة بربوة وهو المكان المرتفع، لأنها أكمل من الجنة التي بالوهاد والحضيض، لأنها إذا ارتفعت كانت بمدرجة الأهوية والرياح، وكانت ضاحية للشمس وقت طلوعها واستوائها وغروبها، فكانت أنضج ثمرًا وأطيبه وأحسنه وأكثره، فإن الثمار تزداد طيبًا وزكاء بالرياح والشمس، بخلاف الثمار التي تنشأ في الظلال، وإذا كانت الجنة بمكان مرتفع لم يخش عليها إلا من قلة الماء والشراب فقال تعالى: ﴿أَصَابَهَا وَاَيْلٌ﴾ [البقرة: ٢٦٥]، وهو المطر الشديد العظيم القدر، فأدت ثمرتها وأعطت بركتها، فأخرجت ثمرتها ضعفي ما يثمر غيرها أو ضعفي ما كانت تثمر بسبب ذلك الوابل، فهذا حال السابقين المقربين، ﴿فَإِنْ لَّمْ يُصِبْهَا وَاَيْلٌ فَطُلٌّ﴾ [البقرة: ٢٦٥]، فهو دون الوابل. فهو يكفيها لكرم منبتها وطيب مغرسها تكتفي في إخراج بركتها

بالطل، وهذا حال الأبرار والمقتصدين في النفقة، وهم درجات عند الله، فأصحاب الوابل أعلاهم درجة، وهم الذين ينفقون أموالهم بالليل والنهار سرًّا وعلانية، ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة، وأصحاب الطل مقتصدوهم. فمثل حال القسمين وأعمالهم بالجنة على الربوة، ونفقتهم الكثيرة بالوابل والطل، وكما أن كل واحد من المطرين يوجب زكاء ثمر الجنة ونحوه بالأضعاف، فكذلك نفقتهم كثيرة كانت أو قليلة، بعد أن صدرت عن ابتغاء مرضاة الله والتشيت من نفوسهم، فهي زاكية عند الله نامية مضاعفة.



(مثل آخر مضروب للتحذير من المن والأذى
والرياء والكفر بعد الإسلام)

قال الله تبارك وتعالى: ﴿ أَيَوَّدُ أَحَدُكُمْ أَنَّ تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ مِّنْ نَّخِيلٍ
وَأَعْنَابٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ لَهُ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَأَصَابَهُ
الْكِبَرُ وَلَهُ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفَاءُ فَأَصَابَهَا إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَاحْتَرَقَتْ كَذَلِكَ
يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴾ (٢٦٦).

فهذا مثلٌ مضروب لمن ذهب ثواب عمله وهو في أشد الاحتياج إليه
ومضروب أيضاً لمن ختمت حياته، والعياذ بالله بسوء فضاع عمله وذهب ثوابه.
ومضروب أيضاً للمتصدق المرائي المنان والمؤذي الذين ذهب عنهم ثواب
عملهم.

فقوله تعالى: ﴿ أَيَوَّدُ أَحَدُكُمْ أَنَّ تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ مِّنْ نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ ﴾ أيرغب
أحدكم أن تكون له حديقة أو بستان عظيم من نخيل وأعنان ﴿ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا
الْأَنْهَارُ ﴾ تتفجر فيها العيون أي حول أشجارها الأنهار، أي أن ماءها متوفر إذا
احتاجت إلى السقيا وجدت الماء ﴿ لَهُ فِيهَا ﴾ في حديقته وبستانه ﴿ مِنْ كُلِّ
الثَّمَرَاتِ ﴾ كل ما يشتهي ويريد من الثمرات، أي أنه مُنعمٌ وسعيدٌ بحديقته وثمراتها
﴿ وَأَصَابَهُ الْكِبَرُ وَلَهُ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفَاءُ ﴾ وتقدم به العمر، تقدم به السن، وعنده -على
الكبر- ذرية ضعفاء، أولاد أو بنات ضعفاء لصغر سنهم أو لمرضهم وعجزهم
﴿ فَأَصَابَهَا ﴾ ففجأة أصاب حديقته، أصاب بستانه ﴿ إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ ﴾ أي: ريح
شديدة عاصفة تهب من الأرض إلى السماء كالزوبعة فيها نار ﴿ فَاحْتَرَقَتْ ﴾ أي:
احترقت الحديقة، احترقت جنته واحترق بستانه !!!

فكيف يصنع هذا المسكين!
إنه كبير السن لا يستطيع العمل!!
له ذرية ضعفاء يحتاجون إلى المال والنفقة!! لم يعد عنده مال، لقد دُمرت
أمواله وذهبت!!؟
فما العمل!

فهكذا من تختم حياته بسوء والعياذ بالله!
وهكذا من يرائي، ومن يمن على الناس ويؤذيهم!!
قال تعالى: ﴿كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ﴾ كذلك
يوضح الله عز وجل لكم الدلالات لتستدلوا بها على صدق ما قاله ربكم ولتستدلوا
بها على إخلاص نواياكم وتصحيح أعمالكم، ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ﴾ في عواقب
أموالكم فتركوا ما يضرهم ويضيع ثواب أعمالكم ولعلكم تتفكرون في مصائرهم
التي أنتم إليها صائرون.

هذا، وقد أخرج البخاري^(١) في صحيحه من طريق عبيد بن عمير قال: قال عمر
رضي الله عنه يوماً لأصحاب النبي ﷺ: فيم ترون هذه الآية نزلت ﴿أَيُّدُ أَحَدُكُمْ أَنْ
تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ﴾ [البقرة: ٢٦٦]؟، قالوا: الله أعلم، فغضب عمر، فقال: قولوا نعلم أو
لا نعلم، فقال ابن عباس: في نفسي منها شيء يا أمير المؤمنين قال عمر: يا بن أخي
قل ولا تحقر نفسك، قال ابن عباس: ضربت مثلاً لعمل، قال عمر: أي عمل؟، قال
ابن عباس: لعمل، قال عمر: لرجل غني يعمل بطاعة الله ﷻ، ثم بعث الله له
الشیطان فعمل بالمعاصي حتى أغرق أعماله.

وأخرج الطبري بإسناد حسن عن قتادة^(٢) قال:
قوله: ﴿أَيُّدُ أَحَدُكُمْ أَنْ تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ مِّنْ نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا

(١) البخاري (٤٥٣٨).

(٢) أخرجه الطبري (٦٠٩٩).

الْأَنْهَرُ ﴿الْبَقَرَةُ: ٢٦٦﴾، يقول: أصابها ريح فيها سموم شديد - ﴿كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ﴾ ﴿الْبَقَرَةُ: ٢٦٦﴾، فهذا مثلٌ ، فاعقلوا عن الله جل وعز أمثاله ، فإنه قال: ﴿وَتِلْكَ الْأَمْثَلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ﴾ ﴿الْعَنَكَبُوتُ: ٤٣﴾، هذا رجل كبرت سنه، ورق عظمه، وكثر عياله، ثم احترقت جنته على بقية ذلك، كأحوج ما يكون إليه، يقول: أيحب أحدكم أن يضل عنه عمله يوم القيامة كأحوج ما يكون إليه؟

واختار الطبري رحمه الله: ما ذكره بإسناده عن السدي قال: ﴿أَيُّدُ أَحَدُكُمْ أَنْ تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ مِّنْ نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ لَهُ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَأَصَابَهُ الْكِبَرُ وَلَهُ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفَاءُ فَأَصَابَهَا إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَاحْتَرَقَتْ﴾ ﴿الْبَقَرَةُ: ٢٦٦﴾، هذا مثل آخر لنفقة الرياء، إنه ينفق ماله يرائي الناس به، فيذهب ماله منه وهو يرائي، فلا يأجره الله فيه، فإذا كان يوم القيامة واحتاج إلى نفقته، وجدها قد أحرقتها الرياء فذهبت، كما أنفق هذا الرجل على جنته، حتى إذا بلغت وكثر عياله واحتاج إلى جنته، جاءت ريح فيها سموم فأحرقت جنته، فلم يجد منها شيئاً . فكذلك المنفق رياء.

قال الرازي رحمه الله: اعلم أن هذا مثل آخر ذكره الله تعالى في حق من يتبع إنفاقه بالمن والأذى، والمعنى أن يكون للإنسان جنة في غاية الحسن والنهاية، كثيرة النفع، وكان الإنسان في غاية العجز عن الكسب وفي غاية شدة الحاجة، وكما أن الإنسان كذلك فله ذرية أيضاً في غاية الحاجة، وفي غاية العجز، ولا شك أن كونه محتاجاً أو عاجزاً مظنة الشدة والمحنة، وتعلق جمع من المحتاجين العاجزين به زيادة محنة على محنة، فإذا أصبح الإنسان وشاهد تلك الجنة محرقة بالكلية، فانظر كم يكون في قلبه من الغم والحسرة، والمحنة والبلية تارة بسبب أنه ضاع مثل ذلك المملوك الشريف النفيس، وثانياً بسبب أنه بقي في الحاجة والشدة مع العجز عن الاكتساب واليأس عن أن يدفع إليه أحد شيئاً ، وثالثاً بسبب تعلق غيره به،

ومطالبتهم إياه بوجوه النفقة، فكذلك من أنفق لأجل الله، كان ذلك نظيرًا للجنة المذكورة وهو يوم القيامة، كذلك الشخص العاجز الذي يكون كل اعتماده في وجوه الانتفاع على تلك الجنة، وأما إذا أعقب إنفاقه باليمن أو بالأذى كان ذلك كالإعصار الذي يحرق تلك الجنة، ويعقب الحسرة والحيرة والندامة فكذا هذا المال المؤذي إذا قدم يوم القيامة، وكان في غاية الاحتياج إلى الانتفاع بثواب عمله، لم يجد هناك شيئًا فيبقى لا محالة في أعظم غم وفي أكمل حسرة وحيرة، وهذا المثل في غاية الحسن، ونهاية الكمال، ولنذكر ما يتعلق بألفاظ الآية.



(الحث على النفقة من طيب الكسب)

قال الله عز وجل: ﴿يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَنْفِقُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّا أَخْرَجْنَا لَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَلَا تَيَمَّمُوا الْخَبِيثَ مِنْهُ تُنْفِقُونَ وَلَسْتُمْ بِآخِذِيهِ إِلَّا أَنْ تُغْمِضُوا فِيهِ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَنِ حَمِيدٍ﴾ (٣٦٧).

هذا حث على الإنفاق من الكسب الطيب، الحلال الجيّد ويشمل التجارة والإجارة ونحو ذلك من الكسب الحلال، وقد قال النبي ﷺ: «إن الله طيب لا يقبل إلا طيباً»، وقوله تعالى: ﴿وَمِمَّا أَخْرَجْنَا لَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ﴾ وذلك من الثمار والنباتات والمعادن والركاز الذي هو دفن الجاهلية، وقيل هو ما ارتكز في الأرض من الذهب والفضة والجواهر فالركاز الذي هو دفن الجاهلية، خمسُه يخرج كزكاة ففي الحديث «وفي الركاز الخمس» (١).

وقوله تعالى: ﴿وَمِمَّا أَخْرَجْنَا لَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ﴾ ظاهره يفيد العموم لكنه ليس عاماً، بل مقيد بما قاله رسول الله ﷺ إذا قال: «ليس فيما دون خمس أوسق صدقة» (٢). وكذا فالخلاف قائم في زكاة الخضروات، وبالأية استدل القائلون بإخراج زكاتها. وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَيَمَّمُوا الْخَبِيثَ مِنْهُ تُنْفِقُونَ وَلَسْتُمْ بِآخِذِيهِ إِلَّا أَنْ تُغْمِضُوا فِيهِ﴾ حاصله ولا تقصدوا الرديء من الثمار تخرجونه، فإنه (أي هذا الرديء من الثمار) لو أعطي لكم إذا كان حقاً لكم لم تأخذوه إلا إذا غضضتم الطرف عن العيوب التي به وكذا إذا أهدى إليكم لم تقبلوه إلا بغض الطرف وإغماض العين

(١) البخاري (١٤٩٩)، ومسلم (١٧١٠).

(٢) أخرجه البخاري (١٤٥٩)، ومسلم (٩٧٩).

أحدهما: كيف تبذلون لله وتهدون له ما لا ترضون ببذله لكم، ولا يرضى أحدكم من صاحبه أن يهديه له، والله أحق من يختار له خيار الأشياء وأنفسها؟!

والثاني: كيف تجعلون له ما تكرهون لأنفسكم، وهو سبحانه طيب لا يقبل إلا طيباً؟!

ثم ختم الآيتين بصفيتين يقتضيهما سياقهما، فقال: ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾ [البقرة: ٢٦٧]، فغناه وحمده يأيان قبوله الرديء، فإن قابل الرديء الخبيث إما أن يقبله لحاجته إليه، وإما أن نفسه لا تأباه لعدم كمالها وشرفها، وأما الغني عنه الشريف القدر الكامل الأوصاف فإنه لا يقبله.



(وعد الله عز وجل المنفق بالمغفرة والفضل)
 (وعد الشيطان الخسيس بالفقر وأمره بالفحشاء)

وقوله تعالى: ﴿ الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُمْ بِالْفَحْشَاءِ ۖ وَاللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلًا ۗ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ۝٦٨ ﴾ .

هذا تحذير، يحذرنا الله عز وجل من إبليس اللعين فيقول تعالى: ﴿ الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ ۖ يَخُوفُكُم بِالْفَقْرِ إِذَا أَنْتُمْ أَخْرَجْتُم الزَّكَاةَ أَوْ تَصَدَّقْتُمْ، يَقُولُ لَكُمْ سَتَصَابُونَ بِالْفَقْرِ إِذَا أَنْتُمْ تَصَدَّقْتُمْ أَوْ أَخْرَجْتُمْ زَكَاةَ أَمْوَالِكُمْ، وَكَذَلِكَ فَإِنَّهُ أَى الشَّيْطَانُ ۖ وَيَأْمُرُكُمْ بِالْفَحْشَاءِ ۖ يَأْمُرُكُمْ بِمَعْصِيَةِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ وَتَرْك طَاعَتِهِ وَيَحْتَكِمُ عَلَى ارْتِكَابِ الْفَوَاحِشِ .

﴿ وَاللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلًا ۗ ﴾ قال الطبري رحمه الله: يعني بذلك تعالى ذكره: ﴿ الشَّيْطَانُ يَعِدُكُم ۖ ﴾، أيها الناس - بالصدقة وأدائكم الزكاة الواجبة عليكم في أموالكم - أن تفتقروا - ﴿ وَيَأْمُرُكُمْ بِالْفَحْشَاءِ ۖ ﴾، يعني: ويأمركم بمعاصي الله ﷻ وترك طاعته - ﴿ وَاللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ ۖ ﴾، يعني: إن الله ﷻ يعدكم، أيها المؤمنون، أن يستر عليكم فحشاءكم، بصفحه لكم عن عقوبتكم عليها، فيغفر لكم ذنوبكم بالصدقة التي تتصدقون - ﴿ وَفَضْلًا ۗ ﴾ يعني: ويعدكم أن يخلف عليكم من صدقتكم، فيفضل عليكم من عطايه، ويُسبغ عليكم في أرزاقكم .

* وقوله ﴿ وَاللَّهُ وَاسِعٌ ۖ الْعَطَاءُ ۖ عَلِيمٌ ۖ ﴾ مفاده إذا أعطاهم أو منعهم، وعليم بهم، بمن يصلحه المال وبمن يفسده عليه بكل شيء .



(فضل الحكمة وبيان أن المتفضل بها هو الله عز وجل)

قال تعالى: ﴿يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ

أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ (٣١٦).

وقوله تعالى: ﴿يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ﴾ يمنُّ بالحكمة على من يشاء، والحكمة تطلق أحياناً على السنة، وأحياناً تطلق على السداد في القول والعمل فيتكلم بالكلمة في محلها اللائق بها ويعمل العمل المناسب للمقام والزمان والمكان فالحكيم حكمته من الله عز وجل.

ثم يبين الله عز وجل فضل من آتاه الحكمة فيقول تعالى: ﴿وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ فهي نعمة عظيمة من الله عز وجل بعد نعمة الإيمان فالحكيم يتكلم بالكلمة في موضعها فلا يلام والحكيم يفعل الفعلة المناسبة للمقام والزمان والمكان والحكيم ينفق النفقة في محلها، ويقدم النصيحة في وقتها المناسب لها وهكذا فالحكيم موفق وقد أوتي خيراً كثيراً ففي أمور عبادته كذلك يتقرب بنوع العبادة في وقتها المناسب لها.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ أي وما يتنفع بالموعظة والتذكار إلا من كان له لبُّ وعقل يعي ويفهم به الخطاب والله أعلم.



(بعض أحكام النذر)

وقوله تعالى: ﴿وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ نَفَقَةٍ أَوْ نَذَرْتُمْ مِنْ نَذْرٍ فَإِنَّ

اللَّهُ يَعْلَمُهُ، وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ﴾ (٢٧٠).

أما النذر فهو أن يلزم الشخص المكلف نفسه بشيء لم يكن عليه فيجعله واجبا عليه.

ومعنى الآية الكريمة: وما أنفقتُم من نفقة تتقربون بها إلى الله عز وجل وترجون ثوابها، وكذا ما نذرتُم من نذر تتقربون به إلى الله ترجون ثوابه فإن الله عز وجل يعلم صنيعةكم (النفقة التي أنفقتُم أو النذر الذي نذرتُم) وسيجازيكم به من واسع فضله أما من عمل عملاً لغير وجه الله فظلم نفسه بذلك أو عمل عملاً خالف به أمر الله أو أذى به مسلماً بغير حق فإنه ظالم وليس له من دون الله نصيرٌ ينصره.

هذا، وأنبه هنا على أمر ألا وهو أن بعض أهل العلم قد ذهبوا إلى أن النذر يكره، ولكن إذا نذر الشخص لزمه الوفاء.

* أما كونه يفي بالنذر إذا كان نذر طاعة فلقوله تعالى: ﴿يُؤْفُونَ بِالنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيرًا﴾ أما كون النذر يُكره فلما أخرجه البخاري ومسلم ^(١) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال النبي ﷺ: «لا يأتي ابن آدم النذرُ بشيء لم يكن قُدر له، ولكن يلقيه النذر إلى القدر قد قُدر له، فيستخرج الله به من البخيل فيؤتى عليه ما لم يكن يؤتى عليه من قبل».

وكذلك ما أخرجه البخاري ومسلم ^(٢) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما قال: نهى النبي ﷺ عن النذر وقال: «إنه لا يرد شيئاً ولكنه يُستخرج به من البخيل».

(١) أخرجه البخاري (٦٦٩٤)، ومسلم (١٦٤٠).

(٢) أخرجه البخاري (٦٦٩٤)، ومسلم (١٦٤٠).

هذا وقد حمل بعض العلماء هذه الأحاديث على نذر المجازاة فقط والله أعلم.
أما إذا نذر الشخص نذر طاعة (سواء كان نذر ابتداء أو نذر مجازاة) لزمه الوفاء به لما قدمناه من أحاديث كقول النبي ﷺ: «من نذر أن يطيع الله فليطعه»، ولقول الله تعالى: ﴿يُوفُونَ بِالنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيرًا﴾ [الإنسان: ٧]، والله أعلم.

تنبيه آخر: النذر أقسام، منها ما يلي:

١ - **نذر الطاعة:** (ويطلق عليه أيضًا نذر التبرر) وهو أن يلتزم الشخص فعل طاعة، وله صورتان:

أحدهما: أن يلتزم ذلك ابتداء دون تعليقه على شيء، كأن يقول: لله عليّ أن أعتمر، أو لله عليّ أن أتصدق بكذا، أو لله عليّ أن أصوم شهرًا، وهذا يسميه العلماء: نذر الابتداء، ومنهم من يسميه: النذر المطلق.

الثاني: أن يعلّق النذر على فعل شيء، كأن يقول: إن شفى الله ولدي سأتصدق بكذا وكذا، فعلق الصدقة على شفاء الولد، وهذا يسمى نذر المجازاة.
ونذر الطاعة بصورتيه يجب الوفاء به.

٢ - **نذر المعصية:** كمن ينذر شرب الخمر أو قطع الرحم أو نحو ذلك من أنواع المعاصي والمحارم والآثام، وهذا النوع يحرم الوفاء به لقول النبي ﷺ: «من نذر أن يعصي الله فلا يعصه»، ولقوله **عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ**: «لا وفاء لنذرٍ في معصية الله».

٣ - **نذر المباح:** وصورته أن يقول الشخص: لله عليّ أن أكل كذا، أو أشرب كذا أو ألبس كذا...، وجمهور العلماء على أنه لا يترتب عليه شيء.

٤ - **النذر المبهم:** كأن يقول: لله عليّ نذر، دون أن يُحدّده.

٥ - **نذر اللجاج أو الغضب:** وهو ما يتنزل منزلة اليمين، كأن يقول: إن دخلت دار فلان فلله عليّ صوم كذا، يريد بذلك منع نفسه من دخول الدار، وهذا يُخير فيه الناذر بين الوفاء باليمين وبين كفارة اليمين، لكن إذا نذر هذا النوع من النذر ورأى غيره خيرًا منه، يأت الذي هو خير ويُكفر عن نذره شأنه في ذلك شأن اليمين والله تعالى أعلم.

(فضل صدقة السر والعلن)

قوله تعالى: ﴿إِنْ تَبَدُّوا الصَّدَقَاتِ فَنِعِمَّا هِيَ وَإِنْ تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا الْفُقَرَاءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَيُكَفِّرُ عَنْكُمْ مِنْ سَيِّئَاتِكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ (٢٧١).

المعنى إجمالاً، والله أعلم: إن تظهروا الصدقات وتعلنوها، وأنتم بصنيعكم تقصدون وجه الله فنعم الشيء هي، وإن تسروا بها ولا تظهروها فهذا أفضل لكم وخير لكم ويغفر الله لكم بذلك ذنوبكم، والله خير بأعمالكم سواء أسررتهم بالصدقة أو أعلنتموها.

* وبشيء من التفصيل أقول، وبالله التوفيق:

المقام هنا يتعلق بنوعي الصدقة:

أحدهما: صدقة الفرض، وهذه قال ابن العربي رحمته الله: أما صدقة الفرض؛ فلا خلاف أن إظهارها أفضل كصلاة الفرض وسائر فرائض الشريعة؛ لأن المرء يحرز بها إسلامه ويعصم ماله، وليس في تفضيل صدقة العلانية على السر ولا في تفضيل صدقة السر على العلانية حديث صحيح يُعَوَّل عليه، ولكنه الإجماع الثابت.

الثاني: صدقة النفل^(١)، والأصل في صدقة التطوع أن الأفضل فيها أن تكون سرّاً لقوله تعالى: ﴿وَأِنْ تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا الْفُقَرَاءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَيُكَفِّرُ عَنْكُمْ مِنْ سَيِّئَاتِكُمْ﴾ [البقرة: ٢٧١]، ولحديث: «سبعة يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله... ورجل تصدق بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه»^(٢)، ثم لما فيها من ستر على الفقير، لكن في بعض الأحيان قد تفضل صدقة العلن صدقة السر، وذلك إذا كان وراء الإعلان مصلحة راجحة، وكان الناس يقتدون بالمتصدق.

(١) أخرج الطبري بإسناد حسن عن قتادة قال: كُلُّ مقبول إذا كانت النية صادقة، وصدقة السر أفضل.

(٢) صحيح متفق عليه وقد تقدم.

(الحث على الإنفاق والإخلاص فيه وبيان أن الهداية من الله عز وجل)

قال الله عز وجل: ﴿لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَلِأَنفُسِكُمْ وَمَا تُنْفِقُونَ إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ اللَّهِ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ يُؤَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ﴾ (٢٢٢).

قوله تعالى: ﴿لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ﴾ الهداية هدايتان:

*هداية دلالة، وهذه يقدر عليها المخلوق بإذن الله، أي أن شخصاً بإمكانه بإذن الله أن يدل شخصاً على طريق الإيمان والحق والصواب.

*وهداية التوفيق لا يملكها إلا الله عز وجل ولا يستطيعها أحد إلا الله عز وجل.

أما دليل هداية الدلالة فقوله تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾.

أما دليل هداية التوفيق فقوله تعالى: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ﴾.

والهداية في قوله تعالى: ﴿لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ﴾ المراد هداية التوفيق،

فتوفيقهم للإيمان ليس إليك، إنما عليك البلاغ والتذكير، كما قال تعالى: ﴿فَذَكِّرْ

إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ﴾ (١١) لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيِّرٍ وكما قال تعالى: ﴿وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِجَبَّارٍ﴾ أي لست بمجبر لهم على الإيمان.

وقوله: ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ﴾ أي: أن الله عز وجل هو الذي يوفق

للخير والإيمان من يشاء من عباده كما قال تعالى: ﴿قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَلِغَةُ فَلَوْ شَاءَ

لَهَدَيْنَاكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ وكما قال: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا﴾.

هذا، ولقوله تعالى: ﴿لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ﴾ سبب نزول صحيح أخرجه الطبري^(١) وغيره بإسناد صحيح عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: كانوا لا يرضخون^(٢) لقربائهم من المشركين فنزلت: ﴿لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾ [البقرة: ٢٧٢].

والمعنى: أنهم كانوا لا يتصدقون على قربائهم من المشركين طمعاً في إسلامهم، فبين الله ﷻ أن إعطاءهم أو عدم إعطائهم لا يؤثر في هدايتهم، إنما الذي يهدي هو الله **سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى**.

هذا، والمراد بالنفقة أو الصدقة هنا صدقة التطوع، فصدقة التطوع يجوز دفعها لغير المسلمين، وقد قال تعالى: ﴿وَيُطْعَمُونَ أَلْطَعَامَ عَلَىٰ حَيْثُ مَسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا﴾. أما الزكاة المفروضة فلا يجوز دفعها لغير المسلمين.

قال ابن المنذر رحمه الله: أجمع كل من أحفظ عنه من أهل العلم أن الذمي لا يعطى من زكاة الأموال شيئاً.

قلت: وكذلك نقل الإجماع غير واحد، منهم الرازي رحمته الله، ويشهد لهذا الإجماع قول النبي ﷺ في الزكاة: «... تؤخذ من أغنيائهم فترد على فقرائهم»^(٣). (والخطاب للمسلمين).

وقوله تعالى: ﴿وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَا تُنْفِسْكُمْ﴾ أي أن ثواب نفقتكم راجع إليكم فالله سبحانه هو الغني عن خلقه.

وقوله: ﴿وَمَا تُنْفِقُوا إِلَّا لِبُغْيَاءٍ وَجْهِ اللَّهِ﴾ يحتمل جملة من المعاني:

أحدها: أن هذا ثناء من الله ﷻ على أصحاب نبيه **عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ** ورضي الله عنهم.

(١) أخرجه الطبري (٦٢٠٢).

(٢) أي: لا يعطون.

(٣) أخرجه البخاري (حديث ١٤٩٦)، ومسلم (ص ٥١)، من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

الثاني: أن النفقة المعتد بها والتي يتقبلها الله ﷻ إنما هي النفقة التي ابتغي بها وجه الله .

الثالث: أن هذا خبر معناه الأمر، والخبر يأتي بمعنى الأمر في كثير من الأحيان، قال الله تعالى: ﴿وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا﴾ [آل عمران: ٩٧]، وقال تعالى: ﴿وَالْوَلَدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَدَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ...﴾ [البقرة: ٢٣٣]، والله تعالى أعلم.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ يُوفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ﴾ حاصله وما تنفقوا من مال تريدون به وجه الله تثابون عليه ثواباً كاملاً مستوفى ولا تبخسون شيئاً من حقوقكم.



(مزيد من الحث على الإنفاق وبيان بعض صفات المستحقين
الذين تعظم الأجور بإعطائهم)

قال الله تبارك وتعالى: ﴿لِلْفُقَرَاءِ الَّذِينَ أَحْصَرُوا فِي سَبِيلِ
اللَّهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِي الْأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ
الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُمْ بِسِيمَاهُمْ لَا يَسْأَلُونَ
النَّاسَ الْحَافَا وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ ﴿٢٧٣﴾
الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً
فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ
يَحْزَنُونَ ﴿٢٧٤﴾

هذه الآية الكريمة فيها بيان للمصرف الذي توضع فيه الصدقة، بيان لصفات
الفقراء وهي ست صفات في هذا المقام:

أولها: أن يكون فقيرًا، لقوله تعالى ﴿لِلْفُقَرَاءِ﴾.

ثانيها: أنهم تفرغوا لنصرة دين الله وإعلاء كلمته وجهاد أعدائه وانقطعوا
لمناصرة رسول الله ﷺ وهذا من قوله ﴿أَحْصَرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾.

فأصل الإحصار المنع، و﴿أَحْصَرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ انقطعوا إلى الله
ورسوله.

ثالثها: أنهم عجزوا عن السفر للتكسب إما لاحتياج المسلمين إليهم، واحتياج
رسول الله ﷺ إلى وجودهم معه، وإما لأن العدو منعهم السفر وذلك من قوله
تعالى: ﴿لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِي الْأَرْضِ﴾ أي: لا يستطيعون سفرًا كما قال

تعالى: ﴿وَالْآخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي الْأَرْضِ يَنْتَعُونَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ﴾.

رابعها: شدة التعفف وحسن صبرهم وعدم تطلعهم إلى ما في أيدي الناس كما قال تعالى: ﴿يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ﴾.

خامسها: أنهم يعرفون بعلا ماتهم، والتي منها الخشوع والتواضع والانكسار وعلامات الفقر (دون سؤال منهم) البادية على الوجوه وذلك من قوله تعالى: ﴿تَعْرِفُهُمْ بِسِيمَاهُمْ﴾ أي: العلامات الدالة على حالتهم التي وصفهم الله بها.

سادسها: أنهم لا يسألون الناس ملحين في السؤال فالإلحاف هو الإلحاح، والمراد هنا والله أعلم: لا يسألون ولا يلحفون وإن كان يحق لهم السؤال (بدون إلحاف) فالمذموم هو سؤال الإلحاف، أما السؤال على قدر الحاجة الضرورية فلا بأس به ولكنهم مع ذلك يتعففون عن السؤال فهم ذلك من قوله تعالى: ﴿تَعْرِفُهُمْ بِسِيمَاهُمْ﴾ مع قوله تعالى: ﴿لَا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافًا﴾. وقد قيل في الملحف أنه الذي يسأل وعنده ما يكفيه.

هذا، وقد وردت بعض الأحاديث في ذم المسألة بغير حاجة وذم الإلحاف منها:

✽ ما أخرجه مسلم^(١) من حديث ابن عمر أن النبي ﷺ قال: «لا تزال المسألة بأحدكم حتى يلقي الله وليس في وجهه مُزعة لحم».

✽ وأخرج البخاري ومسلم^(٢) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «والذي نفسي بيده لأن يأخذ أحدكم حبله فيحتطب على ظهره خير له من أن يأتي رجلاً فيسأله أو يمنعه».

✽ وقد بايع النبي ﷺ بعض أصحابه على ألا يسألوا الناس شيئاً^(٣).

(١) أخرجه مسلم (حديث ١٠٤٠).

(٢) أخرجه البخاري (١٤٧٠)، ومسلم (١٠٤٢).

(٣) أخرجه مسلم (١٠٤٣)، من حديث عوف بن مالك الأشجعي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ﴾ إخبارٌ بأن الله عزَّ وجل لا يضيع عنده أجر عامل، فأَي خير يبذله الشخص، وأي مال ينفقه فإن الله عزَّ وجل عليم به وسيجزيه عليه ويثيبه.

وقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ بِالْإِثْلِ وَالْإِثْرِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً﴾ أي: في كل وقت وعلى كل حال حسب ما تقتضيه المصلحة وتدعوا إليه الحاجة فالمنفق يثاب ما دام يبتغي بذلك وجه الله، وللمنفقين أجرهم وثوابهم لا يضيع، بل مدخرٌ لهم الأجر عند ربهم ومحفوظٌ لهم، ولا خوف عليهم مما هو آت من أهوال القبر والقيامة والنار، ولا هم يحزنون على ما قد فات من أمر الدنيا، فالله حافظهم فيما هو آت، ولا يحزنون على ما قد فات ويتولى ربنا أمر ذرياتهم وأزواجهم وأهليهم من بعدهم فهذا قوله: ﴿فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ﴾ الكامل غير المنقوص ﴿عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾.



(التحذير من الربا وبيان عقوبة آكله)

قال الله عز وجل: ﴿الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا فَمَنْ جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّهِ فَانْتَهَى فَلَهُ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُ إِلَى اللَّهِ وَمَنْ عَادَ فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٢٧٥﴾ يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَا وَيُرْبِي الصَّدَقَاتِ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ ﴿٢٧٦﴾﴾.

هذه الآيات المباركات في التحذير من أكل الربا وبيان عقوبة آكله، ومثله يوم القيامة.

أما عن الربا فمعناه الزيادة، وينقسم إلى قسمين:

ربا الفضل: وصورته أن يبيع الرجل صاعاً من تمر جيد بصاعين من تمر رديء، أو يبيع مائة جرام من ذهب جيد بمائة وخمسين من ذهب قديم مثلاً.

ربا النسيئة: وهو أن يقرض الرجل رجلاً آخر قرضاً إلى أجل على أن يرده مع زيادة، أو أن يبيع الرجل شيئاً إلى رجل آخر إلى أجل، فإذا حل وقت السداد ولم يُسدّد الدين أخره مدة أخرى مع زيادة يفرضها عليه.

هذا، وليس المراد بقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا﴾ الأكل فقط بل المراد: بأكل الربا: أخذ الربا وقبوله سواء كانوا يأكلون به، أو يبنون به بيوتاً، أو يتزينون به ويكتسون به، أو يتجرون به، أو يكسبون الربا ويفعلونه.

قال الطبري رحمه الله: فإن قال لنا قائل: أفرأيت من عمل ما نهى الله عنه من الربا في تجارته ولم يأكله، أيستحق هذا الوعيد من الله؟

قيل: نعم، وليس المقصود من الربا في هذه الآية الأكل، إلا أن الذين نزلت فيهم هذه الآيات يوم نزلت، كانت طعمتهم ومأكلهم من الربا، فذكرهم بصفاتهم، معظماً بذلك عليهم أمر الربا، ومقرباً إليهم الحال التي هم عليها في مطاعهم، وفي قوله جل ثناؤه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِن كُنتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ (٢٧٨) فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ ۖ ﴿الْبَقَرَةُ: ٢٧٨، ٢٧٩﴾، ما ينبئ عن صحة ما قلنا في ذلك، وأن التحريم من الله في ذلك كان لكل معاني الربا، وأنَّ سواءَ العملُ به وأكله وأخذه وإعطاؤه، كالذي تظاهرت به الأخبار عن رسول الله ﷺ من قوله: «لعن الله آكل الربا ومؤكله، وكاتبه وشاهديه، إذا علموا به».

وقال صديق حسن خان «فتح البيان»: وليس المراد بالذين يأكلون الربا اختصاص هذا الوعيد بمن يأكله، بل هو عام لكل ما يعامل بالربا فيأخذه ويعطيه، وإنما خص الأكل لزيادة التشنيع على فاعله، ولكونه هو الغرض الأهم، فإن أخذ الربا إنما أخذه للأكل، عن جابر قال: «لعن رسول الله ﷺ آكل الربا ومؤكله وكاتبه وشاهديه»، رواه مسلم.

وقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لَا يَقُومُونَ﴾ أي: لا يقومون من قبورهم يوم القيامة ﴿إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ﴾ أي: إلا كقيام المجنون والمسطور التائه المترنح للسقوط الذي أصابه مسٌّ من الشيطان.

وقوله تعالى: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ﴾ أي: الكفار ﴿قَالُوا إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا﴾ استحلوا الربا وقالوا لا فرق بينه وبين البيع، فلماذا حللتم البيع وحرمتم الربا، قال الطبري رحمه الله في تفسير الآية: يعني بذلك جل ثناؤه: ذلك الذي وصفهم به من قيامهم يوم القيامة من قبورهم، كقيام الذي يتخطبه الشيطان من المسِّ من الجنون، فقال تعالى ذكره: هذا الذي ذكرنا أنه يصيبهم يوم القيامة من قُبْحِ حالهم، ووحشة قيامهم

من قبورهم، وسوء ما حلَّ بهم، من أجل أنهم كانوا في الدنيا يكذبون ويفترون ويقولون: ﴿إِنَّمَا الْبَيْعُ﴾ الذي أحله الله لعباده: ﴿مِثْلُ الرِّبَا﴾، وذلك أن الذين كانوا يأكلون الربا من أهل الجاهلية، كان إذا حلَّ مأل أحدهم على غريمه، يقول الغريم لغريم الحق: (زدني في الأجل وأزيدك في مالك)، فكان يقال لهما إذا فعلا ذلك: (هذا ربا لا يحل)، فإذا قيل لهما ذلك قالا: (سواء علينا زدنا في أول البيع، أو عند محل المال)! فكذبهم الله في قيلهم فقال: ﴿وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا﴾ قائل ذلك هو الله **سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى**، أما عن معناها فقد قال الطبري **رَحِمَهُ اللَّهُ**: يعني جل ثناؤه: وأحلَّ الله الأرباح في التجارة والشراء والبيع - ﴿وَحَرَّمَ الرِّبَا﴾، يعني: الزيادة التي يزداد رب المال بسبب زيادته غريمه في الأجل وتأخير دينه عليه يقول **رَحِمَهُ اللَّهُ**: فليست الزيادتان اللتان إحداهما من وجه البيع، والأخرى من وجه تأخير المال والزيادة في الأجل، سواء، وذلك أني حرَّمت إحدى الزيادتين - وهي التي من وجه تأخير المال والزيادة في الأجل - وأحللت الأخرى منهما، وهي التي من وجه الزيادة على رأس المال الذي ابتاع به البائع سلعته التي يبيعها، فيستفضل فضلها، فقال الله **رَحِمَهُ اللَّهُ**، ليست الزيادة من وجه البيع نظير الزيادة من وجه الربا، لأنني أحللت البيع وحرَّمت الربا، والأمر أمري والخلق خلقي، أقضي فيهم ما أشاء، وأستعبدهم بما أريد، ليس لأحد منهم أن يعترض في حكمي، ولا أن يخالف أمري، وإنما عليهم طاعتي والتسليم لحكمي.

وقوله تعالى: ﴿فَمَنْ جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّهِ﴾ أي من جاءه زجرٌ وتخويفٌ من الله عزَّ وجلَّ وجاءه أيضا تحذير من العقوبة ﴿فَأَنْتَهُي﴾ عن الربا ﴿فَلَهُ مَا سَلَفَ﴾ أي ما أكل قبل التحريم ﴿وَأَمْرُهُ إِلَى اللَّهِ﴾.

قال فريق من أهل العلم: أمر المنتهي إلى الله، فقد يهديه الله **سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى**

ويحفظه ويمنعه من اقتراف الربا وتجنبه، وقد يُخذل ويرجع إلى الربا، وقيل: المعنى: أمره في إقبال ونمو إلى الله، والله أعلم.

﴿وَمَنْ عَادَ﴾ إلى الربا ففعله بعد بلوغه نهي الله عنه مستحلاً أكله أو قائلًا إنما البيع مثل الربا ﴿فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾.

تنبيه: أكل الربا كبيرة من الكبائر ولا يُكْفَرُ أَكْلُ الرِّبَا إِلَّا إِذَا اسْتَحْلَهُ، وهو داخل تحت المشيئة لقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ، وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ [النساء: ٤٨]، وقوله تعالى: ﴿وَمَنْ عَادَ فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾، إما أنه عاد واستحل الربا، وقال: إنما البيع مثل الربا فالربا حلال، أو يكون الخلود لا يحمل معنى التأبيد.

قال صديق حسن خان: يكون الخلود مستعارًا على معنى المبالغة، كما تقول العرب: ملك خالد، أي: طويل البقاء، والمصير إلى هذا التأويل واجب للأحاديث المتواترة القاضية بخروج الموحدين من النار^(١) قال سعيد بن جبير: خالدون يعني: لا يموتون.

وهذا مقامٌ للتذكير ببعض ما ذكر من الوعيد لأكلة الربا فمن النصوص الواردة في ذلك ما يلي:

❁ قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ...﴾ إلى قوله تعالى: ﴿وَمَنْ عَادَ فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [البقرة: ٢٧٥].

❁ وقوله تعالى: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ (٢٧٨) فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِنْ تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَالِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢٧٨، ٢٧٩].

❁ وقوله تعالى: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَأْكُلُوا الرِّبَا أَضْعَافًا مُّضَاعَفَةً وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ (١٣٠) وَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٠، ١٣١].

(١) انظرها في آية الشفاعة التي وردت في أوائل البقرة.

✽ وأخرج مسلم ^(١) من حديث جابر رضي الله عنه قال: لعن رسول الله ﷺ آكل الربا وموكله وكاتبه وشاهديه ، وقال: «هم سواء».

وفي الباب حديث سمرة بن جندب ^(٢) عند البخاري أن النبي ﷺ يعني: مما يكثر أن يقول لأصحابه: «هل رأى أحدكم منكم من رؤيا؟» ، قال: فيقص عليه ما شاء الله أن يقص، وأنه قال لنا ذات غداة: «إنه أتاني الليلة آتيان، وإنهما ابتعثاني، وإنهما قالَا لي: انطلق وإني انطلقت معهما...» فذكر الحديث، وفيه: «فانطلقنا فأتينا على نهر حسبت أنه كان يقول: أحمر مثل الدم وإذا في النهر رجل سابح يسبح، وإذا على شط النهر رجل قد جمع عنده حجارة كثيرة، وإنما ذلك السابح يسبح ما يسبح، ثم يأتي ذلك الذي قد جمع عنده الحجارة فيفغر له فاه فيلقمه حجرًا، فينطلق يسبح، ثم يرجع إليه كلما رجع إليه، فغر له فاه فألقمه حجرًا...» الحديث: وفيه: «إن هذا آكل الربا».

✽ وقال النبي ﷺ: «اجتنبوا السبع الموبقات.... وأكل الربا» ^(٣).

وقوله تعالى: ﴿يَمْحُقُ اللَّهُ أَرْبُؤًا﴾ يذهب ويضيق ويحرم صاحبه بركته فلا ينتفع به والمحق الذهاب والنقصان.

وقوله تعالى: ﴿وَيُرِي الصَّدَقَتِ﴾ أي يزيديها ويبارك فيها وينميها ويدخر أجرها لصاحبها ويخلف عليه في الدنيا كذلك.

وقوله: ﴿وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ﴾ جحود لنعم الله عز وجل مستحلاً لها، ومنكراً لها أيضاً، وغير شاكر لها كذلك ﴿أَثِمٍ﴾ آثم ومبالغ في الإثم متماد فيه.

قال الحافظ ابن كثير رحمه الله: ولا بد من مناسبة في ختم هذه الآية بهذه الصفة، وهي أن المرابي لا يرضى بما قسم الله له من الحلال، ولا يكتفي بما شرع

(١) أخرج مسلم (١٥٩٨).

(٢) أخرجه البخاري (٧٠٤٧).

(٣) أخرجه البخاري (٢٧٦٦)، ومسلم (حديث ٨٩)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعاً.

له من الكسب المباح، فهو يسعى في أكل أموال الناس بالباطل بأنواع المكاسب الخبيثة، فهو جحود لما عليه من النعمة؛ ظلوم آثم يأكل أموال الناس بالباطل.

قال الطبري رحمه الله:

وأما قوله: ﴿وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ﴾، فإنه يعني به: والله لا يحب كل مُصِرٍّ على كفر بربه مقيم عليه، مستحلٍّ أكل الربا وإطعامه - ﴿أَثِيمٍ﴾، متمادٍ في الإثم، فيما نهاه عنه من أكل الربا والحرام، وغير ذلك من معاصيه، ولا ينزجر عن ذلك ولا يرعوي عنه، ولا يتعظ بموعظة ربه التي وعظه بها في تنزيله وآي كتابه.



وقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَأَقَامُوا

الصَّلَاةَ وَءَاتَوْا الزَّكَاةَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا

هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢٧٧﴾ .

قال الطبري في معناه قولاً حسناً فقال: وهذا خبر من الله ﷻ بأن الذين آمنوا - يعني الذين صدّقوا بالله وبرسوله، وبما جاء به من عند ربهم، من تحريم الربا وأكله، وغير ذلك من سائر شرائع دينه - ﴿وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾، التي أمرهم الله ﷻ بها، والتي ندبهم إليها - ﴿وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ﴾، المفروضة بحدودها، وأدّوها بسُننها - ﴿وَأَتَوْا الزَّكَاةَ﴾، المفروضة عليهم في أموالهم، بعد الذي سلف منهم من أكل الربا قبل مجيء الموعظة فيه من عند ربهم - ﴿لَهُمْ أَجْرُهُمْ﴾، يعني: ثواب ذلك من أعمالهم وإيمانهم وصدقتهم - ﴿عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾، يوم حاجتهم إليه في معادهم - ﴿وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾، يومئذ من عقابه على ما كان سلف منهم في جاهليتهم، وكفرهم قبل مجيئهم موعظة ربهم، من أكل ما كانوا أكلوا من الربا، بما كان من إنباتهم وتوبتهم إلى الله ﷻ من ذلك عند مجيئهم الموعظة من ربهم، وتصديقهم بوعد الله ووعيده - ﴿وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾، على تركهم ما كانوا تركوا في الدنيا من أكل الربا والعمل به، إذا عاينوا جزيل ثواب الله ﷻ، وهم على تركهم ما تركوا من ذلك في الدنيا ابتغاءً رضوانه في الآخرة، فوصلوا إلى ما وعدوا على تركه.



(مزيد من التحذير من الربا وبيان حرب الله ورسوله للمرابين)

قوله تعالى: ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِن كُنتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ (٢٧٨) فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ ۖ وَإِن تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَالِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ ﴿٢٧٩﴾.

يا أهل الإيمان اجعلوا بينكم وبين عذاب الله وبين غضبه وعقابه وقاية ولا تعرضوا أنفسكم لغضبه وعقابه، واتركوا ما لكم على الناس من الزيادة على رؤوس الأموال.

والمعنى أيضًا: أنه إذا اتفق رجلان على أن يقرض أحدهما الآخر قرضًا بالربا وما زال عند أحدهما للآخر مبلغ من الربا فعليه أن يترك هذه الزيادة الربوية. فالله ﷻ أبطل من الربا ما لم يكن مقبوضًا، وإن كان معقودًا قبل التحريم، والله تعالى أعلم.

وقد قال النبي ﷺ: «وَأَوَّلُ رِبَا أَضْعُ رِبَانَا رَبَا عَبَّاسِ بْنِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ فَإِنَّهُ مَوْضُوعُ كُلِّهِ» (١).

وقوله: ﴿إِن كُنتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ إن كنتم مُصدقين بالله وغضبه وعقابه، وأحكامه وشرائعه وجنته وناره.

وقوله تعالى: ﴿فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا﴾ إن لم تتركوا الربا ﴿فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ اعلموا أن الله عز وجل ورسوله ﷺ سيحاربانكم، فكيف بمن يحاربه الله عز وجل ورسوله ﷺ.

(١) مسلم (١٢١٨).

وقوله تعالى: ﴿وَإِنْ تُبْتُمْ﴾ وإن رجعتم عن الربا ﴿فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَالِكُمْ﴾
دون الزيادة ﴿لَا تَظْلِمُونَ﴾ لا تظلمون غيركم بأخذ الزيادة الربوية فيه ﴿وَلَا
تُظْلَمُونَ﴾ ولا يبخسون شيئاً من حقوقكم.



(الحث على إنظار المعسر وإمهاله)

قال تعالى: ﴿وَإِنْ كَانَتْ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيْسَرَةٍ وَأَنْ تَصَدَّقُوا خَيْرٌ لَّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ (٢٨٠).

قوله تعالى: ﴿وَإِنْ كَانَتْ ذُو عُسْرَةٍ﴾ أي: إن كان المدين مُعْسِرًا فلا تزيدوا عليه الديون بسبب إعساره وتضاعفوا عليه القرض الذي اقترضه، ولكن ﴿فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيْسَرَةٍ﴾ إمهالٌ إلى أن ييسر الله عز وجل عليه ويستطيع سداد الديون. ﴿وَأَنْ تَصَدَّقُوا﴾ على المعسر وتتجاوزوا عنه فتصدقكم عليه ﴿خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ من الربا وأثوب عند الله ﴿إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ إن كنتم تعلمون حقيقة الأمور، ومآلها يوم القيامة.

هذا، وقد وردت عن رسول الله ﷺ عدة أحاديث في فضل إنظار المُعسر منها ما يلي:

- ❖ ما أخرجه مسلم ^(١) من حديث أبي اليسر صاحب رسول الله ﷺ، أن رسول الله ﷺ قال: «من أنظر مُعْسِرًا أو وضع عنه أظله الله في ظله».
- ❖ وأخرج البخاري ومسلم ^(٢) من حديث حذيفة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «تلقت الملائكة روح رجل ممن كان قبلكم فقالوا: أعملت من الخير شيئاً؟ قال: لا، قالوا تَذَكَّرَ، قال: كنت أداين الناس فأمر فتياي أن يُنظروا المعسر ويتجاوزوا عن الموسر، قال: قال الله ﷻ: تجوزوا».
- ❖ ونحوه من حديث أبي مسعود ^(٣) عند مسلم قال: قال رسول الله ﷺ:

(١) أخرجه مسلم (حديث ٣٠٠٦).

(٢) أخرجه البخاري (٢٠٧٧)، ومسلم (١٥٦٠).

(٣) أخرجه مسلم (حديث ١٥٦١).

«حوسب رجل ممن كان قبلكم فلم يُوجد له من الخير شيء إلا أنه كان يُخالط الناس، وكان موسراً، فكان يأمر غلمانه أن يتجاوزوا عن المُعسر، قال: قال الله ﷻ: نحن أحق بذلك منه، تجاوزوا عنه».

✽ وأخرج مسلم^(١) من طريق أبي قتادة أن أبا قتادة طلب غريماً له فتواري عنه، ثم وجده فقال: إني مُعسر، فقال: الله؟ قال: الله، قال: فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من سره أن ينجيه الله من كرب يوم القيامة فلينفس عن مُعسر أو يضع عنه».

✽ وأخرج مسلم من حديث أبي هريرة^(٢) قال: قال رسول الله ﷺ: «من نفّس عن مؤمن كربة من كرب الدنيا نفّس الله عن كربة من كرب يوم القيامة...».

✽ وأخرج أحمد بإسناد حسن^(٣) من حديث بريدة قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من أنظر مُعسراً فله بكل يوم مثله صدقة»، قال: ثم سمعته يقول: «من أنظر مُعسراً فله بكل يوم مثليه صدقة»، قال: «له بكل يوم صدقة قبل أن يحل الدين، فإذا حل الدين فأنظره، فله بكل يوم مثليه صدقه».

هذا، ولا أعلم دليلاً على حبس المدين المفلس غير الذي ماطل.



(١) أخرجه مسلم (حديث ١٥٦٣).

(٢) أخرجه مسلم (٢٦٩٩).

(٣) أخرجه أحمد (٣٦٠ / ٥).

(ما ورد في آخر الآيات نزولاً في كتاب الله عز وجل)

قوله تعالى: ﴿وَأَتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ (٢٨١).

أي: واحذروا عذاب يوم ترجعون فيه إلى الله، وهو يوم القيامة، تحاسبون فيه وتستوفي كل نفس جزاء عملها الذي عملته فلا تبخس منه شيئاً، إلا إذا عفا الله وتجاوز عن بعض المسيئين.

هذا، وقد ذهب بعض أهل العلم إلى أن هذه الآية هي آخر آية نزلت في كتاب الله عز وجل: أخرج البخاري^(١) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما قال: (آخر آية نزلت على النبي ﷺ: آية الرُّبَا).

❁ وأخرج البخاري^(٢) من حديث البراء بن عازب رضي الله عنه قال: (آخر سورة

(١) البخاري حديث (٤٥٤٤)، وأخرج الطبري (٦٣١١)، (٦٣١٢)، بإسنادين فيهما ضعف إلى ابن عباس أنه قال: (آخر آية نزلت على النبي ﷺ: ﴿وَأَتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ﴾ [البقرة: ٢٨١]).

ولا تعارض بين الروایتين، فإن قوله تعالى: ﴿وَأَتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ﴾ [البقرة: ٢٨١] في ختام آيات الرُّبَا فيُعد منها، ويدل على ذلك ما أخرجه الطبري بإسناد صحيح عن عامر (وهو الشعبي) أن عمر رضي الله عنه قام فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: أما بعد، فإنه والله ما أدري لعلنا نأمركم بأمرٍ لا يصلح لكم، وما أدري لعلنا ننهاكم عن أمر يصلح لكم، وإنه كان من آخر القرآن تنزيلاً آيات الرُّبَا فتوفي رسول الله ﷺ قبل أن يبينه لنا، فدعوا ما يريبكم إلى ما لا يريبكم.

وهذا الإسناد وإن كان مرسلًا (فالشعبي لم يدرك عمر)، إلا أنه من أقوى المراسيل، فمراسيل الشعبي رحمته الله قوية (وإن كان حكمها حكم سائر المراسيل في الجملة).

وقول عمر رضي الله عنه: (آيات الرُّبَا) بالجمع، يُشير إلى أن منها قوله تعالى: ﴿وَأَتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ﴾، والله أعلم.

(٢) البخاري (حديث ٤٦٠٥).

نزلت براءة، وآخر آية نزلت ﴿يَسْتَفْتُونَكَ﴾^(١).

ووجه الجمع بينهما أن يُقال: إن كلاً منهما ذكر ما انتهى إليه علمه في ذلك.

❁ **أما الحافظ ابن حجر رَحِمَهُ اللَّهُ فَقَالَ:** يجمع بينهما بأن الآيتين نزلتا جميعاً فيصدق أن كلاً منهما آخر بالنسبة لما عداهما، ويحتمل أن تكون الأخيرة في آية النساء بما يتعلق بالمواريث مثلاً بخلاف آية البقرة، ويحتمل عكسه. والأول أرجح لما في آية البقرة من الإشارة إلى معنى الوفاة المستلزمة لخاتمة النزول.



(١) يعني: ﴿يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِي الْكَلَالَةِ...﴾ [النساء: ١٧٦].

وقوله: آخر سورة نزلت براءة، فسيأتي الحديث عليه إن شاء الله في سورة النصر.

(آية الدين)

يقول الله تبارك وتعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا تَدَايَنْتُمْ بِدِينٍ إِلَىٰ آلِ
 أَجَلٍ مُّسَمًّى فَآكُتُبُوهُ وَلِيَكُتَبَ بَيْنَكُمْ كَاتِبٌ بِالْعَدْلِ وَلَا
 يَأْب كَاتِبٌ أَنْ يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ اللَّهُ فَلْيَكُتَبْ وَلِيُمْلِلِ الَّذِي
 عَلَيْهِ الْحَقُّ وَلِيَتَّقِيَ اللَّهَ رَبَّهُ وَلَا يَبْخَسَ مِنْهُ شَيْئًا فَإِنْ كَانَ الَّذِي
 عَلَيْهِ الْحَقُّ سَفِيهًا أَوْ ضَعِيفًا أَوْ لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يُمِلَّ هُوَ فَلْيُمْلِلْ
 وَلِيُّهُ بِالْعَدْلِ وَاسْتَشْهِدُوا شَهِيدَيْنِ مِنْ رِجَالِكُمْ فَإِنْ لَمْ يَكُونَا
 رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ مِمَّنْ تَرْضَوْنَ مِنَ الشُّهَدَاءِ أَنْ تَضِلَّ
 إِحْدَاهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَاهُمَا الْأُخْرَىٰ وَلَا يَأْب الشُّهَدَاءُ إِذَا مَا
 دُعُوا وَلَا تَسْمَعُوا أَنْ تَكُتُبُوهُ صَغِيرًا أَوْ كَبِيرًا إِلَىٰ أَجَلِهِ ذَٰلِكُمْ
 أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ وَأَقْوَمُ لِلشَّهَادَةِ وَأَدْنَىٰ أَلَّا تَرْتَابُوا إِلَّا أَنْ تَكُونَ
 تَجَرَّةً حَاضِرَةً تُدِيرُونَهَا بَيْنَكُمْ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَلَّا
 تَكُتُبُوهَا وَأَشْهَدُوا إِذَا تَبَايَعْتُمْ وَلَا يُضَارَّ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ
 وَإِنْ تَفَعَّلُوا فَإِنَّهُ فَسُوقٌ بِكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيَعْلَمَ كُمْ
 اللَّهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٢٨٢﴾

هذه الآية الكريمة آية الدين.

يقول الله سبحانه: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ يا من آمنتم بالله وصدقتم المرسلين

﴿إِذَا تَدَايَنْتُمْ بِدِينٍ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى فَآكْتُبُوهُ﴾ إذا استدان أحدكم من الآخر ما لا أو أقرضه ما لا أو اشترى سلعة إلى أجل أو باعها إلى أجل فمن جراء ذلك أصبح لأحدكم عند الآخر دينٌ ﴿فَآكْتُبُوهُ﴾ فيه حث على كتابة الديون، وقد أخرج ابن حبان^(١) بإسنادٍ يصح بمجموع طرقه عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لما خلق الله آدم ونفخ فيه الروح عطس فقال: الحمد لله، فحمد الله بإذن الله، فقال له ربه: يرحمك ربك يا آدم اذهب إلى أولئك الملائكة إلى ملائمتهم جلوس، فسلم عليهم فقال: السلام عليكم، فقالوا: وعليك السلام ورحمة الله، ثم رجع إلى ربه فقال: هذه تحيتك وتحية بنيك بينهم، وقال الله جل وعلا - ويده مقبوضتان - : اختر أيهما شئت، فقال: اخترت يمين ربي وكلتا يدي ربي يمين مباركة، ثم بسطها، فإذا فيها آدم وذريته وقال: أي رب ما هؤلاء؟ فقال: هؤلاء ذريتك فإذا كل إنسان مكتوب عُمره بين عينيه، فإذا فيهم رجل أضوؤهم^(٢) - أو من أضوئهم - لم يكتب له إلا أربعون سنة، قال: يا رب ما هذا؟ قال: هذا ابنك داود وقد كتبت له عمره أربعين سنة، قال: أي رب زده في عمره، قال: ذاك الذي كتبت له، قال: فإني جعلت له من عمري ستين سنة، قال: أنت وذاك اسكن الجنة، فسكن الجنة ما شاء الله، ثم أهبط منها، وكان آدم يعد لنفسه، فأناه ملك الموت، فقال له آدم، قد عجلت قد كُتِبَ لي ألف سنة؟ قال: بلى، ولكنك قد جعلت لابنك داود منها ستين سنة فجحد فجحدت ذريته، ونسي فنسيت ذريته، فمن يومئذ أمر بالكتاب والشهود».

فالأمر في قوله تعالى: ﴿فَآكْتُبُوهُ﴾ أمرٌ للاستحباب، ليس للوجوب والصارف عن الوجوب هو قوله تعالى: ﴿فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُم بَعْضًا فَلْيُؤَدِّ الَّذِي أُؤْتِمِنَ أَمْنَتَهُ﴾.

(١) أخرجه ابن حبان (موارد ٢٠٨٢).

(٢) قلت: وقوله: أضوؤهم، لا يعني الجمال المطلق، فأجمل الأنبياء يوسف عليه الصلاة والسلام، فقد أخرج مسلم (١٦٢)، من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه مرفوعاً حديث المعراج، وفيه: «... ففتح لنا فإذا أنا بيوسف إذا هو قد أعطي شطر الحسن».

وأخرج الطبري بإسناد صحيح^(١) عن ابن زيد قال: نسخ ذلك قوله: ﴿فَإِنْ أَمِنْ بَعْضُكُمْ بَعْضًا فَلْيُؤَدِّ الَّذِي أُؤْتِمِنَ أَمْنَتَهُ﴾، قال: فلو لا هذا الحرف لم يبح لأحد أن يدان بدين إلا بكتاب وشهداء، أو برهن، فلما جاءت هذه نسخ هذا كله صار إلى الأمانة.

❦ وأخرج الطبري بإسناد صحيح^(٢) أيضًا عن الشعبي قال في هذه الآية: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا تَدَايَنْتُمْ بِدِينٍ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى فَاكْتُبُوهُ﴾، حتى بلغ هذا المكان: ﴿فَإِنْ أَمِنْ بَعْضُكُمْ بَعْضًا فَلْيُؤَدِّ الَّذِي أُؤْتِمِنَ أَمْنَتَهُ﴾، قال: رخص في ذلك، فمن شاء أن يأتين صاحبه فليأتمنه.

قلت: ومما يدل على جواز عدم الكتابة أن النبي ﷺ اشترى جملاً من أعرابي إلى أجل، ولم يكتب كما في سبب اعتبار شهادة خزيمة بشهادة رجلين.

وأما ما ورد من احتجاج البعض بحديث أبي موسى الأشعري مرفوعاً، وفيه: «ثلاثة يدعون الله فلا يستجاب لهم: رجل كانت تحته امرأة سيئة الخلق فلم يُطلقها، ورجل كان له على رجل مال فلم يشهد عليه، ورجل أتى سفيهاً مالاً، وقد قال الله تعالى: ﴿وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ﴾ [النساء: ٥]».

فهذا الحديث ضعيف لا يثبت عن رسول الله ﷺ، وسيأتي بيان سبب ضعفه إن شاء الله.

ويدخل في هذا الباب السَّلَم فهو جائز.

السلم هو: السَّلَف عند كثير من أهل العلم، والمراد بالسلف هنا: أن يُسلم الرجلُ إلى الرجلِ دنانير معلومة في طعام معلوم موصوف بكيل معلوم إلى أجل معلوم أو وزن معلوم يدفع إليه الدنانير قبل أن يفترقا من الموضع الذي تبايعا فيه، ويكون ذلك من طعام بلد ضخم لا يخطئ مثلها ويُسمى المكان الذي يقتضى فيه،

(١) الطبري أثر (٦٣٣٢).

(٢) الطبري أثر (٦٣٣٤)، (٦٣٣٥).

ولا يجوز السلم إلى أجل مجهول، قاله أبو بكر بن المنذر في «الإقناع».

وقال القرطبي في «تفسيره»: وأجمع كل من يحفظ عنه من أهل العلم أن السلم الجائز أن يُسلم الرجل إلى صاحبه في طعام معلوم موصوف من طعام أرض عامة لا يخطئ مثلها بكيل معلوم إلى أجل معلوم بدنانير أو دراهم معلومة يدفع عن من أسلم فيه قبل أن يفترقا من مقامهما الذي تبايعا فيه، وسميًا المكان الذي يُقبض فيه الطعام، فإذا فعلا ذلك، وكان جائز الأمر كان سلمًا صحيحًا لا أعلم أحدًا من أهل العلم يُبطله.

قلت: وبتعبير أوضح هو أن يعطي رجلٌ مبلغًا من المال لرجل آخر مقابل قدر معين من الطعام (تمر أو حنطة أو شعير أو زبيب، أو نحو ذلك) ويُحدد الوقت الذي يسلمه إياه فيه.

أو بمعنى آخر هو أن يشتري رجل طعامًا من رجل آخر، يُقدم أحد الرجلين المال على أن يقدم له الآخر الطعام لكن في وقت لاحق، ويكون المال معلوم القيمة، والطعام معلوم الوزن، أو الكيل، ويُحدد الزمن الذي يُسلم فيه الطعام. والدليل على جوازه من كتاب الله قوله تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا تَدَايَنُكُمْ بِدِينٍ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَاكْتُبُوهُ﴾، فقد حملها بعض أهل العلم على السلم^(١).

فقد ورد عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال^(٢): أشهد أن السلف المضمون إلى أجل مسمى قد أحله الله في كتابه وأذن فيه، ثم قال: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا تَدَايَنُكُمْ بِدِينٍ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾.

والدليل من السنة ما أخرجه البخاري ومسلم^(٣) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما

(١) قال القرطبي: ثم هي تتناول جميع المدائيات إجماعًا.

(٢) «الأم» للشافعي (١٣٥/٣)، وعبد الرزاق في «المصنف» (١٤٠٦٤)، والبيهقي في «السنن الكبرى» (١٨/٦)،

(١٩)، وفي «معرفة السنن والآثار» (١١٥٦٨/٨).

(٣) أخرجه البخاري حديث (٢٢٣٩)، ومسلم (١٦٠٤).

قال: قدم رسول الله ﷺ المدينة والناس يسلفون في الثمر العام والعامين، أو قال: عامين أو ثلاثة، فقال: «من سلف في تمرٍ فليُسلف في كيلٍ معلوم، ووزنٍ معلوم»، وفي رواية: «إلى أجل معلوم».

*وقد ذهب بعض أهل العلم إلى تسمية الأجل في الديون أي أن الشخص يحدد الوقت الذي يُسَلَّم فيه الدين للدائن، وذلك من قوله تعالى: ﴿إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَلْيَكْتُبْ بَيْنَكُمْ كَاتِبٌ بِالْمَكْدَلِ﴾ وذلك لدفع الشبهة فقد يحتال أحد الطرفين الدائن أو المدين للإضرار بالآخر إذا كتب وأيضاً فقد كان الكتاب قليلين فقد قال النبي ﷺ «إنا أمةٌ أمية»^(١)، فإذا تأخر كاتب وامتنع عن الكتابة أثر امتناعه على حفظ الحقوق بين الناس، وعلى امتثال أمر الله: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا تَدَايَنْتُمْ بِدَيْنٍ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى فَاكْتُبُوهُ﴾.

❖ **وجه آخر ذكره ابن العربي رَحِمَهُ اللهُ فِي «أحكام القرآن»:** أنه لما كان الذي له الدَّين يُتَّهَم في الكتابة للذي عليه، وكذلك بالعكس شرع الله سبحانه كاتباً يكتب بالعدل، لا يكون في قلبه، ولا في قلمه هوادة لأحدهما على الآخر، والله تعالى أعلم.

ومن أهل العلم من قال إنه يجب على الكاتب أن يكتب إذا لم يوجد كاتب غيره، ومن هؤلاء الطبري رَحِمَهُ اللهُ، وذلك لقوله تعالى: ﴿وَلَا يَأْبَ كَاتِبٌ أَنْ يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ اللَّهُ فَلْيَكْتُبْ﴾، ومن أهل العلم من قال: إن ذلك على الاستحباب، لأن أصل الكتابة على الاستحباب، والله أعلم.

ثم إن الله عزَّ وجلَّ أمر الكاتب أن يكتب بالعدل، لا يميل ولا يجور، ولا يظلم ولا يحيف.

وإن أخذ الكاتب أجره على ذلك فلا مانع، وهذا جائز بالإجماع، وقد نقل

(١) أخرجه البخاري (حديث ١٩١٣)، ومسلم (ص ٧٦١)، من حديث ابن عمر رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا مرفوعاً.

القرطبي الإجماع على جواز أخذ الكاتب الأجرة على الكتابة.

وقوله تعالى: ﴿وَلَا يَأْبَ كَاتِبٌ أَنْ يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ اللَّهُ فَلْيَكْتُبْ﴾ معناه والله أعلم - : ولا يمتنع كاتب دُعي إلى كتابة الدين من الكتابة، فكما أن الله ﷻ منّ عليه وعلمه الكتابة فليصدق هو كذلك على الخلق، وليكتب لهم ما أرادوه بالعدل، وذلك كقوله تعالى: ﴿وَأَحْسِنَ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ﴾ [القصص: ٧٧]، وذلك - والله أعلم - لأن الكتابة كانت قليلة فيهم.

وثم وجه آخر في قوله تعالى: ﴿كَمَا عَلَّمَهُ اللَّهُ فَلْيَكْتُبْ﴾، ألا وهو : فليكتب بالحق الذي علمه الله إياه.

وقوله تعالى ﴿وَلِيُمْلِلِ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ﴾ المدين الذي عليه الدين هو الذي يملئ على الكاتب ما يكتب لأن إملاءه يُعدُّ إقراراً منه بأن الدين عليه والله أعلم. وقوله تعالى: ﴿وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ﴾ أي: وليحذر غضب الله وعقابه إذا قال غير الحق أو أملى غير الصواب.

وقوله تعالى: ﴿وَلَا يَبْخَسْ مِنْهُ شَيْئًا﴾ أي: ولا ينقص من الدين الذي عليه شيئاً.

وقوله تعالى: ﴿فَإِنْ كَانَ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ﴾ وهو المدين ﴿سَفِيهًا﴾ لا يحسن التصرف في المال أخذًا ولا إعطاءً ﴿أَوْ ضَعِيفًا﴾ صغيراً أو مجنوناً.

﴿أَوْ لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يُمِلَّ هُوَ﴾ أو لا يستطيع الإملاء لعلّة من العلل أو لا يحسن التلفظ بصحيح الألفاظ عند كتابة الدين.

﴿فَلِيُمْلِلْ وَلِيُّهُ بِالْعَدْلِ﴾ أي: فليملل وليّ السفيه يملل على الكاتب الديون التي على السفيه بالحق .

وقوله تعالى: ﴿وَأَسْتَشْهِدُوا شَهِيدَيْنِ مِنْ رِجَالِكُمْ﴾ اطلبوا رجلين يشهدان على الدين من أهل الإسلام فقوله ﴿مِنْ رِجَالِكُمْ﴾ أي من رجالكم يا أهل الإسلام، وهذان الرجلان يكونان من أهل الصلاح والديانة والعقل لقوله تعالى:

﴿مَنْ رَضَوْنَ مِنَ الشُّهَدَاءِ﴾.

ولا تجوز شهادة الكفار على الديون، ولا شهادة الصبيان ولا تجوز شهادة الفساق على قول لبعض أهل العلم وذلك للآية الكريمة ﴿وَأَسْتَشْهِدُوا شَهِيدَيْنِ مِنْ رِجَالِكُمْ فَإِنْ لَمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ مِمَّنْ رَضَوْنَ مِنَ الشُّهَدَاءِ﴾ أي ويجوز أن تقوم شهادة امرأتين مقام شهادة رجل في الأموال، لقوله تعالى: ﴿فَإِنْ لَمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ﴾.

واحتيج إلى شهادة امرأتين مكان الرجل، لقلة عقل النساء ولقلة دينهم كما قال النبي ﷺ «ما رأيت ناقصات عقل ودين أذهب للب الرجل الحازم من إحداكن»^(١).
وثمّ علة أخرى من قيام امرأتين مقام رجل في الشهادة على الأموال، وهي قوله تعالى: ﴿أَنْ تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَاهُمَا الْأُخْرَى﴾ وذلك لأن المرأة سريعة النسيان فأختها تذكّرها إذا نسيت.

وقوله تعالى: ﴿وَلَا يَأْبَ الشُّهَدَاءُ إِذَا مَا دُعُوا﴾ ولا يتخلف الشهود عن الشهادة إذا طلبوا إليها، وقوله ﴿دُعُوا﴾ محتملة للأمرين، إما أنهم دعوا للشهادة عند كتابة الدين، أو دعوا للإقرار بالشهادة حينما تطلب منهم، والله تعالى أعلم.
وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَسْمُوا﴾ أي ولا تملؤا ﴿أَنْ تَكُنُبُوا﴾ تكتبوا الدين ﴿صَغِيرًا أَوْ كَبِيرًا﴾ دينًا قليلًا أو كثيرًا اكتبوه ﴿إِلَى أَجَلِهِ﴾ إلى الوقت الذي اتفقتم فيه على السداد ﴿ذَلِكَمْ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ﴾ أعدل عند الله وأفضل ﴿وَأَقْوَمُ لِلشَّهَادَةِ﴾ أدعى إلى ثبوتها وتذكّرها، وأصدق للشهادة كذلك أو أدعى للطمأنينة، فإذا رأى الكاتب خطه تذكر وإذا سمعت شهادة الشهود الصالحين اطمأن الجميع وابتعدت عنهم الشكوك والريب، فهو قوله: ﴿وَأَذِّنْ لِلْعَذَابِ﴾ أي أقرب إلى عدم الشك.
وهذا الإشهاد كما سلفت الإشارة إليه مستحب وليس بواجب، وإن كان من العلماء من ذهب إلى وجوبه مستدلاً بقوله تعالى: ﴿وَأَشْهِدُوا إِذَا تَبَايَعْتُمْ﴾ وبما

(١) أخرجه البخاري (حديث ٣٠٤)، ومسلم (٨٠)، من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه مرفوعاً

روى عن رسول الله ﷺ من الحديث «ثلاثة يدعون الله فلا يستجاب لهم: رجل كانت تحته امرأة سيئة الخلق فلم يطلقها، ورجل كان له على رجل مال فلم يشهد عليه، ورجل أتى سفيهاً ماله، وقد قال الله ﷻ: ﴿وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ﴾؟».

والحديث ضعيف لا يثبت عن رسول الله ﷺ، وهو هذا اللفظ عند البيهقي في «السنن الكبرى»^(١).

إلا أن الأمر في الآية ﴿وَأَشْهَدُوا إِذَا بَيَّعْتُمْ﴾ مصروف عن الوجوب بقوله تعالى: ﴿فَلْيُؤَدِّ الَّذِي أُؤْتِيَ أَمْنَتَهُ﴾، وأما الحديث فضعيف.

وذهب فريق آخر إلى عدم الوجوب، أي عدم وجوب الإشهاد، وقولهم هو الصحيح فيما أرى، والله أعلم، وذلك لما أخرجه أحمد^(٢) من حديث عمارة بن خزيمة الأنصاري أن عمه حدثه - وهو من أصحاب النبي ﷺ - أن النبي ﷺ ابتاع فرساً من أعرابي فاستتبعه النبي ﷺ ليقضيه ثمن الفرس فأسرع النبي ﷺ المشي وأبطأ الأعرابي، فطفق رجال يعترضون الأعرابي فيساومون بالفرس، لا يشعرون أن النبي ﷺ ابتاعه، حتى زاد بعضهم الأعرابي في السوم على ثمن الفرس الذي ابتاعه به النبي ﷺ، فنادى الأعرابي النبي ﷺ فقال: إن كنت مبتاعاً هذا الفرس فابتعه، وإلا بعته، فقام النبي ﷺ حين سمع نداء الأعرابي فقال: «أوليس قد ابتعته منك»، قال الأعرابي: لا والله ما بعتك، فقال النبي ﷺ: «بلى قد ابتعته منك»، فطفق الناس يلوذون بالنبي ﷺ والأعرابي وهما يتراجعان، فطفق الأعرابي يقول: هلم شهيداً يشهد أنني بايعتك، فمن جاء من المسلمين قال للأعرابي، ويلك النبي ﷺ لم يكن ليقول إلا حقاً، حتى جاء خزيمة فاستمع لمراجعة النبي ﷺ، ومراجعة الأعرابي، فطفق الأعرابي يقول: هلم شهيداً يشهد أنني بايعتك قال خزيمة، أنا أشهد أنك قد بايعته، فأقبل النبي ﷺ على خزيمة فقال: «بم تشهد؟» فقال: بتصديقك يا

(١) وانظر وجه ضعفه في كتابي التسهيل لتأويل التنزيل (تفسير القرآن في سؤال وجواب).

(٢) أخرجه أحمد (٢١٥/٥)، وأبو داود (٣٦٠٧)، والنسائي (٣٠١/٧).

رسول الله، فجعل النبي ﷺ شهادة خزيمة شهادة رجلين.
 وقوله تعالى: ﴿إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً حَاضِرَةً تُدِيرُونَهَا بَيْنَكُمْ﴾ أي إذا كان
 البيع بالحاضر يدا بيد فلا بأس بعدم الكتابة لقوله تعالى: ﴿فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ﴾ ليس
 عليكم إثم ﴿إِلَّا تَكْتُبُوهَا﴾ في عدم كتابتها.
 وقوله تعالى: ﴿وَأَشْهِدُوا إِذَا تَبَايَعْتُمْ﴾ اطلبوا الشهود عند البيع والشراء.
 وقوله تعالى: ﴿وَلَا يُضَارَّ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ﴾ محتمل لوجهين:
الوجه الأول: أن الكاتب والشهيد يتسببان في إلحاق الضرر بالدائن، أو
 المدين.

ولذلك صور:

الأولى: أن يمتنع الكاتب من الكتابة، ويمتنع الشاهد من الشهادة.
الثاني: أن يكتب الكاتب ما لم يُمل عليه، ويشهد الشاهد على شيء لم
 يشهده^(١).
الوجه الثاني: أن يؤذى الكاتب أو الشهيد من قبل الدائن، أو المدين فيدعوهما
 الدائن، أو المدين في وقتٍ، وهما مشغولان فيه، وإذا تخلفا ألحقا بهما الأذى، ونالا
 منهما بالسنتهما، أو يهددهما الدائن إذا لم يشهدا له، أو المدين إذا شهدا عليه،
 والله تعالى أعلم.

وقوله تعالى: ﴿وَأِنْ تَفَعَّلُوا﴾ إن تؤذوا الكاتب أو الشهيد ﴿فَإِنَّهُ فُسُوقٌ
 بِكُمْ﴾ أذى الكاتب أو الشهيد إثمٌ ترتكبونه وعصيان بكم ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾

(١) أخرج الطبري (٦٤٠٨)، بإسناد صحيح إلى طاوس قال في قوله: ﴿وَلَا يُضَارَّ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ﴾
 [البقرة: ٢٨٢]، ولا يضار كاتب فيكتب ما لم يُمل عليه، ولا شهيد فيشهد بما لم يستشهد.
 وأخرج بإسناد صحيح (٦٤٠٩) عن الحسن ﴿وَلَا يُضَارَّ كَاتِبٌ﴾ [البقرة: ٢٨٢]، فيزيد شيئاً، أو يحرف ﴿وَلَا
 شَهِيدٌ﴾ [البقرة: ٢٨٢]، قال: لا يكتم الشهادة، ولا يشهد إلا بحق.
 وأخرج بإسناد حسن عن قتادة (٦٤١٠)، قال: اتقى الله شاهد في شهادته لا ينقص منها حقاً، ولا
 يزيد فيها باطلاً، اتقى الله كاتب في كتابه، فلا يدع منه حقاً، ولا يزيد منه باطلاً.

اجعلوا بينكم وبين عذاب الله وغضبه وعقابه وقاية وذلك بامثالكم أوامره واجتنابكم نواهيه.

﴿وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ﴾ إذا اتقيتموه زادكم علماً وفهما ﴿وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ علیم بظواهرکم وبواطنکم وعلیم بالأمر ومصائرهما ونهاياتها، وعلیم بكل شيء.



(شيء عن الرهن ودليل لمن قال إن كتابة الدين على الاستحباب)

قوله تعالى: ﴿ وَإِنْ كُنْتُمْ عَلَى سَفَرٍ وَلَمْ تَجِدُوا كَاتِبًا فَرِهَنْ مَقْبُوضَةً فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُمْ بَعْضًا فَلْيُؤَدِّ الَّذِي أُوتِيَ أَمْنَتَهُ وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ وَلَا تَكْتُمُوا الشَّهَادَةَ وَمَنْ يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ آثِمٌ قَلْبُهُ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴾ (٢٨٣).

حاصل معناه، وإن كنتم مسافرين واستدان بعضكم من بعض أو تبايعتم فأصبح لبعضكم دينٌ عند الآخر، ولم تجدوا كاتبًا يكتب بينكم الدين الذي عند بعضكم لبعض فإن الرهان المقبوضة تقوم مقام الكتابة، والرهان جمع رهن وهو شيء يقدمه المدين للدائن كي يضمن به الدائن حقه إذا لم يسدده المدين، فيأخذ الدائن حقه من ثمن الشيء المرهون، أو من ثمن منافعه عند تعذر أخذه من الغريم.

وقوله تعالى: ﴿ مَقْبُوضَةً ﴾ أي مدفوعة ومسلمة من المدين إلى صاحب الدين، ﴿ فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُمْ بَعْضًا ﴾ رآه أميناً ولا يحتاج الأمر معه إلى كتابة ﴿ فَلْيُؤَدِّ الَّذِي أُوتِيَ أَمْنَتَهُ ﴾ فليدفع المدين الذي ائتمنه أخوه ما عليه من الدين، وليقابل الإحسان بالإحسان ﴿ وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ ﴾ وليجعل بينه وبين عذاب الله وقاية بأداء الأمانة لأصحابها.

وقوله تعالى: ﴿ وَلَا تَكْتُمُوا الشَّهَادَةَ ﴾ تحذير من كتمانها ﴿ وَمَنْ يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ آثِمٌ قَلْبُهُ ﴾ أي: فاجر قلبه، فإثم كتمان الشهادة متعلق بالقلب ﴿ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴾ عليم لا يخفى عليه شيء، ولا يخفى عليه شيء من أعمالكم.

❖ وهذه الآية الكريمة استدل العلماء على أن كتمان الشهادة من الكبائر.

❖ هذا، وكما أن الرهن مشروع في السفر، فهو جائز في الحضر كذلك، وذلك لما أخرجه البخاري من حديث أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: (ولقد رهن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ درعه بشعير...) ومن حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ اشترى من يهودي طعامًا إلى أجل ورهنه درعه.



قوله تعالى: ﴿لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِنْ تُبَدُّوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخَفُّوهُ يُحَاسِبْكُمْ بِهِ اللَّهُ فَيَغْفِرْ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبْ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (٢٨٤)

(وبيان القدر المنسوخ منها)

مفادها أن الله عز وجل له ملك ما في السموات والأرض فالسموات والأرض وما بينهما ملك لله عز وجل يتصرف فيهما كيف يشاء ويفعل فيهما ما يريد لا راد لحكمه ولا مانع لقضائه وهو القادر على كل شيء.

وقوله: ﴿وَإِنْ تُبَدُّوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخَفُّوهُ﴾ إن تظاهروا ما في نفوسكم أو تخفوه ﴿يُحَاسِبْكُمْ بِهِ اللَّهُ﴾ فيجازي المحسن على إحسان نواياه، والمسيء أمره موكل إلى الله ﴿فَيَغْفِرْ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبْ مَنْ يَشَاءُ﴾ فهو سبحانه فعال لما يريد، وهو عليم بالعباد ﴿وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ لا يعجزه شيء في السموات ولا في الأرض ولا تخفى عليه خافية.

هذا، وقد ذهب بعض أهل العلم من أصحاب النبي ﷺ فمن بعدهم إلى أن هذه الآية الكريمة منسوخة بالآيات التي بعدها، ومن هؤلاء العلماء، علماء الصحابة القائلين بالنسخ ابن عباس وابن عمرو وأبو هريرة رضي الله عنهم، فقد أخرج البخاري ^(١) من طريق مروان الأصفر عن رجل من أصحاب النبي ﷺ - أحسبه ابن عمر ^(٢) - ﴿وَإِنْ تُبَدُّوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخَفُّوهُ...﴾، قال: نسختها الآية التي بعدها ^(٣).

(١) أخرجه البخاري (٤٥٤٦).

(٢) في رواية البخاري (٤٥٤٥)، الجزم بأنه ابن عمر.

(٣) قال الحافظ ابن حجر رحمته الله (فتح الباري ٨/ ٥٥):

قوله: (نسختها الآية التي بعدها)، قد عرف بيانه من حديثي ابن عباس وأبي هريرة، والمراد بقوله: نسختها أي: أزلت ما تضمنته من الشدة وبينت أنه وإن وقعت المحاسبة به لكنها لا تقع المؤاخظة به، أشار إلى ذلك الطبري

❁ وسيأتي في سبب نزول الآية من حديث أبي هريرة رضي الله عنه عند مسلم أن الله تعالى نسخها، فأنزل الله تعالى: ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا﴾، «قال: نعم»، ﴿رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إَصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا﴾، «قال: نعم»، ﴿رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ﴾، «قال: نعم»، ﴿وَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا أَنْتَ مَوْلَانَا فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾، «قال: نعم».

❁ وعند مسلم من حديث ابن عباس رضي الله عنهما قال: لما نزلت هذه الآية: ﴿وَإِنْ تَبَدُّوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخَفُّوهُ يَحَاسِبْكُمْ بِهِ اللَّهُ﴾، قال: دخل قلوبهم منها شيء لم يدخل قلوبهم من شيء فقال النبي ﷺ: «قولوا: سمعنا وأطعنا وسلمنا»، قال: فألقى الله الإيمان في قلوبهم، فأنزل الله تعالى: ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا﴾، «قال: قد فعلت»، ﴿رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إَصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا﴾، «قال: قد فعلت»، ﴿وَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا أَنْتَ مَوْلَانَا﴾، «قال: قد فعلت».

وقال بعض العلماء: إنها ليست منسوخة، وإنما هي في حق كاتم الشهادة، فمن كتمها أو أسرها فيحاسبه الله عليها.

قال الطبري رحمته الله:

يعني جل ثناؤه بقوله: ﴿لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾، لله ملك كل ما في السموات وما في الأرض من صغير وكبير وإليه تدبير جميعه، ويده صرْفه وتقليبه، لا يخفى عليه منه شيء، لأنه مدبره ومالكه ومصرفه.

فأما من إثبات دخول النسخ في الأخبار، وأجيب بأنه وإن كان خبراً لكنه يتضمن حكماً، ومهما كان من الأخبار يتضمن الأحكام أمكن دخول النسخ فيه كسائر الأحكام، وإنما الذي لا يدخله النسخ من الأخبار ما كان خبراً محضاً لا يتضمن حكماً كالأخبار عما مضى من أحاديث الأمم، ونحو ذلك، ويحتمل أن يكون المراد بالنسخ في الحديث التخصيص، فإن المتقدمين يطلقون لفظ النسخ عليه كثيراً، والمراد بالمحاسبة بما يخفى الإنسان ما يصمم عليه ويشرع فيه دون ما يخطر له، ولا يستمر عليه، والله أعلم.

ومن العلماء من قال: إن المنسوخ منها ما يتعلق بحديث النفس والوساوس والسلوك ، فقد قال النبي ﷺ: «إن الله تجاوز لي عن أمتي ما وسوست به صدورها ما لم تعمل أو تكلم»^(١).

❁ **ومن العلماء من قال:** لم تنسخ، ولكن لا يلزم من المحاسبة المؤاخذة، ومما يدل على ذلك حديث ابن عمر في النجوى، الذي أخرجه البخاري ومسلم في «صحيحيهما»، وفيه: أن رجلاً سأل ابن عمر كيف سمعت رسول الله ﷺ يقول في النجوى؟ قال: «يدنو أحدكم من ربه حتى يضع كنفه عليه، فيقول: أعملت كذا وكذا؟ قال: فيقول: نعم، ويقول: عملت كذا وكذا؟ فيقول: نعم، فيقرره ثم يقول: إني سترت عليك في الدنيا، وأنا أغفرها لك اليوم»^(٢).



(١) أخرجه البخاري (حديث ٢٥٢٨)، ومسلم (١٢٧)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) أخرجه البخاري (حديث ٧٥١٤)، ومسلم (حديث ٢٧٦٨).

(آخر آيتين من سورة البقرة)
وبيان شيء من فضلها وما فيهما من أحكام)

قوله تعالى: ﴿ ءَامَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ ۚ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلُّ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَمَلَكِيهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ ۚ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ ۚ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۚ غُفْرَانُكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ ﴿٢٨٥﴾ لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۚ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ ۚ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا ۚ رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إَصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا ۚ رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ ۚ وَاعْفُ عَنَّا وَاعْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا ۚ أَنْتَ مَوْلَانَا فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴿٢٨٦﴾ ۝

قد ورد لهاتين الآيتين الكريمتين سبب نزول وهو ما أخرجه مسلم ^(١) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: لما نزلت على رسول الله ﷺ: ﴿لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِنْ تُبْدُوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُمْ بِهِ اللَّهُ فَيَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾، قال: فاشتد ذلك على أصحاب رسول الله ﷺ، فأتوا رسول الله ﷺ ثم بركوا على الركب، فقالوا: أي: رسول الله، كلفنا من الأعمال ما نطبق: الصلاة والصيام، والجهاد، والصدقة، وقد أنزلت عليك هذه الآية ولا نطيقها قال رسول الله ﷺ: «أتريدون أن تقولوا كما قال

(١) أخرجه مسلم (حديث ١٢٥).

أهل الكتابين من قبلكم سمعنا وعصينا؟ بل قولوا: سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير». قالوا: سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير، فلما اقترأها القوم ذلت بها ألسنتهم، فأنزل الله في أثرها: ﴿ءَاَمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ ءَاَمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَكِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا تَفِرُّ بَيْنَ أَيْدِي مَنْ رُسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ ۝﴾، فلما فعلوا ذلك نسخها الله تعالى فأنزل: ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ رَبَّنَا لَا تَأْخُذْنَا إِن تَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا ۝﴾، «قال: نعم» ﴿رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إَصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا ۝﴾، «قال: نعم»، ﴿رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ ۝﴾ «قال: نعم» ﴿وَاغْفِرْ عَنَّا وَاعْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا أَنْتَ مَوْلَانَا فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ۝﴾، «قال: نعم».

*وقد ورد في فضلها من الأحاديث:

ما أخرجه البخاري ومسلم ^(١) من حديث أبي مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «من قرأ بالآيتين من آخر سورة البقرة في ليلة كفتاه».

❁ ومنها: ما أخرجه مسلم ^(٢) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما قال: بينما جبريل قاعد عند النبي ﷺ سمع نقيضاً من فوقه، فرفع رأسه فقال: «هذا باب من السماء فُتِحَ اليوم لم يفتح قط إلا اليوم، فنزل منه ملك، فقال: هذا ملك نزل إلى الأرض لم ينزل قط إلا اليوم، فسلم وقال: أبشر بنورين أوتيتهما لم يؤتهما نبي قبلك: فاتحة الكتاب، وخواتيم سورة البقرة، لن تقرأ بحرف منها إلا أعطيته».

*وأما عن المعنى فشهادة من الله عز وجل لنبيه ﷺ وتصديق لإيمانه وإيمان من اتبعوه، فقال تعالى: ﴿ءَاَمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ ءَاَمَنَ ۝﴾ كلهم آمن ﴿بِاللَّهِ وَمَلَكِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ ۝﴾.

(١) البخاري (مع الفتح ٥٥/٩)، ومسلم (مع النووي ٩١/٦).

(٢) أخرجه مسلم (حديث ٨٠٦).

وهذه تضمنت أركان الإيمان، وإيمانهم باليوم الآخر مأخوذ من قولهم: ﴿وَالَيْكَ الْمَصِيرُ﴾ وإيمانهم بالقدر تضمنه الإيمان بالله.

وقوله تعالى: ﴿لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِ﴾ قبله محذوفٌ مفهوم من السياق وهو يقولون فالمعنى: يقولون لا نفرق بين أحدٍ من رسله، وهذا كقوله تعالى: ﴿وَالْمَلَكُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ﴾ (٣٢) سَلَامٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ ﴿[الرعد: ٢٣، ٢٤]، أي: يقولون: سلام عليكم بما صبرتم، وكذلك قوله تعالى: ﴿وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَطْلًا...﴾ [آل عمران: ١٩١]، فالمعنى: ويتفكرون في خلق السموات والأرض قائلين: ﴿رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَطْلًا سُبْحَانَكَ...﴾ [آل عمران: ١٩١].

وقولهم: ﴿سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾ سمعنا ما أمرتنا به وامتثلناه ونفعل ما أمرتنا به وننتهي عما نهيتنا عنه ﴿عُفْرَانِكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ﴾ مع سمعنا لك وطاعتنا لك نطلب غفرانك يا ربنا، نطلب مغفرتك وأن تستر علينا ذنوبنا ولا تؤاخذنا به.

وقولهم: ﴿وَالَيْكَ الْمَصِيرُ﴾ أي: وإليك يا ربنا المرجع والمآب والمعاد. ثم أخبر الله عز وجل أنه لا يكلف نفساً فوق طاقتها وفوق قدرتها، فقال ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ﴾ من الحسنات ﴿وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ﴾ من السيئات إلا إذا تجاوز الله عز وجل وعفا.

وقول أهل الإيمان: ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِن نَّسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا﴾ فمعلوم أن النسيان الذي هو الزهول وغيب العقل لمن تذكر الشيء لا يؤاخذ به الشخص، والخطأ الذي ينشأ عن غير قصد، أيضًا لا يؤاخذ به الشخص فما وجه سؤالهم بقولهم ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِن نَّسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا﴾؟

أجاب الطبري على ذلك بقوله:

إن قال لنا قائل: وهل يجوز أن يؤاخذ الله ﷻ عباده بما نسوا أو أخطئوا، فيسألوه ألا يؤاخذهم بذلك؟

قيل: إن «النسيان» على وجهين : أحدهما: على وجه التضييع من العبد والتفريط، والآخر: على وجه عجز الناسي عن حفظ ما استُحفظ ووُكِّلَ به، وضعف عقله عن احتمالهِ.

فأما الذي يكون من العبد على وجه التضييع منه والتفريط، فهو تركُّ منه لما أمر بفعله ، فذلك الذي يرغب العبد إلى الله ﷻ في تركه مؤاخذته به، وهو «النسيان» الذي عاقب الله ﷻ به آدم صلوات الله عليه ، فأخرجه من الجنة، فقال في ذلك: ﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَىٰ آدَمَ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَبْلُغَ أَفْسَاهُ أَنْ كُنْ أَتَقْوَىٰ وَلَوْ رَأَوْا عَنْكَ مِنَ الْوَعْدِ عِندًا وَبَدَّ عَثَا﴾ [طه: ١١٥]، وهو «النسيان» الذي قال جل ثناؤه: ﴿فَالْيَوْمَ نَنسَاهُمْ كَمَا نَسُوا لِقَاءَ يَوْمِهِمْ هَذَا﴾ [الأعراف: ٥١]، فرغبة العبد إلى الله ﷻ بقوله: ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِن نَّسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا﴾ [البقرة: ٢٨٦]، فيما كان من نسيان منه لما أمر بفعله على هذا الوجه الذي وصفنا، ما لم يكن تركه ما ترك من ذلك تفريطاً منه فيه وتضييعاً ، كفرًا بالله ﷻ، فإن ذلك إذا كان كفرًا بالله، فإن الرغبة إلى الله في تركه المؤاخذة به غير جائزة، لأن الله ﷻ قد أخبر عباده أنه لا يغفر لهم الشرك به، فمسألته فعل ما قد أعلمهم أنه لا يفعل، خطأ وإنما تكون مسألته المغفرة، فيما كان من مثل نسيانه القرآن، بعد حفظه بتشاغله عنه وعن قراءته، ومثل نسيانه صلاةً، أو صياماً باشتغاله عنهما بغيرهما حتى ضيَّعهما.

وأما الذي العبد به غير مؤاخذ، لعجز بنيته عن حفظه، وقلة احتمال عقله ما وُكِّلَ بمراعاته، فإن ذلك من العبد غير معصية ، وهو به غير آثم، فذلك الذي لا وجه لمسألة العبد ربّه أن يغفر له، لأنه مسألة منه له أن يغفر له ما ليس له بذنب، وذلك مثل الأمر يغلب عليه وهو حريصٌ على تذكره وحفظه ، كالرجل يحرص على حفظ القرآن بجِدٍّ منه فيقرأه، ثم ينساه بغير تشاغل منه بغيره عنه، ولكن بعجز بنيته عن حفظه، وقلة احتمال عقله ذكر ما أودع قلبه منه وما أشبه ذلك من النسيان، فإن ذلك مما لا تجوز مسألة الربِّ مغفرته، لأنه لا ذنبَ للعبد فيه فيغفر له باكتسابه.

وكذلك لـ «الخطأ» وجهان:

أحدهما: من وجه ما نُهي عنه العبد فيأتيه بقصد منه وإرادة ، فذلك خطأ منه ، وهو به مأخوذ، يقال منه: (خطئ فلان وأخطأ) فيما أتى من الفعل، و(أثم) ، إذا أتى ما يَأْثُم فيه وركبه ، ومنه قول الشاعر:

الناس يَلْحَوْنَ الأميرَ إذا هُمُ خَطُّوا الصواب ولا يلام المرشد

يعني: أخطئوا الصواب - وهذا الوجه الذي يرغب العبد إلى ربه في صفح ما كان منه من إثم عنه، إلا ما كان من ذلك كفرًا.

والآخر منهما: ما كان منه على وجه الجهل به، والظن منه بأن له فعله، كالذي يأكل في شهر رمضان ليلاً وهو يحسب أن الفجر لم يطلع أو يؤخر صلاةً في يوم غيم، وهو ينتظر بتأخيرها إياها دخول وقتها، فيخرج وقتها وهو يرى أن وقتها لم يدخل، فإن ذلك من الخطأ الموضوع عن العبد، الذي وضع الله ﷻ عن عباده الإثم فيه، فلا وجه لمسألة العبد ربّه أن لا يؤاخذ به.

وقد زعم قوم أن مسألة العبد ربّه أن لا يؤاخذ به نسي، أو أخطأ إنما هو فعل منه لما أمره به ربّه تبارك وتعالى، أو لما ندبه إليه من التذلل له والخضوع بالمسألة، فأما على وجه مسألته الصّفح، فما لا وجه له عندهم.

أما قولهم: ﴿رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إَصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِنَا﴾ ﴿١﴾ فبيان أن أهل الإيمان يسألون ربهم عز وجل أن لا يحمل عليهم إصرًا كما حمّله على الذين من قبلهم والإصر هو العهد، والمعنى أنهم يسألون الله أن لا يأخذ عليهم عهدًا فيخلفونها فيعذبوا بسبب مخالفتهم إياها كاليهود الذين أخذت عليهم العهود والمواثيق ألا يعملوا يوم السبت فخالفوا فمسخوها وتحولوا إلى خنازير.

وأحيانا كانت توبة الله عليهم لا تتأتى إلا بأن يقتل بعضهم بعضًا، كما قال تعالى: ﴿فَتَوْبُوا إِلَى بَارِيكُمْ فَأَقْلُوا أَنْفُسَكُمْ ذَلِكَم خَيْرٌ لَّكُمْ عِنْدَ بَارِيكُمْ فَنَابَ عَلَيْكُمْ﴾ ﴿٢﴾.

أما قول أهل الإيمان: ﴿رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ﴾ ﴿٣﴾ هذا أيضًا من دعاء

أهل الإيمان، أُرشدوا إلى أن يقولوه ﴿رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ﴾ لا تكلفنا من الأعمال ما هو فوق طاقتنا فنعجز عن القيام به.

﴿وَأَعْفُ عَنَّا﴾ تجاوز عن سيئاتنا ولا تؤاخذنا بها وأسقط عنا العذاب.

﴿وَاغْفِرْ لَنَا﴾ استر علينا ولا تفضحنا.

﴿وَارْحَمْنَا﴾ ارحمنا رحمة تنجيننا بها من عقابك.

﴿أَنْتَ مَوْلَانَا﴾ ناصرنا وكافينا.

﴿فَأَنْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾.

وقد استجاب الله دعاءهم فوضع عنهم الأصار والأغلال التي كانت على الأمم من قبلهم، قال الله تعالى في الحديث القدسي: «قد فعلت»^(١).

وقال سبحانه: ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْنُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ﴾ [الأعراف: ١٥٧]، والله تعالى أعلم.



(١) أخرجه مسلم حديث (١٢٦)، من حديث ابن عباس رضي الله عنهما قال: لما نزلت هذه الآية: ﴿وَلِنْ تُبَدُّ مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخَفُّوهُ يَخَافُكُمْ بِهِ اللَّهُ﴾ [البقرة: ٢٨٤]، قال: دخل قلوبهم منها شيء لم يدخل قلوبهم من شيء، فقال النبي ﷺ: «قولوا سمعنا وأطعنا وسلمنا»، قال: فألقى الله الإيمان في قلوبهم، فأنزل الله تعالى: ﴿لَا يَكْلِفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا﴾، قال: «قد فعلت»، ﴿رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْ عَلَيْنَا إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا﴾ [البقرة: ٢٨٦]، قال: «قد فعلت»، ﴿وَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا أَنْتَ مَوْلَانَا﴾ [البقرة: ٢٨٦]، قال: «قد فعلت».

الفهرس

- المقدمة ٥
- سورة الفاتحة ١١
- فضلها ١١
- تفسيرها وإيضاح معانيها ١٢
- سورة البقرة ١٥
- شيءٌ من فضل هذه السورة المباركة ١٥
- مطلع السورة المباركة وفيه ذكر المتقين وبيان بعض صفاتهم
وأعمالهم ١٦
- آيتان في ذكر أهل الكفر وبيان بعض صفاتهم ١٩
- ثلاثة عشرة آية في ذكر أهل النفاق وبعض صفاتهم وما أُعد لهم،
وضرب مثلين لهم ٢٠
- مثلان مضروبان لأهل النفاق مثل ناري ومثل مائي ٢٤
- الأمر بعبادة الله وحده لا شريك له وذكر بعض فضله على عباده
وتحذير أهل الكفر وتبشير أهل الإيمان والبيان عن أن النار
والجنة مخلوقتان ٣٢

- الأمثال التي يضربها الله عزَّ وجل ويقين أهل الإيمان بها وموقف أهل الكفر والفسوق منها وبيان أحوالهم والتعجب من كفرهم وكذا البيان أن الله عزَّ وجل في السماء قد استوى على العرش ... ٣٧
- التذكير بخلق آدم عليه السلام وما كان من الملائكة عليهم السلام لما أخبرهم الله عزَّ وجل بذلك وبيان فضل آدم عليه السلام على الملائكة بالعلم الذي علمه الله إياه وإقرار الملائكة لربهم وخالقهم بأنه العليم الحكيم ٤٣
- شيءٌ من فضل العلم والعلماء ٤٦
- ذكر إبليس اللعين وما كان من امتناعه من السجود لآدم عليه السلام، واستكباره وكفره وهكذا التكاليف الشرعية تُظهر المؤمن من الكافر والمطيع من الفاسق وكذا ذكر إغواء إبليس لآدم وحواء عليهما السلام وتسببه في إخراجهما من الجنة وتوبة الله عزَّ وجل على آدم وحواء عليهما السلام ٤٧
- إبليس هل هو من الجن أم من الملائكة؟ ٤٨
- تذكير بني إسرائيل بنعم الله عزَّ وجل عليهم وحثهم على الإيمان والوفاء بالعهد الذي عاهدوا الله عليه وتحذيرهم من عقاب الله عزَّ وجل ٥٣
- نصوصٌ آخر في التحذير من مخالفة القول للعمل ٥٨
- الحث على الاستعانة بالصبر والصلاة ٦٠

- بحثٌ في الشفاعات ٦٥
- مواصلة تذكير بني إسرائيل نعم الله عزَّ وجلَّ عليهم وبيان عنادهم ومخالفتهم أمر رسولهم ﷺ ٧٧
- استسقاء موسى عليه السلام لقومه ٨٩
- بنو إسرائيل يستبدلون الذي هو أدنى بالذي هو خير وبيان بعض ما حلَّ بهم من العقوبات ٩٣
- جزاء أهل الإيمان والعمل الصالح ٩٧
- بنو إسرائيل ينقضون العهد والميثاق ويعتدوا في السبت وبيان ما حلَّ بهم بسبب ذلك ٩٩
- قصة بقرة بني إسرائيل ١٠٤
- أحوال اليهود مع أهل الإيمان وبيان مكرهم وكذبهم ١٠٩
- بيان بعض المواثيق المأخوذة على بني إسرائيل وكيف وأنهم نقضوها ١١٧
- مواقف بني إسرائيل من رسل الله الكرام ومن الكتب المنزلة من عند الله عزَّ وجلَّ ١٢٦
- بنو إسرائيل يعبدون العجل ويعلنون عن عصيانهم صراحةً ويدعون أن الجنة لهم يوم القيامة ١٣٦
- مبحث في النهي عن تمني الموت ١٤٠
- عداوة اليهود لجبريل عليه السلام وتواصل نقضهم للعهود

- والمواثيق ١٤٣
- تجاهل بني إسرائيل للتوراة وإعراضهم عنها بعد مبعث النبي ﷺ
 - لكون ما فيها موافق لما جاء به النبي ﷺ والبيان عن أن من ترك الحق ابتلي بالباطل وما جاء في تعلم اليهود السحر وتكفيرهم لنبي الله سليمان عليه السلام، وما كفر سليمان عليه السلام وكذا
 - ما ورد في ذكر هاروت وماروت ١٤٨
 - مبحث في السحر ١٥٢
 - حديث سحر النبي ﷺ وردود العلماء على الطاعنين فيه ١٥٣
 - بيان حقد اليهود على المسلمين وسخريتهم واستهزائهم برسول الله ﷺ والنهي عن التشبه بهم في ذلك ١٦٠
 - البيان عن رغبة كثير من اليهود والنصارى في إضلال المسلمين وما يجب على المسلمين فعله ١٦٣
 - دعاوي اليهود والنصارى الكاذبة بأنهم يدخلون الجنة دون من سواهم وبيان تضاربهم واختلافهم فيما بينهم ١٦٤
 - بيان عقوبة مانعي المسلمين من المساجد وعقوبة الساعين في خرابها وكذا بيان أحوال أهل الكتاب وكفرهم وضلالهم ورغبتهم في إضلال المسلمين، والتحذير من ذلك ١٦٦
 - بيان فضل مؤمني أهل الكتاب وتذكير بني إسرائيل بنعم الله عليهم وتحذيرهم من الكفر والعصيان ١٦٩

- ذكر نبي الله وخليله إبراهيم عليه السلام وذكر ولده صادق الوعد
- إسماعيل عليه السلام وما كان من بنائهما الكعبة، وشيء من
- فضلهما ودعائهما لعل مقتدياً أن يقتدي ومتأسياً أن يأتس ١٧١
- التحذير من الانحراف عن ملة إبراهيم عليه السلام والتذكير
- بوصية إبراهيم ويعقوب عليهما السلام بالتوحيد والموت على
- الإسلام ١٧٤
- الأمر باتباع ملة إبراهيم عليه السلام والإيمان بالكتب المنزلة من
- عند الله عز وجل وبطلان دعاوي اليهود والنصارى أن المهتدي
- هو اليهودي والنصراني وكذا بيان بطلان دعواهم بأن إبراهيم
- وذريته كانوا يهوداً أو نصارى ١٧٦
- تحويل القبلة والأمر بالتوجه في الصلاة إلى المسجد الحرام وبيان
- أحوال الناس في ذلك وحث المؤمنين على الثبات على طاعة
- الله ورسوله وعلى الإكثار من ذكر الله عز وجل ١٨٥
- علماء اليهود والنصارى يعرفون صفة النبي ﷺ تمام المعرفة ١٩٦
- الأمر بالاستعانة بالصبر والصلاة والتذكير بما يفعل عند
- المصائب ٢٠٤
- ذكر الصفا والمروة والحث على الحج والعمرة ٢٠٩
- التحذير من كتمان العلم والحث على التوبة والبيان ٢١٤
- التحذير من الكفر وبيان عقوبة من مات كافراً ٢٢٧

- التذكير بوحدانية الله عز وجل وبيان واسع رحمته وبيان فضل التوحيد ٢٢٩
- ذكر بعض الآيات الدالة على وحدانية الله عز وجل ٢٣٢
- تبرؤ المعبودين من دون الله من عابديهم يوم القيامة ٢٣٦
- أمر الناس بالأكل من الحلال الطيب والتحذير من اتباع خطوات الشيطان وكذا التحذير من التقليد في الباطل ٢٤٣
- ذم التقليد في الباطل ٢٤٦
- مثلٌ مضروب لأهل الكفر مع آلهتهم ٢٤٧
- أمر المؤمنين بالأكل من الحلال الطيب وبيان ما حرّمه الله عز وجل عليهم ٢٤٩
- التحذير من كتمان العلم الشرعي النافع وبيان عقوبة من فعل ذلك ٢٥٢
- بيان وجوه البر ٢٥٥
- الأمر بالقصاص وإباحة العفو وبيان فائدة القصاص ٢٦٠
- الوصية وبعض أحكامها ٢٧٤
- آيات الصيام وتخللها آية الدعاء ٢٨٤
- آية في الحث على الدعاء تخللت آيات الصيام وبيان بعض ما يتعلق بها ٢٩٧
- تتمّة آيات الصيام ٣٠٠

- التحذير من أكل أموال الناس بالباطل والترهيب من الرشوة ٣١١
- ذكر الأهلّة والأمر بإتيان البيوت من أبوابها ٣١٣
- الأمر بقتال من يقاتلوننا والنهي عن الاعتداء ٣١٦
- الحث على الإحسان والنفقة في سبيل الله عزّ وجل والتحذير من الإلقاء باليد إلى التهلكة ٣٢٣
- الحج والعمرة والأمر بإتمامهما وبيان بعض أحكام الإحصار والتمتع ٣٢٧
- مزيد بيان لبعض أحكام الحج ٣٣٨
- الأيام المعدودات وحكم من تعجل فيها ومن تأخر والحث على تقوى الله عزّ وجل ٣٥٣
- بيان بعض أحوال الناس المفسد منهم والمصلح، والطالح منهم والصالح ٣٥٥
- الأمر بالدخول في الإسلام كله والتحذير من اتباع خطوات الشيطان والتذكير ببعض مشاهد القيامة ٣٦٠
- الآيات التي آتاها الله عزّ وجل بني إسرائيل ٣٦٢
- تزيين الحياة الدنيا لأهل الكفر وبيان سخريتهم من المؤمنين ٣٦٣
- اختلاف الناس بعد معرفتهم الحق فمنهم من يتبعه ومنهم من يُعرض عنه ٣٦٦
- التذكير بالابتلاء وأنه سيكون ٣٦٩

- بيان بعض وجوه النفقة ٣٧١
- بعض وجوه الخير في القتال في سبيل الله ٣٧٢
- القتال في الشهر الحرام ٣٧٤
- الإجابة على بعض الأسئلة المتعلقة بالخمير والميسر والنفقة
- وبعض أمور اليتامى ٣٧٧
- النهي عن الزواج بمشركات والنهي عن تزويج المشركين ٣٨٢
- بعض أحكام المعاشرة الزوجية ٣٨٤
- بعض أحكام الأيمان ٣٩٠
- بعض التفصيل في المؤاخذه بأعمال القلوب ٣٩٤
- حكم الإيلاء ٣٩٦
- بعض أحكام الطلاق والمطلقات والعدة والخلع ٤٠٠
- نهى الأولياء عن إعضال النساء إذا أردن الرجوع إلى أزواجهن .. ٤٠٧
- بعض أحكام الرضاعة وأجرة المرضعة ٤١٠
- عدة المتوفى عنها زوجها ٤١٦
- جواز التعريض بخطبة المتوفى عنها زوجها ومنع التصريح بذلك
- وكذا منع العقد عليها وتحريمه في زمن عدتها ٤٢٣
- بعض حقوق المطلقة غير المدخول بها ٤٢٦
- متعة المطلقة قبل الميسر ٤٢٦
- المطلقات وحقوقهن في الصداق ٤٢٩

- الأمر بالمحافظة على الصلوات والصلاة الوسطى وشيء من الحديث عن صلاة الخائف ٤٣٣
- آية منسوخة في عدة المتوفى عنها زوجها وإعادة التذكير بمتعة المطلقات ٤٣٥
- قصة الذين خرجوا من ديارهم وهم ألوف حذر الموت ٤٣٧
- قصة طالوت وجالوت ٤٤١
- تفضيل بعض الرسل على بعض وبيان اختلاف الناس بعد مجيئهم ٤٥٥
- الحث على الإنفاق ٤٥٨
- آية الكرسي ٤٥٩
- قوله تعالى: ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾ ومعنى الطاغوت ومعنى العروة الوثقى ٤٦٢
- قصة الذي حاج إبراهيم في ربه ٤٦٨
- قصة الذي مرَّ على قرية وهي خاوية على عروشها ٤٧٠
- الخليل إبراهيم عليه السلام يطلب المزيد مما تظمن به القلوب ٤٧٢
- الحث على الإنفاق في سبيل الله عزَّ وجل والنهي عن المن والأذى ٤٧٤
- مثلٌ مضروب للمنفق المنان والمنفق المؤذي ٤٧٧

- مثلاً مضروب لأهل الإيمان المنفقين المحتسبين الذين يريدون وجه الله عزَّ وجل ٤٧٩
- مثلاً آخر مضروب للتحذير من المن والأذى والرياء والكفر بعد الإسلام ٤٨٢
- الحث على النفقة من طيب الكسب ٤٨٦
- وعد الله عزَّ وجل المنفق بالمغفرة والفضل ٤٨٩
- وعد الشيطان الخسيس بالفقر وأمره بالفحشاء ٤٨٩
- فضل الحكمة وبيان أن المتفضل بها هو الله عزَّ وجل ٤٩٠
- بعض أحكام النذور ٤٩١
- فضل صدقة السر والعلن ٤٩٣
- الحث على الإنفاق والإخلاص فيه وبيان أن الهداية من الله عزَّ وجل ٤٩٤
- مزيد من الحث على الإنفاق وبيان بعض صفات المستحقين الذين تعظم الأجور بإعطائهم ٤٩٧
- التحذير من الربا وبيان عقوبة آكله ٥٠٠
- مزيد من التحذير من الربا وبيان حرب الله ورسوله للمرايين ٥٠٧
- الحث على إنظار المعسر وإمهاله ٥٠٩
- ما ورد في آخر الآيات نزولاً في كتاب الله عزَّ وجل ٥١١
- آية الدين ٥١٣

- شيءٌ عن الرهن ودليل لمن قال إن كتابة الدين على الاستحباب. ٥٢٣
- قوله تعالى: ﴿لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِنْ تُبَدُّوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخَفُّوهُ يَحَاسِبْكُمْ بِهِ اللَّهُ فَيَغْفِرْ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (٢٨٤) وبيان القدر المنسوخ منها. ٥٢٥
- آخر آيتين من سورة البقرة وبيان شيء من فضلها وما فيها من أحكام. ٥٢٨
- الفهرس. ٥٣٤

